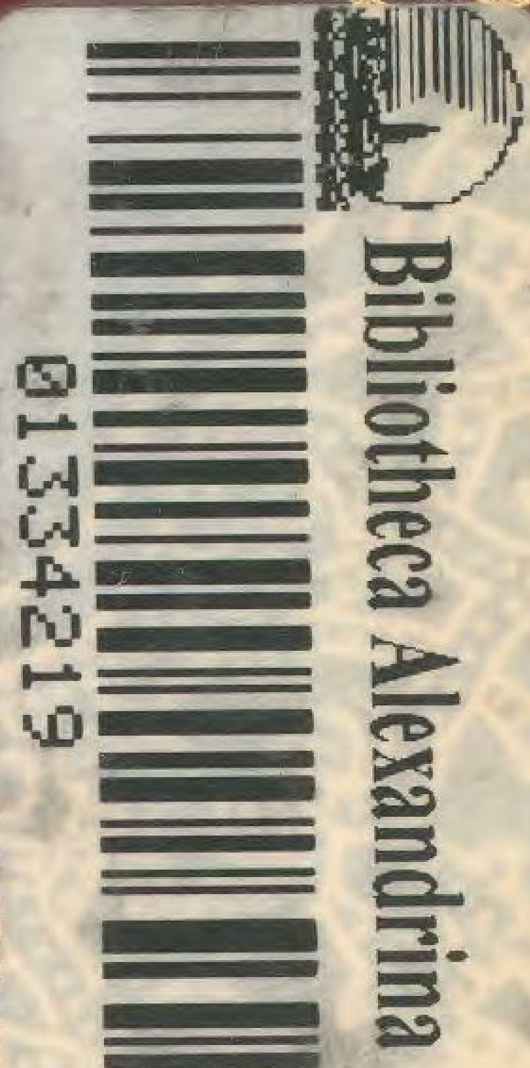
تاريخ لبنان

منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر

تأليف
الدكتور فيليب حتي

دار الثقافة
بيروت - لبنان



تاريخ لبنان

تاريخ لبنان

منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر

تأليف

الدكتور فيليب حتي

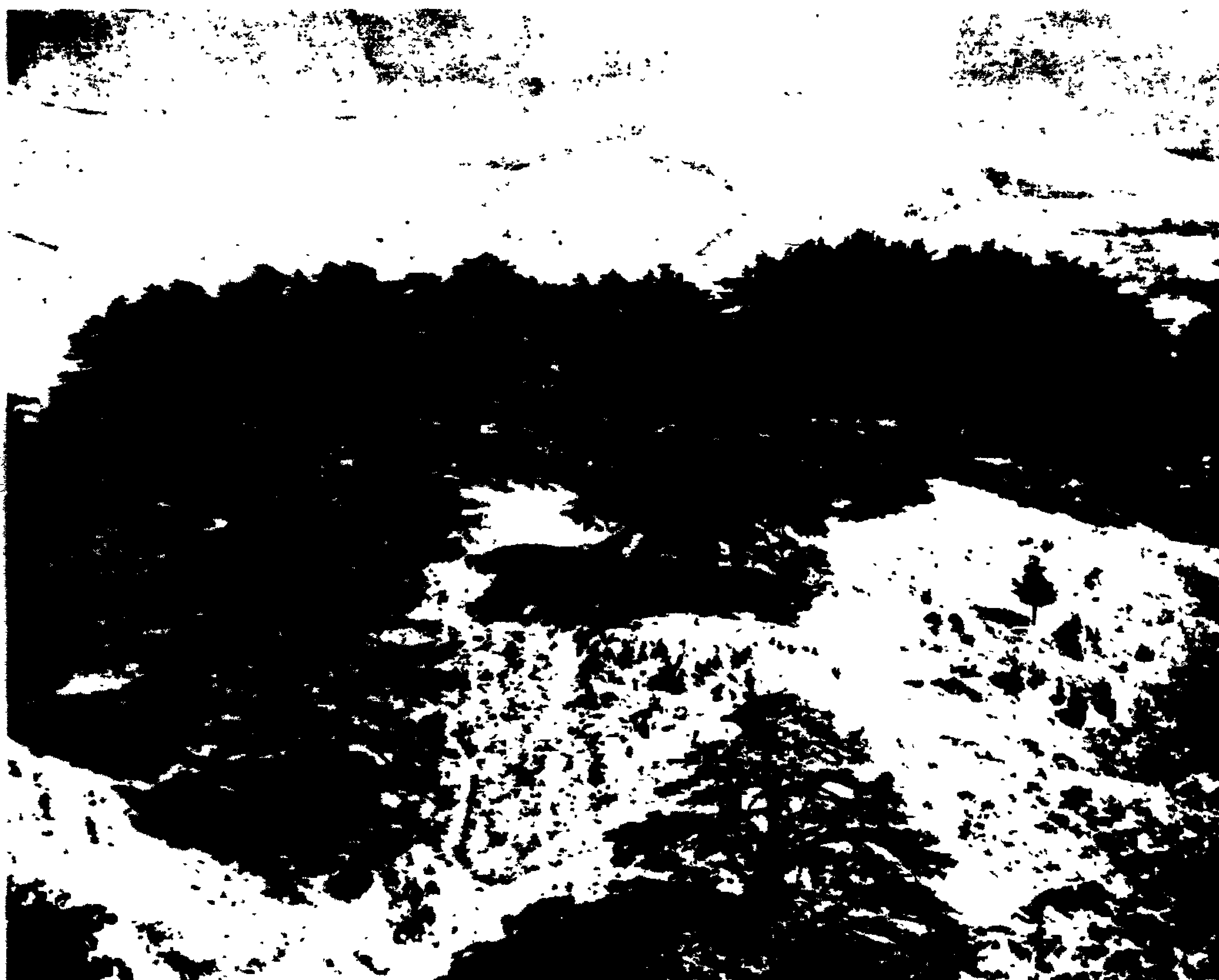
ترجمة: الدكتور أنيس فريحة — مراجعة: الدكتور نقولا زيادة

أشرف على تنقيح هذه الطبعة وتحريرها

الدكتور جبرائيل جبور

دار الثقافة

بيروت - لبنان



أرز لبنان

الإهداء

الى حفيدي الصغير بايلي فيليب ويندر راجيا أنه عندما يكبر سيجد في هذا المؤلَّف مادة عن موطن جده تستأثر باهتمامه ورعايته وآملاً أنه سيحرص هو أيضاً على أن يخدم يوماً لبنان وأهله .

مقدمة الطبعة الثانية

إنّ نفاد نسخ الطبعة الأولى من هذا الكتاب أتاح للمؤلّف الفرصة لمراجعته مراجعةً انتقادية مدقّقة . حاول في أثنائها إصلاح ما فيه من أغلاط مطبعية وغير مطبعية . ثم أضاف مختصراً بما جدّ في لبنان من الحوادث الهامة في السنوات الأخيرة . ولي الأمل ان الكتاب بطبعته الجديدة يفي بحاجات طالب العلم في المدارس وطالب المعرفة من أبناء البلدان العربية .

ولعلّ القارىء يلذّ له أنْ يعلم أن الطبعة الانكليزية الأولى من هذا الكتاب بإشراف شركة مكملان في لندن وسانت مارتن في نيويورك نفدت قبل الطبعة العربية بكثير برغم أن عدد نسخها يفوق عدد نسخ الطبعة العربية الأولى .

برنستون في آذار سنة ١٩٧٢ فيليب حتّي

مقدمة الطبعة الأولى

ان جمع الاخبار ووصف الاحداث التي حدثت عبر العصور التاريخية في البقعة التي نعرفها الآن بالجمهورية اللبنانية ، وذكر المآتي المجيدة والخدمات الجلى التي قدمتها الشعوب المتتالية التي توطنت لبنان الى الحضارة الانسانية ، نقول ، ان جمع هذه الأخبار الخطيرة وتدوين هذه الاحداث ذات المغزى التاريخي في قصة واحدة متسلسلة محاولة جريئة يقوم بها المؤرخ . ان لهذه المنطقة ، الى حد بعيد ، شخصية خاصة بها فرضتها طبيعتها الجبلية وقربها من البحر واتجاهها نحو الغرب وخصائص ساكنيها . وقد يتساءل امرؤ عن معنى قولنا « أخبار خطيرة واحداث ذات مغزى تاريخي » ما دام الكلام عن بلد صغير كلبنان ، فنقول ان الاحداث التي لها صلة وثيقة بما يجري في لبنان المعاصر،والاحداث التي كانلها اثر في السياسة العالميه لأحداث على جانب عظيم من الخطورة .وعليهفقدانتقينا مناخبار التاريخ، وفسرنا منها تلك الامور التي نحسبها على غـاية من الاهمية لتعليل مشاكل المنطقة المعاصرة ولتفهم الاحداث الجارية ولربطها بالشؤون العالمية. اما في الاعصر القديمة فقد كانت احداث لبنان التاريخية وثيقة الصلة بتاريخ مصروبابل واشور وبلاد الكلدان وفارس ومقدونيا وروما . اما في العصور المتوسطة فقد كان تاريخ لبنان جزءاً من تاريخ البزنطيين وتاريخ العرب والمسلمين ، اما في العصور الحديثة فقد كانتاريخه جزءاً من تاريخ الاتراك العثمانيين والافرنسيين . فقصة لبنان عبر التاريخ اذن قصة العالم المتمدن ، ولكن على نطاق صغير . ولكن بالرغم من اهمية هذه القصة فاننا لا نعرف ان مؤرخاً اخذ فترة من فتراتتاريخ لبنان المديد المجزأ — لا سيما الفترة الحديثة — بالدراسة العميقة المركزة . وقد نستثني من تعميمنا هذا تاريخ الفينيقيين الذي تناوله علماء التاريخ في الغرب بالدرس المفصل،وذلك بفضل علاقة فينيقية بتاريخ اسفار العهد القديم .اما نحن فقد خصصنا قسطاً كبيراً من هذا المؤلف لدراسة الفترة الحديثة .

ان المادة التاريخية في هذا المؤلف مستقاة بالدرجة الاولى من المصادر الاولية،

ومعززة بآخر ما توصل اليه البحث التاريخي الحديث. غير ان عرض هذه الحقائق يهدف الى وضعها في متناول طلاب التاريخ وفي متناول القراء العاديين لا الاخصائيين في التاريخ . وهذا ما فعلناه عندما وضعنا مؤلفينا في « تاريخ العرب » و « تاريخ سورية » .

وليست هذه البقعة من الارض التي يعنى المؤلف بتاريخها غريبة عنه . فهي الموطن الاول الذي نشأ فيه، والذي لم ينقطع عن زيارته له او عن الاتصال المستمر باهله . واذا كان الزعم بان معرفة الماضي ضرورة حتمية لفهم الحاضر فلا شك ان معرفة الحاضر معرفة حسنة ، وعن كثب ، ضرورة لفهم الماضي وادراك معنى الاحداث التاريخية ادراكاً واعياً .

ولقد استبحنا لانفسنا حرية التصرف عند عرض القضايا التاريخية المعقدة ، او الامور التي هي موضع جدل ونقاش، وذلك حباً بالاختصار والوضوح. ولكننا اشرنا في الهوامش الى الكتب المصادر التي لا تعزّز الاستشهاد وحسب ، بل من شأنها ان تكون عوناً للقارىء الذي يطلب المزيد . وقد درجنا على ان نذكر عنوان الكتاب الكامل واسم مؤلفه عند اول مرة نأتي على ذكره . اما في الفهرست فاننا نذكر الكتاب تحت اسم المؤلف . وتجدر الاشارة الى ان تاريخ نشر بعض الكتب التي اشرنا اليها مذكور بالسنة الهجرية (التي تبدأ ، حسب التاريخ الميلادي ، سنة ٦٢٢).

وقد راجع الاب المحترم ج. فرنكلن ايونغ من جامعة فوردهام المادة التي تعنى بالفترة السابقة للتاريخ المدون (الفصلين الرابع والخامس) مراجعة نقدية دقيقة . اما الفصول التي تعنى بتاريخ الفينيقيين (السادس الى الثامن) فقد راجعها الاستاذ روبرت هـ .بفيفر من جامعة هارفرد. اما القسم الذي يتناول تاريخ الفترة الاغريقية الرومانية (الفصل الحادي عشر الى السادس عشر) فقد راجعها المرحوم الاستاذ الن جونسون من جامعة برنستون. وقد راجع زميلي الاستاذ لويس ف. توماس القسم الذي يتناول تاريخ العثمانيين (الفصل الرابع والعشرين الى الفصل السادس والثلاثين) . واني بهذه المناسبة ارفع جزيل شكري وامتناني الى هؤلاء العلماء الافاضل ، واطلب الى القارىء الكريم ، اذا شعر ان هنالك نقصاً او خطأً في

التفسير والتعليل الا ّ يعتبر احداً منهم مسؤولا عن هذا النقص او الخطأ .وقدكان للعون الذي اسدته اليّ زوجتي الفضل في اتقان العمل وسرعة انجازه . ومن جملة طلابي الذين قدموا بعض الاراء والمقترحات المفيدة اذكر ، وبكثير من الشكر ، قيصر فرح وجونجوزف وروبرت و. كروفرد وابراهيم ابو لغد وريتشارد ن فردري ونورمان ر. بنت وبيتر ب. ادموز وجورج ت. سكانلون . وعليّ ان انوّه بالعون الذي قدّمه اليّ كل من الاميرموريس شهاب مدير الآثار في الجمهورية اللبنانية والاستاذ ديمتري برامكي مدير المتحف الاركيولوجي في الجامعة الاميركية والدكتور جورج ميلز من الجمعية الاميركية للنميات . فان الحصول على كثير من الرسوم في هذا المؤلف يعود الى هؤلاء العلماء الافاضل الذين ارفع اليهم شكري وتقديري .

نيسان (ابريل) ١٩٥٦ فيليب حتي

المشتركون في اخراج هذا الكتاب

المؤلف : الدكتور فيليب حتي

ولد الدكتور فيليب حتي في شملان (لبنان) سنة ١٨٨٦ ، ودرس في الجامعة الاميركية في بيروت : فنال شهادة بكلوريوس في العلوم منها سنة ١٩٠٨ ، ثم سافر الى اميركة والتحق بجامعة كولومبية ونال الدكتوراه منها في اللغات الشرقية وآدابها سنة ١٩١٥ . وعين بعد تخرجه استاذاً فيها .

وعندما انتهت الحرب العظمى الاولى عاد الى وطنه بطلب من الجامعة الاميركية وعين استاذاً لتاريخ العرب واستمر في هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٦ . ثم التحق بجامعة برنستون استاذاً لتاريخ العرب اولا ، ثم رئيساً لقسم الدراسات الشرقية فيها . وظل في هذا المنصب حتى سنة ١٩٥٤ ، حين احيل على التقاعد .

ولم ينقطع عن العمل بعد ذلك ، بل عين استاذاً زائراً في جامعة هارفرد . وهو الآن عضو في مجلس امناء جامعة بيروت الاميركية في الولايات المتحدة ، ورئيس لجنة التربية في هذا المجلس .

له من المؤلفات : تاريخ العرب المطوّل (مترجم الى العربية)، وتاريخ العرب المختصر (مترجم الى العربية) وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين .

المترجم : الدكتور انيس فريحه : استاذ اللغات السامية في الجامعة الاميركية ببيروت له مؤلفات عديدة منها : نحو عربية ميسرة ، اسمع يا رضا . اسماء القرى والمدن اللبنانية وتفسير معانيها . الامثال اللبنانية العامية (في مجلدين) . حضارة في طريق الزوال : القرية اللبنانية اللهجات واسلوب دراستها . تبسيط قواعد اللغة العربية على اسس جديدة : اقتراح ونموذج ، وغيرها .

المراجع : الدكتور نقولا زياده : يحمل شهادة الدكتوراه من جامعة لندن . عمل استاذاً في المدارس الثانوية في فلسطين وفي الكلية الرشيدية والكلية العربية .

ودرس في جامعة كمبردج . وهو الآن استاذ التاريخ العربي الحديث في الجامعة الاميركية ببيروت .

وضع عدداً كبيراً من المؤلفات بالعربية والانكليزية . منها في الاولى : رواد الشرق العربي في العصور الوسطى ، والرحالة العرب، وصور من التاريخ العربي، وليبيا من الاحتلال الايطالي الى الاستقلال . وفي الانكليزية: سورية ولبنان، ومصير شمال افريقية ، والسنوسية ، وسورية في زمن المماليك .

المشرف على تحرير هذه الطبعة : الدكتور جبرائيل جبور

رئيس دائرة اللغة العربية في الجامعة الأميركية في بيروت (سابقاً) وهو الآن أستاذ فخري . له عدة مؤلفات في الأدب العربي منها عمر ابن أبي ربيعة في ٣ أجزاء (عصره ، وحياته ، وحبه وشعره) وابن عبد ربه وعقده . وقد شارك في تأليف النسخة العربية من كتاب تاريخ العرب المطوّل للمؤلف وترجمتها .

القسم الأول

عصر ما قبل التاريخ

الفصل الأول

الطابع المميز : الجغرافي والتاريخي والحضاري

عند مصب نهر الكلب – على مسافة بضعة اميال من بيروت شمالا – حيث يغسل الجبل قدميه عند البحر خلّف لنا الزمن على صفحة الصخر الكلسي تسعة عشر نقشاً كتابياً بلغات ثمان بدءاً بالمصرية القديمة ، فالاشورية، فالبابلية ، فاليونانية ، فاللاتينية ، واخيراً بالافرنسية والانكليزية والعربية . هناك عند هذا الممر الضيق كان اهل لبنان بعددهم القليل يصمدون في وجه الاجنبي المجتاح ، وهناك كانت القلة العددية تجمّد الكثرة ان لم تكن تفقدها كل قيمة عسكرية . وكان اول من خلد ذكر مآتيه العسكرية نحتاً او كتابة رعمسيس الثاني ، عدو الحثيين ، وذلك في اوائل القرن الثالث عشر قبل المسيح . ثم سار في اعقابه موكب من الغزاة : اسرحدون الاشوري قاهر مصر السفلى ، ونبوخذ نصر البابلي مخرب مملكة يهوذا، والسلطان سليم الذي ضم سورية ومصر الى الامبراطورية العثمانية ، والقائد الانكليزي ألنبي ، والقائد الافرنسي غورو . والى جانب هؤلاء نلتقي بالامبراطور « ماركوس اوريليوس انطونينوس الذي لا يقهر » وهو كركلا احد الاباطرة السوريين الذين تسنموا عرش رومه ، وابن عم الامبراطور سبتموس سفيروس الذي ولد ابوه في لبنان . ان هذا الامبراطور خلف لنا ايضاً نقشاً لاتينياً يأتي فيه على ذكر الاعمال المجيدة التي قامت بها الكتيبة الغاليّة الثالثة . ولكن ليس كل العظماء الذين اجتازوا المضيق عند هذه الصخرة سجلوا اسماءهم . فان الاسكندر المقدوني مرّ من هناك ، وصلاح الدين الايوبي مرّ بالصخرة ولكنهما لم يتركا لنا اثراً كتابياً . وفي السنة الواقعة بين ٨٦٠ و ١٨٦١ جاءت الحملة الفرنسية التي بعث بها نابليون الثالث للمساهمة في احلال السلام بين الموارنة والدروز ، ولكن القائد ، عوضاً عن ان يكلّف نفسه عناء نحت صخرة جديدة لكتابة نقش يخلد اعمال حملته ، فانه محا نقشاً كتابياً مصرياً (بالحرف الهيروغلوفي) وجعل نقشه مكانه . وفي سنة ١٩١٨ سجل الجيش البريطاني الزاحف من الجنوب نقشاً آخر

ذكر فيـــه اعماله الحربية . وفي عام ١٩٣٠ اجري بعض التعديل في النص بحيث اصبح يشمـــل الجيش الاسترالي والنيوزيلندي والخيالة الهنود والجيش الفرنسي المغربي المعروف بالصباهيين وقوات الجيش العربي التابعة للملك حسين . ولكي لا يقال بان الافرنسيين تخلفوا عن ركب القواد العظام الذين تركوا لنا نقوشهم على صخرة نهر الكلب،فانهم قاموا عام ١٩٢٠ بكتابة نقش نوهوا فيه بالاعمال الحربية التي قام بها الجيش الفرنسي ـ بما في ذلك الفرقتان الجزائرية والسنغالية ـ اشارة الى احتلاله دمشق . وينتهي عهد هذه النقوش بنقش عربي اقامه لبنان على صفحة صخر تخليداً لذكرى جلاء آخر جندي من جنود عهد الانتداب ، وذلك في ٣١ كانون الاولسنة ١٩٤٦ . فهل ثمة في الدنيا متحف كهذا المتحف المقام على صخرة في العراء يشتمل على كتابات وتماثيل للآلهة وللملوك - كتابات وتماثيل تفتح امام ناظري الزائر المتفرج كوة صغـــيرة يطل منها فيستعرض مواكب هذا التاريخ المتقطع المتنوع الألوان ؟

لقد ازدحمت حوادث التاريخ الخطـــيرة في لبنان ، لبنان الغني بالزمن الصغير بمساحته ، كما لم تزدحم في اية بقعة اخرى من بقاع الدنيا مساحتها مساحة لبنان. فقد صاحب التاريخ لبنان منذ اقدم العصور ولا يزال التاريخ يصاحبه ويلازمه . فانه قبل ان عُرِفت هذه البقعة باسمها الحالي ـ لبنان ـ ومنذ الوف السنين قبل ان عرف الانسان كيف يضبط الزمن ويقيده باشهر وسنين ، كان سكان الكهوف يسكنون على شطآنها وفي سهولها الداخلية . فقد وجد المنقبون عن آثار الانسان الى جانب نقوش صخرة نهر الكلب عند طرف الرأس الداخـــل في البحر بقايا بشرية تدل على ان هذه المغاور في الصخر كانت في العصر الحجري الاول ـ الذي كان يتميز بغزارة الامطار وشدة البرد ـ ملجـــأ للانسان ، قبل ان اصبح انساناً بالمعنى الصحيح لهذه اللفظة ، يعينه على مصارعة الحياة .

ان تاريـخ لبنان المدون تاريخ مديد يشمل فترة من الزمن مدتها خمسة آلاف سنة ـ اي اطول من تاريخ الولايات المتحدة بثلاثين ضعف ـ فاي شعب يحق له ان يدعي انه وريث العصور كلها كما يحق للشعب اللبناني ان يدّعي ؟

ان رئيس الجمهورية اللبنانية الحالي ؛ الذي انتخب في شهر ايلول عام ١٩٧٠

ليتولى شؤون قطعة من الارض مساحتها قرابة ٣٩٧٧ ميلا مربعـــاً ، يستطيع ان يدعي بأن اسلافه في الحكم كانوا مفوضين ساميين افرنسيين، ومتصرفين عثمانيين، وولاة عربا ، وملوكا صليبيين ، وسفراء بيزنطيين ورومانيين يمثلون البابا، وحكاماً اشوريين وبابليين ، ونواباً عن فراعنة مصر . والتلميذ اللبناني الصغير الذي يود ان يجتاز امتحان الدراسة الابتدائية عليه ان يتعرف الى الملك فيصل الاول بن الحسين والسلطان عبد الحميد الثاني ونابليون بونابرت والامير فخر الدين المعني وتيمورلنك وبلدوين الاول ومعاوية وهرقل وخالد بن الوليد وبومباي وداريوس وسرجون الثاني وتحوطمس الثالث ! لا جدال في ان لبنان يستطيع ان يفخر على اية قطعـــة جغرافيةمساحتها مساحته ليس بعددالحوادث الجسام التي مثلت على ارضهوحسب بل يستطيع ان يباهي بمعنى هذه الحوادث وقيمتها واهميتها العالمية . قد يصح ان ننعت لبنان بانه ، من حيث الجغرافية ، بلد ميكروسكوبي ولكنه من حيثالتأثير، بلد كوني ، لان تاريخه في الواقع جزء كبير من تاريخ عالمنا المتحضّر .

طبيعة ارضه الجبلية ، وقربه من البحر ، وموقعه في مركز متوسّط في البلدان التي كانت مهد الحضارة ، وموقعه عند مفترق الطرق العالمية ، وكونه جزءاً من الطريق الدولية التي كانت تربط بين قارات ثلاث ، هذه وغيرها كانت عوامل ذات اثر بعيد المدى في تكوين دوره التاريخي. فقد كان بحر لبنان ، البحرالابيض المتوسط ، اول طريق بحري مرّت عليه بضائع الشعوب المتحضرة لتتوّزع على بلدان شواطئه ، بضائع مـــادية وبضائع ثقافية . وكانت الشعوب الـــتي انشأت الحضارة الاولى تستوطن وادي الرافدين ووادي النيل وكان لبنـــان يتوسطهما . هذه البقعة الجغرافية التي يُكوّن لبنان فقارها تتجه نحو البحر الابيض المتوسط الذي اعطاه لبنان اكثر مما اخذ عنه . ووراءه تقع سهول سورية التي تمتـــد الى الصحراء فإلى اواسط آسية. والى شماليه كانت تقع مواطن الحثيين حيث نشأاقدم مركز حضاري للشعوب الهندوجرمانية . والى جنوبيه تقوم فلسطين حيث ولدت الديانة اليهودية ثم المسيحية . ولتفهم تاريخ هذه المنطقة تفهما واعياً تجدر الاشارة الى حقيقتين تاريخيتين : اولا ان ساحل هذه المنطقة وسهلها الداخلي ــ البقاع ــ كانا ابداً مركزاً للاتصال بالعالم الخارجي ولتبادل الحضارات وللتفاعل الفكري وللتغير الدائم . والحقيقة الثانية هي ان اعالي هذه المنطقة ، التي يصعب الوصول

اليها احياناً ، كانت منطقة منعزلة نائية عما يجري في العالم . فحافظ اهلوهـــا على عزلتهم وعلى اكتفائهم الذاتي وعلى حريتهم واستقلالهم وعلى مناعتهم ضدّ كل شيء يأتيهم من العالم الخارجي .

ان اقدم شعب استوطن لبنان ، نعني اقدم شعب يعرفه التاريخ ، كان الشعب الكنعاني السامي الذي انتشر ايضاً في الاطراف السورية المجاورة وفي كثير من بقاع فلسطين . والحضارة الكنعانيـــة اساس ومرتكز قامت عليهما الحضارة العبرية في فلسطين والحضارة الآرامية في سورية . فان كلا الشعبين ، العبران والآراميين ، جـــاءا البلاد الفلسطينية والسورية في عصور تالية ، وكلاهمـــا اخذا عن حضارة الكنعانيين واقتبسا الكثير قبل ان تمكنا بدورهما ان يعطيا العالم شيئاً. ولقد اعترف الناس منذ اقدم الاجيال بفضل ما قدّمه العبران للحضارة العـــالمية ، ولكن ظلّ الناس حتى الفترة الاخيرة يجهلون حقيقة ما قدّمه الكنعانيون للحضارة العبرية . فان العبران الذين استقروا بين الكنعانيين ـ الذين سمّاهم الاغريق فيما بعد الفينيقيين ـ اقتبسوا الكثير عنهم في الدين واللغة والفنون وفن العمارة والادب والزراعـــة والصناعة . فقد كانت كنعان في الالف الثالث والثاني قبل المسيح جسراً حراً تمر عليه البضائع المصرية في طريقها الى بابل ، والبضائع البابلية في طريقها الى مصر . ولم يقتصر الامر على البضائع المادية بل تعدّاها الى انتقال الافكار والتيـــارات الحضارية .

ولم يقتصر اثر الحضارة الكنعانية على الشعبين العبراني والآرامي اللذين بدورهما اثّرا في حضارة الشرق كله بل تعدّاهمـــا الى الشعب اليوناني الذي بدوره اثرّ في حضارة الغرب كلها، وبذا اصبحت هذه الشعوب الثلاثة وريثة الحضارة الكنعانية. وحسبنا ان نشير الى تلك الرموز السحرية ـ حروف الهجاء الفينيقية ـ التي تعد بحق اعظم اختراع حققه الانسان. بواسطة هذه الرموز يستطيع الانسان ان يسجل افكاره وعواطفه ويبقيها بعده ارثاً للخلف. وبواسطة هذه الحروف شاد الاغريق من كنوز عبقريتهم الادبية والفلسفية صرحاً لا يقدر بثمن . وقد اخذ الرومـــان هذه الحروف الهجائية عن الاغريق ، فدوّنوا بها قوانينهم المشهورة التي اتحفوا بها العالم المتمدن . وفي الوقت ذاته كان الشعب الآرامي ـ سكان سورية القدماء ـ

ينشرون هذا الحرف الفينيقي بين الفرس والهنود والارمن . واهم من هـذا ـ بالنسبة الينا ـ انتشار هذا الحرف وشيوعه بين العبران الذين سجلوا به ادبهم الديني الخالد ـ اسفار التوراة ـ وبين العرب اصحاب لغة القرآن الكريم . وحسب اللبنانيين القدماء فخراً واعتزازاً انهم خلقوا هذا الحرف ، ولو انهم لم يقدموا للتراث الانساني غير هـذا الاختراع العظيم لظلوا بحق وجدارة يتبوأون مركزاً مرموقاً في تاريخ الفكر البشري .

انشأ الفينيقيون على جانبي البحر الابيض المتوسط الشمالي والجنوبي مستعمرات كانت لهم مراكز اشعاع حضاري . وكان مرتكزهم على الشاطىء الجنوبي مدينة قرطاجة ربيبة صور ومنافسة رومة في السيطرة على اواسط البحر المتوسط . وكان القرطاجيون يحسبون انفسهم كنعانيين . وفي الواقع انهم كانوا يعرفون بالكنعانيين حتى القرن الخامس بعد المسيح . وقد صنع الفينيقيون مراكب من خشب الارز ، واجتازوا بها اعمدة هرقل واقاموا لانفسهم مستعمرات غربيها وبذلك شقوا الحجب التي كانت تفصل بين العالم القديم المعروف ، وبين العالم المجهول وراء البحار . ولا مراء بأن اكتشاف المحيط الأطلسي يعد انتصاراً من اعظم الانتصارات وابعدها اثراً في تطور الحضارة .

٢

لم يكن لبنان جزءاً من العالم الذي بدأ فيه سير التاريخ وحسب ، وانما يمكن اعتباره ، تجوزاً ، جزءاً من تلك البقعة التي يطلقون عليها اسم الارض المقدسة ، التي تغنى انبياء وشعراء بمجدها وبجمال ارزها وجودة نتاجها . قممها العالية المغطاة بالثلوج كانت ولم تزل مصدر وحي روحي للكتّاب ، ومعاقلها معتكفاً روحياً للنّساك والعباد . جماعات من صيدا وصور امّوا الجليل ليسمعوا عظات السيد المسيح ولينتفعوا بعجائبه [١] ، وقد زار المسيح ذاته شاطىء لبنان الجنوبي [٢] . وقضى بولس الرسول اسبوعاً في صور وعرج على ميناء صيدا حيث زار اصدقاء له [٣] .

(١) انجيل مرقس ٣ : ٨ وانجيل لوقا ٦ : ١٧ .

(٢) انجيل متى ١٥ : ٢١ ، ومرقس ٧ : ٢٤ ، ٣١ .

(٣) اعمال ٢١ : ٣ ـ ٤ ، ٢٧ : ٣ .

واسم التوراة في الاغريقية Ta Biblia وهـــذا الاسم يُردّ في اصله الى كلمة ببيلوس اي جبيل [١] .

وكما ان شبه الجزيرة العربيـــة تتميز بصحرائها ، ومصر بنيلها ، وبلاد ما بين النهرين (اي العراق القديم) بفراتها ودجلتها ، فـــان لبنان يتميز بجباله . جبال لبنان ميزته الجغرافية الخاصة ، وجبال لبنان عامل حيوي في حياته . فان موقعها يؤثر تأثيراً بعيد المدى في مناخه وفي معدل سقوط المطر . كما ان ارتفاعها يعـــد عاملا في تنوع نباته وحيوانه ومناظره . والى جانب هذا فان تكوين الجبـــال الطبيعي كان عائقـــاً يحول دون اتصال لبنان بالبلدان الشرقية الداخلية وعاملا جغرافياً يجعل اتجاهه نحو بلدان الغرب . فلا غرو ان وجدنا مستوطنيه في الغالب يتجهون بأنظارهم غرباً أكثر مما يتجهون شرقاً . ولبنان ، من مجموعـــة البلدان الواقعة بين مراكش غرباً والعراق شرقاً، هو البلد الوحيد الذي ليس فيه صحراء ولا بين مستوطنيه قبائل رحل او متبدية . وفضلا عن هذا فان طبيعته الجبلية قد تركت اثرها الشديد في عزم سكانه ونشاطهم . وكما ان النيل عامل توحيد بين جزئي مصر السفلى والعليا ، وكما ان الفرات ودجلة يجمعان العراق في وحدة جغرافية نجد ان الامر على نقيض هذا في لبنان حيث الجبل والوادي يفصلان بين مختلف سكانه ويجعلان منهم وحدات منعزلة : فقد كانت فينيقية فيما مضى كناية عن مدن مستقلة في الحكم والادارة مما جعل البلاد مجزأة الى مجموعات قومية او شبه قومية تشعر بالاستقلال وبالاكتفاء الذاتي حتى يومنا هذا . ومنذ اقدم العصور التاريخية نجد ان هذه البقعة ــ لبنان ــ كانت تستهوي وتجذب اليها سيلا من المهاجرين ــ من الشعوب المتوسطية والسامية والهنـــد وجرمانية ــ . وقد كانت هذه البقعة بمثابة جسر او ممر ضيق يربط بين اجزاء عظيمة من الارض ذات اهمية كبيرة ، وفي الوقت ذاته كانت ملجأ يحمي الجماعات ويعزلها . اما هذا الجسر ، او الممر الضيق ، فقد كان الشاطىء والسهل المرتفع (البقاع) الواقع بين سلسلتي لبنان الغربي ولبنان الشرقي ، واما الملجأ فقد كان شواهق ولبنان وقممه . وسكان الممر ، اي سكان الساحل والبقاع ، فقـــد كانوا بقايا طبقات بشرية : طبقة تعيش وتبني على انقاض طبقة سبقتها . امـــا سكان الجبال فقـــد كانوا اشبه بالفسيفساء المتنوعة الالوان حيث تعيش الجماعة

(١) راجع فريحة ، انيس : اسماء القرى والمدن اللبنانية (جونيه ، لبنان ، ١٩٥٦) ص ٨٩ (المترجم) .

الواحدة الى جانب الاخرى . وهو تكوين اجتماعي طبيعي يشبه التكوين الاجتماعي العام في الشرق الادنى. غير ان داخلية لبنان تعكس هذا التركيب الاجتماعي بالوان زاهية واضحة المعالم. وفي هذه اللوحة التي تشبه الفسيفساء نجد جماعة تعيش الى جانب جماعة اخرى وفي الوقت ذاته تحافظ على خصائصها الاجتماعية والحضارية والعرقية .

اما الجبل ، بارضه الوعرة الصعبة وبمناخه المنشط ، فانه يتحدّى ساكنيه ، وهم الذين جاءوه زرافات متعاقبة تحدوهم روح المغامرة . لذا تجدهم اهل عزم وثبات واقـدام يغالون بالاستقلال ويستميتون في سبيل الحرية . هنا في الجبل تنشأ في نفوس الناس نظرة استقلاليـة نحو الحياة ، وهنا تنشأ الفردية والصلابـة وخصائص اخرى ممتـازة يتصف بهـا الجبليون في كل بقعـة من بقاع الارض . وعندما يتكلم اللبناني عن نفسه يقول « نحن اهل الجبل » وهو قول يعتزّ به ونسب يفخر به . فقد كان لبنـان ، بفضل اوديته وقممه ، ملجأً عبر الاجيال لكل اصحاب عقيدة تخالف عقيدة الجماعة التي يعايشونها، وحمىً لجماعات من الاقليـات المضطهدة . فقد كان النساك من النصارى والمتصوفة من المسلمين والزهاد المتعبدون من الدروز يؤثرون مغاوره وكهوفه على ملاذّ الدنيا . فهنـاك عدد كبير من المغاور التي كرست للعذراء ولقديسين آخرين . والموارنة ، الذين فروا من اضطهاد اليعاقبة لهم في القرن السابع للميلاد ، وجدوا في شمالي لبنان ملجأً آمناً . وكذلك الدروز ، الذين حسبهم المسلمون السنيون على شيء من الهرطقة ، أتوا لبنـان من الجنوب في القرن الحادي عشر للميلاد . وكذلك تسربت جموع الشيعة الى لبنان في ازمنة مختلفة ومن اماكن مختلفة هرباً من ضغط السنّة عليهم . وآخر هجرة في الحقبة الاخيرة كانت هجرة الارمن وجماعات مسيحية من شمالي العراق ، يسمون الاشوريين (او الاثوريين) وذلك هرباً من اضطهاد العثمانيين لهم . هنا في لبنان يجدون مجالا رحباً ليعيشوا حياتهم كما يشاؤون ان يعيشوهـا . وهكذا تصبح الاقلية الهاربة من السهول في الموطن الجبلي الجديد اكثرية، وتصبح العقائد المخالفة الخارجة على الارثوذكسية عقائد صحيحة متبعة معترفاً بهـا كما حدث للموارنة والدروز والشيعة (المتـاولة) . فانهم قد اكتسبوا في موطنهم الجديد طابعاً خاصاً ممتزاً لهم حتى انه يصح لنا ان نقول انهم اصبحوا مـا يشبه القوميات المستقلة ولا يزالون كذلك الى عهدنا هذا .

ولبنان جبل بكل ما في الكلمة من معنى . وكجبل فانه قد تمتع خلال الاجيال بنعمة الاستقلال الجزئي والاستقلال الكامل . فانه كان ابداً يمثل الخط الفاصل الذي كان الفاتح يستطيع الوصول اليه ، واذا صدف ان استطاع الفاتح ان يغزو ارضه فانه كان يجد من الحكمة ان يبقي على كيانه المستقل . ويشهد التاريخ مرة بعد مرة ان الاستيلاء على لبنان كان يبدو للغازي قريب المنال كالسراب ولكن لبنان في الواقع لا يُنال . فان الفاتحين العرب في اواسط القرن السابع للميلاد استطاعوا ان يدرجوا لبنان في الامبراطورية العربية ، ولكنه كان ادراجاً صورياً. اذ انه لم تكد تمر بضع عشرات من السنين حتى رفض سكانه من الموارنة دفع الجزية الى خلفاء بني امية في دمشق. وليس هذا وحسب وانما فرضوا فعلا على بني امية نوعاً من الجزية يدفعها الامويون اليهم ضمانة لتصرفهم تصرفاً مرضياً . وبينما نجد ان وادي النيل والعراق ، حيث كانت اكثرية السكان مسيحية زمن الفتح العربي، قد استسلما واصبحا فعلا قطرين اسلاميين ، فان لبنان الجبل احتفظ باكثرية مسيحية حتى يومنا هذا . وفي مستهل القرن السادس عشر ادرك العثمانيون الذين اخضعوا غربي آسية انه من الخير لهم ان يحتفظ الجبليون اللبنانيون باستقلالهم الذي كانوا ينعمون به زمن المماليك . ولكن اللبنانيين لم يقنعوا بهذا بل ان امراءهم ، اشباه فخر الدين المعني (تو ١٦٣٥) وبشير الشهابي (تو ١٨٥٠) تحدّوا سلطة الباب العالي وشقوا عصا الطاعة . وبعد حوادث عام ١٨٦٠، تلك السنة المشؤومة بحروبها الاهلية ، اعترف دولياً باستقلال لبنان وظل ينعم بذلك الاستقلال حتى الحرب العالمية الاولى .

ان ما قدمه اللبنانيون من خدمات للحضارة العالمية والتي بدأ بها الكنعانيون ـ الفينيقيون لم ينته امرها في العالم القديم بل استمرت الى الفترة الهلّينية . فاننا نجد في قائمة الفلاسفة الهلينيين ، ولا سيما في قائمة الفلاسفة الرواقيين واصحاب الفلسفة الافلاطونية المستحدثة (الاسكندرانية) ، كما سيبدو للقارىء فيما بعد ، فلاسفة من اصل لبناني يعدون من اشهر الفلاسفة ومن ابعدهم اثراً. ونحن نعلم ان الارث الحضاري البارز الذي خلفه الاغريق للحضارة العالمية كان فلسفتهم . وقد اتم الاباطرة الرومانيون الذين تحدروا من اصل سوري لبناني بناء اعظم هيكل في العالم على ارض لبنانية : هيكل بعلبك ، مدينة الشمس كما كان يعرفها الغرب

(Heliopolis) . فان آثار هذا الهيكل تفوق بعظمتها وروعتها اية آثار اخرى خلفها الرومان بما في ذلك آثار رومة ذاتها . وقد كانت بيروت ، عاصمة لبنان اليوم ، مركزاً لمعهد الحقوق . وقد ظل هذا المعهد المشهور، الى ان دمرت المدينة في الزلزال الذي وقع في اواسط القرن السادس الميلادي ، يحتفظ بالمقام الاول بين جميع المعاهد الشبيهة به في الولايات الرومانية باجمعها. وقد كان من بين الحقوقيين الذين اسهموا احسن اسهام في وضع التشريع المشهور المعروف بتشريع يوستنيانوس استاذان من اساتذة معهد بيروت وهما بابنيان واولبيان .ونحن نعلم ان القانون كان المفخرة العظيمة التي خلفها الرومان للحضارة العالمية . وها ان يوستنيانوس يخلع على بيروت (Berytus) لقب « ام الشرائع ومرضعتها » .

وقد ازدهرت في العصور المتوسطة جاليات سورية لبنانية من تجار وصناعيين في كثير من المدن الاوروبية : في اوستيا (Ostia) ومرسيليا وبوردو ، وذلك للمقايضة بين بضائع الشرق والغرب على غرار ما كان يفعله الفينيقيون اسلافهم . ولبنان اليوم كلبنان امس : جمهورية تتألف في الدرجة الاولى من تجار ورجال اعمال . فان الواحد منا عندما تطأ قدمه سواحل لبنان لا يتمالك عن الشعور بأن ذلك الجو التجاري الفينيقي هو هو جو ذاك الساحل الذي كان يزخر بالنشاط والحركة والحيوية . تلك الصفات التي كانت تتصف بها الحياة الفينيقية من حب الاستطلاع واعجاب بالرائع ، وتشوف الى المجهول، لم تخب على مر الاجيال ، وذلك الدفق من الحيوية لم يهمد .فان جاليات من احفاد الفينيقيين تعيش في القاهرة وفي باريس وفي مانشستر ونيويورك وسان باولو وبونس ايرس وسدني وفي كثير من المدن غيرها . وفي القرن التاسع عشر كان اللبنانيون اول شعب من الشعوب العربية التي استجابت بكل قواها ومشاعرها الى الحوافز المتدفقة عليهم من الغرب .

وقد كان تجاوب لبنان مع الغرب سريعاً وشديداً . فقد تناول زخم الغرب العنيف جميع حقول الحياة : في اساليب التجارة والصناعة ، في العلم والافكار الجديدة ، في اساليب الحكم والتربية ، وفي المؤسسات الاجتماعية والسياسية الحديثة . وقد كان لبنان اشبه بجسر انتقلت عليه هذه الاساليب الغربية العصرية وهذه الافكار الجديدة والمؤسسات الاجتماعية وتجاوزته الى سائر اقطار العالم العربي

الذي كان آن ذاك في حالة سبات . وقد تجسدت من تلك الافكار الجديدة الوافدة على لبنان من الغرب فكرتان حيويتان بارزتان : القومية والديمقراطية . فقد كان لبنان السبّاق في اعلان ذاته جمهورية. واول نظرة القتها سورية وفلسطين والعراق على العالم الغربي كانت من خلال النافذة اللبنانية .

جميع هذه الصفات ــ الجغرافية والتاريخية والثقافية ــ تدل على ان لبنان يتميز بذاتية تبرر دراسته دراسة مستقلة رغم ان مساحته لا تتناسب وعظم مقامه. وقديماً اشار « ابو التاريخ » هيرودوتس الى اهمية البلدان الصغيرة بقوله :

« انني سأهتم بالبلدان الصغيرة اهتمامي بالكبيرة منها ذلك لان اكثر الامم التي كانت في سالف الزمــان عظيمة اصبحت صغيرة ، والامم العظيمة في يومنا هذا كانت في سالف الزمان صغيرة . ولاني موقن بأن اقدار البشر عرضة للتغيّر الدائم فلن افرّق في دراستي هذه بين امة كبيرة وامة صغيرة . »[١]

ــ ١ Herodotus, *History*, Bk. I, ch. 5, in Arnold J. Toynbee, *Greek Historical Thought* (London, 1924), pp. 5-6.

الفصل الثاني

الجبل والسهل

ان الطابع المميز لطوبوغرافية لبنان هو انه ارض منخفضة تتلوها ارض عالية تمتد على خط يسير من الشمال الى الجنوب. فانك تستطيع ان تميز بين سورية والبحر الابيض المتوسط اربع مناطق مستطيلة من هذا التناوب الطوبوغرافي : انخفاض فعلو . هذه المناطق هي الشاطىء ، ثم سلسلة جبال لبنان الغربية، فالسهل الداخلي (البقاع)،وآخرها سلسلة جبال لبنان التي تعرف بلبنان الشرقي(Anti-Lebanon). وجمهورية لبنان الحالية تتكون من هذه المناطق الاربع : من البحر الى مقسم المياه في اعالي السلسلة الشرقية (تحديد ١٩٢٠) وهذه البقعة هي في الدرجة الاولى مدار هذا البحث التاريخي .

السهل الساحلي اللبناني

اما المنطقة الساحلية فهي التي تمتد على موازاة البحر الابيض المتوسط الشرقي . وهذه المنطقة الساحلية تقع عند منتصف ساحل اطول ، ساحل يمتد شمالا من خليج الاسكندرونة (واسمها القديم ايسوس) وينتهي جنوباً عند صحراء سيناء . هذه المنطقة الساحلية اللبنانية المحصورة بين البحر والجبل منطقة ضيقة اوسعها المنطقة الساحلية الشمالية بالقرب من طرابلس حيث يبلغ عرضها اربعة اميال . وعلى بعد بضعة اميال جنوبي بلدة جونيه يبلغ عرض الساحل ميلا واحداً ثم ترتفع فجأة قمم جبال يبلغ علوها ٢٥٠٠ قدم وهي لا تبعد عن شاطىء البحر اكثر من اربعة اميال . على احدى هذه القمم (حريصا) يقوم تمثال رائع لسيدة لبنان (مريم العذراء) يشرف على خليج صغير جميل قل ان يجد له المرء مثيلا في العالم . واذا سار المرء جنوباً يصل الى مصب نهر الكلب المشهور بنقوشه حيث يغسل الجبل اقدامه عند البحر . هذا الرأس الداخل في البحر موقع ستراتيجي مكن اهل البلاد من الوقوف في وجه الغزاة . وبوجه عام نستطيع ان نقول بأن الساحل

اللبناني ساحل صخري يضيق فجأة هنا ويختفي تارة هناك . وهو على الخريطة خط مستقيم تكـاد لا تجد لاستقامته مثيلا على خريطة العالم ، فلا خلجان ولا مصاب انهر عميقة تصلح ان تكون موانئ طبيعية . ولذا لا تجد ميناء على الساحل اللبناني اوجدته الطبيعة ليكون ميناء . وهذا ما يدعو الى العجب الشديد لان سكان لبنان القديم ، الفينيقيين ، كانوا من ابرع الملاحين في اسفارهم البحرية .

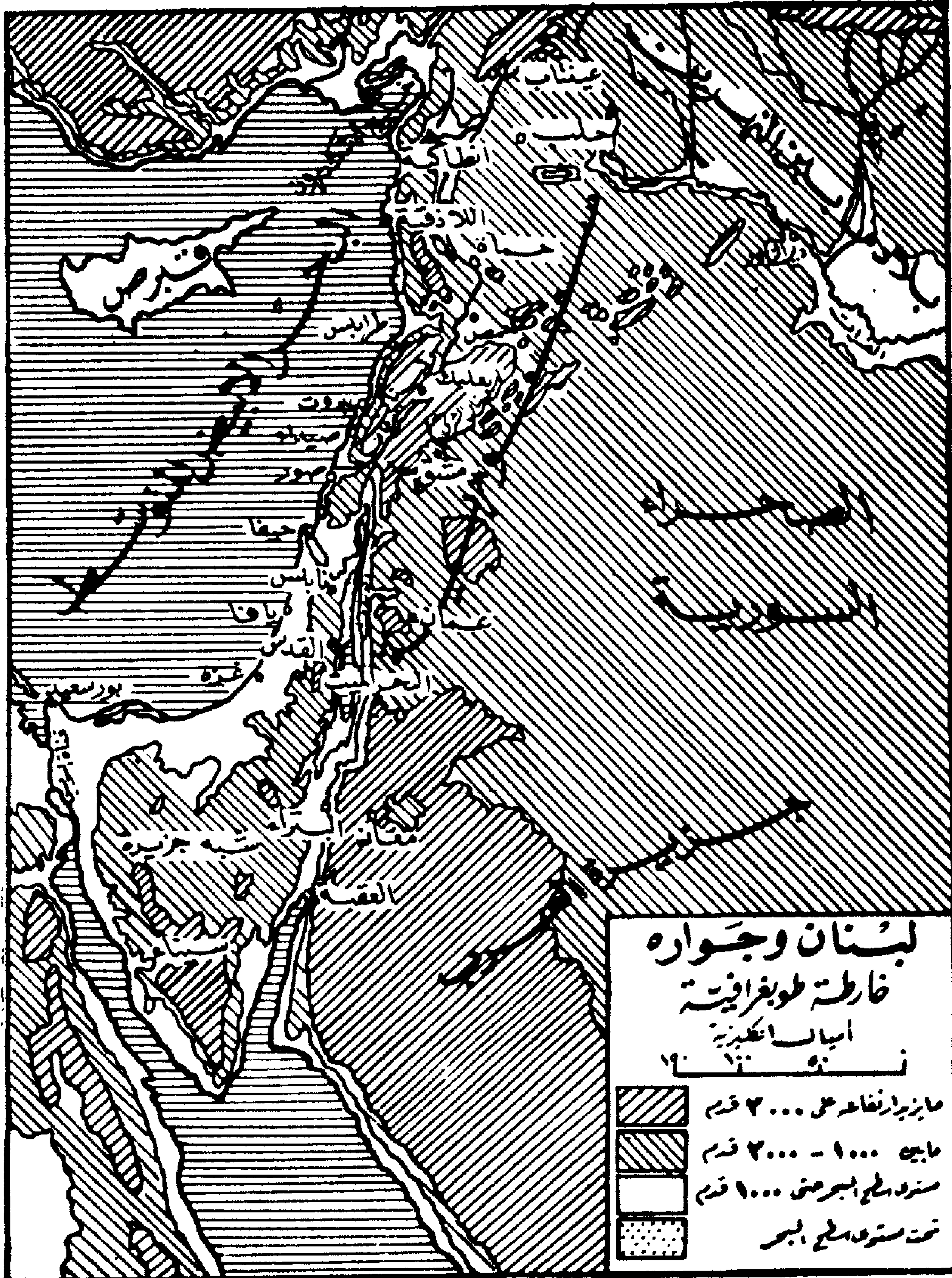
ان تكوين الساحـل اللبناني الطبيعي يرجع الى ارتفاع قاع البحر في العصر الجيولوجي المعروف بالعصر الثالث (Tertiary) . وفي عصور جيولوجية تالية غطى الطمي الذي ينجرف من سفوح الجبال طبقات الطباشير (chalk) في الساحل . وكثبان الرمل الاحمر بالقرب من شاطئ بيروت التي تغطي المنطقة الساحلية هي من موج بحر الابيض المتوسط ومصدرها من مصب النيل الذي يجرف معه الرمال من مصر العليا والسودان . هـذا الساحل اللبناني الذي يتألف من شواطئ ضيقة ومن مناطق كانت يوماً قاع البحر ، ساحل خصب ، ويزيد في خصبه ان ارضـه تتجدد بسبب ما يصيبه من الطمي المنجرف من اعالي الجبال والينابيع التي تظهر عند سفوح الجبال. وهي منطقة زراعيه تصلح لزراعة الفاكهة والخضار . وتكثر فيه زراعة الموز والبرتقال والنخيل وقصب السكر .

لبنان الحقيقي

لبنان الحقيقي ، او لبنان الاصيل ، هو سلسلة الجبال الغربية . فقد عرفت هذه البقعة باسم لبنان منـذ العهد الروماني ، بينما كان يطلق على السلسلة الشرقية اسم « انتيليبانوس » (Antilibanos) اي « لبنان المقابل »[1] وهاتان السلسلتان كانتا فيما مضى من العصور الجيولوجية سلسلة جبال واحدة . وفي الواقع ان لبنان جزء متوسط من سلسلة جبـال ونجاد مرتفعة تبدأ في جبل اللكام في شمالي سورية وتنتهي بجبال سيناء المرتفعة جنوباً . وهذا الجزء المتوسط ــ لبنان ــ اعلى جزء في هذه السلسلة ، واكثرها نتوءاً ووعورة ، واروعها منظراً واطرفها بلداً . واسم لبنان مشتق من لفظ سامي مشترك « لبن » ومعناه البياض ، بياض اللبن ، وذلك

---

١ – Strabo , *Geography*, Bk. XVI, ch. 2, parag. 16; Pliny, *Natural History*, Bk. V, ch. 17, parag. 20. Ptolemy, *Geography*, Bk. V, ch. 14 .


لبنان وجواره
خارطة طوبغرافية
أميال انكليزية
ما يزيد ارتفاعه عن ٢٠٠٠ قدم
ما بين ١٠٠٠ - ٢٠٠٠ قدم
مستوى سطح البحر حتى ١٠٠٠ قدم
تحت مستوى سطح البحر
قبرص
الصحراء السورية
عنتاب
حلب
اللاذقية
حماة
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
حيفا
نابلس
يافا
القدس
غزة
بور سعيد
العقبة
عمان

لان الثلج يغطي قممه العالية حوالي ستة اشهر في السنة وليس لان الصخور الكلسية البيضاء تغطي اعـاليه .[١] وفي الواقع ان بقعاً من الثلج تبقى في اعالي القمم على مدار السنة . هذه السلسلة الغربية التي هي لبنان الاصيل اشبه بهيكل عظمي تكسوه سهول هنا ومنخفضات هناك . وهو اول حاجز يقف في سبيل المواصلات بـين البحر الابيض المتوسط والبلدان الشرقية الواقعة الى الوراء ، حاجز قل ان تجـد فيه ثغرة او معبراً يسهل اجتيازه .

هذا الجبل وحدة طبيعية ذات حدود طبيعية من جوانبه الاربعة . فان حـده الشمالي الذي يفصله عن جبال النصيرية في سورية النهر الكبير (ويعرف في التاريخ الكلاسيكي باسم اليوثرس Eleutherus ومعنـاه[٢] الحرّ) . وحده الجنوبي نهر القاسمية، فيكون طوله شمـالا في جنوب ١٠٥ اميال . اما عرضه فيختلف كثيراً . فبينما هو بالقرب من طرابلس ٣٥ ميلا نجد ان عرضه في الجزء الجنوبي لا يتجاوز الستة اميال . واعلى نقطة فيه تبلغ ١١٠٢٤ قدماً ، وذلك جنوبي شرقي طرابلس في قمة تسمى القرنة السوداء . ويبلغ علو القمة القريبة منها ، ظهر القضيب ، التي تحتضن اكبر واشهر غابة من بقايا ارز لبنان، ١٠٠١٨ قدماً بالقياس البارومتري[٣]. وفي اثناء الحرب العالمية الثانية شُقت طريق تخترق الجبل عند هذه القمة وتربط بعلبك بطرابلس . وبالقرب من هاتين القمتين ترتفع قمة ثالثة ، فم الميزاب ، التي يبلغ علوها ٩٨٤٠ قدماً . وقد انشىء عام ١٩٥٠ مصعد كهربائي من غابة الارز الى قمة فم الميزاب لهواة التزلج والرياضة الشتوية . وفي وسط هذه السلسلة الغربية يرتفع صنـين (٨٨٤٢ قدماً) وجاره جبل الكنيسة (٦٨٠٠ قدماً) بجلال وروعة فكأنهما منارتان تريان من كل جهة على بعد اميال واميال . ويستطيع المرء ان يشاهد جلالهما من مدينة بيروت. وعندما يذكر الناس اهل الجبل او الجبليين فانما يشيرون الى سكان هذه السلسلة الغربية .

---

١ ـ فريحة : اسماء القرى والمدن ص ٣٠٤ (المترجم)

٢ ـ Strabo , Bk .XVI, ch . 2 ,parag . 12 , 15 ; Pliny , Bk . V , ch. 17 , Parag . 20 .

٣ ـ Cf. Robert H. West in *Palestine Exploration Fund Quarterly Statement* (1861); pp . 147 - 9 .

المضايق والاودية

ان المضايق ومجاري المياه في القسم الشمالي من هذه السلسلة اودية كبيرة ذات جوانب شاهقة تسيل فيها سواق تحيط بها من على جوانبها سفوح ذات طبقات ارضية ظاهرة الالوان يجللها نبت مختلف الانواع مما يخلق لوحة تترك في نفس الرائي اثراً جميلا. وأحد هذه الاودية وادي قاديشا (ومعناه المقدس) الذي احتفظ باسمه السرياني الى يومنا هذا. هذا الوادي اروع اودية لبنان واشدها وعراً وجلالا. يبدأ هذا الوادي عند سفح غابة الارز – ووراءه ترتفع اعلى القمم في لبنان – ثم يأخذ بالانحدار السريع فوق طبقة من الارض تعلوها صخور صغيرة، ويستمر في الانحدار فوق منعطفات ومنعطفات حتى يصل الساحل فالبحر قرب طرابلس. وقد يبلغ عمق الوادي في بعض اجزائه ١٧٠٠ قدم. وترجع تسميته بالوادي المقدس الى الاجيال الوسطى عندما وجد نساك الموارنة ورهبانهم في كهوفه ومغاوره ملاجىء امينة. ودير قنوبين،[١] مقرّ البطريركية المارونية سابقاً، ليس سوى واحد من تلك الاديرة العديدة التي انشئت على جنبات الوادي المقدس. اما اليوم فالمقر الصيفي للبطريركية المارونية هو بناء فخم في الديمان يشرف على الوادي من جهته العليا. ويجري في هذا الوادي نهر قاديشا الذي ينبع من مغارة تحت غابة الارز الشهيرة – وتنضم اليه مياه نبع مار سركيس (سرجيوس) في اهدن – ويتابع جريانه بشكل شلالات متتالية الى ان يصل الى بعد خمسة اميال من البحر حيث يتغير اسمه الى «نهر ابو علي». اما المغارة التي تنبع منها مياه نهر قاديشا فهي من الأماكن السياحية التي يقصدها الناس لمشاهدتها كما يؤمون مغارة جعيتا التي ينبع منها نهر الكلب. ومياه هذا النهر تستخدم تجارياً لتوليد الكهرباء فضلا عن انها تروي اراضي القرى المجاورة لمجراه بما في ذلك ساحل طرابلس عند مصبه. وعلى قمم الجبال من على جانبي النهر تنتشر قرى جميلة تطل على شواهق صعبة المرتقى يخالها الرائي من بعيد وكأنها تتشبث بالصخر كي لا تنزلق الى الوادي السحيق. ومما يزيد في جمال هذا الوادي المقدس وروعته مرأى الاديرة والكنائس الرابضة على اعالي

١ – قنوبين اسم يوناني ويعني دير او مسكن للرهبان. وهو من اسماء الامكنة الاغريقية القديمة التي لا تزال معروفة في لبنان. ويقال ان الامبراطور ثيودوسيوس بناه (٣٧٩–٣٩٥). (راجع فريحة: اسماء القرى والمدن ص ٢٧٤ – المترجم)

القمم المختبئة في قلب الغابات بابراجها وقباب اجراسها العالية . وهنالك وادآخر رائــع يجري على بضعة اميــال جنوبي وادي قاديشا : وادي نهر ابراهيم [١] (المعروف في التاريخ الكلاسيكي بوادي ادونيس) ينبع النهر الذي يسيل في هذا الوادي الجميل عند سفح جبل عال يشبه ملعباً مدرجاً كان فيما مضى موقعــاً لمزار مقدس شهير Aphaca اي افقا كما تعرف في يومنــا هذا . ومجرى هذا النهر لا ينطبق عليــه وصف الشاعر ملتون حيث يقول « ونهر ادونيس الارجواني اللون يجري هادئاً منساباً من ينبوعه في اعالي الصخر الى البحر » [٢] لانه ينحدر بصخب واندفاع . هذا الوصف (للشاعر ملتون) جعل اسم هذا النهر الصغير من اشهر اسماء الانهر اللبنانية . ويستطيع المرء ان يرى بقايا قناة انشأها الرومان لجر مياه الشرب الى بلدة جبيل (ببلوس) . وعلى بعد ٦ اميــال من مصبه جنوبي جبيل انشئت مولدات للكهرباء لانارة بيروت وضواحيهــا . ونستطيع ان نجزم بانه في هذين الواديين ، وادي نهر ابراهيم وقاديشا ، تقع عين الانسان على اجمل المناظر الطبيعية في لبنان .

البقـــاع

ان السهل المرتفع الذي يقع بين سلسلتي لبنان يشبه اسفينــاً يشق السلسلتين الجبليتين الى جزئين : غربي وشرقي . طول هذا السهل من شماليه الى جنوبيه قرابة ١١٠ اميال ، وعرضه باتجاه غربي شرقي يتراوح بين ٦ اميال وعشرة ، ومعـــدل ارتفاعه عن سطح البحر ٢٥٠٠ قدم . وهو في اواسطه اعرض مما هو عليه عند طرفيه . واذا قيض لك ان تلقي نظرة عليه من الجو زمن الربيع ، خلت نفسك ترى سجادة شرقية جميلة التقطيع رائعة الالوان يخترقها خط رفيع متعرج هو نهر الليطاني . وهذا هو المكان الذي يشير اليه كاتب سفر يشوع (١١ : ١٧) عندما يذكر « بقعة لبنان » ، وهذه هي البقعة الجغرافيــة التي كان مؤرخو الاغريق والرومان يعرفونها باسم « سورية المجوفة » [٣] وهو الاسم الذي اطلق عليها بعـــد

---

١ ـ وقد تكون هذه التسمية « نهر ابراهيم » نسبة الى امير ماروني من العصور المتوسطة بنى هناك جسراً عرف باسمه فيما بعد .

٢ ـ *Paradise Lost*, Bk . I , I , 450

٣ ـ Strabo, Bk XVI, ch. 2, Sec. 21; Pliny, Bk. V, ch. 17, Sec. 12,20; Ptolemy, Bk. V, ch. 14.

فتوحات الاسكندر المقدوني . وفي الحروب التالية التي نشبت بين السلوقيين في سورية والبطالسة في مصر أصبح الاسم يشمل القسم الجنوبي من سورية باكله . ولكنه في العهد الروماني اصبح يشمل البقاع (سورية المجوفة) وحوران وجزءا من شرقي الاردن . اما سهل البقاع ، جيولوجيا ، فهو الجزء الاوسط من شق او وهدة كبيرة تبدأ شمالا عند منعطف نهر العاصي (Orontes) في سورية وتمتد جنوباً الى وادي نهر الاردن فوادي العربة الى خليج العقبة في البحر الاحمر . اما المؤرخون والجغرافيون العرب فكانوا يقسمون البقاع الى بقاعين : البقاع البعلبكي والبقاع العزيزي. وليست تسمية جزء منه بالبقاع العزيزي نسبة الى العزيز بن صلاح الدين (تو ١١٨٨) او نسبة الى الخليفة الفاطمي العزيز ، بل نسبة الى اسم إله سامي قديم « عزيزو » اي العزيز (ومعناه القوي الجبار الشديد) الذي كانت عبادته شائعة في حوران وتدمر وأماكن اخرى مجاورة لهذين القطرين. أما لفظة « بقاع » فهي جمع « بقعة » ومعناها مكان فيه ماء آسن[١] .

وأرض هذا السهل ، سهل البقاع ، مسطحة منبسطة في اكثرها ومتموجة في أقلها . وهي ارض زراعية خصبة يرويها نهران ينبعان بالقرب من بعلبك يفصل بين نبعيهما مسافة لا تزيد عن الميل . هذان النهران هما نهر العاصي الذي يتجه في سيله شمالا الى سهول سورية ويصبح من اعظم انهارها ، ونهر الليطاني (Leontes)[٢] الذي يسيل جنوباً ثم ينحرف فجأة الى الغرب عند سفح قلعة شقيف الصليبية (Belfort) ؛ ويسمى هناك نهر القاسمية[٣] . ثم يندفع نحو البحر بين صيدا وصور . ويجري الليطاني في سهل البقاع في مسيل يزداد عمقاً كلما اتجه جنوباً ، ثم ينحرف مجراه غرباً الى المتوسط . وقد عقدت اتفاقية عام ١٩٥١ بين الحكومة اللبنانية والحكومة الاميريكية على ان ينشأ خزانات واقنية للري ولتوليد

١ ــ غير اننا نرى في الاسم لفظاً سريانياً معناه الشق والتصدع كما يدل عليه تكوينه الطبيعي الجيولوجي الذي اشار اليه المؤلف . راجع فريحة : اسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها (المترجم)

٢ ــ Cf. René Dussaud, *Topographie historique de la Syrie antique* et *médiévale* (Paris, 1927), p. 47.

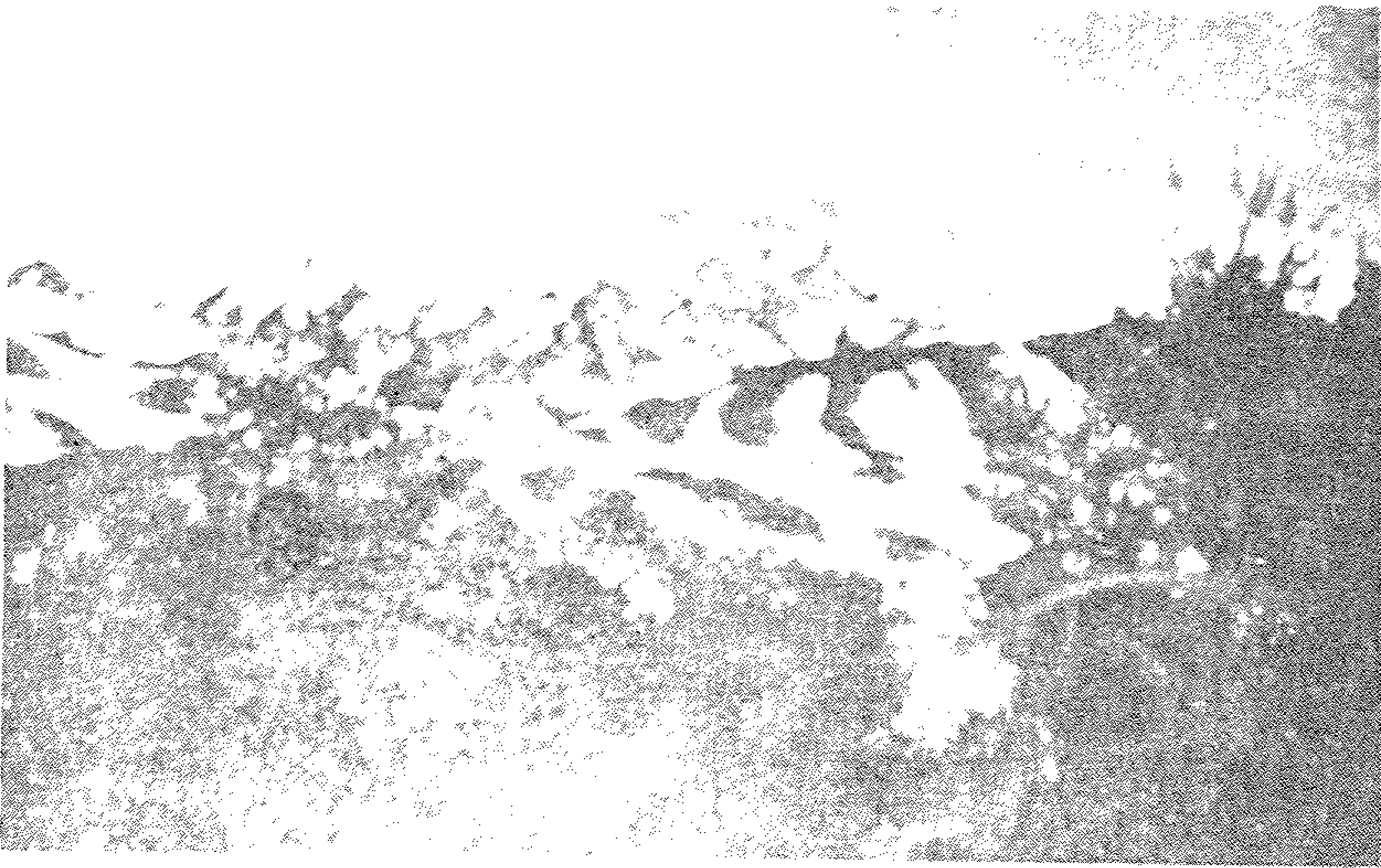
وهنري لامنس : تسريح الابصار فيما يحتوي لبنان من الآثار ، الطبعة الثانية (بيروت ١٩١٤) مجلد ٢ ،ص ٢٠ ــ ٢٣ .

٣ ــ نسبة الى الولي قاسم ، وهو مزار اسلامي يقع قرب مصب النهر .

الكهرباء كجزء من المساعدات الاميركية المعروفة بالنقطة الرابعة . ويعرف هذا المشروع الضخم باسم « مشروع الليطاني » . وسهل البقاع هو المنطقة الزراعية الرئيسية في لبنان ، وحاصلاته الرئيسية الحبوب . وقد كان في العهد الروماني بمثابة اهراء للحنطة والحبوب في الولاية السورية الرومانية . والى جانب كونه ارضاً زراعية ممتازة تكسو قشرتها طبقات من الرواسب والطمي فانه ارض طيبة ممتازة تصلح ايضاً ان تكون مراعي للماشية. ومما يدل على انه كان بقعة مكتظة بالسكان التلال العديدة التي كانت مواقع قرى يستطيع الذاهب من بيروت الى دمشق ان يتبينها بوضوح .

لبنان الشرقي

يقابل لبنان الغربي سلسلة جبال تعادلها ارتفاعا وطولا . وقد كانت هذه السلسلة تعرف في الفترة الكلاسيكية بانتيليبانوس (اي لبنان المقابل) والتي نعرفها اليوم باسم لبنان الشرقي . تبدأ هذه السلسلة جنوبي حمص وتمتد الى جبل الشيخ (حرمون) ومن هناك تأخذ بالانحدار السريع الى ان تندمج بنجد حوران وتتصل بشرق الاردن الى ان تنتهي عند الطريق الجنوبي للبحر الميت . وتنتهي هذه السلسلة الشرقية جنوبا عند جبل الشيخ (حرمون) الذي تغطى سفوحه السفلى طبقة من



جبل الشيخ (حرمون)

الحجارة البركانية . والى الجهة الشرقية من سلسلة جبال لبنان الشرقي تمتد فروع جبلية عديدة وتدخل في الصحراء السورية . فان القلمون ومعلولا ليستا سوى فرعين شرقيين من هذه السلسلة . وقد عرف جغرافيو العرب في العصور المتوسطة هذه البقعة باسم سنير [١] وهذه اللفظة هي التسمية السامية القديمة التي كانت تطلق بوجه خاص على حرمون .

يشطر وادي بردى (واسمه الكلاسيكي القديم ابانا) سلسلة لبنان الشرقي الى شطرين ، شطر شمالي تكاد لا تجد على سفوحه الغربية قرية واحدة ، وشطر جنوبي ابرز قممه حرمون (وعلوه ٩٣٨٣ قدمـا) . وتقوم على السفوح الغربية لهذا الشطر الجنوبي قرى عامرة عديدة ، منهـا قرى درزية . ولا يقاس لبنان الشرقي بلبنان الغربي من جهة معدل سقوط المطر وجفاف الهواء . فان المطر في السلسلة الشرقية اقل معدلا ، والهواء اشد جفافاً ، ولا سيما في الجزء الشمالي من هذه السلسلة . ولذا كان لبنان الشرقي اقل سكاناً وانتاجاً من لبنان الغربي . والسواقي والانهر التي تنبع من هـذه السلسلة قليلة وحد الجمهورية اللبنانية الشرقي خط يمر من فوق حرمون ثم يدور حول التلال ذات الانحدار الشديد في منطقتي الزبداني وبلودان [٢] ويتابع سيره الى اعالي قمم سلسلة لبنان الشرقي . اما نهر بردى فانه يسيل في اتجاه جنوبي شرقي فيحيي من الاراضي السورية مساحات كبيرة لولا ميـاهه لكانت صحراء قاحلة . وفضلا عن هذا فان مدينة دمشق ، احد مراكز الحضارة عـلى حدود الصحراء ، وغوطتها الشهيرة مدينتان بحياتهما وكيانهما لبردى .

ان جبل الشيـخ (حرمون) ، بفضل تكوينه الطبيعي وموقعه الجغرافي ، اجمل قمة في هذه السلسلة واشدهـا روعة وجلالا وابرزها الى عين الرائي من مسافات بعيدة . واسمه ــ حرمون ــ عبراني الاصل ومعناه مقدس . اما الاموريون فقـد سموه شنير والفينيقيون سيريون [٣] .

١ ــ ياقوت : معجم البلدان طبعة ف . ويستنفلد المجلد الثالث (ليبسك ١٨٦٨) ص ١٧٠ . وراجع ابو الفداء : تقويم البلدان طبعة م . رينو ودي سلين (باريس ١٨٤٠) ص ٦٨ . يمكن القول اجمالا بان معرفة العرب بالجغرافيا اللبنانية لم تكن شاملة ولا دقيقة .

٢ ــ وهي بلوذان ، راجع العمري : مسالك الابصار في ممالك الامصار ، طبعة احمد زكي ، المجلد الاول (القاهرة ١٩٢٤) ص ٣٥٨ .

٣ ــ سفر التثنية ٣ : ٩ . قابل نشيد الانشاد ٤ : ٨ .

وقد كان هذا الجبل جبلاً مقدساً للاله بعل حرمون الذي ظلت عبادته معروفة الى زمن طويل بعـد كتابة اسفار العهد القديم .[١] واسمه الحالي في العربية الجبل الشيخ لا جبل الشيخ .[٢] وقد عرفه جغرافيو العرب بجبل الثلج . وقد تكون هذه التسمية ترجمـة لاسمه في الآرامية : طور تلجا . واقدم ذكر لهذا الجبل في الادب العربي يرد في قصيـدة لحسان بن ثابت شاعر النبي .[٣] وقمته التي تشرف على سلسلة من التـلال المتداخلة والاودية المتشعبة مجللة بالثلج على مدار السنة . بينما تُرى بقع من الثلج بشكل خطوط متعرجة تغطي الاودية المنتشرة على جوانبه[٤]

ويستطيع المرء ان يرى قمة حرمون من فلسطين . ونهر الاردن ، الذي يلقبه الشعراء العرب « بابن لبنان البكر » ينبـع عند سفوحه . ويستطيع الواقف على قمته ، اذا كان الجو صافياً ، ان يرى دمشق وجناتها وصور وجبل الكرمل وتلال الجليل وسهوله وبحيرة الحولة وبحيرة طبرية . وليس هنالك ما يؤيد الرأي القائل بان « الجبل العالي » الذي صعد اليه المسيح يوم التجلي هو حرمون .

تركيب الطبقات الصخرية

ان الطبقات الصخرية في لبنان الغربي والشرقي تشمل طبقة عليا كلسية وطبقة اخرى سفلية كلسية تتوسطها طبقات صخر رملية . اما الطبقات الكلسية العليا فان سماكتها تتراوح بين بضع مئات من الاقدام الى بضعة الآف منها . ولكن كثافة الطبقات الكلسية السفلى غير معروفة لانها داخلة في الارض ولا يرى منها شيء على وجه الارض . هذه الطبقة الكلسية بينما نراها في قاع اعمق الوديان فانهـا بسبب التقلص الجيولوجي رُفعت في كسروان الى علو ٤٠٠٠ قدم والى ٧٠٠٠ قدم قرب تومات نيحا (بالقرب من جزين) والى علو ٩٠٠٠ قدم في جبـل حرمون . في

١ ـ راجع سفر القضاة ٣ : ٣، وسفر الاخبار الاول ٥ : ٢٣

٢ ـ جبل الشيخ هي التسمية العامية، وهذا ما ادى الى الخطأ الذي يقع فيه المترجمون اذ يحسبونه جبل رجل شيخ طاعن في السن بينما المعنى هو الجبل المكلل رأسه بالثلج كما يكلل الشيب رأس الشيخ . راجع ـ F. M. Abel, *Geographie de la Palestine* (Paris,1933), p . 347 .

٣ ـ ملكاً من جبـل الثلج الى جانبي ايلـة مـن عبد وحر
راجع الديوان ، نشر هارتوغ هرشفلد (ليدن . ١٩١٠) ص ٧٨ والسطر العاشر

٤ ـ راجع سفر ارميا ١٨ : ١٤

هذه الطبقـــة الكلسية السفلى التي تغطي مساحات كثيرة هنا وهنـــاك في السلسلتين الغربية والشرقية نجد اماكن يكثر فيها الحديد الخام . وصهر هذا المعدن الخام في اتونات بدائية لا يزال شائعاً معروفاً الى يومنا هذا. وعملية الصهر هذه كانت احد الاسباب التي قضت على احراش لبنان وخلفته جبلا اجرد[١] . وهنالك صخور قائمة بركانية تتداخل في الطبقة الكلسية السفلى . اما تركيب وديانه ومضايقه الجبلية فتبدو فيها جميع التكوينات الطبيعية الممكنة : من الصخر الناري والصخر المتحول والصخر الرسوبي .

اما سطح الارض في لبنان فقد كان على ممر العصور التاريخية ذلك السطح الذي يتألف من الطبقة الكلسية العليا التي تكسبه لوناً رمادياً يضفي على مناظره الطبيعية مسحة من جمال . وتربة لبنان الزراعية هي من تفتت صخور هذه الطبقة الكلسية. واذا مرت عجلة في ايام الصيف فوق طريق غير مزفت تتصاعد سحب من غبار رمادية . هذا الغبار هو من تفتت هذه الطبقة الكلسية . ومن صخره يقتلع السكان حجارة لبناء بيوتهم. وينابيع لبنان، تلك الينابيع المتلألئة المتدفقة من سفوح التلال هي من تجمع مياه المطر التي تخترق الطبقات الكلسية العليـــا وتتجمع في الطبقات الرملية والدلغانية التي تغطي الطبقات الكلسية السفلى . هذه الينابيع هي ينابيع حياة لسكان السفوح والسهول والاودية .

اما طبقات الصخر الرملية ــ وهي طبقات تتوسط الطبقتين الكلسية العليا، وهي طباشيرية ، والطبقة الكلسية السفلى ، وهي جورية[٢] ــ فهـــي من نوع الصخر الطباشيري ايضاً . ويبدو انها تتمة للطبقة الرملية النوبية التي تتجه شمالا مارة بمصر فسيناء فالعربية السعودية فشرقي الاردن . اما كثافة الطبقة الرملية في لبنان فيتراوح علوها بين بضعة مئات من الاقدام الى الف قدم . وهذه الطبقة الرمليـــة خلو من من المتحجرات ولكن يتخللها طبقات رقيقة من الفحم الحجري (ولكنه فحم حجري من النوع الذي يعرف باللكنيت (lignite) اي الذي لم يتحجر فيـــه الخشب او الحطب تحجراً تاماً) الذي عدّنه اللبنانيون في الازمنة الحديثة ليستعملوه

١ – Alfred E. Day, *Geology of Lebanon*(Beirut,1930),pp. 29 - 30

٢ – تعريب لفظ Jurassic اي نسبة الى جبال جورا في سويسرا .

وقوداً في معامل الحرير ولتيسير القطار زمن الحرب العالمية الاولى . ونجد في مقاطعتي كسروان والمتن، حيث جرف التفتت الطبقة الكلسية العليا جرفاً تاماً، ان الطبقة الرملية هذه والطبقة الكلسية السفلى باديتان للعيان على سطح الارض. وهذه الطبقة الاخيرة ــ الكلسية السفلى ــ ولونها احمر غامق ، تظهر فيها الوان متنوعة جميلة في بعض المقاطعات، واحسن ما تظهر فيه من الوان في لبنان والبتراء . إنّ التربة في جميع انحاء لبنان الغربي وفي بعض انحاء لبنان الشرقي ، تلك التربة التي هي نتيجة تفتت الطبقة الكلسيه الغنية بالمتحجرات ، والتي هي نتيجة انحلال الصخر الناري والصخر المتنوع التركيب ، نقول ان هذه التربة في تجدد مستمر مما يغني الفلاح اللبناني عن تسميد الارض وتجديد حيويتها آنا بعد اخر . هذه التربة التي يتخللها الدلغان والتي تسقيها ينابيع لبنان هي تربة خصبة لزراعة الفاكهة واشجار التوت ، الزراعتين اللتين يتوقف عليهما ، الى حد بعيد ، ازدهار العيش في المنطقة القريبة من البحر .

ان مناظر لبنان الطبيعية المتعددة الالوان ــ وهي من اروع المناظر الطبيعية في العالم واكثرها سحراً وفتنة ــ تبدو وكأنها تمثال رصين هادىء قُدّ من كتلة صخرية هائلة قائمة على مشارف البحر المشع ذي اللون الازرق النيلي . ومما يزيد في جمال هذه المناظر سحراً صفاء الجو ، وامتداد الافق ، ونقاوة الهواء . في مثل هذا الصفاء ، وفي مثل هذه النقاوة تبدو خطوط هذه المناظر الطبيعية والوانها الساحرة واضحة ظاهرة المعالم : البحر فالساحل فالجبل فالوادي مما يؤلف سلسلة من المناظر الرائعة التي تأنس لها العين وتطيب لها النفس . هذه المناظر الطبيعية الخلابة كانت ابداً مصدر وحي للشعراء والمغنين منذ العهد العبراني الى العهد العربي . هذا الجمال الطبيعي هو الجمال الذي يستولي على قلوب المهاجرين اللبنانيين ويشدهم الى وطنهم الام .

العصور الجيولوجية

ان المدرج الواقع عند سفح القمم الشمالية في لبنان ، حيث لا تزال هناك غابة الارز التاريخية ، هو في نظر علماء الجيولوجيا ، نهاية مسير جبل ثلجي في العصور

خارطة جيولوجية
للبنان وسورية وسيناء
أميال انكليزية
قبرص
البحر المتوسط
أنطاكية
الفرات
طرابلس
بيروت
دمشق
اللجاه
جبل حوران
حيفا
يافا
غزة
القدس
البتراء
الحماد
العقبة
العصر الجيولوجي الحديث
الطبقة الكلسية العليا
الطبقة الكلسية السفلى
الطبقة الجراسية العليا
الصخور المتبلورة
الصخور النارية (الحرات والبازلت والرغتين)

السابقة للتاريخ[١] . فقد زحف الجليد في الاعصر الجليدية جنوباً الى نيويورك في اميركة الشمالية. وغطى شمالي اوروبة ، ولكنه لم يصل الى اي بقعة من بقاع لبنان. ولكن شدة البرد ازدادت حتى انه تكونت ، في تلك العصور السحيقة ، ثلاجات محلية . ان اهمية انتشار الطبقة الجليدية على سطح الارض من وجهة تاريخية لا تقاس باهمية الترسبات التي خلفها الجليد والتي تحتوي على اولى الدلائل على وجود الانسان في تلك الحقبة الجيولوجية . وآخر عهد للجليد ، وربما اعظم عصر له ، كان منذ مليون سنة . ويبدو ان الانسان الاول قد ظهر في اوروبة اثناء الفترة الاخيرة الدافئة الواقعة بين عصرين جليديين. وربما في الوقت ذاته، ان لم يكن قبله بقليل ، رفع الستار ليظهر الانسان في لبنان وفي اقسام اخرى من الشرق الادنى .

قبل هذه الاعصر السحيقة التي تكلمنا عنها كانت المياه التي تكون البحر الابيض المتوسط تغمر الجزء الشرقي من حوضه ، بما في ذلك لبنان ، حتى مداخل الهند الشمالية . وقد كان هذا الحدث في الاعصر الجورية[٢] والكلسية القديمة . في قاع هذا البحر العظيم الذي يعرف ببحر تثيس Tethys والذي كان يغمر الارض الممتدة من شرقي حوض المتوسط الى شمالي الهند تراكمت على مدى الاعصر الجيولوجية طبقات ترسبية من كلا الكتلتين القاريتين القائمتين شماليه وجنوبيه (قارة Angara و Gondwara) . هذه الترسبات هي الطبقات الكلسية التي يتألف معظم ابنان منها . وقد وقع في العصر الجيولوجي الثالث الذي عقب الحقبة الكلسية تحركات ارض عنيفة كان من جرائها تقلص مساحة هذا البحر العظيم ، تثيس Tethys ، وظهور اليابسة ـ بفعل ارتفاع طبقات القاع وتجعدها التي نعرفها اليوم بجبال النصيرية ولبنان الغربي والشرقي ومرتفعات اليهودية ونجد البلاد العربية . وعليه فان لبنان الغربي والشرقي من جهة ظهوره من تحت اليم حديث العهد اذا ما قيس بمناطق اخرى . وهو شأن جميع الجبال الحديثة العهد ، شديد الارتفاع كثير الاخاديد . ولم يتميز هذا العصر الجيولوجي الثالث بتغيرات واسعة النطاق وحسب

---

١ ـ G. Zumoffen, *Géologie du Liban* (Paris,1926) , pp . 152 - 153 ; Day, p . 21 .

٢ ـ نسبة الى اسم الجبال الفرنسية Jura الواقعة بين فرنسا وسويسرا التي يعود زمن تكونها الى هذه الحقبة .

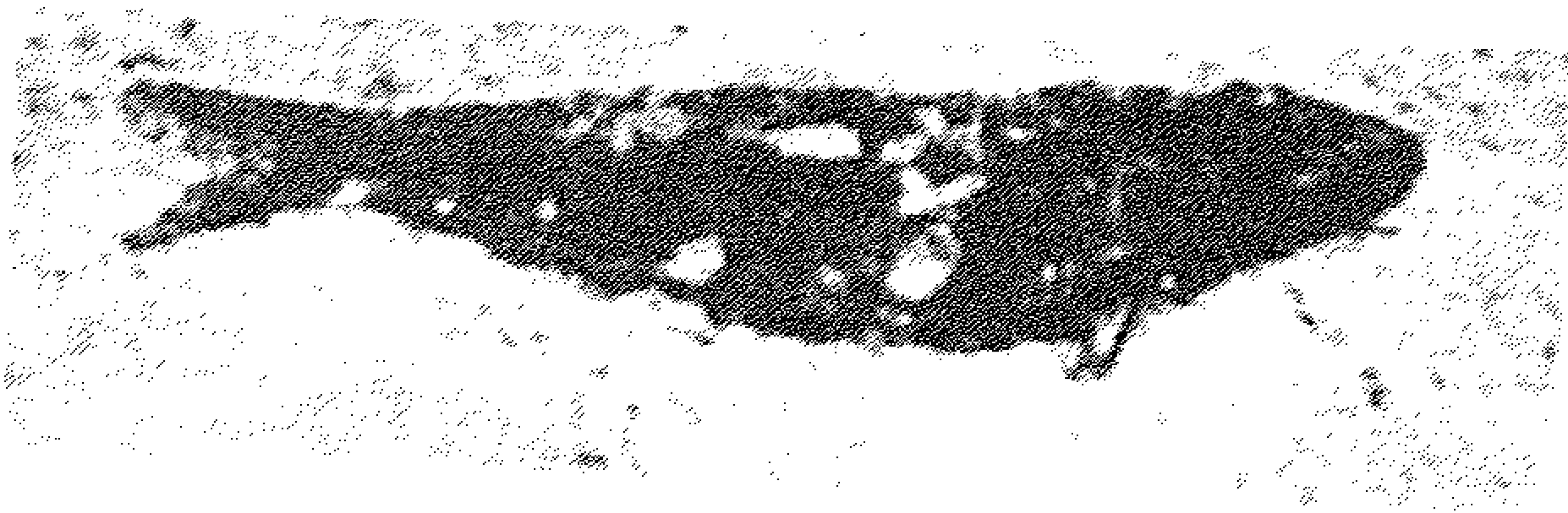
بل انه يتميز بسيادة الحيوانات الثديية وسيطرتها على اليابسة . وبقايا هذه الحيوانات التي دفنت في الطبقات الترسبية وتحجرت تعيننا في تعيين الزمن الذي حصلت فيه هذه الترسبات . من هذه المتحجرات ، وربما من ابرزها ، تلك المجموعة من السمك المتحجر التي وجدت في ساحل علما (قرب جونيه) وفي حاقل (فوق جبيل[١]). ومن أقدم الاشارات في الأدب الى متحجرات السمك، والتي لا تقبل الشك ، اشارة وردت في سيرة احد الجنود الصليبيين التي كتبها عن نفسه (١٢٤٨[٢]) والتي يقول فيها انه وجد هذا السمك المتحجر في صيدا .



١



٢



٣

اسماك متحجرة من لبنان، وقد وجدت في الطبقة الكلسية العليا ، ويعود عهدها الى ٧٥ مليون سنة .
١ ــ نوع من السمك الطيار ، وهو نوع منقرض ، وجد في ساحل علما .
٢ ــ نوع من السمك يسميه صيادو الاسماك في لبنان «المر» . ولم يوجد له نظير في أي بلد آخر .
٣ ــ سمكة متحجرة وجدت في حاقل .

١ ــ Zumoffen , pp . 134 - 41

٢ ــ Joinville, *Histoire de Saint Louis*, de. Natalis de Wailly (Paris, 1874), sec. 602 .

لبنان ملجأ امين

ان الطبقات الارضية التي تتكون منها قشرة لبنان بوجه عام منحنية وملوية ومفتولة ، وفي أكثر الأحيان ترتفع عمودياً . وقل ان تكون افقية . وقد اسفر هذا التركيب الطبيعي المختلط عن مزيج من تلال وشواهق واخاديد تجعل الانصال بين بقعة واخرى امراً عسيراً شاقاً . ومما يزيد في تعقيد سطح الارض ان هذه البقعة الجغرافية بكاملها يتخللها خسوفات ارضية أو تصدعات من على جوانبها بقاع من الارض تضغط البقعة الواحدة على الاخرى وتفتتها . كان ذلك في الاعصر الجيولوجية القديمة عندما كانت قشرة الارض المتلوية عرضة للضغط والطي . هذه الارض الخشنة الوعرة ـ وجه الارض في لبنان ـ كانت دوماً عبر الاجيال ملجأ اميناً لاقليات ولافراد يخالفون المجموع في معتقدهم وولائهم . هذا السطح الغني باوديته الكبيرة المرتفعة وبقاعه الزراعية الخصبة ، كان دوماً يستهوي الجماعات المغامرة الطامحة المحبة الاستقلال من البلدان المجاورة . فان الفرق المسيحية المختلفة والشيع الاسلامية المخالفة للمعتقد السني والمطرودين من بلدانهم ، هؤلاء وآخرون كثيرون من السهول الداخلية كانوا ابداً يجدون في لبنان ملجأ آمناً يعيشون فيه كالموارنة والدروز والشيعة (المتاولة). ولم يقتصر الامر على نساك النصارى ، بل ان اولياء وعباداً مسلمين[1] وجدوا في مغاور لبنان وكهوفه ملجأ حتى اصبح لبنان يعد من سادات الجبال الاربعة المحترمة وهي لبنان وجبل سيناء وجبلان آخران في الحجاز. وهنالك رواية تقول ان الحجارة التي بنوا بها الكعبة اقتلعت من خمسة جبال احدها لبنان[2] .

---

١ ـ المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، طبعة دي غويه (ليدن ١٨٧٧) ص ٤٤ .

٢ـ ابن الفقيه ، كتاب البلدان ، طبعة دي غويه (ليدن ١٨٨٥) ص ١٩ ـ ٢٠ .

الفصل الثالث

المناخ والنبات والحيوان

الرياح والامطار

ان الطابع المميز للمناخ اللبناني وجود فصل ماطر يبدأ في منتصف تشرين الثاني وينتهي في اواخر آذار يعقبـه فصل جفاف فيما تبقى من السنة . ويفصل هذين الفصلين الطويلين واحدهما عن الاخر فصلان آخران قصيران هما بمثابة فترة انتقال بين فصل وآخر : الربيع والخريف . ويتزايد سقوط الامطار في شهر كانون الاول والثاني وشباط ويبدأ ان يخف في شهر آذار. اما اثناء فصل الجفاف فقل ان يسقط مطر انما يتكاثر الغيم في هذا الفصل عند بدء فيضان النيل . وانقسام السنة مناخياً الى فصلين متمايزين يصدق على كامل منطقة البحر المتوسط . ومرد هذا الى ان هذه المنطقة تقع بين منطقتين مختلفتين تمام الاختلاف من جهة سقوط المطر : الاولى منطقة الرياح التجارية او منطقة افريقية الصحراوية في الجنوب ، ومنطقة الرياح الغربية في الشمال. اما الرياح الغربية فهي رياح بحرية تهب من المحيط الاطلسي وتجري فوق مناطق بحرية الى مسافات بعيدة . وهي الرياح الباردة او الشديدةالبرودة المشبعة بالماء التي تصل عادة شواطىء المتوسط الشرقية في الخريف وتصبح اثناء فصل الشتاء الرياح السائدة . وعندما تصل هذه الرياح لبنان ترتفع ، وبارتفاعها يتمدد الهواء ، وهذا التمدد يؤدي الى انخفاض في درجة الحرارة يجعل الرطوبة تتساقط مطراً . ولذا تقل فيها الرطوبة كلما اتجهت شرقاً . وهكذا ينال لبنان حصة الاسد من سقوط الامطار ، وما يتبقى من ماء في الرياح تحمله شرقاً الى جبال زغروس (Zagros) والبرز في ايران والجبل الاخضر في عُمان . وفي لبنان ذاته نجد ان السفوح الغربية التي تجابه مهب هذه الرياح من جهة البحر تسقط فيها امطار اشد غزارة من الامطار التي تسقط على السفوح الشرقية التي تجابه الجهة القارية . ويهتم البنـاؤون في لبنان عند بناء البيت بالجدران المقابلة للجهة الجنوبية

الغربية لانهم يعلمون ان هذا الحائط هو الذي سيتعرض لهذه الرياح الممطرة .

ان معدل سقوط المطر السنوي في المنطقة الساحلية ٣٣ قيراطاً ، اي اعلى مما هو عليه في بعض اجزاء الجزر البريطانية[١] ؛ وضعفا ما هو عليه في المنطقة الساحلية المماثلة في جنوبي كليفورنية . ولكن بفارق اساسي، وهو ان سقوط المطر في لبنان يقع في فترة قصيرة مدتها ستة اشهر بينما يسقط المطر في جنوبي كليفورنية على مدار السنة . اما معدل سقوط المطر المتوسط السنوي في بيروت فهو ٣٥,٦٥ قيراطاً ومعظمه ٥١,٤ وأقله ٢٣,٣ .أما في ظهور الشوير ، على علو ٤٠٠٠ قدم، فقد بلغ معدل سقوط المطر السنوي في فترة مدتها ٢٥ سنة ٥٩,٧ قيراطـاً . وفي كسارة في سهل البقاع حيث انشأت الجامعة اليسوعية في بيروت مركزاً للرصد الجوي، كان معدل سقوط المطر السنوي ٢٨,٤ قيراطا. وأما دمشق التي تقع وراء حاجزين جبليين يمنعان عنها المطر ، فان معدل سقوط المطر فيها ١٠ قراريط[٢] . وأكثر الاشهر امطاراً كانون الثاني . واحياناً كثيرة يكتنف الاودية ضباب يتولد من الرياح البحرية عند جريانها براً . والمتطلع على الاودية المغطاة بالضباب من أماكن عالية مشرفة يخيل اليه انها بحيرات مترامية الاطراف . وتهب على لبنان في الشتاء رياح قارسة تجري جنوباً من اواسط آسية هذه الرياح الشمالية ، لا سيما تلك التي تهب من اواسطأوروبة وشرقيها تجلب معها العواصف الثلجية التي تهب على لبنان والمناطق المجاورة له . وقد تثلج في المناطق الجبلية بمعدل ٦ ــ ٨ مرات في السنة . وفي كسارة سجل مركز الرصد سقوط الثلج (عام ١٩٢٨ ــ ٢٩) ١٨ مرة ، ولكنها كانت سنة نادرة . وكثيراً ما يتمثل النـــاس ببيت للمتنبي الذي مرّ شتاء في لبنان فأنشد :

وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء[٣]

---

١ ــ W . B . Fisher, *The Middle East* (London , 1950), p . 50 .

٢ ــ Cf Ashbel , Rainfall Map : Palestine,Transjordan , Southern Syria , Southern Lebanon , 3rd ed . (Jerusalem , 1943) : *Lubnan* (Beirut ,1334 (1916) , pp . 101 - 2 ; Richard Thoumin, *Géographie humaine de la Syrie centrale* (Paris , 1936), p . 13 .

٣ ــ المتنبي ، الديوان ، العرف الطيب ، نشر ناصيف اليازجي (بيروت ١٨٨٢) ص ١٢٤ .

ويسقط الثلج في لبنان كل سنة على الاماكن التي تعلو ٥٠٠ قدم ، ولكن هذا الثلج لا يدوم طويلا ، وقل ان يصل الثلج الى ساحل البحر . غير انه في شتاء سنة ١٩٢٠ اكتست بيروت حلة بيضاء مدة يومين فكان منظراً عجباً . (١)

الحرارة

قلنا ان سبب تعاقب فصلين متمايزين ، فصل شتاء ممطر ، وفصل صيف جاف، مرده الى رياح بحرية تهب على لبنـــان من الغرب فتمطره،ورياح قارية جافة تهب عليه من الجنوب ، او من الجنوب الشرقي ، فتلفحه . وفي فصل الصيف تهب على المنطقة موجات حر مصدرها المنطقة الاستوائية ، وهي رياح جنوبية جافة جداً . وفي سيرهـــا شمالا نحو افريقية الشمالية الغربية ونحو الجزيرة العربية تحتفظ بميزاتها الاستوائية . وجو حوض المتوسط الشرقي الذي يتميز بصفائه وانعدام الغيوم فيه يزيد في شدة الحرارة . وعندما تكون موجة الحر هذه شديدة خانقة يسميهـــا اللبنانيون شلوق. واما في مصر فتحمل هذه الرياح معها رمالا،ويسميها المصريون الخماسين (وهي اختصار ريح الخمسين يوماً) .

والريح الشرقية التي تهب على لبنان ، ومصدرها المحيط الهندي ، ريح حارة جافة كالريح التي تهب من الجنوب . ولكن هذه الريح الشرقية عند وصولها الى لبنان يكون قد طرأ عليها تغيرات . فانها تكون قد فقدت في سيرها غرباً كثيراً من الرطوبة مما يجعلها اشد الرياح جفافاً وحراً . ويسميها العرب ريح السموم ، ويعرفها اللبنانيون باسم الشرقية . ولكن هذه الشرقيةفي لبنان لا تدوم اكثر من ٣ ايام . ولفظة « شرقية » دخلت اللغات الاوروبية (sirocco) بواسطة الايطالية وفي بعض الاحيـــان تهب هذه الرياح الشرقية بعنف وتجلب معها غباراً ورمالا دقيقة.وهذا ما يعرف بالعواصف الرملية التي يرد ذكرهافي الحملات العسكرية التي كانت تعمل داخل هذه المنطقة ، وهـــذه العواصف الرملية هي التي لا تزال الى الان عند الطيارين وشركات الطيران مصدر رعب وخوف في المناطق الصحراوية في الشرق الادنى .

(١) Charles Combier , *Aperçu sur les climats de la Syrie , et du Liban* (Beirut, 1945),pp . 18 - 19 .

ان هذه الرياح الجافة الحارة التي يتميز بها مناخ حوض المتوسط الشرقي ليست الرياح الوحيـــدة التي تستولي عليه . فانه من حسن طالع هذه المنطقة ان الرياح الصيفية السائدة هي الرياح التي تهب من الشمال الغربي . وفضلا عن هذا فان البحر يلطّف من حدة مناخ المنطقة الساحلية . ذلك بان البحر في الصيف اقل حرارة من سطح الارض ، وفي الشتاء اكثر حرارة من وجه الارض . والصخر الكلسي الذي يتألف منه سطح لبنان بوجه عام اسرع امتصاصاً للحرارة من وجه الماء في البحر الابيض المتوسط ، واسرع اشعاعا للحرارة بعد غروب الشمس . فينتج عن هذا ان الهواء الملامس سطح الارض يسخن فيتمـــدد ويرتفع الى الطبقات العليا ليحل محله الهواء الملامس للبحر . وعليه فان هبوب الريح على لبنان يتعاقب ،ففي النهار يهب عليه نسيم البحر ، وفي الليل يهب نسيم البر . وللسبب ذاته نجـــد ان بيروت تنعم ايام الصيف بنسيم يهب عليها من جهة البحر بعد الساعة التاسعة من النهار وتشكو من ركود في الهواء عند مغيب الشمس . ولكن اثنـــاء الليل يأخذ الهواء الذي يهب عليها من جهة البر بتلطيف حرارة الجو . ويذرّي فلاحو لبنان بيادرهم في اوائل الصيف عند هبوب الهواء الشمالي الغربي . وتنعم سفوح لبنان وجباله التي تعلو ١٥٠٠ قـــدم عن سطح البحر بصيف معتدل الهواء قليل الحر مما يجعل هذه الجبـــال بلدا مصيفا للشرق الادنى شبيها بسويسرا . فانه يستهوي المصطافين من سوريـــة وفلسطين ومصر، وفي السنوات الاخـــيرة من العراق والكويت والبحرين والعربية السعودية وقد وصفه احد الشعراء العرب بما معناه :

يحمل الشتاء على رأسه ، والربيع على كتفيه، والخريف في احضانه ، والصيف الناعس عند قدميه .

أن معدل الحرارة في بيروت لشهر تموز (يوليو) ، وهو اشد الاشهر حراً ، ٨٢ درجة فارنهيت يقابله ٨٥ درجة في القاهرة و ٩٧ في البصرة . غير أن الفرق بين حرارة النهار وحرارة الليل قلّ ان يزيد على ١١ درجة ف . لكن الذي يجعل جو بيروت ثقيلا هو كثرة الرطوبة التي تبلغ درجتها القصوى اثناء اشهر الصيف رغم انعدام المطر الكلي . ولذا كانت دمشق بحرارتها القصوى التي تبلغ ٩٧ درجة ف ورطوبتها التي هي ٤٠ ٪ في فصل الصيف تفضل ، من جهة المنـــاخ ، بيروت

بحرارتها القصوى لاشهر الصيف البالغة ٨٩ درجة ورطوبتها ٧٠ ٪ . اما معدل الحرارة لشهر كانون الثاني – وهو ابرد الاشهر – في بيروت فهو ٥٦ درجة فارنهيت يقابله ٥٤ درجة في القاهرة و ٤٧ درجة في القدس [1].

التأكل والسواقي

ان كثيراً من مياه المطر في لبنان تذهب هدراً، وذلك انها تنساب في مساحات شاسعة من طبقات الصخر الكلسية . على ان بعض هذا الماء يغور ويتجمع في خزانات وكهوف كبيرة تحت الارض – وهي وسيلة طبيعية لتخزين الماء – يتفجر منها عيون وينابيع كثيرة . وكثيراً ما تكون هذه الينابيع العامل في تحديد المناطق التي تصلح للسكن . فاننا نجد مثلا في منطقة نصف قطرها ٣ اميال على التلال المشرفة على بيروت خمس قرى اسماؤها تبدأ بلفظة « عين » : وهي عين الرمانة وعيناب وعين عنوب وعين كسور وعين درافيل . وهنالك جنائن وبساتين ترويها مياه غزيرة مصدرها هذه الخزانات الطبيعية في جوف الجبل والتي تتدفق بشكل ينابيع وعيون في وسط القرى أو عند السفوح القريبة من هذه القرى . هذه الينابيع التي لا عد لها والتي تتفجر عند سفوح التلال الغربية من لبنان مصدر خصب وغنى . اما السفوح الشرقية فان الينابيع فيها قليلة ولذا كان عدد القرى المنتشرة هناك أقل مما هو على السفوح الغربية . وتقلّ هذه الينابيع كثيراً عند سفحي لبنان الشرقي ، ولذا نجد ان هذه السفوح لا تصلح لتعمير القرى .

ان ماء المطر الذي لا تمتصه الطبقات الكلسية يسحّ من على جوانب التلال ويتجمع في أخاديد تنصب في سواق ترتفع مياهها ارتفاعاً ملموساً بعد ان يهطل المطر الشديد ، ولكنها تتقلص في الصيف الى مجار فيها أثر من ماء ، وبعضها يجف تماماً . وسحّ ماء المطر الشديد من على السفوح الى جانب عوامل التفتت أو التأكل في الصخر عبر العصور ادت الى جرف التربة من مناطق كانت يوماً خصبة فجعلتها أرضاً جرداء لا تصلح للزراعة . وبعد المطر الشديد يرى المرء عند مصب الانهر والسواقي على بعد اميال في البحر بقعاً تبدو وَحِلةً ، وألوانها تختلف

(١) راجع : لبنان ص ٩٩ – ١٠٠

باختلاف نوع التربة في التلال المجاورة . وقد تظل هذه البقع بادية للعيان ساعات واحياناً أياماً . ومن العوامل التي تعمل على انجراف التربة قطع الغابات ، وقطع الغابات جريمة لا تغتفر . وكذلك عدم تحديد المناطق التي يُسمح فيها للرعاة، ولا سيما لرعاة قطعان الماعز ، برعي قطعانهم . من المعلوم ان جذور الاشجار والشجيرات تساعد وجه الارض على الاحتفاظ بالتربة عند سقوط الامطار الشديدة . ويضاف الى هذه العوامل عامل آخر هو الاساليب الزراعية العتيقة في أرض توطنها ، ولا يزال يتوطنها، الانسان منذ أقدم العصور . فلا يجوز ان نعزو انخفاض نتاج الارض في منطقة الشرق الادنى الى نظرية الجفاف الذي مرده الى تغير جذري في الحالة الجوية للمنطقة ــ اذ ليس هنالك ما يعزز صحة هذه النظرية في الاعصر التاريخية - بل الافضل ان نعزوه الى التأكل في جوانب السفوح والى سحّ الماء الجارف والرياح الذارية وانعدام الاحراش وبالتالي قلة موارد الماء .

الى جانب هذه السواقي التي جئنا على وصفها في الفصل الثاني يجدر بنا ان نأتي على ذكر نهر الكلب الذي يجهز بيروت بمياه الشرب . فانه ، بعد الليطاني ، أكبر نهر على الشاطىء اللبناني . وفي العصر الروماني كانت مدينة بيروت تشرب من نهر بيروت (واسمه الكلاسيكي ماغوراس). ولا تزال آثار القناة القديمة لجر مياه النهر قائمة عند مكان يعرف بقناطر زبيدة[١] . وقد سمي هذا النهر بنهر الكلب نسبة الى ما ظنه الناس خطأ انه تمثال كلب نحت في الصخر . وكان هذا الكلب يحرس المضيق ، فكان ، عند اقتراب العدو ، ينبح فيسمع صوت نباحه ـ كما تقول الاسطورة ــ في كل أرجاء المحلة ، فيتنبه السكان للخطر المداهم . ويرجح ان العرب عندما افتتحوا البلاد حطموا التمثال ورموه في البحر كرها للتماثيل والصور. وقد بقي التمثال مغموراً في الماء حتى عام ١٩٤٢ عندما عثرت عليه الفرقة الاسترالية التي كانت تقوم ببعض الاعمال العسكرية في هذه المنطقه . وقد وجد ان التمثال ليس تمثال كلب بل ذئب ، وهو محفوظ الآن في المتحف اللبناني الوطني في بيروت. وقد سماه مؤرخو اليونان والرومان نهر الذئب لا نهر الكلب (Lycus ومعناه الذئب) . وقد ذكر الجغرافي سترابو[٢] ، ان بحارة ارواد (Aradus) كانوا

(١) وهي زنوبيا ملكة تدمر . وقد اختلط اسمها عند العامة باسم زبيدة زوجة هارون الرشيد .

(٢) Bk. XVI, ch. 2, sec. 17 .

يبحرون بمراكبهم في النهر صعوداً الى منابعه ، وهو قول يصعب تصديقه لان طبيعة الشق في الصخر من مصبه الى منبعه لا تسمح للمراكب ان تسير فيه ، هذا إلا اذا كانت دلتاه فيما مضى من الزمن أطول مسافة . لان المسيل الحالي من مصب النهر الى نبعه في مغارة جعيتا لا تزيد على ٥ أميال . ومغارة جعيتا — وهي أكبر مغارة في لبنان — مغارة عجيبة ذات مناظر من الداخل رائعة لما فيها من الترسبات الكلسية المتدلية بشكل مقرنصات واخرى مرتفعة من ارض المغارة وقاعات فسيحة واعمدة يبلغ ارتفاعها أكثر من ١٠٠ قدم . وهي من الاماكن التي يقصدها السياح ، وقد استطاع روادها في المدة الاخيرة ان يدخلوها بقوارب الى مسافة تزيد على ٣ أميال. وقد ذكر قسيس انكليزي[١] مر من هناك سنة ١٦٩٦[٢] ، ان تسميته بنهر الكلب سببها قيام صنم هناك شكله شكل كلب كان يعبده سكان المحلة. ونرجح انه زمن السيطرة المصرية اقيم هناك عند مصب النهر تمثال آلهة مصرية يشبه حيواناً ، او انساناً رأسه رأس حيوان .

على بضعة اميال من نهر الكلب الى الجنوب يقع نهر الدامور الذي يسمى باسم بلدة قريبة من مصبه تدعى الدامور . وقد يكون اسم الدامور اسم اله فينيقي ، (Damuras) الذي كان ابا الاله الفينيقي ملقارت[٣] . والنبع الاولي الذي يغذيه نبع الصفا بالقرب من عين زحلتا ، وهو نهر يسقي المنطقة الساحلية الخصبة بالقرب من الدامور . وقد كان هذا الساحل الى زمن قريب مشهور بزراعة التوت وتربية دود الحرير . اما اليوم فهو حدائق برتقال وموز وخضار .وقد جر الامير الشهابي (توفي ١٨٥٠) بعض مياه نبع الصفا في قناة الى مقر امارته في بيت الدين والى دير القمر . ولا تزال البلدتان تنتفعان بمياه هذه القناة. والى جنوبي نهر الدامور يجري نهر الاولي الذي يُغذّي مياهه في اعالي مجراه نبع الباروك، ثم ، بعد جريانه الى البحر ، شلال جزين الذي يعد اعلى شلال في لبنان . وقد عرف هذا النهر

---

(١) Henry Maundrell, *A Journey from Aleppo to Jerusalem*, 2nd. ed. (Oxford, 1707), p. 36 .

(٢) من عنوان الكتاب على الصفحة الاولى يظهر ان السنة ١٦٩٧ ، وسبب هذا الاختلاف يرجع الى التعديل الغريغوري لتقويم يوليوس قيصر .

(٣) راجع ما قيل عن هذا الاسم في كتاب « اسماء القرى والمدن اللبنانية (فريحة) ص ١٣٩ .

بالعربية في العصور المتوسطة بنهر الفراديس واسمه في المصادر الكلاسيكية بوسترانوس. [١] وهذا النهر يسقي بساتين البرتقال في صيدا، وبرتقال صيدا معروف في كل انحاء الشرق الادنى.

النبات

ان ارتفاع الأرض في لبنان وتنوع تربته وتعرضه لامطار الشتاء ونور الشمس، وجودة مناخه، جميع هذه العوامل الطبيعية تجعل من لبنان ارضاً ذات نبت وشجر متنوع قل ان تجد له مثيلا في بقعة من الارض مساحتها مساحة لبنان. فان بعض اوديته يمتد في اتجاه شرقي غربي، وبعضها الآخر في اتجاه شمالي جنوبي. وهذا الاختلاف في الاتجاه يتبعه اختلاف في مقدار التعرض للشمس وللرياح مما يجعلها اودية ممتازة لزراعة مختلف النبات. وقد استرعت جودة النبت في لبنان، وتنوع شجره وفاكهته وخضاره نظر السياح والعلماء على ممر الاجيال. ومثاله ما ذكره الدمشقي الذي كتب حوالي ١٣٠٠ حيث قال: [٢]

« وفي جبل لبنان، ولا سيما عند سفوحه، قرابة تسعين نوعاً من انواع النباتات والحشائش التي تنمو بصورة طبيعية دون عناية الانسان بها ؛ فهي في متناول جميع الناس مع العلم بأن منافعها عظيمة ... وتكثر الفاكهة فيه ».

ويقدر جورج بوست [٣] — وهو اول عالم باحث تناول نبت لبنان بدراسة علمية مركزة — أن عدد انواع النبات في لبنان، وفي البلدين المجاورين له، فلسطين وسورية، يبلغ ٣٥٠٠ نوع. ومما يزيد في جمال لبنان روعة ازاهيره: شقائق النعمان والاقحوان والبرواق ودويك الجبل والدفلة. حشائشه وشجيراته ذات

(١) من اسم قرية تعرف بقرية بسري لان النهر يمر فيها. اما لفظة الفراديس ففارسية الاصل ومعناها جنائن. واسمه الحالي الاولي نسبة الى انه ـ ر صيدا وهي المدينة الاولى التي اصبحت في القرن السادس عشر عاصمة لبنان الجنوبية. راجع ايضاً « فريحة » ص ١٤.

(٢) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر طبعة A. F. Mehren (بطرسبورج ١٨٦٥ – ٩٨٦٦) ص ١٩٩ – ٢٠٠.

(٣) George E. Post, *Flora of Syria, Palestine and Sinai*, 2 nd. ed. vol. I, (Beirut, 1932), p. iii.

الزهر العطر تضمخ جوه برائحة عبقة ، ووجه أرضه في الربيع سجادة خضراء . ومزارعه على السفوح المدرجة صورة زيتية رائعة الالوان .

«رائحة ثيابك كرائحة لبنان» يقول الشاعر الغنائي القديم ناظم نشيدالانشاد[١] « وله رائحة كرائحة لبنان » يقول نبي آخر من انبياء العهد القديم [٢]. ومما يزيد في جمال موسم الزهر في لبنان هو هذا التباين في المناظر الطبيعية زمن الربيع عندما تورق الاشجار ، واثناء الصيف عندما يذبل الورق ويجف العشب تحت اشعة الشمس المحرقة . وقد خلد الشاعر جمال الربيع في لبنان عندما غنى :

« هلمي معي من لبنان ، يا عروس معي من لبنان » [٣] اسمعه يقول .
« لان الشتاء قد مضى والمطر مرّ وزال
الزهور ظهرت في الارض ، بلغ اوان القضب
وصوت اليمامة سمع في ارضنا . التينة
اخرجت فجها وقعال الكروم تفيح رائحتها
قومي يا حبيبتي يا جميلتي وتعالي »[٤]

موطن الزهر

هنالك مناطق نبات مختلفة الواحدة الى جانب الاخرى . فان نباتات المنطقة الساحلية والسفوح الواطئة في السلسلة الغربية تشبه الى حــدّ بعيد نباتات المنطقة المتوسطية الساحلية . وابرز هذه الاشجار شجرة النخيل والصنوبر والازدرخت والجمّيز والاكاسيا (وقد ادخلت هــذه الشجرة الى البلاد في الآونة الاخيرة) والتوت والدالية والتين والزيتون والموز والبرتقال وسواها من اشجار الفاكهة . اما شجرة الصنوبر (الصنوبر البري) في لبنان فانهــا مصدر للاخشاب والوقود

(١) نشيد الانشاد ٤ : ١١
(٢) هوشع ١٤ : ٦ .
(٣) نشيد الانشاد ٤ : ٨ .
(٤) نشيد الانشاد ٢ : ١١ — ١٣ .

وجذوعها تستخدم جسوراً يقوم عليها سقف البيت الترابي ، وهو السقف الذي كان ، حتى زمن قريب ، يعتمد على جذوع اشجار الصنوبر (امـــا الآن فانهم يستعيضون عنه بالاسمنت المسلح) . امـــا الموز ، وموطنه الاصيل الملايو ، فقد دخل البلاد عن طريق الهند فايران فالعالم العربي . ويظن بعضهم ان شجرة الجنة المـــذكورة في القرآن الكريم (سورة ٧ : ١٨، ١٩، ٢١وسورة٢٠ : ١١٨) هي شجرة الموز . واقدم ذكر لها في الادب العربي نجده في المسعودي (توفي٩٥٦)[١] اما اسمه العربي « موز » فتحريف للفظ السنسكريتي موكا (moca) . وقد نقل العرب زراعةهذه النبتة الى افريقية حتى شاطئها الغربي ومن هناك نقلها البرتغاليون الى العالم الجديد .

اما الاشجار المثمرة التي كان الانسان في الاعصر القديمة يزرعها ويعنى بها نسبة لما يجنى منها فقد كانت شجرةالتين والكرمةوشجرة الزيتون . وهذه الاشجار الثلاث تتحمـــل فصل الجفاف . وهي اشجار اصيلة في لبنان ، او في المناطق المجاورة له ، حيث انها تنمو طبيعيا دون اعتناء من قبل الانسان . ولا تزال هذه الاشجار الثلاث تغطي مساحات كبيرةفي سفوح لبنان من الساحل الى علو ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ قدم (غير ان الزيتون يفضل المناطق المنخفضة والساحلية) . وقد كانت شجرة التوت ، الى زمن قريب جدا ، الشجرة الرابعة من حيث النفع الاقتصادي. اما الكرمة فقد نقلها اللبنانيون القدماء ، الفينيقيون ، الى ارض اليونان ومن هناك ادخلت الى ايطالية . وللكرمة زمن الزهر رائحـــة عبقة تغنى بها النبي العبري القديم[٢] . وقد انتقلت شجرة الزيتون ، فيما مضى من الزمن ، مع الكرمة ، او على اعقاب الكرمـــة ، من الشرق الى الغرب وظلت شجرة التوت حتى الحرب العالمية الاولى مورد رزق عظيم عند اكثر الفلاحين . فان شجرته تعطي موسمين من الورق ، موسماً ربيعياً يربون عليه دود القز وموسماً خريفياً يسمنون به خرافهم وعجولهم .

---

(١) مروج الذهب طبعة وترجمة C . B . de Meynard الجزء الثامن (باريس ١٨٧٤) ص ٢٣٨ .

(٢) هوشع ١٤ : ٧

اما المنطقة النباتية الثانية فتمتد من علو ١٦٠٠ قدم الى ٦٥٠٠ قدم . وقد كانت هذه المنطقة منطقة غابات لم يتبق منها ، لسوء طالع لبنان ، سوى آثار غابات هنا وهناك . هذه المنطقة هي منطقة الصنوبر الحلبي (ويسميه اهل البلاد الصنوبر الجوي) وشجر السنديان بنوعيه الدائم الاخضرار ،واسمه سنديان ، والنوع الذي يتناثر ورقه في الخريف واسمه الملول ، والصفصاف والحور والجوز والاكاسيا — في المناطق الرطبة فقط — والخروب وغيرها من الاشجار . وتكسو غابات الصنوبر بعض منطقة المتن ، وهي منطقة من اجود المناطق اللبنانية صحة ومناخاً . وبعد الحرب العالمية الثانية اخذ السكان بزراعة الفاكهة على نطاق واسع وباساليب حديثة ، كزراعة انواع من التفاح الجيد والاجاص اللذين ادخلا حديثاً الى لبنان من الولايات المتحدة ، وبادخال انواع جديدة دخلت ايضاً اساليب زراعية جديدة . وقد حلت جنائن التفاح محل مغارس التوت . ويجد اللبنانيون لفاكهتهم اسواقاً في مصر والعربية السعودية والعراق حيث اخذ مستوى العيش بالارتفاع تبعاً لضخامة المداخيل التي تعود على البلاد من ريع النفط . وبما أن الامطار لا تسقط في فصل الصيف فان على الفلاح اللبناني ان يسقي جنائنه من ينابيع المياه او من احواض يجمع فيها ماء الشتاء . وفاكهة لبنان لذيذة الطعم شهية المنظر . فان تفاح لبنان يفوق طعماً وجمالا التفاح الاميركي الذي يعتبر اماً للتفاح اللبناني . ومرد ذلك الى اشعة الشمس التي تقع على شجرة الفاكهة وثمرها طيلة الصيف فينضج الثمر نضوجاً تاماً . وفي الالف القدم الاخيرة من هذه المنطقة النباتية تنمو اشجار السرو والارز كما هو الحال في وادي قاديشا الذي تكثر فيه اشجار السرو .وينمو في هذه المنطقة ايضاً شجر الشوح الذي يرد ذكره في اماكن مختلفة في العهد القديم عند ذكر لبنان .

اما المنطقة الالبية في لبنان ، وهي التي تبدأ على علو ٦٥٠٠ قدم فتقل فيها الاشجار خلا شجيرات هنا وهناك من نوع الشوح والسنديان والعرعر والبربريس وجميعها من نوع النبت الذي يظهر فيه عدم التكامل في النمو .

أما السهل النجدي الذي يقع بين سلسلتي لبنان ، البقاع ، فانه يشكل منطقة قائمة بذاتها . فان في هذه المنطقة تنمو تلك الاشجار التي تنمو في المنطقة النباتية

الاولى التي تكلمنا عنها ، وبعض اشجار المنطقة الثانية . وفي هذه المنطقـــة تزرع النباتات التي تشكل غلالها المصدر الاول لقوت الانسان : القمح والشعير والذرة الصيفية . ولا يزال سكان هذه المنطقة يخلطون حب هذه المواسم الثلاثة : (القمح والشعير والذرة) ويطحنونه ، ومن طحينه يصنعون خبزهم كما كان يفعل آباؤهم ايام حزقيال النبي (٤ : ٩) . وتنمو نبتة القمح البري والشعير البري على حالتها الطبيعية في البقاع وفي سورية وفلسطين . ويرجح ان الانسان القديم أنّس هـــذه النبتة في هذه المنطقـــة . أما الذرة الصفراء فقد ادخلت زراعتها الى البـــلاد في المدة الاخيرة من أميركا . وقد عني الانسان منذ القدم بزراعة العدس والقطاني وسائر البقول التي تنتمي الىالفصيلة القرنية لانها لا تزال الى يومنا هذا من الاطعمة الرئيسية في منطقة الشرق الادنى . وقد اضيف حديثاً الى قائمة الخضار المعروفة في المنطقة منذ أقدم العصور – كالبصل والثوم والخيار والقثاء ــ قائمة اخرى من البندورا والبطاطا والتبغ ، وجميعهـــا دخلت البلاد من العالم الجديد . ومن جمـــلة الحشائش ذات الرائحة أو ذات المنفعة الطبية ، نذكر الشمرة والختمية والنعنـــاع والصعتر والخشخاش . أما علف المـــاشية الرئيسي ، فالباقية والكرسنة والبرسيم والقصيل . ويشكل لبنان الشرقي منطقة نباتية مختلفة . فان الحر الذي يصيب هذه المنطقة الى جانب قلة المطر ، لا سيما في الاماكن العليا منها ، يجعلان المنطقة نوعاً من الصحراء التي لا وجود فيها للاشجار ، انما تنمو فيها الشجيرات الشوكيـــة القاسية . والعشب يظهر فيها في اوقات معينة لمدة قصيرة ثم ييبس .

وقد مر على البلاد حين من الدهر كانت فيه السلسلتان اللتان يتألف منها لبنان، ولا سيما الغربية منهما ، مكسوتين بغابات كثيفة لم يبق منها شيء يذكر، لانها كانت تقطع على مدى العصور للوقود وللبناء . ولذا يسمي اهل البلاد المناطق العاليـــة بالجرود لانها جرداء . ويظهر من النقوش الكتابية على صخور لبنـــان أن بعض اباطرة الرومان جربوا ان يحولوا دون القضاء على الغـــابات وأن يبقوا على بعض المناطق منها . ولكن عملية القطع ظلت على ما كانت عليه قبل الاحتلال الروماني وبعده . ومما يسر امر اجتثاث الغابات سهولة الوصول اليها وانعدام الاشجار التي

تصلح لصنع الخشب في الممالك القوية التي نشأت في العراق القديم وفي وادي النيل. فكان لبنان بلداً يستهوي الغزاة لغناه بالاخشاب . وما حدث في العصور القديمة حدث ايضاً في الثلاثين سنة الاولى من القرن التاسع عشر . فقد استهوت غابات لبنان محمد علي كما استهوت اسلافه من الحكام الفراعنة منذ ٤٠٠٠ سنة أو ما يربو على ذلك . وقد بلغ قطع الاشجار الذروة في الجريمة اثناء الحرب العالمية الاولى عندما لجأ الاتراك ، دون شفقة أو رحمة ، الى قطع الغابات وقوداً لتسيير القطر الحديدية . ويقدر ان ٦٠ ٪ من اشجار لبنان اقتطعت اثناء السنوات الثلاث من الحرب [١] . وفي الحرب العالمية الثانية تابع الانلكيز والافرنسيون عملية قطع الغابات . وقد ركزوا اعمال القطع في بلاد عكار لبناء خط السكة الحديدية التي انشأوها على الشاطىء اللبناني اثناء هذه الحرب .

شجرة الزيتون

هنالك شجرتان كانتا ابداً تقرنان بلبنان في الادب والتاريخ : شجرة الزيتون والارز . وشجرة الزيتون في لبنان شجرة اصيلة . واقدم ذكر لشجرة الزيتون جاء في نقوش اوغاريت (رأس الشمرا) التي يعود عهدها الى القرن الخامس عشر ق.م. وجرار الزيت التي كانت تستخدم توابيت يدفن فيها الاموات يرجع عهدها الى ذلك التاريخ . وحمامة نوح رجعت الى الفلك تحمل في منقارها غصن زيتون . ومنذ ذلك العهد السحيق وغصن الزيتون يرمز الى السلام. وفلسطين في نظر كاتب من كتاب اسفار التوراة ليست سوى « بلاد زيت الزيتون » [٢] وشجرة الزيتون لا تحتاج الى كبير عناء من قبل الزارع ، ولكنها عظيمة الغلة . وقد كان ثمرها ولا يزال عند عامة الناس مصدر طعام اولي . ويقول المثل اللبناني « الزيت عماد البيت» والزيت في المطبخ اللبناني يأخذ محل الزبدة في المطبخ الاوروبي . وكان اللبناني الى عهد قريب يحرق الزيت في السراج لانارة بيته [٣]. والزيت مرهم لجرحه ،

(١) لبنان ص ٣٨٣

(٢) تثنية ٨ : ٨ .

(٣) راجع سفر الخروج ٢٥ : ٦ ، وانجيل متى ٢٥ : ٣ .

ويدخل في صناعة الدهون العطرية [١] والعلاجات الطبية [٢] . ولأن الزيت كانت تمسح به رؤوس الملوك عند تنصيبهم نيابة عن الالهة فقد اصبح مقدساً [٣] . ولا يزال مقدساً عند الناس في هذه المنطقة الى يومنا هذا . فان الكاهن يمسح جبين المحتضر بالزيت . وقشرة حبّ الزيتون بعد ان يعتصر منها الزيت تصلح علفاً ممتازاً للماشية ، ونواة الزيتون مادة وقود . وقد تغنى بجمال شجرة الزيتون احد انبياء العبران [٤] ، كما تغنى كاتب المزامير بحنوها وكرم نتاجها [٥] . وهي اول شجرة عرض عليها ان تكون ملكة الاشجار . فقد جاء في سفر القضاة ٩:٨ «...ذهبت الاشجار لتمسح عليها ملكاً فقالت للزيتونة املكي علينا . » وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم « من شجرة مباركة زيتونة » (سورة النور ٣٤) . ويقدر ان عدد اشجار الزيتون في لبنان يبلغ ٦٠٠ الف شجرة في ارض مساحتها ٣٤ الف فدان [٦] .

وهنالك غابة زيتون كبيرة في منطقة الكورة واخرى على الساحل بالقرب من الشويفات . وهذه الاخيرة تعد ، بعد غابات اسبانية وكليفورنية الجنوبية ، من اكبر غابات الزيتون في العالم . وبين غابة الشويفات والبحر شاطىء أحمر الرمل فيقول سكان المنطقة على السفوح ان قراهم تشرف على ثلاثة ابحر ، بحر اخضر (من الزيتون) وبحر أحمر (من الرمل) وبحر ازرق .

الارز سيد الغابات في لبنان

وأشهر شجرة في لبنان وأجملها شجرة الارز ، واسمه النباتي العلمي : (Cedrus libani) أي الارز اللبناني . وبقاياه اجمات صغيرة تبدو كباقات زهر على صدر لبنان العاري . من هذه الغابات اثنتان – وهما ليستا من ذوات الاشجار

---

(١) راجع سفر الخروج ٣٠ : ٢٥ ، صموئيل الثاني ١٤ : ٢ ، مزمور ٢٣ : ٥ .

(٢) صموئيل الاول ١٠ : ١ ، اشعياء ١ : ٦ ، انجيل مرقس ٦ : ١٣ ، انجيل لوقا ١٠ : ٣٤ .

(٣) مزمور ٨٩ : ٢٠ .

(٤) هوشع ١٤ : ٦ .

(٥) مزمور ١٢٨ : ٣ .

(٦) علي ن . الطاهر : شجرة الزيتون (عمان ١٩٤٧) ص ١٣٢ . وراجع ايضاً روحي جميل : بيروت والجمهورية اللبنانية (بيروت ١٩٤٨) ص ٦٠

القديمة العهد ــ تزينان قم جبل الباروك ، حيث يطلق عليهما الاهالي اسم «ابهل[١]» ، احداهما فوق بلدة عين زحلتا والاخرى فوق معاصر الشوف . وهنالك غابات اخرى تقع فوق حدث الجبة واهدن . ولكن شجرة الارز اليوم لا تحتل ذلك المكان المرموق الذي كانت تحتله زمن اشعياء النبي (عاش حوالي ٧٣٠ ق. م.) اذ يقول : « يزهر ازهاراً ويبتهج ابتهاجاً ويرنم ، يدفع اليه مجد لبنان[٢] » . وفي مكان آخر يقول : « مجد لبنان يأتي اليك : السرو والسنديان والشربين معاً لزينة مكان مقدسي[٣] » .

أما أشهر مجموعة من اشجار الارز على الاطلاق فهي الاجمة القائمة فوق بشري المشرفة على وادي قاديشا ، حيث يوجد هنالك ما يقرب من ٤٥٠ شجرة ترتفع الى العلاء باباء[٤] . وتفد كل سنة على هذه الاجمة الوف الحجاج والسياح من كل اطراف العالم . وأقدم سائح أتى على ذكرهـا رجل افرنسي في اواسط القرن السادس عشر . ويظهر ان « اشجار الارز الباسقة التي تشبه الارز الذي بنى به سليمان هيكله »[٥] ، تركت في نفسه احسن الانطبـاع . وزار الارز ايضاً عالم في النبات الماني عام ١٥٧٣ ، ويقول انه لم يعثر على أكثر من ٢٤ شجرة[٦] . أمـا دنديني[٧] القاصد الرسولي اليسوعي لدى البطريرك الماروني من ١٥٩٥ ــ ١٥٩٦

(١) على وجه التدقيق هو نوع من العرعر (*Juniperus Sabina*) ولكن الناس هنـاك يخلطون بين هذه الكلمة وبين الارز .

(٢) اشعيـاء ٣٥ : ٢ .

(٣) اشعياء ٦٠ : ١٣ .

(٤) George E. Post, *The Botanical Geography of Syria and Palestine* (London, 1885), pp. 36 - 7; Albert E. Ruthy, *Die Pflanze und ihre Teile in biblisch - hebraischen Sprachgebrauch* (Bern, 1942), pp. 41 - 2.

(٥) Pierre Belon du Mans, *Les observations de plusieurs singularitez et choses memorables, trouvées en Grece, Asie, Judée Arabie, et autres pays estranges* (Paris, 1555) p. 153.

(٦) Leonhard Rauwolff, *Itinerary into the Eastern countries*, *tr.* N. Staphorst (London, 1698), p. 229.

(٧) Jerome Dandini, *A Voyage to Mont Libanus*, tr. from Italian (London, 1698), p. 41.

لم يستطع ان يحصي اكثر من ٢٣ شجرة . وقد جاء على ذكر هـذا العدد ايضاً (٢٣ شجرة) سائح افرنسي آخر ، وذلك عام ١٦٦٠[١] . وهنالك سائح آخر زار الارز قبل هـذا الاخير ببضع سنوات ولم ير سوى ٢٤ شجرة من شجرات الارز التي « هي تاج الغابات والاحراش » ، والتي رؤوسها « تعـانق السحب وتختال بارتفاعها هازئة باطول الاشجار وأرفعهـا »[٢] . وفي أوائل القرن الثامن عشر ذكر احدهم ان هنالك ما يقرب من احدى وعشرين شجرة ارز « من تلك الاشجار الهائلة »[٣] . غير ان فولني[٤] الذي زار غابة الارز عام ١٧٨٤ ، لم يبدأي اهتمام بها . فقد ذكر انّ اربعاً أو خمساً منها تسترعي انتباه المرء . أما بوركهارت[٥] العالم السويسري الذي زار الارز عام ١٨١٠ فقد احصى إحدى عشرة او اثنتي عشرة شجرة من الاشجار القديمة جداً ، وخمساً وعشرين شجرة كبيرة جـداً ، وخمسين من ذوات الحجم المتوسط ، واكثر من ٣٠٠ شجرة أصغر حجماً وأقل عمراً . وهنالك عالم اوروبي آخر جاء عـام ١٨٨٤ وأحصى ٣٩٧ شجرة[٦] . وذكر مبشر اميركي زار الغابة قبل هذا الاخير بسنة ان هنالك «ثلاث مئة وتسعين شجرة أرز ، عشرة منها او اثنتي عشرة منها عظيمة الجذوع ، غير ان ارتفـاع اطولها لا يزيد على ٨٠ قدماً»[٧] . وفي أواخر سني ١٨٧٠ بنى رستم باشا حـاكم

---

(١) Le Chevalier d'Arvienx, *Mémoires*, vol. II (Paris, 1735) p. 49.

(٢) William Lithgovv, *The Totall Discourse of the Rare Adventures* (Lyon, 1632). pp. 190-1.

(٣) De La Roque, *Voyage de Syrie et du Mont-Liban* (Amesterdam, 1723), vol. 1, p. 68.

(٤) C.-F. Voleny, *Voyage en Syrie et en Egypte, 2nd ed.* (Paris 1787), vol. 1, p. 264, vol. II, p. 162.

(٥) John L. Burckhardt, *Travels in Syria and the Holy Land* (London, 1822), p. 19.

(٦) Les Anderlind in *Zeitschrift des deutschen Palestina Vereins,* vol. X (1887), p. 92.

(٧) Henry W. Jeseup in Colonel (Charles W.) wilson, *Picturesque Palestine, Sinai and Egypt* (New York 1883) Vol. II, p. 24; Cf. George Ebers and Hermann Guthe, *Palestina, in Bild und Wort* (Stuttgart, 1884) vol. II p. 14.

لبنان جداراً حول الغابة . وقد ساهمت الملكة فكتوريا بدفع بعض نفقات بنائه ، وعينت حراساً يحرسون الغابة من الاضرار التي تلحقها بها قطعان الماعز . والواقع ان اشجاراً قليلة جداً يبلغ عمر الواحدة منها ١٠٠٠ سنة . وأحسن هذه الاشجار نضارة وقوة هي تلك الارزة العظيمة القائمة الى جانب كنيسة مارونيـة صغيرة هناك . وأطول شجرة يبلغ ارتفاعها ٨٠ قدماً .

وفي عام ١٦٩٦ قاس مندرل الذي جئنا على ذكره آنفاً احدى الاشجار التي عدها اضخمها ووجد ان محيط جذعها يبلغ ١٢ يرداً ونصف اليرد، ومحيط الدائرة الذي يبلغه امتداد اغصانها ٣٧ يرداً . وقد اتخذت الجمهورية اللبنانية شعاراً لهـا ارزة من هذه الغابة . وليس تقديس اللبنانيين ارزهم الذي يسمونه « ارز الرب» سوى صدى لما ردّده قبلهم صـاحب المزامير (مزمور ١٠٤ : ١٦) حيث يقول : « تشبع اشجار الرب ارز لبنـان الذي نصبه » . وهذا الاحترام للارزة الذي يبلغ درجة التقديس ساعد كثيراً على المحافظة عليها من الفناء . ففي كل سنة يحتفل بقداس حاشد تحت ظلال الارز . ويعتقد اللبنـانيون ان في جذوع الارزة قوة عظيمة تقاوم كل حشرة فتاكة ، وفي اغصانها صلابة سحرية تجعلهـا تهزأ بالثلج وثقله . ويظهر ان « خشب الارز » المذكور في اسفـار العهد القديم هو الخشب الذي كانوا يتخذونه في الفروض الدينية للتطهير [١] . ولا يزال الناس الى يومنا هذا يتبركون بصلبان صغيرة مصنوعة من خشب ارز الرب. وقد تنسك مرة احد النساك اللبنانيين في جوف جذع من جذوع هذه الاشجار ، وكان يعيش على الماء المتقطر من جوف الشجرة . ويرى الزائر الى يومنـا هذا جوف هذا الجذع العظيم يتحلب منه الماء .

ومن خشب الارز الممتاز كان اللبنانيون القدماء يصنعون مراكبهم. وقد تغنى شعراء وانبياء ومؤرخون بجودة هذا الخشب وطيب رائحته . وكثيرة هي الآيات في اسفار العهد القديم التي تشير الى صلابته (مزمور ٢٩ : ٥) ومقاومته (ارميا ٢٢ : ١٤) وجلال قدره بين الاشجار (سفر الملوك الثاني ١٤ : ٩ ، زكريا ١١ : ١ ـ ٢) وحسن ملاءمته (اشعيا ١٤ : ١٤ ـ ١٥) وعظمة ارتفاعه (اشعياء ٢ :

(١) سفر اللاويين ١٤ : ٤ ، وسفر العدد ١٩ : ٦

١٣ وحزقيال ١٧ : ٢٢) . وقد عثر في الحفريات التي اجريت في مدينـــة نينوى على جسر من الارز ، وعندما احرقوا منه شظيـــة وجدوا انه « لا يزال يحتفظ بعبيره »[١] بعد ان مر على طمره في الارض مـــا يزيد على ٢٥٠٠ سنة . وهذه الاشارات في كتب التوارة الى طول شجره (كما في سفر الملوك الثاني ١٩ : ٢٣) والى علو ارتفاعه (كما في سفر حزقيال١٧ : ٢٢) والى« ارز لبنان العالي المرتفع» (كما في اشعياء ٢ : ١٣) هذه وغيرها تشير الى ما كانت عليه ضخامة الارز اللبناني وعظم ارتفاعه ، وكما لا يزال للآن .

حيوانات لبنان

ان حيوانات الشرق الادنى التي يذكرها لنا التاريخ الكلاسيكي تتمثل اكثرها في حيوانات لبنان . ولا نستطيع ان نقول بان احد هذه الحيوانات يتمتع بميزات فائقة ممتازة . ولكن تجدر الاشارة الى بعض هذه الحيوانات الاليفة كالحمار والبغل والحصان والماعز والغنم والبقر . جميـــع هذه الحيوانات ، باستثنـــاء الحصان ، حيوانات آسيوية ؛ كما ان الدجاج والكلاب والهررة حيوانات أسيويـــة ايضاً ، وجميعها دُجِّنَت في غربي آسية منذ أقدم العصور . ومن هنـــاك (غربي آسية) انتقلت الى اوربة ، ومن ثَمَّ الى العالم الجديد . أما الحصان ، وموطنه الاصيل أميركا ، فقد دجن في البلاد الواقعة شرقي بحر قزوين، ومن هناك انتقل الى الحثيين ومنهم الى الهكسوس (دولة الرعاة) الذين أدخلوه سورية ولبنـــان ومصر قبل الميلاد بسبعة عشر قرناً .

وقبل ان يعرف الانسان الماكينات التي تقوم اليوم باعمالنا، كان الحمار الحيوان الرئيسي الذي يستخدم في النقـــل والمواصلات . وهو في الجبل الوعر كالجمل في الصحراء : ثابت الحافر ، جلود ، صبور ، يعتمد عليه . فانه يستطيع العيش على قليل من الماء وعلى علف هزيل من شوك وهشيم ، ناهيك عن انه حسن التكيف على الحياة الجبلية . ولا ننسى ان قافلة الجمال تعتمد دوماً على قيادة الحمار . أما من

(١) Austin H. Layard, *Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon* (London, 1853) p. 357 .

جهة العدد ، فإنّ الماعز في لبنان اكثر الحيوانات الداجنة[١] . والماعز من الحيوانات التي تجد في كل نوع من النبت واعقاب النبت ـ حتى والمرّ منها ـ طعاماً مريئاً . فهو ، ربما باستثناء الجمل ، حيوان فريد بين الحيوانات في قضمه كل ما يقع عليه في وعر لبنان . والماعز ، الى جانب كونه ثابت الظلف يمشي في أخطر المزالق ، يجمع بين الرشاقة والخفة في الحركة . فانه يستطيع ان يتسلق سفوحاً عظيمة الانحدار حيث لا يجرؤ حمار ان يخطو خطوة . وشعر الماعز وحليبه ولحمه مصدر عيش لقسم كبير من الجبليين . ومن ناحية ثانيه فانه من ألد اعداء الثروة الطبيعية للبلاد، لانه يلتهم صغير الشجر الذي لا غنى لاحد عنه اذا اراد استبقاء الاحراش. وفي سنة ١٩٤٩ كان عدد الماشية في لبنان ٤٨٠ الفاً منها ٤٠٠ الف من الماعز . اما الغنم في لبنان فمن النوع ذي الالية الكبيرة العريضة والصوف الكثيف الطويل وهو نوع من الغنم ادخل البلاد فى الاعصر القديمة من آسية بطريق الجزيرة العربية. ويرد ذكر الغنم كثيراً في ادب التوراة وفي الادب الكلاسيكي[٢] ، وهو من الحيوانات الاليفة الوادعة ، وصغيرها (القرقور) مشتهى بعض العيال كحيوان يلهو به الاطفال وعادة تسمين الخروف بارغامه على المزيد من الاكل بتلقيمه ورق التوت والنخالة والكرسنة عادة لا تزال معروفة في لبنان ، وذلك لحفظ لحمه المملح (القورما) للشتاء . ولا تقتصر عادة تلقيم الخروف على لبنان وحده ، بل يظهر انها عادة قديمة العهد. ويبدو ان المصريين مارسوا عادة تسمين الخراف اذ وجدت تماثيل على قبور يرجع عهدها الى الاسرة السادسة تظهر فيها خراف تُلَقَّم .

أما من الحيوانات البرية ، فان الدب السوري لا يزال موجوداً باعداد قليلة في اعالي القمم ولا سيما في لبنان الشرقي . والذئب والضبع من الحيوانات النادرة ، بعكس الثعالب وبنات آوى فانها كثيرة . ومن الحيوانات الصالحة للقنص هنالك الارانب والقنافذ وقليل من الغزال . ومن الطيور التي يؤكل لحمها الحجل والحمام البري . ويكثر في لبنان البوم والغربان والقبّرة والدوري . وقد يرى المرء حيناً

(١) ولكن الحكومة اللبنانية آخذة في التضييق على هذا الحيوان حفاظاً على الاحراش والاغراس. وهنالك مشروع ، لم يقر بعد ، للقضاء على الماعز قضاءً تاماً . (المترجم)

(٢) خروج ٢٩ : ٢٢ ؛ لاويين ٣ : ٩ ، هيرودوتس ، التاريخ ، الكتاب الثالث الفصل ١١٣ .

بعد آخر بعض النسور والعقبان . ويكثر الطير في لبنان في فصلي الخريف والربيع ، واكثرها من الطيور الرحالة المتنقلة التي تهجر في الخريف موطنها الاصلي في شرق اوروبة. وتتجه جنوباً للاشتاء في منطقة دافئة ، ثم تعود في الربيع شمالا الى أوروبة. ومن هذه الطيور الرحالة نذكر البجع والسلوى والهدهد والورور والسمرمر (آكل الجراد) . وبعض هذه الطيور الرحالة ، مثل السنونو والحدأة ، يبقى ضيفاً على لبنان طيلة الربيع والصيف، وبعضها الآخر كالسمّن والشحرور وابو الحن تبقى في لبنان ضيوفاً اثناء الخريف والشتاء ، ثم تعود الى موطنها الاصيل في شهر آذار. وأكبر هذه الطيور النسر واجملهــا منظراً الورور . ومن أندر الطير طير يعرف بخازن البندق الذي يعيش بين الصخور . وهنالك نوعان من الفراش طريفــان يعيشان في قمم لبنان لاحدهما نوع مماثل له يعيش في سيبيرية ، وللآخر نوع يماثله يعيش في أوروبة. ويصعب تعليل هذه الظاهرة الا اذا افترضنا بان هذين النوعين من الفراش اللبناني هما من جملة الانواع التي نزحت جنوباً منذ العصور الجليدية ، ولكن هذين النوعين لم يستطيعا الرجوع شمالا عندمــا حلت فترة الدفء للحاق ببقية الانواع[١] .

ان دراسة اسماء المــدن والقرى ، ودراسة الاشارات المتعددة في التوراة الى حيوانات هذه المنطقة تدعم القول القائل بان حيوانات هــذه المنطقة كانت كثيرة ومتنوعة . فقد جاء ذكر « خدور الاسود وجبال النمور » في نشيد الانشاد (٤ : ٨) بمناسبة كلامه عن لبنان ورأس شنير وحرمون . وقد جاء ذكر حيوان بري كان في لبنان « في مَثَــلٍ ذكره مؤرخ ملوك العــبران المجهول الاسم عندما قال »[٢] .

« العوسج الذي في لبنان ارســل الى الارز الذي في لبنان يقول اعط ابنتك لابني امرأة . فعبر حيوان بري كان في لبنان وداس العوسج» . ويبدو من مذكرات اسامة ابن منقذ[٣] في عهد الصليبيين ان الاسد والنمر والنمس كانت من الحيوانات

(١) لبنان ص ٨٥ — ٨٨ .
(٢) سفر الملوك الثاني ١٤ : ٩ .
(٣) اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار نشر الدكتور فيليب حتي (برنستون ١٩٣٠) ص ١٠٤ وما بعده وص ١٤٤ .

المعروفة في حماة شمالي البقاع . وقد جاء في تاريخ بيروت لصالح بن يحيى ان اسداً رؤي في ناحيــة قرية عرمون جنوبي شرقي بيروت وذلك في اواخر القرن الثالث عشر[١] . وعندما مر موندرل في بيروت عام ١٦٩٦ ذكر عرين أسد عند وصفه قصر فخر الدين في الحي الشمالي الشرقي من المدينة . ولكن عندما اخذ عدد السكان في لبنان بالازدياد ، فان قسماً كبيراً من طيره وحيوانه انقرض او تراجع الى ما وراء حدوده .

الموارد الطبيعية

اننا إذا استثنينا الماء والخشب وأشعة الشمس، فإنه ليس في لبنان من الموارد الطبيعية ما يجعله بلداً غنياً . صخوره الكلسية والرملية ، النوعان الرئيسيان اللذان تتألف منهما قشرة الارض ، تقتلع بشيء من اليسر وتقطع وتنحت حجارة ممتازة لبنــاء البيوت . وفضلا عن هذا فان حجارتــه الكلسية تصلح لصنع الكلس الضروري للطين، وذلك بحرقه في أتونات تراها هنا وهناك الى جوانب الجبال الغنية بالحطب. وقد كان اللبناني منذ اقدم العصور يستغل هذين المصدرين : حجارة البناء وصنع الكلس . وأما اليوم فانه اخذ باستغلال مقالع الحجارة استغلالا تجارياً على مستوى عال ، وذلك بادخال الآلة نسبة لازدياد البناء وتقدم فن العمارة . ومعلوم ان ليس في هذين النوعين من الصخور الكلسية والرملية ، من المعادن ما يستفاد منه . وذلك لان شمالي افريقية وغربي آسية ، كمــا ذكرنا آنفاً عند كلامنا عن تركيب لبنــان الجيولوجي ، كانا مغمورين في الاعصر الجيولوجية البعيدة بمــاء البحر ، وعندما ظهرت اليابسة في لبنان كانت قشرته الخارجية مكسوة بطبقات ترسبية من الكلس والرمل . غير انهم كانوا في العهــد الروماني يعدّنون الحديد والنحاس . ولكن النحاس على مستوى اقل من الحديد . وفي التوراة اشارة الى تعدين الحديــد في لبنان[٢] . وقد ذكر جغرافيو العرب الحديد في « جبل بيروت »[٣] . ويستخرج

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت نشر الأب لويس شيخو، الطبعة الثانية (بيروت ١٩٢٧) ص ٨١ — ٨٢ .

(٢) سفر التثنية ٨ : ٩ .

(٣) المقدسي ص ١٨٤ ، الادريسي ، نزهة المشتاق : ذكر الشام طبعة ج. غيلدميستر (بون ١٨٨٥) ص ١٦ .

معدن الحديد في يومنا هذا من مقالع تقع في قرية مرجبا عند سفوح صنين الغربية. وقد ذكر المؤرخون الكلاسيكيون الزفت والحمّر في جوار صيدا[١]. وقد عثر ايضاً على معدن النحاس في ضواحي صيدا وفي بلدة اهمج في كسروان. وكان صهر هذه المعادن يتم بحرق الفحم. واستهلاك الفحم بهذه المقادير أدّى، جزئياً، الى زوال الاحراش. وقد وجد في حاصبيا عند سفح جبل حرمون الجنوبي الغربي، معادن للحمّر والزفت. وفي طبقات الصخر الرملية التي يتراوح علوها بين بضع مئات الى الف قدم، عروق فحم حجري من النوع الذي يعرف باللغنيت (lignite). وقد عُدِّن هذا الفحم لاستعماله وقوداً في معامل الحرير ولتسيير القطر الحديدية اثناء الحرب العالمية الاولى. وتعدين هذا الفحم الحجري امر يسير في منطقتي المتن وكسروان، ذلك لان التأكل والتفتت قضيا في هاتين المنطقتين على كامل الطبقة الكلسية العليا، فأصبحت الطبقة الرملية التالية ــ التي فيها عروق الفحم الحجري ــ مكشوفة لا تحتاج الى كبير عناء الوصول الى هذا الفحم. وأحد المراكز الرئيسية لتعدين الفحم يقع في قرية حيطورا جنوبي جزين. وكان معدل ما يستخرج من هذا الفحم في لبنان الجنوبي اثناء الحرب العالمية الاولى من خمسين الى مئة طن في اليوم الواحد، ومن ٣٠ الى ٤٠ طن في شمال لبنان[٢]. وفي عام ١٨٧٧ حاول احدهم ان يحصل على امتياز لتعدين الفحم الحجري والحمر في هذه المنطقة، ولكن بما ان نوعية الفحم والحمر لم تكن من النوع الممتاز الذي يستفاد منه تجارياً، فقد اسقط المشروع وتخلى عنه.

---

(١) Pliny, Bk. XXV, ch. 51; Strabo, Bk. XVI ch. 2, sec. 42.

(٢) British Admirality, *A Handbook of Syria*, (London, 1920), p. 94; cf. *Lubnan*, p. 385.

الفصل الرابع

قبل التاريخ المدون

ان غرب آسية ، بفضـــل موقعه الجغرافي وجودة مناخه ووفرة غلاله ، كان منذ القدم وطناً ممتازاً لتقدم الانسانية ورقيها . ففي هذة المنطقة تنمو حشائش برية منها الحنطة والشعير ، وتعيش فيها حيوانات برية منها الغنم والماعز والبقر ، وجميعها من حيوان او نبـــات صالحة للتأنيس والتدجين . وفي هذة المنطقة يكثر حجر الصوان الصلب ومعـــدن الحديد وخلافهما من المواد الصلبة الميسورة التي يمكن الانتفاع بها في الصناعات الاولية . فاي محيط طبيعي افضل من هذا المحيط كان الانسان القديم يتمناه وهو يصطرع بعد مع الطبيعة في سبيل التقدم والرقي ؟ في هذه المنطقة الجغرافية ، حيث تلتقي القارات الثلاث التي صنعت التاريخ، وضع الانسان القديم الاسس البدائية في حقل الزراعة والصناعة والحياة الفكرية ، وهنا بدأ سيره صعدا نحو توكيد انسانيته وتحقيقها . وقد سمى احد علماء الاركيولوجيا هذه المنطقة «بمهد الانسان العاقل »[(١)] . ويقع لبنان في قلب هذه المنطقة .

ان الآثار الاركيولوجية التي عثر عليهـــا في هذه المنطقة لا تدع شكاً في انها كانت منطقة مأهولة باستمرار منذ ان وجد الانسان ليتوطن الارض . فـــان الادوات الحجرية المبعثرة بكثرة، بما في ذلك من ادوات حجرية تمثل اقدم العصور الحجرية ، تشير اشارة واضحة الى وجود الانسان بشكل جماعات صغيرة في هذه المنطقة ومنهـــا تفرق ، على مدى عصور لا يعرف لها عد ، الى مناطق اخرى من الارض .

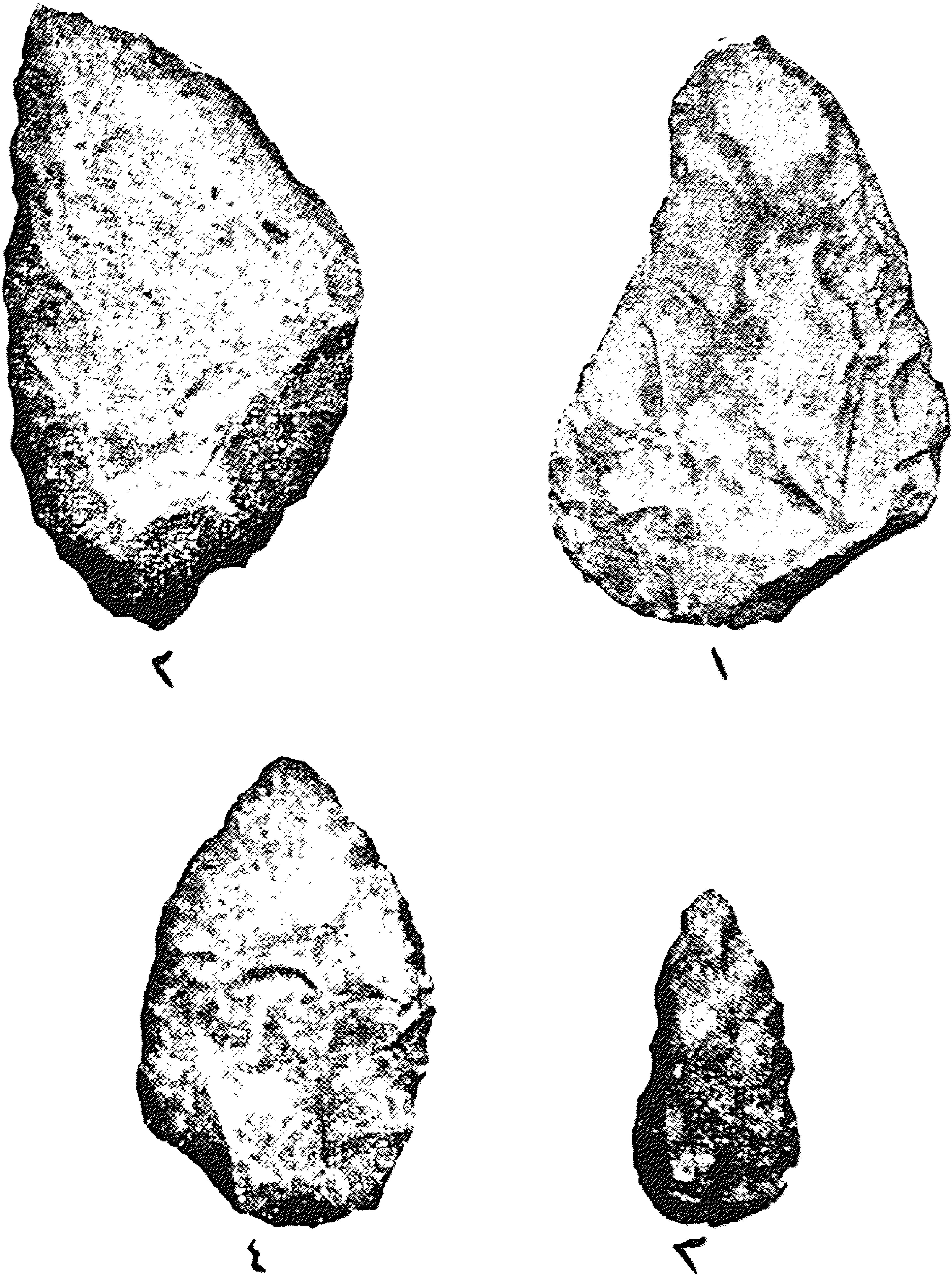
العصر الحجري الاول

واننـــا لنجد مشقة في التعرف الى هذا الانسان السابق للاعصر التاريخية ،

---

(١) Henry Field in *Studies Presented to David Moore Robinson*, ed. George E. Mylonas, vol. I (St. Louis, 1951), p. 236 .

لاننا نكاد لا نتبينه كانسان بمعنى الانسان ، وانما بقاياه التي خلفها لنا في الكهوف وبعض ادواته الحجرية التي نعثر عليها على سطح الارض تلقي شيئاً من الضوء على تاريخه البعيد . وهذه البقايا هي ادوات حجرية ، واقدم هذه الادوات والاسلحة التي كان يستخدمها مصنوعة من حجارة صوانية خشنة ، شكلها يشبه الاجاصة ، ومشذبة تشذيبا بدائيا على طريقة التشظية ومرققة من على الجانبين . ولذا يسميها علماء الآثار « ذات الوجهين » . وهذه الادوات الحجرية ذات الوجهين تنتهي



ادوات حجرية من العصر الحديدي القديم (الحجم الطبيعي)

١ ـ وجدت في العقيبة . ٢ ـ شفرة ذات حدين وجدت في عدلون . ٣ ـ وجدت في رأس الكلب . ٤ ـ أداة للكشط وجدت ايضاً في رأس الكلب .

عند رأسها بطرف حاد . فهي من هذه الناحية تختلف عن تلك الادوات الحجرية التي كانوا يطلقون عليها سابقاً اسم الفؤوس اليدوية . وقد وجدتْ هذه الادوات في جميع اطراف البـــلاد الواقعـــة بين وادي الاردن في الجنوب ورأس الشمرا (اوغاريت) في الشمال . ولأنها حادة الجوانب فان الانسان القديم كان يستخدمها آلة لمختلف انواع القطع والسحق : قطع اغصان الشجر أو سحق الجماجم ، فضلا عن انها تصلح ايضا للكشط . ولكونها حـــادة الرأس فانها كانت تستعمل ايضا كمخل أو عتلة للرفع . ويرجع عهد هـــذه الادوات البدائية الى نهايـــة العصر الحجري القديم ، اي منذ ٢٠٠ الف سنة . والى هذا العهد السحيق ، أو الى ما بعده بقليل ، يعود عهد الادوات الحجرية المعروفة بالرقاق (جمع رقيقة) وهذه الادوات كانت تصنع باقتطاع رقائق عريضة غير سميكة من كتلة الصخر . وقـــد وجدت آثار حجرية من العصر الحجري القديم في ثلاثة امكنة : في العقيبة (وهي تقع على الشاطيء بين صيدا وصور) وفي كفريا وفي مدوخا من اعمال البقاع عند سفح لبنان الشرقي[١] . امـــا الادوات الحجرية التي يعود عهدهـــا الى عصور جيولوجية تالية فقد وجد منها الكثير في بقـــاع عديدة . وقد قام عالم الحفريات زوموفن Zumoffen في مستهل هذا القرن بحفريات في مغاور عدلون الواقعة في منتصف الطريق بين صيدا وصور وفي مغاور انطلياس ونهر الكلب ونهر ابراهيم[٢] وقد وجد ان الادوات الحجرية التي كان يستعملها هؤلاء الناس الصيادون الذين عاشوا في العصور السابقة للتاريخ هي الادوات التي يتميز بها اواخر العصر الحجري المتوسط[٣] وهو العصر الذي تعود اليه آثار المغاور المشهورة التي وجدت في جبل الكرمل[٤]

---

(١) G. Zumoffen in *Anthropos,* vol. III (1908), pp. 432 - 5.
وتشبه بقايا هذه الحضارة المعروفـــة في اوروبة بحضارة اشوليان ، وهي قرية فرنسية وجدت فيها ادوات حجرية من هذا العصر .

(٢) راجع ما كتبه في *La Phénicie avant Les Phéniciens* (Beirut,1900); do., in *Anthropos* vol. III pp. 431 - 55; *Lubnan,*pp. 104 - 6 .

(٣) وفي اوربا يسمون هـــذا العصر بالعصر الموستري نسبة الى كهف Le Moustier ، وجدت فيه ادوات حجرية من هذا العصر .

(٤) Dorothy A. E. Garrod and D. M. A. Bate, *the Stone Age of Mount Carmel,* vol. I, (Oxford 1937) chs. 4-8; see Hitti, *History of Syria,* pp. 9 seq .

والذي نعرفـه من حفريات الكرمل (١٩٢٩ – ٣٤) . ان انسانا قديمـا يشبه انسان النيندرتال توطن شواطىء المتوسط الشرقية في هذه الحقبة ، ولكن لم يعثر على اي اثر لهذا الانسان في لبنان. اما بقايا الحيوانات التي كان يقتات بلحمها ، فقد عثر عليها في اماكن كثيرة . ومن جملة بقايا هذه الحيوانات اسنان وعظـام متحجرة للخنزير البري والجاموس البري والغزال والمـاعز والدب والكركدن وحيوانات اخرى منقرضة . وقد عثر ايضاً بين بقايا هذه الحيوانات على نمـاذج من البزاق المتحجر البري والبحري . وقد اسفرت التنقيبات التي اجريت في مغاور انطلياس ومغـاور منبع نهر الكلب عن وجود ادوات حجريـة تتميز بها الحقبة المتأخرة من العصر الحجري القديم[١] . وقد اجريت حفريات متعددة في مغاور نهر الكلب التي تشبه في تكوينها خلايا قرص الشهد ووجـد انها كانت مساكن للانسان القـديم ، وللانسان الحديث نسبيا . وكذلك اجريت حفريات شمالي هذه المنطقة عند نهر الجوز قرب البترون وعند نهر ابو علي قرب طرابلس ، وقد وجد ان البقايا التي وجدت قرب طرابلس تعود الى العصر الحجري المتأخر . وقد وجد الى جانبها عظـام الوعل المتحجرة والغزال والذئب .

بقايا اقدم الهياكل العظيمة

من امتع البقـايا الاركيولوجية هيكل عظمي بشري وجد في قلب صخر من الصخور التي تتألف من قطع من الحجارة المتلازمة في كهف في كسار عقيل فوق انطلياس على بعد ستة اميال من بيروت شمالا[٢]. وقد وجد هذا الهيكل عند أسفل

---

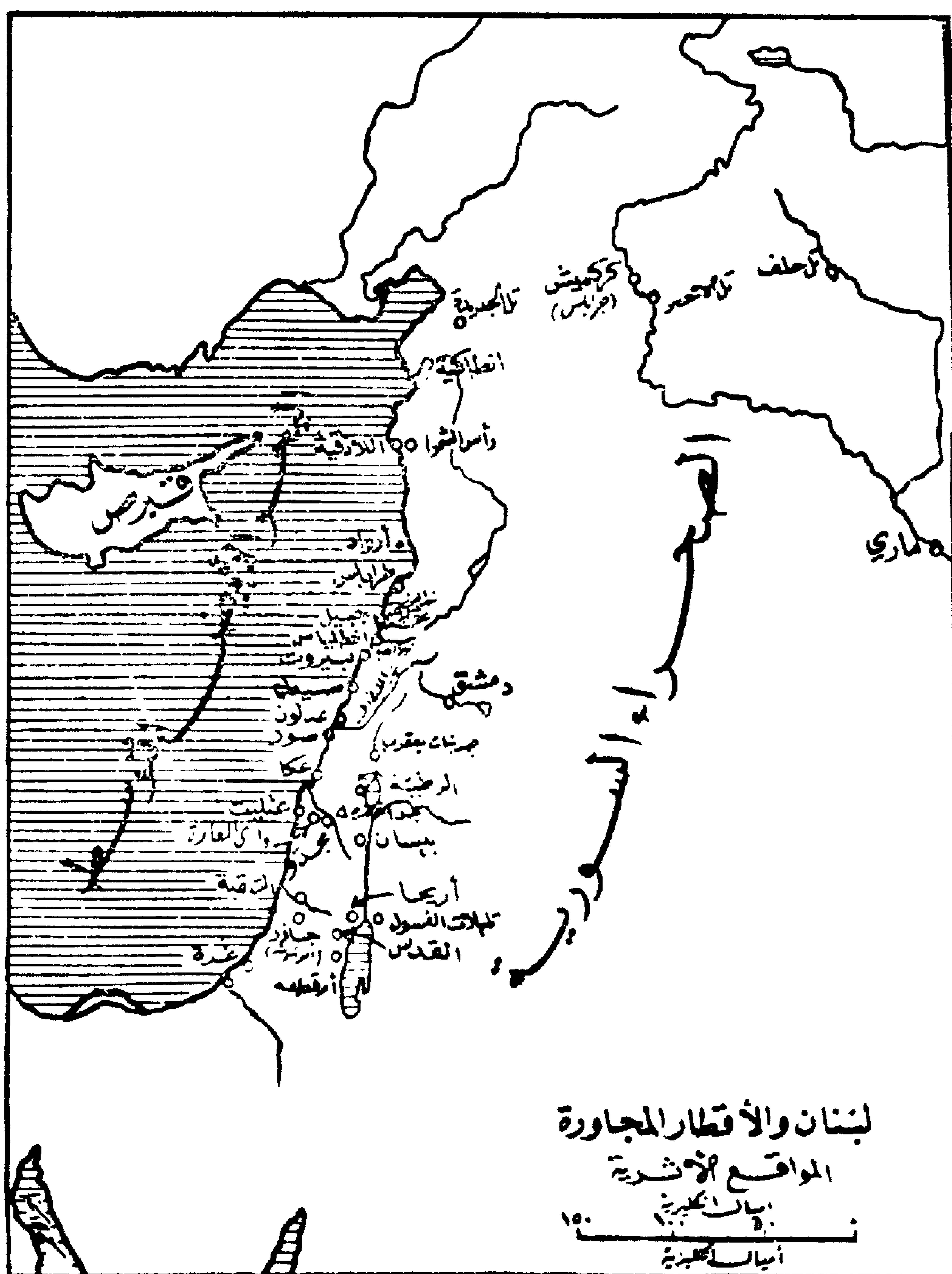
(١) مجلة الكلية Alfred E. Day in *Al-Kulliyah,* vol. XII (1926), pp. 496-9
ويعرف هذا العصر في اوربا بالعصر الاوريني Aurignacian نسبة الى قرية في فرنسا .

(٢) J. Franklin Ewing in *Thought,* vol. XXIV (1949), pp. 255-88. do. in *American Journal of Physical Anthropology,* n. s. vol. IV (1946), pp. 252-3; do. in
المشرق ، المجلد ٤١ (سنة ١٩٤٧) ص ٢١٨ – ٤٨ . ونرجح ان لفظة انطلياس يونانية . أما اهل القرية فيشتقون الاسم من ايلياس شفيع القرية . راجع فريحة : اسماء المدن ، ص ١٢ .

الطبقة التي يسمونها ، حسب المصطلح القديم في علم الاركيولوجية، طبقة الحضارة الاورينية السفلى . وهذه الحضارة التي تنتسب اليها ، هي تلك التي ظهرت على اعقاب فترة انتقال من دور الادوات الحجرية ، الرقائق التي تعزى الى طبقة الحضارة اللافلوازية ـ الموسترية العليا . وقد وجد ان هذا الهيكل العظمي الذي اكتشف عام ١٩٣٨ هو هيكل صبي عمره حوالي ٨ سنوات ، وقد عاش منذ ٢٥ الف الى ٣٠ الف سنة . وهذا اقدم هيكل عظمي بشري وجد على الارض اللبنانية . ولا يختلف هذا الصبي من حيث شكله وملامحه المتوسطية عن أي صبي آخر عاش في الازمنة الحديثة . وقد وجد ايضاً في مغاور انطلياس عظام حيوانات اخرى : الغزال والضبع والثعلب والبقرة والماعز . واقدم هذه البقايا الحيوانية عظام الكركدن وعظام حيوانات اخرى اكثر بدائية منها . وقد وجد في هذه المغاور اصداف حلزونية مختلطة بعظام اخرى يظهر انها سحقت سحقاً لاستخراج النخاع منها . وأكثر هذه الحلزونيات التي كان الانسان القديم يقتات بلحمها من النوع الذي كان يعيش على اليابسة واسمه العلمي (Helix) . ولكن من بينها نوعان بحريان ايضاً (واسمهما العلمي Trochus و Patella) . أما الادوات التي استخدمها انسان انطلياس في صيده ، فقد كانت مصنوعة من صوان الصخور القريبة . ويعود بعض هذه الادوات الحجرية الى الحضارة الاورينية القديمة ، وبعضها الآخر يعود الى أعصر اسبق في الزمن ، أي الى الحضارة الموسترية ـ اللافلوازية ، مع العلم ان الحضارة اللافلوازية (نسبة الى ضاحية من ضواحي باريس) سبقت الحضارة الموسترية . وهنالك أدلة تشير الى ان وادي انطلياس ظل وادياً مأهولا منذ ذلك الزمن البعيد حتى يومنا هذا

اسلوب عيش الانسان الحجري

يبدو جلياً ان انسان العصر الحجري القديم الذي كان يعيش على الشاطىء اللبناني ـ الفلسطيني كان من سكان الكهوف والمغاور . وكان النظام الاجتماعي بدائيا جافاً يقوم على تجمع وحدات صغيرة من الناس او جماعات منهم . وقد كان يعيش على الصيد او على جمع القوت من مصادر نباتية يأكلها كلها على حالتها الطبيعية . وليس ثمة ما يدعو الى القول بان هذا الانسان القديم الذي توطن هذه


تل الجديدة
كركميش
(جرابلس)
تل الأحمر
تل حلف
ماري
انطاكية
رأس الشمرا
اللاذقية
أرواد
طرابلس
جبيل
انطلياس
بيروت
دمشق
صيدا
عدلون
صور
جسر بنات يعقوب
عكا
عتليت
وادي المغارة
بيسان
أريحا
تليلات الغسول
القدس
غزة
البحر السوري
لبنان والأقطار المجاورة
المواقع الأثرية
١٥٠
أميال انكليزية

المنطقة كان من اكلة لحوم البشر . واما صناعة الادوات الحجرية ، فبالرغم من انها لا تختلف اختلافاً جذرياً عن صناعة الحقبة التي سبقتها ، فانها كانت تميل الى صنع ادوات اصغرحجماً حتى اصبحت فيما بعد قطعاً من الحجارة الصغيرة الرشيقة وهذه الادوات الحجرية الصغيرة تمثل نهاية الصناعة في الحضارة الاورينية المتأخرة وبداية العصر الحجري المتوسط . في هذه الحقبة كان الانسان قد بدأ باستعمال قناة او عظمة ساعد او ساق ليضع في رأسها اداة من ادوات سلاحه . وبكلام آخر بدأ يصنع للاسلحة الحادة مقبضاً يسهل عليه القتل والقنص. وقد دفعه الحفاظ على حياته من اخطار الحيوانات المفترسة ، ومن الناس الاعداء الى سكنى المغاور والكهوف . وفضلا عن هذا ، فان الامطار الغزيرة والعواصف الشديدة في تلك الحقبة جعلته يفتش عن مكان آمن يلجأ اليه . وكانت الحضارتان الاورينيتان ، المتوسطة ومعظم المتأخرة، في حقبة من الزمن تقع بين عصرين من أعصر الامطار الغزيرة ، إلا انه ليس هنالك ما يدل على تعرض الارض للجفاف الشديد . فان بقايا الغزال الكثيرة والادوات المستعملة لقطع الاخشاب تدل دلالة واضحة على ان البيئة التي كان يعيش فيها هذا الانسان القديم كانت بيئة غنية بالغابات . في هذه الحقبة اخذت جميع الحيوانات القديمة بالانقراض والتلاشي ، وبدأت حيوانات المنطقة تتخذ اشكالها الحالية كما نعهدها في يومنا هذا .

ان ادوات العصر الحجري القديم التي صنعها الانسان في تلك الحقبة البعيدة ، تعطينا الدليل الاول على ان صانع هذه الادوات اصبح انساناً حضارياً عاقلا يعمل لغاية . وهذا ما ميز الانسان ، ولا يزال يميزه ، عن سائر الحيوان : صنع الآلة وادراك الغاية من صنعها . في هذا العصر الحجري القديم نعثر على أقدم الادوات المصنوعة حسب تقليد صناعي معين بحيث اصبح صنعها فناً أو صنعة ينقلها الجيل اللاحق عن الجيل السابق . وهذا امر ما كان ليتم لولا وجود وسيلة للتفاهم : اللغة . ولا بد ان الانسان قد اكتشف ، في هذه الحقبة ايضاً ، قابلية الاحتراق في الخشب الذي يستخدمه .

اكتشافان جليلا القدر ، النار واللغة

إن اكتشاف النار وتطور اللغة الصوتية يعدان من أجلّ المآتي الحضارية التي

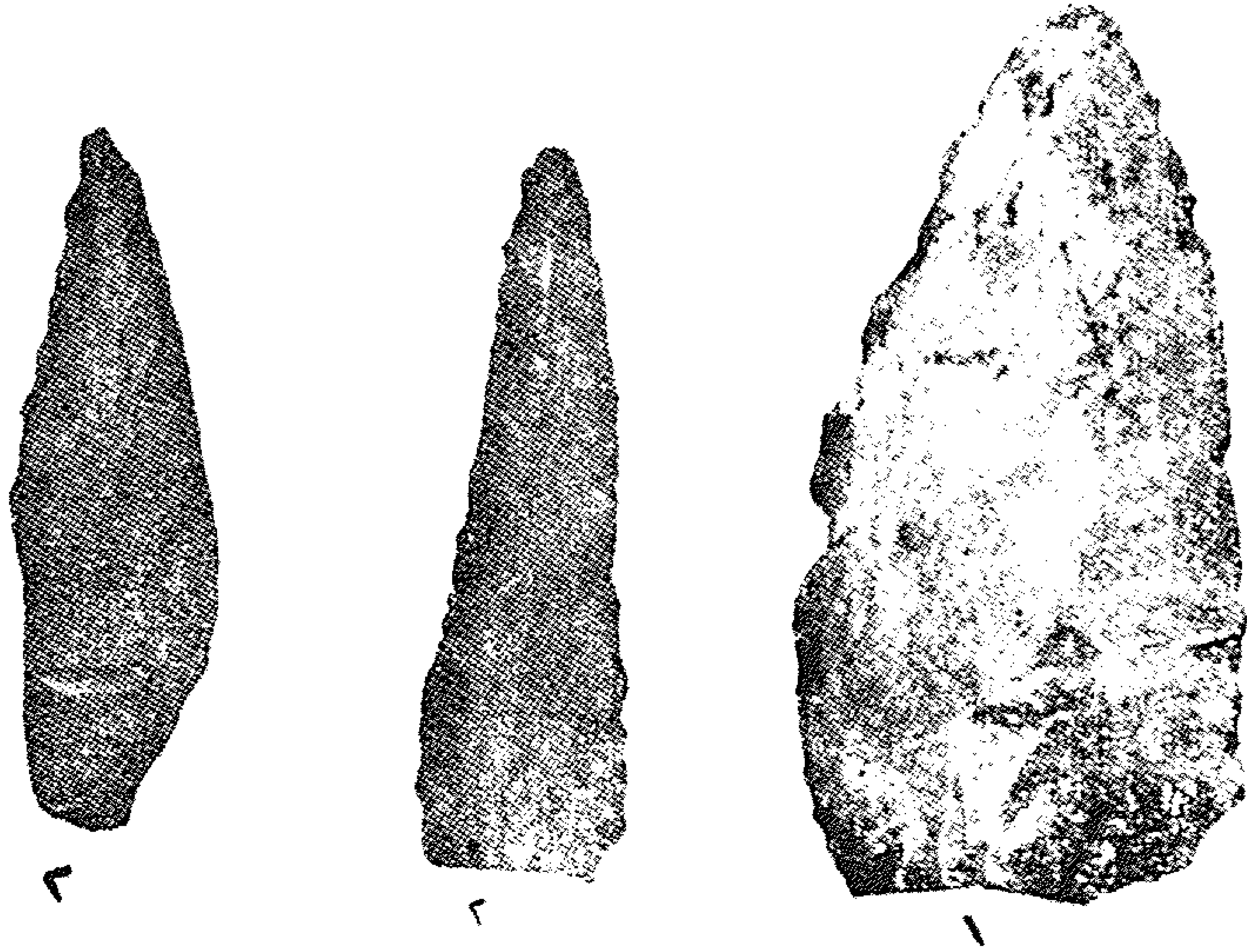
حدثت في العصر الحجري القديم. ولا ريب ان هذا الانسان القديم لاحظ اشتعال النار في غاباته الناتجة عن عوامل طبيعية كانقضاض صاعقة على شجرة جافة أو كسقوط نيزك شديد الحرارة على هشيم يابس . ولا نشك في انه استغلّ هذه النار الطبيعية في اعماله واغراضه مرة بعد اخرى ، ولكن مرت آلاف من السنين قبل ان يدرك انه هو ذاته يستطيع ان يولد النار لاغراضه الخاصة، إما بواسطة حك مادة على مادة اخرى حكاً شديداً ، أو بطرق قطعة من الصوان ضد قطعة اخرى أو جسم آخر صلب . ولم تقتصر فائدة النار العظمى وألسنة لهيبها الجميلة على طهي بعض طعامه ، بل أدرك الانسان رويداً ان لها فوائد اخرى : الدفء ورد غائلة الحيوان المفترس . وقد وجد اقدم اثر للفحم (بقايا الحطب المحترق) في حوض المتوسط الشرقي في اسفل طبقة في مغارة جبل الكرمل[1]. ويعود عهدها الى العصر الحجري الاول ، اي قبل ظهور انسان انطلياس .

وشبيه باكتشاف النار رقي اللغة وتطورها . ولا شك في ان تطور اللغة يعد من اعظم مآتي الانسان ومن ابعد العوامل اثراً في تطوره . ومن البين ان هذا التطور احتاج الى ازمنة لا نعرف لها عدا . واللغة ، كوسيلة للتفاهم والاتصال بين انسان وآخر ، من اهم العوامل الحضارية التي جعلت من الانسان مخلوقاً اجتماعياً . واللغة تقتضي استخدام الرمز [2] ، ولا قيمة للرمز بين انسان وآخر ما لم يكن قد وصل الانسان الى مرتبة الادراك ، اي قبل ان يكون قد اصبح انساناً عاقلا .

ولا يقتصر فضل اللغة كاداة عقلية تربط بين انسان وآخر على كونها تضم افراداً مستقلين وتجمعهم في وحدة لغوية وحسب ، بل ان اللغة ذاتها عامل اساسي في نمو الانسان عقلياً وروحياً . وبما انه لم يكن في مقدور الانسان في تلك الحقبة ان يدوّن لنا نماذج من لغته ، لانه لم يكن قد اهتدى بعد الى الكتابة – الامر الذي لم يتم الا بعد مضي الوف من السنين – فاننا لا نعلم من امرها شيئاً .

(١) Garrod and Bate , vol. I, p . 126 .

(٢) الكلمة « رمز صوتي » وكصوت طبيعي لا معنى له انما معناه مستقر في الاختبار ، في الذهن .



ادوات حجرية تعود الى العصر الحجري المتوسط (الحجم الطبيعي)
١ ـ وجدت في نهر ابراهيم ، ٢ و٣ ـ من انطلياس .

العصر الحجري المتوسط والحديث

استمر انسان الشرق الادنى في تقدمه الحضاري اثناء العصر الحجري بخطوات سريعة سبق بها شبيهه انسان اوروبة بشوط بعيد . نعم ان رقيه في العصر الحجري القديم كان عظيماً ولكن رقيه وتقدمه في العصرين الحجريين التاليين ، العصر الحجري المتوسط والحديث ، كانا اعظم وأكثر تنوعاً . وقد تقدم انسان الشرق الادنى من حيث الزمن . سائر الناس في اماكن اخرى ، ولا نستثني اوروبة التي لم يكن مناخها البارد اذ ذاك ملائماً لتطور الانسان بهذه السرعة . فكان عليه ان يعتمد فيما بعد على تراث الشرق الادنى .

أن العصر الحجري المتوسط يمثل فترة انتقال حضاري من العصر الحجري الاول الى العصر الحجري الحديث الذي بدأ الانسان فيه يصقل ادواته الحجرية . وهذا العصر ، العصر الحجري الحديث ، بدأ في الشرق الادنى قبل ان بدأ في أوروبة. ويجب الا يغرب عن اذهاننا ان هذه الاعصر الحجرية التي نتكلم عنها ـ

القديم والمتوسط والحديث ـ لم تبدأ فجأة ولم تنته فجأة بل انها متداخلة، بمعنى انه لم تكن ثمة نقلة فجائية من حال الى حال .

وقد دام العصر الحجري المتوسط زمناً مدته قرابة ٦ آلاف سنة كان بدؤها حوالي ١٢,٠٠٠ ق . م . وقد اطلق على الفترة الاخيرة من العصر الحجري المتوسط في فلسطين اسم الحضارة « النطوفية » نسبة الى وادي النطوف الواقع شمالي غربي مدينة القدس حيث اجريت سنة ١٩٢٨ حفريات هناك في مغارة معروفة بمغارة الشقبة[١]. وقد اطلق الباحثون هذه التسمية ـ الحضارة النطوفية ـ على الحضارة المعاصرة لها في المنطقة بكاملها . فقد وجدت ادوات حجرية قرب طرابلس وفي كسار عقيل (فوق انطلياس) وظهر انها مثل الادوات ذاتها التي كان يستعملها سكان وادي النطوف ، مما يدل على الوحدة في طريقة صنعها . وهي من النوع المعروف بالشفرة الحجرية لانها في شكلها تشبه الشفرة أو المدية المعدة للقطع . والشفرة الحجرية كناية عن قطعة صوانية ذات طرفين متوازيين حادين يشبهان حدّي سكين . ومنها انواع عديدة صغيرة الحجم متنوعةالاشكال الهندسية يسميها علماء الحفريات « ادوات حجرية » (microliths) وتشمل هذه الادوات الحجرية الصغيرة ، في جملة ما تشمل ، رؤوس سهام بدائية ورؤوس هنات اخرى قاطعة كان الانسان يستعملها في صناعة ادوات اخرى من العظام أو للحفر في العظام[٢] . وهذه الادوات وجدت جنباً الى جنب مع عظام حيوانات تشبه الحيوانات التي نعرفها اليوم . وبقايا الغزال كثيرة في هذه الحقبة ، ولكن بقايا الوعل ذي القرون الكبيرة المتشابكة ، نادرة مما يدل على حصول فترة جفاف . وقد كان الضبع من النوع المرقط الذي لا وجود لشبيهه الاّ في جنوبي الصحراء الكبرى في افريقية . وكان القنفذ يختلف اختلافا كليا عن نوع القنفذ الموجود حاليا في لبنان[٣] . وكذلك تغير نوع انسان الشرق الادنى

---

(١) Dorothy A. E. Garrod in *Palestine Exploration Fund Quarterly Statement* (1928) pp. 182 - 5; Garrod and Bate, p. 114.

(٢) Dorothy Mackay, *A Guide to the Archeological Museum in the University Museum* (Beirut, 1951), p. 3.

(٣) Garrod and Bate, p. 153.

في هـــذه الحقبة . فان ذلك الانسان الذي كان يشبه انسان النيندرتال تقلّص ظله وظهر مكانه نوع من الانسان جديد ، نوع اقصر قامة ، مستطيل الرأس ، نحيف البنية يشبه جثمانيا الانسان البرونزي الذي توطن فيا بعـــد بلدة جبيل (ببلوس) والانسان الذي توطن وادي النيل قبل قيام الاسرة المالكة . وجميع هذه الانواع البشرية تنتمي ، على الارجح ، الى الفرع المتوسطي مـــن العرق الابيض الذي تحدرت منه فيا بعد الشعوب الحامية والساميـــة[١] . ولا ريب في انه طرأت على الاحوال المناخية والطبيعية في تلك الفترة تغيرات اساسية جعلت المنـــاخ ووجه الارض يشبهان الى حد كبير الاحـــوال الحاضرة التي نعهدها . ولم يقتصر نشاط انسان العصر الحجري في اواخر العصر المتوسط وفي العصر الحجري الجـــديد على صقل ادواته واسلحته التي كان يصنعها من الصوان والحجر البركاني ـ مما جعلها ادوات اكثر فعالية واسلحة اشد فتكا ـ بل نجد ان نشاطه في هاتين الحقبتين اخذ يتناول موارد محيطه الطبيعي بالاستغـــلال في اغراضه المعاشية . فانـــه بدأ يعتني بالنباتات والحيوانات التي يستفيد منها في طعامه ولباسه واعماله ، وهنا يبدو قدر الاعمال الحضارية التي قام بها انسان العصر الحجري التي اورثها الاجيال المتعاقبة .

تأنيس الحيوان والنبات

كان تأنيس الحيـــوان والنبات الذي تم في العصر الحجري المتوسط من اجل المآتي التي قام بهـــا انسان العصر الحجري . والزعم القائل ان تأنيس الحيوان تم عندمـــا كان الانسان لا يزال في طور الترحل والتنقل ، أي قبل ان استقر واخذ بالزراعة ، فأمر غير ثابت . قد تكون فكرة استخدام الحيوان واستغلال النبات قد خطرت له في العصر الحجري المتوسط عن طريق المصادفة . ولا شك ان ابراز الفكرة الى الواقع يجب أن يكون قد تم خلال مدة طويـــلة من الزمن حتى يكون الحيوان قد ألف الانسان . فالانسان يحمي الحيوان الضعيف ـ كالشاة والماعز

(١) W. F. Albright in *Haverford Symposium on Archeology and the Bible*, ed. Elihu Grant (New Haven, 1938). p. 7; do., *The Archeology of Palestine and the Bible,* 2 nd ed. (New York, 1933), pp. 61, 231.

وغيرها ــ ويعطيه طعاماً ، وهذا الحيوان بدوره يقوم بخدمات نافعة . انه عون له في الصيد ، وفي حمل الاثقال أو جرها ، هذا الى جانب الانتفاع بلحمه وحليبه . ومما لا شك فيه ان الكلب كان اول حيوان أنس الى الانسان ولازمه عندما كان الانسان القديم صياداً يعيش على القنص . والى جانب نفعه في الصيد وحراسة الكهف فأن الكلب كان يعيش على بقايا فريسة الانسان فيريحه من خبث رائحتها وضررها . واقدم دليل على تأنيس الحيوان اكتشاف جمجمة كلب كبير كاملة سليمة في احدى الطبقات الارضية التي نقّب عنها في مغارة جبل الكرمل[1]. وتلا تأنيس الكلب تأنيس الماشية مما ادى الى اسلوب عيش يعتمد رعاية الماشية مصدراً ثابتاً للقوت عوضاً عن القنص الذي قد يكون ثابتاً وقد لا يكون .

عندما كان الانسان صياداً يعتمد القنص مصدراً لقوته كان تنقله على وجه الارض وقفاً على مواطن الحيوانات البرية التي كان يتتبعها . ولكنه عندما أنس الحيوانات فانه انتقل، بطبيعة الحياة الجديدة . الى الطور المعروف بالطور الرعائي الذي ظل فيه بدوياً يتنقل من مكان الى آخر ، ولكن بفارق أساسي وهو ان تنقله اصبح محدداً ومشروطاً بطبيعة وجه الارض حيث يوجد الماء والعشب الضروريان لقطعانه . وعند نهاية العصر الحجري المتوسط ، أو في أوائل العصر الحجري الحديث ، دخل في طور من العيش جديد ، طور اعتماد الزراعة مصدراً للقوت . والزراعة بطبيعتها تفرض عليه عيشاً مستقراً ثابتاً . ولا شك في ان اكتشاف الانسان امكان استغلال النبات جاء عن طريق المصادفة ايضاً . فان بعض انواع الحبوب البرية كان من جملة الاطعمة التي كان يعيش عليها وهو بعد في طور القنص والرعاية . وطبيعي ان يسقط بعض هذا الحب امام كهفه فينبت في الربيع . ويجب ان يكون قد لحظ بعض اذكياء سكان الكهف هذه الظاهرة التي تتكرر سنة بعد اخرى . وقد يكون ان هذا الذكي القوي اقنع جماعة الكهف ان يضعوا جانباً بعض الحبوب التي جمعوها وخزنوها للشتاء بذاراً للسنة المقبلة . وهكذا دخل الانسان القديم في طور الزراعة .

وقد وجد في حفريات وادي النطوف مناجل للحصاد مصنوعة من الصوان

---

(١) Garrod and Bate, pp. 175-7 .

أو من شفرات صوانية مركزة في قبضة خشبية منحنية شكلهــا شكل المنجل . ويظهر انها كانت تستعمل لحصاد القمح . اما اذا كان هذا القمح من النوع البري أو الجوي ، فأمر لا سبيل الى التأكد منه. وقد درب الثور ، الذي أنس في العصر الحجري الحديث ، على جرّ المحراث . وقد تبع زراعة القمح والشعير زراعــة حبوب اخرى كالذرة ، ثم زراعة الاشجار المثمرة كالزيتونة والكرمة والتينة ثم سائر الخضار . وجميع هذه الاشجار والنباتات كانت من الانواع الاصيلة في البلاد التي أنس فيها الانسان وزرعها لمنفعته قبل التاريخ المدون . وهكذا بعد ان كان الانسان يجمع الحب والفاكهة من الطبيعة ، اصبح يزرعها هو ذاته ويستغلهــا .

ويظهر ان هذا الانقلاب الجذري الخطير في اسلوب العيش بدأ اولا في منطقة الشرق الادنى ، ومن الشرق الادنى انتقلت الزراعة الى المناطق الاوروبية(١) .

الحياة المستقرة

ان الزراعة كعامل في تطور الانسان وتقدمه لأبعد أثراً وأعمق غوراً من أثر تربية الحيوان واعتماده مصدراً للقوت . وكلما تقدمت الزراعــة تقدم الانسان في أساليب عيشه . فالكهف ، وهو مسكنه القديم ، استبدله الانسان بخيمة او بكوخ من طين . وللمسكن في حيــاة الانسان أثر كبير ، فهو حماه يقيــه الضر ، وييسر له النفع . وكــان ازدياد السكان حافزاً للانسان على ان ينشد مصــادر للقوت جديدة ومساكن جديدة . فانه لم يعد يرضى عن السكن في المغــاور والاكواخ ، بل اخذ يبني البيوت من الحجر، وعندها بدأ فن البناء والعمارة . وقد تلا هــذا التطور فكرة تملك الارض . فانه كصياد يتنقل من مكان الى آخر ، او كراع ينتجع الكلأ، لم يكن يستطيع الاقامة في مكان معين محدود . وعليه لم تترك البيئة الطبيعية اي انطباع او اثر في نفسه بل ظل عقله مشتتاً واختباره موزعاً . غير ان الامر تبدل تبدلا اساسياً لما استقر واصبح مسكنه ثابتاً . في هذه الحياة المستقرة الثابتة ينمو العقل ، ويزداد الاختبار ، ويسهل نقل هذه المعارف والاختبارات الى الاجيــال الناشئة وهكذا يظهر على ممر الزمن التقليد الحضاري . وكما ان انسان

(١) Robert J. Braidwood, *Prehistoric Men* (Chicago,1948), pp.80,96.

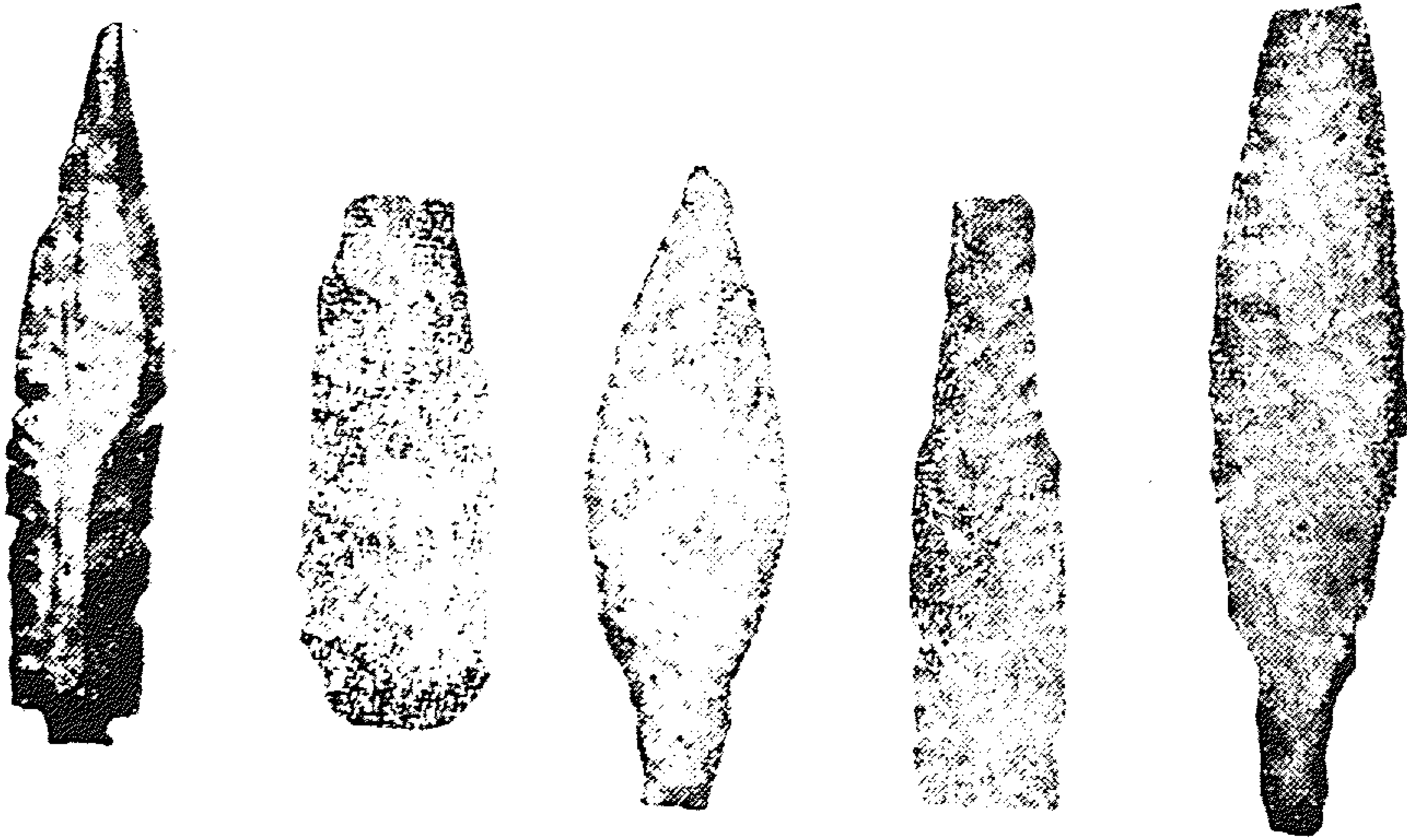
العصر الحجري استطاع تخزين الاطعمة تعلم ايضاً جمع الفكر والاختبارات ليعلمها ابناءه . وكان من جراء تقدم الانتاج الزراعي ازدياد في عدد السكان ، وكثرة السكان تؤدي الى خلق فئة مترفة تنصرف الى التخصص المهني والصناعي. وهكذا نشأت القرى والدساكر . ويرجح ان اقدم قرية في لبنان هي جبيل وفي فلسطين اريحا ، وفي سورية الجديدة .

الحياة الواقية

وكان من نتائج التجمع ، اي عيش الانسان في مجتمع من الناس ، تطور التصورات الدينية . فقد تبلورت في هذه الحقبة السابقة للتاريخ المدون فكرتان دينيتان : فكرة وجود آلهة تقرن بالارض او بالقبيلة ، وفكرة مبهمة عن حياة ثانية بعد الموت . فقد وجدت بين الآثار التي اسفرت عنها حفريات النطوف آنية خزفية لخزن الطعام وقرابين اخرى تدل على اعتقاد الانسان بان هنالك نوعاً من الحياة بعد الموت . وفي الواقع ان آثار هذه المعتقدات قد تعود الى زمن ابعد من هذا الزمن . وقد كان الرعاة في منطقة الشرق الادنى من عباد الاله القمر ، ففي الليل البارد العليل تسرح القطعان وترعى وهي في مأمن من لهيب الشمس المحرقة . ولكن عندما تبدلت الحياة واصبح الانسان مزارعاً اخذ يلاحظ العلاقة الوثقى بين نمو النبت وحرارة الشمس ، فاصبحت الشمس في معتقده الهة تعبد . والى جانب عبادته الشمس نجد انه قدس الارض ، الارض التي تنبت النبت له ولحيوانه ، وعبدها على انها إلهة للخصب والنتاج. وعبادة إلهة الخصب ــ الارض الام ــ وما نشأ حولها من أساطير ، بلغت الذروة في عبادة ادونيس وعشتروت كما مارسها الفينيقيون .

لم يتقدم انسان العصر الحجري المتوسط في معتقداته وتصوراته الدينية وحسب بل نجد انه ارتقى فنياً ايضاً . فانه بدأ في هذه الحقبة يصنع ادوات ليس للمنفعة فقط ، بل لقيمتها الجمالية وللمتعة الفنية فيها . فقد وجد علماء الحفريات نماذج من الخرز والعقود المصنوعة من قطع عظم مصقولة او من اصداف بحرية مثقوبة معها قطع من الصلصال المتأكسد الاحمر اللون مما يدل على ان الانسان بدأ يعنى،

بصناعة ادوات للزينة يتجمل بها الذكور والاناث على حد سواء . وكانت الناحية الفنية عند الانسان في اولى مظاهرها ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باعمال السحر ، وكان الفن والسحر مرتبطين بالدين . ويظهر ان الانسان القديم كان يعتقد ان صورة الحيوان التي يحفرهـا في الخشب او العظم او ينقشها في الحجر تعطيه قوة سحرية ليتسلط بها على ذلك الحيوان . فقد وجدت في مغارة جبل الكرمل ، التي اشرنا اليها سابقـاً ، صورة رأس ثور محفورة في العظم لعلها من صنع رجل من العصر الحجري المتوسط . وفي هذه الحقبة اخذ القرويون والمزارعون يشعرون بالحاجة الى المزيـد من الآلهة لتحرس قطعانهم وتحفظ مواسمهم من التلف . فان الاعتقاد بالارواح والاخذ بالسحر لم يعودا يجديان عنده نفعاً ، ولكن رغم اقتناعه انها ارواح لا تجدي فان بقـايا الاعتقاد بالسحر وبالارواح استمرت في اليهودية والمسيحية والاسلام الى يومنا هذا .



ادوات حجرية تعود الى العصر الحجري الاخير وقد وجدت في رأس بيروت (الحجم الطبيعي)

تفصل العصر الحجري الحديث عن سابقه ، العصر الحجري القديم ، الوف من السنين . ويتميز بالتغيرات الجيولوجية التي طرأت على سطح الارض وبتقدم الانسان ورقيه اختباراً ومعرفة . فان انسان العصر الحجري الحديث اخذ بتركيز ادواته واسلحته في مقابض قوية زيادة في فعاليتها . وشرع بصقلها صقلا شديداً ليكسبها سطحاً ناعماً ،

واحيانا كان يتناول بعض مصنوعاتــه بكثير من العناية والحدب حتى يخرج منها ادوات فنية جميلة . ولم تعد المنفعة الحافز الاول والاخير ، فانه اصبح انسانايتذوق الجميل ويأنس الى الممتع ، فكان عليــه ان يشبع هذه الرغائب فيه . وفي متحف الجامعة الاميركية فيبيروت مجموعة ادوات من صنع انسان العصرالحجري الحديث وجدت في الحفريــات التي اجريت في الرأس القريب من مصب نهر الكلب ، ومجموعة اخرى من العظام وجدت في صيدا يبدو على سطحها خطوط محفورة برؤوس شفرات حجرية حادة[١] . وهاتان المجموعتان تدلان على تطور ذوق الانسان الفني . وقد وجد ايضا مخارز وسكاكين . هــذا فضلا عن تقدم ظاهر يبدو في تحسين اساليب الزراعة وتربية الحيوانات التي كانت تقتضيها ظروف العيش المستقر . وقد تعلم في هذه الحقبة ان يخيط لنفسه ملابس من جلود الحيوانات التي كان يقتنصها . يدل على ذلك العثور على ابر ودبابيس مصنوعــة من العظم . ولم يقتصر تقدم الانسان القديم على هــذه النواحي فحسب ، بل انه شق لنفسه سبلا جديدة في نواح جديدة . فان الفضل في اكتشافين عظيمين : الخزف والمعادن يعود الى انسان الشرق الادنى الذي عاش في العصر الحجري الحديث الذي دام حوالي ٢٠٠٠ سنة بدءا من حوالي ٦٠٠٠ ق . م .

الخزف

ونرجح ان اكتشاف صنع الخزف يجب ان يكون قــد حصل عن طريق المصادفة . قد تكون المصادفة احتراق كوخ مصنوع من الطين فتشوى قطع من طين الجدران وتصبح مادة صلبة قويــة لا يرشح منها السائل . ويظن البعض ان هذا الاكتشاف حدث في العصر الحجري المتوسط . واهميــة هــذا الاكتشاف وغيره من الاكتشافات السابقة ليست في الاكتشاف ذاته ، وانما في ادراك فوائده والانتفاع به والاستمرار في صنعه واستخدامه . فقد اصبح في مقدور الانسان ان يستعيض عن القرع والحجارة أو الاخشاب المجوفــة التي كان يستعملها لحفظ سوائله وحبوبه بآنية جديدة مصنوعة من الخزف . وهذا يعني انه اصبح يستطيع ان يعيش على مسافة من نبــع الماء الذي يشرب منه ، وان يطبخ

(١) Makay, p. 8; C.L. Woolley, *Guide to the Museum of Archeology* (Beirut, 1921), p. 2.

طعامه عوضاً عن اكله نيئا او مشويا . واهم من هذا وذاك ان اصبح في مقدوره الآن ان يختزن ما شاء من الطعام الذي لا قدرة له على استهلاكه دفعة واحدة . فيكون الانسان القديم قد اضاف الى قدرتـــه على انتاج طعامه قدرة على تخزينه والاحتفاظ به . وهذه مرحلة هامة من مراحل تقدمه . فبعد ان كان يجمع الطعام في طور القنص ، وبعـــد ان اصبح ينتجه في الطور الزراعي ، اصبح بفضـــل اكتشاف الخزف في مقدوره الان انيختزن طعامه لوقت الحاجة . واختزان الطعام اراح عقل الانسان من الاهتمام المضني الشاق بجمع قوته المستمر ، فاصبحلديهمتسع من الوقت ليسمو بفكره وليتفرغ للامور الفكرية والفنية والروحية . وفي مجتمع بدائي جاهـــل حيث لا تشكو الشخصية من عقد نفسية ينفسح امام الفرد مجال للابتكار والابداع ضمن نطاق امكانيات ذلك المجتمع الحضارية .

ظهرت صناعـــة الخزف في فلسطين حوالي ٥٠٠٠ سنة كمـــا يبدو من البقايا الخزفية التي عثر عليها في اسفل الطبقات الارضية في حفريات اريحا التي قام بها غارستنغ (Garstang) الذييزعم انصناعة الخزفاكتشفت هناك[١]. ومعرفتنا عنخزفيات فلسطين حسنة ، وذلكبفضل الحفريات الكثيرة التي اجريت في اريحا وفي اماكن اخرى متعددة . واقدم انواع الخزفيـــات واكثرها بدائية انواع من الاجران المغروزة في الارض والمُسيَّعة بطبقـــة من الطين أو الكلس . ثم على اعقاب هذه تأخذ الجرار بالظهور ، الجرار ذات القاع المسطح وفي اعلاها حافة بسيطة ولها مقبضان بشكل حلقة . ونحن نعرف الكثير عن خزف شمالي سورية . واقدم نماذجهعثرعليها فيالجزء الشمالي منبلاد ما بين النهرين ، وهي نماذج معاصرة لاقدم انواع الخزف الذي وجد في فلسطين اي حوالي ٥٠٠٠ قبل الميلاد . وقد عقب النماذج البدائية القديمة آنية خزفية مطلية ومدهونة وجدت في تل الجديدة[٢] شمالي شرقي انطاكية ، وذلك حوالي ٤٥٠٠ سنة ق . م . وعلى هذه الآنية صور للزينة بدائية الشكل قبيحـــة المنظر . وقد كانت صناعة الخزف مجالا رحباًللتعبير الفني عند انسان العصرالحجري. وجميع هذه الآنية الخزفية كانت تصنع باليد اذ لم

١ – John Garstang and J.B.E. Garstang, *The Story of Jericho* (London, 1940), pp. 53-4 .

٢ – Robert J. Braidwood, *Mounds in the Plain of Antioch,* (Chicago, 1937), p. 7 .

يكن قد اكتشف بعد دولاب الخزّاف ، اذ يظن ان اكتشاف هـذا الدولاب حدث حوالي ٤٠٠٠ ق . م . ولكنه لم يحسّن ولم يستعمل على نطاق واسع وبمقدرة فنية الا حوالي ٢٠٠٠ ق .م .

اما معرفتنـا بالخزف اللبناني ، سواء اكان في منطقة البقاع ام في الشاطىء ، فضئيلة ناقصة . وذلك رغم ما اسفرت عنه الحفريات الاولية في جبيل وصيدا . وفي الواقع ان معرفتنا عن الحضارة اللبنانية القديمة مستمدة من الاكتشافات التي حصلت خارج حدود لبنان . وبناء على النماذج الخزفية القليلة التي تناولها الدرس نستطيع القول بان صنـع الخزف في لبنان لم يتسم بصفة الابداع او الابتكار . ويبدو انه مقتبس عن جيرانه في الشمال والجنوب . فان نماذج من الخزف كانت شائعة في فلسطين ، ونماذج اخرى معروفة في شمالي سورية تعود فتظهر في فينيقية، مما يدل على اقتباس في الصناعة[١]. واقدم قطع خزفية وجدت في لبنان يعود عهدها الى العصر الحجري الحـديث . وقد وجدت هذه القطع القديمة في جبيل [٢] اقدم بلدة لبنانية ذات تاريخ مدون .

ان وجود الخزف بـين آنية المنزل القديم له قيمة علمية بالنسبة الينا . فهو لا يفسد ولا يبلى رغم انه قد يحطم قطعاً صغيرة . لذلك فان صنعه وتزيينه وزخرفته تعكس لنا بجلاء ذوق الانسان القديم وتحسسه بالجمال ، تماماً كما تعكس لنا ازياء الثياب النسائية ذوق العصر الحاضر . وانتشار الخزف في بقاع الارض المتباعدة دليل على قيام العلاقات التجارية بين الناس في ذلك العهد السحيق . وعليه فـان دراسة الخزف تفتح امام عين المؤرخ نافذة واسعة يطل منها على الابعاد التاريخية. وكذلك قل في الآثار المعدنية التي خلفها الانسان القديم ، فانها بمثابة وثائق للتاريخ البعيد . وباكتشاف صنـع الخزف والتعدين نخلف وراءنا الفترة السابقة للتاريخ المدون ونطـل على عصر جديد اشبه ان يكون مقدمة للتاريخ كما يجب ان نفهم التاريخ . اما التاريخ الحقيقي المبني على وثائق كتابية فانه لا يبدأ قبل اكتشاف الكتابة اي تدوين الكلام برموز .

١ – Wooley, p. 6.

٢ – Maurice Dunand, *Fouilles de Byblos,* vol. I text (Paris, 1939), p. 390; atlas (Paris, 1937), Pl. CXCII; do. in *Revue biblique*, vol. 57 (1950), pp. 582-603 .

الفصل الخامس

عصر المعادن

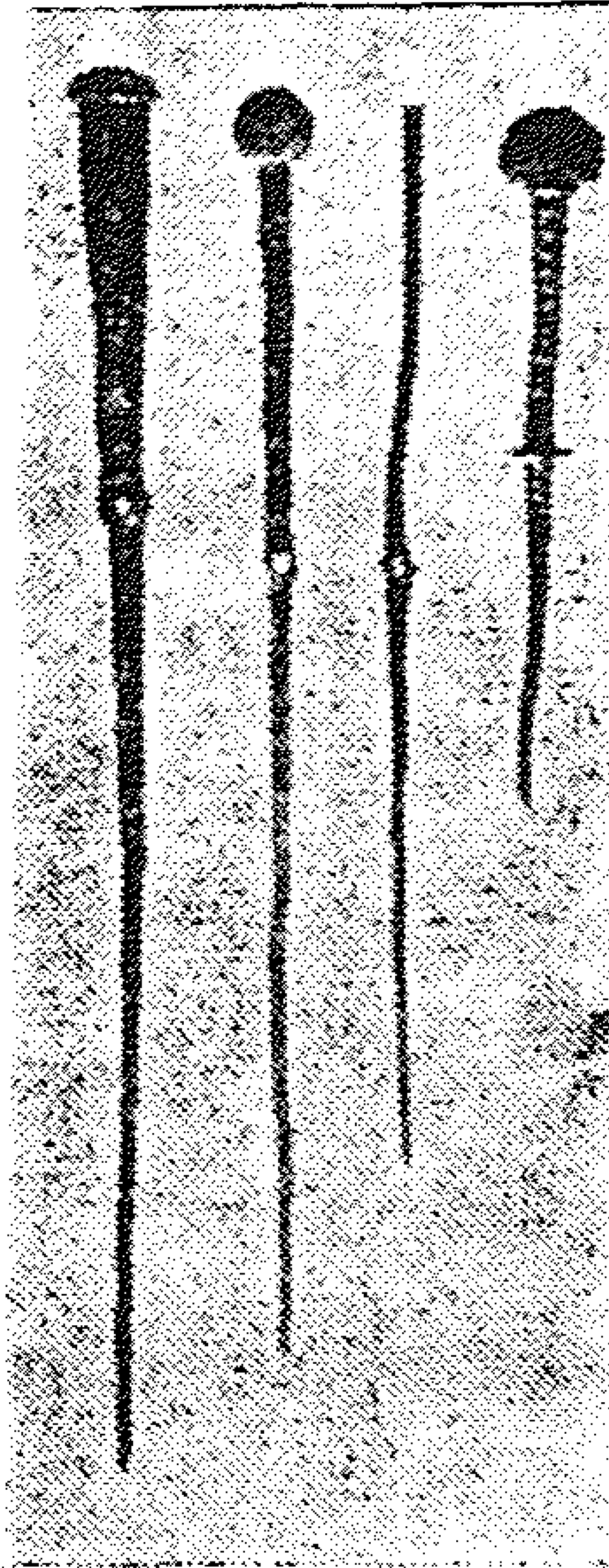
كان اكتشاف المعادن والانتفاع بها فاتحة عهد جديد في تقدم الانسان صعدا نحو الحضارة . ويعرف هذا العصر بالعصر المعدني . واول معدن انتفع به الانسان كان النحاس . وقد اخذ النحاس رويدا رويدا يحل محل الحجر في صنع الادوات ولكن بما ان النحاس معدن طري ينقصف أو يكسر عند تطريقه او ضربه ، فانه لم ينتصر انتصارا تاما على الحجر الا بعد ان اكتشف الانسان طريقة لتقسيته وتغييره الى معدن البرونز (البرونز مزيج من النحاس والتنك) .

العصر النحاسي الحجري

يرجح ان اكتشاف المعـــادن في الشرق الادنى أتى عقب اكتشاف صنـــع الخزف. ولكن يظهر ان انتشار استعماله تأخر عن هذا العهد قرابة الف سنة. فقد كان استخدام النحاس في صنع الادوات أمراً شائعاً في سورية وفلسطين حوالي ٤٠٠٠ ق. م. ولكنه (النحاس) لم يحل محل الحجر كمادة تصنع منـــه أدوات الانسان القديم ، إلا بعد ان كان قد مضى على اكتشافه ما يربو على الف سنة . هذه الالف سنة او الفترة الواقعة بـــين ٤٠٠٠ ــ ٣٠٠٠ ق. م. تعرف بالعصر النحـــاسي الحجري . فقد كان بعض المهرة في الصناعة والفن والعمران يستعملون النحاس أحياناً في هذه الفترة. ولكن سائر الناس ظلوا يستخدمون الصوان رغم ان النحاس يفضله قوة ومرونة وليونة عند تطريقه . وآثار هـــذا العصر النحاسي الحجري كثيرة في أوغاريت ، وفي أماكن غيرها في شمال سورية وفي جبيل ، وفي أماكن اخرى في فلسطين ، منها تُليلات الغسول .

وفي صحراء سيناء آثار معادن للنحاس . وكذلك يوجد النحاس في عمان وفي شمالي سورية ومنهـــا الى مناطق ما بين النهرين . وقد كانت بلاد ما بين النهرين

(العراق القديم) احر بلاد عرفت النحاس واستخدمته في صنع الادوات . ولا يختلف اكتشاف النحـــاس عن سائر اكتشافات الانسان القديم : اكتشاف عن طريق المصادفة . اذ لعله حدث ان احد الناس بنى موقداً امام خيمته من كتل من الحجارة أو التراب المتجمد الذي يحتوي على مادة النحاس . وفي اليوم التـــالي ، وهو ينكت الرماد ، يشاهد قطع معدن لماعة براقة . ولعله استعملها اولا كحلى للزينة ، كما كان يستعمل الخرز والاصداف . ولا بد انه مر بعض الوقت قبل ان ادرك منافع هذا المعدن وفضل استخدامـــه في صنع ادواته . ولكن ما ان ادرك عظم هذه المنافع حتى اخذ باحلال النحاس محل الصوان مادة لصناعته . ولكن هذا الانسان القديم لم يحلم قط بان اكتشافه هذا خطوة اولى نحو ثورة جذرية في اساليب العيش من شأنها ان تدفع بحضارته اشواطاً الى الامام .



دبابيس برونزية ذات ثقوب في الوسط ، من لبنان وسورية

وقد اتى استخدام البرونز في الصناعة عقب استعمال النحاس . ثم تلا هـــذا اكتشاف الحديد والفولاذ . وقد بدأ عصر البرونز حوالي ٢٦٠٠ ق . م . ويقول بعضهم حوالي ٣٠٠٠ ق . م . واستمر الى حوالي ١٢٠٠ ق . م . عندما اخذ

الحديد يحتل محله في الصناعة . واستمر عهد الحديد الى ٣٠٠ ق . م . وفي الواقع فقد استمر العصر المعدني الى زمن اكتشاف الكهرباء ثم الطاقة الذرية . وقد كانت سورية الشمالية — ولا سيما المنطقة الواقعة بين خليج الاسكندرونة وبين منابع الفرات — اثناء العصر الحجري النحاسي مركزا حضاريا رئيسياً كما كانت في العصر الحجري الحديث . فان اكتشاف النحاس والتعرف الى منافعه انتقل شرقا الى ايران وجنوبا الى فلسطين ومصر . ويرجح ان هذه المنطقة ذاتها كانت في عصور سابقة البقعة التي انس الانسان فيها الحنطة واكتشف صنع الخزف المحلي .

ان آثار الانسان في شرقي حوض المتوسط تدل على انه استخدم النحاس اولا في صنع اسلحة الحرب قبل ان اخذ في استخدامه في صنع الادوات المنزلية . ومن الطبيعي ان يكون بدء استخـــدامه في صنع الاسلحة قد اقتصر على انواع صغيرة قليلة العدد لفئة قليلة من الناس . وبديهي ان يكون قـــد لحظ ان القبائل المسلحة باسلحة من معدن اوفر حظا في النصر من تلك التي تعتمد الادوات الحجرية سلاحا في الحرب . ولذا بدأ التنافس في استعماله واستخدامـــه في صناعة الاسلحة على مستوى ارفع . ونرجح ان استخدام النحاس في صنع ادوات منزلية نافعة بدأ اولا بصنع امور بسيطة اكثرها للزينة كالخرز والدبابيس . ولكن على مر الزمن اخذ الانسان بالانتفاع به في مختلف الامور : في الزراعة وفي استخدام دولاب الخزاف لصنع الخزف . وارتقى كذلك فـــن العمارة ، فاصبحت البيوت اكبر واحسن . واقدم نماذج للبناء هي تلك الابنية المستطيلة — اذا كانت الابنية للسكنى — والابنية المستديرة — اذا كانت اماكن للعبادة أو مزارات .

الحضارة الغسولية

تليلات الغسول[١] اسم موقع تاريخي يقع شمالي البحر الميت . ويعـــود زمن تأسيسه الى العصر الحجري النحاسي . ويطلق على تلك الحضارة التي كانت سائدة

---

١ — Excavated by Alexis Mallon *et al., Teleilat Ghassûl* I (Rome, 1934) ; Robert Koeppel *et al., Teleilat Ghassûl* II (Rome, 1940) .



هيكل عظمي بشري يعود الى عصر الانتقال من الحجري الى النحاسي
وقد وجد في جرة خزفية في جبيل . ويعود تاريخه الى ٣٥٠٠ ق.م.

آنذاك ، كما يبدو من الآثار التي وجدت في الحفريات ، اسم الحضارة الغسولية . فقد وجد ان جدران البيوت كانت تصنع من الطين . وكانوا يبنون بيوتهم على اساس من الحجارة الغير المقصبة . وكان اكبر جانب من جوانب البيت يقابل فناء أو داراً امام البيت . وارض البيت مرصوف بالقصب وفوق القصب طبقة من طين . وقد وجد في ارض البيت جرار خزفية مدفونة في الارض تحتوي على هيا كل عظمية لاولاد صغار . ويظهر ان بعض الموتى كانوا يحرقون . ومعلوم ان حرق الجثث عادة غير معروفة عند الشعوب السامية . وقد وجد في جبيل ايضاً جرار خزفية كانوا يضعون فيها الموتى مدفونة تحت ارض غرف البيوت التي يعود عهدها الى العصر النحاسي أو العصر الحجري الحديث . وكانوا يضعون جثة الميت وكأنه

جالس على مؤخرته وركبتاه مطويتان ومرتفعتان[١] .

وقد اجريت في اماكن اخرى من فلسطين وفي جبيل واوغاريت حفريات يعود عهدها الى العصر النحاسي وتشبه حضارتها الحضارة الغسولية . ويقدر العالم الذي قام بهذه الحفريات[٢] في جبيل (ببلوس) ان الأبنية التي عثر عليها يعود تاريخها الى ٣٢٠٠ قبل الميلاد ويعتبرها أقدم نموذج لبناء بالحجر في الشرق كله ان لم يكن في العالم . فان المقبرة التي وجدت هناك يعود تاريخها الى حوالي منتصف الألف الرابع (٣٥٠٠ ق.م.)

ان حضارة هذا العصر ، أي الحضارة الغسولية كانت حافزاً قويا في الزراعة وفي تربية الحيوانات . وفي هذا العصر استمر الانسان في صراعه ليكيف نفسه لبيئته الجغرافية وليخضع بيئته هذه لتلائم عيشه ولتشبع رغائبه . فقد ازداد اعتماده على البقر والغنم والماعز ، تلك الحيوانات التي دجنها في العصر الحجري الحديث . ويبدو هذا واضحاً من شيوع تماثيل هذه الحيوانات في هذه الفترة . ومن مآتي هذه الفترة التقدم في الزراعة التي تعتمد على الري . فانه اصبح يستطيع ان يزرع انواعاً مختلفة من الخضار كالخس والبصل والثوم والحمص والفول والحشائش التي يستخدمها توابل في طعامه . ويظهر أثر وفرة الطعام واختلاف انواعه في معدل طول قامة الانسان في العصر النحاسي الحجري . وبما ان اكثر الناس في العصر النحاسي الحجري كانوا يسكنون اودية الأنهر والسهول التي تكثر فيها التربة الغرينية الرسوبية فانهم كانوا يعتمدون الري في زراعتهم .

علاقات شعوب الشرق الأدنى العرقية

ان العرق البشري الذي تنتمي اليه الشعوب التي قطنت شمالي سورية وفلسطين ولبنان في العصر الحجري الحديث هو العرق الذي يعرف بعرق حوض البحر الابيض المتوسط . فقد وجدت آثار الانسان الذي ينتمي الى هذا العرق في

١ – Claude F. A. Schaeffer in *Syria*, vol. XV (1934) pp. 111-12, Pl. XI, No. 2, facing p. 110 .

٢ – Dunand, *Fouilles de Byblos*, vol. I, text, pp. 295-6.

حفريات الشقبة في وادي النطوف وفي مغارة الوادي (قبل ٥٠٠٠ ق.م.) وفي تل الجديدة (قبل ٤٠٠٠ ق.م.) وفي جبيل ٣٥٠٠ــ٣٢٥٠ ق.ب. مما يدل على انه الشعب الأصيل في البلاد ، ومما يدل ايضاً على انه اقدم الشعوب التي توطنت شرقي البحر الابيض المتوسط . وهذا العرق البشري هو في الواقـع العرق الذي تنتمي اليه جميع الشعوب البيضاء القديمة التي كانت تتوطن شمالي افريقية (الشعب المصري الحامي القديم) وجنوب اوروبة (اي الشعوب التي كانت تقطن شبـه جزيرة ايبيرية [اسبانية والبرتغال] وفرنسة وايطاليا وبلاد اليونان والجزر القريبة منها والتي تغلبت عليها فيما بعد الشعوب الهندواوروبية . وهو عرق بشري يختلف اختلافاً كلياً عن العرق الذي ينتمي اليه انسان مغـارة الكرمل وانسان انطلياس الذي كان يحتفظ بكثير من المزايا الجسمانية البدائية . اما الانسان الذي ينتمي الى هذا العرق الذي نحن بصدده فهو انسان كما نعرف الانسان اليوم . هذا الانسان الذي توطن حوض المتوسط ينتمي الى العرق الابيض القوقاسي . فقد كان قصير القامة أو معتدلها ، ذا بنية نحيفـة ــ واحياناً قوية ــ وذا ساقين طويلين اذا قيستا بجذع جسمه . وقد كان رأسه طويلا ذا شعر يميل لونه الى السواد ، وقل ان تجده اصلع . والى هذا العرق تنتمي الشعوب السامية ، ولكنها لم تكن قد ظهرت بعد في المنطقة التي نتكلم عنها . الا انه يظهر في هذه الطبقة العرقية الاصيلة بعض مزايا ليست بمتوسطية ، بل اشبه بمزايا العرق الارمني الذي هو الجزء الشرقي من العرق الالبي . وهو عرق جبلي يقطن الاراضي المرتفعة الممتدة من جبـال الالب الى القوقاس . ويدخل في نطاق هـذا العرق شعوب قديمة عـديدة منها الحوريون والحثيون والاشوريون وشعوب لها ممثلوها في عصرنا هذا وهم اليهود والاكراد والارمن . وهذا العرق الارمني ، كما قلنا آنفا ، هو من العرق الابيض القوقاسي ، ولكن الانف اقنى عـال مقوس منحن والجمجمة قصيرة مستطيلة . وقد اثبتت الآثار التي عثر عليها في تل جازر[١] ومواقع اخرى في فلسطين ، والاثار التي عثر عليها في حفريات كركميش (جرابلس الحاليـة على الفرات) ومواقع اخرى في شمالي فلسطين ، نقول ان هذه الاثار اثبتت ان شكل الانسان الجسماني في هذه البقعة جميعها يتفق مع الاوصاف التي جئنا عليها . ويظهر ان بعض جماعات بشرية تنتمي

١ – R. H. Macalister, *The Excavation of Geser*, vol. I (London, 1912), pp. 58-9 .
وتعرف باسم خربة ابو شوشة (م)

الى العرق الارمني هبطت من مواطنها في الاراضي المرتفعة في اواسط اسية ، اثناء العصر النحاسي الحجري ، وفرضت نفسها على سكان منطقـــة حوض المتوسط واختلطت بهم على ممر الزمن . ولم تكن هـــذه الهجرة الوحيدة من اواسط آسية الى حوض المتوسط بل ان هجرات مماثلة استمرت في العصور التالية التاريخية . وتدل دراسة بعض اسماء المدن والقرى في هذه المنطقة على انها قد لا تكون سامية الاصل مثل دمشق وارواد التي لم يرد ذكرهـــا في النقوش الا في القرن الخامس عشر ق . م . بل بالاحرى قد تكون تسمية سابقة لعهود الساميين في المنطقة .

ان المميزات الجسمية لهذا العرق الارمني تظهر بصورة بارزة في جبال لبنان . فان هجرات متتالية ــ كالهجرة الحثية مثـــلا ــ استقرت في هـــذه البقعة . وقد اثبتت دراسة عدد كبير من الرؤوس من الموارنـــة والدروز ان شكل الجمجمة ، بوجه عام ، قصير ومستدير وان معدل النسبة بين طول الجمجمة وعرضها يتراوح بين ٨٠ ــ ٨٧[١] وان مؤخرة الجمجمة مفلطح بصورة بارزة . وقد يكون هـــذا القفا المفلطح المنبسط نتيجة تقميط الطفل ووضعه في مهـــده على مؤخرة رأسه . وقد يكون بروز الانف ايضاً ناتجـــا عن الضغط الذي يولده نوم الطفل على هذا الشكل . والام اللبنانية ، منـــذ اقدم العصور ، تلجأ الى تقميط الطفل وربطه الى مهده مستلقيا على ظهره كي تنصرف الى مهـــام البيت فترة من الزمن . واللبناني الذي يمثل الشكل العام في يومنا هذا يميل الى قصر في القامة وضخامة في الجسم ، جذع جسمه طويل وساقاه قصيرتان وبنيته قويـــة . واذا اتجهت من لبنان شرقا الى مدن سورية القريبة من حدوده الشرقية وتابعت سيرك شرقا الى الصحراء تجد فروقاً جسدية بارزة بين سكان لبنان وجيرانهم الى الشرق واخصها استطالة في شكل الجمجمة والوجه ، واستقامة في شكل الانف وسمرة شديدة في لون الجلد . فان بدو الجزيرة العربية في نجد برؤوسهم الطويلة وملامحهم النحيفة يمثلون الفرع السامي من العرق المتوسطي في انقى خصائصه . أما العرب الباقون ولا سيما اولئك الذين يجاورون اطراف الجزيرة العربية فقد كانوا عرضة للتمازج العرقي المختلط .

١ – William M. Shanklin in *American Near East Society,* Monograph, series No. 9 (New York, 1949), p. 3; Carleton S. Coon, *Caravan: The Story of the Middle East* (New York, 1951), pp. 158, 163

ان هجرة الساميين في الحقبة الاخيرة من العصر النحاسي الحجري الى الهلال الخصيب ـ وهي البقعة التي تشبه قوساً او هلالا يرتكز طرفه الشرقي على الخليج العربي وطرفه الغربي على شبه جزيرة سيناء ـ كانت بداية عصر حضاري في المنطقة. وقد كانت هجرة الساميين الى هذه المنطقة في الوقت الذي وضعت فيه حروف الهجاء وظهور الكتابة في حد ذاته نقطة انطلاق . فان ظهور الكتابة يعني بدء التاريخ المدون ، وهو التاريخ الثابت . وهذه التقدمات الحضارية التي تكلمنا عنها آنفاً والتي أسدتها الشعوب التي سبقت الهجرة السامية ليست قيمتها الكبرى في كونها ارثاً حضارياً روحياً ورثه الساميون فحسب ، بل في انه انتقل الى الشعوب الاوروبية المتقدمة . فاننا نعلم اليوم أحسن من ذي قبل ، ان ما نسميه حضارة اوروبة القديمة لم يكن سوى انعكاس للحضارة الشرقية المتوسطية. فان اوروبة جغرافياً هي شبه جزيرة ناتيء من القارة الآسيوية وممتد الى الغرب . يقول عالم في الآثار بريطاني : «لا اتردد في القول ان الغرب مدين للشرق بفضل تقدماته الاولية من أدوات وصنائع وفنون حررت الانسان ووضعت بين يديه سلاحاً يعتق به نفسه من كابوس محيطه الطبيعي . وهو مدين للشرق ايضاً بفضل الروابط الروحية التي وحّدت الانسان في سعيه نحو الحضارة والتقدم»[١] . ويقول هذا العالم في مؤلف آخر له : « ان تاريخ اوروبة السابق للتاريخ المدون ليس سوى تقليد ـ أو اذا شئت تكييف ـ لما قام به الشرقيون من اعمال حضارية»[٢] . ويقول عالم في الآثار اميركي[٣] : « ليس في الارض بقعة قدمت للبشرية من المنافع والخدمات ما قدمته المنطقة التي نطلق عليها اسم جنوبي غربي آسية . فان المعارف الزراعية الاولية وتدجين الحيوانات واختراع الدولاب والكتابة ومبادىء علم الفلك والبحث العلمي ، وجمع الشرائع وتدوينها وفن العمارة والري وغيرها من التقدمات لخير البشرية وتوحيدها ظهرت اول ما ظهرت في هذه البقعة من الارض » .

---

١ - V. Gordon Childe, *The Dawn of European Civilization*, 5th ed. (London, 1950),p. XIII; cf. D. A. E. Garrod in *Journal of world History*, vol. I (1953),pp. 13 seq .

٢ - V. Gordon Childe, *New Light on the Most Ancient East*, (London, 1952),p. 2.

٣ - Henry Field in *Studies Presented to David M. Robinson*, p. 237 .

القسم الثاني

العصور السامية القديمة

الفصل السادس

الكنعانيون : اول شعب كبير نوطن لبنان

قبيل انبلاج السحر

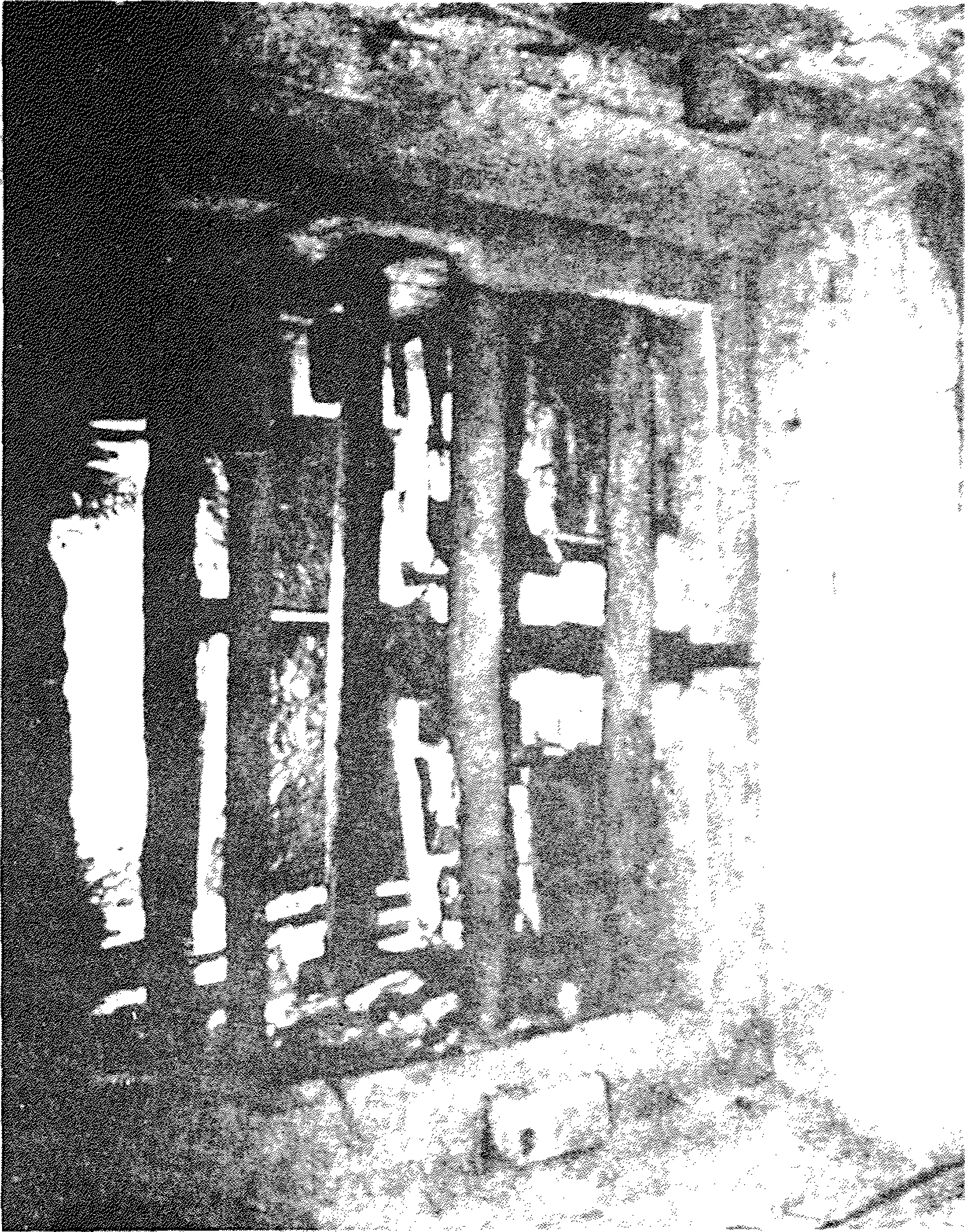
قبيل مطلع الفجر ، فجر التاريخ المدون ، وحول سنة ٣٠٠٠ ق.م. نجد شعباً سامياً يعرف بالشعب الكنعاني ، يتوطن الشاطيء اللبناني والمناطق الغربية من البلاد السورية والمناطق الجنوبية اي فلسطين . وقد سبق ظهورهم في هذه المنطقة ببضعة قرون شيوع نظاميين للكتابة ، الواحد منها الكتابة المسمارية السومرية في العراق القديم ، والثاني الخط الهيروغليفي في وادي النيل . وقد ورد ذكر لبنان باسمه صراحة او ضمناً وباستمرار في النقوش الأكدية والمصرية والاشورية والبابلية الجديدة بدءاً من النصف الاول من الالف الثالث قبل المسيح. فقد ذكر الفرعون سنفرو مؤسس الدولة الرابعة (حوالي ٢٦٥٠ ق.م. حسب التاريخ الذي يعرف بالتاريخ القصير) في نقش له يصف فيه سفرة بحرية الى لبنان انه جلب معه جمل ٤٠ مركباً من جذوع الارز . ويذكر هذا الفرعون ايضاً انه بنى مراكب من خشب الارز[1] . وقد وجدت مؤخراً في الغرفة التي دفن فيها سنفرو داخل هرم دهشور جسور من جذوع الارز لا تزال تحمل سقف الغرفة . وأدهش من هذا اكتشاف رائع عثر عليه أثري مصري شاب في ربيع عام ١٩٥٤ ، هو زورق لخوفو خليفة سنفرو . وهذا الزورق كان يستخدم في مراسيم الدفن والموت وطوله ٦٠ قدماً . وقد كان هذا الزورق مدفوناً قرب هرم الجيزة دفناً محكماً في طبقة من الحجارة الكلسية . وقد وجد الزورق وما فيه من أدوات بحالة سليمة . وهو مصنوع من خشب الارز الذي قيل انه يحتفظ الى يومنا هذا برائحة الارز ، ويظهر ان القصد من صنع هذا المركب نقل نفس الفرعون في رحلتها الابدية مع الشمس . وهذا الزورق هو الثاني بين اقدم آثار خشب الارز اللبناني التي اكتشفت

---

١ – James H. Breasted, *Ancient Records of Egypt,* Vol. I (Chicago, 1906), sec. 146, 147 .

الى اليوم . وفي المتحف المصري في القاهرة نماذج من توابيت مصنوعة من خشب الارز الذي لا يزال محتفظاً بجودته .

يدعي لوغال زغيسي مؤسس الامبراطورية الاولى في العراق القديم، ان البلدان التي اخضعها بقوة سلاحه كانت تمتد من « مشرق الشمس الى مغربها ، ومن البحر الاسفل عند مصب دجلة والفرات الى البحر الاعلى[١] » . وسرجون الاكدي



اقدم بناء خشب من ... وقد وجدت داخل اهرام سنفرو (حوالي ٢٦٥٠ ق.م) في دهشور

١ – Cf. George A. Barton, *The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad* (New Haven, 1929), p. 99 .

(حوالي ٣٢٥٠ ق.م) اول فاتح ساميّ في التاريخ ، وقاهر الامبراطورية السومرية الى فترة من الزمن قصيرة ، يسمي نفسه « ملكالكون » والكون اذ ذاك لم يكن سوى المنطقة الواقعة بين الخليج الفارسي والبحر الابيض المتوسط .ونرجح انه عندما يتكلم عن « غابة الارز وجبال الفضة[١] » انما يعني جبل اللكام لا جبال لبنان وغاباته

ان الموجة التي اتت بالشعب الاموري من الصحراء العربية الىالهلال الخصيب هي الموجة ذاتها التي اتت بالشعب الكنعاني . ونرجح انه دخل لبنان قبائل بدوية مع ماشيتها وقطعانها عن طريق سهل البقاع وشمالي سورية. واسم البقاعفيالنقوش المصرية أمرُّو (Amurru)[٢]. وهذه التسمية «اموريون» اطلقها عليهمجيرانهمالى الشرق ، اي السومريون . فهي تسمية غير سامية[٣] . وعاصمة الاموريين ماري (واسمها الحالي تل الحريري) وموقعها على الفرات جنوبيمصب الخابور .واسمها مشتق منذاتاللفظ الذي يشتق منه لفظ A - mur - ru (أمر و) ومرتو mar - tu ومعناه البلاد الواقعة الىالغرب (الىالغرب منالسومريين) . وفي شمالي لبنان قرية تعرفباسم عمريت (وفيالنقوش المصرية « عمرط » وفيالتاريخ الكلاسيكيمرثوس Marathus) . وقد يكون هذا الاسم استمرارا لاسم أمرو او مرتو . وقد انتشر الاموريون شرقا الى وادي دجلة والفرات واسسوا هناك ملكا عظيما كان من ملوكه حورابي (توفي حوالي ١٧٠٠ ق . م .) اول شارع في التاريخ . وقد تكون اللاحقة[٤] « ون » أو « ان » التي تظهر في اسم لبنان وصيدون وعسقلان لاحقة امورية. وليسهنالك منفروق عرقية اساسية بين الشعب الكنعاني ــ الذي كان يسميه الاغريق الشعبالفينيقي ــ وبين الاموريين . غير انه على مر الزمن وبحكم الجوار اكتسب الشعب الامــوري مزايا جسدية من السومريين والحوريين بينما اكتسب الشعب الفينيقي مزايا الشعوب المتوسطية التي كانت تتوطن لبنان قبل

---

١ – Barton, p. 109.

٢ – G. Steindorff and Keith C. Seele, *When Egypt Ruled the East* (Chicago, 1942), pp. 35,47 .

٣ ــ اما نحن فنرجح ان التسمية سامية وترد الى جذر سامي مشترك معناه العلو والارتفاع اي سكان المرتفعات ، او المقدمون الامراء . (المترجم)

٤ – ترجمة suffix

مجيئهم اليه . اما الفروق الحضارية بين الشعبين فردها الى الموقع الجغرافي . فقد كان مركز الاموريين شمالي سورية القريب من العـــالم السومري البابلي ، وكان طبيعياً ان يتأثر هذا الشعب بحضارة العراق القديم ، بينما كان مركز الشعبالكنعاني الساحل اللبناني القريب من مصر فكان طبيعيا ان تقع هـــذه البلاد تحت التـــأثير المصري . وامـــا الفروق في المعتقدات الدينية فردّها في الدرجة الاولى الى اثر البيئة الطبيعيـــة في كل من البلدين . امـــا الفروق اللغوية فليست بذي بال ، فانها فروق لهجية ، ذلك لأن اللغتين في جوهرهما واحد ، وتنتميان الى الفرع الغربيمن اللغات السامية الذي تنتمي اليه ايضا اللغة العبرية .

بلاد كنعان

ان أقدم اسم اطلق على سورية ــ فلسطين هو كنعان . وكانت فلسطين ، حسب أسفار العهد القديم ، تعرف بكنعان . وكان يظن سابقـاً ان اللفظة سامية الاصل تعني « الارض المنخفضة[١] » مقابلة لها بالارض المرتفعة (اي لبنان) . وأما الآن فاننا نشك في ان تكون لفظة سامّية . يرجح انها لفظة حورية : كنجي اي بلاد الارجوان . وهذه اللفظة ذاتهـــا تصبح في اللغة الأكدية كنخني (وفي رسائل تل العمرنة كنخي) وفي الفينيقية كنع وفي العبرية كنعان[٢] . فاذا صح هذا التعليل الفيلولوجي للاسم تكون صناعة الأرجوان معروفة مزدهرة في القرن الثامن عشر أو السابع عشر ق.م. أي لما وطد الحوريون علاقاتهم في شمالي العراق القديم مع سكان شاطىء البحر المتوسط . وكذلك لفظ فينيقية فانه لفظ اغريقي اصله Phoinix ومعناه الأرجوان . وهذا دليل آخر على انتشار هذه الصناعة في هذا

---

١ ــ من جذر « كنع » ومعناه الانخفاض والخنوع . راجع :
George A. Smith, *Historical Geography of the Holy land* 11th. ed. (New York, 1904); pp. 4-5; Claude R. Conder *Syrian Stone - Lore* (London , 1896), pp. 2-3; C. Autran, *Phéniciens* (Paris 1920), p. 4.

٢ ــ W. F. Albright, « The Role of the Cannanites in the History of Civilization», *Studies in the History of culture*(Menasha, 1942), p. 25, cf. Albrecht Alt in *Der Alte Orient*, Vol. XXXIV, no. 4, (1936), p. 25 .

القسم من حوض المتوسط الشرقي. وقد اطلق الاغريق أولا هذه التسمية «فينيقي» على جماعة الكنعانيين الذين كانوا يتجرون معهم ، ثم اصبحت التسمية هـذه في أوائل القرن الثاني عشر مرادفة للفظة كنعاني . وهنالك رواية متأخرة في الزمن وردت في التاريخ الكلاسيكي ، مؤداها أن الفينيقين قدموا لبنان من مناطق الخليج الفارسي . فقد ذكر هيرودوتس بان الفينيقيين يعتبرون منـاطق الخليج الفارسي موطنهم الاول . والخليج الفارسي عند هيرودوتس جزء من الاوقيانوس الهندي (Erythraean Sea)[1] . ويذكر الجغرافي سترابو[2] اسماء جزيرتين في الخليج الفارسي اسم احداهما صور والأخرى ارواد فيهما هياكل تشبه الهياكل الفينيقية . ويضيف قائـلا ان اهل هاتين الجزيرتين يعتبرون المدينتين الفينيقيتين المسميتين صور وارواد مستعمرتين من مستعمراتهم . وفي احدى جزر البحرين الكبيرة عدد كبير من القبور التي تشبه القبور الفينيقية ، ولهـا مداخل تواجه المغرب . ولكن هذه القبور لم تدرس بعد دراسة علمية . وقد زار نيارخوس ، امير البحر عنـد الاسكندر المقدوني ، مدينة تسمى صيدا تقع على شاطىء الجزيرة العربية الشرقي .

المُدُن الدول

كان لبنان ، في تكوينه الطبيعي ، منذ أقدم الازمنة حتى العهـد الروماني ، مجموعة مدن منتشرة على طول الساحل ووراءها الى الجهة الشرقيـة جبال كثيفة الغابات قليلة السكان . وكانت كل مدينـة تستغل موارد البلاد الواقعة وراءها ، ولكنها لم تتحد قط لتخلق من وحدتها قوة كبيرة مركزة. وعليه وجب على طالب التاريخ ان يتفهم طبيعة المدينة الفينيقية أولا ليتسنى له فهم حقيقة التاريخ الفينيقي. فقد كان المجتمع الفينيقي مجتمعاً مدنياً (مقابلة له بالمجتمع الريفي) ، وكان نظـام هذا المجتمع المدني الاقتصادي والصناعي من النوع الذي يفتح امـام الفرد فرصاً وآفاقاً من العمل الفردي المستقل الذي تظهر فيه فرديته ونشاطه . فكانت نتيجة هذا النظام المحتمة قيام مدن ذات سيادة ، فيهـا من عناصر الضعف العسكري وعدم الاستقرار السياسي ما يكون عادة في سيادة من هذا النوع .

١ – Bk. VII, ch. 89.

٢ – Bk. XVI, ch. III, sec. 4 .

ولكن هذه المدن ذات السيادة ، بالرغم من اعتمادهـــا على التجارة والاتصال بغيرها من البلدان ، كانت مدناً متجاورة متنافسة على الرغم من انه لم يكن هنالك أي فاصل جغرافي طبيعي بين مدينة واخرى . واذا نحن قابلنا بين فينيقية ومصر ، حيث كان النيل يفرض الوحدة بين اجزاء البلاد ، وحيث كان مقام الملك ووظيفته كإله يربط بين افراد شعبه ، وبذلك كان النيل والملك الاله يوفران له الاستقرار والسلام الداخلي ؛ نقول : اذا نحن قابلنا بين البلدين وجدنا فرقاً عظيماً . فقد كان محور تاريخ فينيقية يدور حول اربع مدن لمعت اسماؤها على صفحات الالياذة ، وخلّدت ذكرها أسفار التوراة ، نعني جبيل وارواد في شمال البلاد وصيدا وصور في جنوبها . من هذه المدن الاربع واحدة فقط ، جبيل ، تعرضت لمعول المنقبين عن الآثار تعرضاً علمياً مركزاً[١] . وفي الواقع ، فان اكثر معلوماتنا الاركيولوجية عن مواقع المدن الكنعانية حديثة العهد يرجع تاريخها الى السنين الواقعة بين ١٩٢٠ ـ ١٩٤٠ ميلادية . وما نعرفه لا يتناسب مع ما نجهله من هذا التاريخ . وسبب قلة الآثار الكنعانية في المناطق التي تقع شرقي الساحل اللبنـــاني يعود الى ان تلك المنطقة كانت قليله السكان، وكان معظمهم من الرعاة وقطاعي خشب الاحراش. وقد وجدت اسلحة نحاسية بدائية وتماثيل صغيرة في القرى الجبلية في جنوبي لبنان مما يدل على ان شعباً صغيراً غير سامي كان يقطن تلك المنطقة ، ربمـــا ينتمي الى الشعب الاناضولي الذي كان يبتاع النحاس القبرصي من الكنعانيين الذين يسكنون على الساحل[٢] .

علاقات لبنان مع مصر

كانت اول مدينة لبنانية القى عليها التاريخ اضواءه جبلة (جبال في التوراة)[٣]

١ – By Pierre Montet, 1921-4. see his *Byblos et L'Egypte*, vol. I text (Paris, 1928) ; atlas (Paris, 1929); Subsequently by Maurice Dunand, see his ***Fouilles de Byblos;*** earliest Systematic study by Ernest Renan; ***Mission de Phénicie*** (Paris, 1864) pp. 152 seq., pls. XIX - XXX .

٢ – Henri Seyrig in *Syria*, vol. XXX (1953), pp. 24-50 .

٣ ـ يجب الا يخلط بينها وبين « جبلة » التي ورد ذكرها في نقوش اوغاريت التي هي بلدة جبلة في الشمال التي كانت في يوم من الايام بلدة كنعانية .

واسمها السامي القديم لا يزال حياً في اسمها الحديث : جبيل . اما المصريون فقد كانوا يسمونهـــا « كبنة » (Kupna) والاغريق ببلوس . وقد يكون لفظ ببلوس تحريفاً لكلمة تعني البردى (Papyrus) ومن ثم الكتاب او السفر . ولا يزال هذا الاسم حياً في لفظة التوراة في الاغريقية (Ta Biblia) وقد ذكرها النبي حزقيال (٢٧ : ٩) وكذلك ذكر يشوع شعبها « الجبليين » (يشوع ١٣:٥) . وقد ورد ذكرها ايضاً في سفر الملوك الاول (٥ : ١٨).ويبدو ان اهل « جبلة » كانوا على اتصال تجاري بمصر السفلى قبل ان تتحد مصر العلياوالسفلى في دولة واحدة تعرف بالاسرة الاولى [١] . فقد وجدت جسور من جذوع الارز في مقابر هذه الاسرة وبعض قطع من خشب الارز يعود تاريخها الى ما قبل هذه الاسرة . وفي هذا دلالة على ان هذا الخشب كان يستحضر من لبنان في ذلك العهد السحيق . وقد وجد ايضاً في قبور ملوك هـــذه الاسرة آنية خزفية وسلع كنعانية اخرى . وقد دلت الحفريات التي اجريت في جبيـــل على ان هذا الموقع كان يستوطنه فلاحون او صيادو سمك منذ العصر الحجري الحديث . وقد مرت جبيـــل في ادوار عديدة متتالية كما يبـــدو من الطبقات الترابية التي تطمرها . فان جبيل الثانية (مقابلة لها بجبيل الاولى اي اعمق طبقة في الحفريات) كانت قرية صغيرة جدران بعض بيوتها الخارجية منحنية اومقوسةوبعضهاالآخر ذات حيطان مستقيمةالاضلاع وشوارعها مرصوفة بالحجارة ومساحتها ما يقرب من ٨ دونمات[٢] ولا يظهر في ما وجد من اسلحة نحاسية ومن ادوات فضية للزينة في جبيل الثانية اي دليل على ان هذه الصناعة واقعـــة تحت تأثير بلاد ما بين النهرين ، بل تدل على انها صناعة معدنية مستقلة .. وليس هذا وحسب بل قد يكون ان صناعة المعادن في العالم الايجي قد اقتبست عن جبيل [٣] . اما في جبيل الثالثة فان هندسة البيوت تتغيروصنع الخزف يدل على انهم بدأوا يستعملون دولاب الخزاف . وقد كانت جبيل الثالثة والرابعة معاصرة في الزمن للاسرة المصرية الاولى . وقد عثر في جبيل على هيكل وجد فيه

---

١ – S. R. K. Glanville, ed., *The Legacy of Egypt* (Oxford), p.6; Steindorff and Seele, p. 21 .

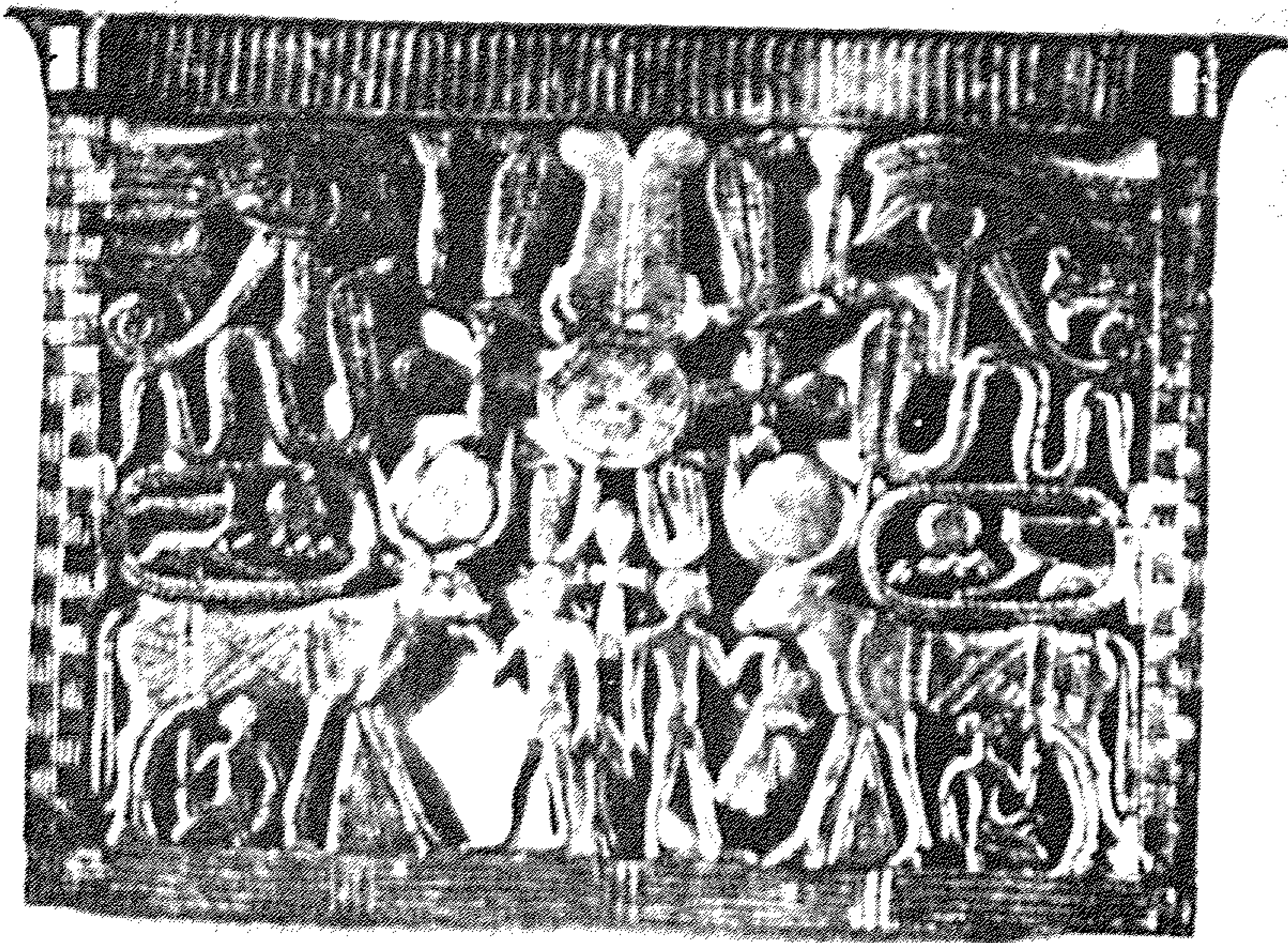
٢ – Maurice Dunand, *Revue biblique,* vol. 57 (1950), pls. VIII 3, XIII, XIV .

٣ – Childe, *New Light,* p, 224 .

قرابين وتقدمات ملوك مصر بدءا بفراعنة الاسرة الثانية . ولم تقتصر تجارة هذا الميناء اللبناني، جبيل، على تجهيز مصر بالاخشاب الممتازة (ومصر فقيرة بالاخشاب) لصنع المراكب ولسقف القصور والهياكل ولصنع المواعين والتوابيت والسواري والكراسي وغيرها من اثاث البيت، بل كانت تصدر الى مصر خمور لبنان المشتهاة وزيت زيتونها الطيب ، ومختلف الصموغ التي تفرزها الشقوق في جذوع اشجار الصنوبر والارز والشربين والسرو والتي كانت تستعمل في عملية التحنيط[١] . وقل ان تدخل جناحا خاصا بمصر في اي متحف من المتاحف الاثرية دون ان ترى فيه شيئا من خشب الارز . ومقابل هذا التصدير كان الجبيليون يستوردون الذهب والمعادن والبردي للكتابة في شؤونهم التجارية ومنتجات اخرى من وادي النيل . وقد ظلت هذه العلاقات التجارية براً وبحراً مزدهرة نشيطة، لا بل ازدادت نشاطا ، طيلة ايام المملكة القديمة (حوالي ٢٧٠٠ ـ ٢٢٠٠ حسب التاريخ القصير) فان المراكب الشراعية المصرية ، بدءاً بالاسرة السادسة ، كانت تعرف « بمراكب جبلة » . ولم يقتصر الاتصال تجاريا بمصر على طريق البحر وحسب بل كانت القوافل البرية تتبع الطريق الدولية التي كانت تبدأ في دلتا النيل وتسير على محاذاة الشاطىء الى سيناء حيث كانت تنشعب منها طريق تتجه جنوبا الى معادن النحاس ومقالع الفيروز . وعلى مسافة قصيرة شرقاً كانت تنشعب منها طريق اخرى الى بلاد البخور في جنوبي الجزيرة العربية. وتستمر الطريق شمالا على محاذاة الشاطىء الفلسطيني الى جنوب لبنان . وهنا في جنوب لبنان كانت الطريق تنشعب الى طريقين رئيسيتين الواحدة تستمر على محاذاة الشاطىء شمالا مارة في صور وصيدا وجبيل ومدن ساحلية اخرى ، والثانية تنحرف جنوبا في وادي مجرى الليطاني الى البقاع ، ومن البقاع الى دمشق . وكانت شعبتا هذه الطريق ، الطريق الساحلية وطريق سهل البقاع ، تلتقيان شمالا في قادش (قرب بحيرة حمص) بطريق وادي النهر الكبير وهو الوادي الذي يمر فيه اليوم القطار الحديدي . وفي شمال سورية تنشعب هذه الطريق الدولية الرئيسية مرة اخرى . فان فرعاً منها كان يمر في مضايق كيليكية الى آسية الصغرى ، وفرعا اخر ينحرف شرقا نحو الفرات ثم جنوبا الى رأس الخليج الفارسي . وهكذا نجد ان طريقا دولية رئيسية واحدة

١ – Montet, *Byblos et L'Égypte,* text, pp. 9, 226-70 .

كانت تربط بين جميع المراكز الحضارية في العالم القديم ، وهي الطريق ذاتها التي كان يتبعها غزاة هذه المنطقة وفاتحوها : رعمسيس واسرحدون والاسكندر المقدوني والصليبيون ونابليون بونابرت . وقد انشأ التجار المصريون لأنفسهم مستعمرة او جالية مزدهرة في جبيل . يدلنا على ذلك ما وجد من آثار وبقايا مصرية في الحفريات التي اجريت في جبيل. ولا شك في أن هذا الاتصال المصري بفينيقية لم يقتصر على جبيل وحدها ، فقد انشئت ايضاً جالية تجارية مصرية في مدينة اوغاريت . ويظهر ان هذه العلاقات بين مصر وفينيقية كانت تجارية وحضارية تتميز بكثير من المودة والاخاء . فقدكان امراء جبيل يتبادلون الهدايا الثمينة مع فراعنة مصر . وها اننا نجد اسم الفرعون خوفو ، باني الهرم الكبير في الجيزة ، محفوراً على مزهرية من المرمر مرفوعة الى الالهة « بعلة جبيل » التي كان لها هيكل ترسل اليه القرابين والتقدمات والنذور من الفراعنة الذين سبقوا خوفو والذين خلفوه . وليس هذا فقط ، بل اسفرت الحفريات عن اكتشاف معبد للالهة المصرية ايسيس قائم الى جانب معبد « بعلة جبيل » . وفي الواقع انه على ممر الزمن اصبحت الالاهتان الاهة واحدة . وقدكان امراء جبيل



حجاب يعلق على الصدر عليه اسم امنمحت الثالث (حوالي ١٦٩٠ – ١٦٤٢ ق.م.) وقد وجد على ارض لبنانية

يزينون اسلحتهم وحــلاهم برسوم ونقوش مصرية . وبعضهم كان يفخر ان يسمي نفسه من « ابنـــاء رع » الاله الشمسي الاول في مصر .

السيادة المصرية

بدأت العلاقات بين لبنان القديم ومصر على اساس تجاري حضاري ، ولكنها ما عتمت ان اصبحت صلات سياسية . فان فراعنة المملكة المتوسطـــة (حوالي ١٩٠٢ ــ ١٦٢٨) ، ولا سيما فراعنة الاسرة الثانية عشرة ــ وهي اعظم اسرة في تاريخ مصر المجيد ــ بدأوا بفرض السيادة المصرية ، ليس على الشاطىء اللبنـــاني وحسب ، وانما على فلسطين وعلى جزء كبير من سورية . ولكنهـــا لم تكن على الارجح سيادة تامة تفرض على البلاد بحزم وشدة . واننا نبدأ ان نرى في الصور التي كانت ترسم على الجدران في القصور والهيا كل رسوم وفود واسرى آسيوية . وأقدم هذه الرسوم نجدها في القبور الملكية المنحوتة في الصخر في بني حسن والتي يعود عهدها الى سنوسرت الثاني (حوالي ١٥٠٠) . وتشير اسماء المدن والامكنة التي تظهر في قوائم اسماء الامكنة في النقوش المصرية على ان الشاطىء باكمله حتى النهر الكبير ، وحوران ودمشق ، وجزءاً كبيراً من سهل البقاع جميعها كانت عند نهاية حكم امنمحت الثالث (حوالي ١٦٩٠ ــ ١٦٤٢) تدور في الفلك المصري السياسي . وقد وصلنا من عهد احد الفراعنة في هذه الاسرة أجمل قصة فيها اقدم وصف رائع للحياة الاجتماعية وانظمتها في المنطقة . تلك هي قصة سنوحي .

قصة سنوحي

كان مؤلف هذه القصة احد امراء القصر المصري واسمه سنوحي ، الذي وجد من الحكمة عندما تسنم سنوسرت الاول (حوالي ١٨٠٠) عرش مصر ان يهرب من البلاد الى مكان ما في بلاد رتنو [١] حيث عاش بين البدو سنين عديدة قبل ان

١ ــ رتنو : لفظة مصرية لكلمة سامية غامضة الاشتقاق كانوا يطلقونها على سورية عامة . ان هذه اللفظة لا تزال حية في اسم نهر الليطاني (بتغيير الراء الى اللام) . وقد يكون لفظة فنخو التي ترد ايضاً في هذه القصة اسماً يشير الى فينيقية .

إستدعي للرجوع الى القصر الملكي . وعندما رجع الى وطنه كتب مذكراته بقالب شعري . لما غادر مصر هارباً أجاره شيخ بدوي بالقرب من الحدود المصرية وخلصه من الموت جوعاً. فكان يعطيه حليباً ساخناً ، وسمح له بالاقامة بين قبيلته. وأخيراً وصل سنوحي جبيل ومال منها شرقاً الى داخلية البلاد الى سهل البقاع كما يظهر من وصف الرحلة . وهنا استجار بشيخ قبيلة له اسم اموري واقـام عنده واصبح كواحد من اهل البلاد . ويظهر انه كان بطلا مغواراً يحب الحرب والغزو فأخذ يقوم بالغارة تلو الغارة على القرى المجاورة فيطارد رعاتها غانماً انعامها ويعود بعدد من الاسرى . وكان في صيده يستخدم الكلاب ، وكان يضيف الضيوف على طريقة شيوخ البدو . وكان يسقي العطشان ، ويهدي ضال السبيل . وقد قام سنوحي ضيف البلاد ، بدعاية واسعة النطـاق لبلاده مصر . ولكن يظهر ان مضيفه الشيخ لم يكن على استعـداد للتخـلي عن حريته واستقلاله . وقد تزوج سنوحي من بنت الشيخ الكبرى فأقطعه حموه ارضاً طيبة تصلح للزرع والرعي . يقول عن أرضه : « فيها التين والعنب ، وخمرها أكثر وفراً من الماء . فيها العسل الكثير والزيتون الوفير . فيها من جميع الثمار ، وفيها الحنطة ، وماشيتها لا يعرف لها عد[1] » . ويصف لنا فارسا جباراً عنيداً من اهل رتنو دعاه الى البراز . ويقول ان الخنجر والرمح والفأس والقوس والنبال استعملت في القتال . وكان الرجـال يهتفون لسنوحي ، وكانت النساء يزغردن له ، فخرج من المبارزة منتصراً .

واخيراً ، عندما تقدم سنوحي في السن شعر بحنين شديد الى موطنه الاول . كان يغتم عندمـا تراوده الفكرة بانه سيدفن في ارض غريبة ويكفن بجلد شاة . فاقام ابنـه الاكبر وصياً ووكيلا على ممتلكاته وعاد « غير نادم على كثبان الرمل فهي لاصحـابها ينعمون بها ، وغير آسف على اشجار الزيتون فهي لاصحابها وزيتها لهم يتمسحون به »[2] . اما هو فعائد الى موطنه حيث يمكنه ان يتمتع بحمام وينام على فراش وثير .

١ – James B. Pritchard, ed., *Ancient Near Eastern Texts* Princeton, 1950), p. 19 .

٢ – Prichard , p. 22

في القرن السابع عشر عند نهاية عهد المملكة المتوسطة ، نشهد ظهور امراء اسماؤهم كنعانية مثل « يب-شمو-اب » و« انتن » و «يوناثان»[١] وتظهر كذلك بعض الالقاب المصرية مثل « هتيا » اي كونت . وفي المتحف الوطني في بيروت يرى الزائر صندوقاً من حجر بركاني توضع فيه الحلى والجوهرات عليه اسم امنمحت الرابع الذي اهداها الى الأمير « يب - شمو - اب » الذي جئنا على ذكر اسمه آنفاً[٢] . فقد كان للفراعنة فيهذه الحقبة سفراء،او ممثلون دبلوماسيون او مفوضون . ولا شك ان الصلات الفنية والفكرية كانت على ازدياد . فان الصناع الكنعانيين اخذوا يزينون المصنوعات المعدنية بحفر الرسوم الهيروغلوفية (الرموز التي كان المصريون يستعملونها في كتابتهم) عليها .

سيادة دولة الرعاة على مصر (الهكسوس)

عند اواخر القرن السابع عشر انقطعت هذه الصلات بين مصر ولبنان وذلك بسبب ظهور شعب محارب قوي مجهول الاصل اجتاح اولا القسم الاكبر من سورية ثم انحدر جنوباً واحتل مصر وسادها بقوة السلاح .هؤلاء هم الهكسوس وهذا الاسم مصري الاصل معناه في لغتهم « اسياد أو حكام البلدان الاجنبية » . ولكن اول من استعمل هذا اللفظ في كتابته مؤرخ مصري كتب باليونانية . وقد فسر الاسم على انه يعني « الملوك الرعاة »[٣] .

كان الهكسوس شعبا مزيجا في اكثره سامي العرق (يشمل الكنعانيين والاموريين والعرب) . غير ان هذا المزيج السامي من الشعوب داخلته عناصر غير سامية من الحوريين والحثيين والمتّانيين . وقد تكامل هذا الخليط من الناس في شرقي حوض المتوسط ، الذي كان اشبه ببوتقة تنصهر فيها جميع العناصر فتفيض من على جوانبها فيضا يطغى على ما يجاورها من بلدان ، وعندها طغت احدى موجاته فاوصلت الهكسوس الى وادي النيل . وقد كان من جملتهم بعض

١ – Pritchard , P . 229 .

٢ – George Haddad, *Beirut, Byblus and Mt. Lebanon*, (Beirut, 1952), p. 44 .

٣ – Josephus, *Apion*, Bk. I, ch. 14 .

قبائل « الخبيرو »[٢] ومما يعزز الرأي ان العنصر في هذا الخليط من الشعوب كان العنصر الكنعاني اسماء قوادهم وامرائهم التي ابقوها لنا محفورة على التعاويذ والتمائم المصرية (بشكل الخنافس التي كانت عند المصريين رمز الخلود) . وقد وجدت آثار هكسوسية في اماكن متباعدة مثل جزيرة كريت حيث عثر هناك على مزهرية عليها اسم ملك من ملوكهم . وكانت آلهتهم آلهة كنعانية . وقد كانت هذه الموجة التي انتشرت في الشرق الادنى السبب في ادخال عناصر بشرية غير سامية الى كل من لبنان وفلسطين . فان الهياكل العظيمة البشرية القليلة التي عثر عليها في الحفريات تشير الى ان العرق المتوسطي في هذه الحقبة اخذ يختفي ليظهر مكانه العرق الارمني. ادخل الهكسوس الحصان الى هذه المنطقة ، ولم يكن استعماله للركوب بقدر ما كان يستخدم في جر المركبات الحربية . وقد دُجِّن الحصان في ازمنة بعيدة في مناطق شرقي بحر قزوين على ايدي القبائل الهندواوروبية البدوية ، ومن هنالك انتقل الى بلاد ما بين النهرين فسورية ومن ثم دخل الجزيرة العربية قبل التاريخ الميلادي. ومما لا شك فيه ان الحصان كان عاملا اساسياً في انتصار الهكسوس الحربي وسيطرتهم على شعوب سورية ولبنان وفلسطين . فقد كان ظهور المركبات الحربية التي تجرها الجياد مفاجأة للعدو لا تقل أثراً عن ظهور الدبابات أو الغازات السامة أو اية اسلحة سرية في الحرب العالمية الاولى[١]. وقد أدخل الهكسوس ، فضلا عن الحصان، السيوف الحديدية المقوسة والقوس المزدوج الذي ظهر اول ما ظهر في بلاد بابل . ومما زاد في تفوقهم الحربي استخدامهم البرونز في صنع اسلحتهم . وقد تقدمت الصناعات المعدنية في هذه الفترة تقدماً كبيراً، كما ان صناعة الخزف خطت خطوات كبيرة الى الامام. وقد كانت عاصمتهم في سورية قطنة (مشرفة) الواقعة شمالي شرقي حمص في اتجاه الجزء الشمالي من البقاع .

كان الهكسوس في جميع البلاد التي اخضعوها لسلطانهم أسياداً اقطاعيين . ولكنه كان نظاماً اقطاعياً غير محكم التنظيم . فقد كانت هنالك طبقة ارستقراطية تتألف في معظمها من فرسان اقوياء يملكون ادوات الحرب ــ المركبات والجياد ــ

---

١ ــ قد تكون قبائل الخبيرو هي جماعة العبرانيين عندما كانوا بدواً في شمالي الجزيرة العربية قبل توطنهم فلسطين .

٢ ــ اقدم وصف رائع للحصان تجده في سفر ايوب ٣٩ : ١٨ ــ ٢٥ .

استأثرت بالقوة والسيطرة . ان النظام كان عسكرياً بحتاً . ومعنى هذا ان نظاماً عسكرياً أجنبياً حل محل النظام الارستقراطي الكنعاني الذي كان يقوم على التجارة. وقد دامت السيطرة الهكسوسية السياسية والثقافية على هذه المنطقة قرابة قرن ونصف ، كانت نهايتها حوالي ١٥٧٠ ق.م. وفي مصر اعتبر الهكسوس المهم السامي البعل على انه واحد مع الاله المصري « ست » أي انهم دمجوا العبارتين في عبارة واحدة وأورثوها الفراعنة المصريين الذين خلفوهم بعد جلائهم عن مصر . وكذلك اعتبروا «البعلة» الالاهة المصرية « ايزيس » . ويرجح ان اقامة اليهود العبرانيين في مصر كانت اثناء هذا الاحتلال الهكسوسي لمصر . وفي هذه الاثناء تسنم احدهم ، يوسف ، اسمى المراكز في الحكم .

بعد ان كان قد مر على السيادة الهكسوسية البغيضة في مصر قرابة ٣٠ سنة (١٦٠٠ ــ ١٥٧٠) بدأت الحرب لتحرير البلاد من نير حكمهم بقيادة احموس الاول (١٥٧٠ - ١٥٤٥) الذي كان اميراً من امراء الجنوب في مدينة طيبة . وقد كان هذا الامير مؤسس الاسرة الثامنة عشرة التي كانت بدء عهد جديد : المملكة الجديدة او الامبراطورية المصرية . وقد كان لطرد الهكسوس من وادي النيل ردة فعل عنيفة تجاوبت اصداؤها بين شعوب غربي آسية تفوق في اثرها ردة الفعل التي احدثتها سيطرة الهكسوس على هذه المنطقة . اذ أن طردهم من مصر كان فاتحة عهد جديد لها . فقد شرع المصريون المسالمون بعزم وجرأة في سيرهم التوسعي الاستعماري . ذلك بانهم لم يكتفوا بطرد الاجنبي من بلادهم الى خارج الحدود ، بل صمموا على متابعة الجيش المنهزم الى عقر دارهم . وهذا ما دفع بالمصريين الى دخول فلسطين متعدينها الى لبنان . فان احد فراعنتهم ، طحوتمس الاول ، سار عبر المنطقة كلها ، حوالي ١٥٢٠ ، حتى جاء الفرات ، البلاد التي سماها « بلاد ما بين النهرين » . وهكذا كانت الحملات العسكرية التي قادها احموس الاول ومن بعده خلفاؤه في حوض البحر المتوسط الشرقي بداية سياسة مصرية خارجية جديدة في هذه المنطقة . أما الضربة القاصمة النهائية التي قضت على دولة الهكسوس في سورية ، فقد قام بها طحوتمس الثالث (حوالي ١٤٩٠ ــ ١٤٣٦). وبذلك احل السيادة المصرية على هذه المنطقة محل الاقطاع الهكسوسي .

ضم لبنان الى الامبراطورية المصرية

هذا الفاتح المصري العظيم طحوتمس الثالث ، الذي يحق لنا ان نلقبه باسكندر مصر ، ضم الى امبراطوريته الناشئة لبنان وسورية باكملها . ولكن لم يتم له ذلك الا بعد ان قام بأكثر من ست عشرة حملة عسكرية . وقد توطدت اركان السيادة المصرية على هذه البلاد طيلة قرن من الزمن . وكان سقوط مجدو [1] ، المدينة الكنعانية ، حوالي ١٤٦٨ نذيراً بسقوط فلسطين جميعها وضمها الى الامبراطورية المصرية. وقد كانت معركة مجدو فاصلة اذ فيها استطاع الجيش المصري ان يسحق تحالفاً عسكرياً بين ٣٣٠ امير سوري على رأسهم امير قادش [2] على العاصي ، ومن جماتهم نخبة من ارستقراطيي الهكسوس . وتابع طحوتمس انتصاراته فلحق بالجيش المنهزم شمالا مسافة ٧٥ ميلا الى ان وصل لبنان (وفي النقوش المصرية « رم ن ن ») الجنوبي ففتح عنوة ثلاث مدن وبنى هناك قلعة مصرية « في بلاد الامراء اللبنانيين » ولا نعرف على وجه التدقيق اي المدن الثلاث هي هذه التي افتتحها طحوتمس في جنوبي لبنان .ولكن يبدو ان هذه المدن كانت تؤلف وحدة سياسية متحدة يرأسها امير واحد لم يذكر لنا المصريون اسمه بل كانوا يشيرون اليه بقولهم « ذلك العدو » . وفي قائمة الغنائم والاسلاب التي غنمها المصريون يذكر لنا كاتب النقوش المواعين والآنية والمدى والقدور المذهبة والاساور الذهبية والفضية والتماثيل الصغيرة التي تركها المقاتلون في ساحة الحرب . واليك نموذجاً من هذا التقرير الحربي :

« ... غنمنا من ذلك العدو ست كراس من عاج وآبنوس وخشب الخروب المطلية بالذهب الى جانب ست كراس صغيرة تصلح موطئاً للقدم تابعة لها ،وست

---

١ — وهي « هرمجدون » الوارد ذكرها في سفر الرؤيا ١٦ : ١٦ ولذا اكتسبت هذه الشهرة العظيمة لا.ا ستكون الموضع الذي سيقتتل فيه ملوك العالم في اليوم العظيم . واسمها الحالي لجون وهو تحريف كلمة لاتينية ومعناها كتيبة وذلك لان كتيبة رومانية اقامت فيها .

٢ — وهي قدس كما يسميها جغرافيو العرب : واسمها الحالي تل النبي مند ، وهي الى جنوبي بحيرة حمص . راجع :

Dussaud, *Topographie*, pp. 105 - 8 .

مناضد من العاج ومن خشب الخروب ، وصولجاناً من خشب الخروب مرصعاً بالذهب والحجارة الكريمة كان يحمله ذلك العدو . وقد غنمنا تمثالا لذلك العدو من الآبنوس المطلي بالذهب وفي رأس التمثال حجارة من اللازورد »[١]



قطعة نقود فضية من ارواد . على وجه يظهر رأس رجل ، ربما يمثل إلهاً وعلى رأسه اكليل غار ، وعلى الوجه الثاني مركب فينيقي وفوق نقش كتابي ربما معناه : « من ارواد » .

ان هذه القائمة ترينا مستوى العيش العالي الذي كان يتمتع به ارستقراطيو هذه المدن الثلاث . وكانت هذه الحملة حملة طحوتمس الاولى . وفي الحملة الخامسة استولى على ارواد في اقصى شمالي فينيقية . وهذه اول مرة يلمع فيهـا ذكر هذه المدينة في التاريخ . وقد اصبحت هذه الجزيرة الصغيرة خليفة جبيل كميناء تجاري . وبفضل كونها جزيرة تبعد مسافة ميل ونصف عن الشاطيء اتخذت موقعاً استراتيجياً يصلح لمقاومة كل غازٍ . وفي الواقع انها قاومت المصريين بعنـاد ومن بعدهم الاشوريين والاسكندر المقدوني والصليبيين . وأهل ارواد كانوا كنعانيين ، وقد اصـاب كاتب سفر التكوين ، عند ذكره انساب الشعوب (الفصل ١٠ : ١٨) عندما حسب الارواديين من جملة القبائل الكنعانية . واليك النص الرسمي لهذه الحملة ضد ارواد كما هي مسجلة على جدران معبد الكرنك :

« وقد هدم جلالته مدينة ارواد بما فيهـا من مخازن للحبوب وقطع جميـع اشجارها . وقد وجد جلالته الشاطيء اللبناني (دجاهي أو زاهي كما كان يسمي المصريون لبنان) الذي تكسوه الجنائن مليئاً بالثمر . خمورهم في خوابيها مبذولة كالماء ، وحبوبهم على بيادرهم اوفر من رمل البحر فقرت أعين الجيش بوفر الغنيمة »[٢] . ثم يستمر كاتب « البلاغ الحربي » في ذكر الجزية التي فرضت على

١ – Breasted, vol. II, Sec. 436 .
٢ – Pritchard, p. 239 .

المدينة : ٥١ عبداً بين ذكر وانثى ، و٣٠ حصاناً و ١٠ صحون مفلطحة من الفضة وبخور ، وزيت و ٤٧٠ جرة عسل و٦٤٢٨ خابيــة من الخمر ، ونحاس ورصاص ولازورد وحجر المرو و٦١٦ رأساً من الماشية الكبيرة ، و٣٦٣٦ رأساً من الماشية الصغيرة ، وارغفــة من الخبز وحبوب غير مقشورة او مطحونة وجميع انواع فاكهة الارض الطيبة . فكان جيش جلالته يسكر ويتدهن بالزيت كل يوم كأنه في عيد من اعياد مصر »[١] . واي جيش ، باستثناء جيوش المسلمين ، لا يفعل ما فعله الجنود المصريون ؟

ويبدو ان الفاتح المصري انقض على هذه المدينة في موسم الاثمار لأنه أعجب ايما اعجاب بخصب الارض . ويبدو ايضاً ان المدينة آنذاك كانت اكبر حجما مما هي عليه الان ، اذ ان مساحة مدينة ارواد الحالية لا تربو على ١١٠٠ يرد ب٧٠٠ يرد ، وعدد سكانها ٧٠٠٠ يعيشون على صيد السمك وصنع القوارب . وقد كرر المصريون حملاتهم على المدينة وعامــلوا اهلها معاملة قاسية ممــا يدل على ان الارواديين ثاروا غير مرة ضد الحكم المصري . وقد استولى هــذا الفاتح المصري على مراكب فينيقية عديدة حمل عليها جيشه بحراً الى بلاده . وفي حملات عسكرية تالية استولى المصريون على مدينه سميرا Simyra[٢] جارة ارواد على الشاطىء الى الشمال قليلا . وكانت هذه المدينة تابعة احيانا لارواد . وكذلك سقطت بعد حين مدينة ألا ّزا[٣] ، وهي مدينــة على الشاطىء بالقرب من سميرا ، وقادش مركز المقاومة الهكسوسية ومركز الاضطرابات . ولا يختلف التقرير الحربي المصري عن الحملة التي ارسلت ضد قادش عن بقية التقارير : « هدّمناهــا وقطعنا اشجارها وخرّبنا زراعتها ومواسمها »[٤]. ولكن رغم هذا التقرير الذي يتكلم عن هدمها فاننا نرى طحوتمس بعد سنوات قليلة يُسيّر جيوشه ضدها مرة ثانية . وقد كانت هذه المدن ذات اسوار محصنة تحصينا قويا . ويرجح ان هذه التقارير الحربية مبالغ

١ ـ Breasted, vol. II, sec. 462.

٢ ـ يرد اسم هذه المدينــة في النقوش المصرية هكذا : Su - mur او Dmr وفي التاريخ الكلاسيكي Simyra التي ورد ذكرها في سفر التكوين ١٠ ـ ١٨ منسوباً اليها : « السماري » وقد اجريت هناك حفريات سنة ١٩٥٦ .

٣ ـ ربما مدينة طرطوس الحالية : راجع Dussaud : *Topographie*, pp. 78 - 9

٤ ـ Pritchard, p. 239.

فيها « للاستهلاك المحـــلي » وان الجزية التي يتكلمون عنها لم تكن سوى نوع من الهدايا يقدمونها للفاتح ليكف عنهم شره . وبعد موت طحوتمس الفـــاتح العظيم جرّد ابنه وخليفته امنحوتب الثاني حملات عسكرية ضد فلسطين وسورية . يقول فيه احد الذين مدحوه : « ينقض على لبنان كاسد تقدح عيناه شررا[١] » .

المتنّيّون في سورية

نعم ، ان النفوذ المصري لم يزدد في منطقة حوض المتوسط الشرقية ، ولكن سكانها ظلوا يشعرون بالسيطرة المصرية وبالمركز الممتاز الذي كانت تتمتع به مصر الى ان بدأ ظل المملكة الجديدة يتقلص وذلك عند نهاية القرن الرابع عشر. ولم ينج من الوقوع تحت هذه السيطرة سوى مملكة "مُتَنّي" في سورية التي كانت عاصمتها على الخابور عند منحنى الفرات الكبير . اما الحوريون الذين كانوا يؤلفون جزءاً كبيراً من مجموعة الشعوب التي سميناها الهكسوس فقد كانوا اكثرية سكان البلاد . غير ان امراءهم وارستقراطييهم كانوا من الشعوب الهندو اوروبية كما يبدو واضحاً من دراسة اسمائهم واسماء آلهتهم . وقد ازداد انتشار الحوريين في البـــلاد في هذه الحقبة التاريخية حتى ان المصريين اخذوا يسمون كنعان « خورو » (اوحورو) . والحوريون الذين يرد اسمهم في اسفار العهد القديم. والذين كان يُنْظَر اليهم حتى امد قصير انهم قبيـــلة ليست بذي بال ، هم الآن في نظر علماء التاريخ الحوريون الذين يرد اسمهم كثيراً في هذه الحقبة وقد ظهر ان التفسير القديم لاسمهم على انه يعني « سكان المغاور » هو تفسير خاطىء . ورغم الحملات العسكرية المتتالية ضد بلاد ما بين النهرين (نَهَرِين) التي بدأ فيها احموس الاول وتكررت على يـــد طحوتمس الثالث وغيره من الفراعنة الذين خلفوه فقد ظلت مملكة مُتَنّي مستقلة خارج الفلك المصري . وعندما كان طحوتمس الثالث يستعد لاحدى غزواته عبر الفرات بنى لنفسه مراكب من خشب غابات الارز في الجبال وراء جبيل ونقلها على مركبات تجرها الثيران الى الفرات ليعبره الى الشاطىء الثاني[٢] . وقد تمكنت عرى الصداقة بـــين العائلتين المالكتين ، المصرية والمتنية ، بالمصاهرة . فان ام

١ - Breasted, vol. II, sec. 492.

٢ - Pritchard, p. 239 .

امنحوتب الثالث (حوالي ١٤١٣ ـ ١٣٧٧) كانت اميرة متنية ، وكذلك كانت احدى زوجاته . واتخذ ابنه امنحوتب الرابع (حوالي ١٣٧٧ ـ ١٣٥٨ زوجة لنفسه متنية هي ابنة الملك توشرتا . غير ان المتنيين الذين كانوا ينظرون الى الامام الى جيرانهم المصريين في سورية نظرة مودة واخاء فان وراء ظهورهم كان يكمن عدو جديد من الشمال : الحثيون . فكأنّ جبال طوروس العالية لم تكن بحاجز يمنع هذا الشعب الناشىء من التطلع جنوباً الى شمالي العراق وسورية .

الحثيون : قوة عالمية جديدة

ان مجموعة الشعوب المختلطة التي نطلق عليها اسم الشعب الحثي تُرجِع نسبها الى قبيلة مغمورة من قبائل الاناضول تعرف بقبيلة خَتّي . وكانت تقطن منطقة نهر هاليس (واسمه الحالي قزل ارمق) . وقد انشأت قبيلة في اوائل القرن التاسع عشر مملكة كانت تشمل الاناضول وجزءاً لا يستهان به من شمالي العراق وسورية. ولا يختلف الحثي عن الحوري شكلا وملامح . فانه ، كما يبدو من التماثيل ، ذو رأس عريض وانف اقنى وجبهة متراجعة وملامح وجه تشبه ملامح الرجل الالبي، وهو الشكل الذي لا يزال معروفاً في شرقي الاناضول وارمينية . وقد امتزج الحثيون في الازمنة القديمة بالشعب الهندو ـ اوروبي. وقد عرفهم العبران بالحثيين.

كان عصر الحثيين الذهبي ايام مُلْك الملِك شُبِّلوليوما (حوالي ١٣٨٠ ـ ١٣٥٥) الذي كان محارباً من الطراز الاول في الازمنة القديمة . فقد هاجم هذا الملك توشرتا المتني وتابع غزواته ضد ابنه (ابن توشرتا) . وبذلك استطاع ان يقوّض اركان المملكة المتنية ، وبتقويضه ملك المتنيين انشأ لنفسه مرتكزاً في شمالي سورية اتخذه فيما بعد نقطة انطلاق . وهكذا وجد نفسه وجهاً لوجه امام فراعنة مصر . ولم يعتّم ان ضمّ الى ملكه القسم الشمالي من فينيقية حتى جبيل جنوباً ، وبذلك استولى على مدينة اوغاريت التي كانت في تلك الحقبة المدينة المستقلة الاولى في المنطقة . فاسرع اميرها نِقْمَد وعرض عليه الجزية . وقد خلف الملك شبلوليوما الحثيّ بعد موته مملكة متسعة الارجاء عاصمتها كركميش (جرابلس الحالية) على الفرات جنوبي جبال طوروس ، واصبحت تعتبر أقوى دولة في غربي

آسية . وهكذا وجدت نفسها وجهاً لوجه امام دولة جديدة تتحدى سلطتها في المنطقة .

فوضى دولية

كانت الدولة الحثية لا تزال فتية نشيطة قوية ؛ وكانت سيطرة مصر وقوتها على وشك الافول . وقد زاد في ضعف مصر العسكري وجود رجل على رأس الدولة كان همه الاوحد الاهتمام بقضايا دينية بحتة ، لا حماية حدود المملكة . هذا الفرعون كان امنحوتب الرابع (١٣٧٧ – ١٣٥٨) الذي غيّر اسمه الى اخناتون تكريماً لاله الاعظم « أتون » اي قرص الشمس ولم يكتف بتغيير اسمه بل انه نقل عاصمته من طيبة مقر عبادة الاله الوطني « امون » شمالا الى مكان سمّاه اخيتاتون وهي المعروفة حالياً بتل العمارنة . في خرائب قصور هذه المدينة القديمة عثرت امرأة مصرية فلاحة عام ١٨٨٧ على كنز تاريخي عظيم القيمة . كان هذا الكنز كناية عما يقرب من ٣٠٠ آجرة عليها كتابة بالخط المسماري محفوظة في ارشيف اخناتون وابيه امنحوتب الثالث . وقد كانت هذه الآجرّات رسائل وجهها ملوك المدن الكنعانية وامراؤها الى الملكين وكانت تحتوي على معلومات هامة عن حالة هذه المنطقة في تلك الحقبة . وقد كان اللسان الاكّادي (البابلي) اللسان الشائع في جميع المنطقة ، غير ان الاثر اللغوي الكنعاني يبدو جلياً في هذه الرسائل . وان المرء ، عند قراءتها ، يستشعر ان الذين دبّجوا هذه الرسائل انما كانوا يكتبون بلغة اجنبية . ويجب ان نذكر ان كنعان في هذه الفترة كانت مجزأة بين مصر والمملكة الحثية . ويبدو من هذه الرسائل ان امراء المدن الكنعانية المستقلة كانوا يحاولون بث الدسائس قصد الوقيعة بين الدولتين المصرية والحثية . هذا على الصعيد الدولي ، اما على الصعيد الوطني فقد كان الامراء يحيكون المؤامرات ويدبرون المكائد بعضهم ضد البعض الاخر . ومما زاد في شدة الفوضى ظهور عصابات متجولة تعرف بقبائل الخبيرو (والتي يجب أن لا يخلط بينها وبين العبران) التي كانت تغير على المدن والقرى عائثة في الارض فساداً[١] . ويبدو ايضاً من هذه الرسائل ان جبيل

١ – Cyrus H. Gordon , *Introduction to Old Testament time* (Ventnor , 1953) p . 76 .

وبيروت وصور وصيدا وعكا ألفت فيما بينها شبه رابطة اتحـــاد مستقل برئاسة جبيل .

الخداع الدبلوماسي

وافضل مثال على الفوضى الدولية التي كانت سائدة في تلك الحقبة في هـــذه المنطقة وابرز شاهد على الخداع السياسي تصرف احد الأمراء الاموريين واسمه عبد اشيرتا . كان مقر هـــذا الامير عند اعالي العاصي . وقـــد كان يظهر الولاء لجيرانه الحثيين الى الشمال تارة وطوراً لجيرانه المصريين الى الجنوب ، بينما انه كان في الواقع يعمل دوما على توسيع امارته وعلى تحسين امورها لمصلحته الخاصة . وهكذا بدأت مدن الساحل والمدن الداخليـــة تقع الواحدة تلو الاخرى غنيمة في يده او يد ابنه عزيرو ، او تتعرض للنهب والسلب على يـــد رجـــاله ورجال الامراء الذين انضموا تحت لوائه . وقد استطاع هذا الامير ان يتملص من العملاء المصريين اما بشراء البعض ورشوتهم أو بقتلهم والتخلص منهم . وقد احتل هذا قطنة وحمـــاة ، وفي آخر الامر وقعت دمشق تحت قبضته ، وكذلك بعض مـــدن الساحل مثـــل ارواد وشيجاتا (ربما شكا) وامبي (انفا) وبترونا (البترون) . واليك نموذجا على هذا الخداع السياسي رسالة مصدرها مدينة عرقا[١] والرسالة هذه موجهة من اهالي عرقا الى امنحوتب الثالث يؤكدون فيها ولاءهم الصادق الثابت للعرش المصري . تقول الرسالة : « ان اهالي عرقاتا [عرقة] واشرافها يسجدون عند أقدام الملك سبع مرات وسبع مرات[٢] » ومن هذه المدينة ذاتهـــا ، عرقاتا ،

---

١ ــ وفي النقوش المصرية « ع ر ق ت » وفي التاريخ الكلاسيكي Arka ، وهي حاليا عرقة (وفي ياقوت مجلد ٣ ص ٦٣٥ عرقة) وتقع على بعد ١٢ ميلا الى الشمال الشرقي من طرابلس . وقد وقد ورد ذكرها في سفر التكوين ١٠ : ١٧ وسفر الاخبار الاول ١ : ١٥ . اما Shi - ga - ta فيظن بعضهم انها زغرتا التي يرد ذكرها في رسائل ماري (Sagaratim (Mari . اما امبي فهي Ampa التي يرد ذكرها في الاشورية وانفا الحالية . واما الصليبيون فقد سموها Nephin وهي تقع بين شكا وطرابلس . واما Bat - ru - na فهي اغريقية Botrys راجع :
Abel, *Géographie*, Vol. II p. 4; Dussaud, *Topographie*, p. 117.

٢ ـ C. Bezold and E. A. W. Budge, *The Tell el-Amarna Tablets in the British Museum* (London, 1892), No. 42 .

يرسل الملك عبد اشيرتا رسالة الى فرعون مصر فيهـــا عبارات الخنوع والذل التي تأباها النفوس الكريمة في عهدنا هذا . ولكن يظهر انها كانت في تلك الايام عبارات مألوفة يتطلبها العرف عند مخاطبة الملوك . وهاك بعضاً منها :

« الى الملك ، الى الاله الشمس ، مولاي : يقول عبد اشيرتا عبدك وغبـــار قدميك اني اسجد عند موطىء قدميك ، مولاي ، سبـــع مرات وسبع مرات . واؤكد اني خادم الملك وكلبه الذي يحرس له بيته وكل بلاد امورو(١) » .

اما اهل ارواد فانهم كانوا منذ عهد طحوتمس مناوئين للحكم المصري غـــير راضين عنه . وسبب ذلك ربما يرجع الى المنافسة الشديدة التي كانت بـــين ارواد وجبيل . ولم يبق من مدن موالية للحكم المصري غير سميرا التي كانت مقر العامل المصري ، وجبيل التي كانت مقر الحاكم الكنعاني الموالي لمصر ، ربّ ادّي . وقد كانت ايالة رب ادّي تمتد الى الداخل الى داخل البلاد ، وقد ادعى ان سميرا داخلة في سلطانه . واخيراً خضعت سميرا لعبداشيرتا فوجدت مدينة جبيل نفسها محصورة اذ انقطعت صلاتها بداخلية البلاد ولم تعد تستطيع الاتجـــار بالخشب مع مصر . فكان عليها ان ترضخ للوضع الجديد. وقد بعث رب أدّي، صديق مصر، الرسالة تلو الرسالة ــ ما يقرب من ٥٠ رسالة ــ ينعى فيها على عبد اشيرتا «الكلب» وابنه عزيرو خيانتهما ويلتمس منه العون . ولكنه لم يلق من مصر جواباً . وقد ارسلت بيروت (Bi-ru-ta) وصيدا (Si-du-na) رسائل تطلب فيها الى فرعون مصر ان يسرع الى نجدة جارتهم الى الشمال ، جبيل ، التي اصبح الضغط على اميرهـــا شديداً . ولدينا آجرة ــ ولكنها آجرة مشوّهة تصعب قراءتها ــ فيها ذكر لعامل مصر الذي وعـــد بان يبعث مراكب وعساكر على جناح السرعة لصد الاموري المغتصب ، ولكن هذا الوعد لم يتحقق .

وقد تحمس امنحوتب مرّةً فارسل فرقة من جيشه ــ عوضـــاً عن ان يرسل جيشاً كبيراً ويسير في مقدمته كما كان يفعل سلفه طحوتمس ــ تمكنت من استرداد

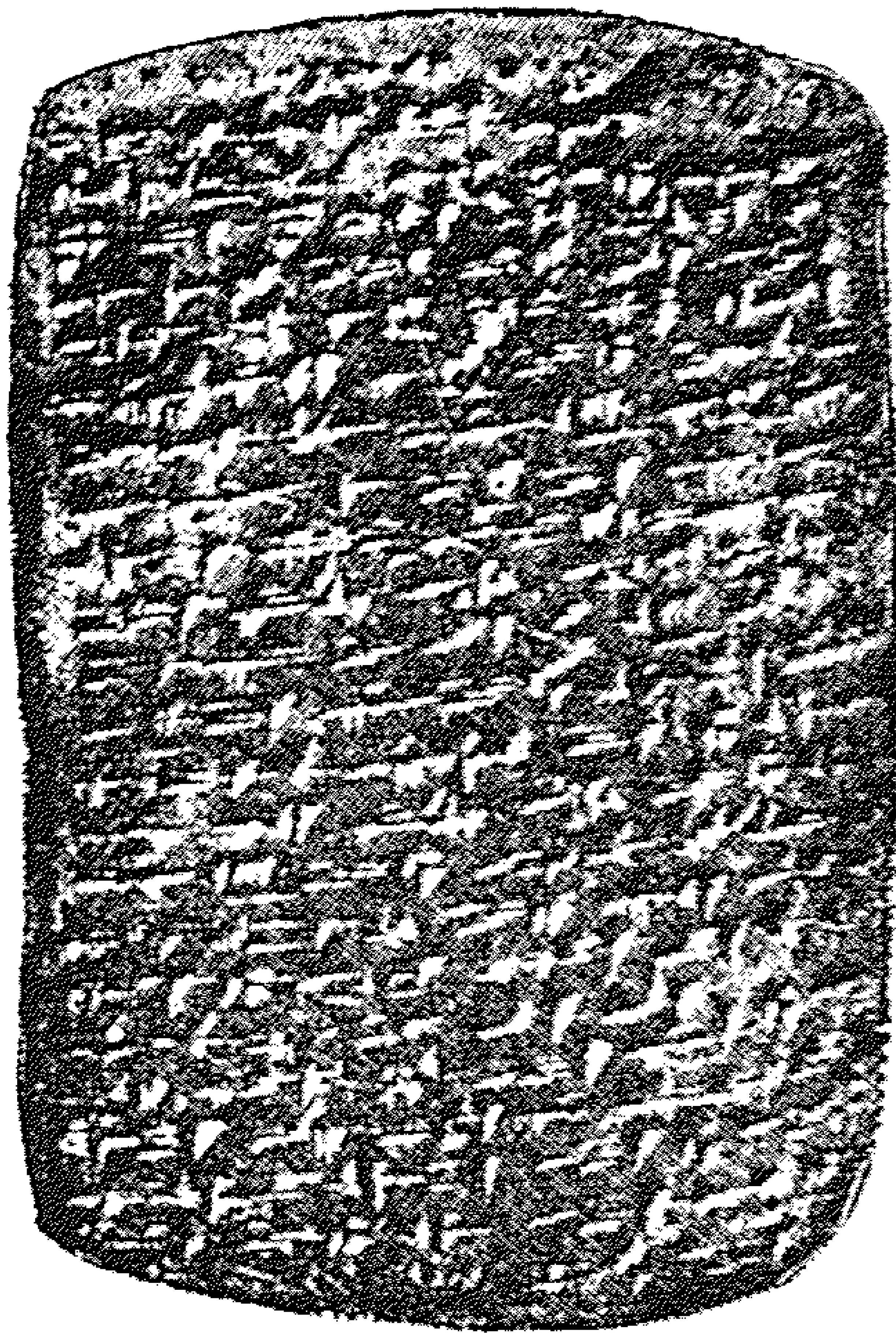
١ـ J. A. Knudtzon, *Die el-Amarna Tafeln* (Leipzig, 1908), no. 60; Cf. A. H. Sayce, *Records of the past,* New series, vol. V. (London 1891), pp. 97-8 .

فينيقية
في عهد رسائل تل العمارنة
القرن الرابع عشر ق.م.

اميال انكليزية

مدينة سميرا وقمعت الثورة ولو الى زمن قصير . ولكن كانت فرقة صغيرة لم تستطع ان تقف في وجه الخطر المداهم من الشمال : خطر الحثيين .

ان موت عبد اشيرتا مَقتولاً لم يغير من الوضع شيئاً . فان ابناءه وعلى رأسهم عزيرو ، ساروا في خطوات ابيهم واتبعوا الاساليب المكيافيلية ذاتها . ولم يتغير



أجرة عليها رسالة من صيدا وبيروت من قبل رب ادي إلى فرعون مصر . وهي واحدة من آجرات تل العمارنة الشهيرة .

الوضع السياسي في مصر . ففي هذه الاثناء تسنّم اخناتون عرش مصر سنة ١٣٧٧ فازدادت الحالة سوءاً على سوء . فأخذ رب أدّي، امير جبيل يرسل الرسائل الى فرعون مصر ذاكراً فيها خبر الكوارث والمصائب . يقول : «كان ملوك كنعان فيما مضى من الزمان اذا رأوا جندياً مصرياً ولوا الادبار . اما الآن فان ابناء عبد اشيرتا يهزأون بالشعب المصري ، ويهددوني باسلحة فتاكة مريعة[1] » . وبعد فترة

١ – Knudtzon, No. 109 .

قصيرة وقعت ألاّزا واردانا[١] في قبضة عزيرو ، ونصف مدينة اوغاريت التهمتها النيران ، واستردت سميرا وهُدِّمت تهديماً كاملا «كي لا تقع في ايدي الحثيين» كما يدعي عزيرو . وعندما طلب فرعون مصر ان يعيد بناءها ، وعد عزيرو بانه سيفعل هذا خلال سنة ، ولكن ضغط العدو عليه كان شديداً ، وكان من واجبه ان يدافع اولا عن مدن فرعون ضد التقدم الحثي . ولانه كان منهمكاً بالدفاع عن مصالح مصر — كما كان يدعي امام اسياده المصريين — فقد كان يتعذّر عليه ان يذهب الى مصر الى القصر الملوكي «ليرى وجه مولاه البهي» وليقدم حساباً عن اعماله[٢] . وهكذا بهذه الاعذار التي كان يتقدم بهـا مراراً وتكراراً كان عزيرو يتملص من ملاحقة فرعون له .

مأساة ربّ ادّي

في هذه الاثناء كان رب أدي قد فقد رشده واعياه اليأس . فقد كان رسله الى مصر يعودون بخفي حنين . حتى ان اخاه كان يدبر مؤامرة مع ابنـاء عبد اشيرتا لقلب الحكم في جبيل . وكان يشعر ، كما يقول هو ذاته ، «انه حبيس كعصفور في قفص» وها هي اخته واولادها يلجأون الى امير صور ، ابي ملكي ، الذي لم يكن قد انضم الى سائر الامراء الكنعانيين الناقين . وكان امير صور ، كأمير جبيل ، يبعث بالرسائل الى مصر نادباً فيهـا حظّهُ ومتوسلا ملكها ليبعث اليه بالعون ولكن بدون جدوى . واخيراً دب اليـأس الى قلب هذا الامير الشجاع الامين فهجر بلدته جبيل ولجأ الى بيروت[٣] . وكان حاكم بيروت «عمونيرا» ذا قرابة له عن طريق المصاهرة . أما زوجته وابناؤه فقد سلموا جميعاً الى عزيرو وللمرة

١ — يرد اسم Ul-la-za في التاريخ الكلاسيكي Orthosia واسمها الحالي ارض ارتوسي عند مصب النهر البارد شمالي طرابلس . اما Ar-da-ta فهي اردة الحالية بالقرب من زغرتا .
راجع : Abel, *Geographie*, vol. II, p. 4,
Dussaud, *Topographie*, p. 85.

٢ — Knudtzon, Nos. 164-7.

٣ — وفي الفينيقية *B'eroth* ومعناها آبار . وأول مرة يظهر اسم بيروت في التاريخ في قائمة اسماء ذكرها طحوتمس الثالث . ولا ذكر لها في اسفار العهد القديم . (راجع يشوع ٩ : ١٧ ، ١٨ : ٢٥) .

الاولى يلمع ذكر مدينة بيروت في خضم هذه الشؤون الدولية في ذلك العهـد . ولكنها لم تكن قـد وصلت بعد الى الذروة ، اذ ان عصرها الذهبي كان بعد في ذمة الزمن ، في العهد الروماني . وكان امير بيروت، عمونيرا ، يبعث ايضاً برسائل الى مصر فيها عبارات الذل والخنوع . ففي رسالة له يقول : « الى الملك مولاي وشمسي والهي ونسمة حياتي » . وفي رسالة اخرى يقول : « ها اني قد هيأت كل شيء ، خيلي ، ومركباتي ، وجميع ما ملكت يداي يا سيدي الملك ووضعتها تحت تصرف جيش الملك مولاي[1] » . ولكنه عندما لم يتسلم جواباً مرضياً عن رسالته هذه بعث برسالة ثانية فيها شيء من الحدة :

« اذا كان مولاي الملك يقول : دافعوا عن انفسكم واحموا مدينة الملك التي في عهدتكم ، فاننا نجيب : بماذا ندافع عن انفسنا وكيف لنا ان نحمي المدينة ؟ فانه قديماً كان للملك عندنا قلعة فيها حامية ، وكان الملك يمونها من « اياريموتا[2] » . ولكن عزيرو الآن يهاجمنا المرة تلو الاخرى غير هياب . وانني لم اضن بالماشية ولم اضن بالمؤن. . وقد اصبحت مدني في حوزة عزيرو وهو يظهر لي المودة والايناس للانضمام اليه . ولكن لماذا انضم اليه ؟ يالهم من كلاب ابناء عزيرو . انهم يبغون مصالحهم ويخلفون مدن مولاي الملك طعاماً للنيران »[3] .

وعندما اصبحت بيروت ذاتها مهددة غادرها امير جبيل الذي لجأ اليها هارباً وسار جنوباً نحو صيدا. ولكن امير صيدا ، زمريدا، كان قد انضم الى الاموريين وبذلك وقع في قبضة عزيرو الذي كان هارباً من وجهه . وهكذا لقي رب ادي حتفه بسبب شهامته ووفائه لاسياده المصريين .وما لا شك فيه ان حياة هذا الامير اللبناني كانت مأساة تثير كل عطف . وهكذا اضطرت مصر ان تتخلى ليس فقط عن شمالي سورية بل عن فينيقية التي كانت مصدراً للكثير من المواد الخام التي تحتاج اليها مصر. وبتخلي مصر عن المنطقة اخذت كل من هذه البلدان سورية ولبنـان

---

١ – Steindorff and Seele, p. 106 .

٢ – لا نعرف هذه المدينة على التدقيق . قابل يرموت الوارد ذكرها في يشوع ١٠ : ٣ وهي خربة يرموك حالياً وتبعد ١٦ ميلا غربي جنوبي القدس .

٣ – Steindorff and seele, p. 107

وفلسطين تتباعد عنها الواحدة تلو الاخرى . فقد كان الاموريون والحثيون قد رسخوا اقدامهم في شمالي سورية وفي اواسطها وعلى شاطئها . واخذت قبائل الخبيرو تتدفق الى فلسطين ، واخذت هذه الفوضى التي وصفناها آنفاً بعد مضي عشرة سنوات او اكثر ، تقارب نهايتها . اما الفراعنة الذين خلفوا اخناتون مباشرة لم يحاولوا تجريد حملات عسكرية لاسترداد ملكهم الضائع في غربي آسية .

الحل النهائي

لقد اذكى طحوتمس الثالث في بني قومه روحاً وطنية حملتهم خارج بلادهم واسفرت عن تأسيس ملك اسيوي مترامي الاطراف . ان هذه الروح الوطنية خبت نارها ايام اخناتون وظلت هكذا الى ان قام ستي الاول (حوالي ١٣١٧ ــ ١٣٠١) الذي ينتمي الى الاسرة التاسعة عشرة ان مومياء هذا الفرعون ومومياء رعمسيس الثاني الموجودتين في المتحف الوطني في القاهرة محفوظتان بشكل حسن تام حتى ان المواطن المصري الذي ينظر في وجهيهما ليشعر بانهما حيان. وقد ذكر لنا ستي الاول في سجل مغامراته الحربية في آسية انه اجتاح لبنان ، وان امراء المدن على الساحل اللبناني استسلموا له وخضعوا لسلطانه ، وانه حصل على خشب الارز الذي كان بحاجة اليه في بناء معابده في مصر[١] ثم تابع زحفه شمالا ماراً في سميرا وألا ّزا . وبعد ان استولى على الشاطىء ، كما فعل سلفه طحوتمس الثالث اطمأن الى انه اصبح في حوزته الآن قواعد حربية على الشاطىء اللبناني يستطيع ان ينقل اليها جنوده بحراً ليعود الى متابعة اعماله العسكرية ضد الشمال . ويظهر ان هذه كانت الخطة الحربية السليمة بالنسبة لمصر . وكانت مدينة جبيل احياناً قاعدة لبناء المراكب وذلك لقربها من موارد خشب الارز . وقد كان حكام لبنان وامراؤه يقولون عنه في معرض المدح والتزلف : « انك تشبه أباك الاله رع ، ان مرآك يبعث فينا الحياة[٢] » . وقد كان نتيجة هذه الحملة عقد الصلح مع الحثيين .

ولكن هذه الهدنة بين مصر والحثيين تركت البلاد في حيرة سياسية ؛ فلم تكن

١ – Breasted, vol. III, sec. 91, 114.

٢ – Breasted, vol. III, sec. 94

مصرية ولا حثية مما جعل أمر سيادتها موضع بحث . وقد استغل الملك الحثي مُوَتّالش الهدنة ، فجمع جيشاً من نحو ٣٠ الف فارس من جميع انحاء سورية والعراق القديم وآسية الصغرى . غير أن ابن ستي وخليفته رعمسيس الثاني (حوالي ١٣٠١ ــ ١٢٣٤) قابل هذا الحشد بحشد مصري مقابل قوامه مشاة ومركبات ومرتزقة . ثم زحف بهذا الجيش الى لبنان جاعلا طريقه الشاطىء اللبناني ، ومن ثم انحرف شرقاً ــ ربما في وادي الليطاني ، أي البقاع ــ الى منابع العاصي . وقبل ان يصل الجيش المصري الى قادش ــ وهي قلعة امامية للحثيين ــ فاجأهم الحثيون بكمين كاد ان يقضي على الجيش المصري قضاء تاماً (حوالي ١٢٩٦) لولا جرأة رعمسيس وشجاعته وحسن قيادته التي اعادت الى الجيش بعض معنوياته .

ينبئنا رعمسيس في سجله الحربي انه هزم العدو ودفع به الى العاصي : «وقذف بهم الى النهر وكأنهم تماسيح جزعة : لقد وقعوا على وجوههم الواحد فوق الآخر فقتل منهم ما شاءله القتل»[١]. ولكن الحقيقة رغم هذا التبجح هي ان رعمسيس لم ينج من الهلاك الا بالجهد . وكذلك اخفقت مصر في حملاتها التالية المتتابعة في الحصول على نصر حاسم . وظلت الحرب سجالا حتى سنة ١٢٨٠ عندما تمّ عقد معاهدة صداقة وحسن جوار بين مصر والحثيين . وقد وقّع عليها كل من رعمسيس وحتوشلش اخي الملك موتّالش وخليفته الثاني . وهذه المعاهدة التي كانت معاهدة عدم اعتداء تحدرت الينا سالمة بنصها الحثي المكتوب بالخط المسماري وبنصها المصري المكتوب بالحرف الهيروغليفي . وتعد من اقدم المعاهدات من نوعها في العالم . وتنص على « احلال السلام والتآخي بيننا الى الابد » . وتنص المعاهدة ايضاً على الاعتراف بشمالي سورية بما في ذلك امورو ، بلاداً حثية بينما يظل جنوبي سورية ، بما في ذلك فلسطين والشاطيء الفينيقي ، جزءاً من الممتلكات المصرية .

كان رعمسيس اول من بدأ بكتابة النقوش على صخور مصب نهر الكلب تخليداً لذكرى انتصاراته العسكرية . جرى ذلك اثناء هذه الحملات المتكررة المتتالية ضد لبنان والمملكة الحثية في الشمال . وقد يكون القصد من اقامة انصبة تذكارية كهذه وضع علامات للحدود . وفي هذه الحالة يكون رعمسيس قد اقام

١ – Steindorff and Seele, p. 251; Breasted, vol. III sec. 336.

من هذه الصخور التي كتب عليها سجل حملاته علامة حدود شمالية لمملكته . وفي احدى هذه الانصبة يظهر رعمسيس يقدم احد الاسرى ضحية لاله «فتاح» . وفي نصب آخر ، وهو الذي محت آثاره الكتابية الجيوش الفرنسية سنة ١٨٦٠ ، يبدو رعمسيس ممسكا بشعر اسير امام الاله امون ـ رع . وهذه التماثيل الى جانب تلك الصور التي نراهـا على جدران القبور في مدينـة طيبة ايام المملكة الجديدة تعطينا صورة عن شكل الناس في هذه المنطقةوالبستهم في النصف الثاني من الالف الثاني ق . م . وفي احدى الكتابات تحت هذه الصور نجد عبارة «امير من لبنان» . وهنالك نوع من الالبسة يظهر في هذه الرسوم وهو كناية عن ثوب يشبه التنورة من الخصر الى الركبة . وثوب آخر طويل مزركش زاهي الالوان له اردان طويلة يلبس على الجسم من اعلاه الى عقب الرجل وله كشكش على اطرافه من القماش الازرق والاحمر . وشعر الرجال قصير جداً واحيانا يظهرون حليقي الرؤوس . اما النساء فيلبسن ثوباً طويلا مزركشاً زاهي اللون يتألف من قطعة قماش واحدة ، وهو ثوب يشبه قميص النوم في عهدنا هذا .

مصر تفقد سيطرتها

لم يبد احد من فراعنة الاسرة العشرين اي عزم على الاحتفـاظ بالملك الذي استرده لهم اسلافهم في سورية ولبنان. وهكذا اخذ ظل السيادة المصرية على لبنان بالتقلص . وقد حفظت لنا النقوش الكتابية تقريراً صارخاً بعث به رسول احد الفراعنة الذي قدم الى لبنان ليحصل على خشب الارز لبناء مركبة فخمة للاله امون اسمه « ون ـ امون » ويبدو من الاستقبال البارد والمعاملة الفظة التي لقيهـا المبعوث في قصر امير جبيل انه لم يعد باستطاعة مبعوث فرعون ان يفوز بالاجلال والاكرام عند امير لبناني . يقول هذا المبعوث ون ـ امون ، في معرض الشكوى عند تقديم تقريره : « قضيت ١٩ يوماً في ميناء هذا الامير . وكان يرسل الي كل يوم قائلا انصرف عني [١] » . وهذا الأباء يختلف اختلافاً تاماً عن الخنوع الذي كان يبديه امراء مدن لبنان في رسائل تل العمارنة عند مخاطبتهم فراعنـة مصر .

---

١ ـ Breasted . vol. IV, sec . 569 .

وهكذا وجد مبعوث مصر نفسه امام زكر بعل ذليلا يائساً من القيام بمهمته خائفاً على حياته من القتل . كان ينزل الى شاطىء البحر ويجلس هنـــاك الساعات نادباً حظه . ويبدو ان « اوراق اعتماده » لم تكن صالحة للمثول امام امير جبيل . ونعني باوراق اعتماده هنا انه لم يكن لديه المال الكافي لدفع اثمان الاخشاب التي قـــدم لاجلها . وقد حاول المبعوث استمالة امير جبيل بشتى الوسائل فارسل اليـــه مرة جارية مصرية مغنية لترفه عنه ومرة اخرى بعث اليه بغلام من غلمانه كي يعرض المسألة امامه . واخيراً حن قلب الامير عليه . وعندما عاد مرة من صلاة الصباح في المعبد صعد الى عليته « وجلس هناك سانداً ظهره الى نافذة ، بينما كانت امواج البحر السوري العظيمة تتكسر على الصخور تحت النافذة» وسمح للمبعوث التاعس بالدخول عليه . وقد خاطبه الامير بلهجة فيها غطرسة واباء : « اما انا فلست لك ولست بخادم للذي بعث بك الي . فانني اذا ناديت لبنـــان تتفتح ابواب السماء وتتدحرج جذوع الارز من اعالي لبنان الى هذا الشاطيء [1] . « فيجيب المبعوث ونـــامون مدافعاً عن الهه : « البحر له ، ولبنان ، هذا البلد الذي تقول انه ملك لك هو له ايضاً »[2] . ولكن يظهر ان كـــلام المبعوث والدفـــاع عن الهه لم يجديا نفعاً . فان امير جبيل يعترف بتفوق مصر الثقافي ولكنـــه يرفض بشدة الاعتراف بسيطرة مصر على البلاد .

وقد رفض امير جبيل ان ينزل عند طلبه قبل ان يقبض ثمن الخشب من المال وخمس مئة طومار من الورق البردي . عندها أرسل امير جبيل ٣٠٠ رجل و ٣٠٠ ثور ليقطعوا جذوع الارز وينقلوها الى شاطىء البحر .

غير انه طرأ في هذه الاثناء تغيير جذري في الخريطة السياسية لهذه البقعـــة . فقد ظهر شعب سامي جديد : الآراميون . وهؤلاء كانوا شعبـــاً من الشعوب السامية التي كانت تتوطن الصحراء ، ولكنهم اتخذوا في هذه الحقبة داخلية سورية موطناً جديداً لهم . وكانت دمشق عاصمتهم ومركز الثقل . كما ظهر شعب سامي جديد آخر ، وهم العبرانيون ، الذين اجتاحوا جنوبي سورية الذي عرف فـيما بعد

١ – Breasted, vol. IV, sec. 577.

٢ – Breasted, vol. IV, sec. 580.

بفلسطين[١] . أما من جهة البحر ، فقد ظهر شعب غريب ، لا ينتمي الى العرق السامي ، بل الى مجموعة الشعوب التي تعرف بالشعوب الهندواوروبية . هؤلاء هم الفلسطينيون الوارد ذكرهم كثيراً في التاريخ العبري ، كما هو مدون في اسفار العهد القديم . وقد كانوا « شعباً بحريا » اجتاح الشاطيء الفلسطيني وخربه واحتل الجزء الجنوبي منه الى رفح . وبظهور هذه الشعوب الثلاثة الجديدة فقد المصريون في الجنوب والحثيون في الشمال الدور الذي قاموا به من قبل ، ولم يعد لهم تأثير في الشؤون اللبنانية .

١ ــ ان اول من اطلق اسم فلسطين على هذا الجزء من سورية كان هيرودوتس في الكتاب الاول الفصل ١٠٥ (يقول : ذلك الجزء من سورية المعروف بفلسطين) .

الفصل السابع

فترة الاستقلال : التجارة والفنون والمستعمرات

الآراميون

اجتاحت جموع الآراميين–وهم ساميون– خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد جزءاً كبيراً من بلاد ما بين النهرين وشمالي سورية واواسطها . وقد طغت هذه الموجة على سكان البلاد من اموريين وحوريين وحثيين فامتزج فيهم من امتزج وطرد من البلاد من طرد . اما جبل لبنان فقد كان سداً او حاجزاً في وجه هـذا التغلغل الآرامي غرباً . فلم تُصَب الجاليات الامورية والحثية في المناطق الجبلية بسوء بل ظلت محتفظة باستقلالها وازدهارها . واما اهل الساحل من الكنعانيين فلم يشعروا بهذه الموجة لا من قريب ولا من بعيد . اما في سورية فان دمشق العاصمة العتيدة للدولة الآرامية اصبحت حوالي ١٢٠٠ ق . م مدينـة آرامية بسكانها . وعلى مر الزمن اخذ هذا الشعب الجديد بجميع اسباب الحضارة الامورية والكنعانية الراقية التي جاء ليقيم في كنفها . ولكن القوم الجدد احتفظوا بشيء واحد هام : لغتهم . فهم من هذا القبيل يختلفون تماماً عن جيرانهم الجنوبيين، العبرانيين والفلسطينيين ، الذين توطنوا البلاد في اواخر القرن الثالث عشر والثاني عشر . ذلك بان الآراميين احتفظوا بلهجتهم السامية الاصلية التي نسميها الآرامية وهي اللغة التي تكلم بها السيد المسيح والتي شاعت واصبحت لغة الناس في منطقة غربي آسية بكاملها . والعجيب في انتشار هذه اللغة وفي صيرورتها لغة البلاد باجمعها انها لم تنتشر بفضـل عوامل سياسية بل بفضل عوامل تجارية . فقد كان التوسع التجاري لا التوسع السياسي . سبباً في نشرها في البلاد . ففي القرن الثـامن قبل المسيح حلت الآراميـة محل الكنعانية التي كانت لغة سورية ، وظلت اللغـة السائدة في البلاد الى الفتح العربي في القرن السابع للميلاد ، عندما اخذت العربية تحل محلها .

كانت دولة آرام دمشق التي تأسست في زمان معاصر لقيام الملكية عند العبران، اي في اواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، تشمل البلاد الواقعة شرقي جبل لبنان الى داخلية سورية وشماليها وباشان . هذه الدولة الآرامية ، أو آرام دمشق – ومركزها دمشق – اصبحت فيما بعد مترادفة الاسم بما كان يدعوه الاغريق سورية . واسم سورية في العهد القديم « بلاد آرام » أو « آرام » ولا ذكر لسورية في اسفار العهد القديم .

الفلسطينيون

في اواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد وفي اوائل القرن الثاني عشر حدث في آسية الصغرى وفي حوض البحر الايجي تحركات شعوب وهجرات بشرية اسبابها العميقة غامضة . وقد كانت نتيجة هذه التحركات والهجرات ان قبائل عديدة هجرت اوطانها القديمة وعبرت البحر ناشدة مواطن جديدة آمن وا كثر استقراراً . هذه الشعوب التي انتقلت عبر البحار كانت تنتمي الى العرق الهندو – اوروبي . وهذه التحركات والهجرات لم تكن الاولى من نوعها بل سبقتها انفجارات مماثلة . وقد طغت على سورية جموع وجموع من هذه القبائل النازحة مما زعزع قوة الحثيين وهدد كيانهم . واجتاحت هذه القبائل المنطقة تلو المنطقة على الشاطىء السوري وخربتها . ومنها مدينة اوغاريت (راس الشمرا) ، ابعد المدن الكنعانية شمالا . فانها لم تكد تعيد بناءها ونشاطها بعد ان نكبت بزلزال وحريق حوالي ١٣٦٥ حتى جاءتها هذه القبائل الغازية وخربتها فلم تقم لها قائمة فيما بعد . وهكذا زالت اوغاريت من التاريخ . وحوالي ١١٩١ وصلت جموع هذه القبائل حدود مصر حيث استطاع رعمسيس الثالث صد هجومهم . ولكن فلولهم المتراجعة وفقت الى توطيد موطن لهم على الشاطىء الجنوبي من سورية اي من حدود يافا الى رفح . هؤلاء هم قبائل الفلسطينيين الذين عرفت بهم بلاد فلسطين (الجزء الجنوبي من سورية) فيما بعد[١] . كانت المنطقة الساحلية التي احتلها الفلسطينيون تمتد من غزة ، حيث اقاموا لهم امارة هامة ، الى يافا . ومن هناك اخذوا بالتوسع شرقاً وذلك بانتزاع الارض من الكنعانيين عنوة . وقد كانت بلاد كنعان قبل هذا الغزو الفلسطيني قد

١ – كانت تعرف هذه القبائل بقبائل Peleste او Palaste او Purasti واول ذكر لها ورد في نقش خلفه لنا رعمسيس الثالث راجع : Breasted , vol. IV , sec. 403

اصيبت بالفقر والخراب ، وكان اهلوهـا قد ذلت نفوسهم وفقدوا كل بأس ونشاط ، وذلك من جراء الحملات العسكرية التأديبية العديدة التي قام بهـا فراعنة مصر ضد بلاد كنعان ومن جراء فداحة الجزية والغرامـات التي كان المصريون يفرضونها على السكان . فلم يستطع اهل كنعان ان يصمدوا في وجه الغـازي من جهة الصحراء (اي جموع العبرانيين) ولا ان يقاوموا هذه الشعوب القادمة من وراء البحار (الفلسطينيين) . وكانت اعمال القرصنة التي كانت تقوم بها جماعات من الاغريق ومن سكان آسية الصغرى تزدادعنفاً في منطقة البحر الابيض المتوسط الشرقية . ومما ساعد الفلسطينيين على انتزاع المبـادرة العسكرية والتفوق الحربي اسلحتهم . فانهم كانوا على معرفة تامة بمعدن جديد ـ الحديد ـ وكانوا يتقنون صهره ويستخدمونه في صنع اسلحة هجومية ودفاعية . وفي اسفـار العهد القديم صورة لجبار فلسطيني مجهز باسلحة كانت تلقي الرعب في نفوس العبرانيين . نشير الى قصة جليات الجبار وداود النبي [١] . وفي اللغة العبرية والعربية لفظة دخيـلة : « قبعة » وهي لفظة فلسطينية تعني خوذة الفـارس[٢] . ولم يكن استعمال الحديد شائعاً في المنطقة قبل دخول هذ الشعب الغريب ، اي الفلسطينيين ، اليها . نعم ، ان الحثيين كانوا قد عرفوا هذا المعدن عند شواطىء البحر الاسود قبل القرن الثالث عشر قبل المسيح ، ولكن استعماله لم يكن عاماً شائعـاً بل انهم استخدموه اولا كطرفة في صنع حلى للزينة. فقد ورد في رسائل تل العمارنة ذكر للحديد بانه معدن من المعادن الثمينة . ومن جملة الهدايا النفيسة التي بعث بها توشرتا ملك متنّي الى ملك مصر امنحوتب الثالث (توفي ١٣٧١) خنجر مصنوع من الحديد وخواتم من حديد مطلية بالذهب[٣]. وقد احتفظ الشعبان الحثي والفلسطيني بسرية صنع الحديد، ولكن سرعان ما اطلع الفينيقيون على سر المهنة فقضوا بذلك على الاحتكار الذي كان من نصيب هذين الشعبين وراحوا يصنعون الحديد ويستعملونه في بناء سفنهم ومركباتهم . وأخذ الحديد يحتل بالتدريج مركز البرونز في استخدامه في صنـع

---

١ ـ راجع سفر صموئيل الاول ١٧ : ٥ـ٧

٢ ـ راجع سفر صموئيل الأول ١٧ : ٥، ٣٨ . في الترجمة العربية « خوذة » اما في الاصل العبري « فقبعة » وهي فلسطينية . راجع : Gordon : *Introduction* p. 108.

٣ ـ Knudtzon, No. 22, col. 1, I. 38; Col. 2, II. 1, 3,16.

الادوات والآلات التي يستعملها الانسان في حياته اليومية . وهكذا يكون هـــذا الشعب الهندو اوروبي الغريب قد اسدى الى حضارة المنطقة خدمة عظيمـــة ، وذلك انه عجّل في انتقال الحضارة من عصرها البرونزي الى عهد ارقى وافضل: عصر الحديد .

العبرانيون

في الوقت الذي كان فيه الآراميون يوطدون اركان ملكهم في داخلية سورية، وفي الوقت ذاته عندما ثبّت الفلسطينيون اقدامهم على الشاطىء الجنوبي في سورية، ظهر على مسرح الشرق الادنى القديم شعب ثالث وهم العبرانيون الذين قدموا من مصر وأخذوا في هذه الفترة يتسللون ويتغلغلون في بلاد كنعان . وكان قـــد سبق هذه الهجرة من مصر هجرة اخرى من الشمال من أور الكلدانيين بقيادة ابراهيم ، وقد كان آرامياً (اي سوريا) يتكلم الآرامية[٢] . وعند دخوله ارض كنعان عرفه كاهن كنعاني بعبادة الاله « ايل عليون » اي الاله العلي . وقد اصبح ابراهيم هذا ابا للعبرانيين ومؤسساً لقبيلتهم في فلسطين . كما قبلوا الهـــه (اله ابراهيم) على انه « يهوه » . وقد كان الشعب العبري القديم مزيجاً من شعبين ساميين الواحد منهما قدم من مصر والصحراء السورية ، والثاني من الشمال بقيادة ابراهيم . وقد دخل في هذا المزيج البشري عناصر اخرى غير سامية من حثيين وحوريين وسواهم . واما لغتهم، فقد كانت لغة كنعان التي تعلموها في موطنهم الجديد، وهي اللغة العبرية التي بها دوّنت اسفار كتبهم الدينية الخالدة : اسفار العهد القديم . وأما ما تبقى من سكان البـــلاد الاصليين من كنعانيين واموريين الذين لم يطردوا فقد امتزجوا بهذا الشعب الجديد وانصهروا فيه واصبحوا شعباً واحداً هم يهود التاريخ . وقد نجم عن صراعهم ضد الفلسطينيين انشاء مملكة يهودية مستقـــلة زمن داود النبي حوالي ١٠٠٤ ق.م. وهكذا تجزأت بلاد كنعان بين الشعوب الغريبـــة عنها والتي دخلتها غازية : وهم الآراميون والفلسطينيون واليهود ولم يبق سوى لبنـــان بلداً حراً مستقلا .

٢ ــ راجع سفر التكوين ٢٥ : ٢٠ ، ٢٨ : ٥ ، ٣١ : ٢٠ ، ٢٤ وسفر التثنية ٢٦ : ٥ .

العصر الذهبي : الاستقلال التام الناجز

في هذه الاثناء كانت الممتلكات المصرية والحثية على تأخر مستمر ، ولم يكن قد اشرق بعد نجم الدولة الاشورية . فاتاحت الاحوال فرصة ذهبيـة للفينيقيين لتوطيد استقلالهم . ففي القرون الثلاثة الواقعة بـين ١٢٠٠ ـ ٩٠٠ ق.م. — باستثناء فترات قصيرة جداً ـ شهدت فينيقية فترة سلام واستقرار وتمتعت بحكم مستقل ولم تعترف بسيادة دولة غريبـة على ارضها . ولكن ممـا يؤسف له ان معلوماتنا التاريخية عن هذه الفترة يسيرة مقتضبة . ذلك لان الدول الكبرى المجاورة لفينيقية لم تخلف لنا شيئاً يذكر عنها ، ولان الفينيقيين انفسهم لم يخلفوا لنا آثاراً كتابية ، أو انهم تركوا لنا شيئاً اندثر وزال . والبلاد ذاتها لم تكن حدودها بعد قد وضحت ؛ انما كانت بوجه عام تمتـد من أرواد الى جبل الكرمل . نعم ، انتشرت في بادىء الامر جاليات كنعانية على طول الشاطىء ، غير ان جبلي اللكام وكاسيوس في الشمال ومرتفعات فلسطين في الجنوب لم تصل من المنعة بحيث تصد المهاجمين على نحو ما فعل لبنان . وعليه لم تثبت سوى الجاليات الكبيرة القوية التي توطنت سفوح لبنان عند الشاطىء والتي اصبحت فيما بعد المدن الفينيقية المستقلة .

كانت حكومة المدن الفينيقية المستقلة تمارس الحكم حسب نظام، او دستور لم يطرأ عليه تغيير اساسي من اول امره الى آخره. فقد كانت خطوطه الرئيسية كما يلي: كان القاضي الاول يعتبر على العموم ملكاً ، ويحكم بحق الهي الامر الذي كان يضمن استقرار المُلك وابقائه ارثاً لبنيه من بعده . وقد ادعت بعض الاسر انها متحدرة من نسل الالهة . ولكن حكمه لم يكن مطلقاً ، اذ كان هنالك غير عامل يحد من سلطته . فقد كانت ثمة جماعة الارستقراطيين من التجار وأصحاب المال ؛ وفئة الملاحين الكبار، وقباطنة المراكب الذين كانوا يؤلفون جماعة لهـا نفوذهـا واحترامها . وكان هنالك ايضاً مجلس شيوخ . وقـد عرفت جبيل مثل هـذا المجلس منـذ اقدم العهود . [١] وكان للملك اوغاريت ٧٠ مشيراً من الاشراف . واثناء الحكم الفارسي كان مجلس الشيوخ في صيدا يتألف من ١٠٠ رجل[٢] وكان لصور مجلس مماثل . ولكن عندما وقعت فينيقيـة تحت الحكم البابلي الجديد

(١) راجع سفر حزقيال ٢٧ : ٩ « شيوخ جبيل » .

(٢) Diodorus Siculus , *History*, Bk . XVI, ch . 45, sec. I .

اصبح الحكم في صور جمهوريـاً ، وعلى رأس الحكومة موظفون كانوا يعرفون بالقضاة ، على نحو ما عرفه العبران . ولكن لم يُبدِ سكان المدن الفينيفية المستقلة في اية فترة من التاريخ ميلا نحو الوحدة السياسية . فقد كان همهم الاول التجارة والمنافسة التجارية الحرة التي من شأنها ان تستنهض الهمم وتثير الروح الوطنية ولكن على مستوى اقليمي ضيق .

العزلة السياسية

لم يكن من اليسير على الفينيقيين ان يتغلبوا على هذه العزلة السياسية التي كانت تتميز بها مدنهم المستقـلة ــ وهي عزلة سياسية تعكس الى حد بعيد طبيعة المحيط الجغرافي . ولم يكن من السهل عليهم ان يتخطوا العزلة الدينية اذ كانت كل مدينة تنفرد بعبادة إله مستقل عن بقية الالهة ، ولم يكن هنالك من سبيل الى القضاء على المنافسة التجـارية الضيقة بين مدينة واخرى . واذا كانت قد جرت محاولات تهدف الى الوحدة فانها كانت وقتية . كانت المصلحة العامة إحيانا تفرض الاتحاد الفدرالي الذي يوحد السياسة تحت قيادة مدينة واحدة . فقد كانت مدينة اوغاريت في اواخر القرن السادس عشر قبل الميـلاد المدينة التي كانت ترأس اتحاداً فدرالياً للمدن المستقلة . وكذلك كانت جبيـل وارواد في القرن الرابع عشر ، ومدينة صيدا في القرن الثـاني عشر ، وصور من القرن الحادي عشر الى التاسع ، ومدينة طرابلس في القرن الخامس . وكانت هذه المدن الدويلات في جميع أطوار تاريخها مدنا محبة للسلام ، فلا تبدو عليها دلائـل تنم عن روح عسكرية ، بل كان همها الاول توسيع التجارة وانماء الفنون وتعزيز الدين .

ان تقسيم بلاد كنعـان الى اجزاء شبـه منعزلة مستقلة ، وتمتع البـلاد بنعمة الاستقلال بعث في نفوس اللبنانين نشاطاً حديداً واثار في نفوسهم مطامح جديدة . وقد اظهروا من العزم على تحقيق هـذه المطامح ما يثير فينا الاعجاب . فانهم في هذه الفترة انشأوا لهم تجارة واسعة مزدهرة ، وتقدموا في الفنون والصنائع تقدماً كبيراً ، واسسوا لهم مستعمرات على جانبي حوض المتوسط ، واعطوا البشريـة اعظم تقدمة حضاريـة : حروف الهجاء . وتقدمت ملاحتهم فركبوا البحار لارتياد مجاهل جديدة ولتوثيق عـلاقات تجارية جـديدة واسواق يبيعون فيها

بضائعهم وبضائع جيرانهم . لم يجبنوا امام اليم، ولم يكن المجهول ليثني عزمهم بل كان المجهول يستهويهم . وفي عصور سابقـة للفترة التي نتكلم عنها شرع اهـل الشاطىء الفينيقي يجذفون بقواربهم الصغيرة في محاذاة الشاطيء ليبيعوا ما فيها من سمك وزجاج وخزف ومصنوعات اخرى محليـة . ولكنهم سرعان ما اصبحوا ملاحين ماهرين ، فانشأوا لهم طريقاً بحرية تجاريـة عبر المتوسط من شرقيه الى غربيه . وظلت هذه الطريق البحرية مدة طويلة ملكا لهم يحتكرون تجارتها لا ينازعهم فيها منازع . اولئك الباعة المتجولون بقواربهم الصغيرة اصبح احفادهم من بعدهم من كبار التجار ومن امراء البحر . وما عتم التجار ان اصبحوا مستعمرين ينشئون المستعمرات التي لم تكن سوقاً تجارياً ينقلون اليه البضائع والسلع المادية فحسب ، وانما كانت مراكز تنقل اليها النواحي الفكرية والروحية في حضارتهم السامية . فكأن اشرعتهم كانت تؤلف جزءاً عـائماً متنقلا من تربة فينيقية . هذا النشاط التجاري الذي ابداه الشعب الفينيقي بعد القرن الثـاني عشر جعل منهم ملاحين وتجاراً من امهر الملاحين ومن اعظم التجار في تلك الحقبة من التـاريخ . يقول عنهم مؤرخ حديث من اعظم المؤرخين : « ان الفينيقيين ، في اعتقادي، لجديرون بالخلود جنباً الى جنب مع الشعب الاغريقي واللاتيني [١] » .

الطرق البحرية والبرية

ولم يكن الفينيقيون ملاحين يجوبون البحار على غير هدى،وانما كانوا يسلكون طرقاً بحرية معينة محددة ، طرقاً اكتشفوها لانفسهم ثم استخدموهـا استخداماً تجارياً واسعاً ، ان لم نقل انهم تفردوا باحتكارها والانتفاع بها. واقدم هذه الطرق البحرية الدولية كانت بين جبيل،مينائهم الاول ، والمدن المصرية البحرية. وعندما تبوأت صيدا وصور رئاسة المدن الفينيقية شرعت المراكب تخرج منها الى مصر ، أو شمالا الى قبرص ، ومن هناك كانت تتجه غرباً محتميـة بجبـال طورس الى ليقيا (Lycia) فالى جنوبي جزيرة رودس ومن ثم الى جزيرة كريت وكورسيرا فصقلية . ومن صقلية كانوا يتابعون اسفارهم مارين بجزيرة كوسّيرا (واسمهـا

١ — Theodor Mommsen , *The History of Rome* , tr . William R . Dickson, new ed . (New York , 1895),vol . II , p. 132.

اليوم بنتلاريا وعرفها جغرافيو العرب بجزيرة قوصرة) الى مستعمراتهم الجديدةالتي انشأوها في شمالي افريقية،ومن شمالي افريقيةغرباً في محاذاة الشاطىءالىمستعمراتهم الجديدة في اسبانية . والى جانب هذه الطريق كان هنالك طرق بحرية اخرى من الجنوب الى الشمال مباشرة . واما هذه التجارة البحرية فقد كان قوامها اربع مواد تنقص بلدانا كثيرة من بلدان حوض المتوسط : الخشب والحنطة والزيت والخمر . ولم تكن هذه البضائع جميعها من نتاج ارضهم بل كانوا يشترون الحنطة والزيت من فلسطين ويدفعون اثمانها بضائع اخرى من الكماليات ومن أدوات التبرج والزينة. أما الافاويه والعطور فكانت تأتيهم من جنوب بلاد العرب ومن الهند. فقد كانت القوافل البرية تسلك طرقاً عبر الجزيرة العربية فالصحراء السورية الى ان تنتهي الى المناطق الشرقية من شاطىء المتوسط. وبعد زمن اضاف الفينيقيون الى قائمة بضائعهم سلعتين رئيسيتين من صنعهم : أدوات معدنية واقمشة . وقد كانت شعوب حوض المتوسط تترقب بلهفة وصول البضائع الفينيقية الثمينة الى موانئها : آنية ومواعين معدنية واقمشة صوفية وقطنية بعضها مصبوغ باللون الارجواني وأدوات منزلية واثاث من الآبنوس والعاج المزخرف ذي النقوش والرسوم التي يظهر فيها اللون المحلي والاثر الفني المصري . وكان الاغريق يسمون خشب الارز ارزاً فينيقياً[١] . ولم تكن غابات لبنان مصدراً غنياً للاخشاب فحسب ، بل كانت الاشجار المخروطية مثل الشربين والصنوبر والارز والبطم مصدراً لمادة الطلاء والصمغ الثمينين، بهما تطلى المراكب لحفظها من التآكل[٢] . وكان هؤلاء التجار كلما اتسعت نطاق اسواقهم التجارية ازدادت موارد الانتاج عندهم حتى اصبحوا على ممر الايام صلة وصل بين الشرق والغرب ينقلون الى الغرب بضائع الشرق ويرجعون الى الشرق ببعض متاجر الغرب التي كان جلها من المعادن والخزف . وهكذا اصبح المتوسط بحيرة فينيقية قبل ان يصبح فيما بعد بحراً اغريقيا أو رومانيا .

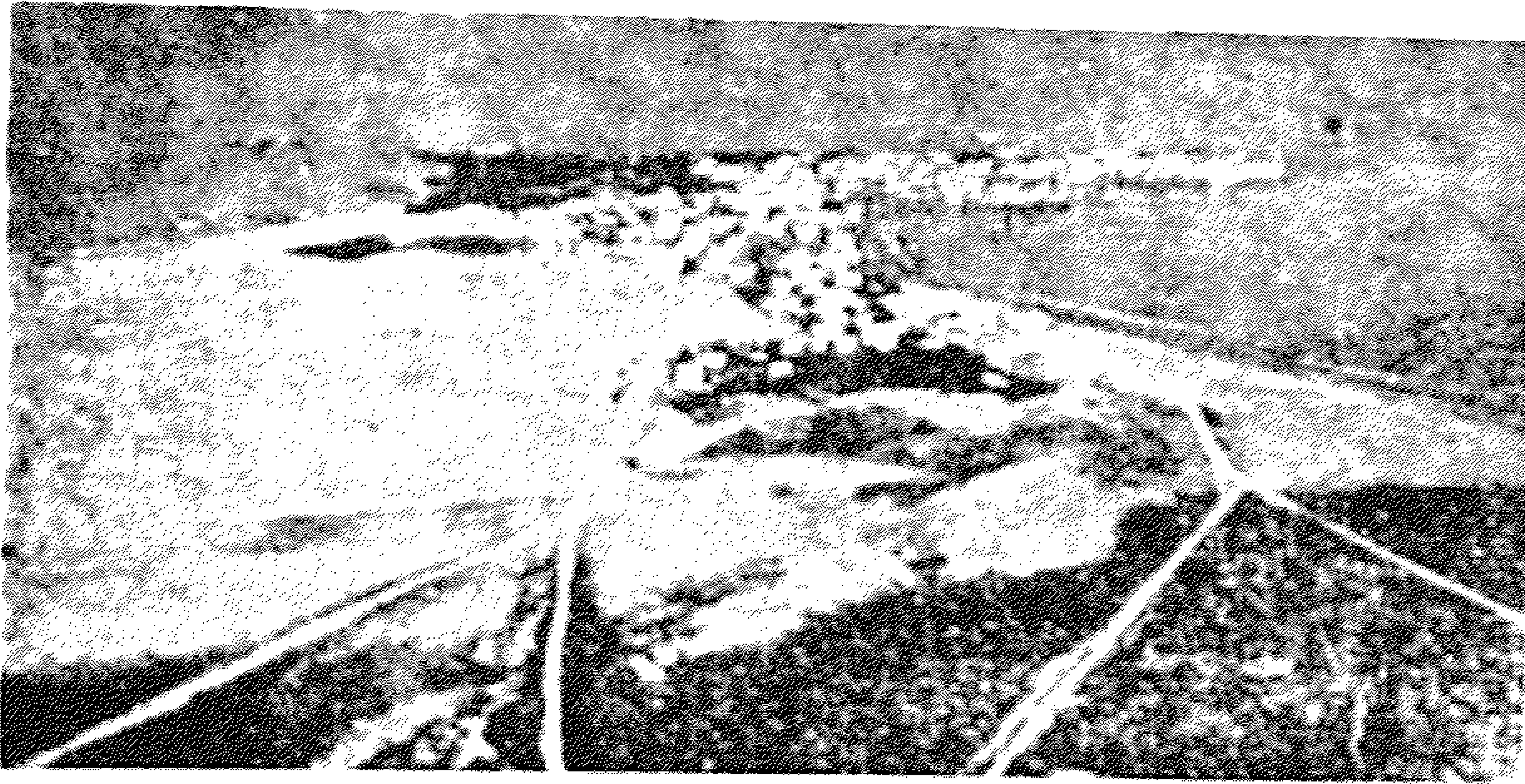
صيدا وصور

ان المدينتين اللتين اصبحتا في الفترة التي نحن بصددهـا سيدتي البحار هما

١ — Theophrastus, *Die Historia Plantarum*, Bk. III, ch. 12, sec. 3; Bk. IX, ch. 2, sec. 3.

١ — وقابل حزقيال ٢ : ٣ ; Theophrastus, Bk. IV, ch. 2, secs. 2,3;

صيدا وصور . وتعتبر صيدا اقدم عهدا من جارتها صور ، لا بل تعتبر اماً لها[١] فقد جاء في سفر اشعياء النبي (٢٣ : ١٢) ان صور ابنة صيدا . وكذلك تدعي صيدا، كما هو مثبت كتابة على نقودها، انها ام لمدينة هبّو في شمالي افريقية ومدينة كيتيوم (Citium) في قبرص وقد كانت رئاسة المدينة الفينيقية والسيادة البحرية من نصيب صيدا اولا ، فمارست هذه الرئاسة على جنوب لبنان، بما في ذلك صور، واحتفظت بسيادتها البحرية كما فعلت من قبل جبيل وارواد في شمال لبنان . وقد وجد من بين نقوش رأس الشمرا (اوغاريت) قصيدة فيها قصة ملك من ملوك صيدا اسمه « كرت » (Keret) كان يحارب غزاة يقودهم امير اسمه تارح (Terah) .والى جانب هذا الاسم الوارد ذكره في اسفار التوراة نجد اسماء اخرى مثل زبلون وادوم . وقد كان كُتّاب اسفار العهد القديم كما كان هوميروس الشاعر اليوناني يسمون الفينيقيين صيدانيين ، مما يدل على ان صيدا كانت اقدم عهداً من صور . وسفر التكوين (١٠ : ١٥) يجعل صيدون بكر كنعان(وكنعان ولد صيدون بكره وحثا) . والمؤرخ العبري الذي كتب سفر يشوع بن نون (١٩ : ٢٨) ووصف فيه فتوحات العبران يشير الى صيدا انها « صيدون العظيمة » .



مدينة صور

يقول الشاعر الاغريقي هوميروس في اشعاره عن صيدا ان تجارة الاقمشة

١ - Cf. Fredrick C. Eiselen, *Sidon: A Study in Oriental History* (New York, 1907),pp. 16 seq.

والنحاس والرقيق هي من احتكار مدينة صيدا ، مما يدل على اهميتها كمدينة تجارية . وكذلك يمدح هوميروس الفنانين الصيدانيين ، وقل ان يذكر صور . والاشاره في الالياذة الى « الثياب المطرزة صنع الصيدانيات » [١] انما هي اشارة صريحة الى النساء الفينيقيات . ومما جعل مدينة صيدا ميناء بحرياً ممتازاً ومركزاً تجارياً مزدهراً موقعها الطبيعي على الشاطيء. فانها كانت تقوم وراء رأس داخل في البحر تحيط بجهته الشمالية مجموعة جزر صغيرة طولها نصف ميل وكأنها حائط يصد امواج البحر فتقي المراكب شرها . وقد دلت الصور المأخوذة من الجو انه كان لصيدا ميناءان : داخلي وخارجي . فهي تختلف من هذه الناحية عن ارواد وصور[٢]. وكان لصيدا، كما كان لسائر المدن الفينيقية، بعلها الخاص والهها الحارس الشفيع ، اشمون اله الشفاء . وقد عثر على بقايا هيكله عام ١٩٠٠ خارج المدينة جنوبي نهر الاولي .

وقد كانت صور ، (ومعنى اسمها « صخر ») مثل صيدا ، قائمة على رأس داخل في البحر تحميه صخرة طولها قرابة ميل وعرضها ثلاثة ارباع الميل . وهذه الجزيرة كانت ميناء اميناً للمراكب في العاصفة وملجأ للسكان زمن الحرب. وكان للمدينة ميناءان مستقلان الواحد مدخله الى الجهة الشمالية وكانوا يسمونه الميناء الصيداوي ، ومدخل الثاني في الجهة الجوبية ، وكان يعرف بالميناء المصري . [٣] يقول عنها حزقيال النبي « .. الساكنة عند مداخل البحو تاجرة الشعوب الى جزائر كثيرة . » [٤] وكانت صور البرية قوية الحصون ، وكان يأتيها الماء من نبع يعرف الآن برأس العين . وازدياد ثروتها واحتمال غزوها حمل اهلها على الاعتماد على صور البحرية لا كمخزن للبضائع او كملجأ امين فحسب ، بل على انها المدينة الاصلية . فصارت صور مثل ارواد مدينة على جزيرة . وعندما زارها

١ – Bk. VI, 290 .

٢ – A. Poidebard and J. J. Lauffray, *Sidon : Aménagements antiques du port de Saida,* (Beirut, 1951),pp. 83-4 .

٣ – Strabo , Bk . XVI ch . 23 ; A . Poidebard, *Un grand port disparu: Tyr* (Beirut , 1939),pp . 6 seq .

٤ – حزقيال ٢٧ : ٣

هيرودوتس [١] في منتصف القرن الخامس قبل المسيح اكد له كهنة ملقارت اله المدينة انه كان مضى على تأسيس مدينتهم اذ ذاك ٢٣٠٠ سنة. غير ان يوسيفوس [٢] لا يرجع زمن تأسيسها هذا الى التاريخ البعيد بل يقول انها بنيت قبل بناء هيكل سليمان [٣] ب ٢٤٠ سنة. وقد اعجب هيرودوتس بهيكل ملقارت الذي كان يسميه هرقل ايما اعجاب. فقد كان في هذا الهيكل، فضلا عن الهدايا والتقدمات العديدة «عمودان، الواحد من الذهب الصافي، والثاني من الزمرد الذي كان يلمع في الظلام».:



شاقل عبراني يعود تاريخه الى القرن الخامس قبل الميلاد، وهو أقدم قطعة نقود معروفة.

وما ان استهل القرن العاشر حتى اصبحت صور دولة قوية كسفت عظمتها مدينة صيدا التي اصبحت مدينة ثانوية. ذلك ان صيدا كانت حوالي ١١٧٠ ق. م. قد اصيبت بكارثة ساحقة. فان الفلسطينيين دمروا اسطولها واحرقوا المدينة. واشهر ملوك صور حيرام الاول (احيرام ٩٦٩ ــ ٩٢٦) ابن ابي بعل صديق الملك سليمان العبراني وحليفه. فقد بلغت المدينة ايام ملكه شأواً عظيماً. ويرجح انه هو الذي بنى اسوارها العظيمة الحصينة جاعلا منها احصن ميناء في شرقي المتوسط. وقد كان القسم الرئيسي من المدينة في ايامه في الجزيرة حيث كان يقوم هيكل ملقارت والقصر الملكي والاسواق التجارية. وقد امتدت سلطة صور ابعد من الشاطىء الفينيقي. فان يوتيكا التي ثارت اعيد اخضاعها. وكان الصورانيون اشد مغامرة من الصيدانيين، يدلك على ذلك ايغالهم باساطيلهم غرباً. وقد خلف حيرام ابنه

١ — Bk. II, ch. 44.

٢ — *Jewish Antiquities*, Bk. VIII, ch. 3, sec. I

٣ — Cf. Strabo, Bk. XVI, ch. 2, sec. 22.

بعل اتصر ، ومن بعده عبد عشترت ٩١٨ ــ ٩٠٩ الذي خلع . وبعد مضي فترة اضطراب وقلاقل عادت صور الى الاستقرار اذ تولى اتوبعل [1] (٨٨٧ ــ ٨٥٦) العرش. واتوبعل هــذا هو الذي زوج ابنتــه ايزابل من ملك اسرائيل آخاب (٨٧٥ ــ ٨٥٣) . وقد امتد ملك اتو بعل شمالا الى بيروت ، وكان يشمل جزءاً من قبرص. وذكره وارد في سفر الملوك الاول (١٦ : ٣١) : « ملك الصيدانيين» ذلك لان الفينيقيين آنذاك كانوا يعرفون بالصيدانيين . والفينيقيون كانوا يسمون انفسهم احياناً صورانيين واحياناً اخرى صيدانيين . وقد تزوجت ابنة ايزابل ، واسمها اثليا ، يهورام ملك يهوذا ، ولكنها استولت على العرش وجلست عليــه ملكة على يهوذا فترة مدتها ست سنوات[2] . وقد كانت ايزابل هي التي ساعدت على ادخال عبــادة ملقارت الى شمال مملكة اسرائيل . ولما اخضع الاشوريون الشاطىء الفينيقي في اواخر القرن الثامن ، كان ذلك ايذاناً بان نجم صور قد افل وعظمتها قد زالت .

الاقتصاد : الزراعة

كانت اقتصاديات فينيقية تعتمد بطبيعة الحال على طبيعة الارض ومواردها . ولا شك في أن الزراعة وصيد الاسماك والتجارة كانت من اقدم الاعمال الاقتصادية التي تعاطاها الفينيقي . وقد كان للزراعة ، على انهــا المهنة الرئيسية الدائمة، ابعد الاثر في العقائد الدينية عند الفينيقي . كان الفلاح اللبنــاني يعتمد قوة ساعده في زرعه الحبوب الى ان اُدخِل المحراث من بلاد ما بين النهرين . وقد وجد في حفريات رأس الشمرا معول برونزي وكان الفلاح يحصد القمح والشعير بمنجل من صوان مسنن مركز في مقبض مصنوع من الخشب أو العظم . وقــد ظل هذا المنجل الحجري موضع الاستعمال الى ان استبدل بمنجل حديدي ، وذلك حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م. وكان يذرّي دريسه بمذراة خشبية، ويطحن حبوبه بالجاروش،

١ ــ وهو في التوراة اثبعل ، ومعنى اسمه « الاله بعل معه » واذا اردت الاطلاع على قائمة ملوك صيدا وصور عليك ان تراجع : G. Conteneau, *La Civilization Phénicienne,* new ed. (Paris, 1949), pp. 316 seq .

٢ ــ سفر الملوك الاول ١٦ : ٣٠ ــ ٣٣ ، سفر الملوك الثاني ٨ : ١٨ ، ٢٦ ، ١١ : ٣ .



ابريق يعود عهده الى العصر البرونزي المتأخر ، وقد وجد في مقبرة في كفرجرة ، جزين
(متحف الجامعة الاميركية في بيروت)

ويخبز خبزه في التنور كما يفعل كثيرون من اللبنانيين في القرى الى يومنا هذا .

ولم تكن غلال لبنان قديماً تختلف عما هي عليه الآن . وبما ان المنطقة كانت ابداً مهددة بانحباس الامطار وقلتها أو بعدم توزيعها على مدار السنة توزيعاً يلائم الورع فان اللبناني كيف زراعته بحيث اصبحت زراعة بعلية [١] تعتمد على زراعة الارض سنة وتركها بوراً سنة اخرى . وكان المجتمع الكنعاني فيه فلاحون يملكون الارض وطبقة من اقنان الارض .

وكذلك لم تكن الحيوانات الداجنة تختلف عن الحيوانات التي نعهدها اليوم . اما طعام السكان فلم يكن يعتمد اللحم ، لان اللحم (الذي كانوا يطبخونه في قدور خزفية واسعة الفم) ما كان يؤكل الا في الاعياد والمناسبات. كانوا يشربون ماء الآبار أو العيون الجارية وينقلونها الى بيوتهم اما في الجلود أو في جرار خزفية كبيرة . وكانوا ينيرون مساكنهم بحرق زيت الزيتون في سُرُجٍ بسيطة الصنع ، وهي كناية عن صحون خزفية لها في حافتها نتوء مقعّر لتستقر فيه الفتيلة .

١ مجرد قول اللبناني ، حتى في يومنا هذا « زراعة بعلية » يدل على ان البعل القديم ، اله الزراعة والخصب ، لم يمت بعد (المترجم) .

الصنائع والفنون

كان الصناع والتجار يحتلون مركزاً وسطاً في المجتمع الكنعـــاني . ففي الطبقة الاجتماعية الاولى نجد جماعة الاشراف والنبلاء من الملاكين الاقطاعيين والمحاربين الذين كانوا يستطيعون اقتناء مركبات الحرب . اما في الطبقة الدنيا فنجد الاقنان (الذين لا يملكون الارض) والعبيد . وكانت العادة ان ينشأ ابناء الصناع على تعلم صـــناعة ابائهم . ويظهر ان اصحاب الصنائع والفنون كانوا ينتظمون في نقابات حيث تجمعهم الصنعة أو المهنة الواحدة وتربط بينهم قرابة رحم احياناً. ويسكنون في احياء خاصة بهم.

قبل ان ينتصف الالف الثاني قبل المسيح كانت صناعة الخزف ــ وصناعـــة الخزف من اقدم الصناعات وادّرها ربحاً ــ قد بلغت ذروتها . وقد كان لاستخدام



إبريق من العصر الحديدي الأول (١٢٠٠ ــ ٩٠٠ ق.م.) وقد وجد في الرشيدية بالقرب من صور (متحف الجامعة الاميركية في بيروت)

دولاب الخزاف الذي ادخل الى هذه الصناعة عند مستهل الالف الثاني ق.م. اثر بعيد الغور في تحسين صناعة الخزف الكنعانية. فقد اصبح بامكان الخزاف الكنعاني

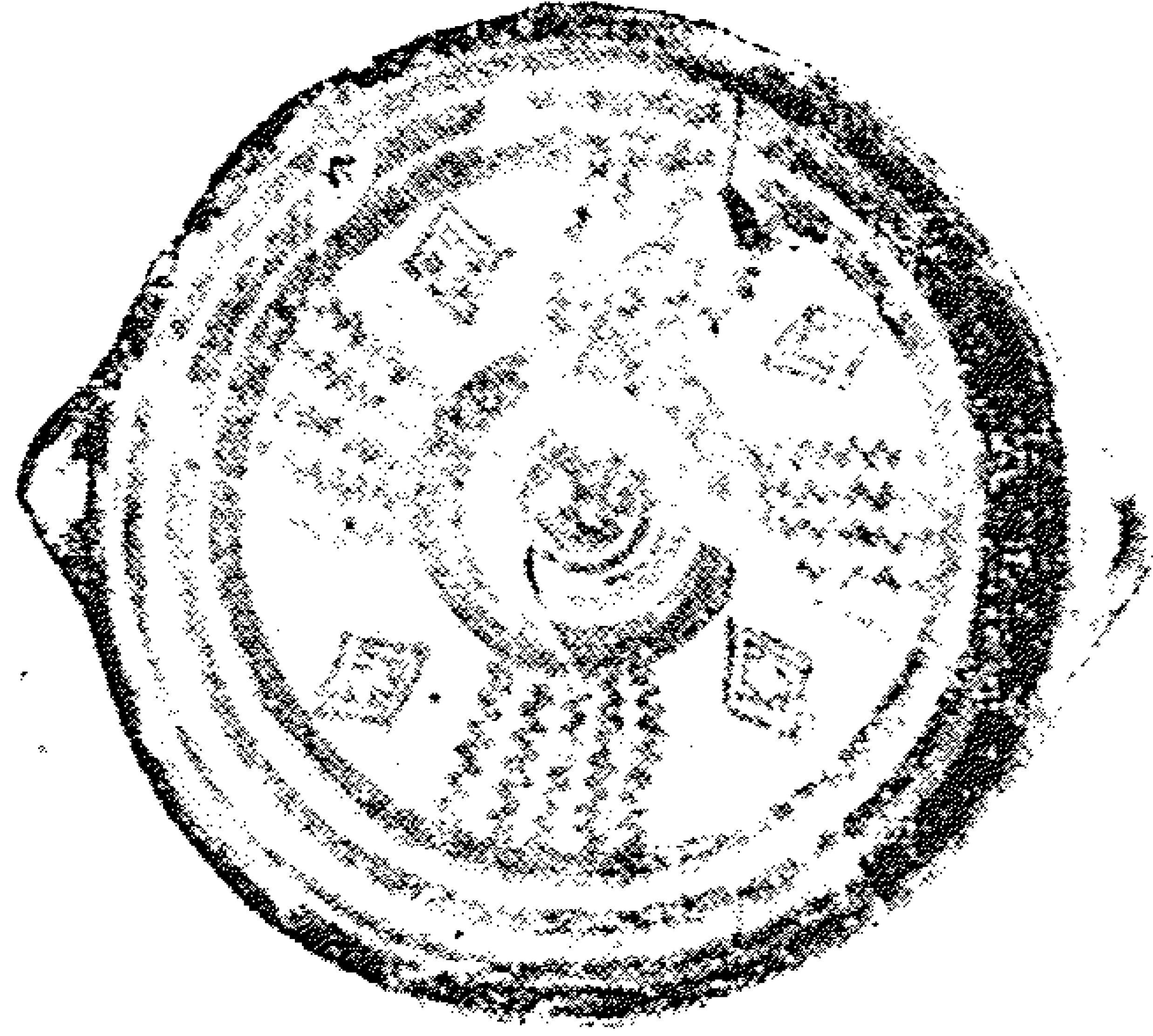
ان يُجوِّد في صناعتهوان يخلق اشكالا حسنة الهندسة بديعة التناسق. واخذ الخزاف الكنعاني بصنع خزفيات يقلد فيها الصنـــاعة المصرية او الكريتية او الميسينية او القبرصية. وقد وجد في حفريات اوغاريت – وفي غيرها – نماذج عديدة مصدرها العالم الايجي ممايدعم الرأي القائل ان الكنعاني كان يتخذها مثالا يحتذيه في صناعته[1]. وبعد ١٥٠٠ ق.م. ظهر الاثر القبرصي والميسيني في صناعة الخزف الكنعاني ظهوراً بارزاً. وكان الصناع يستخدمون القصدير في طلي الخزف فيكون له وجه صقيل لمّاع. وكانوا يصنعون تماثيل واشكالا خزفية متنوعة يستعملونهـــا في فروض عباداتهم وتقدماتهم للمعابد. وقد وجد في القبور الكنعانية نماذج منها تدل على رقي في الصنعة وارهـــاف في الذوق. وكذلك بلغ النحت ذروته في التقدم في القرن السادس عشر ق.م.

وفي هذه الحقبة التي نحن بصددها – في اواخر الالف الثـــاني وعند مستهل الالف الاول ق.م. – بلغ الكنعانيون شأوا رفيعاً في عالم الصناعة والفن. فلم يشق لهم غبار في التعدين. وكانوا يستعملون النحاس والبرونز في صناعتهم بحذق ومهارة عظيمين. وقد اجري تحليل كيماوي على شفرة فأس وجدت في رأس الشمرا تبين منها ان الكنعاني لم يكن يعرف صهر المعادن فحسب، بل كان يعرف طريقة لمزج معادن اخرى مع الحديد لصنع الفولاذ.[2] وقد رحل الفينيقيون الى اماكن بعيدة ليحصلوا على معادن كالفضة والذهب ولا سيما القصدير لمزجه مع النحاس لصنع البرونز. حتى انهم بلغوا المحيط الاطلسي. وعندما كان فراعنة مصر يعددون غنائمهم من ارض كنعان كانوا دائماً يذكرون آنية من فضة ومواعين من ذهب. وقد وجد في حفريات رأس الشمرا ميزان صائغ وموازينه. وكانت الفضة تستعمل كنقود ولكن لم تكن نقوداً مصكوكة انما كانت توزن وزناً للبيع والشراء. هذا مع العلم ان اكثر التجارة كان يتم عن طريق المقايضة بالبضائع. وما ان شرع التجار الكنعانيون باستيراد التعاويذ والتماثيل والاختام والخرز والآنية والمزهريات والاسلحة حتى بدأ صنـــاع المعادن بتقليد اشكالها. وقد اعجب الاغريق بجمال صنع الادوات المعدنية، وقد عبّر عن هذا الاعجاب شاعرهم هوميروس. فقد قال في جام من

١ – Claude F. A. Schaeffer, *Ugaritica* (Paris, 1939), pp. 32 seq.

٢ – Schaeffer, *Ugaritica*, p. 110, No. 2 .

الفضة « ان الصيـــدانيين اصحاب الحذق والمهارة في الاعمال اليدوية الدقيقة هم الذين قد صاغوا هذا الجام الذي لا مثيل لجمال صنعه في الدنيا . [١] » واكثر ما تبقى لنا من بقايا هـــذه الصناعة المعدنية آنية من الذهب والفضة وجواهر محفور عليها صور وتماثيل .



صحن من قبرص يعود الى العصر الحديدي الاول (١٢٠٠ـــ٩٠٠ ق.م.) وقد عثر عليه سنة ١٩٣٦ في قبر حفر في الصخر في صرفند (متحف الجامعة الاميركية في بيروت) .

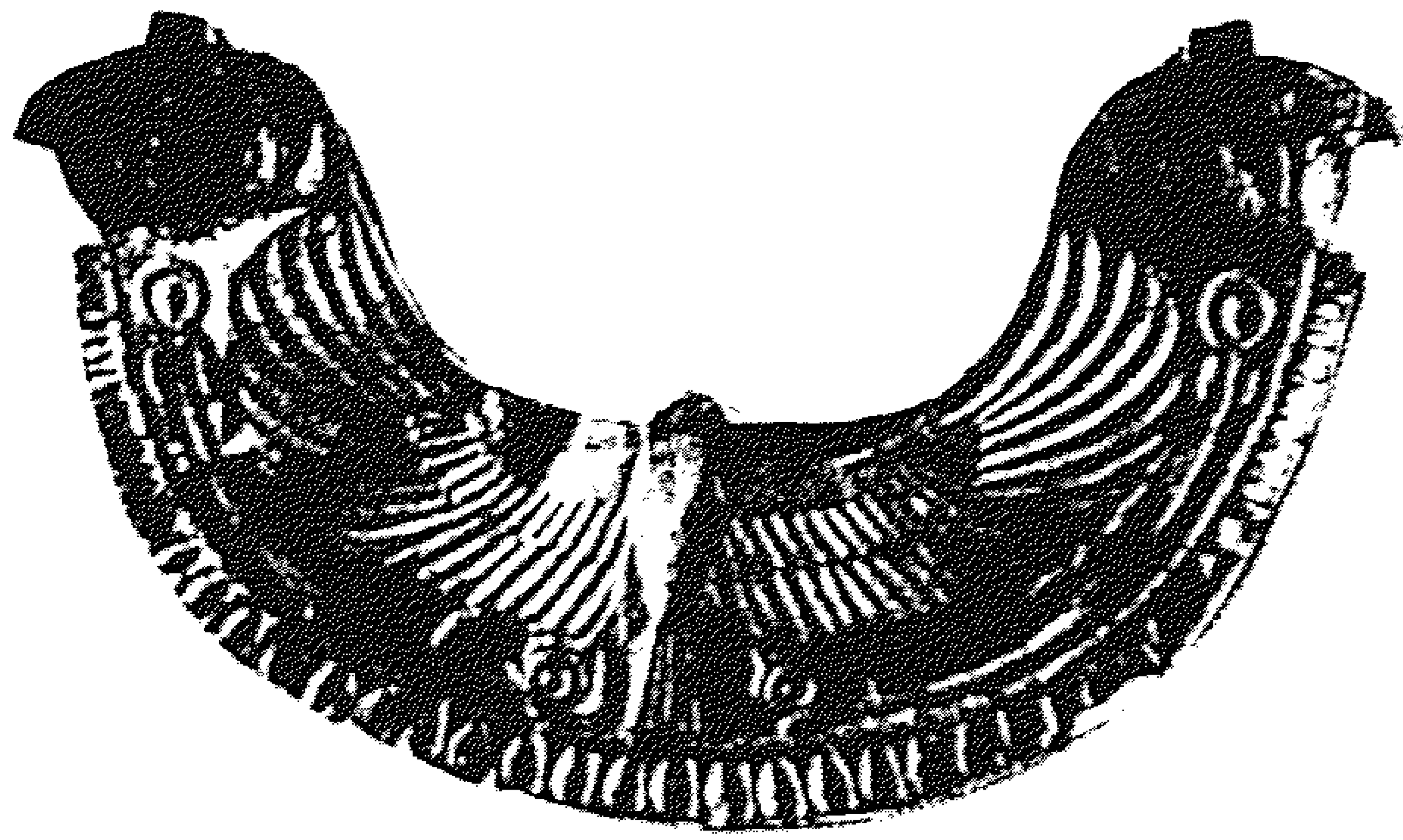
ومما يزيد في اهمية الفن الفينيقي شيوعه في جميع بقاع حوض المتوسط ، فكأنه كان يسير جنباً الى جنب مع سير التجارة . ففي مصر مثلا في عهد الامبراطورية الجديدة نجد عاديات كثيرة تشهد على وفر الانتاج اللبناني والسوري ورقي صنعه . وقد كان الصنـــاع الكنعانيون يجيدون صنع الاسلحة المزخرفة والالبسة المطرزة والمزهريات الرشيقة الجميلة والاثاث والمركبات المطعمة بالذهب والفضـــة . وقد استعار المزخرفون والمزينون الكنعانيون اشكال رسوم زهرة عرائس النيل (اللوطس) والبردى وزهرة الاكنثوس (acanthus) ولكنهم تفوقوا في رسم زهرة الكرسنتيم (dhrysentheam) والسوسن والخبازى وسَمَوْا برسم اشكالها الى اعلى درجات الفن . وقد كان الكنعانيون اول من خطرت على بالهم فكرة صنع زهور اصطناعية ووضعها في المزهريات [٢] . وقد وجد في حفريات جبيل ومصر نماذج من جرار

١ – *Iliad*, Bk. XXIII, 740-5 .

٢ – Pierre Montet, *Les Reliques de l'art Syrien dans l'Égypte du.nouvel empire* (Paris, 1937), p. 179.

لها قعر حادكان الفينيقيون يصنعونهالنقل الصمغ والزفت والعسل والزيت. ويظهر ان في عصر الاحياء المعروف بعصر الحضارة السايسية [١] في القرن السابع ق.م كان المصريون يقلدون عناصر الفن الفينيقي ، ولكنه مـا عتم ان فقد جدته في القرن التالي .

وقد كان للفن الفينيقي اثر عميق في تطوير الفن الاغريقي الذي بدأ يتفوق عليه فيما بعد ـ في القرن الخامس . واقدم العاديات الفنية عند الاغريق التي تعد تقليداً للفن الفينيقي تعود الى القرن الثامن . وقد كان الفينيقيون في حقل الفن ، كما كانوا في حقول حضارية وفكرية اخرى، اساتذة للاغريق . وكذلك كان صناع العبران



« قبة » ملوكية من الذهب وجدت في قبر رقم ٣ في جبيل

وفنانوهم من القرن التاسع الى السادس يقتبسون الفنون والصنـائع عن جيرانهم الفينيقيين . فانهم كانوا ينقـلون عنهم ـ وبكل امانة ـ صنع المجوهرات والحلى والاسلحة والجرار والقدور . يقول احد علماء التوراة [٢] ان الفن الاسرائيلي القديم « يعكس طوراً من اطوار الفن الفينيقي » . نعم، ان الفينيقيين تعلموا صناعة العاج من المصريين ولكنهم بلغوا بها شاؤا بعيداً [٣] . فانهم ، اي الفينيقيين ، هم الذين

١ ـ نسبة الى مدينة سايس في دلتا النيل .

٢ ـ William F. Albright, *Archeology and the Religion of Israel* (Baltimore, 1942)), p. 13.

٣ ـ René Dussaud, *L'Art phénicien du IIe millénaire* (Paris 1949), pp. 83 - 4 .

زخرفوا قصر آخاب الاسرائيلي في السامرة بنقوش رائعة من العاج، حتى ان القصر كان يعرف « ببيت العاج »(١) . واثناء القيام بحفريات للتنقيب عن « البيت من العاج » ظهر اثاث وفرش مطعّم بالعاج ومغلّف برقائق الذهب . (١) وكانت



فتاة كنعانية من القرن الثاني عشر او الثالث عشر كما تظهر على قطعة من العاج وجدت في مجدو

سيدة هذا القصر اميرة صورية ، فلا عجب ان كانت غرفه مغلّفة بخشب الارز المطعم برسوم والواح من العاج . ونرجح ان زخرفة قصري الملكين داود وابنه سليمان وتزيينهما ببدائع الفن تم على يد صناع فينيقيين . وكذلك زين الصناع

١ ــ سفر الملوك الاول ٢٢ : ٣٩ . عاموس ٣ : ١٥ ، ٦ : ٤ .

٢ ــ J. W. Crowfoot and Grace M. Crowfoot, *Early Ivories from Samaria* (London, 1938), pp. 1 - 6 .

الفينيقيون وفنانوهم بالعاج القصر الذي وجد في حفريات مجدّو (تل المتسلّم) والذي يعود تاريخه الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد وهنالك نماذج فنية من العاج يعود تاريخها الى قبل هذا الزمن بقرنين. وصناعة العاج الفينيقيـة تدل على ذوق رفيع ودقة في الصنع تجعل منها عاديات تعد من اثمن العاديات الشرقية وانفسها.

فن العمارة

اما اذا اردنا ان نتعرف الى نماذج من فن العمارة الفينيقي فعلينا ان نفتش عنها خارج لبنان. واحسن نموذج هو هيكل سليمان (٩٦٣–٩٢٣). ويظهر ان هـذا الهيكل المشهور كان في الاصل معبداً ملوكياً تابعاً للقصر. وقد استغرق بناؤه سبع سنوات، واصبح فيما بعد معبداً قومياً لمملكة يهوذا وللشعب اليهـودي. غير ان اليهود في مملكة اسرائيل في الشمال لم يعتبروه معبدهم القومي. كان مهندسوه وبناؤه صوريين، وقد استعملوا خشب الارز في بنائه [١]. وسخرّ الملك سليمان ٣٠ الف عامل في بناء هذا الهيكل يعملون بالتناوب بحيث يقضون شهراً في لبنان مع عمال حيرام في قطع اخشاب الارز، وشهرين في فلسطين يعودون فيها الى بيوتهم لمتابعة اشغالهم الخاصة. وكانوا ينزلون خشب الارز والشربين الى البحر ويجعلون منه ارماثاً تشحن الى يافا ومن ثم تنقل الى القدس. وكان حيرام يأخذ ثمنه حنطة وشعيراً وزيتاً وخمراً. وكان الحجر الكلسي ينشر نشراً، فلا تستعمل المطارق ولا يسمع لها صوت. اما تماثيل البرونز فكانت تسكب سكباً. ويذكرنا عمودا النحاس القائمان عند مدخل الرواق بالعمودين اللذين جاء على ذكرهما هيرودتس عند زيارته معبد ملقارت في صور. [٢]
وكان البناؤون والفنانون القائمون على تزيين الهيكل وزخرفته يسيرون على هَدْي الفن الكنعاني المعاصر. ويبدو من الفروض الدينية والمراسيم التعبـدية التي كانت تقام في الهيكل ان الاثر الكنعاني قائم. فقد كان عبيد الهيكل كنعانيين. ولفظـة «هيكل» ذاتها دخلت العبرية عن طريق الكنعانيين [٣].

وقصر سليمان هو ايضاً من صنع البنائين الفينيقيين الذين استعملوا خشب الارز

١ – سفر الملوك الاول ٥ : ٥ – ١١ سفر الاخبار الثاني ٢ : ١ – ١٦

٢ – سفر الملوك الاول ٧ : ١٥، ٢١.

٣ – اصل اللفظة سوماري : e-gallu اي البيت العظيم، وفي العربية اصبحت «هيكل».

في بنائه . وقد كان في هذا القصر من اعمدة خشب الارز ما جعله يعرف فيما بعد « ببيت وعر لبنان [١] » وكذلك بنى سليمان مركباته من خشب الارز [٢] . ذلك لان فلسطين كانت ــ ولا تزال ــ تشكو فقراً في الخشب . وفي الحفريات الحديثة في مجدّو عثر على مجموعة من بنايات عديدة كانت اصطبلات للخيل تعزى الى الملك سليمان ، ويدل بناؤها على انها كانت من صنع الفينيقيين ايضاً . وبسبب قلة الخشب في فلسطين بنى الملك حيرام ، ملك صور ، اسطولا لسليمان ، وهو اول اسطول عبري في التاريخ كانت قاعدة هذا الاسطول ميناء عزيون جابر (واسمها الحالي العقبة) على رأس البحر الاحمر . وكان قواد هذا الاسطول وبحارته من الصورانيين الذين قاموا بسفرات حول شاطىء الجزيرة العربية والشاطىء الافريقي الشرقي [٣] بغية الحصول على البخور الهام في العبادات القديمة وعلى الصندل والعاج والذهب والحجارة الكريمة .

الموسيقى

لم يعن شعب سامي بالفن الموسيقي كما عني به الكنعانيون. فقد اكتسبوا كثيراً من عناصر موسيقاهم من شعوب مختلفة توطنت الشرق الادنى القديم وسَمَوْا بها الى اعلى ما عرف في الموسيقى عند معاصريهم . ذلك لان طقوس العبادة الكنعانية كانت تقتضي استخدام الغناء . وهكذا انتشرت الحانهم وادوات موسيقاهم في جميع بقاع المتوسط . وتكاثر الطلب على اقتناء مغنيهم ومغنياتهم من الجواري في مصر زمن الامبراطورية الجديدة . يدلك على ذلك ان اسماء ادوات الموسيقى في اللغة المصرية القديمة تردّ في اصلها الى الفاظ سامية [٤]. فان العود (lute) لم يكن له وجود في مصر قبل فتوحات طحوتمس الثالث . ويظهر العود اول ما يظهر في تماثيلهم او انصبتهم زمن الاسرة الثانية عشرة وذلك بمناسبة رسم رجل سامي [٥] .

١ ــ سفر الملوك الاول ٧ : ٢ ، ١٠ : ١٧

٢ ــ نشيد الانشاد ٣ : ٩ .

٣ ــ سفر الملوك الاول ٩ : ٢٧ ــ ٢٨ ، ١٠ : ١١ ، سفر الاخبار الثاني ٩ : ١٠

٤ ــ Albright, *Archeology and the Religion of Israel*, p. 14

٥ ــ Hitti, *History of Syria*, between pp. 76 and 77 fig. « Semite with his Donkey

وكذلك فعل الاغريق ، فانهم اقتبسوا عن الفينيقيين كثيراً من الحانهم وادوات موسيقاهم باسمائها السامية . واكثر الناس اقتباساً عن الفينيقيين اطلاقاً هم العبران القدماء . فانه عندما ادخل النبي داود الغناء المقدس في العبادة اليهودية ، وعندما تعهده من بعده ابنه سليمان ، لم يكن لدى العبران من موسيقى ومبادىء موسيقية سوى موسيقى جيرانهم الى الشمال: الفينيقيين. والموسيقيون والمغنون الأُوَل الذين الحقوا بالهيا كل كانوا اما كنعانيين او جماعة اتقنوا الموسيقى والغنـــاء على ايدي الكنعانيين. وبعد ان ادخلت الموسيقى وادواتها الى العبادة اليهودية اولا كان طبيعياً ان ينتشر الغناء فيما بعد بين الناس . فان داود عندما رقص امـــام تابوت العهد[١] انما كان يقوم برقصة كان يمارسها الكنعانيون في طقوسهم الدينية التي تدور حول تأليه الخصب . وبقايا هذا الرقص المقدس ـــ الرقص امام آلهة الخصب ـ لا يزال فاشياً بين الدراويش . وكان اعضاء نقابات الرقص في اسرائيـــل يفخرون انهم يرجعون بالنسب الى عائلات ذات اسماء كنعانية .

الصناعة في فينيقية : الزجاج

كان الزجاج احدى الصناعات الرئيسية التي فاق بها الفينيقيون معـاصريهم . يذكر لنا المؤرخون الكلاسيكيون ان الفينيقيين هم الذين اكتشفوا صنع الزجاج ، انما تدل الدلائل على ان الفضل في هذا الاكتشاف يعود الى المصريين القدمـــاء . يقول لنا بليني [٢] ان جماعة من التجار نزلوا على الشاطيء قرب عكا واخذوا في تحضير طعامهم . وكانت مراكبهم محملة بالنطرون فاخذوا منه قطعاً وبنوا بها مواقد لقدورهم. ثم انهم لحظوا بعد حين ان النطرون تحول الى مادة شفافة سالت واختلطت بالرمل . وسواء أكان الفينيقيون هم الذين اكتشفوا الزجاج أم المصريون ، فان الواقع ان التجار الفينيقيين كانوا يتجرون بالزجاج المصنوع في مصر وبالزجاج المصنوع في فينيقية الذي كانوا يلونونه ويتقنون صنعه اتقاناً يكاد يكون تاماً . وقد وجدت في اماكن مختلفة في لبنان وسورية كتل من الزجاج المذاب الذي لم يستعمـــله

---

١ ـ صموئيل الثاني ٦ : ١٤

٢ ـ Pliny, Bk. XXVI, ch. 65.

الزجاجيون في صنع الآنية ، مما يدل على ان صناعة الزجاج كانت منتشرة في هذه البقعة[١] . والواقع ان الصناع الفينيقيين في صناعة الزجاج والقاشاني استطاعوا ان يلحقوا بمنافسيهم المصريين ان لم يكونوا قد بزوهم في بعض الاحيان.

النسيج

كان الغزل والحياكة في لبنان القديم صناعة بيتية. وقد عثر على فلكات مغازل من حجارة او عظام ، كما انه وجدت حجارة او كتل من الفخار كانت تستعمل كأثقال في النول اليدوي يعود تاريخها الى ٣٠٠٠ سنة ق.م. ولا شك في ان الصوف كان اول مادة استعملت في الغزل والحياكة . وقد ورد ذكر الصوف الكنعاني في كتابة بالخط المسماري وجدت في حفريات نوزي[٢] يعود عهدها الى ١٥٠٠ ق.م. فانالبلاد الجبلية الواقعة وراء المدنالساحلية الكنعانية كانت مراعي ممتازة لتربية الغنم . فكان لباس المرء الشتوي في كنعان من الصوف الوطني المصدر وكان يغزل ويحاك في البيت . أما القطن ، وموطنه الاصيل بلاد الهند ، فلم يكن شائعاً في تلك الازمنة ، انما ادخل الى البلاد في وقت متأخر . وقد نقل الفينيقيون القطن ، واسمه السامي ، الى بلاد الاغريق في مستهل العصر الهليني[٣] . أما الكتان الذي اشتهرت به مصر ، فظاهر ان نبتته ، القنب ، كانت تزرع في سورية الجنوبية في القرن العاشر قبل الميلاد . ففي التقويم الذي عثر عليه في حفريات تل الجزر الذي يعود تاريخه الى الفترة التي نحن بصددها يذكر « شهر حصادالقنب » . وانك لتجد زهر نبت القنب في يومنا هذا ، بالوانه الانيقة ، يزين وجهالارض في الربيع في جميع مناطق حوض المتوسط الشرقي . ويظهر ان الحرير كان معروفاً في صور في القرن السادس ق.م. ، هذا اذا كانت ترجمتنا للفظة وردت في سفر

١ – Mackay, *Guide*, p. 76.

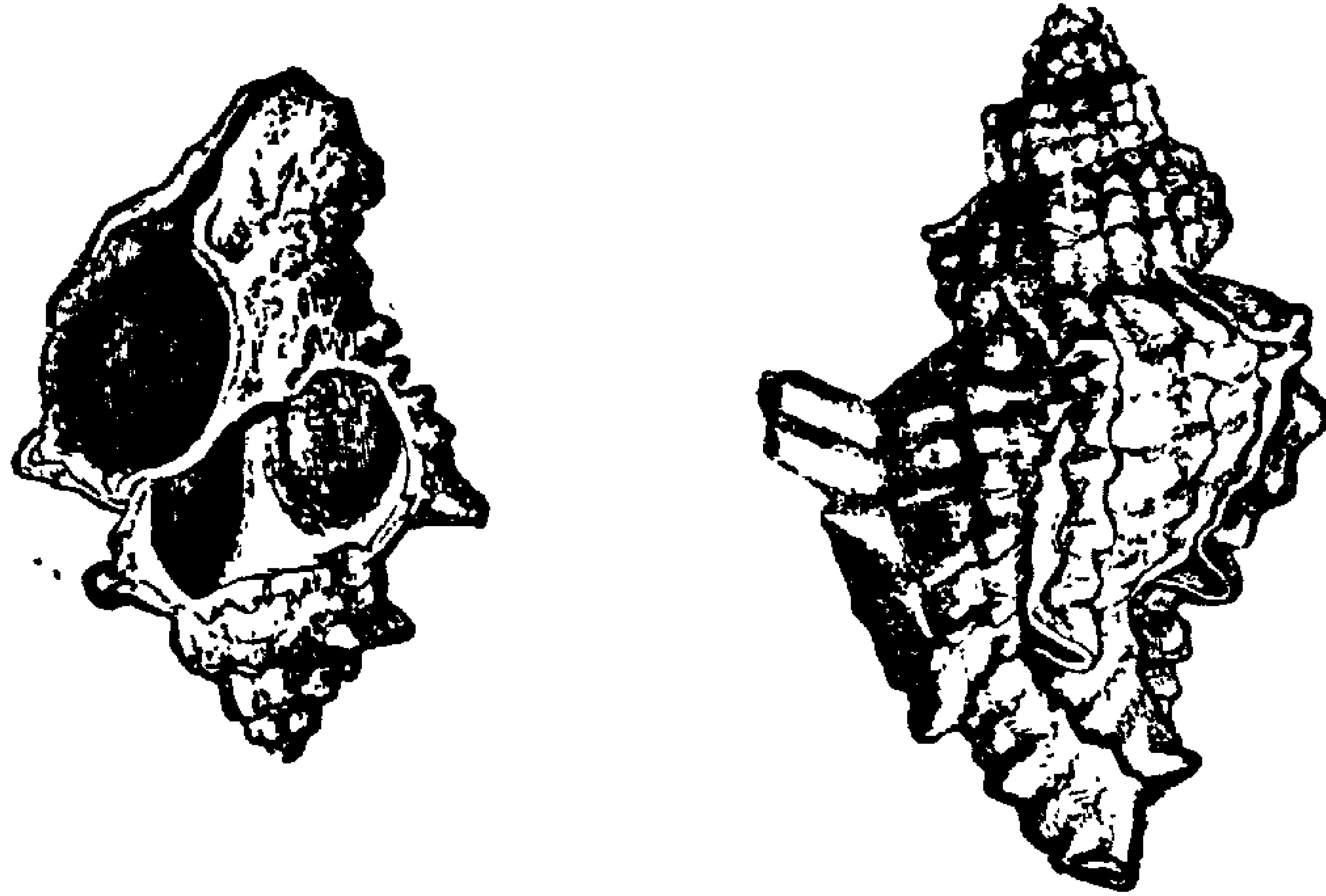
٢ – اسم مدينة عراقية قديمة موقعها على بعد ١٠ اميال شرقي كركوك . وهذة النقوش مكتوبة بالخط المسماري .

٣ – كلمة cotton الانكليزية ترد الى العربية وهي لفظة مشتركة بين اللغات السامية .

حزقيال ١٦ : ١٠، ١٣ـــ البز في الترجمة العربية للتوراة ـــ ترجمة صحيحة[١] . وفي هذا الحال يكون مصدر خيط الحرير من شرانق ديدان الحرير البرية .

الارجوان

ومن الصنائع التي راجت على الشاطىء الفينيقي ، صيد السمك ومشتقاتـــه . واسم مدينة صيدا ذاتها "يرد" الى جذر سامي مشترك يفيد « الصيد » . فقد كانت المراعي لا يُعتمد عليها في تربية الحيوانات بسبب فقر في التربة أو قلة في الامطار. ولكن الفينيقي كان يستعيض بالبحر عن المراعي . والبحر كريم جواد بسمكه ،



أصداف المريق (murex) التي يستخرج منها صباغ الأرجوان .

لا سيما السمك الذي يعرف بالطون (Tunny) ذي اللون الارجواني واللون الذي يشبه لون الملح . ومن الصناعات التي تقرن ابداً باسم الفينيقيين صناعة صبغ الارجوان . وقد يكون ان الفينيقيين عرفوا بهذا الاسم نسبة الى لفظة اغريقية Phoinix ومعناها اللون الاحمر الارجواني[٢] . ولم يكن هذا النوع من الحيوان البحري الذي يعرف

١ ــ اول ذكر للحرير يرد في كتـــاب ارسطو *Historia Animalium* ترجمـــة : D'Arcy W. Thompson, (Oxford, 1937), p. 551, ll. 12-15.

٢ ــ في اللغات السامية جذر « فنق » ومعناه تنعم وترف . وقد يكون الاسم سامي النجار لانهم كانوا اصحاب غنى وترف بالنسبة الى جيرانهم . في هذه الحال تكون هذه التسمية قـــد اطلقهـــا عليهم جيرانهم . (المترجم)

بالمريق (Murex) والذي منه يستخرج السائل الارجواني، يعيش قرب الشاطىء الفينيقي فحسب ، بل نجده قرب شواطىء المتوسط جميعها . وقد عرفت صباغ الارجوان شعوب اخرى غير الفينيقين . فان أهل كريت والاغريق عرفوا هذه الاصداف التي يمكن استخراج صباغ منها . تقول لنا الاسطورة الاغريقية ان هيلانة الطروادية عندما كانت تتمشى مع كلبها على شاطى البحر لتروّح عن نفسها عناء الاسر لحظت ان فم كلبها الذي كان يعالج صَدَفة تغير لونه الى لون أرجواني غامق . فسرّت بهذا اللون وأعجبت به اعجاباً حملها على ان تقرر انها لن تقبل بطالب زواج منها إلا إذا استطاع ان يهديها ثوباً مصبوغاً بالارجوان (porphyra) . غير أن أشهر الارجوان وأنْفَسه في العالم القديم كان الارجوان الصوري . ذلك لأن أجود انواع هذا الحيوان كانت تعيش على شواطىء صور وصيدا . وحرصاً على حفظ هذا المورد الطبيعي من الاضمحلال والتلاشي ، فان الفينيقيين حاولوا اكتشاف مصادر اخرى يستطيعون ان يجلبوا منها صدف الارجوان . وقد وُفقوا الى استيراده من أماكن بعيدة ، من ميناء سبارطة ومن ضواحي قرطجنة في شمالي افريقية ومن يوتيكا (Utica) . وقد وجدت كميات من هذه الاصداف المكسرة في ميناء اوغاريت ، الميناء البيضاء ، ويرجع عهدها الى ما بين القرن الخامس والثالث عشر ق.م. وأقدم ذكر لهذه اللفظة ، ارجوان، ورد في نص من نصوص اوغاريت حيث يقول ان كمية من الصوف قد وزعت بين جماعة من الحياكين الذين عهد اليهم صنع الـ « ا ر ج م ن »[١] . واذا رجعنا الى الاساطير نجد ان اول ذكر للارجوان يرد في اسطورة تقول ان اول ثوب مصبوغ بالارجوان الصوري قدّمه هرقل الفينيقي الى الآلهة عشتروت . ولم يبق من أثر لصنع هذا الصباغ سوى ذكريات تظهر عفوياً بين أولاد صور في عهدنا هذا . فانهم عندما ينقسمون الى فريقين ليلعبوا لعبة الحرب فانهم يرفعون اعلاماً من خرق مربوطة الى القصب مصبوغة بصباغ يستخرجونه من هذه الاصداف على شاطىء بحرهم . ويثبتون ألوانها اما بكربونات الصودا أو بعصير الليمون[٢]. وأن المرء ليرى الى جنوبي صيدا في يومنا هذا حافة صغيرة مبنية في الاكثر من أصداف هذا الحيوان البحري .

١ – يقابلها في العربية ارجوان – وليست الكلمة سامية الأصل بل قد تكون هندو–اوروبية.

٢ – Louis Lortet, *La Syrie d'Aujourd'hui* (Paris, 1884), p. 127.

ولم تكن عملية استخراج هذا القليل من الصباغ وتقطيره وتنقيته بالامر اليسير، بل كان الامر على نقيض هذا . ولذا كانت اثمانه غالية جداً بالرغم من انه كان بضاعة حرة لا محتكرة . فان الثياب الارجوانية، كما يظهر في شعر هوميروس[١]، وكما يظهر في العصر الهلنّبي[٢] كانت ثياباً للملوك والامراء . فان اباطرة الرومان كانوا يلبسون ثوباً فضفاضاً من الارجوان رمزاً للسلطة والحكم . ولم تكن كليوبترا المصرية باقل شغفاً بالارجوان من هيلانة الطروادية. وتقول لنا الروايات أن الاميرات البيزنطيات كن يلدن في غرف جدرانها مبطنة بالارجوان ، وعلى هذا نشأ القول المأثور في بعض لغات الغرب : « ولد في الارجوان » . وكان رئيس كهنة اليهود يلبس الارجوان رمزاً لسلطته الدينية . وكذلك كان كاهن مَنْبِج الآرامي في شمالي سوريه وكاهن الاله المشتري (جوبيتر) في مغنيزيا في آسية الصغرى يلبسان الارجوان عنوانا للسلطة الدينية . وثوب الكردينال الكاثوليكي في يومنا هذا بقية باقية من ذلك التقليد القديم .

اما كيف كانوا يعالجون هذا الصباغ بعد استخراجه من الحيوان فلا يزال امراً خفياً . فان الرواية الفينيقية او التقليد الفينيقي ، بالنسبة الى هذا الامر ، لا يذكر لنا شيئاً . غير ان المؤرخ بليني[٣] قد ترك لنا وصفاً لصنع هذه المادة . يقول ان العملية تبدأ باستخراج السائل الملون من عرق من عروق الحيوان وهو بعد حي — لانه اذا مات فان هذا السائل الثمين يفرز الى الخارج فيفسد — ثم انهم يضيفون اليه قليلا من الملح ويترك اياماً لينتقع ، ثم يغلونه غلياناً خفيفاً على نار خفيفة . وفي اثناء الغليان يجمع الغثاء مرة بعد اخرى ويرمى به . وبعد عشرة ايام عندما يكون الصباغ في الحَلَقين لا يزال سائلا يرمى بجَزات الصوف المراد صبغها الى الحلقين وتترك هناك خمس ساعات لتنتقع في الصباغ. ثم ان الصوف يؤخذ ويجفف قليلا ويُسَرَّح او يُمَشَّط ثم يرمى به ثانية الى قدر الصباغ لكي يمتصه جيداً . وعندما يصبح لون الصوف بلون الدم المتجمد فان الصبَّاغ يعرف ان صبغه قد تمّ ، فينتزعه من السائل ويدفع به الى السوق على انه افضل انواع الارجوان .

١ — *Iliad*, IV, 141 - 5.

٢ — سفر المكابيين الاول ٨ : ١٤ .

٣ — Bk. IX, ch.62.

ان تدفق الثروات العظيمة الى رومه في القرن الاول قبل المسيح زاد في الطلب على الارجوان ، مما جعل الصُنّاع في ايطاليا وفي غيرها من البلاد يقلدون صناعة الفينيقين في صبغ الارجوان وحياكته . وفي الشرق ظلت هذه الصناعة مزدهرة مستمرة الى زمن الفتح العربي . وقد ورد ذكر استيراد « الارجوان الصوري » . من جملة ما كان يستورده من الكماليات تجار البندقية في اواخر القرن الثامن للميلاد. أما في العهد البيزنطي فان صناعة الارجوان كانت امتيازاً او احتكاراً تتمتع به جماعة قليلة من الصناع . وبعد سقوط الامبراطورية البيزنطية تلاشت هذه الصناعة وُتنُوسي امرها في الشرق . واما في انكلترا ــ سواء أكانت صناعة مستوردة من الشرق ام لم تكن ــ فان هذه الصناعة ظلت شائعة في اماكن منعزلة حتى القرن السابع عشر ميلادي .

وكذلك يعزى الى اللبنانيين القدماء ، الى جانب صنعهم صباغ الارجوان ، صنع صباغ القرمز[١] وادخاله في عالم الصناعة والتجارة . وهذا اللون ، القرمز ، تكثر الاشارة اليه في اسفار العهد القديم[٢] . وقد كان اللبنانيون يصنعون هذا الصباغ من حشرات تعيش على انواع من شجر السنديان[٣] التي تنمو على شواطىء المتوسط الشرقية . تؤخذ هذه الحشرات وتجفف ثم تذوّب بانواعٍ من الحامض فتكْتسِب السائل الذي تنتقع فيه لون القرمز . وهذه الحشرة البَرّيَة اصبحت فيما بعد من الحشرات التي كان الفرس اولا ، ومن بعدهم الارمن ، يعنون بها عناية خاصة ويربونها لهذه الغاية الاقتصادية .

الملاحة

ان تقدم التجارة البحرية واتساع النقل البحري على مستوى عال رهن بتقدم الملاحة وبوضعها على اسس قويمة ثابتة . وهذا ما قام به الفينيقيون قبل ان تزدهر

١ ــ وفي الانكليزية crimson وقد دخلت الانكليزية عن طريق العربية . واللفظة اصلا اما ارمنية او فارسية .

٢ ــ سفر اللاويين ١٤ : ٤ ، سفر العدد ١٩ : ٦.

٣ــ Theophrastus , Bk. III, ch . 16 , sec . I

تجارتهم البحرية وقبل ان يتسع نطاق النقل البحري . فانهم اكتشفوا نجمة القطب الشمالي – التي سماها الاغريق باسمهم – وادركوا اهميتها في تحديد الجهات . فانهم بواسطة هذا وبواسطة نجوم اخرى استطاعوا ان يحددوا الطرق البحرية والمسالك التي يجب ان تسلكها مراكبهم . وكان الفينيقيون يقتطعون اشجار الارز من اعالي جبالهم ويلقون بها الى مجاري الانهار فاذا اتى السيل شتاء تعوم هذه الجذوع فيعالجونها الى ان تصل الى اقرب الموانىء لصنع مراكبهم من خشبها الصلب الذي يقاوم الزمن طويلا . اما صيدا وصور فان مصدر اخشابها كانت غابات الارز والشربين في سفوح جبل الشيخ (حرمون) . والمراكب الفينيقية تظهر على الرسوم والتماثيل المصرية منذ ١٤٠٠ ق.م. وشكل المركب العام هلالي اي ان مقدمته ومؤخرته مستديرتان معقوفتان كطرفي الهلال . وفي المقدمة مجذافان يستعملان كدفة للمركب ، وله صارية واحدة ذات شراع مربع في اعلاها . ولكي تتسع مراكبهم لنقل البضائع ولكي لا تكون طويلة فانهم كانوا يبنونها عريضة في اواسطها . غير ان شكل بناء السفن تغير فيما بعد . فان رسوم المراكب التي تظهر في الرسوم والتماثيل الاشورية تظهر المراكب التجارية والحربية بمقدمة عالية تنتهي بمدكة (ram ، وهي آلة للحرب وللهدم والنطح) وتتألف من طبقتين. وفي بادىء عهدهم ببناء السفن كان الفينيقيون يضعون مجذافين او اكثر الواحد فوق الاخر. غير انهم اخذوا فيما بعد بانشاء صفين من المجاذيف على جانبي الطبقة الاولى في كل صف اربعة او خمسة مجذفين ، اي انه كان للمركب الواحد بين ١٦–٢٠ مجذفاً . وقد زادوا العدد فيما بعد الى خمسين مجذفاً . اما الشراع الذي كانوا يحيكونه من الكتان القوي فكان يُطوى اذا دخل المركب الميناء او اذا كانت الريح غير مؤاتية . هذا النوع من المراكب الشراعية اقتبسه عنهم الاغريق كما تدل على ذلك الرسوم المصورة على المزهريات الاغريقية . ونرجح ان هذا النوع من المراكب الفينيقية هو الذي ادخله بناءوو السفن عندما طلب الملك سليمان الى صديقه الملك احيرام ملك صور ان يبعث اليه « بالنواتي العارفين بالبحر[1] » وقد كانت ميناء سليمان تسمى « عزيون جابر » التي سميت فيما بعد ايلات وهي ايلة الرومانية والعربية ، وموقعها على رأس خليج العقبة . من هذا الميناء الذي يختصر الطريق بين حوض

١ – سفر الملوك الاول ٩ : ٢٧

المتوسط الشرقي وبلاد العرب الجنوبية والمحيط الهندي كانت المراكب تنقل الخشب والنحاس لتعود محملة بالذهب من بلاد اوفير (ربما اسم عُمان قديماً) وبالمواد والسلع الاستوائية التي تُنْتَج في البلاد العربية . هذه الطريق البحرية وفرت على التجار المرور في مضيق السويس . وقد وجد في خرائب مأرب عاصمة سبأ حديثاً تمثال برونزي لاله يلبس جلد اسد : اقرب تمثال له صورة الاله ملقارت اله صور الذي وجد في خرائب عمريت . والى جانب البضائع الاستوائية كان التجار الفينيقيون يجلبون الى مصر العبيد والخيل للمقايضة بنتاج مصري . وقد كان للتجار الفينيقيين في مدن دلتا مصر في عهد الاسرة العشرين (١٢٠٠_١٠٩٠) مركز مرموق . وليس هذا وحسب بل كان لهم في مدينة ممفيس في القرن الثالث عشر امتيازات خاصة تذكرنا بعهد الامتيازات في العهد العثماني .

كانت التجارة الفينيقية في معظمها بحرية ، غير انهم كانوا الى جانب تجارتهم البحرية يمارسون التجارة البرية ايضاً ، فكانت تجارة برمائية . وقد انشأوا لهم طرقاً برية تربط بين موانئهم على المتوسط وبين قواعدهم البحرية على الخليج الفارسي . فقد كان هنالك على شواطىء الخليج مدن اسماؤها اسماء مدنهم في فينيقية (وقد وردت الاشارة الى هذا الامر) . أما اهم قواعدهم البرية فقد كانت مدينة الرها (اورفا) واسمها الكلاسيكي ايدسا ، وربما مدينة نصيبين . وقد جاء على وصف هذه التجارة البرمائية وطرقها وصفاً دقيقاً رائعاً النبي حزقيال (سفر حزقيال ٢٧) حيث يقول ان من جملة البضائع التي كانوا يستوردونها الفضة والحديد والقصدير والرصاص من اسبانية ، والعبيد والآنية النحاسية من ايونية والكتان من مصر ، والخرفان والماعز من الجزيرة العربية . ويستنتج من وصفه هذا انه لم يكن لقوافلهم من حدود في ذلك الزمن البعيد .

السفر بحراً حول القارة الافريقية

كانت ذروة المآتي التي قام بها الفينيقيون في أسفارهم البحرية سفرهم بحراً حول القارة الافريقية اي انهم سبقوا الملاحين البرتغاليين ، الذين يفخرون بانهم كانوا اول من سافر حول القارة السوداء ، بمدة الف سنة . وقد كان نخو فرعون

مصر هو الذي أوعز الى الملاحين الفينيقيين القيام بهذه السفرة المجيدة . ذلك لانه كان قد اعاد فتح الترعة القديمة التي تصل الفرع الشرقي من النيل برأس البحر الاحمر . ولقد سلك الملاحون الفينيقيون هذه الطريق البحرية وجاؤوا الى المحيط الجنوبي ، وعند اقتراب فصل الخريف ـ وكانت مؤونة الطعام قد نفذت ـ نزلوا الى احد الشواطي وأقاموا زمناً هناك لبذر القمح واستغلاله ثم تابعوا سفرهم. وفي السنة الثالثة لسفرتهم هذه وصلوا الى أعمدة هرقل (وهي الرؤوس البرية المرتفعة مقابل صخرة جبل طارق) ومنها شرقاً الى مصر . يقول هيرودوتس : « يقول الملاحون الفينيقيون ، ان في سفرهم حول ليبيا (أي افريقية) كانت الشمس الى يمينهم . وقد يصدق بعض الناس زعمهم هذا ، اما انا فأنكره »[١] . وقول هيرودوتس ان قولهم « الشمس كانت الى يمينهم » هو الذي يجعله ان يشك في صحة الخبر كله ، ليثبت بالفعل صحة الزعم الفينيقي ، ذلك لان المراكب المتجهة غرباً من رأس الرجاء الصالح لا بد ان ترى شمس الجزء الجنوبي من الكرة الارضية الى يمين المسافر .

المستعمرات

كان الفينيقيون ، أنّى توجهوا ، يبنون وينشئون . وبصفتهم جالية غير حربية ، فانهم لم يثيروا الشك في نفوس الشعوب التي كانوا يتسربون اليها كتجار. ولم تكن تربط هؤلاء التجار الفينيقيين عقيدة سياسية واحدة مما ساعدهم كثيراً ، وبدون اية تضحية عاطفية او عقائدية ، في تكييف حياتهم في اية بيئة اجتماعية جديدة . ولبنانيو اليوم يستطيعون ان يكيفوا حياتهم في بلدان الهجرة التي يقيمون فيها . وقد نجح الفينيقيون كمستعمرين ومنظّمين نجاحاً لا يقل روعة عن نجاحهم كتجار وملاحين. فانهم كانوا يؤمّون بلداناً عيش اهلها يتصف بالجمود ، وآفاق شعوبها آفاق ضيقة ، فكانوا يبعثون النشاط والحركة ، وكانوا يفتحون أمام أعين الناس آفاقاً جديدة بعيدة . كانت جماعة التجار الفينيقيين الواحدة تلو الاخرى تشكل مع الايام جالية كبيرة ، والجالية الى جانب الجالية كانت تشكل مع الزمن

١ – Herodotus, Bk. IV ch. 42 .

مستعمرة . وكانت مراكبهم تمخر عباب المتوسط فتربط بين المستعمرة والاخرى وبين المستعمرات وبين الوطن الام . ولم تمض برهـــة من الدهر حتى اصبحت مستعمراتهم منتشرة من دلتا مصر الى شواطىء كيليكيـــة الى بلاد الاغريق والى بلدان اخرى حول المتوسط . وفي الواقع ان اسم البحر المتوسط يدل على انه كان بحراً يتوسط المستعمرات الفينيقية .

كانت المستعمرات الفينيقية في قبرص ورودس وكريت وفي اماكن اخرى من شرقي المتوسط أسبق عهـــداً من مستعمراتهم في مالطة وصقليـــة وسردينية واماكن اخرى من القسم الاوسط من المتوسط ، وهذه الاخيرة بدورها كانت أسبق في الزمن من تأسيسهم مستعمراتهم في شمال غرب افريقية وفي شبه جزيرة ايبيرية (اسبانية والبرتغال) . ان الجاليات الفينيقية في الجزر الوسطى من البحر المتوسط (صقلية وسردينية وخلافهما) يعود تاريخ تأسيسها الى منتصف القرن الحادي عشر ق. م. ان لم يكن قبله . فان مدينة قادس في اسبانية ومدينة يوتيكا في تونس تأسستا حوالي ١٠٠٠ ق. م. ، ويجب اعتبارهما من أقدم المستعمرات الفينيقية في هذه المنطقة . واسم قادس مشتق من لفظ فينيقي (او سامي) ومعناه جدار ، حائط . فيكون معنى الاسم « المدينـــة المسورة أو ذات الجدران »[١] . ولفظ يوتيكا تحريف للفظ سامي ايضاً معنـــاه عتيق وقديم (من جذر عتق) . ولم يُعثَر في سردينية او في قبرص على نقوش يعود تاريخهـــا الى ما قبل القرن التاسع ق. م . أما بعل لبنان فقد وجد نقش تقدمة له في قبرص يعود تاريخه الى منتصف القرن الثامن[٢] . أما زمن تأسيس قرطجنة ، ابنـــة صور الذائعـــة الصيت واهم مستعمرة فينيقية على الاطلاق ، فيعود الى سنة ٨١٤ ق. م. واسمها يعني المدينة الحديثة مقابلة لها بمدينة يوتيكا التي تعني . كما ذكرنا آنفاً ، المدينـــة العتيقة[٣] فتكون مدينة قرطجنة احدث عهداً من جارتهـــا هبوّ الى الغرب التي

---

١ ـــ احتفلت هذه المدينة ١٩٥٥ بذكرى تأسيسها كمستعمرة للالف الثالث . وتزعم هذه المدينة انها اقدم مستوطن في الغرب .

٢ — G. A. Cooke, *A Text-Book of North Semitic Inscriptions,* (Oxford, 1903). p. 52 .

٣ ـــ اصل الاسم « قرت حدشت » اي القرية الحديثة .

كانت مقراً للملوك والامراء (ولذا كانت تُلقّب بالمدينة الملوكيـــة) . أما لفظ « هبو » فيجب ان يكون من اصل بربري ليبيّ . تقول لنـــا الاسطورة ان اسم ليبيا ، الذي كان يطلقه الاغريق اولا على شمالي افريقية ثم على القارة باجمعها ، كان اسماً لزوجة الاله بوسيدون ، إله البحر وهي ام اجينور ملك فينيقية .

بلغ تأسيس المستعمرات الفينيقية الذروة في النشاط بين منتصف القرن العاشر واواسط الثامن قبل المسيح . ولم يكن تأسيس المستعمرات ليبلـــغ هذا المبلغ من النجاح لو لم يكن هنالك هجرات سامية الى شمالي افريقية سبقت التوسع التجاري الفينيقي مما مهد السبيل لاخوانهم فيما بعد . وقد تكون تلك الهجرات الساميـــة القديمة السابقة جزءا يسيراً من الهجرة السامية التي حدثت في الالف الرابع ق.م. وحملت جزءاً من المهاجرين الى مصر فالى شمالي افريقية . وقد حفظت لنا الاساطير الكلاسيكية والروايات العربية شيئاً من ذكريات غـــامضة عن توطن الساميين في تلك المنطقة [١] .

بعد ان اسس الفينيقيون مستعمرتهم قادس ما وراء اعمدة هرقل (جبل طارق) وجدوا انفسهم وجهاً لوجه امـــام المحيط الاطلسي . ولا نستطيع الجزم في مدى توغلهم في بحر الظلمات، وهو الاسم الذي اطلقه العرب فيما بعد على هذا المحيط . والزعم القائل انهم بلغوا كورنوال في انكلترا يحتاج الى اثبات تاريخي، لان المصادر القديمة لا تذكر شيئاً من هذا القبيل . فان هيرودوتس[٢] ينفي الزعم القائل بانهم كانوا يعرفون جزر القصدير « من حيث يردنا القصدير »[٣] . ان هذه العبارة في هيرودوتس تشير الى جزر صغيرة لا تبعد كثيراً عن الشاطيء مقابل كورنوال في انكلترا واسمها جزر سلي (Scilly) . وحوالي سنة ٧ قبـــل الميلاد كتب الجغرافي

---

١ — Procopius of Caesarea, *History of the Wars*, Bk . IV, ch. 10, secs. 13 - 20 .

الادريسي ، صفة المغرب (طبعة ليدن ١٨٦٤) ص ٥٧ . ابن خلدون ، كتـــاب العبر وديوان المبتدا والخبر (القاهرة ١٢٨٤) الجزء السادس ص ٩٣—٩٤

٢ — Bk . III , ch . 115

٣ — اللفظة المستعملة في هيرودوتس هي Cassiterides من Kassıteros ومعناها قصدير ، ومنها اللفظ العربي « قصدير » ويظهر ان الكلمة شرقية الاصل ولكن ليس حتما من اصل فينيقي .

سترابو يقول :[١] بانه في هذه الجزر، « جزر القصدير» (Cassiterides) ، يوجد معدنا التنك والرصاص ، وان اهالي هذه الجزر كانوا يقايضون بها للحصول على الخزف والملح والآنية النحاسية. ويتابع قوله بان الفينيقيين وحدهم في الزمن القديم كانوا يقومون بهذه السفرات التجـارية من قادس الى هذه الجزر . غير انهـم (الفينيقيين) لم يطلعوا احداً على مسالك هذه الطريق البحرية . ويذكر لنا سترابو ايضاً رواية طريفة عن مركب روماني حاول ان يتتبع مركباً فينيقياً مقلعاً الى جزر القصدير حتى يكتشف مصادر هذا المعدن . غير ان ربان المركب الفينيقي شعر به ولكي يخفي امر الجزر هذه فانه ادار مركبه نحو شاطيء صخري مغمور بالميـاه فتحطم مركبه . غير ان حكومته عوّضت عليه حسب رواية سترابو . وقد يكون في هذا اشارة الى ان الفينيقيين حرصوا على ان تظل هذه التجارة احتكاراً خاصاً بهم وعلى ان الدولة كانت تضمن الحفاظ على هذا الاحتكار . ويقول لنا مؤرخ آخر ، ديودورس سيقولس[٢] ، الذي كتب كتاباته بعد سترابو بخمس وسبعين سنة ، بأن التنك كان ينقل من بريطانية الى الشاطىء المقابل في فرنسه، بلادالغال، ومن هناك براً الى مدينة مسيليا (هي مرسيليا الحالية)التي كانت مستعمرة اغريقية انشئت هناك في اعقاب مستعمرة فينيقية . وقد وجد في بريطانيـه نقش واحد فقط فينيقي ، والاغلب انه قرطجني ، ويعود تاريخه الى القرن الاول لفتح الرومان جزر بريطانية . ويبدو ان القرطجنيين أموا جزر الازور بمراكبهم ، يدلك على ذلك العثور هناك على كثرة من النقود الاغريقية والرومانية مع العلم انه لا مؤرخي الاغريق ولا الرومان ذكروا لنا شيئاً ينبىء عن معرفتهم بهذه الجزر . ومهما قيل في هذا الامر فان الحقيقة البارزة هي ان اكتشاف الفينيقيين بحر الظلمات مفخرة وعمل مجيد يتوج مآتيهم في حقل الحضارة العالمية[٣].

---

١ — Bk. III ch. 5, sect. II .

٢ — Bk . V . ch . 38 , sec . 4

٣ — Arnold J . Toynbee . *A Study of History* , vol . II (Oxford . 1934), pp. 50. 52, 386 .

في شبه جزيرة ايبيريا

أما في شبه جزيرة ايبيرية (اسبانية والبرتغـــال) فان الفينيقيين استقروا في ترشيش (Tartessus)، وعلى الاخص في المنطقة الواقعة بين قرطجنة[١] وقادس. وجميع اسماء هذه المستعمرات تُرَدُّ الى الفاظ سامية . فان ترشيش الوارد ذكرها في التوراة وفي النقوش الاشورية ، قد تعني « مكان للتعدين[٢] ». ومدينة طرسوس الكيليكية التي تفخر بكونها مولد بولس الرسول ، كانت ايضاً مستعمرة فينيقية . والاسمان ، طرسوس وترشيش ، واحد في اشتقاقهما . وقرطجنة الأسبانية سميت باسم قرطجنة الام التي في شمالي افريقية في تونس ، واسم المدينة الاسبانية المعروفة بـ « ملغا » (Malaga) سامي الاصل ومعناه معمل ، مكان للشغل[٣] . وقـد يكون انها سميت « بمعمل » لانها كانت مكاناً لتمليح السمك وحفظه[٤] . ولم يبنِ الفينيقيون قرطبة ولا هم الذين اسسوها ، بل انهم استولوا عليها عنوة . وقد وجد على النقود القديمة التي عثر عليها هناك كتابات بالحرف الفينيقي الذي استبدل فيما بعد بحرف قريب ومشابه له ، يعرف بالحرف القرطجني (Punic) . ومن هذه المدن التي كانت مستوطناً لجاليات فينيقية مثل قرطبة وغيرهـــا من المدن في شبه جزيرة ايبيرية حشد هملقار برقة ، ابو هنيبعل ، جيوشاً لمحاربـــة رومة . والجزء الثاني من اسم هملقار برقة ، من لفظ سامي مشترك معناه « البرق » ، ولا يستبعد ان يكون اسم « برشلونة » اصلا برقلونا أي من الجذر ذاتـــه : برق . وهكذا كانت هذه المستعمرات في شبه جزيرة ايبيرية موطناً ثانياً للحضارة اللبنانية القديمة في الجزء الغربي من حوض المتوسط .

أما في جزر الباليار (Balearic) التي كان سكانها من العرق ذاته الذي ينتمي

---

١ ــ قرطجنة هذه اسم مدينة في اسبانية واسمها على اسم قرطجنة الفينيقية في شمالي تونس .

٢ ــ قابل جذر رش في العربية . قابل ايضاً : Albert Dietrich, *Phönizische Ortsnamen in Spanien* (Leipzig, 1936), p. 32. راجع ايضاً فريحة ، اسماء المدن ، ص ٧٩ .

٣ ــ من كلمة فينيقية ، وعبرية ايضاً ، Melakha = مكان للعمل .

٤ ــ Strabo, Bk. III, ch. 4, sec. 4 .

اليه سكان شبه جزيرة ايبيرية ، فقد كان للفينيقيين نقاط ارتكاز تجارية ، ولكنهم لم يحتلوا البلاد ولم يستولوا عليها. وقد يكون اسم عاصمةالجزيرة مينورقة، ماهون، من اصل سامي ، لانه في شكله الاول يظهر انـــه كان ماجو (Mago) تحريف للفظ سامي معناه المجن والترس [١] . وقدكان هذا الاسم ماجواسم قائد عسكري من قرطجنة . وكذلك كـــان للفينيقيين مراكز تجارية في كورسيكة وسردينية . ومدينة بلرمو تقوم اليوم على موقع كان في السابق موقعاً فينيقياً .

واسم مالطة سامي من جذر « ملط »ومعناه هرب وتفسير هذا الاسم اصبح مقبولا عند جماعة المؤرخين. ولا عجب ان تسمى الجزيرة بالملجأ او بمكان للهرب لان في الجزيرة ميناء يعــد من افضــل موانىء المتوسط . وقد ذكر المؤرخ ذيودورس [٢] ان سكان جزيرة مالطة كانوا من الفينيقيين ومما يؤيد هذا الزعم ان اللغة المالطية قد احتفظت الى يومنا هذا بكثير من المفردات الفينيقية التي طرأ عليها شيء من التحريف والتغيير بدخول العربية الى الجزيرة من شمالي افريقية .

الفينيقيون في بلاد الاغريق

تدل اسماء المدن والقرى في بلاد الاغريق على مدى اتساع التجارة الفينيقية في تلك الربوع ، وعلى النشاط الذي ابدوه في تأسيس نقاط ارتكاز لهم . فان اسم مدينة كورنثوس ، حسب الاسطورة الاغريقيـــة ، يقرن باسم الــه فينيقي : ملقارت [٣] ، الذي عرفه الاغريق فيما بعد بالاله هرقل .والاسطورة الاغريقية التي تدور حول المصائب والنوازل الاثنتي عشرة التي كانت تنزل بالبطــل الاغريقي ليست سوى صدى للاسطورة الفينيقية التي تصور الاله الفينيقي ينازل اثني عشر حيواناً بريــاً هي حيوانات منطقة البروج في الفلك . ومن اثر الفينيقيين في بلاد

---

١ ـ في الفينيقيـــة magen اي المجن . وليس بمستبعـــد ان تكون لفظـــة مايونز mayonnaise تحريف للفظة mago وقد دخلت اللغات الاوروبية عن طريق الفرنسية .

٢ — Bk . V, ch. 12 ; secs . 2 - 4 .

٣ ـــ معنى اسم ملقارت ملك القرية (اي المدينة) .

الاغريق اسطورة قدموس [١] الصوري الذي يعزى اليـــه شرف ادخال حروف الهجاء الى بلاد الاغريق وبناء مدينة طيبة التي كانت قلعتها العالية المحصنة تعرف باسم « قدميا » . وكذلك تقول لنا الاسطورة انه كان في تراقية ، الجزء الشمالي من بلاد الاغريق ، معادن كان قدموس يعدنها . وفي القرن السابع قبل الميلاد ، اي بعد هذه الاسطورة بزمن ، كان المعـــدنون الفينيقيون يفتشون في هذه المنطقة عن مناجم للذهب . وتتابع الاسطورة الخبر فتقول لنا ان مقاطعة البريه ، اي البلاد المعروفة الآن بالبانية ، انما سميت باسم ابن قدموس الصوري ، اليريوس . وقدموس هذا كان قد بعث به ابوه ليفتش عن اخت له خطفها اله اغريقي تسمى « عُرْبا » . وهذا الاسم عُرْبا ـ الذي يعني الغرب ـ اطلق فيما بعد على القارة باجمعها : اوروبة. وهكذا نجد ان الاغريق يعزون كثيراً من الحوادث ومن تاريخهم الاسطوري الى الفينيقيين .

ومن جملة الجزر التي وقعت ضمن دائره النفوذ الفينيقي جزيرتا ساموس وكريت. فقد كان لها مركز مرموق عند المستعمرين الفينيقيين . وقد فُسِّر اسما الجزيرتين على انهما من اصل سامي ، ولكن الامر موضع ريبة [٢]. وقد سبقت جزيرة كريت القارة الاوروبية في كونها مركزاً حضارياً هاماً . تقول الاسطورة ان الاله زفس ـ الذي استحال الى ثور ـ اختطف « عربا » ابنة الملك الفينيقي اغنور Agenor[٣] الجميلة من مرج قريب من الشاطىء وحملهـا الى جزيرة كريت . وكان هذا الاله الاغريقي قد وقع في غرام هذه الفتاة اللبنانية . وعندما استقر به المقام في كريت عاد الى شكله الانساني مرة اخرى وتزوجها . وقد رزق منها ابناً هو الملك مينوس ، الملك الكريتي المتشرع الشهـــير الذي وصلت الجزيرة في عهد ملكه الذروة في الرقي والعمران .

---

١ ـ من جذر سامي . في الفينيقية والعبرية « قدم » تعني الشرق فيكون معنى قدموس الشرقي او القادم من الشرق .

٢ ـ ساموس من « شمش » اي الشمس ـ راجع H . R . Hall , *The Ancient History of the Near East* , 8th ed . (NewYork , 1935), p. 523 . اما كريت فمن جذر « كرت » ومعناه قطع . راجع Autran , *Phéniciens* , p. 5.

٣ ـ « Phoenix » in *Iliad*, XIV , 321.

كانت المراكب الفينيقية في عهد هوميرس – كما يظهر من شعره – تؤم الموانىء الاغريقية محملة بالاطايب اللبنانية : الورد والتمر والتين والرمان والمر والخوخ واللوز. وقد نقل اللبنانيون هذه النباتات الى جميع بلدان حوض المتوسط[١]. فانهم ادخلوا زراعة الزيتون – وشجرة الزيتون شجرة اصيلة في الشرق الادنى – الى بلاد الاغريق وايطالية وشمال افريقية وشبه جزيرة ايبيرية . وبدخول هذه الشجرة الى هذه البلدان دخلت ايضاً صناعة استخراج الزيت وحفظ الزيتون – واسم الزيت والزيتون لا يزال على شكله السامي في كثير من اللغات الاوروبية . وهذه المراكب الفينيقية ذاتها التي كانت تنقل الى الغرب نتاج الشرق كانت تعود فتُدخِل الى الشرق الادنى بعض النباتات الغربية من بلاد الأغريق مثل الغار والدفلة والسوسن واللبلاب والنعنع والنرجس التي لا يزال بعض اسمائها في اللغات السامية محتفظاً بالشكل الاغريقي . وقد كانت تجارة الافاويه الرابحة حكراً على الفينيقيين . وقد احاطوا المسالك البحرية التي كانت تسلكها مراكبهم بسياج من الكتمان التام ، واسرفوا في نشر الاخبار عن المخاطر والمخاوف التي كانوا يلقونها في البلدان التي تنتج البهارات والافاويه والبخور ونقله الى سائر البلدان . فقد كان الناس في عهد الاغريق يعتقدون ان سورية كانت بلد المر والبلسم ولم يدرك الناس ان البلد الذي ينتج المر هو جنوب بلاد العرب ، وان القوافل التي كانت تنقله الى حوض المتوسط كانت القوافل السبأية الا بعد ان افتتح الاسكندر المقدوني سورية.

قرطجنة

كانت مدينة قرطجنة ، وهي احدث المستعمرات عهداً في شمالي افريقية ، انشط المدن الفينيقية واكثرها ازدهاراً وعمراناً. تقول لنا الاساطير ان زمن تأسيسها يعود الى سنة ٨١٤ ق.م ، وان مؤسستها كانت ديدو (او اليسا) اخت بيغمليون ملك صور والتي اصبحت فيما بعد إلهة المدينة الحارسة أو الشفيعة . وكانت

---

١ – Albert G. Keller, *Homeric Society*, (New York, 1902), pp. 20,43 - 4 .

اما لفظة « مر » فاصلها سومري . وقد دخلت اللغات السامية ، وعنها اخذ الاوربيون اللفظة ذاتها بواسطة اليونانية .

قرطجنة مركزاً فينيقياً تنبعث منه مختلف التيـــارات الحضارية في غربي حوض المتوسط . وقد نمت تجارتها واتسعت في القرن الثامن بحيث انها اصبحت المنافسة القوية لمدن البلاد الام التي كانت في هذه الحقبة من التـــاريخ قد شارفت على الافول. ان ازدهار صيدا وصور وغيرهما من فينيقية وعظمتها ووفرة غناها كانت تعتمد الى حد كبير على مستعمراتها المنتشرة حول البحر المتوسط . وقد ظلت هذه المستعمرات، من حيث المبدأ تابعة للمدن الام، فكانت ترسل اليها نوعاً من الجباية أو الجزية . ومن هنا كانت العلاقة بين المدن الفينيقية الام ومستعمراتها تختلف عن علاقة بلاد اليونان بمستعمراتها . ومما عجّل في زوال سيـــادة صور وعظمتها في القرن الثامن واوائل القرن السابع ق.م. قيام المستعمرات اليونانية المنافسة لها . وفي الوقت ذاته ظهرت اشور في الشرق كدولة قوية اجتاحت سورية ولبنان واخضعتهما لسيادتها . فانتقل مركز الثقل الى قرطجنة التي كان عليهـــا الآن ان تحافظ على المستعمرات وتحميها من الاعداء . فانها كانت بفضل موقعها الجغرافي في مركز ممتاز للقيام بدور القيادة الرشيدة والتنظيم الفعـــال . ولكن رغم هذا فان صور لم تتخل كلياً عن سيادتها ومركزها . فان النقود التي كانت تصكّها صور ، حتى في القرن الثاني قبل الميلاد بعد ان كانت قد فقدت مركزها السياسي والتجاري، تحمل عليها كتابة تقول « صور ام قرطجنة » ، اشارة الى الاسطورة التي ذكرناها آنفاً من ان صور اسست قرطجنة .

وقد برهن ابناء قرطجنة على انهم جديرون بان يفخروا بنسبهم الى الصورانيين وبانهم كانوا خير سلف لخير خلف . يدلك على ذلك مـــا ذكره هيرودوتس عن دهائهم في التجارة وابتكارهم مختلف الوسائل للمقايضة . يقول هيرودوتس[١] ان الملاحين الفينيقيين كانوا يبحرون الى شاطىء افريقية الغربي، وعند الشاطىء كانوا ينزلون البضائع والسلع ويشعلون النار اشعاراً بوصولهم ثم ينسحبون الى مراكبهم. فكان العبيد الافريقيون عند رؤيتهم النار على الشاطىء يتقدمون وبايديهم الذهب فيتركونه على الشاطىء كثمن ثم يتراجعون قليلا ليروا اذا كان الثمن مرضياً عند التجار الفينيقيين . فينزل الملاحون الى الشاطىء ثانية ، واذا وجدوا ان كمية الذهب ترضيهم حملوها وقفلوا راجعين ، واذا كانت الكمية اقل مما كانوا ينتظرونه

١ — Bk. VI , ch . 196 .

فانهم يعودون ثانية الى مراكبهم ويترقبون عودة العبيد ليزيدوا من كمية الذهب . بهذه الطريقة من المساومة الصامتة يقول لنا هيرودوتس ، كان الفريقان يتفقان على البيـع والشراء ـ كما اخبرني الرواة، « دون ان يغش الواحد لآخر » .

وهكذا اتسعت تجارة قرطجنة وقويت سيادتها السياسية حتى انها اصبحت في القرن السادس قبل الميلاد على رأس امبراطورية ضخمة متسعة الارجاء تمتد شرقاً من حدود قيريني (ليبيا الآن) الى اعمدة هرقل (جبل طارق) وتشمل فيما تشمل جزر الباليار ومالطة وسردينية ومستعمرات اخرى منتشرة على شواطىء اسبانية وفرنسة . أما المدن الام مثل صيدا وصور ، فانها لم تستطع ان تنشىء لنفسهـا امبراطوريات مماثلة لامبراطورية قرطجنة . وأنّى لها ذلك وسيوف مصر واشور مُصلّتة فوقها ، وشبح الاجتياح يهددها مرة بعد مرة ؟ ولكن اتساع الرقعـة الجغرافية التي كانت تسودها قرطجنة ، كان ولا بد ان يضعها وجهـاً الى وجه امام قوة جديدة ناشئة في اواسط حوض المتوسط : رومة . وكان لا بـد لهاتين القوتين من ان تصطدما حول قضية رئيسية ، هي السيادة البحريـة . ذلك لان اساطيل قرطجنة كانت تعتبر المتوسط بحيرة خاصة بهـا ، فكانت تقول للرومان انه لا يحق لهم ان يغسلوا ايديهم بمياهه دون الحصول على اذن من قرطجنة !! وقد بلغ الصراع بين هاتين القوتين للسيطرة على المتوسط ذروته عندما اقدم حنّيبعل[١] عام ٢١٨ ق. م. على مهاجمة الرومان في عقر دارهم. كان هذا حلماً يدغدغ خياله ردحاً من الزمن ، وقد وقف حياته لتحقيقه . فسير جيشه نحو ايطاليـة بطريق اسبانية فجبـال الالب ، لينقض على رومة من الشمال . وقـد ظل على الارض الايطالية مدة ١٥ سنة يشن على الرومان حرباً شعواء لم تسلم منها رومة ذاتهـا . غير ان نهـاية حنيبعل كانت قد قربت . فان قرطجنة استدعته ليذود عنها غائلة الحرب . فعاد لمقابلة جيوش الرومان . ولكنه غلب على امره في موقعـة زاما المشهورة ، جنوبي غربي قرطجنة . وفي عام ١٩٦ هرب الى صور . ومن هنـاك التحق بانطيوخس السلوقي ملك سورية ليكون له عونا في حربه ضد رومة عدوة قرطجنة اللدودة . ولكن النجاح لم يكن حليفه . وعندما سدت في وجهه منافذ الهرب فضل الانتحار . كان ذلك عام ١٨٣ في آسية الصغرى . وآخر كلمـات

١ ـ ومعنى اسمه نعمة او بركة من البعل (من الحنان) .

تفوه بها هذا العسكري الشهيد كانت « ان موتي سيوفر على الرومان مؤونة انتظار ميتة رجل طاعن في السن كانوا يكرهونه » .

ولم يكن نصيب مدينة قرطجنة بأوفر حظاً من نصيبه في الحياة . نعم ، انهـــا استعادت فوراً قوتها بعد الهزيمة ونعمت بشيء من الوفر والازدهار . ولكن هذه الحيوية ذاتها التي ابدتها قرطجنة تركت في نفس القائد الروماني كاتو ، وفي نفوس غيره من قادة الرومان ، انطباعـــاً شديداً ، جعل شعارهم : « يجب ان تزول قرطجنة من الوجود » . وقد أزالهـــا الرومان من الوجود فعلا . ففي سنه ١٤٦ ق م. احرقها الرومان وظلت النار مشتعلة فيها مدة ١٧ يوماً حتى ان معـــالم موقعها الجغرافي طمر بركام من الرماد والخرائب ، واعمل المحراث فيه كأنه حقل يفلح ، ولعنوا الارض التي كانت تقوم عليها المدينة . ونحن اذا حاولنـــا اصدار حكم على الرومان، حتى وان كان حكماً يقوم على عرف تلك العصور ومقاييسها ، فاننا لا نتمالك عن القول بان قسوة الرومان تلك لم تكن لتشرف اسمهم .

الفصل الثامن

الادب والدين ونواح حضارية اخرى

كان الفينيقي في حقلي التجارة والصناعة وسيطا ، اي انه كان يقتبس ويتعلم ويتبنى ما حققه غيره ، ثم انه بفضل موقعه الجغرافي وبفضل اقدامه وجرأته كان يعنى بنقل هذه البضائع والسلع للمقايضة بها في بلدان حوض المتوسط . كما انه كان وسيطا في عالم التجارة والصناعة فانه كان ايضا وسيطا في حقل الفكر والفن والدين . فان مراكبه وقوافله البرية التي كانت تنقل البضائع والسلع كانت تنقل معها ايضا اموراً غير مادية ، اموراً غير ملموسة ، ولكنها كانت في جوهرها اهم بكثير من البضائع المادية لرقي الانسان وتقدمه . هذه الامور غير المادية التي كان الفينيقي ينقلها انّى توجه كانت عناصر حضارية متنوعـــة . فان الاغريق مثلا اصبحوا تلامذة للفينيقيين في الفلاحـــة والاستعمار ، واقتبسوا عنهم الكثير في حقل الادب والدين والفن . ولم يقتصر نشاط اللبناني على نشر الحضارة التي نشأت على الساحل اللبناني بل انه جعل من البحر الابيض المتوسط مركز اشعاع حضاري تنبعث منه تيارات فكرية وروحية من وادي النيل ووادي الرافدين .

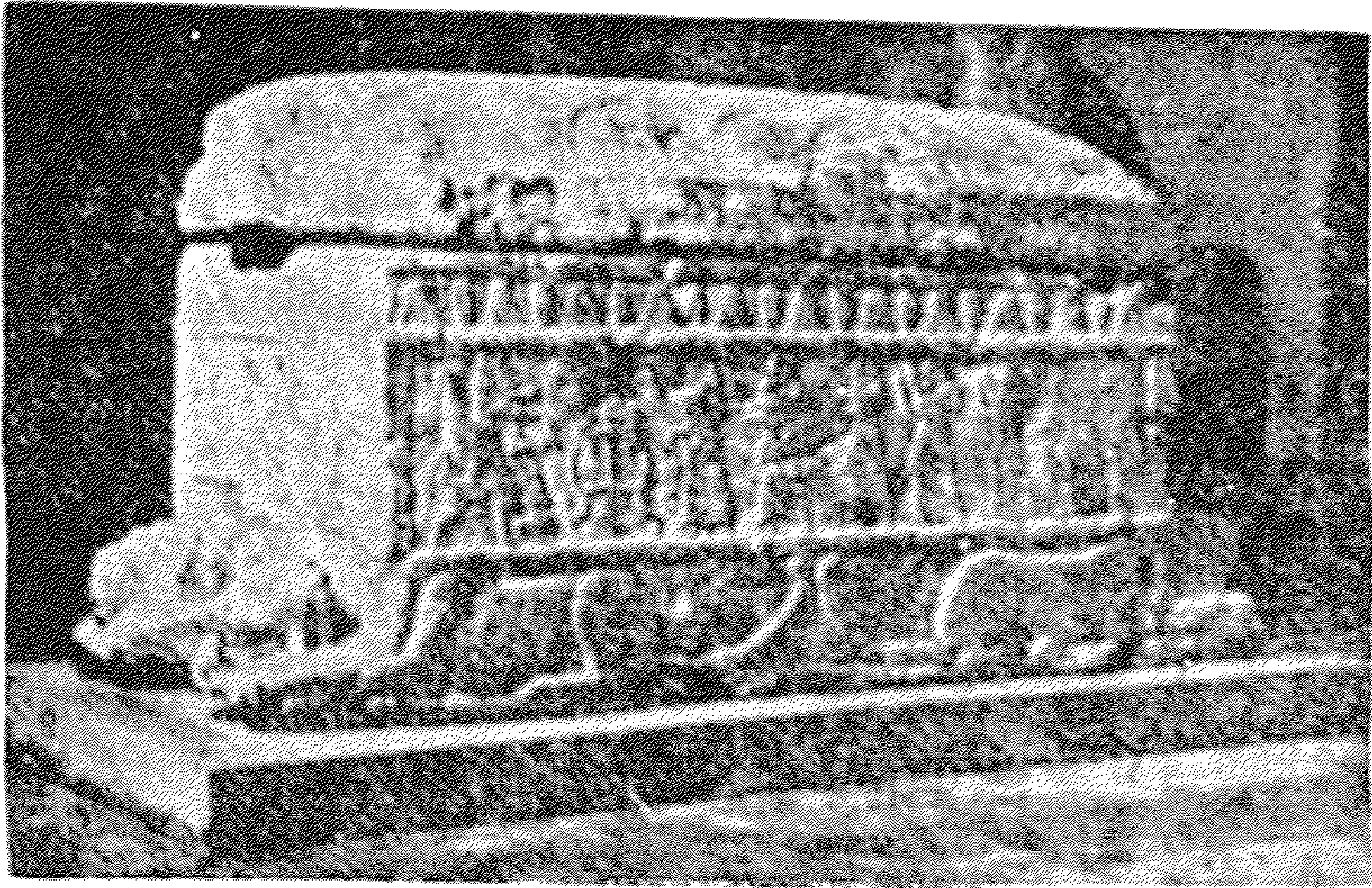
حرف الهجاء

لا شك بان اعظم نعمة اسبغها الفينيقيون على الحضارة الانسانية كانت اكتشاف الحرف . كان الفينيقيون اول شعب استعمل حروفا هجائية صرفة في الكتابة[1] . وكانوا الى جانب هذا ناقلي هذا الحرف وناشريه في العالم المتمدن آنذاك . قد يكون ان فكرة الكتابة الهجائية (مقابلة لها بالكتابة الصورية او المقطعية) اتتهم من المصريين

---

١ ــ سبقت الفينيقيين شعوب اخرى في وضع نظام للكتابـــة كالخط المسماري والهـــيروغليفي ولكنهم كانوا اول من جرد الصور التي كانت تستعمل لكتابـــة الكلمة او المقطع واستعاضوا عن هذا النظام بوضع رموز ، كل رمز منها يمثل وحدة صوتية (فونيم) . المترجم

عن طريق سيناء. ذلك ان الكتابة المصرية كانت في اصلها كتابة صُوَرية، ثم انهم على مر الزمن استعملوا اربعين صورة من صور الكتابة عندهم كرموز لقيم صوتية او كوحدات هجائية . ولكن المصري كان محافظاً . فانه لم يخط الخطوة التالية في جعل هذه الرموز حروف هجاء دون اللجوء الى صور اخرى في كتابة الكلمة ، بل ان كتابته ظلت مزيجاً مزعجاً من صور ورموز وحروف هجاء ، مما يجعل القراءة امراً صعباً . ويظهر انه في اواخر القرن السابع عشر او عند مستهل القرن السادس عشر لحظ بعض الاسرى الكنعانيين — او ربما بعض العمال في التعدين — في شبه جزيرة سيناء ان كتابة اسيادهم المصريين كتابة صعبة معقدة . لم يستطيعوا تعلمها او اتقان كتابتها فعمدوا الى اتخاذ الرموز التي تمثل حروفاً صحيحة كاساس في تهجئة الكلمة وقد سموا هذه الرموز باسماء ساميّة واعطوها قيمة صوتية تلائم الاصوات اللغوية في لسانهم . فانهم ، مثلا ، اتخذوا الرمز الذي يشير الى رأس الثور وسموه باسم في لسانهم : « الف » بقطع النظر عن اسمه في اللسان المصري ، واصبحت كلمة « الف » (صورة رأس الثور) حسب مبدأ الاكروفونيا [١] تمثل



ناووس احيرام ، وهو الآن في المتحف الوطني في بيروت

١ — الاكروفونيا كلمة يونانية تعني الصوت اللغوي في اول الكلمة . ووضع حروف الهجاء تم على هذا المبدأ . فان صورة « كاب » مثلا لا تمثل كلباً بل الصوت اللغوي او الفونيم الاول في الكلمة ، وصورة هرة لا تمثل الهرة بل الوحدة الصوتية « ه » . (المترجم)

الوحدة الصوتيه التي تبدأ بها الكلمة اي «همزة» محققة وملينة . ومبدأ الاكروفانيا هذا لا يزال شائعاً في كثير من المدارس والكتب لتعليم حروف الهجاء . فيقال للطفل ب : بطة ، د : دجاجه الخ . وعلى هذا الاساس وُضِع الهجاء الفينيقي. فانهم جعلوا صورة البيت ، وهو في الفينيقية (beth) رمزاً للوحدة الصوتية اللغوية « ب » وسموا الحرف « بث » . وصورة اليد اصبحت رمزاً يمثل حرف الياء ، وسموا الحرف « يود » وهو اليد في لغتنا . والرمز الذي كان يشير الى الماء وهو في لغتهم mem اصبح رمزاً يشير للوحدة الصوتية اللغوية الممثلة بحرف الميم، وسموا الحرف ايضاً mem ، والرأس ، وهو في لغتهم resh اصبح رمزاً لحرف الراء . [1] ويظهر ان الفينيقيين الذين كان لهم صلات تجارية مع شبه جزيرة سيناء تعلموا هذه الحروف وتبنوها واضافوا اليها حروفا اخرى ، وفي جملتها اصبحت حروف الهجاء الفينيقية المشهورة ، وعددها ٢٢ حرفاً ، وجميعها حروف صحيحة .

وهنالك هجاء آخر ينسب الى جبيل ، وهو خطي مستقيم ، يتألف من ٢٢ حرفا صحيحا ويكتب من اليمين الى الشمال . والظاهر ان الكتابة التي تسير من اليمين الى الشمال بدأت اولا بالحفر في الصخر . فان القابض على ازميله بشماله والمطرقة في يمينه يستسهل امر الحفر من اليمين الى الشمال . اما الكتابة التي تسير من الشمال الى اليمين فانها تشير الى الكتابة التي يستعمل فيها الكاتبُ القلمَ والحبرَ والورق . وقد كان لاوغاريت نظام كتابة يختلف عن الحرف الفينيقي والهجاء الجبيلي . وهو نظام كتابة يقوم على الخط المسماري الذي كان شائعاً عندهم . وكانوا يكتبونه بقلم يُغرَز في الواح من الطين الطري ثم يشوى كما كان يفعل اهل بابل واشور [2] . والنقوش التي وجدت في اوغاريت عام ١٩٢٩ وما بعده ، والمكتوبة على آجرّات ، جميعها خُطّت بهذا النوع من الكتابة . ويعود تاريخها الى

---

١ — Cf. David Diringer, *The Alphabet* (New York, 1948), p . 200 ; Robert H. Pfeiffer , *Ancient Alphabets* , (Cambridge , Mass . , 1947), pls . X , XI .

٢ — Johannes Friedrich in *Der alte Orient*, vol. XXXIII (1933) Nos. 1 - 2, pp. 18 - 34; Zellig Harris, *A Grammar of the Phoenician Language* (New Haven, 1936), pp. 11 - 17 .

اوائل القرن الرابع عشر ، وبعضها الى عهود اقدم من هذا التاريخ. وقد عثر عام ١٩٤٩ في رأس الشمرا على آجرة صغيرة كتب عليها الالفباء بكامل حروفها الاثنين والعشرين ، مرتبة على ترتيب حروف الهجاء كما هي عند الآراميين والعبران ، أي ترتيب ابجد هوّز حطي ... الخ . أما ترتيب حروف الهجاء العربية فقد طرأ عليه تعديل يجعله يختلف عن ترتيب حروف الهجاء التي اقتبس عنها . وفضلا عن هذا ، فان العرب اضافوا الروادف وهي ث خ ذ ض ظ غ . وقد كان للكنعانيين انواع اخرى من الكتابة المعقدة الى جانب النظامَين اللذين وضعوهما . وأخيراً استقروا على واحد منها : الحروف الفينيقية المعروفة . نشير بذلك الى الكتابة المقطعية التي وضعت على مثال الكتابة الهيروغلوفية المصرية اي المؤلفة من رموز او صور يشير الرمز فيها الى مقطع لا الى هجاء واحد . وقد وجدت نقوش في جبيل عام ١٩٣٠ مكتوبة بهذا النظام[١] — وجميعها على حجارة أو على نحاس، وهي من اقدم النماذج اللغوية للسان الكنعاني (حوالي ١٣٧٥). وقد استعيض عن هذا النظام المقطعي بالكتابة البابلية المسمارية فيما بعد ، وهي الكتابة التي خطت بها رسائل تل العمارنة المشهورة . وفي اثناء الالف الثاني ق.م. ظهرت في فلسطين محاولات عدة للكتابة هجائياً . ولكن في الالف الاخيرة قبل المسيح اختفت جميع هذه الانظمة الكتابية وتُنوسي امرها . وبقيت الحروف الهجائية الفينيقية وحدها في الميدان لا ينازعها في مكانتها منازع. ان اقدم نقش فينيقي تام سهل الفهم مكتوب بالهجاء الكنعاني نقشٌ يتألف من خمسة اسطر محفورة على حجر كلسي عَثَر عليه المستشرق الافرنسي دينان في قلعة جبيل القديمة . وفي هذا النقش اشارة الى بناء سور اقامه شافاط — بعل بن ايلي — بعل ابن يمي — ملك[٢]. وهؤلاء جميعاً كانوا من ملوك جبيل . وارجاع تاريخ هذا النقش الى القرن السابع عشر في نظرنا تقدير عال ، اي اننا نعتقد انه يعود الى زمن اقرب الينا من الزمن الذي حدده دينان . ولا شك في ان الحروف الهجائية التي كتب بها هذا النقش القديم تبدو باشكال تدل على انها اقدم عهداً من الحروف التي خط بها نقش الملك احيرام

---

١ — Maurice Dunand , *Byblia Grammata* (Beirut , 1945), pp . 135 seq .

٢ — هنالك ملك جبيلي آخر يعرف بهذا الاسم . وقد ترك لنا نقشاً بالحروف الفينيقية على نصب للفرعون اوزركون ، حوالي ٩٠٠ ق.م. راجع Conteneau , p . 255

المشهور الذي عثر عليه المستشرق الافرنسي مونته عام ١٩٢٣ في جبيل ، والذي يعود عهده الى القرن الحادي عشر قبل المسيح .

الادب

ان انواع الهجاء المختلفة التي اشرنا اليها آنفاً ، والتي كانت شائعة بين الناس في هذه المنطقة تدل دلالة واضحة على تعدد التيارات الحضارية من وادي الرافدين ومصر وفينيقية وتلاقحها وتشير الى ان تبادل الافكار العلمية والدينية بين هذه البلدان اصبح امراً ميسوراً . ولكن مما يؤسف له انه لم تصلنا نماذج كثيرة من هذا الادب . فان الفينيقيين كانوا يكتبون على مواد قابلة للتفتت والاضمحلال : على البردي. وفضلا عن هذا فان اكثر ما كان يكتبه الفينيقيون كان من نوع المعاملات التجارية . ومن مهازل القدر ان يكون الشعب الذي وضع الحرف قد خلف لنا قليلا من الحرف . واكثر النقوش الفينيقية الطويلة تعود الى زمن متأخر : ما بين القرن الخامس والثاني ق.م. وفي فينيقية ذاتها لا نعثر على اي نقش كتابي فينيقي بعد ظهور المسيحية . اما في المغرب فقد ظلت اللغة الفينيقية بشكلها القرطجني حية حتى ظهور الاسلام . وقد كان العثور على نقوش مزدوجة اللغة في قبرص ومالطة، اي نقوش مكتوبة باللغة الاغريقية والفينيقية جنباً الى جنب ، حافزاً قوياً جعل المستشرقين الافرنسيين في منتصف القرن الثامن عشر يبذلون قصارى جهدهم لحل رموز الحرف الفينيقي وقراءة النصوص . وقد كللت جهود المستشرقين بنشر مؤلف قام به المستشرق الالماني المعروف جاسينيوس (Gesenius) عام ١٨٣٧ ، وفيه قراءة وتفسير لجميع النقوش الفينيقية التي كانت معروفة في زمنه .

اوغاريت

ولكن من حظ التاريخ ان الكنعانيين ، رغم انهم لم يخلفوا ارثاً ادبياً عرف باسمهم ، فان جيرانهم ، ولا سيما العبرانيون ، اقتبسوا عنهم الكثير في حقل الادب وحفظوه لنا بشكل كتابات مقدسة . وهذا يصدق على بعض القطع الشعرية الغنائية في اسفار العهد القديم والاقوال الحِكَمية كما نجدها في سفر امثال سليمان والمزامير التي تعزى الى داود ، وفي نشيد الانشاد ، وفي الاساطير المقدسة المضمنة في سفر

التكوين والانبياء وهذه حقيقة لم يعرف عنها العالم شيئاً اكيداً الا بعد ان اكتشفت مدينة كنعانية اغفلها الزمن حقباً ، نعني مدينة اوغاريت .

في عام ١٩٢٩ عثر فلاح سوري مصادفة على بلاطة اقتلعتها سكة محراثه بينما كان يحرث حقله في مكان يسمى رأس الشمرا شمالي مدينة اللاذقية . هذه اللقية كانت السبب في بدء حفريات في تل مشرف على البحر قامت بها دائرة الآثار في المفوضية الافرنسية تحت اشراف مستشرق افرنسي[١]. وقد اسفرت الحفريات في هذا التل عن وجود طبقات لمدن بنيت الواحدة على اركام الاخرى . كانت هذه مدينة اوغاريت[٢] التي باكتشافها استعاد التاريخ جزءاً لا يستهان به من الادب الكنعاني الذي اغفله الزمن طويلا . ويبدو من الآثار التي وجدت هناك ان اقدم مستوطن للانسان فيها يعود الى اواخر العصر الحجري الجديد. وفي اواخر الالف الثالث وجد الكنعانيون الى المدينة سبيلا فوطدوا اركانهم واقاموا لانفسهم مرتكزاً في ميناء المدينة الذي يعرف الآن بالميناء البيضاء . وقد وجد في المدينة هيكلان الواحد للاله بعل والثاني للاله داجون ـ الوارد ذكره في التوراة ـ وكلاهما يعودان في الزمن الى اوائل الالف الثاني قبل المسيح . وحوالي ١٤٠٠ ق . م. بلغت مدينة اوغاريت الذروة في الازدهار التجاري، وذلك بسبب سيل من التجارة التي كانت تمر فيها ، وتنتقل من مينائها البحري الى مختلف الموانىء في البحر المتوسط . وكانت صلاتها الثقافية مع كريت وثيقة . وقد دامت هذه الصلات زمناً طويلا . وكان ملكها في هذه الفترة نقمد (نقمدا ومعناه نقمة الاله هدد) الذي جعل قواعد اعمدة قصره مطلية بالفضة الخالصة .

ولا جدال في ان اثمن ما اسفرت عنه الحفريات الواح خزفية او آجرات مكتوب عليها كتابة هجائية بالخط المسماري . وقد وجدت هذه الآجرات في منطقة الهيكل . ويظهر ان هذه الكتابات كانت قد نقلت في اوائل القرن الرابع عشر ق . م عن اصل اقدم من هذا العهد بكثير . واما اللغة التي كتبت بها فهي لهجة كنعانية .

١ — F. A, Schaeffer in *Syria*, vol. X (1929), pp. 285-97, Schaeffer, *Ugaritica*, pp. 3, seq .

٢ — اوغاريت لفظ دخيل من اللغة السومرية ومعناه « حقل» ورأس الشمرا هو الاسم الحديث للتل وقد سمي بهذا الاسم ربما لكثرة نبتة الشمرا التي تنبت هناك على انقاض المدينة القديمة .

واما المحتويات فان اكثرها يدور حول الادب الديني والطقوس والفروض التعبدية . واهم هذه الكتابات ملحمة شعرية تدور حـــول الصراع القائم بين اله الخصب والخضار ، عليّـان ــ بعل ، وخصمه اللدود « موت » اي اله الموت . في هـــذه الملحمة ينتصر اله الموت اولا على خصمه عليان ــ بعـــل . وان المرء ليدرك بيسر سر انتصار الموت على الحياة في بقعة من الارض صيفها طويل محرق يقضي على النبت والخضار . ولكن النصر لا يحالف اله الموت طويلا . اذ انه عنـــدما يحل فصل الامطار في الخريف وينعش الارض العطشى يعود البعل فينتصر على الموت. هذه في جوهرهـــا قصة ادونيس وعشتروت الفينيقية وقصة اوسيرس المصرية : قصة الصراع بين الموت والحياة .

في هذا الادب الاوغاريتي صور متشابهات في اللغة والفكر تذكرنا الى حـــد بعيد بسفر ايوب في العهد القديم . وكذلك نجد شبهاً قوياً في المفردات وفي وزن الشعر والتأليف الادبي بينها وبين المزامير . فان الشعر الاوغـــاريتي يشبه الشعر العبري في كونه نوعا من الشعر الذي يقوم على الازدواج التقابلي .

نعم ، ان اوغاريت لم تكن واقعة ضمن حـــدود فينيقية . انما كانت ، هذه المدينة التجارية العظيمة واقعة ضمن منطقة الحضارة الفينيقية . فقد كانت يوماً من الايام تابعة لمـــدينة بيروت كما يستدل من رسالة بعث بها ملك بيروت الى ابنه حاكم اوغاريت[١] . وقد خربت المدينة اولا بالزلزال والحريق . كان ذلك حوالي ١٣٦٥ ق . م . وما ان اعيد بناؤها حتى هاجمتها شعوب من وراء البحر ــ وقد اشرنا الى هذه الشعوب سابقا ــ وخربتها حوالي ١٢٠٠ ق . م . وقد بقيت خرابا الى يومنا هذا

تأليه الخصب وعبادته

اذا استثنينا الادب الاوغاريتي الذي اشرنا اليه آنفا فان معلوماتنا الاولية عن الدين الكنعاني ضيئلة جداً . فالرويات الاغريقية ، بما في ذلك اخبار فيلو الجبيلي

[1] Ch. Virolleaud in *Syria*, vol. XXI, (1940), pp. 247 seq.

ولوسيان السموساطي (وهي بلدة قديمة اسمها الحالي سميساط) من شمالي سورية اولا متأخرة في الزمن ، وثانيـــا على كثير من الغموض والابهام . وكذلك قل في المعلومات المستقاة من اسفار العهد القديم . فانها اخبار لعبت بها اقلام المؤرخين العبران الذين كانوا يناوئون الفينيقيين العداء الشديد . واما المعلومات التي تحدرت الينا عن طريق آباء الكنيسة المسيحية فانها معلومات ثانويـــة ، اي انها مستقاة من مصادر قديمة ، او انها تعتمد روايات قديمة لا نعلم عنها الشيء الكثير . ولكن هذه المصادر، على قلتها وغموضها، اذا ضمت الى ما توصلت اليه الحفريات الحديثة فانها تشير بوضوح الى ان العنصر الاساسي في الدين الكنعـــاني القـــديم كان تأليـــه قوى الخصب والانتاج وعبادتها . وهـــذا طبيعي عند شعب يعتمد في كيانه على الزراعة وتربية الماشية في بقعة من الارض سقوط الامطار فيها ليس بالامر الاكيد الثابت . وهذا يصدق الى حد كبير على جميع ديانات الشعوب السامية . وليس من المستبعد ان يكون الكنعانيون قد اقتبسوا الكثير من الامور الدينية عن جيرانهم البابليين الى الشمال ومن المصريين الى الجنوب . ولكن يظهر ايضا انهـــم اعطوا بقدر ما اخذوا عن غيرهم من الشعوب .

من ابرز مظاهر هذه العبادة السامية التي تدور حول تأليه الخصب وعبادته البكاء والنواح على موت الآلهة الخضرة والقيام بطقوس من شأنها ان تعين الالاهة على الانتصار على خصمها إله الموت وإله العالم السفلي ، وان تؤمن المطر للمواسم الجديدة . ومن مظاهر هذه العبادة الابتهاج بقيام الاله من الموت . هـــذا الاله المنتصر على الموت ، البعل ، يتزوج الاهة الخصب ، عشتروت ، فيخضرُّ وجـــه الارض في الربيع . وقد تسامت هذه العبادة وصعدت عند العبران فاصبحت ترمز الى الرابطة التي تربط الاله يهوه بشعبه . وهذه الفكرة الاساسية ، إله يموت ليقوم منتصراً على الموت ، تُصبح في التقليد المسيحي فكرة حية رائعة .

تموز وعشتروت

ان فكرة موت اله الخضرة في الصيف وقيـــامه في الربيـــع ، كانت تقرن بقوة الشمس وحرارتها وانتصارها على الشتاء وعواصفه الباردة هذه الفكرة ،



نبع نهر ابراهيم في افقا وكان من الينابيع المقدسة عند الفينيقيين

فكرة انتصار الشمس على الشتاء . تتلبسها اسطورة تموز[١] . كان الكنعانيون يسمون هذا الاله (تموز) «ادون» ، ومعناه السيد والمولى . وعنهم اخذ الاغريق الاسم وتغير ، باضافة السين في آخره ، الى ادونيس أي سيدي ومولاي . أما في

١ — ان لفظ «تموز» يعود الى اللغة السومرية في اصله ، ومعناه «الابن الامين» وقد سمي الشهر الرابع في السنة السامية باسم هذا الاله : تموز ، وهو الشهر السابع في التقويم الغربي الحديث . كان هذا الشهر يكرس لعبادته . راجع كتاب فريحة ، الاشهر العربية وتفسير معانيها ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٢ .

مصر فان تموز يصبح اوسيرس . وبهذا الاسم ، ادونيس ، أصبح اشهر إله بين آلهة السوريين . وقد دخلت عبادته بلاد الاغريق . وفي القرن الخامس قبل الميلاد كانت عبادته راسخة الاركان . أما في فينيقية فان قصة ادونيس وعشتروت ، سيدة جبيل ، تركزت في افقا عند نبع نهر ابراهيم . هنا ، في اعالي لبنان ، تقول القصة ان خنزيراً برياً هاجم تموز وأنشب نابه في جسمه ، فحُمِل وهو ينـازع سكرات الموت الى زوجته عشتروت[١] . ومنذ ذلك الحين اصبحت ميـاه النهر تصطبغ بدمه عاماً بعد عام[٢] . (ويأتينا علماء الآثار فيفسدون علينا جمـال الاسطورة بقولهم ان لون ماء النهر في الربيع احمر لأن امطار الربيع تجرف التربة الحمراء من على سفوح التلال بعد فلاحتها ، وعندما تصل البحر تُعكِّر لون ماء البحر) . وعندما يكون تموز في العـالم السفلي يذبل النبت على وجه الارض ثم يموت . ويظل تموز بين الاموات الى ان تنزل عشتروت الى العالم السفلي ، عالم الموتى ، فتخلصه وتعود به الى وجه الارض . وقد نشأت في جبيل على بعد خمسة اميال من مصب نهر ادونيس الى الشمال شعائر وطقوس لاحياء ذكرى موته وقيامه. ومن جملتها ان النساء كن يذهبن الى الحقول ليفتشن عن ادونيس الميت . وكانت هذه الشعائر الدينية تدوم اسبوعاً كاملا. وعند قيام ادونيس من الموت كانت تستولي موجة من الفرح تشبه الجنون على عُبّاده وعابداته. النساء يقدمن عفافهن قرابين والرجال يضحون برجوليتهم ، ويقدمون انفسهم خداماً خصياناً في هيكله . وقد اشار الشاعر ملتون في ملحمته الرائعة « الفردوس المفقود »[٣] الى عبادة ادونيس عند وصفه الآلهة الكنعانية تمر في استعراض امام الشيطان :

« ثم جاء بعدهم تموز
تموز الذي جرح في اعالي لبنان

---

١ — على صخرة في قرية الغينة التي تبعد ١٢ ميلا عن شاطىء البحر جنوبي نهر ابراهيم تمثـال لتموز يصوره وهو يصارع الخنزير البري .

٢ — وهنالك شكل آخر للاسطورة يحمل ادونيس يتغير الى زهر شقائق النعمان . ولفظة «نعمان» كانت تطلق وصفاً على ادونيس . و « شقائق النعمان » معناها جروح ادونيس . وفي الانكليزيـة شقائق النعمان تسمى « anemone » ، واللفظة دخلت الانكليزية عن طريق الاغريقية ، واصل اللفظ الاغريقي سامي : نعمان ، دخل اللغة الاغريقية عن طريق السريانية .

٣ — *Paradise Lost*; Bk. I, 11. 446 - 52.

فراحت الفتيات السوريات ينظمن فيه اشعار الحب
ويغنينها في يوم قائظ الحاناً شجية . وتلطخت مياه النهر بدم ادونيس
فراحت مياه النهر الارجوانية تتدحرج من اعالي الصخرة مسرعة الى البحر » .

ظلت عبادة ادونيس وعشتروت عبادة شائعة في لبنان حتى العهد الروماني . فقد زار لوشيان، مؤرخ ورحالة سوري شهير ، هيكلهما في جبيل . ويقول لنا في « الآلهة السورية » (الفقرة السادسة) :

« ... كل سنة عند احياء ذكرى هذه المأساة يقرعون صدورهم وينوحون ويقومون بطقوس سرية ورموز تعبدية في جميع القرى والدساكر . واذا ما فرغوا من البكاء والنواح قدموا الذبائح لادونيس على انه اله قد مات. ثم لايلبثون طويلا ان يعيدوا ذكرى قيامه من الموت، كما يدعون، رافعين شبهاً له مطوفين به . ثم انهم يحلقون شعور رؤوسهم ، تماما كما يفعل المصريون عند موت إلههم آبيس . واذا رفضت النساء ان يحلقن شعور رؤوسهن عليهن ان يخضعن لقصاص وهو الوقوف النهار بكامله الى جوانب الطرقات عارضات اجسادهن لمن يدفع ثمنها »[١] .

ان ظاهرة الحياة والموت لا تقتصر على الحيوان والنبات انما تشمل الأنسان ايضا. فالابقاء على الحياة وديمومة النسل جعلت الانسان ينظر الى العلاقة الجنسية في الحياة نظرة خاصة كان من نتائجها ظهور البغاء المقدّس الذي كان يقرن بتأليه الخصب وعبادته . فقد كانت الاباحة الجنسية ، وهي عادة سامية قديمة ، عنصراً رئيسياً في الاعياد الزراعية عند اقوام آخرين سواء اكان ذلك في العالم القديم ام في العالم الجديد . فقد مارسته بابل، وعرفته كل من قبرص وبلاد الاغريق وصقلية وقرطجنة وسواها .[٢] وفي العهد القديم اشارات الى « بغايا الهيكل »[٣] وكان في هيا كل عرب الجنوب قبل الاسلام عدد من الجواري يخدمن في الهيكل. ويذكر لنا مؤرخ

١ — Herbert A. Strong, *The Syrian Goddess,* ed. John Garstang (London, 1913) , p. 46.
٢ — Herodotus , Bk . I , ch . 199; Strabo , Bk. XVI ch . I , sec . 20; Bk. VI ch . 2 , sec . 6; Baruch 6: 43.
٣ — حزقيال ٨ : ١٤ . ميخا ١ : ٧ . تثنية ٢٣ : ١٨

عربي[1] انه كان في حضرموت بغايا « خضبن ايديهن بالحناء وقرعن طبولهن » عندما بلغهن موت النبي محمد . وكان في مدينة كورنثوس هيكل لافروديت (الزهرة) وهي مثيلة عشتروت ، فيه الف جارية مما الصق بالمدينة عاراً اشار اليه بولس الرسول عند كتابته رسالة الى الجالية المسيحية هناك . [2] وقد ظهرت عبادة الخصب في بلاد الاغريق عند مستهل القرن الخامس ق م. وليس بمستبعد ان تكون قد دخلت من الشرق . ونرجح ان غياب عدد كبير من الذكور في فينيقية بسبب اسفارهم البحرية الطويلة كان من الاسباب التي ادت الى ترسيخ هذه العبادة. ولعل السماح للضيوف في الاعراس بتقبيل العروس بقية باقية من ذلك العهد. وقد يكون ايضاً ان حلق شعر رأس الراهبة المسيحية عند تكريسها للرب بقية عادة قديمة عندما كان يحلق شعر المرأة قبل تكريسها بغيّة . وكذلك الختان فانه ايضاً عادة سامية قديمة . وقد يكون ان هذه العادة بدأت كتقديم الغرلة جزءاً من جسد الانسان قرباناً لالهة الخصب .وكان الختان ايضاً علامة من العلامات التي كانت تفرق قبيلة عن قبيلة . وعندما اعتنق اللبنانيون وبعض الشعوب السامية الاخرى الدين المسيحي تخلوا عن هذه العادة . انما بقيت معروفة في الاسلام واليهودية .

وعند المصريين اسطورة مقدسة تشبه قصة تموز وعشتروت شبهاً تاماً . تلك كانت قصة اوسيروس وايسس التي يبدو ان اصولها سامية. يقول لنا لوشيان المؤرخ السوري الذي اشرنا اليه سابقاً (في الفقرة السابعة من مؤلفه) ان اهل جبيل كانوا يزعمون بان الاله المصري اوسيرس كان قد دفن في مدينتهم . وقد ورد في رواية متأخرة في الزمن عن آلام اوسيرس — وآلام اوسيرس اقدس قصة دينية مصرية — ان جسده قُطّع ارباً ودفن تحت اثلة في مدينة جبلة [3] . وقد كان في مدينة نوكراتس — ومن المرجح انها كانت مستعمرة فينيقية في مصر — هيكل

---

١ — ابن حبيب : كتاب المحبر طبعة ILse Lichtenstadter (حيدر اباد ١٩٤٢) ص . ١٨٤—١٨٩ . الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، طبعة دي غويه ، الجزء الأول (ليدن ١٨٩٠) ص ٢٠١٤ — ٢٠١٥ . Joseph Chelhod; *Le Sacrifice chez les Arabes* (paris, **1955**), pp. **155** seq .

٢ — رسالة بولس الاولى الى كورنثوس ٦ : ٩ — ٢٠ والرسالة الثانية ١٢ : ٢١

٣ — Plutarch , *De Iside et Osiride* , sec . **15** وشجر الاثل (واللفظة مصرية الاصل) يقرن باله الموت. فان شاوول وابناءه دفنوا تحت اثلة (صموئيل الاول ٣١ : ١٣)

لافروديت عشتروت يعود تاريخه الى ٦٨٨ ق .م . وكذلك كان في مدينة كنوبس – ويرجح ان هذه ايضاً كانت مستعمرة فينيقية في مصر–هيكل مكرس لهرقل[١] الذي لا يُشَكُّ في انه كان الاله الصوري ملقارت .

آلهة كنعان

كانت الديانة الكنعانية ديانة سامية . وقد كانت تقوم في جوهرها على تأليه قوى الطبيعة وعبادتها . وكان للساميين إلهان رئيسيان وان اختلفا في الاسم عند مختلف الشعوب السامية . هذان الالهان هما إله السماء وهو الالٰه الاب ، والإلاهة الارض ، وهي الالاهة الام . وقد كانت آلهتهم تجسيداً لقوى الطبيعة لا سيما الماء والخضار ، قوام كل حياة . ففي مدينة اوغاريت كان إله السماء الاب يعرف باسم ايل (Él) – وقد كان مقامه على الارجح في افقا – وكانت الالاهة الام ، أي الارض ، تعرف باسم عشتروت . وقد كان ايل ، الاله الاول في الديانة الكنعانية العبرية ، الاله الخالق ، الاله الاب لكل آلهة اخرى . وقد كانوا يتصوزرونه الهاً طاعناً في السن يرأس الآلهة جميعاً . أما عند الآرامبين فقد كان رئيس الآلهة وأروعها جلالا وحسناً هدد ، إله العاصفة والخصب . وكان الاله عليان[٢] الفتي النشيط يلي الاله ايل في الرفعة والمقام والقيادة . وعليان هذا كان يعرف بالبعل (اي السيد او المالك) . ولذا فانهم ينظرون اليه على انه حارس او مالك ، ولعله كان الهاً خاصاً بمدينة أو اقليم . وكان المطر والغلال ضمن نطاق نفوذه ، وكانت الينابيع والانهار في يده . وكان الهاً يُسَرُّ بالاعياد التي كانت تقام له ، ويرضى عن الذبائح التي تقدم اليه قرابين . وقد كانت الذبيحة في معناها الجوهري وليمة مقدسة يشترك فيها المعبود والعابدون ، اي انها كانت نوعاً من الشراكة او الاتحاد المقدس . وبما انه لم يكن عند الفينيقيين نحت او تصوير فان الاله الكنعاني كان يمثل بعمود بسيط من الحجارة .

---

١ – Herodotus , BK . II ch . 113 .

٢ – لا علاقة لهذا الاله ، عليان ، بالاله العبري عليون الوارد ذكره في سفر التكوين ١٤ : ١٨ . ويظن بعض العلماء ان عليان هو ابن البعل. Conteneau, p. 80; Millar Burrows, *What Mean These Stones,* (New Haven, 1941), p. 225 .

كانت زوجة ايل إلاهةً تدعى اشيرا (واسمها في النقوش أثيرة) . وكانت اشيرا الاهة اوغاريت . ويجب ألا يلتبس اسمها ــ اشيرا ــ على القارىء ، ذلك بان يجمع بينها وبين عشترت (او عثترت) . فان عشترت التي يرد اسمها في نقوش اوغاريت وفي رسائل تل العمارنة هي اشتار (او عشتار) الاشورية البابلية الاصل . وقد كانت عندهم الالاهــة الام . وكانت تختلف عن سائر الالاهات بانها كانت مستقلة ، أي انه لم يكن لها زوج او اب او ام ، ولم تربطهــا بغيرها من الآلهة رابطة ما . كانت هذه الالاهة الاشورية البابلية تعرف عند العبرانيين بعشتورة (Ashtoret وجمعهــا عشتاروت[١]) ، وعنــد الاغريق كانت تعرف بـ (Astarte) . وعندما انتقلت عبادتها الى الاغريق قرنوا اسمها باسم إلاهتهم افروديت ، واصبحت فيما بعد اشهر إلاهة للخصب . اما عند الفينيقيين فقــد اصبحت « بعلة » واقاموها الاهة حارسة شفيعة لاماكن معينة ، وقد تكون الاهة مدينة او محلة . فقد كان لمدينــة بيروت « بعلة » ولكن اسمها لا يزال مجهولا . والعادة الشائعة بين الساميين الا يذكروا اسم الاله احتراماً ووقاراً[٢] . وعلى هذا المبدأ كانوا لا ينطقون باسم الالاهــة الانثى . وكثيراً ما يكون اسم الالاهة قد تنوسي على مر الزمن . غير ان بعلة جبيــل احتفظت باسمها ، فانها كانت تعرف ب « عشترت » اي عشتروت زوجــة ادونيس (ادون) اله المدينة وسيدها غير المنازع ، الذي يعود الى اصل بابلي . وقد يكون ان اسم عشتروت كان يطلق بصورة عامة على كل الاهة تكون زوجة لبعل اينما كانت بين الكنعانيين. وكان الكنعانيون يقيمون معابدهم وامــاكن صلواتهم على « المرتفعات » الوارد ذكرها كثيراً في التوراة (اي على رؤوس الجبال والتــلال) . ويظهر ان هذه المرتفعات وآلهتها تركت في نفوس العبرانيين احسن الاثر واعظم التقدير ، حتى ان انبياءهم كانوا ابداً يحذرونهم من رجس عشتاروت « والبعليم » التي كان الكنعانيــون يمارسون

---

١ ــ راجع سفر الملوك الاول ١١ : ٥ ، ٣٣ . سفر الملوك الثــاني ٢٣ : ١٣ . ويرد اسم هذه الالاهة في النقوش العربية الجنوبية هكذا : « ع ث ت ر » من جذر يفيد الماء والري . وكان هذا الاسم يطلق على إله ذكر وهو اسم إله سامي مشترك .

٢ ــ ان اسم الاله العبري « يهوه » يكتب ولكن لا يلفظ ، بــل انهم عندما يأتون الى هــذه الكلمة يلفظون « ادوني » اي مولاي وسيدي . (المترجم)

عبادتها[١] . وكان شهر ايلول ، الشهر السادس الذي يبلغ فيه القيظ ذروته ، شهرا مقدساً مكرّساً لهذه الإلاهة فان النبت في هذا الشهر يعطي اكله وثمره ، وذلك بفضل قوة الخصب والنتاج اللذين كانت عشتروت تتصف بهما . وكان تموز رمزاً لهذه الغلال . وقد كانت عشتروت الى جانب كونها البعلة ، تعرف ايضاً بالملكة . وقد اشار اليها ارميا النبي بقوله « ملكة السموات[٢] » وقد كان هنالك الاهة اخرى تشبه عشتروت بصفاتها تلك هي عناة اخت البعل عليان التي كانت تعرف ايضا « بسيدة السموات » كما ورد في بعض النقوش . وكانت عناة تلقب بالعذراء ، وكانوا ينظرون اليها انها فارس محارب . اي انهم كانوا يرون في هاتين الالاهتين ، عناة ــ عشتروت ، مصدر حياة ومصدر موت وهلاك . اذ ان الحب والحرب كانا من صفاتها البارزة . وقد اخذ المصريون هذه الالاهة عن الفينيقيين وعبدوها تحت اسم عنتا (Anta) .

ويبرز اسم الاله ملقارت (ملكارت) اله صور بين اسماء الآلهة . ومعنى اسمه « ملك القرية » . واطلاق لفظ الملك والملكة على الاله الذكر والالاهة الانثى ورثته المسيحية فيما ورثت من التعابير . وكانت صور تحتفل بعيد الهها وشفيعها مرة كل سنة . وقد بنى له احيرام الاول ، اشهر ملوك صور ، هيكلا . وبفضل مركز صور انتشرت عبادة ماقارت في انحاء فينيقية وفي المستعمرات الفينيقية . فقد كانت عبادته شائعة في مستعمرة قبرص . واخذ الاغريق عبادته عن الفينيقيين وقرنوا اسمه باسم الههم هرقل . وقد زعم بعضهم ان ملقارت هو الاله ذاته الوارد ذكره في التوراة والمعروف باسم ملوك (Moloch أو Molech = ملك) الذي كانت تقدم له ذبائح بشرية من الاطفال . ولكن هذا الامر هو موضع ريبة . فان تقديم البكر ذبيحة للآلهة كان عادة سامية قديمة عرفتها سائر الشعوب السامية . فقد مارس الاموريون مثل هذه الطقوس . والجرار الخزفية التي وجدت في اساسات البيوت في فلسطين وفي اساسات المعابد والهياكل المختلفة كان مدفوناً فيها اولاد صغار قُدّموا قرابين للآلهة . وتخبرنا التوراة ان الكبش الذي قدمه ابراهيم ذبيحة

١ ــ سفر القضاة ٢ : ١٢ ــ ١٣ . ارميا ٣٢ : ٣٥ . سفر الملوك الاول ١٩ : ١٨ . سفر الملوك الثاني ٢٣ : ١٣ . صموئيل الاول ٧ : ٣ ــ ٤ .

٢ ــ ارميا ٧ : ١٨ ، ٤٤ : ١٧ ــ ١٩ ، ٢٥ .

للاله كان عن ابنه اسحق . وعندنا ان استبدال الذبائح البشرية بذبائح من الحيوان تمثل تغييراً حضارياً عند الشعوب السامية . فقد اصبح الساميون يدركون بان الله لا يرضى عن الذبيحة البشرية . ولكن بالرغم من سخط رجال الدين على هـذه العادةو بالرغم من التشريع الصارم الذيوضعوه ومنعوا بموجبه تقديم الذبيحةالبشرية فان صدى هذه العادة القديمة ظل يتردد في العهد القديم [١] حيث يشير الى تقديم الابن البكر للاله ملوك [٢] (Moloch) وهو اله غريب . اما الفينيقيون فقد كان لهم عذرهم في ممارستهم هذه العـادة : بتقديم البكر ذبيحة لارضاء الالهـة واستمالتها . فقد كانت اعمالهم التجارية تعرضهم الى مخاوف الطرق البرية واهوال المسالك البحرية ، فلم يكن عجباً ان يقدموا اعز ما لديهم قرابين للالهة . غير انهم تخلوا في القرن السادس ق.م عن هذه الذبيحة تخلياً تاماً . ولكنها ظلت طقساً متبعاً بين الوثنيين في غرب اوروبة حتى في القرون الاولى للميلاد .

وتجدر الاشارة ، ونحن نتكـلم عن آلهة الفينيقيين ، الى الاله اشمون ، الذي تركزت عبـادته في صيدا [٣] . ورشف وداجون . وقد كان للاله اشمون معبد في بيروت . اما موقع معبده في صيدا فالمرجح انه كان جنوبي شرقي المدينة في البقعة التي تقوم عليها حالياً كنيسة مار الياس . وكان هذا الاله في التاريخ الكلاسيـكي يقرن بالاله الاغريقي اسكلابيوس اله الشفاء . ورمزه حيتان ملتفتان حول عصا قائمة ولا يزال الى يومنا هذا شعار مهنة الطب والغريب انه كان للسومريين اله شفاء رمزه حيتان ايضاً . ومن آثار هذه العبادة الحيّة النحاسية التي اقامها موسى في برية سيناء لكي ينظر اليها كل من لسعته حية فيشفى [٤] . وعندما تنبّأ السيد المسيح بموته على الصليب اشار اليها بقوله « وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي ان يرفع ابن الانسان لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية » [٥] . وقد تسمى بعض الملوك الفينيقيين باسم الاله اشمون فيما تلا ذلك من ازمنة . فاننا نعرف اشمون عزر (ومعنى اسمه اشمون يعين او يساعد) . وقد عمّت عبادته قبرص

١ ــ تكوين ٢٢ : ٦ وما يليه . سفر الملوك الاول ١٦ : ٣٤ . سفر الملوك الثاني ٣ : ٢٧ ، ٢١ : ٦ . المزمور ١٠٦ : ٣٨ . ارميا ٧ : ٣١ . حزقيال ١٦ : ٢١ .

٢ ــ سفر اللاويين ١٨ : ٢١ ، ٢٠ : ١ ــ ٥ .

٣ ــ وقد يكون اسمه الاصلي « اسم+ون » ومعناه اسمنا الذي نتضرع اليه ونستصرخه .

٤ ــ سفر العدد ٢١ : ٨ ، ٩ .

٥ ــ يوحنا ٣ : ١٤ ــ ١٥

وقرطجنة حيث كان له المقام الرفيع بين الآلهة . يدلنا على هذا ورود الاسم مركباً تركيباً مزجياً في اسماء الاعلام . وقد ورد ذكره ايضاً في نقش وجد في سردينية . اما الاله رشف(ومعنى اسمه النار او النور) فقد كان له علاقة بالشمس او بالنار . وكان عندهم اله الموت والخصب في آن واحد ، ذلك لان الشمس تميت والشمس تحيي . وكان الاموريون الذين اجتاحوا بلاد بابل يعبدون الاله رشف . وكذلك فعل اهل اوغاريت . وقد انتقلت عبادة رشف الى المصريين في عهد المملكة الجديدة ، وكان يعرف عندهم باسم ارشوب. وكان الاغريق يقرنونه بالاله ابولو. وقد عثر على نقوش في فلسطين وقبرص ورد فيها ذكر الاله رشف . وقد غيرت حكومة اسرائيل مؤخراً اسم البلدة المعروفة بارسوف الى رشف اعتقاداً منهم ان هذا الاسم « ارسوف » هو بقية الاسم القديم « رشف » الوارد ذكره في التوراة.

اما الاله داجون فقد عبده الاموريون في الالف الثالث قبل الميلاد . وكذلك عبده اهل اوغاريت حيث عثر في الحفريات هناك على معبد له . واذا كان لنا ان نتعرف الى صفاته وطبيعته بناء على تعليل اسمه فيلولوجيا فاننا نعتقد انه كان اله الحبوب وشفيع المزروعات . وقد عبده الفلسطينيون بشكل سمكة وجعلوه الههم القومي .[١]

هياكل الفينيقيين

ان الغاية الاساسية التي تقوم عليها فكرة بناء هيكل او معبد ان يكون مقاماً يسكنه الاله ، تماماً كما يسكن الانسان في بيته . وقد كان الهيكل نقطة اتصال تصل الانسان بالاله . فكان الهيكل رابطة تربط الانسان والاله برباط شخصي وثيق . واقدم الهياكل الكنعانية التي كشفت عنها اعمال الحفر هي الهياكل التي وجدت في اريحا ومجدو . فانها تعود الى الالف الثالث ق .م. واقدم شكل للهياكل كان بناء مؤلفاً من غرفة واحدة لها باب واحد في الجهة الاطول . ولكن في النصف الثاني من الالف الثاني ق . م . اصبح بناء الهيكل اكثر تعقيدا . وقد اتضح من

٢ ــ سفر القضاة ١٦ : ٢٣ . صموئيل الأول ٥ : ٢ــ٧ . سفر الأخبار الأول ١٠ : ١٠ . سفر المكابيين ١٠ : ٨٤ ، ١١ : ٤ .

هياكل اوغاريت وغيرهـا ان الاجزاء الاساسية في اي هيكل كانت مذبحاً من حجارة ، وعموداً مقدساً ، ونصباً عمودياً مقدساً ، وغرفاً تحت الارض . واهم هذه كلها هو المذبح الذي كانت تقدم عليه الذبائح . اما العمود المقدس فقد كان يرمز الى الاله الذكر[١] . وقد يكون انه كان في الاصل رمزاً لعبادة الاعضاء التناسلية . وفي عام ١٩٣٦ عثر في هيكل في جبيل على مجموعة من الاعمدة يبلغ عددها العشرين ، وشكل الواحد منها شكل المسلة ، ويبلغ اعلاها حوالي ١٠ اقدام . والى جانب العمود كان يقوم نصب حجري عمودي او شجرة مقدسة[٢]. وتقديس الاشجار بقية باقية من عهد كانت تعبد فيه الشجرة على انها رمز الحياة الخالدة . ولا يزال اهل لبنان وسورية وفلسطين الى يومنا هذا ، سواء اكانوا مسلمين ام نصارى ام دروزا ينظرون بكثير من الاحترام والتقديس الى شجرة السنديان العظيمة او الصنوبرة العتيقة التي تظلل نبع ماء او مزارا او ديراً او كنيسة. وعند نبع أفقا شجرة مقدسة يعلق عليها زائرو المكان خرقا . وليس بمستغرب ان ترى في لبنان اشجاراً في اماكن اخرى يعتبرها الناس اشجاراً مقدسة .

اما الغرف السفلية التي كانت تحت ارض الهيكل فمن المرجح انها كانت غرفا للعرافة والتنبوء عن الغيب ، حيث كان المرء يدخل فيستشير عرافا او كاهنا . وقد عثر في الهياكل الكنعانية على كؤوس واجران مزخرفة برسوم افاع كانت تستعمل للخمر او للزيت المقدس الذي كان يقدم للهيكل . وكذلك عثر على مباخر ومناضد للبخور مما يشير الى استعماله في طقوس عبادتهم . وقد عثر ايضاً في بعض حفريات الهياكل على مصاطب كان المصلون يغسلون عليها اقدامهم قبل صلاتهم مما يدل على ان فريضة الغسل المقدس ، او الوضوء ــ الذي هو فريضة على المسلم

---

١ ــ في العبرية m assebah وجمعها masseboth من جذر نصب بمعنى قام وارتفع وقد ترجموها الى صورة او تمثال ، وعمود او نصب ، هوشع ٣ : ٤ . سفر الملوك الثاني ١٠ : ٢٧ . تكوين ٣٥ : ١٤ . صموئيل الثاني ١٨ : ١٨ .

٢ ــ في العبرية a sherah وجمعها asherîm وقد ترجموها بلفظة غابة او اجمة . سفر الملوك الاول ١٦ : ٣٣ . سفر الملوك الثاني ٢٣ : ٦ ــ ٧ : اشعياء ٢٧ : ٩ . وقدم حرم في تثنية ١٢ : ٣ ، ١٦ : ٢١ .

واليهودي قبل الاقدام على الصلاة ـ كانت معروفة ومتبعة عند الكنعانيين . وقد اخذ الاغريق واجداد الرومانيين (اي القبائل الاترسكية) المباخر عن الكنعانيين.

الاصنام

كان الكنعاني يستعيض عن نحت الاصنام باقامة عمود بسيط من الحجارة او نصب عمود خشبي كرمز للمعبود . غير انهم كانوا يصنعون تماثيل صغيرة من البرونز تمثل البعل واقفاً ويده اليمنى قابضة على الصاعقة كما لو انه يستل سيفاً . اما الإلاهة فقد كانت تظهر في تماثيلهم عـــارية ويداها مسبلتان على جانبيها او على ثدييها رمزاً لمنحها القوت والغذاء . وقد عثر على عدد كبير من هذه التماثيل الصغيرة المصنوعة من المعدن او من الخزف . ولكن يظهر انها كانت تماثيـــل او اصنام توضع في البيوت لا في الهياكل . ويظهر انهم كانوا يرون فيها قوى سحرية خفية فكانوا يتيمنون بها . وكان العابد المثقف العاقل يرى فيها مقاماً للآلهة ، واما الرجـــل العادي البسيط فقد كان يحسبها الآلهة ذاتها .

المرتفعات

وكان للكنعانيين ،الى جانب هياكلهم الكبيرة في المدن مزارات اكثرها معابد مكشوفة للشمس والهواء على رؤوس التلال . وكثيراً ما يكون المزار على كثير من البساطة : مذبح وما اليه من حجارة مقدسة . وهذه هي « المرتفعات » التي يكثر ذكرها في العهد القديم والتي هاجمها انبياء اليهود بكثير من العنف والقسوة [١] . ومن المعروف الآن ان اليهود اخـــذوا الكثير من اعيادهم وطقوسهم الدينية عن سكان البلاد القدماء ، الكنعانيين ، الذين كانوا يفوقونهم حضارة ورقياً [٢]. غير ان بعض الطقوس الدينية ، كالذبيحة مثلا ، تعود في الاصل الى عادات ساميـــة مشتركة . [٣]

١ ـ سفر الملوك الاول ١٣ : ٢ . ارميا ٣٢ : ٣٥ . هوشع ١٠ : ٨ .

٢ ـ Burrows, p. 234

٣ ـ Cf. René Dussaud, Le *Sacrifice en Israël et chez les phenicien*., (Paris, 1914), pp. 1 seq .

الحياة بعد الموت

اما فيما يتعلق بالخلود ، الحياة بعد الموت ، فان الفينيقيين لم يبدوا اي اهتمام بهذه القضية الغيبية . فكانوا يشبهون اخوانهم الساميين الذين لم يكن عندهم فلسفة خلود خاصة او معتقدات مقررة واضحة . لم يكن الثواب والعقاب عندهم امراً يتعلق بالسلوك الاجتماعي او التصرف الخلقي بقدر ما كان يتعلق باقامة الفروض والطقوس الدينية . وكان الثواب والعقاب عندهم غنماً او غرماً مادياً يناله العابد على هذه الارض . فكانوا ينظرون الى الصحة والثروة والفلاح المادي والبنين وما شابهها انها ثواب على القيام بفروضهم الدينية ، واذا حرموا هذه اللذات فانهم كانوا ينظرون الى الامر على انه عقاب لتركهم فروض دينهم . غير انه وجد في قبور الفينيقيين سُرُج وجرار وصحون وآنية اخرى للأكل والشرب مما يدل على انه كان عندهم شبه معتقد غامض ، بان الميت يظل يتمتع بعد موته بنوع من العيش يشبه عيشه على الارض . فقد كان يدفن مع النساء الخرز والمجوهرات وادوات اخرى للزينة . وكانت الاسلحة تدفن مع الرجال. وقد كان للمقابر في جبيل وصيدا منزلة رفيعة واحترام عظيم. فان القبر كما يظهر من النقوش التي كانت تحفر على النواويس ، يسمى « مكان الراحة »[١] ، والناووس الحجري العظيم الذي دفن فيه الملك احيرام مزخرف بالنقوش والتماثيل التي تصور لنا جنازة كبيرة تظهر فيها النساء النادبات الحاملات القرابين . ومن الواضح ، ان هذا الناووس يدل على ان الفينيقيين كانوا يحرصون على حفظ الجسد من الفناء . ولم يكن التحنيط عند الكنعانيين امراً شائعاً ، غير ان الأثر المصري في كنعان يظهر في تحنيط بعض ملوكهم .

اثر الكنعانيين في الحضارة العبرية القديمة

دخل العبرانيون ارض كنعان قبائل بدوية فاتخذوا من حضارة البلاد نموذجاً ينسجون على منواله . فأخذوا عنهم لغتهم وحروف هجائهم . ولم يكن لهم ان

١ — Cooke, pp. 27, 31, 61, 70 .

ينتجوا ادباً خاصاً بهم قبل ان يتعلموا فن الكتابة من جيرانهم . وفي حقل التشريع نجد ان اقدم الشرائع العلمانية كانت شرائع كنعانية الاصل . وعن الكنعانيين اخذ العبرانيون الفلاحة وغيرها من الصنائع التي تتطلبها الحياة الحضرية . وعن طريق الزراعة والتزاوج ، انتقل الى العبران كثير من الطقوس والعبادات الكنعانيـة التي كانوا يحسبونها ضرورية لتوفير الخصب والانتـاج . واقتبس العبرانيون عن جيرانهم طقوساً وفرائض دينية قديمـة بما في ذلك الانصبة الخشبية (الاعمدة الخشبية) وعادة بناء المذابح على التلال والمرتفعات كما ذكرنا سابقاً . وقـد كان الصراع بين البعل ويهوه صراعاً عنيفاً دام زمناً طويلا . حتى ان العبرانيين الذين اتخذوا يهوه الهاً لهم ظلوا يعتبرون الآلهة المحلية آلهة بيدهـا خصب الارض ووفر الانتاج . واننا لنجد ان العبران كانوا يعزون الى إلههم يهوه الصفـات التي كان يتصف بها البعل. فهو رب السموات ومُنزِل الامطار ومخضع العواصف لقدرته. وكان الوالدان العبريان يسميان مولودهما البكر باسم يهوه ، وأمـا المولود الثاني فكانا يسميانه باسم البعل . ولكن التفكير الديني عنـد العبران لم يظل طويلا على هذا المستوى البدائي ، اذ ان انبياءهم سموا بتفكيرهم الديني الى آفاق لا عهـد للناس بها في تلك العصور . فان نظرتهم الى طبيعة الله وصفاته وعلاقة المخلوق به اتسعت واهتدت الى آفاق بعيدة . والحقيقة انهم كانوا اول شعب في تاريخ الفكر البشري نظر الى الله انه واحد (التوحيد) وانه إله برّ وعدل . وكانوا اول شعب في التاريخ وضع الاهمية العظمى على التصرف والسلوك لا على طقوس العبادة .

كان الساميون سكان منطقة الهلال الخصيب يعتقدون ان العبادة الحقيقية انما تقوم على الذبائح وتقديم العطايا من نتاج الارض ومن الاغنام قرابين الى الهيكل. ولم يختلف العـبران في هذا الامر عن سائر اخوانهم . ولم يكن هيكل سليمان من تصميم الفينيقيـين وبنائهم وحسب ، بل كان جزء كبير من طقوس العبادة التي كانت تمارس فيه من اصل فينيقي . فالغناء والترانيم كانت فينيقية في نماذجها . ومن المرجح ان ورود النواهي الدينيـة في كتب موسى الخمسة تدل على ان هذه الامور كان قد اقتبسها العبرانيون عن جيرانهم قبل ان يرى فيها زعماؤهم الدينيون ما يناقض دين العبران . فقد حرّم ، مثلا ، على العبران ان يطبخوا جَدْياً بلبن امه . وهو تحريم غريب ، واغرب منه التعليل الذي حاول ان يعلل به المؤرخون اصل

هذه العادة . اما اليوم فنعلم انه امر كان يمارسه اهل اوغاريت كما يظهر في النقوش التي عثر عليها هناك .

قلنا انه كان للدين الكنعاني واللغة الكنعانية اثر ظاهر في دين العبران القدماء ولغتهم . وطبيعي ان يتناول هـــذا الاثر الادب العبري ايضاً . فاننا نعلم مثلا ان العبران اخذوا عن الكنعانيين كثيراً من فروض عبادتهم وطقوسهم الدينية . فكان من الطبيعي ان يأخذوا عنهم ايضاً ترانيم واشعاراً دينية . وطبيعي ان يتأثر الاسلوب العبراني بالاسلوب الكنعاني. فان في الادب العبري كثيراً من التشابيه والمصطلحات الكنعانية ، حتى اننا لنجد احياناً اقتباسات من الادب الكنعاني مباشرة . واكثر ما يظهر هذا الاثر الادبي في سفر نشيد الانشاد وفي المزامير وفي سفر الامثال .(١) فاننا نقرأ في الادب الاوغاريتي مثلا : « راكب السحاب » وهو وصف للبعل . وهذا الوصف يشبه وصف يهوه كما ورد في سفر المزامير ٦٨ : ٤. كذلك ورد في نقش اوغاريتي ان الرعد صوت البعل . ان هذا المزمور (٦٨) مع المزمور ١٨ و ٨٨ و ٨٩ يكثر فيها ورود المصطلح الكنعاني واسلوبه الادبي. وهذان المزموران الاخيران(٨٨ و ٨٩) يعزيان الى مؤلفين يظهر من اسميهما انهما من اصل كنعاني. وفي سفر ايوب ٣٧ : ٢ ــ ٥ ، وفي المزمورين ٢٩ : ٣ ــ ٥ ، و ١٠٤ : ٧ يشبه الشاعر صوت يهوه بقصف الرعـــد . وليس من شك في ان المزمور ٢٩ بكامله كنعاني ، فانه اغنية للبعل . يظهر لك ذلك من كثرة ورود اسم لبنان وجباله وارزه . وفي الادبين العبري والكنعاني عندما يذكر لوياثان (Leviathan) فانه يسمى « الحية التحوية » كما جاء في سفر اشعياء ٢٧ : ١ (٢) . هذا الحيوان البحري له سبعـــة رؤوس ويعود فيظهر بعـــد اعصر عديدة في اسطورة هيدرا هرقل . ويظهر في الادب الاوغاريتي بطل اسمه دانيال (ومعنى اسمه ايل قاضي) ويشبه في صفاته دانيال الوارد ذكره في سفر من اسفار التوراة : سفر دانيال النبي دانيال هذا « ابو اليتامى وقاضي الارامل » كما يقول صاحب المزامير (٦٨ : ٥) « اقضوا لليتيم حاموا عن الأرملة » كما يقول اشعياء النبي (١ : ١٧).

١ – Albright, *Archaeology* & *Religion*, pp., 15, 128-9

٢ – Cyrus H. Gordon, *The Loves* & *Wars of Baal and Anat* (Princeton, 1943),p. XII .

ولا يقف التفاعل الحضاري بين الكنعانيين والعبرانيين عند هذا الحد بل نجد ان نماذج من الادب المصري ونماذج من الادب التعليمي الوعظي وجدت طريقها الى الأدب العبراني عن طريق كنعان . فاننا نستشعر ان الامثال الواردة في كتاب سفر الامثال ١٥: ١٦ـ١٧ ، و ١٧ : ١ هي من مصدر مصري . ومن هذا القبيل تجدر الاشارة الى سفر الجامعة ٤: ٦ و ٢٢: ١٧ـ٢٣ فاننا نرجح ايضاً ان الاثر المصري ظاهر فيها ،[١] والادب المصري ذاته ظل يتميز طيلة خمسة قرون بدءا من ١٣٠٠ ق.م. بكثير من المفردات الدخيلة التي معظمها من اصل فينيقي .[٢]

ولما تأخرت التجارة الفينيقية نتيجة للمنافسة الاغريقية، وفقدت المدن الفينيقية استقلالها السياسي نتيجة للفتح الاشوري ، اخذ اثر الحضارة الفينيقية بالتقلص في حوض المتوسط كافة .

١ – E. A. Wallis Budge, *The Teaching of Amen-em-apt* (London, 1924) p. 103; W. O. E. Oesterly, *The Wisdom of Egypt and the Old Testament* (London, 1927) pp. 46, 61 seq.

٢ – Adolph Erman, *Die Literature der Aegypter* (Leipzig 1923) p. 5.

الفصل التاسع

لبنان في العهد الاشوري البابلي

كانت الحضارة السائدة النشيطة الخلاقة في الالف الثالث ق.م. في غربي آسية الحضارة السومرية . والسومريون الذين انشأوا هذه الحضارة ،ليسوا من الشعوب السامية . ومآتي حضارتهم ، مثل الكتابة المسمارية التي أوجدوها ، وجزء كبير من الادب الذي انتجوه ، وكثير من الفكر الدينية والروحية التي نشأت عندهم ، انتقلت الى الشعبين البابلي والاشوري ، ورثتهم في الحضارة . وهذا الارث الحضاري انتقل فيما بعد الى اهل سورية وفينيقية وفلسطين عن طريق بابل واشور. فان اللغة الأكادية (اي البابلية) التي كانت تكتب بالخط المسماري اصبحت اللغة الدولية في السياسة والتجارة والفكر في جميع انحاء غربي آسية . فقد استخدم هذا النوع من الكتابة (الخط المسماري) ملوك فينيقية في رسائلهم الى فراعنة مصر كما يظهر في رسائل تل العمارنة المشهورة ، على ما مر بنا آنفاً . واسم تموز ، الاله الفينيقي الذي كان يحتل المقام الاول في ديانة الفينيقيين، اسم سومري . واساطير الآلهة بما في ذلك قصة الخليقة والطوفان وجنة عدن جميعها ترد الى اساطير بابلية . هذه القصص الدينية وجدت سبيلها فيما بعد الى الأدب العبراني الديني ثم المسيحي فالاسلامي . وفي اللغة العربية في عهدنا هذا كلمات دخيلة ترد الى اصل سومري أو بابلي مثل « هيكل » (e-gallu ومعناها البيت العظيم) و « كرسي » و « نجار » و « صندوق » و « لوح » . وقد كان اللبنانيون القدماء اقرب الى البابليين منهم الى المصريين عرقاً ولغة ، لكنهم اقرب الى مصر موقعا .

علاقات لبنان مع بابل في العصور القديمة

يدعي سرجون الأكادي[1] (البابلي) الاول (حوالي ٢٢٥٠ ق.م.) وهو

---

١ ــ وهي Agade اسم مدينة عراقية قديمة تقع الى الشمال من بابل . وقد ورد ذكرها في تكوين ١٠ : ١٠ .

اول فاتح سامي كبير في التاريخ ـ انه "ملك"، كما يقول لنا في النقوش التي خلفها « من البحر الاعلى الى البحر الادنى » . وتشمل هـذه المنطقة « غابات الارز وجبال الفضة[١] » وقد تكون اشارته الاخيرة : « جبال الفضة » الى جبال الامانوس لا الى جبال لبنان . وكذلك يدّعي خليفته نارام سن (حوالي ٢١٧٠ ق. م.) بانه ملك الارض كلها بما في ذلك « غابات الارز[٢] » . غير ان الضغط السياسي والعسكري الحقيقي على فينيقية لم يبد خطيراً الا بعد ان اخذ ظل مصر السياسي وقوة الحثيين تتقلصان رويدا رويدا ، وبعد ان اخـذت تظهر اخيراً في الافق الشرقي قوة عسكرية جديدة : الاشوريون . فان مخطط سياستهم الراميـة الى الوصول الى البحر المتوسط والهادفة الى السيطرة على طرق التجارة المؤدية الى هذا البحر لم يوضع موضع التنفيذ الا بعد ان بلغت الامبراطوريه الاشورية مبلغا من القوة العسكرية تستطيع معه تنفيذ هذه السياسة .

الاشوريون

كان زحف تغلث فلاصر الاول بجيشه من اعـالي دجلة سنة ١٠٩٤ ق . م محاولة اشور الاولى للوصول الى شواطىء المتوسط . وقد احتل ارواد مدة قصيرة من الزمن الكن المحاولة كانت سابقة لاوانها . يقول هذا الملك الاشوري في كتاباته التي خلفها انه سُرّ بسفرة بحرية من ارواد الى سميرا ، وفي طريقه قتل « حصانا بحريا » اي دلفينا . وقد بعثت اليه مدينتا جبيل وصيدا بالجزية . وقطع اخشابا من الارز ليبني هيكلا لآلهته[٣] .

ان هذا المَلْك الذي اسمه تغلث فلاصر من اعالي دجلة عبر الفرات الى فينيقية لم يدم طويلا . ولا يذكر لنا التاريخ انه جرت محاولة لاسترداده الا بعد قيام اشور

١ ـ Anno Poebel, *Historical Texts* (Philadelphia, 1914), 175, 178 .
٢ ـ Ignace Gelb, *Hurrians and Subarians* (Chicago, 1944), pp.35-7
٣ ـ Daniel D. Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, vol. I (Chicago, 1926), sec. 302

ناصر بال الثاني(٨٨٣ـ٨٥٩) الذي يُعتبر ملكه فاتحة عهد يتميز باحياء الروح العسكرية السياسية في اشور. وقد سلك هذا الفاتح في زحفه غربا الى شمالي سورية (٨٧٩) الطريق ذاتها التي سلكها سلفه، وهي الطريق الطبيعية بين اعالي وادي الرافدين وسورية. ثم تابع زحفه من شمال سورية فدخل لبنان وسار بجيشه جنوبا على محاذاة الشاطىء اللبناني دون ان يلقى مقاومة تذكر. وقد كانت هذه الغزوة الاشورية الاولى الناجحة ضد سورية. وهي تشبه الى حد بعيد الغزوة التي قام بها قبلا تحوطمس المصري الثالث بحوالي ستة قرون. وقد دفعت المدن الفينيقية المزدهرة الجزية الى هذا الفاتح الاشوري مما يدل على انها قبلت بالامر الواقع لا على انها اظهرت الخضوع التام للسيطرة الاشورية. وقد خلف لنا اشور ناصر بال نقشاً على هيكل عاصمته فيه كثير من المباهاة. يقول :

« لقد استوليت على معظم جبال لبنان وبلغت بحر امورو، البحر العظيم. وقد غسلت الدماء عن اسلحتي في الغمر العظيم، وقدمت ذبائح من الغنم لجميع الآلهة. وقد دفع الجزية اهل الساحل اللبناني : اهالي صور وصيدا وجبيل ومهالاتا (؟) (او محالاتا ؟) وميزا (؟)[١] وكيزا(؟) وامورو وارواد الجزيرة ـ دفعوا جزية ذهباً وفضة وقصديراً ونحاساً وآنية نحاس وثياباً كتانية مزركشة زاهية الالوان وقروداً كبيرة وصغيرة وآبنوس وخشب الصندل وعاجاً وانياب بقر البحر. تقبلت منهم الجزية وارتموا على قدمي يقبلونهما [٢]» .

بلغت اشور في ملك اشور ناصر بال وابنه شلمناصر الثالث (٨٥٨ ــ ٨٢٤ ، ذروتها في الازدهار واصبحت امبراطورية عالمية. وقد كان الاشوريون شعباً عسكرياً موهوباً، فاخترع قوادهم اسلحة وآلات للحصار كالسلالم لتسلق الاسوار والمدكّات لدكها. كذلك اتقنوا فن تقويض الجدران بحفر ثقوب في اساساتها. ولم يكن فتح سورية الشمالية واخضاعها امراً عسيراً عليهم وهم اهل الجوار. غير ان لبنان بجباله ظل، الى حين، الحد النهائي الذي وقف عنده الفتح الاشوري

١ ــ علامة السؤال تعني ان هذه المدن او القرى غير معروفة الان .

٢ ــ Pritchard , p . 276 .

في عـــام ٨٥٥ ق.م. خاض شلمناصر الثالث معركة قرقر الشهيرة في وادي العاصي . وقد واجه الجيش الاشوري حلفاً عسكرياً قوامه اثنا عشر ملكـــاً من ملوك سورية. وكان على رأس هذا الحلف العسكري بن هدد الآرامي ملك دمشق. وكان من جملة المتحالفين الملك الاسرائيلي آخاب وامراء يمثلون صور وسائر المدن الفينيقية التي بعثت بفرق عسكرية الى هذه المعركة . وقد بلغ عدد جيش هـــذا الحلف ٦٠ الفاً وقفوا في وجه الزحف الاشوري في مدينـــة قرقر . ورغم ادعاء شلمناصر انه احرز نصراً حاسماً كما يقول في النقش الذي خلفه ، فالمعركة لم تكن حاسمة على ما يظهر . ومما يعزز هـــذا الرأي اصرار شلمناصر على العودة مرة اخرى لاخضاع المنطقة اخضاعاً تاماً . ففي سنة ٨٤٢ استسلمت المدن الفينيقيـــة للسيطرة الاشورية اسمياً . وهذا ما يقوله شلمناصر نفسه :

« في السنة الثامنة من ملكي عبرت الفرات للمرة السادسة عشرة . وكان الملك حزائيل الآرامي ، الواثق من قوته ، قد حشد جيشاً عظيمـــاً وتمركز عند جبل سنيرو عند مداخل لبنان ، حصنه القوي ... ولكنني قطعت اشجـــار بساتينه [غوطة دمشق] وزحفت نحو جبل حوران ، وقد هدمت وخربت مدناً لا عد لها واحرقتها بالنار . وعدت محملا بالغنائم والاسلاب . ثم تقدمت نحو رأس البعـــل (بعلي راسي) الرأس الداخل في البحر[١] . هناك اقمت نصباً تمثالا لشخصي . وقد تقبلت الجزية من اهالي صور وصيدا . وقد دفع الجزية ملك العبران جيحو ابن عمري[٢]» .

مقاومة صور الرائعة

وكما ان الفينيقيين ذلوا واستسلموا للفاتح المصري قبلا ، هكذا وجدوا انفسهم مرة ثانية امام العاصفة التي هبت عليهم من الشرق . وقـــد ظنوا انهم اذا دفعوا الجزية فانهم يأمنون شر تدخل الفاتح بامورهم الداخليـــة . وكانوا يأملون ان يعوضوا عن فقد بعض سيادتهم السياسية بتوسيع اسواقهم التجارية . ولكن كان

١ ـ ربما يقصد جبل الكرمل . وقد خلف لنا شلمناصر نقشاً عند مصب نهر الكلب .

٢ ـ Luckenbill, vol. 1, sec. 672 .

الضعف.قد دب في هذه الامبراطورية الاشورية التي انشأهـا اشور ناصر بال وشلمناصر على حساب سورية ولبنان ، وظلت قرناً من الزمن في حـالة تأخر وتقلص الى ان اعاد بناءها تغلث فلاصر الثالث[١] وخليفتـه شلمناصر الخامس (٧٢٧ ـ ٧٢٢) وقد كان مُلْكُ هذين الملكين فاتحة عهد جديـد في تاريخ الامبراطورية الاشورية . فقد اعيد فتح سورية . وصار متن-بعل ، ملك ارواد، يدفع جزية للملك الاشوري تغلث، وكذلك فعل شتي ـ بعل ملك جبيل واحيرام الثاني ملك صور الذي كان في الوقت ذاته ملكاً على صيدا ايضاً وعلى المستعمرات الفينيقية في قبرص . ويخبرنا المؤرخ يوسيفوس[٢] بناء على ما استقاه من معلومات عن التاريخ السوري بان شلمناصر ابن تغلث غزا فينيقية . غير ان بعض مدنها ، ولا سيما صور ، اخـذت تثور على الحكم الاشوري . اما مصر التي ظلت الى زمن ، في حـالة ركود سياسي وعسكري ، فقد برزت في هذه الحقبـة مرة اخرى على مسرح السياسة الفينيقية محاولة وقف التوسع الاشوري . وقد كانت الحالة الداخلية في فينيقية بسبب المنـازعات والمنافسات بين مدينـة واخرى في وضع يسهل معـه على الفاتح امر الغلبة . فان صيدا ، مثلا ، وصور البريـة وعكا رغبة منها في التملص من السيطرة المالية والتجارية التي كانت تفرضها صور البحرية عليها ، اعترفت بالسيطرة الاشورية وقبلت بالحكم الاشوري . ولم يقتصر الامر عند الاعتراف بالسيطرة الاشورية انما تعدّى ذلك الى المعونة العسكرية . فان هذه المـدن (صور البرية وصيدا وعكا) وضعت تحت تصرف الاشوريين اسطولاً قوامه ٨٠٠ نوتيّ مجدّف لفرض الحصار على صور البحرية . غير ان هذا الاسطول تشتت شمله عند اول معركة وقعت بينه وبين اسطول صور البحرية. الا ان جزأ مما تبقى من بحارة الاسطول ضرب الحصار على صور البحرية من جهـة الشاطىء. وقد كانت مياه الشرب المخزونة في ابار الجزيرة تكفي احتياجات السكان الضرورية مدة خمس سنوات . وقد انتهى امر ذلك الحصار الطويل بموت شلمناصر (٧٢٢) وذلك بعقد معاهدة شريفة .

١ ـ هو « فول » ملك أشور الوارد ذكره في سفر الملوك الثـاني ١٥ : ١٩ . وراجع ايضاً ١٦ : ٩ ـ ١٠ .

٢ ـ *Antiquities*, Loeb Classical Library, Bk. IX, ch, 14, sec. 2.

في هذا الصراع يبرز اسم الملك الصوري ايلو–ايلي(ومعنى اسمه الهي هو الله) وهو « لولي » الذي يظهر اسمه في النقوش الاشورية (٧٢٥– ٦٩٠) والذي اشتهر اسمه كحامي مدينة صور البحرية . فانه عاد وفرض هيبته على البلاد الفينيقية المجاورة وحاول استعادة قبرص التي كان قد استولى عليها سرجون الثاني الاشوري (٧٢٢–٧٠٥) بمساندة المراكب الفينيقية . وكان سرجون قد جعل من سائر المناطق الفينيقية الباقية ايالة اشورية . اما سنحاريب (٨٠٥–٦٨٠)خليفة سرجون الثاني فقد جوبه في بداية ملكه باحدى الثورات التي كانت تتوالى ضد الاشوريين، والتي كان قد دبرها الملك الصوري العنيد بتشجيع من مصر . وعمت الثورة عسقلان وعقرون من المدن الكنعانية على الساحل الفلسطيني. فسير الاشوريون حملة عسكرية لقمع الثورة هذه . وفي عام ٧٠١ هزم الجيش الاشوري الجيش المصري في معركة وقعت بالقرب من عقرون . ثم تابع الجيش الاشوري زحفه فخرب مملكة يهوذا – بالرغم من ان ملكها حزقيا لم يكن طرفاً في الحلف الثائر ضد اشور – واخذ بمطاردة الملك ايلو ايلي المنهزم عبر البحر الى قبرص. وقد نصب الاشوريون الملك اتو – بعل الصيداوي ، الذي كان موالياً للاشوريين[1] ، ملكاً على فينيقية عوضاً عن ايلو – ايلي . اما قصر الملك ايلو – ايـلي الصيفي في جبال لبنان فقد احرق وخربت كرومه وديست بالقدم . وتسلقت بعض الجيوش الاشورية اعالي الجبال ثم احتلوا قلعة في القمة التي تغطيها الأشجار وقيدوا ايدي حماتها واتوا بهم اسرى الى سنحاريب . ومن المرجح ان يكون سنحاريب احد الملوك الاشوريين الذي اقام نصباً تذكارياً عند مصب نهر الكلب. وقد استعان بصناع السفن من الفينيقيين في اعماله الحربية في الخليج الفارسي .

صيدا وصور تستسلمان

استسلمت صيدا عام ٧٠١ ق . م . ولكنها عندما استعادت قوتها ونشاطها عاد اليها اسرحدون ، ابن شلمناصر ، غازياً وخربها عام ٦٧٥ . وقد هدم بيوتها الى اساساتها . وكذلك فعل بسورها الذي رمى بحجارته الى البحر . اما ملكها عبد ملقارت ، فانه هرب في مركب الى عرض البحر ولكن اسرحدون تبعه

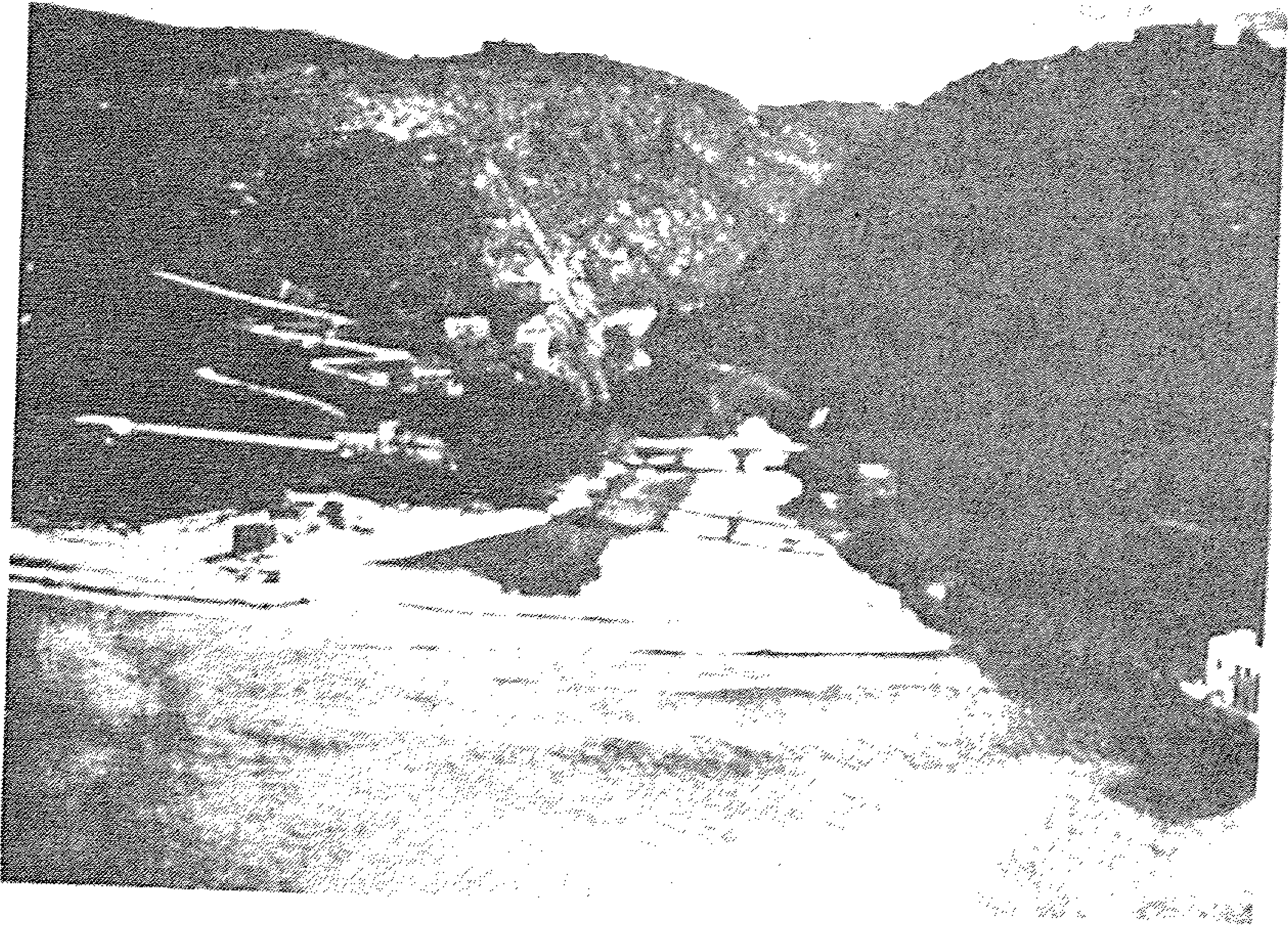
١ – Luckenbill, vol. II, sec. 309

واصطاده كما يصطاد سمكة وقطع رأسه . ثم انه بنى قلعة سماها كار ـ اسرحدون واسكن فيها اناساً غرباء عن البلادواقام عليها حاكماً أشورياً وذلك لالقاء الرعب في قلوب الناس فيتلك المنطقة(١) . وهكذا خربت مدينةصيدا تخريباًشاملا كاملا . اما اهالي صيدا الذين نجوا من حد السيف ، او افلتوا من قبضة الجند فقد هربوا الى المدن والقرى المجاورة . اما ياكين ـ ايل ملك ارواد ، بعد ان رأى ما حل بصيدا ، سلم المدينة الى اسرحدون وليس هذا فحسب ، بل انه اعطاه ابنته تقدمة . وكذلك استسلمت بقية المدن الفينيقية الخاضعة للملك بعل الصوري الى اسرحدون . وانتهت هذه الغزوة القاسية بعقد معاهدة تجارة وخضوع واستسلام تام . ولكن ما ان استشعر ملك صور ، بان الاحوال موآتية له لخلع نير الاستعباد حتى ثار في وجه اشور بعد ان كان قد عقد تحالفاً مع ترهاقا (٢) الحبشي الاصل الذي كان ملكاً آنذاك على مصر . ولكن الاشوريين عادوا وقمعوا الفتنة واعادوا البلاد الى حظيرتهم . وتخليداً لذكرى هذا الانتصار الاخير اقاموا في شمالي سورية نصباً تذكارياً في سنجرلي (شمأل القديمة) يظهر فيه اسرحدون واقفاً ممسكاً بسير يقود به الملك بعل الصوري وترهاقا الحبشي كما لو انه كان يسوق فرسين . لكن الحقيقة هي ان فرعون مصر ، ترهاقا ، لم يلق القبض عليه ، ويرجح كذلك ان صور في هذه الردة الاشورية سلمت من غضبهم . يدل على ذلك ان اشور بانيبال خليفة اسرحدون ، عاد الى فينيقية عام ٦٦٤ ق . م . « وانقض على البلاد كما ينقض ذئب على حظيرة الخراف » . وكان هذا الهجوم على صور نهاية المطاف ، فقد نزلت بها الضربة القاصمة . وهكذا استسلمت صور سيدة البحر المتوسط ، بعد ان ظلت زمناً تتراوح فيه بين الاستسلام للاشوريين حيناً والثورة في وجههم حيناً آخر . والحقيقة هي ان مصير صور السيء كان قد تقرر قبل هذه الفترة ، عندما سقطت مدينة دمشق ، عاصمة الارامين ، عام ٧٣٢ ، وعندما سقطت السامرة ، عاصمة المملكة الاسرائيلية عام ٧٢٢ اي بعد سقوط دمشق بعشرة اعوام . ويذكر القارىء ان المملكة اليهودية كانت قد انشطرت الى شطرين ، الى مملكة شمالية عاصمتها السامرة ، وجنوبية وعاصمتها اورشليم . وقد كانت هاتان المملكتان

١ ـ Pritchard , pp . 290—1

٢ ـ A. T. Olmstead, *History of Assyria* (New York, 1932), p. 384; cf. Hall, *Ancient, History*, p. 499 .

تتحدان احياناً قليلة لصدخطر مداهم،ولكنهما كانتا في اكثر الاحيان عدوتين. هذا الانقسام السياسي وهذا العداء بين المملكتين ادى الى خرابهما على ايدي الاشوريين اولا ثم على ايدي الكلدانيين ثانياً . وبالقضاء نهائياً على استقلال سورية وفلسطين فقد لبنان كل امل في استعادة مركزه وسيادته . فان هدف السياسة الاشورية الاساسي كان الاستحواذ على طريق التجارة بين الشرق والغرب . وقد بلغ الاشوريون هدفهم هذا واصبحوا الآن في مركز عسكري وجغرافي يستطيعون معه



نهر الكلب عند مصبه

ان يشنوا هجوماً على منافستهم مصر للفصل في امر السيادة على غرب آسية . وقد استطاع اسرحدون ان يخضع مصر السفلى . واحياء لذكرى انتصاره اقام نصباً عند مصب نهر الكلب ، بالقرب من النصب الذي اقامه رعمسيس ، يظهر فيه واقفاً بخيلاء وتحت تمثاله نقش يذكر فيه الاستيلاء على ممفيس وصور [1] . اما اشور

[1] ــ وهذا النصب هو الوحيد من بين ستة انصبة اشورية عليها كتابة تقرا . راجع : Luckenbill, vol. II, secs. 582-5; Franz H. Weissbach, *Die Denkmäler und Inschriften an der Mundung des Nahr - el - Kalb* (Berlin,1922) pp. 27 - 30, Pls. XI, XII; René Mouterde, Le *Nahr-el-Kalb* (Beirut 1932), p. 81, Pl. VI.

بانيبال (٦٦٨ـ٦٢٦) فقد اجتاح بعسا كره مصر العليا وكان هذا نهـاية التوسع العسكري الذي بلغته الجحافل الاشورية في فتوحاتها، واصبحت نينوى التي وصفها النبي اليهودي ناحوم (٣ : ١) بقوله « مدينة الدماء » سيدة غرب آسية وجزء من افريقية .

الكلدانيون ورثاء اشور

انتهى عهد السيادة الاشورية على غربي آسية لما ظهرت في العراق القديم قوة عسكرية جديدة : البابليون المحدثون او الكلدانيون بقيادة نابو فلاصر (٦٢٥ — ٦٠٥) الذي خرب عاصمتهم العظيمة نينوى عام ٦١٢ . وقد اعتبر هؤلاء انفسهم ورثاء اشور فادعوا السيادة على سورية وفينيقية ، على ما كان عليه الاشوريون من قبل . وفي هذه الفترة التي تم فيها انتقال السيادة العسكرية من ايـدي الاشوريين الى الكلدانيين استطاعت مصر ان تنفض عن كاهلها النير الاشوري وتتحـدى الكلدانيين في امر السيادة والسيطرة في هذه المنطقة . ونستطيع ان نقول ان المدن اللبنانية ، بوجه عام ، كانت تتأرجح وسط هذا الصراع الجديد ، غير ان اتجاهها نحو جارتها الجنوبية مصر كان ظاهراً .

وقد وجهت مصر الضربة الاولى. اذ قاد نحو فرعون مصر جيشاً كبيراً وسار على رأسه منتقلا من نصر الى نصر حتى بلغ مدينة كركميش على الفرات (جرابلس الحالية)، حيث وجد نفسه وجهاً لوجه امام الجيش الكلداني بقيادة نبوخذ نصر[١] ابن نابوفلاصر ووريث عرشه العتيد . واسفرت المعركة عام ٦٠٥ عن انكسار الجيش المصري وانهزامه . فتابعت جيوش نبوخذ نصر المنتصرة زحفها جنوبـاً متعقبة آثار الجيش المصري واحتلت مدينة اورشليم عام ٥٩٧. اما المدن الفينيقية فقد عادت الى اتبـاع سياستها التقليدية : الاعتراف بالامر الواقع . ولكنهـا احتفظت باستقلالها الداخلي فكانت شبه مستقلة على ان تدفع الجزية الى الاسياد الكلدانيين الجدد . كان اللبنانيون القدماء كسنابل الحقل تنحني عند مرور العاصفة ولكنها لا تتكسر . وهكذا اخلدوا الى السكينة في ظل الحاكم الجديد كما اخلدوا

١ ـ ارميا ٤٦ : ٢

Josephus, *Apion*, Bk. I, ch. 19 .

الى الحاكم القديم . غير ان بعض المدن الفينيقية مثل صور وصيدا وبعض البلدان المجاورة مثل ادوم وموآب وعمون (وهذه تقع شرقي نهر الاردن) واليهودية عقدوا تحالفاً عسكرياً ضد الكلدانيين معتمدين في تحالفهم هذا على عون عسكري تقدمه لهم مصر . ولكن بعضهم كان يوجس خيفة من هذا التحالف العسكري . وها هو ارميا النبي يتنبأ بسقوط هذه الدول المتحالفة وينصح شعبه ويحذره من مغبة مقاومة الكلدانيين (تجد كل هذا في الفصل ٢٧ من سفر ارميا) . يقول ارميا . عن لسان يهوه « والان قد دفعت كل هذه الاراضي ليد نبوخذ نصر عبدي ...) ولكن تحذيره كان صيحة في واد . اما نبوخذ نصر فقد قبل التحدي واقام لنفسه مركزاً في ربلة وهي مدينة في سورية جنوبي حمص على نهر العاصي ، ومن هناك ارسل جيشاً لاخضاع المدن الفينيقية ولاتمام الاستيلاء على اليهودية . أما الجيش المصري بقيادة خفرع[1] ، خليفة نخو ، فقد حاول ان يقاوم الزحف الكلداني غير انه اضطر الى التراجع سريعاً[2] . وبذلك تمت نبوءة اشعياء الذي وصف مصر في تلك الحقبة بقوله « انك قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة على مصر[3] ...» واما اورشليم ، التي كانت ترأس هذا التحالف ، فقد سقطت في يد الكلدانيين سنة ٥٨٦ ، وبذلك زالت مملكة يهوذا من الوجود . ثم ان نبوخذنصر وجه جيشه بعد ذلك نحو صور زعيمة التحالف الفينيقي . وكان ملك صور ، اتو ـ بعل الثاني ، عازماً على المقاومة ، فأخذ يقيم الحصون وينشيء القلاع لمجابهة الجيش الكلداني . وقد صدق بعض نبوءة حزقيال النبي في صور البرية لا في صور البحرية . اسمعه يقول (حزقيال ٢٦ : ٧ ـ ١١) : « هأنذا اجلب على صور نبوخذ نصر ملك بابل من الشمال ، ملك الملوك بخيل وبمركبات وبفرسان وجمع وشعب كثير . فيقتل بناتك في الحقل بالسيف ويبني عليك معاقل ويبني عليك برجاً ويقيم عليك مترسة ويرفع عليك ترساً . ويجعل مجانق على اسوارك ويهدم ابراجك بادوات حربه . ولكثرة خيله يغطيك غبارها . من صوت الفرسان

---

١ ـ وفي هيرودوتس يظهر اسم هذا الملك « Apries » راجع :
Herodotus, Bk. II, ch. 161; Diodorus, Bk. I, ch. 68.

٢ ـ ارميا ٣٧ : ٧ .

٣ ـ اشعيا ٣٦ : ٦ ، سفر الملوك الثاني ١٨ : ٢١ .

والعجلات والمركبـــات تتزلزل اسوارك عند دخوله ابوابك كما تُدخل مدينـــة مثغورة » .

اما صور البحرية ، فقد نجت من الوقوع في قبضة الكلدانيـين . فقد لجأ اليهـــا اهالي صور البرية وانشأوا فيها وسائل للدفاع ، إلا ان وسائل الدفـــاع الناجعة على البر ، لا تجدي نفعـــاً في البحر . ولكن بالرغم من ضعف وسائـــل الدفاع ، فانهم قاوموا الحصار مدة ١٣ سنة (٥٨٥ ــ ٥٧٢ ق. م.) ممـــا لا مثيل له في تاريخ الحروب[١] . ومع هـــذا الحصار الطويل الامـــد ، فان الكلدانيين لم يهاجموا المدينـــة لانها عرضت عليهم استسلامـــاً جزئياً قَبِلَ بـــه الكلدانيون ؛ فرفعوا عنهم الحصار واخذوا من اهـــالي المدينة عدداً قليـــلا من وجهائها واعيانها وحملوهم الى بلادهم كرهائن . وقـــد ترك لنا الكلدانيون سجلا بهذه الاعمال العسكرية بشكل نقشين كُتبا على صخرتين عند مصب نهر الكلب اما النقش فنسخة طبق الاصل لنقش خلفه لنا نبوخذ نصر على صخرة في وادي بريسا قرب ربلة حيث يظهر الفاتح في النصب الاول واقفا امـــام الارز ، وفي الثاني يَصُدُّ اسداً يهاجمـــه[٢] . يقول : [ثقة] مني بقوة الالهـــين نابو ومردوخ نظمت حملت عسكرية ضد لبنان . وقد جلبت المسرة والبهجة الى تلك البـــلاد بطردي كل عـــدو والقضاء عليه في طول البـــلاد وعرضها . وقد اجتزت وديانا عميقة ، وفتحت لجيشي مسالك في الصخر ، وحيث اعترضني الصخر كنت افتته. وهكذا انشأت طريقا مستقيما ممهداً لنقل خشب الارز . وقد وفرت لاهل لبنان الطمأنينة والسلام وازلت عنهم كل مـــا من شأنه ان يعكر عليهم صفو الحياة . ولكي يعتبر كل طامح طامع في ارضهم فلا تحدثه نفسه بالاعتداء عليهم فاني قد اقمت نصبا عليه تمثالي شاهداً انني الملك على هـــذه المنطقة الذي لازوال لملكه[٣] .

ولكن هذه السيطرة الكلدانيـــة التي يقول عنها النقش ان « لا زوال » لها لم

١ ــ Herodotus, Bk. II, ch. 161; Josephus, *Antiquities*, Bk. X ch. 11, sec. 1.

٢ ــ Dussaud, *Topographie*, p. 95.

٣ ــ Pritchard, p. 307.

تدم اكثر من ٥٨ سنة. فان احد الاعيان من الرهائن الذين احتجزهم الكلدانيون ـ ولعله كان ابن اتو ـ بعل ـ عاد وتسنم العرش الصوري تحت اسم بعل الثاني . ثم خلفه على العرش اثنان آخران من هؤلاء الاعيان الذين لا نعرف شيئاً ثابتا عن نسبهم . وآخر ملوك صور احيرام الثـاني . كـان في عامه الرابع عشر عندما استولى كورش الفارسي،مؤسس الامبراطورية الفارسية،على بابل عام ٥٣٩ـ٥٣٨ وقبض على ملكها نابونيدس[١] . وبسقوط بابل في ايدي الفرس انتقلت فينيقيـة وجارتها من البلاذ الاخرى الى ايدي الفرس وكان انتقالا سهلا لم يصحبه شيء من العنف او الخراب . ويخبرنا نابونيدس في سجلاته انه كان يعـدن الحديد في لبنان [٢]، وكان يقطع اخشاب الارز لصنع الاثاث الفاخر كما فعل فراعنة مصر وملوك كنعان من قبل .

الاشعاع الحضاري

لا نبالغ اذا قلنا ان الحضارة الفينيقية فقدت، بسقوط صور، تلك الحيوية وذلك النشاط الخلاق اللذين كانت تتميز بهما هذه الحضارة . فان التجارة البحرية الدولية التي كانت تلعب فينيقية فيها الدور الرئيسي انتقلت الى ايدي الاغريق والقرطجنيين، وتجارتهم البرية انتقلت كذلك الى ايدي التجار الآراميين . وقد انشأ الاغريق ، بدءاً من القرن الثامن ، مستعمرات على شواطىء المتوسط في ايطالية وجزر البحر الايجي وآسية الصغرى حتى انهم انشأوا بعض المستعمرات في دلتا مصر. ونستطيع القول ان العالم الفينيقي بحضارته الزاهرة ونشاطه الخلاق وعلومه الراقية اصبح في طريق الزوال . فان حب المغامرة ، والسعي الى جمع الثروة ، أنى كانت الثروة ، عن طريق التجارة الرابحة، والفضول العقلي الذي كان يدفع بالمرء الى آفاق جديدة،

---

١ ـ Josephus , *Apion* , Bk. I, ch . 21; Wallace B. Fleming, *The History of Tyre* (New York, 1915), pp . 45-7.

وابن نابونيدس ووريث عرشه بلشاصر هو الذي رأى الكتابة على الحائط كما ورد في سفر دانيال ٥ : ٥ وما يليه .

٢ ـ Raymond p. Dougherty, *Records from Erech* (New Haven, 1920), No. 168, l.17.

جميع هذه الحوافز التي كانت مصدر النشاط الفينيقي فترت وفقدت حيويتها موقتاً. غير ان الشعب الفينيقي حافظ على شخصيته المستقلة طيلة الحكم الفارسي حتى فتوحات الاسكندر المقدوني . ولكن هذه الحضارة قبل زوالها كانت قد اقتبست عن البابليين والاشوريين عناصر حضارية متعددة – مادية ودينية ولغوية – ونشرتها في جميع اطراف حوض المتوسط. فالفينيقيون مع الاغريق اغنوا الحضارة الاوروبية عن طريق ادخال النباتات النافعة والمعادن التي تدخل في مختلف الصناعات كما تدل اسماؤها :

الاسم العربي	الاسم الاوروبي	الاسم العربي	الاسم الاوروبي
كاسية	cassia	المندراك	mandrak
الخرّوب ، الخرنوب	carob	الناردين	nard
الشيكوريا	chicory	الزعفران	saffron
الكركم	crocus	السمسم	sesame
الكمّون	cumin	الجبس	gypsum
الزوفاء	hyssop	النفط	naphtha
اليشب (اليشم)	jasper		

وجميع الشعوب ، شرقية كانت ام غربية لا تزال حتى اليوم تستعمل النظام الاثني عشري (الذي قوامه ١٢) او الستيني (الذي قوامه ٦٠) لقياس الزمن وهو النظام الذي يعود في اصله الى الحساب البابلي. وتقسيم السنة الى ١٢ شهراً والاسبوع الى ٧ ايام لا يزال التقسيم الزمني المتبع في عهدنا هذا، وهو بابلي الاصل. والعلامات التي نستعملها لمنطقة البروج تكاد تكون واحدة بيننا وبين الاشوريين . وكثير من الموازين والمقاييس التي تعود في اصلها ايضاً الى البابليين انتشرت هنا وهناك على ايدي الفينيقيين .

الفصل العاشر

لبنان ايالة فارسية

كان اندفاع الفرس غرباً – وهم شعب هندو – اوروبي – نحو شواطىء المتوسط نذيراً بزوال سيادة الشعوب السامية ، تلك السيادة التي لم يستطيعوا استردادها الى ان قام العرب المسلمون ، بعد مرور الف عام ، بفرض سيادتهم على المنطقة . كانت الامبراطورية الفارسية التي أسسها كورش (٥٥٠ – ٥٣٠ ق. م.) ، والتي وسع حدودها ابنه قمبيز وداريوس ، مترامية الاطراف شاسعة المساحة . كانت تمتد شرقاً من نهر كوش الهندي ونهر الاندس وما وراءه الى البحر الايجي غرباً ، ومن القوقاس شمالا الى المحيط الهندي جنوباً . وقد كانت هذه المرة الاولى التي ضمت بلدان هذه المناطق تحت حكم قوي مركزي واحد . وكانت اطراف هذه المملكة المترامية متصلة بعضها ببعض بنظام من الطرق الحسنة المجهزة بالمحطات التي كان يستريح فيها رسل الملك ومرازبته[1] وقد صك الفرس النقود المعدنية الموحدة وادخلوها كعامل جديد في عالم التجارة. وانتشرت اللغة الآرامية انتشاراً واسعاً جعل منها لغة عالمية في كل المنطقة. وقد افسح التاريخ المجال لاول مرة للحضارتين السامية والهندو - ايرانية ان تتفاعلا وان تندمجا .

صيدا عاصمة الايالة السورية

قسّم داريوس الاول (٥٢١ – ٤٨٥) مملكته الى ٢٠ ايالة كانت الايالة الخامسة منها تشمل لبنان وسورية وفلسطين بالاضافة الى جزيرة قبرص . وقد اختيرت مدينة صيدا لتكون عاصمة الايالة. وقد جهزها الفرس بقصر فخم ليكون مقراً لحاكم الايالة وقصرا لاستضافة الملك في حال قيامه بزيارة للايالة . كما انشاؤا فيها حديقة ملوكية للنزهة والترفيه . وقد قسم الفرس فينيقية الى اربعة اقسام تابعة لاربع مدن

---

١ – سفر استير ٨ : ٩ – ١٠ .

شبه مستقلة : صيدا وصور وارواد وجبيل . وقد حافظت هذه الاقسام الاربعة التي تتمثل بالمدن الاربع المستقلة على نظام الملكية فيها . فقد كان لكل مدينة ملك يصك النقود باسمه . وكان ملك صيدا عند زيارة لامبراطور الفارسي يحتل المركز الاول بين ملوك المدن الفينيقية ، ثم يتلوه في المقام الثاني ملك صور ثم امراء الدول الاخرى[١] . وهكذا استعادت صيدا مقامها السياسي بين المدن الفينيقية[٢] .



قطعة نقود فينيقية من العهد الفارسي (حوالي ٣٤٠ ق.م.) . على وجه من القطعة يرى رسم سفينة فينيقية وتحتها فرس بحري . وعلى الوجه الثاني اسد يهاجم ثوراً . اما ترجمة النقش فهي : ادرا ملك جبال (أي جبيل)

كانت حالة السلم التي وطد الفرس اركانها ، ذلك السلم الذي يعرف بالسلم الفارسي ، احد العوامل التي عادت على المدن الفينيقية بكثير من الرخاء الاقتصادي . وكذلك كان لطرق المواصلات الحسنة بين اطراف الامبراطورية ، التي حرص الفرس على انشائها ، اثر بعيد الغور في استعادة الازدهار الى المدن الفينيقية . وبالرغم من الخسارة التي كانوا قد منوا بها من جراء فقدهم اسواقهم التجارية القديمة ، وبالرغم من انهم وجدوا في التجار الآراميين منافسين خطرين ، فقد فتحت امامهم الآن اسواق جديدة وآفاق جديدة ومتسع للتعبير عن نشاطهم . فقد توطنت في فلسطين جاليات فينيقية ، وكان في ممفيس حي يعرف بالحي

١ – Herodotus, Bk. VIII, ch.67 .

٢ – Eiselen, pp. 61-3 .

الصوري[١] نسبة الى الفينيقيين الذين هاجروا اليهـا من صور ، تماماً كما نرى في عهدنا هذا احياء لبنانية في نيويورك وسان بولو وبونس ايرس . وظل اللبنانيون ينعمون باحد مواردهم الاقتصاديـة التي لا تنضب : خشب الارز . فقد اعطى كورش الفارسي اليهود امتيـازاً بقطع غابات الارز ، فكان اهل صيدا وصور ينقلونه بمراكبهم[٢] . ويظهر ان هـذه الغابات كانت تعتـبر ملكا للدولة : ويذكر داريوس في نقش وجـد في قصره الملوكي العظيم في مدينة سوسه والذي يتحدث فيـه عن تشييد القصر بان « الخشب الذي يدعى نوربنا (اي الارز) مصدره جبل يدعى لبنان . من هناك جلبت الخشب[٣] » .

وقد كان الفينيقيون باساطيلهم العظيمة الحسنة التنظيم والتجهيز عوناً كبيراً للفرس في حروبهم. فقد كانت المراكب الفينيقية بمثابة العامود الفقري في الاسطول الفارسي ، وكان ملك صيدا بمثابة امير البحر الاول . والارجح ان قمبيز لم يكن باستطاعته غزو مصر (٥٢٥) لولا المعونة التي كان يلقاها من الاساطيل الفينيقية. وقد كان هذا العون العسكري البحري تطوعاً لا اجبارياً . والظاهر ان اهل المدن الفينيقية المستقلة كانوا يشعرون انهم حلفاء الفرس لا اتباعهم . ولا نشك في ان الفينيقيين في الوقت ذاته كانوا يربحون الاموال الطائلة من « مقاولات الحرب » ومن وجود الاساطيل الفارسية في موانيهم. ولكن عندما طلب اليهم قمبيز امداده بالمراكب لمهاجمة قرطجنة ابنة صور المجيدة ، رفضوا باباء لانه كان بينهم وبـين قرطجنة معاهدة صداقة، ولا يمكنهم بالرغم من هذا ، « مهاجمة ابناء جلدتهم[٤] » . غير ان الفينيقيين لم يترددوا لحظة في الاشتراك بكل قواهم في الحروب الفارسية الاغريقية التي هزت العالم آنذاك . ولعلهم وجدوها فرصة سانحة لتسديد ضربة قاصمة الى عدوهم البحري اللدود : الاغريق . وقد زودوا الاساطيل الفارسية ب ٢٠٧ من المراكب، وخاضوا معهم غمار معارك بحرية عديدة منها المعركة البحرية الشهيرة بالقرب من ميلاتس(٤٩٤)، والمعركة البحرية في مياه سلاميس (٤٨٠).

١ — Herodotus, Bk, II, ch. 112.

٢ ـ سفر عزرا ٣ : ٧ .

٣ — V. Scheil, *Mémoires de la mission archéologique de Perse*, vol. XXI (Paris 1929), p. 19.

٤ — Herodotus, Bk. III, ch. 19.

وكان من نتائج هذه المعارك ان استولى الفرس على بعض الجزر في البحر الايجي وعلى بعض المدن على الشاطىء الاوروبي . وقد كانت هذه الحرب بين الفرس والاغريق تتصف بانها حرب بين الاغريق والفينيقيين لتقرير امر سيادة البحر . ولكن لما خسر الفرس معركة سلاميس امر ملكهم احشويرش بقطع رؤوس بعض القواد الفينيقيين ، فأبى القواد الباقون استئناف الحرب الى جانب الفرس ، وانسحبوا في ظلام الليل من المعركة متجهين بمراكبهم الى بلادهم(١) . ولمدة خمس عشرة سنة لم يرد بعد هذا الحادث ذكر لاشتراك مراكب فينيقية مع الاساطيل الفارسية . يقول مؤرخ اغريقي(٢) ان اكليل الغار في هذه الحرب استحقه « الاثينيون في المعسكر الاغريقي » و « الصيدانيون في معسكر البرابرة » . وقد ذكرنا سابقاً ان لفظة « صيدانيون » كانت تطلق على جميع الفينيقيين احياناً كما كانت تطلق لفظة « صورانيون » احياناً اخرى .

ولم يلمع اسم الفينيقيين في هذه الحرب كمحاربين فحسب ، وانما برز اسمهم كمهندسين وبنائين بارزين . فانهم اشتركوا في بناء الجسر الخشبي القائم على مراكب والذي عبرت عليه جيوش احشويرش فوق الدردنيل الى الشاطىء الاوربي(٣) . ولما اشتركوا في حفر القناة في المضيق الذي يقع بين جبل اثوس والبر اصروا على ان يكون عرض سطح القناة مساوياً لعرض قعرها مما يدل على « حذق وبراعة في جميع الأعمال التي يقومون بها(٤) » .

اتحاد المدن الفينيقية ومحاولتهم التحرر ونيل الاستقلال

ومن الأدلة الاخرى التي تؤيد زعمنا بان المدن الفينيقية كانت تتمتع بالاستقلال في العهد الفارسي ان هذه المدن حاولت انشاء اتحاد بينها ترأسه مدينة طرابلس . كانت تتألف هذه المدينة في الاصل من ٣ جاليات صيداوية وصورية وارروادية . وقد اتحدت فيما بينها في السنة الاولى للملك ارتحتشتا الثالث اوخس

١ – Herodotus, Bk. VIII, chs. 89-90.
٢ – Diodorus, Bk., XI, ch. 13.
٣ – Herodotus, Bk., VII, ch. 34 .
٤ – Herodotus, Bk., VII, ch, 23 .

(٣٥٩ ـ ٣٣٨) واطلقوا عليها اسماً سامياً « اثر » او ما يشابهه ، كما يبدو على بعض النقود التي يعود عهدها الى ١٨٩ ـ ١٨٨ ق. م . اما الاغريق فقد اطلقوا عليها اسم طرابلس (ومعناه ثلاث مدن[١]) . وكانت المدن الفينيقية الاربع المستقلة تعقد مؤتمراً سنوياً في هذه المدينة الجديدة ، طرابلس يحضره حوالي ٣٠٠ معتمد يبحثون[٢] فيه المشاكل والشؤون التي لها علاقة بمصالح البلاد عامة . وفي سنة ٣٥١ ق. م. انعقد احد هذه المؤتمرات في شكل مؤتمر عام اعلن فيه المؤتمرون عن عزمهم على اعلان الاستقلال التام .

استطاع الفرس والفينيقيون ان يتعايشوا وان يتعاونوا طيلة قرن وثلاثة ارباع القرن . ولكن ما ان اطل عام ٣٦٠ حتى بدأ الولاء الفينيقي يتأرجح . فان ستراتون (وهو تحريف للاسم الفينيقي عبد عشتروت) ملك صيدا المعروف بميوله للاغريق ، حاول الدخول بمواثيق صداقة واخاء بينه وبين الاثينيين . وقد قابل هؤلاء هذه البادرة باعفاء الصيدانيين في اتيكة من الضريبة التي كانوا يفرضونها على الغرباء النزلاء في بلادهم . ويبدو ان العلاقات التجارية بين الاغريق والفينيقيين في هذه الفترة اخذت تتحسن ، ودخلت في طور من التبادل الودي . واخذت جاليات فينيقية كثيرة تستقر في بلاد الاغريق ، لا سيما في ميناء بيريه حيث كان لهم معابد ومقابر . فقد عثر في اثينة على نقوش كتبت على قبور فينيقية[٣] . ولكن محاولة ستراتون (عبد عشتروت) ملك صيدا للخروج على طاعة الفرس لم تنته الى اي نجاح . وقد ظلت المدن الفينيقية المستقلة تبدي ضروبا من النقمة والتململ طيلة عشرات السنوات التالية . فان ولاة الملك ارتحشتا ابدوا من الغطرسة والفظاظة في معاملتهم الفينيقيين ، ما نفرهم منهم . وقد زاد في حدة هذه النفرة زيادة الضرائب التي كانوا يفرضونها على الاهالي . ولا شك في ان الفينيقيين بدأوا يشعرون بان شمس الفرس آخذة بالافول .

---

١ — George F. Hill *Catalogue of the Greek Coins of Phoenicia* (London, 1910) see. 48 .

٢ — Strabo, Bk. XVI, ch. 2, sec. 15; Diodorus, Bk. XVI, ch 41.

٣ — *Corpus Inscriptionum Semiticarum*, part I, Vol. I (Paris 1881), Nos. 114-21 .

بدأت الثورة الفينيقية ضد ارتحتشتا الفارسي في الحي الصيداوي في طرابلس، ومن هنـــاك انتشرت بسرعة حتى عمت جميع الشاطىء اللبناني . وكان طبيعيا ان تمدهم مصر بالعون والتشجيع . ثم ان مركز الثورة انتقل من طرابلس الى صيدا بقيادة ملكها تنّس. وقد قطع اهل صيدا اشجار الحديقة الملوكية فيها — وهي عادة لا تزال شائعة في لبنان اذا اراد احدهم ان ينتقم من عدوه — واشعلوا النار في التبن والحشيش اليابس المخزون للخيالة الفرس[1] . ثم انهم اسرعوا في جمع جيش من المرتزقـــة ، واستحصلوا على مراكب حربية من ذوات المجاذيف المتعـــددة الطبقات ، واسلحة وذخائر ومواد غذائيـــة واستعدوا للمعركة المقبلة . وكذلك فعل ارتحتشتا . فانه لم يضيع دقيقة واحـــدة بل انه ترك بابل على رأس جيش قوامه ٢٠٠ الف راجـــل و٣٠ الف فارس وجهز في البحر ٣٠٠ مركب حربي و٥٠٠ مركب تجاري[2] . وبينما هو في طريقه من العراق التقى ببعض ولاته على سورية وكيليكية الذين حاولوا قمع الثـــورة في لبنان ، ولكن اللبنانيين كانوا قد هزموهم وطاردوهم . اذ أن تسعا من المدن الفينيقية الكبيرة كانت قد طردت فلول الفرس واعلنت استقلالها التام ولكن عندما سمع تنّس ملك صيدا بان ارتحتشتا قادم على رأس جيش عرمرم ، اوجس خيفة وقام بمحاولة فاشلة ، فسلم المدينة للفرس رشوة لكي ينجو من موت اكيد . ولكن اهالي صيدا صمموا على الموت اباة احراراً . لا سيما بعد ان سمعوا ان ارتحتشتا قتل ٥٠٠ وجيه من وجهاء مدينتهم الذين كانوا قد خرجوا لملاقاته وبايديهم اغصان الزيتون . وفي ساعة قنوط ويأس احرق الصيداويون جميع مراكبهم في الميناء لئلا تحدث احد المواطنين نفسه بالهرب بحراً ، ودخلوا بيوتهم واقفلوا ابوابهم واستسلموا للموت حرقاً[3] . ويقال ان اكثر من ٤٠ الف نسمة هلكوا في هذا الحريق الهائل . وكان في رماد الموتى من ذهب الحلي وفضتها الكثير بحيث ان الملك الفارسي ارتحتشتا باعها بالمزاد . ومن نجا من اهـــل صيدا قبض عليـــه وسبي الى بابل . وهكذا اصبحت المدينة الزاهرة ، سيدة المتوسط ، كومة من رماد سنة (٣٥٠ ق . م) وحرمَ علماء الاجيال التالية من الوقوف على

---

١ — Diodorus, Bk. XVI, ch.41.

٢ — Diodorus, Bk. XVI,ch. 40.

٣ — Diodorus , BK . XVI , chs . 43 - 5 : Eiselen , pp . 75 - 7

شيء من سجلاتها ووثائقها . وكانت هذه هي المرة الثانية التي تزول فيها المدينة من الوجود زوالا يكاديكون تاماً وبزوال صيدا الفينيقية ثم زوال صور من الوجود بعد فترة قصيرة ، لفظت الحياة القومية المستقلة النفس الاخير . وقد كان خراب المدينة وحرقهـا صدمة عنيفة بعثت في نفوس اهل المدن الفينيقية الباقية الخوف والهلع فاستسلموا . ولكن استيلاء الفرس على الشاطىء اللبناني الذي اشتروه بالدم والنار لم يدم طويلا . فانه بعد مرور ١٨ عاماً سقطت الامبراطورية الفارسية الى الحضيض تحت الضربات التي سددتها اليهـا قوة جديدة غير منتظرة برزت في الغرب : الاغريق .

النواحي الثقافية

انه يصعب على المؤرخ ان يُقَيِّمَ الاثر الحضـاري الذي تركه الاحتلال الفارسي للبنـان طيلة قرنين من الزمن . فان المصادر التي لدينا ضئيلة ، وهي في اكثرها تنحصر في بقايا نقود، وبضعة نقوش هنا وهناك، وبعض اشارات وردت في اسفار التوراة ، وفي كتابات المؤرخين الكلاسيكيين (الاغريق والرومان) . انما هنالك حقيقة بارزة وهي ان حضارة لبنان ظلت حضارة سامية . وكذلك ظلت حضارة سورية حضارة سامية آرامية يغلب فيهـا العنصر الحضاري الغربي — الاغريقي — اكثر مما يظهر فيها العنصر الشرقي . نعم لقد عثر مؤخراً على تماثيل صغيرة في خرائب قصر في صيدا يعود الى احد ولاة الفرس تشبه الى حد بعيـد التماثيل التي عثر عليها في مدينة اصطخر ؛ ولكن النواويس الحجرية العديدة التي





قطعة نقود قيمتها شاقلان وجدت في صيدا حوالي ٣٨٤ — ٣٧٠ ق . م . على وجه منها تظهر سفينة فينيقية ، وعلى الوجه الثاني ملك فارسي في عربته تجرها الجياد

كشف عنها في صيدا ، تدل بوضوح على ان فن النحت الاغريقي الاتيكي كان الفن السائد في لبنان في القرن الرابع قبل الميلاد . واصبح الدرهم الاتيكي (قطعة نقود اغريقية) العملة الرسمية السائدة ، وهي عملة راجت قبل هذه الفترة في القرن الخامس . في هذين القرنين (الخامس والرابع) انتشرت صناعة الخزف الاغريقية في جميع اقطار حوض المتوسط الشرقي . فان الانتصار البحري الحاسم الذي احرزه الاغريق على الفرس، وتضييق الرقعة الجغرافية على التجارة الفينيقية في غربي المتوسط ، كانا من الحوافز التي دفعت بالتجارة الاغريقية الى التوسع والازدهار في شرقي المتوسط . كانت تلك الحروب بداية عهد احتكاك عسكري بين الشرق والغرب . وليست فتوحات الاسكندر المقدوني وحروبه في الشرق ، ومن بعده حروب القائد الروماني بومبي ، ثم معاوية الاموي ، وصلاح الدين ، وريكاردوس قلب الاسد ايام الصليبيين ، حتى الازمنة الحديثة عندما ظهر نابليون في جيوشه في مصر ،والقائد الانكليزي اللنبي في الحرب العالمية الاولى ، نقول ، لم تكن هذه الحروب سوى تتمة ، لهذا الاحتكاك العسكري السياسي بين الشرق والغرب . ولكنه لم يكن احتكاكاً يقتصر على الحروب وحسب ، بل كان اتصالا مادياً حضارياً ايضاً . فان بلاد الاغريق التي كانت في القرن السابع قبل الميلاد تقتبس عن الحضارة اللبنانية وتتعلم منهم الصنائع والفنون اصبحت الآن (في الخامس والرابع) بلد الحضارة الراقية التي يقتبس الغير عنها ، واصبح الاغريق ينشرون الحضارة بعد ان كانوا يقتبسونها عن الغير . حتى انه في القرن السادس قبل الميلاد بدأت جاليات اغريقية تجد لنفسها مستوطناً على طول الشاطىء السوري ــ اللبناني . وقبل فتوحات الاسكندر بقرن من الزمن كانت جماعات وجاليات اغريقية من تجار وصناع قد استقرت في المدن الساحلية .

القسم الثالث

العصر الإغريقي - الروماني

الفصل الحادي عشر

الاسكندر المقدوني وخلفاؤه : السلوقيون

كان فيليب المقدوني ، الذي بوأ بلاده مركز الزعامة بين الدول الاغريقية ، قد اعد العدة لتحرير المدن الاغريقية في آسية الصغرى وهي المدن التي كانت قد وقعت في قبضة الفرس . وكان يحلم بأن يرد يوماً الزيارة الملوكية التي قام بهـا داريوس واحشويرش الى اليونان . ولكن القدر لم يمهله اذ انه وقع قتيـلا بطعنة خنجر . فكان على ابنه الاسكندر ، الذي كان يفوق اباه همة وطموحاً ، ان يحقق هذه الامال .



قطعة نقود من صك الاسكندر المقدوني وجدت في عكا . على وجـه يظهر راس هرقل وعلى الوجه الآخر الاله زفس جالساً على عرشه ممسكا بيد الصولجان وباليد الاخرى الممدودة نسراً

هزيمة الفرس في معركة ايسوس

كان الاسكندر فتى ابن عشرين سنة لما زحف ربيع ٣٣٤ ق. م. على رأس جيش يقرب عدده من ٣٥ الف رجل ، فعبر الدردنيل واجتـاح آسية الصغرى التي كانت آن ذاك ايالة فارسية . ثم تابع سيره جنوبـاً الى المضايق الكيليكية في جبال طورس ، وما كاد يسير قليلا في السهول المنخفضة في شمالي سورية حتى التقى بداريوس الثالث (٣٣٦ ـ ٣٣٠) على رأس جيش خليـط من مختلف الشعوب والطوائف ، يفوق جيش الاسكندر بثلاث مرات عدداً . يقول المؤرخ

اليهودي يوسيفوس [١] الذي وضع تأريخه حوالي ٧٠ ميلادية ، ان جميع سكان آسية « كانوا موقنين ان الجيش المقدوني لن يجرؤ على مقابلة الجيش الفارسي بسبب تفوق الفرس في العدد » . وقد ابدى هذا الرأي المؤرخ اليوناني ديودورس الصقلي الذي سبق يوسيفوس بقرن واحد [٢] . ولكن تقديرات هذين المؤرخين لم تكن لتنطبق على الاسكندر . فقد هزمت جيوشه (في عام ٣٣٣) الجيوش الفارسية المتفوقة في العدد شر هزيمة في مضيق ضيّق بالقرب من ايسوس. فقد ثبت في هذه المعركة ان النصر كان حليف المتفوّق في الدهاء والفن الحربي . وعندما رأى ملك الفرس، الذي كان يراقب سير المعركة من على عربة فخمة تجرها اربعة رؤوس من الخيل الواحد الى جانب الاخر ، ان جيشه خسر المعركة لاذ بالفرار شرقاً مع من تبقى حوله من جنود، مخلّفاً حريمه في المؤخرة . واحياء لذكرى هذا الانتصار بنى الاسكندر على ساحة الحرب هذه مدينة سماها باسمه: الاسكندرونة . وكان من نتائج هذا الانتصار الباهر الحاسم ـ الذي لم يكن سوى مقدمة لانتصارات لاحقة ـ ان ارتفع اسم الاغريق عاليا في البلدان المجاورة والقى الرعب واليأس في قلوب الفرس .

المدن الفينيقية تفتح ابوابها

وقد رأى الاسكندر من الحكمة ان يؤمن المواصلات البحرية والبرية . فعدل عن متابعة الجيش المنهزم شرقاً وتابع زحفه جنوباً . غير انه ارسل كتيبة من الفرسان شقت طريقها في وادي العاصي باتجاه دمشق لتحتلها ، اذ كانت دمشق آن ذاك مقر اركان الفرس في سورية . اما هو فقد سار في محاذاة الشاطىء ، فاخذت المدن الفينيقية تفتح ابوابها في وجه الفاتح الجديد الواحدة تلو الاخرى . مثال ذلك ان ملك ارواد ، الذي كان يملك ايضاً على مارثوس وعلى بعض مدن اخرى في المنطقة ، بعث بابنه على رأس وفد لملاقاة الفاتح العظيم . وعندما مثل بين يديه وضع على هامة الاسكندر تاجاً من ذهب [٣] . وقد استسلمت جبيل

١ ـ *Antiquities*, Bk. XI ch. 8, sec. 3.

٢ ـ Diodorus, Bk. XVII, ch. 32, sec. 4.

٣ ـ Arrian, *Anabasis Alexandri*, Bk. XIII, ch. 2; Quintus Curtius, *De Rebus Gestis Alexandri Magni*, Bk. IV, secs. 5 - 6.

وبيروت الى الفاتح المقدوني دون اية مقاومة . اما صيدا التي كانت قد استحالت الى ركام من رماد اثر الثورة التي قامت بها ضد الفرس ، والتي اشرنا اليها آنفاً ، فلم تكن في وضع تستطيع فيه ابداء اية مقاومة . فحصونها لم تُتنَ ثانية حتى زمن الصليبيين . وقد عرض الاسكندر على اثنين من وجهاء المدينة الذين استضافوا قائد الاسكندر وكرموه ان يتوج احدهما ملكاً على صيدا ، ولكن الرجلين أبيا هذا العرض الكريم قائلين ان هذا يخالف عرف المدينة ، اذ لا يحق لاحد من الشعب ان يحمل التاج اذا لم يكن ينتسب الى العائلة المالكة . وقد قبل الاسكندر اعتذارهما وقدم التاج وثوب الارجوان وشارات الملك الى احد ابناء العائلة المالكة الذي كان رجلا فقيراً يتعهد بستان احد الملاكين اسمه في الاغريقية عبد الاومنس [1] (Abdalominus) .

خراب صور

كانت مدينة صور ، سيدة الشاطىء اللبناني التي تجرأت من قبلُ فتحدّت جحافل شلمناصر ونبوخذ نصر ، الوحيدة بين المدن اللبنانية التي سدت ابوابها في وجه الفاتح . فقد كان تاريخ مدينتهم المجيد ، وكانت انتصاراتهم في الحروب مبعث يقين ان هذا العدو المقدوني الجديد الذي لا يعرفون عن امره شيئاً لن يقهر مدينتهم الفخورة ، هذه المدينة الجزيرة الرابضة في البحر . كانت صور البحرية مبنية على جزيرة طولها ميلان وتبعد عن الشاطىء مسافة نصف ميل . وكان يحيط بها سور علوه ١٥٠ قدماً الى جهة البر . وكان التيار في المضيق البحري شديداً خطراً لا سيما عندما كانت تهب ريح الجنوب . وكان الى جانب سورها المنيع خط حصون آخر : المراكب البحرية الصورية ، فخر الاساطيل في المتوسط الشرقي ، ونواة الاسطول الفارسي . كانت صور تعتمد على هذه المراكب في دفاعها . وفضلا عن هذا فانها كانت تأمل العون العسكري من جاراتها الى الشمال . وقد تعهدت قرطجنة بالمزيد من مساعداتها ، وذلك بارسال افواج الحاجّين الى هيكل

١ ــ اما اسمه الفينيقي فيظهر هكذا : عبد ــ النم ومعناه ربما عبد الآلهة . اما ديودورس (Bk. XVII, ch. 47) فيجعله خطأً ملك صور .

ملقارت في المدينة الأم[١] . ولكن هذه الوعود التي تلقاها اهل صور وهــذه المساعدات التي علقوا عليها آمالهم تلاشت رويداً ولم تسفر عن شيء ملموس . وهكذا تعرضت المدينة الى اطول واقسى حصار عرفته في تاريخها المديد . ويظهر ان الاسكندر صمم ان يجعل من هذه المدينة التي جرؤت على مقاومته امثولة لغيرها. فشرع يردم البحر لانشاء طريق عرضها ٢٠٠ قدم تربط بين المدينة البرية والبحرية غير آبه للخسارة الجسيمة في الارواح البشرية . ولا نعرف في التاريخ سابقة لعمل جريء كهذا . اما الحجارة لردم البحر فكانت من ركام البيوت التي هدمها في صور البرية ، واما الاخشاب فكان يقتطعها من غابات لبنان . وكان بناء هــذا السد بطيئاً يتقدم نحو الجزيرة قيراطاً بقيراط . كان يقيم فوق رؤوس العمال ستائر من جلود ليقيهم شر النبال والحجارة التي كان يقذفهم بها حراس الاسوار في صور البحرية . ولم تقتصر مقاومة الصوريين البحريين على استعمال القوس والمقلاع ، ولم يكتفوا بارسال الغواصين لعرقلة اعمال البناء في السد ، وانما انشاؤا مواكب نار صغيرة محملة بالزفت والكبريت ومواد اخرى شديدة الاشتعال لقذفها على العمال وادوات البنــاء الخشبية . واخيرا عندما علم الصوريون ان الاسكندر نجــح في الاستعانة بثمانين مركباً حربياً جاء بها من صيدا وجبيل وارواد ثم عززها بقطع بحرية من قبرص ورودس ادركوا ان النهــاية تقترب . فجمعوا النساء والاولاد والعجزة الذين لا يرجى منهم خيراً في الاعمال الحربية وارسلوهم الى قرطجنة . اما الاسكندر فترك الحصار يأخذ مجراه وقاد بنفسه حملة كثيرة المخاطر لتأديب القبائل العربية في لبنان الشرقي .

ظلت المدينة التاعسة ترد هجمات المهاجمين العنيفة طيــلة سبعة اشهر طوال . واخيراً في منتصف شهر تموز عام ٣٣٢ استسلمت . وقد قتل من السكان نحو ٨ الاف رجل سقطوا في المعركة . وصلب المقدونيون الفي رجــل على الشاطىء المقابل ، وباعوا في سوق النخاسة ٣٠ الف نسمة كما تباع العبيد . وقــد هرّب البحارة الصيدانيون خلسة جماعة من اهالي المدينة وبعثوا بهم الى صيدا « متذكرين

١ ــ يبدو من وعد قرطجنة بارسال العون الى صور في محنتها ان المستعمرات كانت ترسل نوعا من الخراج الى البلد الام . ويظهر ان اهل قرطجنة كانوا يرسلون هذا الخراج الى هيكل الاله ملقارت في صور . وقــد استمرت هذه العلاقــة بين المستعمرة والبلد الام الى زمن حصار صور على ايدي المقدونيين .

رابطة النسب بينهم وبين اهل صور»[١]. اما الذين لجأوا الى حرم هيكل ملقارت فقد نجوا من حد السيف . وكان من جملتهم حامي المدينة البطل الشجاع وملكها عز الملك (Azimelcus) . أما الفاتح المنتصر ، الاسكندر ، فقد سار على رأس جنوده ، مرتدين كامل اسلحتهم ، فدخل هيكل ملقارت ـ وكانوا يقرنونــه بالههم هرقل الذي كان الاسكندر يدعي بأنه من احفاده ـ وقدم ذبائح الشكر . واقام المقدونيون بعدها حفلة العاب رياضية وسباق بالمشاعل[٢] . كانت هذه نهاية الدور العظيم الذي لعبته صور في التاريخ . وكان هذا الحصار آخر حصار عانته المدن الفينيقية على ايدي الغزاة والذي قاومته بضراوة شديدة . وقد سجل التاريخ للبنانيين غير مرة مواقفهم المجيدة للدفاع عن بلدهم .

نهاية الامبراطورية الفارسية

خلف الاسكندر صور وراءه مدينة خراباً اكلتها النيران ، مدينة تكاد تكون خاوية من السكان ، وتابع زحفه نحو غزة . كانت غزة فيما مضى احدى المــدن المشهورة التي احتلها الفلسطينيون . وكانت ، لما هاجمها الاسكندر ، مركزاً تجارياً مرموقاً ، لانهـا كانت شبه مستودع للبضائع الثمينة المستوردة من شبه الجزيرة العربية (البخور والتوابل) . ولم تكن المقاومة التي ابدتها المدينة باقل ضراوة او شجاعة من تلك التي ابدتها صور . ولكن حصارها لم يطل، فقد استسلمت المدينة وبيع اهلوها بيع العبيد[٣] بعد شهرين من الحصار ـ وفي اثنـاء الحصار جرح الاسكندر جرحاً بسيطاً . وبسقوط غزة مُهّد السبيل للفاتح للتقدم نحو مصر . اما مصر فلم تقاوم بل كانت الحرب عندها استبدال غاز جديد بغاز قديم (اي الفرس). وكان احتلال مصر مسماراً آخر دُقّ في تابوت الامبراطورية الفارسية في شرقي المتوسط . واثناء اقامته في مصر وضع الاسكندر اسس الاسكندرية ،

---

١ ـ (حيث يحصل العدد ١٥ الف نسمة مما يصعب تصديقه) Cf. Curtius, Bk. IV, sec. 16. Diodorus, Bk. XVII, ch. 46; Arrian, Bk. 11 ch. 24; Josephus, *Antiquities* Bk. X I ch. 8, sec. 3 .

٢ ـ Arrian, Bk. II, ch. 24.

٣ ـ Curtius, Bk. IV, sec, 17; Arrian, Bk. II, ch. 27 .

المدينة التي لا تزال تحمل اسمه . وهي التي قُيِّضَ لها ، فيما تلا ذلك من عصور ، ان تحتل مكانة عالية في التجارة الدولية ، ومركزاً حضارياً أغريقياً مرموقاً ، لانها اصبحت الوريثة الشرقية لحضارة اثينة (١) . ثم ان الاسكندر انكفأ شرقاً ماراً في سهل البقاع ووادي العاصي متجهـاً نحو الفرات . ومرّ في بلاد ما بين النهرين باتجاه شمالي شرقي عابراً نهر دجلة في نقطة تقع شمالي موقع نينوى القديمة . وفي السهل الواقع بين نينوى واربيل وقعت معركة بين جيش الاسكندر والجيش الفارسي ، وهو آخر جيش حشده ملك اخميني (Achaemenian) ينتمي الى الاسرة التي منها كورش وداريوس العظيمان . وكان النصر فيها لجيش الاسكندر (٣٣١) . اما داريوس فقد نجا من المعركة بنفسه . فتبعه الاسكندر الى اكبتانا (عاصمة ميديا القديمة ، وهمدان الحديثة) ولكنه لم ينج من الموت ، فقد اغتاله هناك متآمران (٣٣٠) (٢). فاقام الاسكندر نفسه وريثاً شرعياً لاخر ملوك فارس .

لم يقف طموح الاسكنـدر عند هذا الحد بل انه تابع زحفه شرقاً فعبر نهر سيحون (٣) وانكفأ جنوباً ، ماراً بمدينة كابل ، الى شمال شرقي الهند . لكنه بدأ يسمع تذمراً خافتاً كان يبديه جيشه المنهوك وقواده المتعبون . فقفل راجعـاً الى مدينة بابل حيث شرب وشرب حتى الثمالة . واخذ يفكر بفتوحات جديدة . غير ان حمى خبيثة هاجمته وهو في قصر نبوخذ نصر ، ومات في شهر حزيران سنة ٣٢٣ قبل ان يكمل عامه الثالث والثلاثين ، مخلفاً وراءه سجلا حافلا بالبطولة والشجاعة والصبر العجيب . دخل الاسكندر عالم الاسطورة فاصبح شخصية تدور حولها اقاصيص الابطال . وقد اضفى عليـه القرآن الكريم مسحـة من القداسة : « ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً . انا مكنّا له في الارض وآتيناه من كل شي سبباً ... » (سورة الكهف آية ٨٢ وما يليها)(٤) .

١ – Arrian, Bk. III, chs. 1 - 2.

٢ – Arrian, Bk. III, chs. 13 seq.

٣ – اسم النهر في التاريخ الكلاسيكي Jaxartes ، وهو النهر المعروف حالياً بنهر سير داريا واسمه في العربية سيحون وهو تحريف لاسم النهر الوارد ذكره في سفر التكوين ٢ : ١١ نيشون .

٤ – [لم يتفق المفسرون فيما بينهم على شخصية ذي القرنين وليس من المقطوع به انه هو الاسكندر المقدوني] .

الشرق والغرب يلتقيان

ان التبادل التجاري بين فينيقية وبلاد الاغريق الذي توطدت أسسه في العهد الفارسي ازداد ازدياداً كبيراً بسبب فتوحات الاسكنـــدر . فقد رافق التجار الفينيقيون حملته العسكرية ضد بلوخستان، تلك الحملة التي واجهتها شدائد واهوال. وكذلك فعل البحارة الفينيقيون ، فانهم لم يتوانوا عن تقديم كل مساعدة للجيش الاغريقي . وهكذا اجتاحت البضائع الاغريقية والسلع الاغريقية اسواق الشرق الادنى ، وتسربت اليها تيارات فكرية حضارية . وقد شجع الاسكندر الذي كان قد تزوج ابنة داريوس قواده ان يحذوا حذوه فيتزوجوا نساء اسيويات . وحاول الاسكندر ان يربط بين القارتين بروابط المحبة والزواج الشرعي ويخلق جيل جديد يتخذ الاخوة له شعاراً لا كما حاول ان يفعل زركسيس الفارسي (احشويرش) بربط اوروبة وآسية بجسر من خشب او بروابط تافهة عرضة للزوال[١] . ورغبة منه في تحقيق حلمه بتأسيس دولة عالمية واحدة لها شرائع موحدة ولغة واحدة فانه انشأ اكثر من سبعين مركزاً لتستوطنها جاليـــات مقدونية . وقد زاد السلوقيون والبطالسة ورثته عدد هذه المدن فيما بعد . وعلى ممر الايام زاد عدد سكان الاغريق في هذه المدن وذلك عن طريق التجار والصناع وارباب الاعمال ، فاصبحت هذه المدن مراكز اشعاع اغريقي للدين والحيـــاة السياسية والفنية والافكار العلمية من سورية الى شواطيء الهند . ولم يقو مر الزمن على محو الاثر الفكري الذي خلفته هذه المراكز الاغريقية . ولم يكن مجرى التفاعل الفكري ذا اتجاه واحد بل ان اهل هذه المدن الاغريقية نفسها تأثرت بالافكار الشرقية الجديدة ، وتبنت طقوساً دينية غريبة عنها ، وتعلمت فنونا تجارية دولية جديدة ،وتعرفت الى سلع وبضائع جديدة وحجارة كريمـــة لم يعهدها الناس من قبـــل . واصبحت اللغة الاغريقية تدريجيا لغة الفكر الراقي في جميع انحاء العالم المتمدن . ولما ظهر السيد المسيح على الارض بعد انقضاء ثلاثة قرون على هذا ، بلغ رسالته بالآرامية ، فعكف الآباء الاول على نقلها الى اللغة الاغريقية الشائعة في الطبقات المفكرة كي يفهموا الرسالة .

١ — Plutarch, *Complete Works, Essays and Miscellanies* (New York, 1909), vol. I, p. 164; Cf. Arrian, Bk. VII, ch. 11.

ولا ريب في ان اعظم تقدمة ثقافيـــة فكرية قدمها الاسكندر للعالم كانت افساح المجال الحضاري لتندمج فيه المدنيـــة الاغريقية ، بافكارها الجديدة ومؤسساتها ، بالمدنية الشرقية لينشأ عن هذا الاندماج مدنية جديدة نشيطة تعرف بالمدنية الهلينية .

بين حجري الرحى

ولكن بموت الاسكندر الفجائي سقطت امبراطوريته الشاسعة الارجاء التي انشأها في فترة قصيرة من الزمن. فقد دب الخلاف بين قواده واحتربوا فيما بينهم عند اقتسام اجزائها . واخيراً بعد فوضى مريرة ظهرت اربع ممالك على رأس كل واحدة منها قائد من قواده الاربعة : بطليموس في مصر ، وسلوقس في بابل ، وانطيغونس في آسيه الصغرى، وانطيباتر في مقدونية . «... ولما إعتز انكسر القرن العظيم وطلع عوضاً عنه اربعة قرون معتبرة نحو رياح السماء الاربع[1] » . في هذه الفترة من التطاحن كانت المدن الفينيقية مثل كرة تتقاذفها الايدي فتنتقل من قائد اغريقي الى آخر . وكان اول قائد ولي سورية[2] باجمعها لاومدون. غير إن حكمه عليها لم يطل اذ انه في عام ٣٢٠ انتقل لبنان وسهل البقاع (سورية المجوفة) حرباً الى بطليموس الاول مؤسس حكم البطالسة في مصر . وبعد ٥ سنوات انتقلت فينيقية من يد بطليموس الى يد انطيغونس حاكم آسية الصغرى . وفي عـــام ٢٩٦ انتقلت من يد انطيغونس الى سلوقس الاول مؤسس المملكة السلوقية في سورية ؛ وكانت انطاكية عاصمة السلوقيين ومركز الحكم فيها . وبعد عشر سنوات انتقلت فينيقيـــة مرة اخرى من يد السلوقيين الى بطالسة مصر . وظلت فينيقية احيـــاناً بكاملها واحياناً اخرى ببعض اقسامها ــ خاضعة لمصر حتى سنة ١٨٩ . وكذلك ظلت الحدود بين لبنان وسورية مائعة عرضة للتغيير زمناً ليس بالقصير . ففي عهد بطليموس الاول (توفي ٢٨٣) كانت حدود لبنان الشمالية على محاذاة ارواد وجنوبي حمص ، وحوالي ٢٥٠ تقلصت الحدود الى جنوبي بيروت ، وبعد مضي ٢٥ سنة

١ ـــ دانيال ٨ : ٨

٢ ـــ Curtius , Bk. X , sec. 2 ; Diodorus, Bk. XVIII , ch. I sec. 3; Appian, *Romaïka,* Bk. XI (*Syrius*), sec. 52 .



الالاهة عشتروت ، وجد هذا التمثال في صيدا ويعود زمنه الى القرن الثالث قبل المسيح

عادت فامتدت شمالا الى ارواد. فكأن التاريخ كان يعيد نفسه، اذ اصبحت فينيقية بين قوتين متحاربتين الواحدة الى شماليها والاخرى الى جنوبيها تتنازعان السيطرة عليها. غير ان الفارق الوحيد في هذه الفترة هو ان النزاع كان بين البطالسة الى الجنوب والسلوقيين الى الشمال.

تزعم صيدا مرة اخرى

في العهد البطليموسي، الذي دام ثمان وثمانين سنة (٢٨٦–١٩٨) عادت صيدا الى احتلال مركز اولي في هذه المنطقة وهي المرة الثالثة في تاريخ المدينة التي تعود فتلعب الدور الرئيسي على مسرح الحياة السياسية. فانها كانت تصك نقوداً باسمها وتملّك عليها من تشاء من ابنائها وقد ملك عليها بعض رؤساء كهنة الاله اشمون والألاهة عشتروت[1]. ومما يدل على استقلال الصيدانيين الذاتي وحريتهم في التصرف انهم كانوا يطلقون على حكامهم لقب « ملوك ». وقد كان نظام الحكم الذي اتبعه السلوقيون في ادارة البلاد تتمة لنظام الايالات الفارسية التي كانت تتمتع بشيء من الاستقلال الذاتي، الذي لم يكن ليتعارض مع الحكم المركزي مما عزز استقلال صيدا. وقد عرف من ملوك صيدا جملة كانوا يسمون ب « تبنيت » او « اشمون – عزر »[2] وقد كان تبنيت الاول يلقب نفسه، بكاهن عشتروت، وهو اللقب الذي استعمله لابيه اشمون – عزر الاول. ولعلّ اسم الملك تبنيت هو الذي خلد في اسم قرية من قرى جنوب لبنان تقع جنوبي شرقي صيدا تعرف بكفر تبنيت. اما اشمون–عزر الثاني (حوالي ٢٨٠) فقد وسع ارجاء ملكه حتى ضم اليه صور ويافا اللتين كانتا فيما مضى تابعتين لعاصمة ملكه صيدا[3]. وقد عثر عام ١٨٥٥ على ناووسه المنحوت على صورة انسان (راجع الرسم) في المقبرة بالقرب من مغارة

---

١ – غير ان تاريخ هذه الاسرة مجهول. قابل

Raymond Weill, tr. Ernest E. Row *Phoenicia and Western Asia* (London, 1940), pp. 190-1, Conteneau pp. 65, 68.

٢ – قابل « تبني » الوارد ذكرها في سفر الملوك الاول ١٦ : ٢١–٢٢

٣ – Cooke, p. 32; *Corpus Inscriptionum Semiticarum*, part I, Vol. 1, p. 15, 11. 19 - 20.

اما « دور » الوارد ذكرها في يشوع ١١ : ٢ فهي البرج بالقرب من طنطورا شمالي يافا.

ابلون (ابولو) جنوبي شرقي صيـدا . وقد عثر هناك ايضاً على ناووس للاسكندر وعلى نواويس غيره [١] . وبعد مضي ٥ سنوات على العثور على هذه المقبرة قام العالم الافرنسي ارنست رينان بحفريات واسعة النطاق في هذا الموقع [٢] فعثر على عدة نواويس عند رأسها تمثال رأس بشري او عليها تمثال انسان كامل مستلق على ظهره . ويعود تاريخ بعضها الى القرن السادس ق . م . اما ناووس اشمون ـ عزر فقـد وجد على غطائه ـ وهو من الحجر البركاني ـ اطول نقش فينيقي كتب على قـبر . ومحتويات هذا النقش لا تختلف عن محتويات الكتابات العادية التي وجدت على القبور ـ انزال اللعنات على من يمس القبر بسوء والتأكيد على ان القبر فارغ لا كنوز فيه تستحق السرقة [٣] .

تحت الحكم السلوقي

ظلت فينيقية اكثر من ١٠٠ سنة (١٩٨ ـ ٨٢ ق . م) جزءاً من المملكة السلوقية التي كان مركزها انطاكية في سورية . وقد كانت اولى المحاولات الجدية للاستيلاء على فينيقية تلك التي جاءت عام ٢١٨ على يد انطيوخس الثالث (٢٢٣ ـ ١٨٧) الذي كان يعتبر ، بعـد موت مؤسس المملكة السلوقية ، اعظم فاتح سلوقي . وكان يلقب عن جـدارة بانطيوخس العظيم . فقد اجتاح انطيوخس فينيقية بجيوشه السلوقية الظافرة وتابع زحفه جنوباً الى حدود مصر حيث اوقف البطالسة زحفه في معركة رفح ، وارغموه على التراجع الى ما وراء حدود لبنان الشمالية . ولكن انطيوخس لم ييأس ، فانه في حملاته العسكرية التالية التي توجها بانتصاره في معركة بانياس [٤] عام ١٩٨ ، وفق الى تثبيت اقدامه في فينيقية وقد اعتمد الاساطيل الفينيقية في حروبه ضد رومه كما فعل الاسكندر وزركسيس من قبله ، وكما فعـل سنحاريب قبل ذلك بنقله بنّائي السفن الى بلاده لبناء اسطول سار به في دجلة الى الخليج الفارسي لمهاجمة بلاد عيلام كما ذكرنا سابقاً .

١ ـ راجع الرسم . هنالك ٢٦ ناووساً من هذا النوع في المتحف الوطني في بيروت .
٢ ـ *Mission*, pp. 439 seq. Pls. XLI, XLII, XLIII .
٣ ـ Cooke, pp. 30 - 40.
٤ ـ وهي التي ذكرت في الاناجيل باسم قيصرية فيلبس .

كان خليفة انطيوخس الثالث الكبير ابنه ابيفانوس الملقب انطيوخس الرابع (١٧٥ ـ ١٦٤) . وقد ترامى الى انطيوخس الرابع ان مصر تعد العدة لحملة تسترد بها الشاطىء اللبناني وسورية المجوفة (البقاع) ـ وهما عصبا المواصلات بين مصر وسورية ـ فقرر ان يكون هو البادىء في الهجوم . وكان هجومه من البر والبحر ، وكان انتصاره ساحقاً عام ١٦٩ في معركة عند الحصن المعروف بحصن بلوزيوم[١]. وقد وقع فيها ملك مصر اسيراً ، وبذا احتل السلوقيون مصر السفلى بكاملها .

كانت امنية انطيوخس الرابع ان يخلق من شعوب مملكته المختلفة وحدة حضارية ثقافية . وقد كانت هذه امنية الاسرة السلوقية . وفي سعيه لتحقيق هذه الامنية كان انطيوخس الرابع انما يسير على خطى اسلافه .



قطعة نقود سلوقية وجدت في صور وصكت في صور ١٩٦ ـ ١٨٨ ق . م على وجه منها يظهر وجه انطيوخس الثالث ، وعلى وجه الاخر ابولو .

كان ملوك هذه الاسرة يأملون ان تلتقي اهداف شعوبهم عند هذه الغاية المشتركة : نشر الحضارة الهلينية . ولم يكن بعسير على الفينيقيين ان يتقبلوا الفكرة . والواقع انهم لم يترددوا في قبولها . مثال ذلك ان صور بدأت تقيم المهرجانات والاحتفالات الموسمية على النمط الاغريقي . ذلك انهم وحدوا بين طقوسهم الفينيقية التي كانوا يمارسونها عند تقديم القرابين وبين الطقوس التي كان يمارسها الاغريق عند اقامة الحفلات والمهرجانات والالعاب التي كانت تتميز بها الحياة الاغريقية . وقد حضر انطيوخس نفسه عام ١٧٥ ق.م. احد هذه الاعياد . واثناء العيد اعدم انطيوخس اولئك الذين اتهموا منيولس ، احد رؤساء الكهنة

١ ـ وفي العربية الفرما راجع :

Edwyn R. Bevan, *The House of Selucus,* (London,1902), vol. II,p. 137; Polybius, *Histories*,Bk. XXVIII, ch. 18 .

بسرقة الآنية المقدسة من هيكل سليمان وبيعها الى تجار صورانيين وبرشوة قضاته لينجومن القصاص. وقد اقام الصورانيون مأتماً مهيباً احتجاجاً على اعدام الضحايا البريئه[١] . غير ان علاقته باليهود ومعاملته لهم كانت تختلف تمام الاختلاف. ذلك ان انطيوخس الرابع بسبب رغبته في نشر الحضارة الاغريقية ، واعلانه ربوبيته (ثيوس ابيفانوس، اي الاله ابيفانوس الاله المتجسد) اثار حفيظة اليهود لمخالفة هذا لعقيدتهم الدينية . وكان من جراء حقدهم نشوب الثورة المعروفة بثورة المكابيين . ولم يستطع السلوقيون اخماد هذه الثورة العنيفة الا في ايام سيدتس الملقب بانطيوخس السابع (١٣٧ ـ ١٢٨) الذي كان آخر ملك من الملوك الاقوياء الشكيمة الذين ينتمون الى هذه الاسرة[٢] .

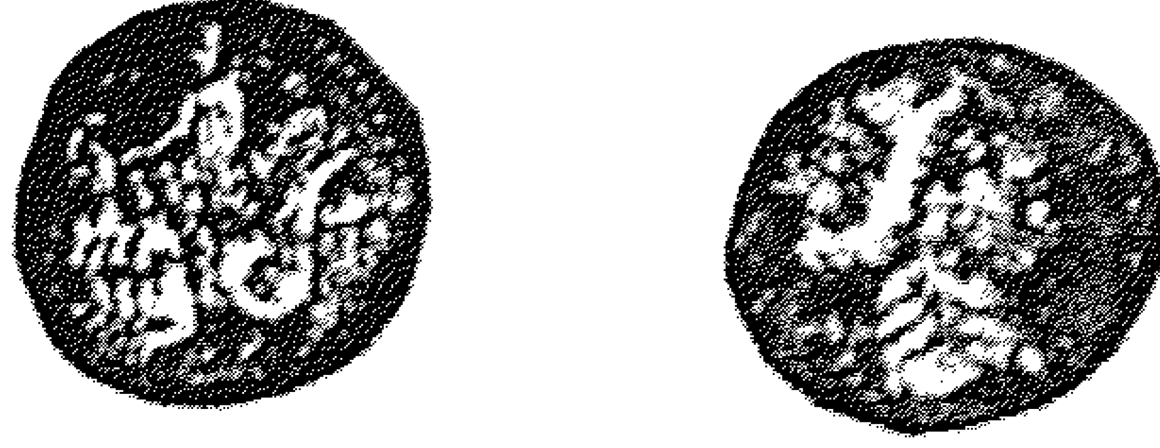
فترة الاستقلال الذاتي

عندما اخذ ظل السلوقيين بالافول بدأت المدن الفينيقية التجارية تتأهب لنيل الاستقلال وتوكيد ذاتيتها . وقد كانت الخطوة الاولى نحو نيل الاستقلال الذاتي ان تحصل المدينة على اعتراف بحصانتها (asylos) . ومن المرجح ان حصانة المدينة كانت تشترى شراء. وقد حصلت صور اولا على استقلالها بهذه الطريقة وكانت امتيازات المدن التي كانت تحصل على مثل هذه الحصانة تشمل الحماية ضد عدو خارجي ــ وكان اكبر عدو خارجي للمدن الفينيقية آنذاك القرصنة ــ والاعفاء الكلي او الجزئي من الضرائب الفادحة التي كانت تفرضها السلطة، وممارسة التحكيم القضائي ؛ واعتبار المدينة مأمناً للاجئين السياسيين الذين يأتون هذه المدن هرباً من ظلم سياسي او حيف يلحق بهم من الملك أو من عماله . وكان هؤلاء اللاجئون السياسيون يزيدون في عدد سكان المدن ويعملون على انماء اقتصادها[٣]

١ — Josephus, *Antiquities*, Bk. XII, ch. 5, sec I.
وسفر المكابيين الثاني ٤ : ١٨ ، ٣٢ : ٤٩

٢ — للاطلاع على قائمة كاملة بالملوك السلوقيين راجع :
Hitti, *History of Syria*, p. 241, n. i; p. 250, n. i; cf. A. Bouché Leclerque, *Historie des Séleucides* (Paris, 1914) pp. 640 - 1

٣ — M. Rostovtseff *The Social and Economic History of the Hellenistic World* (Oxford, 1941), pp. 844 - 6 .



قطعة نقود من بيروت (بريتوس) من القرن الثاني ق.م. على وجه منها يظهر رأس تيشه إلهة الحظ وعلى الوجه الاخر بعل ـ بروث على عربة

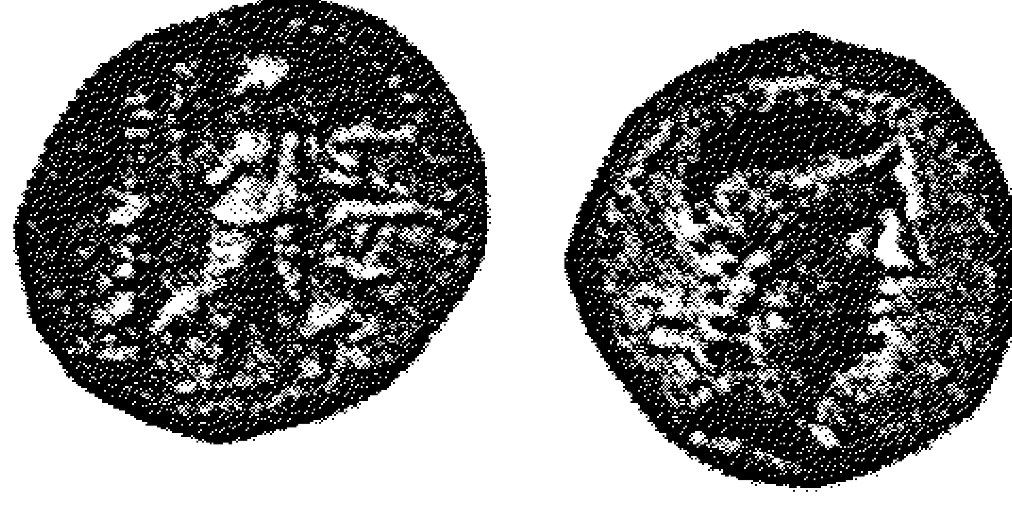
ان اول مدينة نالت الامتيازبان تكون ملجأ سياسياً كانت مدينة ارواد المنافسة ألاولى لمدينة اللاذقية ومدينة سلوقية[١]،اذ منحها هذا الامتياز كلينيكوس سلوقس الثاني (٢٤٦ـ٢٢٦) . وقد صكت باسمها كمية كبيرة من النقود الفضية ثم تلتها في الحصول على هذا الامتياز مدينة صور التي كان الاسكندر قد خربها . وقد منحها هذا الامتياز انطيوخس ابيفانوس ، ومنذ عام ١٢٥ ق.م. استقلت صوراستقلالا تاماً ، واخذت بصك سلسلة من قطع للنقود مختلفة القيم ، بعضها من ذهب . على الوجه الواحد من هذه النقود نجد صورة او تمثالا لشيء اغريقي (رسم شخص او رمز لاسطورة اغريقية) مما يدل على شيء من الاعتراف بالحكم المقدوني ، وعلى الوجه الثاني نجد رسماً او صورة لشيء فينيقي (صورة ملقارت مثلا) مما يدل ايضاً على شيء من الاستقلال الذاتي . ثم تلتهما في نيل الاستقلال بقية المدن الفينيقية : طرابلس وجبيل وصيدا وعكا . وجميع هذه المدن ، بما في ذلك مرثوس وبيروت ، صكت نقوداً باسمها[٢] . ونجد على وجهي قطعة النقود رموزاً لاسطورتين اغريقية وفينيقية وصور رؤوس ملوك سلوقيين وباعتبارها مدنا مستقلة كان لها ملء الحق والصلاحية ان تحسم خلافاتها فيما بينها دون اللجوء الى الحكومة المقدونية المركزية. فمن ذلك انمدينة ارواد عزمت على القضاء على منافستها مرثوس[٣] فخربتها ووزعت املاكها واراضيها على سكان ارواد . ولكن لم تلبث مرثوس طويلا حتى اعيد بناؤها .

ولكن هذا الاستقلال الذي اصبحت فينيقية تتمتع به الآن هو غير الاستقلال

١ ـ Strabo, Vol. XVI, ch. 2, sec. 14 .

٢ ـ Bevan, Vol. I, p. 229 .

٣ ـ Strabo, Bk, XVI, ch. 2, sec. 12; Rostovtzeff, p. 847 .



قطعة نقود من مارثوس (عمريت) ١٧١—١٧٠ ق.م.

الذي نعمت به من قبل عندما لم تكن هنالك قوى خارجية . لقد كان هذا الاستقلال الجديد اشبه ببناء مزخرف من الخارج فارغ من الداخل . فان الروح المتوثبة — سمها ما شئت روحاً قومية ، او شعوراً وطنيا — فارقت قلوب الناس وانقطعت الاسباب بين التقليد القومي القديم والجديد ، فانطفأت تلك الشعلة التي كان يتميز بها الخلق الفينيقي القومي وخبا ذلك النشاط العجيب الذي عرف به الشعب الفينيقي منذ اقدم الازمنة .

انتفاضة الاسرة السلوقية الاخيرة

تاريخ الاسرة السلوقية اثناء المئة سنة الاخيرة هو قصة فوضى وحروب اهلية وصراع بين عدد من المتنافسين للاستيلاء على الحكم . وقد اصاب لبنان من هذه الفوضى الضاربة نصيب وافر . اما القسم الجبلي من لبنان ، فان السلوقيين لم يعنوا بامره بل تركوه وشأنه كما فعل غيرهم من الفاتحين السابقين . غير ان المتاعب السياسية كانت تحيط بهم من كل صوب ، فقد كان اليهود الى جنوبهم يتحينون الفرص للانقضاض على السلوقيين عند اول بادرة ضعف يبديها الحكام . وكان الاقباط سكان شرقي الاردن . والفرثيون الى الشمال الشرقي ، والقبائل البدوية الى الجنوب الشرقي من حدودهم يتربّصون ايضاً للثورة على السلوقيين. ففي سنة ٧٠ ق.م استطاعت قبيلة عربية ان تؤسس لها ملكاً مستقلا لم يعترف بسلطة السلوقيين. وكان مركزه حمص . واستطاعت قبائل اخرى كانت تعرف بالقبائل الايطورية ان تؤسس لنفسها ملكاً مستقلا في سوريه المجوفة (=البقاع) كانت عاصمته عنجر (واسمها القديم Chalcis) [1] . كان الايطوريون قبائل عربية انما كانت لغتها

١ — وهذا اللفظ اغريقي معناه النحاس . اما موقع المدينة فيرجح انه موقع صوبا عاصمة مملكة آرامية قديمة كانت تعرف ايضاً بمملكة صوبا الآرامية .

الآرامية . وكانت بلاد الايطوريين تتسع احياناً فتشمل اقساماً من لبنان الشرقي وحوران وفلسطين (١) . في هذه الفترة بدأ الايطوريون ان يتسللوا غرباً الى الشاطىء اللبناني فاحتلوا منه القسم الذي يقع بين صيدا وثيوبروسوبون (Theouprosopon وهو ترجمة اغريقية للاسم الفينيقي فنوايل ، اي وجه الله ، اي الرأس المعروف برأس الشقعة شمالي البترون (٣) ، وخربوا بساتين بيروت وجبيل ، ولذا كان اهل البلاد يطلقون عليهم لقب « لصوص محترفون » . وكان هنالك مدن فينيقية اخرى تعمل على نيل استقلالها المحلي بقيادة زعماء اطلق عليهم المؤرخون الكلاسيكيون لقب طغاة (tyrants) . وهكذا تجزأت سورية الى اجزاء عديدة .

بومبي يخلف تيغرانس ملك ارمينيه

بينما كانت هذه الامور السياسية تجري في فينيقية ظهر عدو جديد غير منتظر من وراء الحدود الشمالية : تيغرانس ملك ارمينية . فقد ادرك هذا الملك ان الفرصة امامه سانحة لتوسيع حدود ملكه . كان الرومانيون مشتبكين بحرب ضروس مع الفرثيين ، فعقد تيغرانس حلفاً مع حميه ميثراديتس ملك بنطس الواقعة على الشاطىء الجنوبي الشرقي للبحر الاسود مكنه من اجتياح جزء كبير من بلاد ما بين النهرين (العراق القديم) وميديا . وفي عام ٨٣ ق . م كان تيغرانس يحارب السلوقيين المستضعفين للاستيلاء على الجزء الشمالي من سورية وكيليكية (٤) التي كان سكانها يمتون عرقياً الى الشعب الارمني بصلة وثيقة . ولم يكن اهل سورية في وضع يمكنهم من المقاومة لما حل بهم من الضعف اثر الحروب والفتن الداخلية للاستيلاء على الحكم . حتى ان المدن اليونانية ذاتها كانت ترحب بمخلص من الخارج يخلصها مما هي فيه من فوضى وتشويش ويرد اليها الحياة المستقرة . وهكذا خضع جميع من في سورية الى الحكم الجديد . وفي عام ٦٩ تقدم تيغرانس بجنوده جنوبا مهاجماً مدن الشاطىء الى ان وصل الى عكا – وكان اسمها اذ ذاك

١ – انجيل لوقا ٣ : ١

٢ – Strabo, Bk. XVI, ch. 2, sec. 18 .

٣ – Appian, Bk. XI, ch. 48 .

بطوليميوس ، اي نسبة الى بطليموس الاول . في عهد هــذا الملك الذي يلقب نفسه « ملك الملوك » بلغت ارمينيــة الذروة في التوسع والمنعة . وكان حليفه ، ميثراديتس في هذه الاونة يضم الى مملكته المقاطعات الرومانية في آسية الصغرى[١]



قطعة نقود من عهد انطيوخوس التاسع . وقد ضربت في صيدا حوالي ١١٢ ق.م. ويظهر على وجه منها رأسه ، وعلى الوجه الآخر اثينة .

مما جعــل الجيوش الرومانية تقبــل التحدي . فوقعت الحرب بينهما ، وانهزم ميثراديتس ، فتعقبه الجيش الروماني ، ولكنه لجأ الى صهره طالباً منه الحماية .وقد حماه صهره وابى تسليمه الى الرومانيين . عندها اعلنت رومة الحرب رسميا على تغرانس واضطر هــذا الى التخلي عن الاقسام التي احتلها والى الجــلاء عنها (٦٨ ــ ٦٩ ق . م) . واغتنم انطيوخس الثالث عشر الملقب بالاسيوي (٦٩ ــ ٦٥) فرصة هذه الاضطرابات السياسية واسترد مدينة انطاكية والمقاطعة المجاورة لها . ولكن اميراً سلوقيا آخر يدعى فيليب الثاني (٦٨ ــ ٦٤) قام يناوئه شرعية الحكم على انطاكية . وكان هذان الاميران آخر ملوك الاسرة السلوقية في سورية اذ انه في عام ٦٤ ق.م جاء القائد الروماني المشهور بومبي واحتل بنطس ، وهزم ميثراديتس وارغم تيغرانس الارمني على طلب الصلح ، وذلك لقاء تخليــه عن جميع الاراضي المحتــلة بمــا في ذلك سوريــة . وفي هــذا العام ذاته (٦٤) احتل الجيش الرومــاني فينيقية[٢] وبذلك بدأ عهد جديد : العهد الرومــاني .

١ ــ Strabo, Bk. XII, ch. 3, sec. 1.

٢ ــ Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV ch. 4; Appian, Bk. XI, chs, 49 - 50.

الفصل الثاني عشر

الحضارة الهلينية : النواحي الاقتصادية والثقافية

كان العالم الهليني ، الذي لم تكن المملكة السلوقية سوى جزء واحد منه ، الى حد بعيد ، وحدة حضارية تقوم على رقعة جغرافية متصلة وعلى لغة واحدة للفكر هي الاغريقية. وكان هذا العالم الهليني ينعم ايضاً بانظمة موحدة في النقود والموازين والمقاييس . ولم يقنع السلوقيون بما قام به الساسانيون من قبلهم بشق الطرق وربط الايالات بنظام من المواصلات ، بل انهم حسنوا هذه الطرقات واضافوا اليها طرقات اخرى مما زاد في نشاط التجارة والصناعة. وقد اتبع السلوقيون في التجارة سياسة تدل على بعد نظر وتعقل . ذلك انهم حاولوا جعل سورية ولبنان مركزاً تنصب فيه السلع التجارية من اواسط آسية للاستهلاك المحلي اولا ولتصديره الى العالم الاغريقي الروماني ثانياً .

التجارة

كان الحرير من الشرق الاقصى ، والحجارة الثمينة من اواسط آسية ، والفلفل والقرفة من الهند ، واللبان والبخور من الجزيرة العربية ، جميع هذه السلع والبضائع التي كانت تعتبر فيما مضى من الكماليات في الحياة ، اصبحت ، بسبب الارتفاع المطرد في مستوى العيش ، من ضروريات الحياة المتمدنة. وقد دخل التجارة عامل جديد : تجارة الرقيق التي راجت سوقها واتسعت كثيراً بين الدول الهلينية وبين العالم الخارجي . فقد كانت الحروب المتتالية تغذي اسواق الرقيق بما تدفع اليها من اسرى الحرب ، وكان القرصان يزودون الاسواق بمن يقنصون. ولنا ان نقول ان اتساع التجارة وازدياد الثروة في العالم الهليني كانا من العوامل التي اثارت مطمع الرومان ورغبتهم الملحة في الاستيلاء على الشرق .

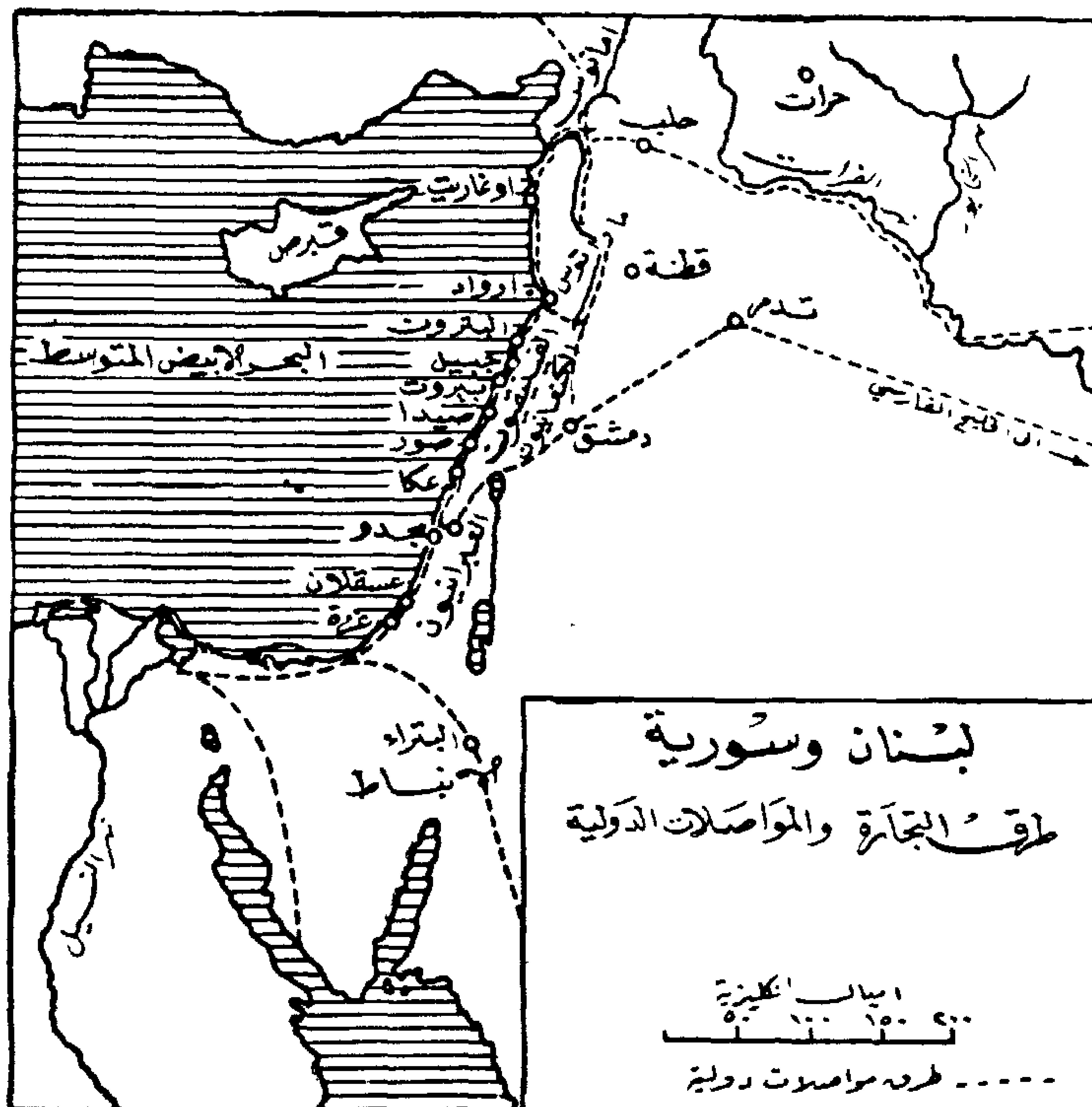
كانت طرق التجارة تتبع خطوطاً من المواصلات قديمة العهد . فقد كان

باستطاعة القوافل القادمة من الجنوب ــ من مصر والبتراء والساحل الفلسطيني ــ والمتجهة شمالا الى انطاكية او سلوقية ان تسير في محاذاة الشاطيء مارة في فينيقية. واما اذا كانت تقصد الشام فانها كانت تميل شرقاً الى سهل مرج ابن عامر بطريق مجدو القديمة او تنحرف شرقاً بعد وصولها الى صور . وقد كانت هذه الطريق طريق قوافل قديمة العهد. والقوافل التي كانت تغادر المدن الفينيقية كان باستطاعتها ان تسير شمالا في محاذاة الشاطيء الى اللاذقية، او ان تنحرف شرقاً شمالي طرابلس الى حمص . اما اذا كانت وجهة القوافل جنوباً فانها كانت تنحرف شرقاً الى المدن الداخلية عند مشارف صور . والطريق التجارية الدولية في شمالي سورية كانت تتشعب الى طريقين : الاولى تسير باتجاه غربي الى آسية الصغرى والاخرى شرقاً مارة في شمال العراق القديم وايران الى الطريق الكبير المؤدي الى مصادر الحرير ، الى الهند والصين ، ثم الى الشرق الاقصى .

الزراعة والصناعة

كانت مصر ، ولا سيما مدينة الاسكندرية ، تنافس سورية ولبنان في تجارة الترانزيت . والى جانب هذا فان الطريق البحرية الجديدة التي كانت تصل فرعاً من النيل بشمالي البحر الاحمر – وهي الطريق البحرية التي كانت تصل البحر الاحمر بالمتوسط والتي سبقت ترعة السويس ومهّدت لها ــ جعلت التجارة تنحرف عن طرق القوافل البرية التي كانت تمر في سورية السلوقية. ويعزو المؤرخون الكلاسيكيون الفضل في بناء المنارة المشهورة على الجزيرة الصغيرة في ميناء الاسكندرية المعروفة باسم فاروس (Pharos) الى فيلادلفوس بطليموس الثاني (٢٨٥ــ٢٤٦). وكذلك يعزون اليه الفضل في بناء سد على الترعة التي تصل النيل بالسويس مما يؤمن سيادة مصر البحرية في الجزء الشرقي من البحر المتوسط .

ان النتاج الزراعي والصناعي في كل من سورية ولبنان وفلسطين ازداد ازدياداً ملموساً في العصر الهليني . فقد ادخلت الى هذه المنطقة نباتات اقتصادية جديدة ، بعضها عن طريق المقايضة او التبادل بين الشرق والغرب . فان الفستق الحلبي مثلا ، واسمه يدل على اصله ، جاء من ايران الى سورية حيث لا تزال زراعته


حران
حلب
الفرات
اوغاريت
قبرص
قطنة
ارواد
البترون
البحر الابيض المتوسط
جبيل
بيروت
صيدا
صور
عكا
مجدو
عسقلان
غزة
دمشق
تدمر
الى الخليج الفارسي
البتراء
انباط
لبنان وسورية
طرق التجارة والمواصلات الدولية
اميال انكليزية
٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠
طرق مواصلات دولية

زراعة رابحـــة مزدهرة . ومن سورية انتقلت زراعته الى اليونان وايطاليا . وقد نشطت زراعة الكرمة والزيتون . وتجارة الاخشاب لم تنخفض عن المستوى الذي كانت تنعم به ايام الفراعنة . فان بطالسة مصر ، بسبب قلة الاحراج في بلادهم ، اعتمدوا لبنـــان مصدراً للاخشاب التي تلزمهم في بنـــاء اساطيلهم . ويظهر ان استغلال احراج لبنان كان احتكاراً للسلطة الحاكمة وامتيازاً تتمتع به . وقد شمل هذا الاحتكار ايضاً شجر السرو والشربين والعرعر . أما في حقل النسيج فقـــد احتفظت فينيقية بالسيادة والاولية . فقد كان الطلب شديداً على الانسجة المصبوغة بالارجوان وظل الصناع الفينيقيون محافظين على مستوى عال من الحذق والمهارة اللذين اشتهروا بهما . وقد تقدموا شوطاً بعيداً في الابتكار والتفنن لسد رغبـــات اسواق جديدة وزبائن مختلفي الاذواق والميول . كما ان الصناع اللبنانيين ظلوا في الطليعة في صناعة الزجاج . واحتفظوا بما نالوا من شهرة وصيت في هذه الصناعة. وقد كان الاقبـــال شديداً على الزجاج الذي كانت تصنعه كل من صيدا وصور بصورة خاصة .

هاتان المدينتان كانتا ، حتى في عهد متأخر كالعهد الروماني، تموّنان الاسواق العالمية آنذاك باحسن انواع الزجاج . وذلك بفضل جودة الرمل على ساحليهما[١]. أما الزجاج الذي كانت تصنعه هاتان المدينتان مع سائر المدن الفينيقية ، فقد كان من الزجاج المصبوب صباً. ان طريقة صنع الزجاج بالنفخ لم تكن معروفة عندهم. اذ ان اكتشاف هذه الطريقة لم تتم إلا في اواخر القرن الاول قبل الميلاد[٢] . وقد شاع استعمال الزجـــاج المصنوع بطريقة النفخ شيوعاً كبيراً في جميع ارجـــاء فينيقية مما قد يدل على ان هـــذا الاختراع لم يكن مصريا كما يزعم البعض . اذ انه لم يكن شائعا في مصر شيوعه في فينيقية . ولا نريد ان نقول ان الاختراع الجديد في صنع الزجاج قضى على الطريقة القديمة ، طريقة الصب في قوالب ، بل ظلت الطريقتان متبعتين جنبا الى جنب .

اما الصناعة المعدنيه فقد تقدمت تقدماً كبيراً . كانت ضواحي بيروت غنية

١ — Strabo, Bk. XVI, ch. 2, sec. 25; Pliny, Bk. V, ch. 17.

٢ — Rostovtzeff, *Social and Economic History of The Hellenistic World*, p. 698.

بمعدن الحديد ، والحديد كما هو معلوم ، مادة ثمينة اقتصاديا . ويظهر ان البطالسة استغلوا معادن النحاس في لبنان الى جانب استغلالهم معادن الحديد . وقد ازدهرت صناعة اخرى في هذه الفترة : صناعة ادراج البردي، واخذ البردي مع الرق (الجلد المدبوغ) يحلان محل الآجرّات للكتابة . كانت مصر ــ ويأتي بعدها في الدرجة الثانية فلسطين ــ تمون الاسواق العالمية بالبردي . واسم التوارة في الانكليزية Bible يُردّ في اصله الى الاسم الاغريقي لمدينة جبيل وهو Byblos ، من حيث كان الاغريق يستوردون البردي [١] . وقد ادخل البردي بلاد الاغريق عن طريق فينيقية حيث كان استعماله معروفاً مألوفاً حتى في القرن السادس قبل الميلاد .

النشاط الاستعماري

ان نشاط التجارة والصناعة في عهد الاسرة البطليموسية والسلوقية أثار في نفوس الفينيقيين الرغبة القديمة في التوسّع الاستعماري . ففي عام ١٥٠ قبل المسيح انشأت صيدا مستعمرة في جنوبي فلسطين تعرف بمريسة [٢] التي كانت مدينة تجارية هامة زمن البطالسة ، ولكنها تأخرت كثيراً زمن المكابيين كانت مريسة مدينة ايدومية . ويخبرنا يوسيفوس المؤرخ اليهودي ان الذكور فيها آثروا (حوالي ١٢٦ ق. م.) ان يختتنوا وان يعتنقوا اليهودية على ان ينفوا عن وطنهم [٣] . ومما يدل على وجود جاليات صيداوية في فلسطين هو انه اثناء الثورة المكابية طلب الصيدانيون المقيمون في شكيم (نابلس) اذنا بالسماح لهم ان يغيروا الهيكل السامري على جبل جرزيم الى معبد للاله جوبيتر (المشتري) . هؤلاء يجب ان يكونوا جماعة من الفينيقيين الذين اصبحوا هلينيين في تفكيرهم وثقافتهم [٤] . وكان لبيروت ، التي كانت تربطها بجزر البحر الايجي روابط تجارية ، مستعمرة في جزيرة رودس . وكانت جزيرة رودس ردحاً من الزمن مركز تجارة عظيمة على

---

١ ــ راجع فريحة : « اسماء المدن والقرى اللبنانية » ، مادة جبيل ص ٨٩

٢ ــ وهي مريشة الوارد ذكرها في التوراة ، يشوع ١٥ : ٤٤ . وفي سفر المكابيين الثاني (١٢ : ٣٥) مريسة ، وموقعها الآن تل السندحنة على بعد ميل تقريبا جنوبي بيت جبرين .

٣ ــ Josephus; *Antiquities*, Bk. XIII, 9, sec. 1.

٤ ــ Josephus, Bk. XII, ch. 5, sec 5.

الطريق البحرية من الشرق الى الغرب وقد كان شفيع المستعمرة الفينيقيــة الاله بوسيدون (Poseiden) . وكان في المدينة هيكل ذو غرف خارجية ملحقة به وأروقة مسقوفة تعرض فيها البضائع الفينيقية . وكان البيروتيون يحتلون في جزيرة اخرى ، جزيرة ديلوس ، المقام الثاني بعد الجالية الايطالية سواء اكان في التجارة ام الاجتماع ام الحياة الدينية . وقد كانت هذه الجزيرة آنذاك مركزاً مشهوراً اقيم فيه مزار للاله ابولو .

انتشار الحضارة

كان لبنان اقدم بلاد في غربي آسية ــ باستثناء آسية الصغرى ــ وطّد علاقاته التجارية والثقافية مع بلاد الاغريق على اسس ثابتة . نعم ، كان اللبنانيون في هذه الفترة التي نحن بصددها قد فقدوا الروح الوطنية ، ولكن فقدان الروح الوطنية كان من اشد العوامل فعالية في صهر الحضارتين الاغريقية والسامية في بوتقــة واحدة . ولم تقف النعرات الوطنية حائلا دون التمازج الحضاري . وعليه تأصّلت جذور الحضارة الهلينية في التربة الفينيقية قبل ان تتأصّل في اي من البلدان الآرامية المجاورة . كانت الهلينية في فينيقية نشيطة خلاقة، رغم ان عدد الجاليات الاغريقية في سورية كان اكبر مما هو في فينيقية كما كانت عليه الحال في انطاكية وفي مينائها سلوقية واللاذقية وافامية على العاصي (واسمها الحالي قلعة المضيق) ولا نعتقد ان عدد الاغريق كان يشكل جزءاً كبيراً من سكان لبنان ، فان الاغريق في هذه البلاد كانوا جماعة صغيرة من المحاربين القدماء والتجار والصناع والعلماء المنتشرين في المدن الساحلية . وكذلك كان عدد الجاليات التي انشأها السلوقيون في لبنــان قليلا . ولقد كانت لاذقية لبنان ــ وعلى النقود « اللاذقية التي في كنعان » ــ مدينة على العاصي بناها سلوقس الاول على الموقع ذاته الذي بنيت عليه قادش القديمة[1] (واسم الموقع الآن تل النبي مند) . وقد سميت بلاذقية لبنان ، او كنعان ، تفرقة لها عن اللاذقية الحالية الواقعة على ساحل البحر . وقد اضاف تريفون السلوقي اسم اللاذقية (ولاذقية اصلا اسم يوناني ، اسم ام سلوقس الاول الذي اصبح فيما بعد

١ - Abel, vol. I, p. 128; Cf. Bouché - Leclerque, p. 34; Cooke, pp. 350 - 1.

عند الاسرة السلوقية اسماً محبباً جداً) الى اسم بيروت [١] التي كان قد خربها الى اساساتها في عام ١٤٠ ق. م. ايام حروبه مع انطيوخس السابع . واخذ الفينيقيون يقلدون الاغريق في تخطيط مدنهم وبنائهـا . فصاروا يبنون المسارح للتمثيـل والحمامات العامة والملاعب الرياضية وخلافها من المؤسسات التي كان الفرد يعبر فيها عن مواطنيته . وكذلك قلّدت المدن الفينيقة المـدن الاغريقية في انها بدأت تتخذ حادثةتاريخية هامةمعينة وتعتبرها نقطة في الزمن تصلح للتأريخ . فقد اتخذت ارواد عام ٢٥٩ ق . م.نقطة تؤرخ بها الحوادث (اي ان ٢٥٩ ق . م في تاريخ ارواد اصبح السنة الاولى) واتخـذت صور عام ١٢٦ ق . م.وبيروت عام ١٩٧ ق . م وصيدا ١١١ق م . واذا استثنينا صور نجد ان مدنا فينيقية عديدة اخذت تحتفل بالاعياد الاغريقية وكان من الطبيعي ان تنظر الشعوب المغلوبـة الى لغة الغالب وحضارته نظرة احترام وتكبير فيقبلون على تعلم تلك اللغة وعلى اقتباس تلك الحضارة . وقـد اعترف الفريقان ، بما لا يقبـل الجـدل ، بان الحضارة الاغريقية على سمو ورفعـة لا يجاريان . ولم يكن الاعتنـاء بالفلسفة والعلوم والآداب الاغريقية ولا الرغبة في اقتباسها في صور وصيدا باقل منه في انطاكية واللاذقية . ولا نشك في ان المثقف الفينيقي في العهد السلوقي لم يكن يشعر انـه غريب في المدينة الاغريقية ،بل كان يشعر انهفيمحيطه وبيناهله . ولم يختلف شعور الاغريقي وهو في ميناء من موانىء فينيقية عن شعور الفينيقي وهو في بلاد الاغريق .

ولكن قولنا هذا يجب الا يفسر بان فينيقيّي لبنان وآراميي سورية فقـدوا طابعهم السامي . فان اللهجة الآرامية ظلت لغة العامة في سورية ، كما ان اللهجة الكنعانية ظلت لغة العامـة في لبنان ، لا سيا في الارياف . حتى انه في المدن ـ باستثناء الاحياء الاغريقيـة الصرفة ـ كان المثقف من سكان المدينـة الساميين مزدوج اللغة ، اي انه كان يتكلم لهجة ساميـة في بيته وفي مختلف شؤونه ، وكان يتكلم الاغريقية في الاوساط الفكرية والعلمية ، مما له مثيل في عصرنا الحاضر عندما نجد اللبناني يتقن احيـانا اكثر منلغة غربية لتحصيل الثقافة وللاتصال بالغرب .

١ ـ Starbo, Bk. XVI, ch. 19 .

ولكن في عهدي البطالسة والسلوقيين اخذت الآرامية في لبنان تحل محل اللهجة الكنعانية . كانت هذه اللهجة الآرامية التي لا تختلف كثيراً عن الكنعانية (وكلاهما لهجتان ساميتان متقاربتان) قد انتشرت انتشاراً واسعاً بفضل التجارة . ولا سيما شرقا حيث اصبحت في الامبراطورية الايرانية ، مثلا ، احدى اللغتين الرسميتين المعترف بهما . غير ان اللغة الفينيقية (اي الكنعانية) ظلت لغة فينيقية الرسمية في كتابة الوثائق والمعاملات الرسمية حتى القرن الاول قبل المسيح. ومن المرجح ان الفينيقيين ظلوا يتعلمونها ويتدارسونها في هياكلهم ومعابدهم حتى بعد انتشار المسيحية في اوائل القرن الرابع للميلاد. والواقع ان الحياة الفينيقية والحضارة الفينيقية لم ينقرضا انقراضاً تاماً . فان فريقاً من اهل لبنان في عهدنا هذا يفخرون بانهم ينتسبون الى الفينيقيين، ويباهون بالارث الحضاري الذي تحدّر اليهم من اجدادهم ، ويفخرون بالمآتي الحضارية التي قدمها اسلافهم للعالم . حتى ان مهاجري لبنان في زوايا الارض الاربع اذا انشأوا نادياً سموه باسم يذكرهم بفينيقية ، واذا اسسوا جمعية اطلقوا عليها اسماً يذكرهم بالماضي البعيد .

ويجب ان نتذكر بان هذا التغلغل الحضاري لم يكن ذا مجرى واحد، اي من الغرب الى الشرق . فكما ان الشرقيين تمغربوا كذلك تمشرق الاغريق ايضاً . فقد دمج الاغريق آلهة سامية في عداد آلهتهم ، فاصبح الاله بعل زوس واصبح ملقارت هرقل . واصبحت الطقوس الرمزية التي كانوا يقيمونها لتموز وعشتروت طقوساً رمزية اغريقيـــة يقيمونها لادونيس وافروديت . وكان بعض الملوك السلوقيين يضيفون اسماً سامياً الى اسمائهم[1] . والحقيقة ان العالم الاغريقي اخذ عن الحضارة الشرقية ما لا يقل عما اخذه الشرقيون عنهم .

فلاسفة وشعراء

لم يتحـــدر الينا من الآداب السورية واللبنانية في العهد السلوقي شيء يذكر . فكأن الآداب الوطنية تقلص ظلها امام آلهة الفنون الجميلة عند الاغريق ، وشعرت بكثير من مركب النقص . ولكن لنا ان نزعم بان كثيرين من الادباء الذين خلفوا

١ ـ راجع : Hitti, *History of Syria*. p. 256.

لنا اثاراً ادبية مكتوبة بالاغريقية في ذلك العهد كانوا من اصل لبناني او سوري ، انما كانت اسماؤهم اغريقية . ففي يومنا هذا نعرف لبنانيين اصليين يسمون باسماء عربية (او شرقية) انتجوا ادباً وشعراً رفيعاً باللغة الافرنسية .

زينون مؤسس المدرسة الرواقية

لم يظهر في لبنان الهلّيني[١] في العهد السلوقي عالم بارز . وفي حقل الشعر لم ينشأ شاعر من الطراز الاول . اما في حقل الفلسفة فقد كان جلهم من المدرسة الفلسفية المعروفة بالرواقية. وقد كانت الفلسفة الرواقية بروحها مما يتلاءم مع العقلية السامية ومع نظرتها الى الحيـــاة . والواقع ان مؤسس هذه المدرسة الفلسفية كان رجلا قبرصياً ـ فينيقياً اسمه زينون[٢] (حوالي ٣٣٣ـ٢٦٢ ق.م.) . ولد زينون في مدينة كيتيوم وهي مستعمرة فينيقية في جزيرة قبرص . وكان يعرف عند معاصريه بانه كان فينيقياً . ولما كان في طريقه بحراً الى ميناء اثينة ، بيريه ، غرق المركب الذي كان مسافراً عليه ، وكان محملا بالارجوان ، فنجا زينون بنفسه واتى اثينة مركز الفلسفة آنذاك . كان في الثلاثين من سنه. فاخذ يعلم (٣٠٢) في احد النوادي العامة المسمى بـ Stoa Poikile اي الرواق المدهون ، ولذا سميت مدرسته الفلسفيـــة بالرواقية . كان زينون يتقشف في لباسه ومأكله . كان نحيف البنية، اسمر البشرة، متجعد الوجه ، متقلص المحيا ، يمشي ورأسه منحرف . «وكان مغرماً بأكل التين الطازج ، ويحب ان يجلس في الشمس[٣] » . وكان من بين تلاميـــذه المخلصين المعجبين به انطيغونس ملك مقدونية وحفيد قائد الاسكندر. ولعل الملك انطيغونس من اوائل من احب الفلسفة واغرم بها . فكان يغدق العطـــاء لزينون في كل مرة يأتي الى اثينة. ولكن زينون لم يأبه لهذه العطايا وبذلك كان موقفه منسجماً مع تعاليمه. وطالما دعي لزيارة بلا ، عاصمة مقدونية ، والح عليه في ذلك ، لكنه ابى ان

١ ـ اي الواقع تحت التأثير الهليني اي الحضارة الاغريقية التي انتشرت في حوض المتوسط بعد فتوح الاسكندر

٢ ـ وقد درس على استاذ من اتباع سقراط من مدينة صيدا واسمه ايضاً زينون .

٣ ـ Diogenes Laërtius, *Lives of Eminent Philosophers,* Loeb Classical Library (London, 1925),Bk. VII, sec. 1.

يقبل الدعوة ، وقد كتب زينون في شبابه مؤلفاً عنوانه « الجمهورية » يصف فيه الدولة المثالية التي لا تعرف حدوداً قومية يشعر كل من فيها انه مواطن حر. وكانت النساء والاملاك في هذه الدولة ملكاً مشاعاً. هذه المثالية في الدولة والحكم كانت بمثابة رجاء وامل لاحلال السلام بين الامم. ورغم ان هذه المثالية يشوبها شيء من الغموض وعدم الوضوح فقد ظلت هدفاً يسعى اليه الانسان الفاضل. وواضح ان هذا الفيلسوف الفينيقي كان يمثل انسان العالم الجديد، العالم الذي خلقته حروب الاسكندر المقدوني وفتوحاته.

كان الخلق في نظر زينون نظاماً شاملا يقوم على المعرفة. كان الخلق عنده فلسفة اساسها الطبيعيات ووسيلتها المنطق وغايتها الاخلاق فانه في فلسفته الأخلاقية ، يعتبر الفضيلة الخير الاوحد ، ويرى الشر ضعفاً او فساداً في الخلق ، وليس سوى هذا – كالالم والفقر والموت – مما يعتد به. وعليه فان الانسان الحكيم هو الانسان الوحيد الذي يحوز الخير الحقيقي. وبما انه ليس في استطاعة انسان آخر ان يجرد الرجل الحكيم من فضائله فان الحكيم هو الانسان السعيد دوما. وهكذا تصبح صورة هذا الرجل الحكيم في فلسفة زينون مثالا للانسانية الكريمة التي يتوجب على الانسان ان يسعى لتحقيقها. ويسهل علينا ادراك نزوع الناس الى فلسفة كهذه والاقبال عليها في عصور كان يسود فيها الشر ويعظم فيها الضيق والبلاء ، كما كانت عليه الحال ايام زينون. وتعتبر فلسفة زينون اقدم نظام فلسفي اغريقي ينظر الى الفكرة الاخلاقية في اطار اممي شامل. ويعد افضل نظام اخلاقي سام عرفه العالم القديم قبل المسيحية. وقد كان لهذه الفلسفة اثر عظيم في بولس الرسول ، رسول المسيحية الاكبر. وبواسطة بولس اصبحت هذه الفلسفة قوة عظيمة ثابتة في المسيحية. وقد كرم الاثينيون زينون صاحب هذه الفلسفة بمنحه تاجاً ذهبياً في حياته ، وعند مماته اقاموا له مأتماً حافلا ، ثم نصبوا له تمثالا تذكارياً من البرونز[١]. وقد قال عنه احد ثقاة المؤرخين المحدثين انه كان « افضل انسان في عصره[٢] ». وقد جاء فيما كتب على ضريحه العبارة التالية :

١ – William W. Tarn, *Antigonos Gonatas* (Oxford, 1913), p. 309 n. 106; cf. Diogenes, Bk. VII, secs. 6, 11

٢ – William W. Tarn, *Hellenistic Civilization*, 3rd ed. (London, 1952), p. 330.

« اما كفاك فخراً ان فينيقية موطنك . ألم تنجب فينيقية قدموس الذي جاء بلاد الاغريق ليعلم الناس الحرف[١] » .

وهنالك فيلسوفان فينيقيان آخران اشتركا في تقدم الفلسفة الرواقية ، وهما بيوثس الصيداوي[٢] (من رجال القرن الثاني ق.م.) ، وانتيباتر الصوري (٩٥ ـ ٤٦ ق.م.) . وقد دحض بيوثس الصيداوي نظرية الحلول القائلة ان الله يحل في كل اجزاء الوجود ، او ان الكون هو الله ، ورفض الاخذ بها . غير انه قسّم الكون قسمين ، احدهما الحي ويشمل دائرة النجوم الثابتة. ومن ثم فقد عكف بيوثس على دراسة علم الفلك الذي اصبح عند الرواقيين جزءاً من فلسفتهم . اما انتيباتر فقد حمل الفيلسوف الروماني كاتو اليوتيكي[٣] من شمالي افريقية على اعتناق الفلسفة الرواقية . وهنالك فيلسوف صوري آخر اسمه ديودروس (١١٠ ق.م.) كان على رأس المدرسة الفلسفية التي تعرف بالمشائيــة في اثينة . واسم هــذه المدرسة الفلسفية مشتق من لفظ اغريقي : Peripatos وهو رواق مسقوف في الأكاديمية التي كان يعلم فيهــا ارسطو . وقد اشار شيشرون الى ديودورس[٤] . كان ديودورس يقول بان الخير الاعظم هو الجمع بين الفضيلة وعدم الالم . وهذه النظرة توحي لنا انه كان يحاول ان يجمع بين فلسفة الرواقيين والابيقوريين . ومع ان فلسفته كانت اقرب في روحها الى النظرة الاغريقية مما هي الى النظرة السامية فان الفلسفة الابيقورية كانت تجد لها انصاراً واتباعاً من بين السوريين واللبنانيين . وقد كان زينون[٥] الصيــداوي الذي ولد حوالي ١٥٠ ق . م على رأس المدرسة الابيقورية في اثينة حيث كان شيشرون يحضر مجالس تعليمه ومحاضراته . والى جانب عنايته بالفلسفة فانه كان يبدي نشاطاً فكرياً في مبادىء علم الهندسة . وظاهر ان المفكرين والكتاب اللبنانيين في تلك الاعصر كانوا ينشدون آفاقــا ارحب للتعبير

١ ــ Diogenes, Bk. VII, sec. 30 .

٢ ــ هنالك رجل آخر من صيدا يعرف بهذا الأسم ، بيوثس الصيداوي ، وقد درس عليــه سترابو الفلسفة الارسطوطاليسية . وهو من رجال القرن الاول ق. م.

٣ ــ وهو الحفيد الاكبر للقائد كاتو الذي اصر بشدة على ان تهدم قرطجنة وتزول اسمهــا من الوجود .

٤ ــ *De Oratore*, Bk. I, ch. 11.

٥ ــ لا يزال اسم « زينون » من الاسماء الحية في لبنان وبه يتسمى الاطفال . وهنالك عائلة تعرف بآل زينون .

عن نشاطهم العقلي ، ومجالا ارحب مما كان بوسع بلدهم الصغير ان يفتح امامهم، تماماً كما نشهد في لبنان في يومنا هذا حيث نجد النشاط الفكري يتعدى حدودهم الطبيعية الضيقة .

لا نستطيع القول ان الادباء الفينيقيين والشعراء الفينيقيين الذين تيوننوا كانوا في نتاجهم الادبي والشعري على جانب كبير من الابداع والخلق . كان نتاجهم الادبي يتميز بالتنوع والتصوير المزخرف ـ ولكنه لم يكن على عمق في التفكير ـ والتقدير لكل جمال طبيعي واحساس مرهف يتجاوب مع الفكر والمتناقض . كثيرون من هؤلاء الادباء والشعراء كانوا يبرزون في الارتجال ، شأن الزجال اللبناني اليوم . وكانوا يفوقون معاصريهم بنظم المقطوعة الصغيرة التي تحوي فكرة واحدة معينة او نكتة ساخرة ، او هزءاً لاذعاً . واحسن مثال على هذا النوع من النتاج الادبي ما نظمه وكتبه الشاعر انتيباتر الصيداوي الذي ولد في صور وعاش في اواخر القرن الثاني قبل الميلاد . فقد اعتبره شيشرون[١] شاعراً . ويقص علينا بليني[٢] ان انتيباتر كان يصاب بدور حمى كل سنة في يوم عيد ميلاده الى ان مات. كان هذا الشاعر ينظم المقطوعة الصغيرة الصالحة للاهداء او للتكريس او للتأريخ او للانصبة على القبور . وقد بقي لنا من هذه المقطوعات ٧٥ مقطوعة حفظت في « ديوان الشعر الاغريقي »[٣] (The Greek Anthology) ولشدة ولعه بالبلاغه والفصاحة فان اسلوبه كان يظهر عليه مسحة من التصنع والتكلف والزخرف تماماً كما كان عليه الاسلوب العربي في عصور الانحطاط . وقد كان انتيباتر يعرف كثيرين من الشعراء الرومانيين الذين عاشوا زمن الجمهورية الرومانية[٤] . وكان له اثر في حياتهم وانتاجهم . واليك على سبيل المثال مقطوعة من النوع الصالح للرثاء او للكتابة على ضريح :

« هل تستطيع الآلهة ان تنجي ابناءها من الموت ؟

١ — Bk. VII, ch. 51 .
٢ — Bk. VII, ch. 51 .
٣ — Bk. VII, secs. 423 - 7 etc.
٤ — Cicero, Bk. III, ch. 194 .

فما بالنا نبكي على ابنائنا وننوح ؟[١] »

وفي المقطوعة التالية ذكرى مستحبة لاقامته في ميناء فينيقي :

« آن وقت رفع الشراع ، فلا الموج يلاطم الموج
ولا العاصفة القائمة تشوه جمال الافق البعيد
السنونو يبني عشه في السقف والاوراق الندية تضحك
مرحا في المروج . ارفعوا السلاسل ايها الملاحون
فقد سئمت السلاسلُ الماء . ارفعوا المرساة
المطمورة في الرمال . انشروا الشراع . هكذا يقول ربّ
المرفأ ، ابن باخوس[٢] »

وقد كان هذا الشاعر اقدم من عدّد لنا عجائب الدنيا السبع : اهرام مصر ، وجنائن بابل المعلقة ، وتمثال زفس في اولمبيا ، ومعبد ارطميس في افسس ، ومقابر هليكارنسوس : وتمثال رودوس ، ومنارة الاسكندرية .

كان انتيباتر في فلسفته ابيقورياً اسمعه يقول : « دعنا نشرب ، فالحق ان الخمر مطية الدرب ، واولئك الذين يسيرون على الاقدام ينتهون الى جهنم »[٣] .

وهنالك شاعر آخر طريف ظهر في عصر ندر فيه الشعراء ، نعني ميليغر Meleager (حوالي ١٤٠ ـ ٧٠ ق . م) ولد ميليغر في غدارا (وفي الاناجيل كورة الجدريين)[٤] وقضى حياته كلها في صور . كان يعرف الآرامية والفينيقية انما كتب شعراً بالاغريقية . وكان يشبه الشاعر انتيباتر في حذقه نظم المقطوعة الصغيرة . وكان لا يختلف عن ادباء بلاده في حبه الاسفار والتنقل . واخيراً القى عصا الترحال في جزيرة قوص . هنالك جمع اكبر مجموعة من المقطوعات الشعرية النقدية واقدمها وسماها « الاكليل » . وقد كانت بمثابة ديوان من الشعر المختار لشعراء قدماء . وقد نظم في كل منهم مقطوعة من الشعر شبه فيها كل واحد منهم بزهرة

---

١ — E. L. Bouchier, *Syria as a Roman Province* (Oxford, 1916), p. 193; cf, *Greek Anthology*, Bk. VII, sec. 8.

٢ — Bouchier, pp. 193-4; cf. *Greek Anthology*, Bk. X, Sec. 2.

٣ — *Greek Anthology*, Bk. XI, sec. 23 .

٤ ـ واسمها الحالي ام قيس جنوبي شرقي بحيرة طبرية . راجع مرقس ٥ : ١ ، لوقا ٨ : ٢٦ .

او شجرة[١]. اما ما حفظ لنا في ديوان الشعر الاغريقي[٢](The Greek Anthology) من نظمه فيشمل ١٣٠ مقطوعة جميعها قيلت في الغزل، وبلغة يكثر فيها البديع والزخرف، واتى فيها على كل وصف او تشبيه تقليدي في الحب. وفي قصيدة قصيرة اخرى يصف لنا ميليغر سبعة اطفال صوريين يعرفهم. هؤلاء الاطفال جميلو الخلقة شبههم ميليغر باكليل من الزهر: زنبقة حلوة، وبنفسجة بيضاء فواحة، ووردة، وعنقود كرم في زهره، وعثكول ذهبي من الزعفران، وضمة من صعتر، وغصن زيتون دائم الاخضرار. وقد اهدى الحب هذا الاكليل من الزهر الى افروديت. ان كتابات ميليغر وكتابات غيره من الشعراء والادباء تعكس لنا الحياة الاجتماعية كما كانت في صور وفي غيرها من المدن الفينيقة. ويبدو ان الطبقة الغنية كانت تعيش عيشة الترف والبذخ. كانت تسرف في الشراب، وكان يطربها الغناء الذي كان عمل المغنين المحترفين. كانت النساء يعشن في اجزاء من البيت تفرز لهن خصيصاً، ولكنهن كن يظهرن في المجتمع. وبما ان الرجال من الفينيقيين كانوا يقضون قسطاً كبيراً من ايام السنة على البحار فقد كان المجتمع الفينيقي يتميز بشيء من الاباحية. واليك مقطوعتين لهذا الشاعر نظمتا للنقش على الضريح:

« صور القابعة على صخرة في البحر، مهد طفولتي، غدارا السورية في موقعها، الاغريقية في حضارتها، مولدي. وهل من عجب انني سوري؟ ايها الغريب، اننا نعيش في بلد واحد: العالم. ألسنا نحن البشر جميعاً ابناء الفوضى؟ في شيخوختي كتبت هذه الاسطر قبل ان اوارى التراب، لان الشيخوخة والموت جاران قريبان[٣].

سر ايها الغريب، سر بصمت وسكون. لا تزعج الشيخ الراقد مع الاموات الاتقياء المكفن بالسبات العميق، ذلك السبات الذي سيكفن جميع الاحياء ... هنا يرقد ميليغر ابن يقراطس الذي كان يجمع بين دموع الحب الجميل وبين ربة الشعر وطيب العيش. صور، ربيبة السماء حضنتني يافعاً، وتربة

١ — *Greek Anthology*, Bk. IV, sec. 1.

٢ — Bk. V, secs. 147 - 9, 154 - 7, 171 - 80, 190 - 2, 195 - 8 etc.

٣ — *Greek Anthology*, Bk. VII, sec. 417.

غدارا المقدرسة غذتني شاباً ، وجزيرة قوص الحبيبة رعتني شيخاً . ان كنت سورياً فعليك مني السلام ، وان كنت فينيقياً فلك مني التحيـــات (Naidius) ، وان كنت اغريقيـــاً فرحى بالله عليك اذا مررت بهذا القبر فردد ما قلته[١] .

ومن الواضح ان هذا الشاعر يعكس لنا ، كما يعكس لنا زينون الفيلسوف ، روح العصر الجديد الذي اطل على الشرق بقدوم الاسكندر ، تلك الروح الرحبة الآفاق التي تتعدى الحدود السياسية الى الحدود العالمية .

١ ـ *Ibid.*, sec. 419.

الفصل الثالث عشر

في ظل الحكم الروماني

لبنان مقاطعة في ولاية

لما ضم القائد الروماني بومبي عام ٦٤ ق . م سورية الى الامبراطورية الرومانية ، جعلها اقليما عرف فيما بعد بالاقليم السوري . وجعل لبنان وفلسطين جزءا من هذا الاقليم . وبهذا لم يعد لفينيقية كيان مستقل . فقد وضح لاولي الامر من الرومان انه منعا لوقوع هذه المنطقة في الفوضى السياسية التي كانت تتردى فيها ايام السلوقيين المستضعفين عليهم ان يحكموها حكما رومانيا مباشراً . وفضلا عن هذا فان البلاد السورية كانت تفصل بين ممتلكات رومة وبين منافستها الى الشرق: ايران . كانت سورية حداً فاصلا بينهما ، وهذا جعل الرومان ينظرون الى هذه الممتلكات الاسيوية بكثير من الاهتمام . وعليه كان الرومان ينصبون على سورية حاكما رومانيا كبيراً من درجة قنصل سابق ، ذا صلاحيات واسعة النطاق تخوله فرض التجنيد العسكري وشهر الحرب[١] . وكان مركز الحاكم الروماني مدينة انطاكية التي كانت عاصمة السلوقيين الزائلة . وكان تحت امرته اربعة جيوش . وكان اول قنصل حاكم على سورية أولس غابينيوس (٥٧ ـ ٥٥ ق . م.) اقدر قواد بومبي . ثم خلفه كراسوس احد الشركاء الثلاثة الذين حكموا رومة[٢] . ثم ان الرومان بعد ٨٦ ب . م. استعاضوا عن القنصل بمفوض امبراطوري[٣] . وقد ابقى الرومان على الحقوق والامتيازات التي كانت تتمتع بها المدن اللبنانية الرئيسية

---

١ — Appian, sec. 51.

٢ ـ اذا اراد القارىء الاطلاع على قائمة بالحكام عليه ان يراجع :
Gustave A. Harrer, *Studies in the History of the Roman Province of Syria* (Princeton, 1915), pp. 11 seq .

٣ — Joachim Marquardt , *Römische Staatsverwaltung*, 2nd ed. (Leipzig, 1881), vol. I, pp. 419—20 .

صور وصيدا وطرابلس وارواد . وكذلك ابقى الرومان على الوضع فيما يتعلق بالبلاد التابعة لكل من هذه المدن . ولم يتح لاي من هذه المدن ان تقوم باي دور سياسي هام ، الى ان جاء الصليبيون .

بقيت الامبراطورية الرومانية اعواماً في حالة فوضى سياسية . كان المتنافسون على العرش كثيرين . وكان حوض المتوسط الشرقي مركز دسائسهم واعمالهم الحربية للوصول الى العرش . فجاء يوليوس قيصر (٤٧ ق . م .) الى سورية واغدق على بعض المدن الفينيقية امتيازات خاصة. فاصدر امراً وجهه الى احدى المدن الفينيقية بدأه هكذا : « من يوليوس قيصر الامبراطور والحبر الاعظم والدكتاتور للمرة الثانية الى حكام صيدا ومجلسها واهاليها تحية . [١] » فلم يعد ملك صيدا او غيرها من المدن ملكاً بل اصبح والياً حاكماً (magistrate) او قاضياً . وعندما انشطرت الامبراطورية الرومانية الى شطرين كان نصيب مارك انطوني الشطر الشرقي ــ بما في ذلك سورية ومصر . وقد حافظ هو ايضاً على احترام الامتيازات التي كانت قد منحت الى المدينتين الفينيقيتين الرئيسيتين صيدا وصور . وفي عام ٣٦ ق . م. عندما وهب مارك انطوني الملكة كليوباطرا آخر البطالسة التي « جعلته اسير غرامها »[٢] البقاع وجميع مدن الساحل من النهرالكبير (Eleutherus)الى حدود مصر استثنى من هذا الاقطاع صيدا وصور « لانه كان يعلم انهما مدينتان حرتان منذ تأسيسهما »[٣] . ويقال ان كليوباطرا كانت قد عزمت على بناء قصر لتلهو فيه مع حبيبها الروماني على هضبة من هضاب لبنان المشرفة على البحر . ولكن اثناء هذا التنافس السياسي ، وفي غمرة تلك الحرب الاهلية ، اغتنم الفرثيون (٤٠ ــ ٣٨ ق . م.) الفرصة السانحة فانقضوا على المنطقة بكاملها وسلخوها عن الملك الروماني باستثناء مدينة صور . غير ان قواد انطوني استعادت المنطقة بعد فترة قصيرة، وفي عام ٣٧ ق.م. استعاد انطوني مدينة القدس ونصب هيرودس الادومي (ادوم هي الجزء الجنوبي من شرقي الاردن) ملكاً على اليهودية. وقد كان هيرودس الملك الوحيد التابع للرومان في المنطقة كلها . وبعد انقضاء ستة اعوام انتصر

١ ـ Josephus, *Antiquities,* Bk. XIV, ch. **10**, secs. **2,3**.

٢ ـ *Ibid.,*Bk. XIV, ch. **13**, sec. **1**.

٣ ـ *Ibid.,*Bk. XV, ch. **4**, sec. **1**.

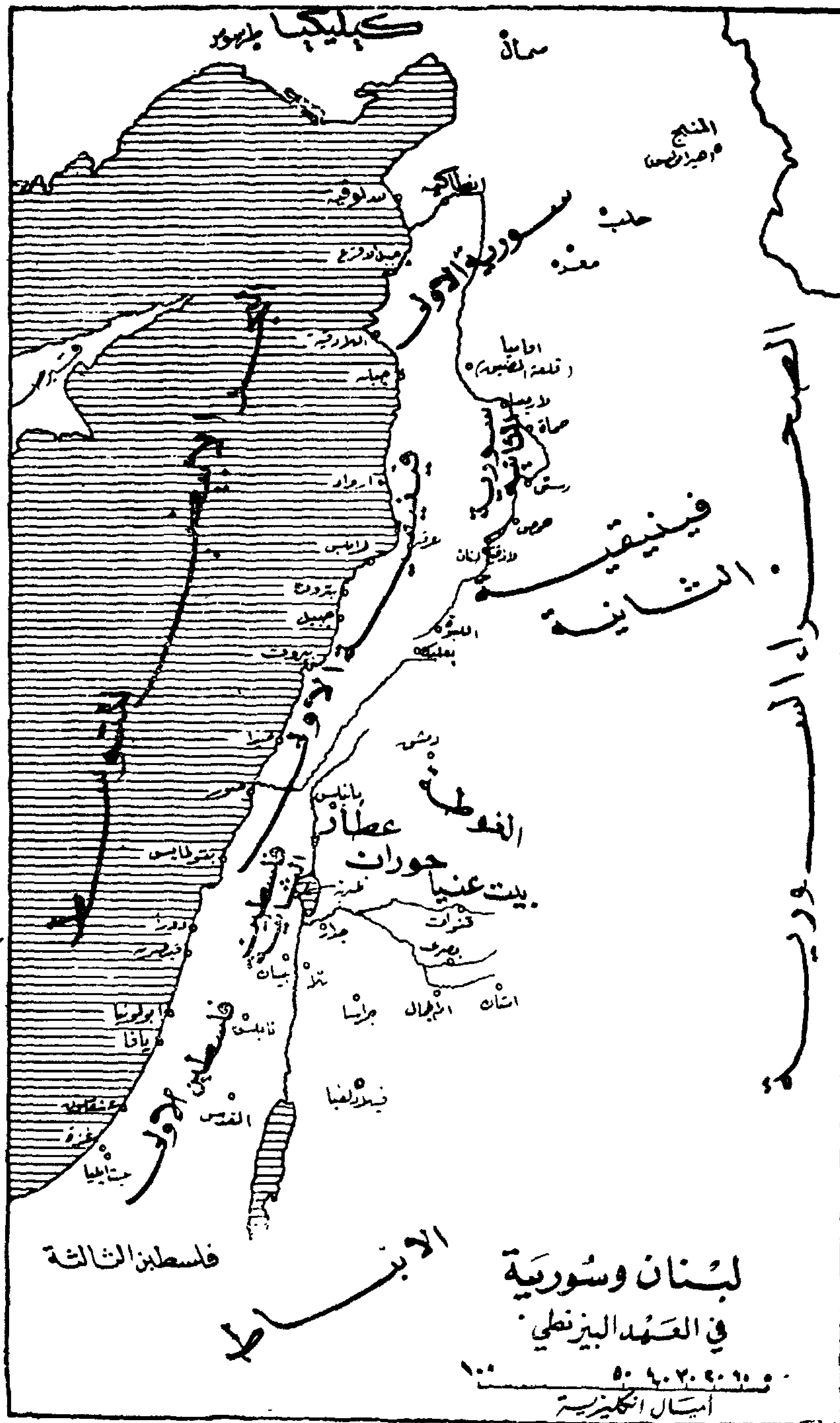
اوكتافيوس ، احد القناصل في الاتحاد الثلاثي الثاني والامبراطور العتيد انتصاراً حاسماً في المعركة البحرية التي وقعت بالقرب من اكتيوم الواقعة في الجزء الشمالي الغربي لبلاد الاغريق . هذا الانتصار الحاسم جعل منه الحاكم الوحيد غير المنازع وهو بعد في سن الثانية والثلاثين. وقد تابع اوكتافيوس زحفه متتبعاً جيوش انطوني وكليوباطرا الى مصر حيث انتحر العشيقان. ثم انه قفل راجعاً من مصر واتجه شمالا ماراً في فلسطين ، ثم في لبنـــان وسورية . وحيثما كانت تمر جيوشه كان حكام الولايات يرحبون بهم ترحيباً حاراً ينم عن توق الى الهدوء والاستقرار . وفي عام ٢٧ ق.م. اغدق مجلس الشيوخ الروماني لقب « اوغسطس » على اوكتافيوس .

كان عهـــد اوغسطس قيصر (الذي مات عام ١٤ ب.م.) فاتحة عهد استقرار وازدهار طويلين للامبراطورية الرومانية .

لبنان على عتبة عصر جديد

وقد وقعت حادثتان تاريخيتان في حقبة واحدة من الزمن كان لها الاثر البعيد في تغيير مجرى الحضارة العالمية : ظهور الامبراطورية الرومانية وظهور المسيحيـــة . هذان الحادثان غيرا مجرى التاريخ في لبنان تغييراً جذريا . كانت الامبراطوريـــة الرومانية في اتساع رقعتها اعظم امبراطوريـــة ظهرت حتى ذلك الحين : من الاطلسي والبحر الشمالي الى الفرات ، ومـــن نهر الرين والدانيوب الى الصحراء الكبرى في افريقية . في هذه الرقعة المترامية الاطراف فرض الرومان سلماً واستقراراً سياسيا عرف باسمهم : « السلم الروماني » (Pax Romana) وبعد سنة ٧٠[١] ب . م. اصبحت الامبراطورية الرومانية بكاملها في مأمن من الحروب الاهليـــة الداخلية الخطرة . وقد قيض لهذه الامبراطوريـــة ان تنعم خـــلال قرن من الزمن كانت نهايته ملك ماركوس اوريليوس (١٦١ ـ ١٨٠ ب. م) بسلسلة من الاباطرة العظام . فقد انشأ هؤلاء شبكة من الطرقات الجيدة التي كانت تربط بين اجزاء الامبراطورية الواسعة والتي جعلت منها وحدة . وقد كان انشاء هذه الطرق شاهداً على كفاءة الادارة في الحكم وعلى حذق في الاعمال

١ ـ اي بعد ثورة اليهود التي انتصر فيهـــا القائد الروماني طيتس وخرب هيكلهم وشتتهم في جميع انحاء العالم .


كيليكيا
سميساط
المنبج
حلب
انطاكية
معرة
افاميا
حماة
حمص
فينيقية الثانية
بعلبك
بيروت
دمشق
الغوطة
بانياس
عطارة
حوران
بيت عنيا
قنوات
بصرى
نابلس
القدس
يافا
غزة
فلسطين الأولى
فلسطين الثالثة
لبنان وسورية
في العهد البيزنطي
أميال انكليزية

الهندسية . فقد جعلوا من طرق القوافل القديمة غير المعبدة في منطقة حوض المتوسط الشرقي طرقاً واسعة معبدة . وقد اقاموا انصبةً عواميدَ على هذه الطرقات لا يزال بعضها قائماً الى يومنا هذا في لبنان وسورية . وقد كتب عليها اسماء الطرق والمسافات كما نشهد اليوم في بناء الطرق العصرية . واعتنوا اعتناء خاصاً بالمرافىء البحرية والجسور واحواض الماء واقنية الري . وآثار هذه باقية الى يومنا هذا في جميع انحاء المنطقة . وفي عهد اوغسطس قيصر انشأ الرومان نظاماً للبريد يربط بين الحكومة المركزية وبين موظفيها في المقاطعات . كانت اعمال القرصنة وقطع الطرق من الامور التي الفها الناس غير ان الرومان استأصلوا شأفتهما واحلوا النظام بها . وقد بدأ تنظيف المتوسط من اعمال القرصنة في عهد بومبي الذي اقتطع من غابات الارز اخشاباً لبناء سفن لمطاردة القرصان . وقد نجح في عمله هذا نجاحاً تاماً . وقد كان زعماء اللصوص، وجلهم من الايطوريين والعرب، من القوة بحيث انهم كانوا يبتنون لانفسهم قلاعاً وحصوناً في اعالي لبنان[1] يلجأون اليها عند الحاجة . وقد استمرت عاصمة الايطوريين، خلقيس ، (Chalsis عنجر في البقاع) في مقاومة الرومان حتى ايام تراجان (٩٨ — ١١٧ ب. م.) .

لما كانت سورية مركز القوة الرومانية في الشرق الادنى ، فان الادارة الرومانية اهتمت بتأسيس مراكز عسكرية على اطراف الصحراء لحماية الاهلين المتحضرين من هجمات البدو . فأنشأ الرومان على الحدود الشمالية والشرقية سلسلة من الحصون والقلاع للمراقبة والواحات المحصنة لحماية سورية من الفرثيين الى الشمال ومن البدو الى الشرق . ووضعوا مفارز عسكرية عند العيون والآبار لحمايتها، لانها نقاط حيوية في هذه المنطقة الجافة ومواصلاتها . وكذلك وضعوا كتائب رومانية — وجلها من اهل البلاد المجندين — في نقاط ستراتيجية . وقد كان عدد سكان سورية في العهد الروماني ، على وجه التقدير ، من ٦ —٧ ملايين نسمة ، وهو رقم قياسي بالنسبة لهذه البلاد . ففي عهدنا الحاضر نشهد بقاعاً كثيرة في سورية مهملة مقفرة لا تصلح الا لرعي الماشية او بعض الزراعة البدائية التي تعتمد المطر . ولكننا نشهد فيها آثار مدن وقرى كانت في يوم من الايام مزدهرة بالعمران . يدلك على ذلك ما فيها من آثار الآبار واقنية الري . وقد ذكر لنا سترابو

١ — Strabo, Bk. XVI ch. 2, secs. 18, 20.



قطعة نقود من صيدا ٢١٩ – ٢٢٠ بعد الميلاد . يعود تاريخها الى جوليا بولا زوجة الاغبلوس الاولى . وقد ضربت في صيـدا . ويظهر على وجه منها رأس جوليـا وعلى الوجه الآخر عربة عشتروت

وبطليموس وبليني اسماء مدن وجزر صغيرة في محاذاة الشاطىء اللبنـاني كانت موجودة في ايامهم ولكنها لا وجود لها اليوم ، او اننا لم نتمكن بعد من تعيـين هويتها[١] .

اما في لبنان فان عدد السكان – وفي هـذه الفترة كان جلهم يسكن المناطق الساحلية – كان قدازداد ، فاخذ بعضهم يتوطن الجبال المتوسطة العلو وسفوحها التي كانت حتى هذه الحقبة من الزمن كثيفة الغابات . اما في صور وارواد اللتين كانتا جزيرتين صغيرتين محدودتي المساحة فان الناس اخذوا ببناء الدور ذوات الطبقات المتعددة ، اي انهم اخذوا بالتوسع علواً عوضاً عن التوسع افقيا كما هي عليه الحال الآن في المدن الكبيرة[٢] . فقد كان سكان ارواد يسكنون في مـا يشبه ناطحات السحاب . اما مؤونتهم من المياه فقد كانت من ماء المطر الذي يختزنونه في آبار . وكانوا ايضاً ينتفعون بنبع عذب تظهر مياهه في المضيق الذي يفصل جزيرتهم عن البر . اما طريقة الاستقاء من هذا النبع البحري فقد كانت على غاية من البراعة والابتكار . كانوا يُنزِلون من قارب قمعاً من الرصاص واسع الفم وفي وسطه انبوب من الجلد . كان الماء العذب يصعد في الانبوب الجلدي فيملأون جرارهم. وهي طريقة لا عهد للناس بها اذ ذاك . ولا يزال في ارواد الى يومنا هذا احواض

---

١ – مثال ذلك Pliny, Bk. V, ch. 17, sec. 74 عندما يذكر لنا مكانين يقعان بين البترون والقلمون : «Gigarata and Trieris» . cf. Dussaud, *Topographie* pp. 81-2 .

٢ – Strabo, Bk. XVI, ch. 2, Secs. 13, 23 .

منحوتة في الصخر لحفـــظ المياه [١] . امافيا يتعلق بالبيوت ذات الطبقات المتعددة التي كان يبنيها الصوريون والارواديون فاننا لا نرى لها شبيهاً الا في جنوب غرب آسية (اليمن) حيث كان بناؤها ضرورة لصد هجمات البدو على المدن [٢] .

ان البقايا الاثرية التي يعود عهدها الى زمن الامبراطورية الرومانية منتشرة في جميع انحاء الجبل . فقد بدأ اغنياء الفينيقيين واثرياء الرومان في هذا العهد يبنون لانفسهم بيوتاً للاصطياف في الاماكن المرتفعة التي ظلت الى تلك الفترة من الزمن بلاداً يقطنها الصيادون والرعاة والحطابون والمتنسكون . وكان اتقياء الفينيقيين ومتعبدوهم ينتقون الهضاب المشرفة لبناء هياكل لآلهتهم . وقدعثر على تماثيل محفورة في الصخر ، وعلى نقوش كتابية اغريقية ورومانية ، وعلى نواويس وقبور وآثار هياكل واعمدة مطمورة في التراب وغيرها من البقايا القديمة في قرى متباعدة متفرقة مثل شملان وقرطبا والعاقورة وتنورين واهدن . وقد وجد نقش في نيحا الواقعة شمالي شرق زحلة على الطريق العام الى بعلبك يظهر منه ان موظفاً رومانياً من بيروت مـــات ودفن هناك . ولعله كان يملك مزرعة حيث تقوم قرية نيحا حالياً [٣] . ولكن ليس هنالك ما يـــدل على ان جبال لبنان عمرت بالسكان على مستوى كثيف الا في زمن الدولة الرومانية الشرقية ، اي البيزنطية ، عند اواخر القرن الرابع الميلادي . فانه في زمن المؤرخ الروماني تسيتوس [٤] (حوالي ١٠٠ ب . م.) كانت قمم لبنـــان لا تزال مغطاة بالغابات . ولم يصبح لهـــذا القسم من الجبل ، القسم الذي يضم الجبال المتوسطة والعالية ، اي اهميـــة سياسية ، بالنسبة الى الشاطىء ، الا بعد القرن السابع للميلاد حينما هاجرت الى القسم الشمالي منه فرق مسيحية كانت على شيء من الخلاف المذهبي مع الكنيسة الام. هذه الفرق، بعد ان اندمجت مع غيرها من الفرق التي كانت في لبنان، اصبحت تعرف بالكنيسة

١ – Renan, *Mission*, p. 40 .

٢ – Hitti, *History of the Arabs*, 9th ed. (London, 1957), p. 57

٣ – Ch. Clermont - Ganneau, *Recueil d'archeologie orientale*, vol. IV (Paris, 1901), pp. 288 - 9; *Corpus Inscriptionum Semiticarum*, vol. III supplement, No. 14384; cf. 14384; M. Rostovtzeff, *The Social and Economic History of The Roman Empire* (Oxford, 1926), p. 567 .

٤ – *Historiae*, Bk. V, ch. 6.

المارونية وكذلك القسم الجنوبي من الجبل لم يكن له اهمية سياسية تذكر الا بعد القرن الحادي عشر ميلادي عندما ظهر فيه الدروز .

طرأ على لبنان في عهد الامبراطورية الرومانية تغييران : توسع في الرقعة الجغرافية ، ونظام سياسي جديد . فان مقاطعة فينيقية في القرن الثاني توسعت وامتدت بحيث شملت ليس الجبال فحسب بل البقعة الواقعة شرقيها ايضاً . اما النظام السياسي الجديد فقد حصل عندما تسنم سبتموس سفيروس [١] العرش (١٩٣ – ٢١١) . فقد كان زواجه من جوليا دومنا ، ابنة كاهن « اله الجبل » سبباً لتوطيد اركان الاسرة السورية – اللبنانية التي حكمت الامبراطورية الرومانية من رومة ، وامر بتقسيم البلاد ، بين عام ١٩٤ ب.م و ١٩٨ الى قسمين : شرقي ويشمل سورية المجوفة وغربي ويشمل فينيقية السورية [٢] . وفي الفترة البيزنطية اعيد النظر في تقسيم المقاطعات . فقد كانت المقاطعات في عهد قسطنطين الكبير في عام ٣٢٥ ب. م. مقسمة على هذا النمط : المقاطعة العربية (شرقي الاردن) ، وفلسطين، وفينيقية، وسورية المجوفة. اما ثيودوسيوس الثاني (٤٠١–٤٠٥ ب.م). فقد فصل فينيقية اللبنانية (اي الشرقية) عن فينيقية البحرية وجعلها مقاطعة مستقلة ، ومنح مدينة حمص الامتيازات والحقوق التي كانت تمنح للعواصم والمدن الام (الام بالنسبة الى المستعمرات التي كانت قد انشأتها الام في الخارج) . ثم انه كان هنالك ثلاث ولايات كل واحدة منها تسمى سورية – وكانت سورية المجوفة احداها – وفينيقيتان الاولى تسمى فينيقية الاولى (Prima) او البحرية (Maritima) وعاصمتها صور ، ومن مدنها الرئيسية عكا (Ptolemais) وصيدا وبيروت وجبيل والبترون (Botrys) وطرابلس وعرقة وارواد . وكان هنالك فينيقية الثانية (Secunda) واحياناً اللبنانية (ad Libanum أو Libanesia) وعاصمتها حمص ، ومن مدنها بعلبك (Helipolis) ودمشق وتدمر [٣] . وقد ظل

١ – ولد هذا الامبراطور في مدينة لبتس (Leptis) (وهي لبدة الحالية من اعمال طرابلس الغرب) وقد كانت قديماً مستعمرة فينيقية .

٢ – Harrer, pp. 87—90 .

٣ – Marquardt, vol. I, p. 425; Ernest Stein, *Histoire du Bas-Empire*, vol. II, (Paris, 1949). p. 289; cf. Malalas, *Chronographia*, ed. L. Dindorf (Bonn, 1831),pp. 296, 345 .

تقسيم البلاد على هذا النمط الى الفتح العربي .

هذا التغيير الذي طرأ على البلاد في العهد الروماني تناول ايضاً اللغة . ففي القرن الثاني الميلادي بدأت الرسوم الميثولوجية الفينيقية التي كانت تطبع على النقود تختفي لتحل محلها الكتابات الاغريقية . وماتت اللغة الفينيقية كلغة التخاطب ، وكذلك الحياة الاجتماعية الفينيقية والمؤسسات الوطنية اصبحت في حكم الممات . ذلك ان اللغة الآرامية ، وهي اللغة التي تكلم بها السيد المسيح، حلت محل الفينيقية. وكانت القوانين والشرائع الرومانية تهدف الى القضاء على القومية الفينيقية والى محو الطابع الوطني والحياة الوطنية . ولكننا لا نستطيع القول بان استعمال اللغة اللاتينية شاع بين الناس جميعاً . فان معرفتها كانت تطلب من الذين ينضمون الى الخدمة العسكرية ومن موظفي الحكومة . بينما ظل سائر الناس يتكلمون اللغة الوطنية . اما في حقلي الادب والتجارة فقد ظلت اللغة الاغريقية اللغة السائدة . وفي هذه الفترة كان الانسجام والتوافق التامّيْن بين الحضارتين الرومانية والاغريقية ــ وكلاهما من الشعوب الهندوجرمانية ــ قد بلغا مبلغهما من الكمال ، مع العلم ان الحضارة الرومانية مدينة بالكثير الى الحضارة الاغريقية فضلا عن انها كانت وريثتها . كانت الواحدة منهما تكمّل الاخرى . فقد كان الاغريق مثلا على كثير من الضعف السياسي وعلى كثير من النقص والعجز في التنظيم والادارة ، ولكن الرومان برزوا في هذين الحقلين بالذات . وكذلك كان الرومان يفتقرون الى الروح الفلسفية والفنية الجمالية ، بينما كانت الحضارة الاغريقية تتميز بالنزعة الفلسفية وبالغنى الفني الجمالي . وهكذا استمرت الحضارة الهلينية ، بثوبها اللاتيني، في نشاط وازدهار في لبنان وسائر سورية .

ومن المستغرب ان تظل لهجة فينيقية حية بين سكان شمالي افريقية حتى القرن الخامس الميلادي . هذه اللهجة كانت تعرف عند المؤرخين الكلاسيكيين باللهجة الفينيقية (Punic) . فقد ظل الناس القاطنون حول مدينة هِبُّو يسمون انفسهم كنعانيين حتى اواخر القرن الرابع للميلاد. وكان مطران هِبُّو المشهور ، القديس اوغسطين (تو ٤٣٠) يستعمل في مواعظه بعض المفردات الفينيقية . وفي الواقع ان سكان بلدة منعزلة على خليج سرته في ليبيا ظلوا يستعملون اللسان الفينيقي حتى القرن الحادي عشر للميلاد[١] .

١ — Möwers, vol. II, p. 478 .

الانتاج الاقتصادي

كان من نتائج التغيرات الجذرية في اللغة والسياسة التي رافقت تأسيس الحكم الروماني في هذه المنطقة ان الشعب اللبناني هب مرة اخرى ليؤكد ذاتيته كقوة فعالة في المنطقة وليحتل مركزه التجاري المرموق تحدوه العزيمة الصادقة والارادة الثابتة. وقد سجلت مدنه البحرية نجاحاً وازدهاراً في التجارة لم تبلغه من قبل ولا من بعد. ولم يقتصر هـــذا الازدهار على لبنان ، الذي لم يكن سوى جزء من هذه البقعة الكبيرة ، بـــل تعداه الى جميع انحاء المنطقة . فقد عم السلام جميع ارجائها ، وارتبطت اجزاؤها المختلفة بشبكة من طرق المواصلات لم تعهدها البلاد من قبل ، واتسعت الاسواق التجارية اتساعاً كبيراً مما كان باعثاً على ازدياد معدل الانتاج الاقتصادي في حقول الزراعة والتجارة .

وقد ادرك اللبنانيون في العهد الروماني اهمية السوق الارروبية وتعاظم الطلب على النتاج اللبناني الذي يمكن تصديره الى الخارج . كانت زراعة القنب (الذي تصنع من اليافه الانسجة الكتانية) معروفة في لبنان وفي جميع انحاء غرب آسية . اما القطن ، الذي يظهر ان زراعته كانت قديماً تقتصر على الهند فقد دخل البلاد بدخول العرب. وكانت المدن الفينيقية تصدر الخمور وزيت الزيتون والتمر والجلود والفراء « واجـــود انواع الطحين [١] » وقد اشتهرت بيروت بزبيبها « الذي لا يفوقه في حلاوته زبيب آخر [٢] » وكان الرومان يقدرون جودة خمرها كما كانوا ايضاً يقدرون خمر صور . وقد اشتهر الكتان البيروتي في كل العالم . وفي شرائع ديوكليشان التي تتعلق بالضرائب والمكوس نجد انه راعى بصورة خاصة الضريبة على الكتان اللاذقاني والجبيلي والصوري [٣] .

وفي اوائل القرن الاول للميلاد كثر الطلب على الخمر اللاذقاني لا سيما من الهند

١ – Athenaeus, Bk. I, ch. 28, sec. a.

٢ – Pliny, Bk. XV, ch. 66 .

٣ – Theodor Mommsen, *The Provinces of the Roman Empire*, Tr. William p. Dickson, vol. II (London, 1909), p. 137 .

وافريقية (١) . وكانت الغـابات الكثيفة التي تجلل قمم لبنان مصدراً غنياً للوقود وللاخشاب الصالحة لبناء السفن والبيوت وصنع العجلات وآلات الحرب . فكثر الطلب على هذه الاخشاب بصورة كبيرة لم تعهدها البلاد من قبل ، فشعر الناس بضرورة ايجاد القوانين لحماية هذه الغابات وايجاد طرق فعالة لقطع الغابات وتحضيرها خشباً . لذلك اقيمت حجارة عليها نقوش كعلامات حدود للمناطق الحرجية التي اعتبرت من املاك الدولة . وقد وجد مثل هـذه الحجارة في المناطق العالية من هذه الجبال . وفي ارض الجامعة الاميركية يرى الزائر عموداً حجرياً بركانياً كان قد وضع على قمة تقع بين ظهور الشوير وزحله لتحديد منطقة حرجية وعليه كتابة هذه ترجمتها : «الامبراطور هدريانوس المعظم-حدود الغابة » . وقد كان هدريانوس ، (١١٧ ـ ١٣٨) قبل ان اصبح امبراطوراً، حاكماً لسورية ولبنان . ولا شك انه ادرك الاهمية الاقتصادية للاحراج فسعى الى حمايتها .

وقد كان هنالك اقبال على المعادن الخام اللبنانية . فانه نسبة لازدياد السكان العام وارتفاع مستوى المعيشة فقد ازداد اقبال العامة من الناس على اقتناء الحلى والمجوهرات . وبالنسبة لازدياد الاعمال الزراعية وبالنسبة لتوسع الصناعة والمواصلات البرية والبحرية فان الطلب على المعادن ازداد اكثر من ضعفين . وفي اثنـاء الاضطهادات التي قام بها ديوكليشان ومكسيميان بين ٣٠٣-٣١٣ ميلاديـة ضد المسيحيين كان يحكم على الاسرى الذين كانوا يعترفون بمسيحيتهم ويجهرون بهـا بالاعمال الشاقة في مناجم لبنان ، وربما للعمل في مناجم النحاس في منطقة صيدا ومناجم الحديد في ضواحي بيروت (٢) . وقد برهن الصناع اللبنانيون الذين يشتغلون بالمعادن على انهم من ذوي المهارة والحذق وانهم كفء لتلبيـة طلب الاسواق المتزايد . وقد بلغ نتاجهم ، سواء أكان من حيث الجودة ام الكمية ، درجة عالية

١ - Wilfred H. Schoff, *The Periplus of the Erythraean Sea* (New York, 1912), p. 77 .

٢ - Eusebius, *The Ecclesiastical History and the Martyrs of Palestine*, tr. Hugh J. Lawler and John E.L. Oulton, vol. I (London, 1927) p. 396; F. M. Heichelheim, «Roman Syria», *an Economic Survey of Ancient Rome*, ed. Tenny Frank, vol. IV (Baltimore 1938), pp. 156-7 .

من التقدم والرقي . وظلت صيدا في هذه الآونة تمد اسواق العالم بزجاجها الممتاز كما انها حافظت الى حد بعيد على تفوقها في صناعة النسيج والاتجار به . وكانت هي وصور تصدران الرخام الابيض . وبالقرب من مدينة بعلبك مقالع يستخرج منها الطباشير[١] .

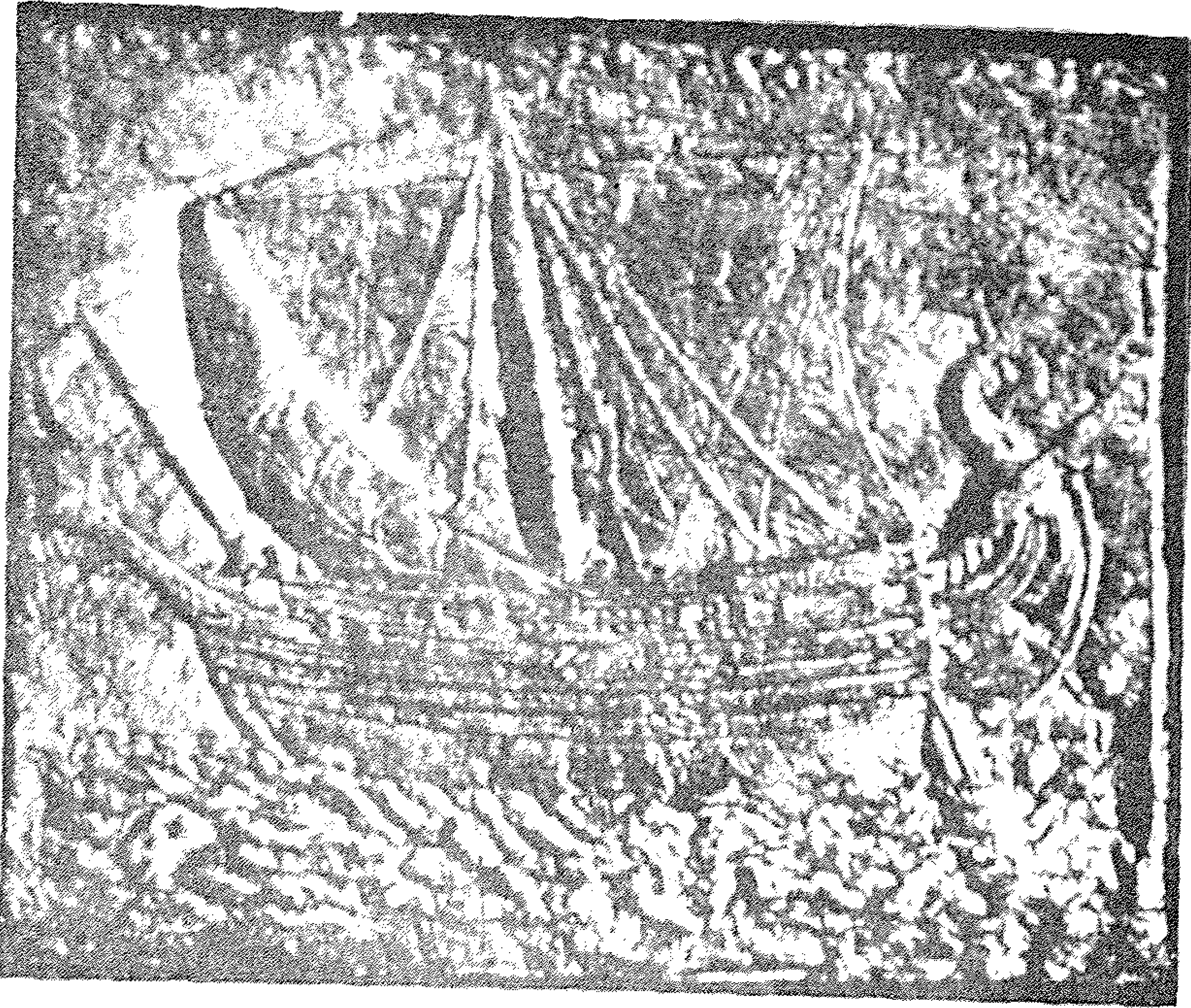
كانت صناعة النسيج في لبنان تقتصر في الدرجة الاولى على الصوف والكتان. وكانت المواد الخام لهذين النوعين من النسيج متوفرة في لبنان . ومما جعل النسيج اللبناني يتمتع بميزة خاصة هو ان الفينيقيين كانوا يصبغونه بصباغ الارجوان الذي لم تستطع امة ان تجاريهم في صنعه . فقد ذكر الجغرافي سترابو[٢] (تو ٢٤ ب.م) ان رائحة المصابغ الكثيرة في صور جعلت منها « مقاماً مستكرهاً » .

العلاقات التجارية والمستعمرات

وفضلا عن النتاج المحلي كالخمر والزيت والخشب والثمار المجففة والنسيج ، فقد عني اللبنانيون القدماء ايضاً بدباغـة الجلود وصنع الفراء . وكانوا يعنون ايضاً بانتاج الادوية والروائح العطريـة والعقاقير وانواع مختلفـة من المرهم للتصدير . وقد ظلت صور وصيدا وارواد وغيرها موانىء تستقبل البضائع والسلع الواردة بحراً من جنوب الجزيرة العربية ومن الهند والصين . وقد كانت تجارة الترانزيت قديماً – كما هي حالياً في بيروت – تجارة واسعة مزدهرة . وكانت الطرق البحرية والبرية تستخدم في تجارة الترانزيت ، غير ان الطرق البرية – رغم ان نفقات النقل عليها تربو على نفقات النقل البحري – كانت في نظرهم طرقاً سليمة لا تتعرّض لمخاطر البحـار . كانوا يستوردون السكر والارز والحجارة الثمينة من الهنـد ، والبهارات والعقاقير وخشب الصندل واللؤلؤ من البلاد العربيـة وما جاورها من البلدان . اما الحرير فكانوا يستوردونه من الصين . وفي هـذه الفترة اقبل اثرياء الرومان على لبس الثياب الحريرية اقبالا عظيماً . وقد كان الحرير حتى ذلك الحين احتكاراً صينياً ، وكان يعد من اثمن الكماليات . ومن المرجح انهم كانوا ينتجون

١ – Heichelheim, p. 157 .
٢ – Strabo, Bk. XVI, ch. 2, sec. 23 .

الحرير انتاجاً محلياً وعلى مستوى ضيق ، وذلك بتربية دودة القز البرية التي نجدها في غربي آسية . غير ان الحرير الصيني الاصيل لم يستورد الى لبنان الا بعد ١١٥ ق. م. كان الحرير الصيني والاقمشة الحريرية الصينية تصل البلاد براً بعد عبور القوافل بلاد الفرثيين ومنها الى تدمر المدينة السورية التي كانت محطاً للقوافل التجارية البرية. وقد بلغت مدينة تدمر في الغنى والثروة والعظمة مبلغاً جعل الرومان ينقمون عليها . لذلك خربها الامبراطور اورليان (٢٧٢ ـ ٢٧٣) . وفي القرن الثالث للميلاد كانت هذه البضائع الشرقية ترد البلاد بحراً من الهند فالى الاسكندرية على رأس الخليج الفارسي وقد عرفت فيما بعد بـ Antochia Chara (وهي غير اسكندرية مصر) . ومن هناك كانت البضائع ترسل الى تدمر او الى دورا اوربه (الصالحية) او البتراء . ومن البتراء وتدمر كان الحرير الخام يصل الى احد الموانيء اللبنانية حيث كان يصبغ ويحاك ثم يرسل اقمشة تروق في عيني الروماني . وقد كان في بيروت وصور انوال مهيأ بواسطتها الحرير الخام لصبغه بالارجوان . وكان الحرير الارجواني اغلى انواع الحرير .



صورة مركب شراعي نحتت على ناووس وجد في صيدا . وهو الآن في المتحف الوطني في بيروت

كانت تجارة الرقيق تسير من الشرق الى الغرب فتمر في الموانىء الفينيقية ثم الى الغرب . فكان التجــار يشترون الرقيق من بلدان مختلفة . فقد كان تجار الرقيق يأسرون البالغين من النساء والرجال او يختطفون الصغار او يشترونهم من والديهم ويأتون بهم الى سوق النخــاسة للبيع . ومما زاد في عدد الرقيق المدينون الذين لم يستطيعوا وفاء ديونهم . فقد كان العرف القديم ان يستعبد الدائن المدين اذا عجز عن وفاء دينه .

ان علاقات تجارية دولية نشيطة كهذه العلاقات التي انشأها التجار اللبنانيون في هذا العهد تقتضي انشاء وكالات للتجار والعملاء في المدن الاوروبية .وقد كان اولئك الوكلاء والعملاء من سوريين ولبنانيين يعرفون في الغرب باسم عام يشمل الاثنين: « الوكلاء السوريون» (Syri Negotiatores) او المفاوضون السوريون. وفي اوائل حكم اوغسطس قيصر اخذت جماعات كثيرة من اللبنانيين والسوريين تنزح الى الولايات اللاتينية الغربية : تجار سوريون ولبنانيون، وجنود نظاميون او من المرتزقة ، وعبيد وكهنــة وممثلون هزليــون وموسيقيون ومهرّجون وراقصون ولاعبون بالسيــف وبائعون متجولون واصحــاب الخــانات والفنادق . وقد ازداد عدد هؤلاء المهاجرين السوريين واللبنــانيين الى الغرب في القرن الثاني . غير ان الهجرة بلغت ذروتها ايام حكم الاباطرة الذين كانوا ينتمون الى الاسرة السورية اللبنانية (١٩٣ــ٢٣٥) . وكثيرون من هؤلاء المهاجرين الذين ذهبوا كتجار استوطنوا الغرب. يقول الكاتب الروماني الساخر جوفنال (تو ١٤٠ ب.م) : « ان نهر العاصي السوري يصب مياهه في نهر التيبر منذ امد بعيد ، جالباً الينا معه لغته وعادته وآلات موسيقاه : الناي والقيثارة ذات الاوتار المرتخية»[١] .

لقد كانت هجرة احفاد الفينيقيين ، اجداد مهاجري السوريين واللبنانيين الى القارتين الاميركيتين ، كبيرة بحيث انها ، كما يقول احد المؤرخين ، « طغت فعلا على العالم الروماني[٢] » وكان من نتائجها ، كما يقول المؤرخ ، انهم « استعمروا

١ ـ *Juvenal and Persins*, ed. and tr. G. G. Ramsay (London, 1920),p. 37.

٢ ـ Franz Cumont, *The Mysteries of Mithra*,tr. Thomas J. Mc Cormack (Chicago, 1903),p. 62.

المقاطعات اللاتينية[١] « كان هؤلاء المهاجرون الفينيقيون موجودين في كل مكان، كما كانوا سابقاً في عهد هوميرس الشاعر الذي يشير اليهم في الاماكن التي جاء على ذكرها في اشعاره[٢] .

وقد كانت مواطن الهجرة الاولى التي تلقت الموجات الاولى من المهاجرين الفينيقيين الموانىء الايطالية . فقد كان في مدينة بوتيولي (واسمها الآن بوزولي Pozzuoli) ، التي كانت مستودعاً عظيماً للبضائع المستوردة من الشرق الى رومة جالية صورية كبيرة وغنية جداً لا تزال بقايا ابنيتها ماثلة للعيان في فيا كامبانا[٣] (Via Campana) . وقد عثر على رسالة يرجع تاريخها الى ١٧٢ ب. م. بعثت بها الجالية الصورية الى المدينة ، صور ، يشكو فيها كاتبها من قلة عدد المهاجرين الصوريين مما سبب نقصاً في دخل الجالية ، فأصبح متعذراً عليها دفع ايجار قاعة الاجتماعات ودفع النفقات لاقامة الشعائر الدينية[٤] . وهنالك اشارات تدل بوضوح على وجود جاليات صورية كانت تتوطن رومة واوستيا على مصب نهر التيبر والتي اصبحت في القرن الثاني وريثة بوتيولي في التجارة والغنى . وقد وجدت في مدينة بوتيولي ايضاً كتابات تكريسية للاله هدد (المشتري) إله هيليوبوليس (بعلبك) يعود تاريخ احداها الى عهد تراجان (١١٦ ب. م.)[٥] . وقد كان رئيس مجلس الاعيان المحلي في مدينة بوتيولي كاهناً للاله هدد واصله من دمشق[٦] . وقد عثر بين خرائب قصر سكيارا في رومة على بلاطة رخامية عليها كتابة تكريسية للاله هدد اللبناني . اما لغة هذه الكتابات التكريسية الدينية فاللاتينية ، وبعضها بالاغريقية ، وقلّ ان نعثر على كتابة من هذا النوع باللغة السريانية (اي الآرامية) وهكذا يصنع احفاد اللبنانيين من المهاجرين الى القارتين الاميركيتين في يومنا هذا ، فانهم ينشئون كنائس يكرسونها لسيدة لبنان (مريم العذراء) .

١ — Franz Cumont, *Les religions orientales dans le paganisme romain*, 4 th ed. (Paris, 1929) p. 98 .

٢ — Mommsen, *Provinces*, vol. II, p. 138.

٣ — Bouchier, p. 175 .

٤ — *Corpus Inscriptionum Latinarum*, vol. X (Berlin, 1883), No. 1601 .

٥ — *Ibid.* No. 1634.

٦ — *Ibid.* No. 1576.

١٦

وعند مستهل حكم اوغسطس قيصر اخذت عبادة تموز وما يرافقها من شعائر وطقوس معقدة تنتشر في رومة . (وتموز هو الذي اصبح اسمه ادونيس ، وهي لفظة فينيقية : « ادوني » ومعناها سيدي ومولاي ، وفي اخرها لاحقة لاتينية) . وشاعت عبادته بين عامة الناس هناك زمن حكم اباطرة الاسرة السورية اللبنانية . وقد كان ثمة عدد كبير من « حدائق ادونيس » في طول البلاد وعرضها حتى تناولت اماكن نائية عن رومة مثل مدينة اشبيلية في اسبانيا . ولم يقتصر امر هذه الكتابات على رومة وموانئها بل اننا نجد آثار هذه الجاليات الفينيقية ، وكتابات تكريسية متنوعة ، في اماكن اخرى مثل نابولي وميزنوم وفي مدن مقدونية في بلاد الاغريق (كما في ميناء اثينة مثلا : بيريه) وفي جزر الارخبيل في البحر الايجي . وفي الواقع ان السوريين اللبنانيين « انشأوا علاقات تجارية مع جميع المدن الموانىء في الغرب[١] . »

ولم يقنع هؤلاء التجار السوريون الفينيقيون بالبقاء في مدن الموانىء بل كانوا يوسعون تجاراتهم مع داخلية البلدان التي كانوا ينزلون على شواطئها متتبعين الطرق النهرية والبرية الرئيسية . وحيثما كانت تبدو بارقة رزق او ربح كانوا يذهبون حاملين الى جانب بضائعهم وسلعهم عناصر حضارية ثقافية . ففي ايطالية نجدهم في زفنا وتريستا واكيليا (عند رأس البحر الادرياتيكي) وفي صقلية نجدهم في مدينه سيراقوسة ومسّينا ، وفي دلماشية (على شواطىء الادرياتيكي الغربي) نجدهم في سالونة ، وفي اسبانيا نجدهم في اماكن بعيدة في داخلية البلاد مثل قرطبة . وقد عثر على نقش في مدينة ملقا ، يعود تاريخه الى القرن الثاني الميلادي ، يذكر فيه كاتبه شركة تجارية سورية . اما في وادي الدانيوب فنجدهم مثلا قد اوغلوا الى اماكن بعيدة مثل ابولوم في داكية وسرميوم عاصمة بانونيه (وهي القسم الشرقي من بلاد النمسا وهنغارية) . وقد استهوتهم بشكل خاص بلاد الغال (فرنسة) . فاننا نجدهم في وادي نهر الجيرون في مدينة بوردو . وفي وادي نهر الرون نجدهم في مدينة ليون . وكان هنالك عدد كبير منهم في مدينة توف بالقرب من

---

١ ـ Cumont, *Mysteries*, p. 61 .

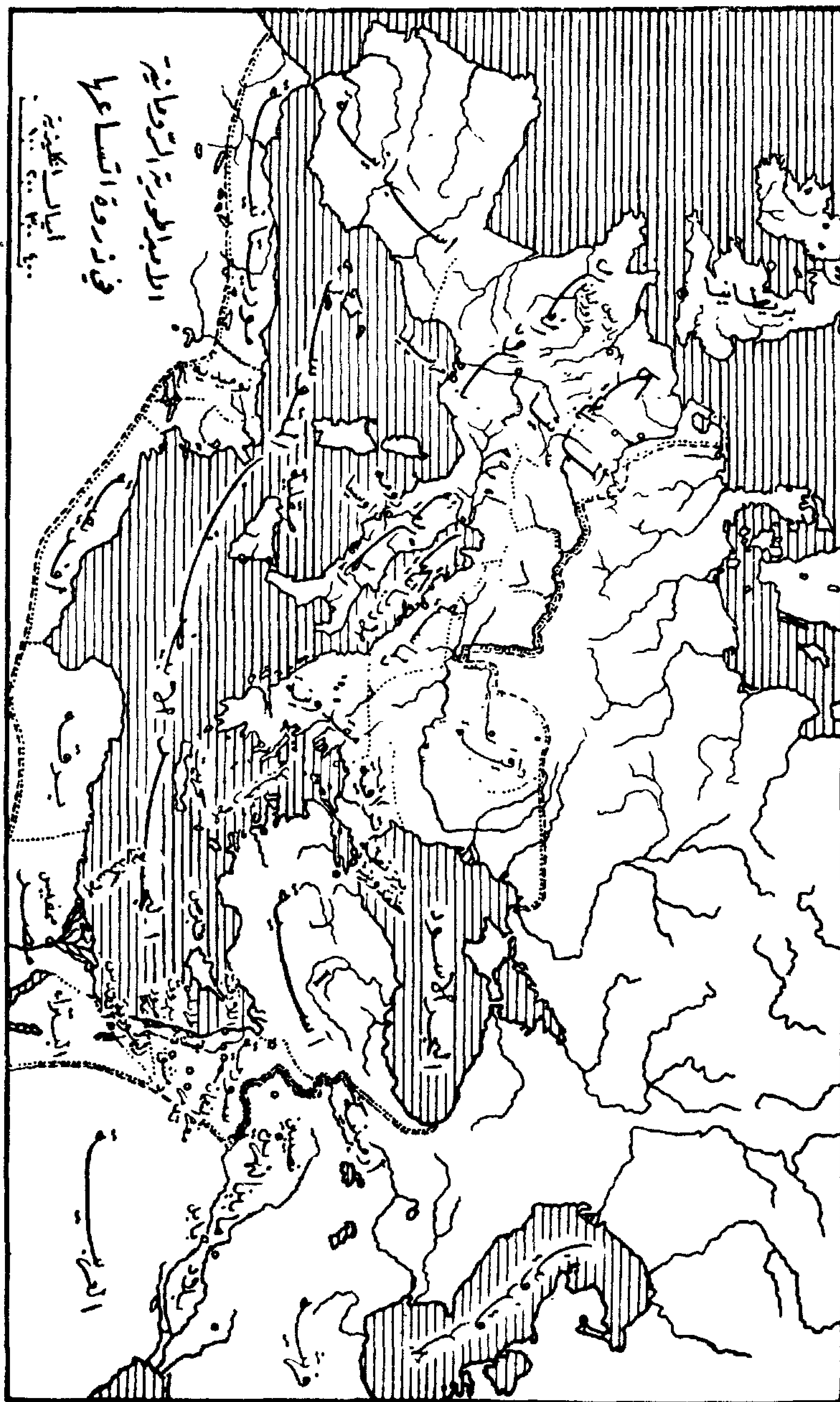
لكسمبورغ . وقد عثر على لوح برونزي وجد في بلدة دير القمر[١] ، لبنان ، عليه نص قرار اصدره الحاكم الروماني في بلاد الغال (١٧٢ ب.م.) موجهاالى الملاحين في مدينة ارل الواقعة شمالي مرسيلية يحدد فيه لهم قوانين نقل الحنطة . كذلك عثر على مزهريات زجاجية عليها توقيع رجل صيداوي اسمه انيون (*Ennion*) — وقدكان اشهر رجل يصنع الزجاج في القرن الاول للميلاد — في اماكن متباعدة مثل مصر وقبرص وشمالي ايطالية وجنوبي روسية[٢]. ويظهر انه كان لمصانع هذا الرجل مكتب في رومة . ويبدو ان صانع زجاج اخر انشأ له مكاتب تجاريـــة في مدينة كولون على نهر الرين . وقد وجد في مدينة البندقية بقايا زجاجية من صور. وقد اصبحت الآنية الزجاجية والمعدنية التي كان يحملها الفينيقيون الى بلاد الغرب فيما بعد نماذج كان الصناع الغربيون يقلدونها . ولم يقتصر عمل هؤلاء التجـــار الفينيقيين على عمليات الاستيراد ، بل كانوا ايضا يقومون باعمـــال التصدير من البلدان الغربية التي كانوا يقيمون فيها . فانهم مثـــلا كانوا يصدرون الفخار من ايطالية وبلاد الاغريق ، والسمك المملح من اسبانيا، والبضائع الصوفية من غرب اوربة الى بلاد الشرق . ولم يستطع الغزو التيوتوني الذي وقع في القرن الخامس للميلاد وفي القرون التي تلته ان يقضي على نشاط الفينيقيين التجاري وعلى روح المغامرة والاقدام . كانت الجالية الفينيقية في مدينة اورليان تشعر كأنها جزء من المدينة ، او كانها في وطنها . فانـــه في عام ٥٨٥ ب.م. لما دخل الملك جونتراند Gontrand هذه المدينة استقبلته الجالية الفينيقية « باهازيج بلغتهم السورية » ، كما استقبله اللاتين واليهود ايضاً[٣] . وقدكانت جالية باريس الفينيقية من الاثر في المجتمع بحيث انها ، في عهد الميروفنجيين ، حوالي ٥٩١ ب. م استطاعت ان تنتخب احدهم ، واسمه يوسبيوس ، مطراناً على المدينة . وقد عزل هذا المطران

---

١ — J. P. Waltzing, *Étude historique sur les corporations professionnelles chez les Romains,* vol. III, (Louvain, 1899), pp. 526 - 7; *Corpus Inscriptionum Latinarum,* vol. III, suppl. No. 14165 8 .

٢ — Heichelheim, p. 189; Dussaud, in *Syria*, vol. I (1920) pp. 230-4 (في هذا المقال يذكر ديسو اسماء صناع الزجاج)

٣ — Gregory of Tours, *Historiae Francorum,* Bk. VIII, ch. 1 .


الامبراطورية الرومانية
في ذروة اتساعها
أميال انكليزية

جميع افراد سلفه في الكهنوت وعين خلفاً له واحداً من اقاربه [١] . وعند مستهل القرن الرابع للميلاد نجد اولئك السوريين اللبنانيين من تجـار وجنود وعبيـد ومستعمرين ينقلون الدين المسيحي الى اوروبة ولم يكونوا باقل حماسة في نشره عن آبائهم واجدادهم الذين نقـلوا الى الغرب ديانة الفينيقيين وطقوسهم وشعائرهم الوثنية . وقد ظهر اثرهم المسيحي في الغرب بصورة خاصة في التقشف والتزهد والرهبنة والنواحي العاطفية التي كانت ترافق شعائر العبادة . كان تعلقهم بالصليب واتخاذه شعاراً دينياً من بين العناصر التي ادخلها الفينيقيون الى اوروبة في القرن السادس . وقد كانت جاليتهم في رومة اثناء القرن السابع والثامن من القوة بحيث انهم قدموا الى السدة البابوية عدداً من الباباوات . وقـد طوب اثنـان منهما قديسين [٢] . هؤلاء الباباوات السوريون هم الذين اقاموا جميع الاعياد الكاثوليكية التي تدور حول تعظيم مريم العذراء .

١ — *Ibid.* Bk. X, ch. 26.

٢ — Louis Bréhier, *Les origines du crucifix dans l'art religieux* 3rd ed. (Paris, 1908), pp. 39 - 43, 54 - 5, 59 - 62; Hitti, *History of Syria*, p. 484 .

الفصل الرابع عشر

نواح فكرية

لقد قامت في المدن الفينيقية ، عند مستهل العهد الروماني ، حركة نشاط علمي وادبي لم تعهدها هذه المدن في عصورها الاولى . فان سترابو[١] (تو ٢٤ ب.م) يصف الصيداويين بانهم « فلاسفة في علمي الفلك والحساب » . ويضيف الى ذلك قوله بان المدن الفينيقية في عصره كانت تعد اعظم موطن للمعرفة. ويمثل على ذلك بذكره بوثس (Boethus) الصيداوي الذي درس معه فلسفة ارسطو ، واخيه ديودوتس (Diodutus) الذي كان حسب قوله « فيلسوفاً مشهوراً » . ولكننا لا نعرف عنه الآن شيئاً . وفضلاً عن سترابو فان هنالك كتّاباً كلاسيكيين آخرين جاءوا على ذكر « شعراء فينيقيين ذائعي الصيت » ممن لم تصلنا حتى اسماؤهم . وبالاضافة الى صيدا كان ثمة مدن فينيقية اخرى اسهمت في النتاج الفكري في ذلك العصر مثل مدينة جبيل وصور وبيروت .

من اولئك الذين نبغوا في حقول العلم والادب فيلو الجبيلي (Philo of Byblos) (٦٤ ــ ١٦١ ب.م) الذي ألّف باللغــة الاغريقية مؤلفاً قيمــاً عن القصص الميثولوجي الذي يدور حول خلق العالم ، وفيه يعالج تاريخ الدين الفينيقي معتمداً في ذلك مصادر مصرية وبابلية قديمة . ويعترف بانه اعتمد مؤلفاً فينيقياً من اهل بيروت اسمه سنكونياتون (Sanchuniaton) [٢] . هذا المؤلف الفينيقي القديم ، سنكونياتون ، ــ الذي نتعرّف اليه بواسطة يوسبيوس[٣] ــ شخصية غامضة عاشت في القرن السادس ق. م ، وكان يظن قبــلا انه رجــل ميثولوجي حتى جاءت اكتشافات اوغاريت الاثرية فاثبتت للملأ بانه لم يكن شخصية ميثولوجية ، بل

---

١ ــ Strabo, Bk. XVI, ch. 2, sec. 24.

٢ ــ وهو في الفينيقية *Sakkon - Yaton* ومعناه الاله سكون قد اعطى

٣ ــ In Karl Müller. *Fragmenta Historicorum Graecorum*, vol. III (Paris), pp. 563 seq.

رجلا وجد حقاً في التاريخ . فاننا اذا قابلنا ما يعزونه الى سنكونياتون بما ورد من اساطير في الادب الاوغاريتي نجد ان التوافق والتشابه بينهما ظاهر للعيان. وكذلك اذا نحن قابلنا ما ذكره فيلو الجبيلي بما جاء في النقوش الاوغاريتية المكتوبة على آجرّات ، نجد ان ما ذكره فيلو فيه كثير من الصحة . وفي فقرة تعزى الى سنكونياتون يذكر لنا هذا المؤلف الفينيقي القديم بطلا ميثولوجياً اسس مدينة صور وهو الذي شهر حرباً عواناً على اخيه اوسوس الذي كان « صياداً يلبس الجلود » . وهذه الاسطورة تشبه قصة الصراع بين يعقوب واخيه عيسو الذي ذكرتها لنا التوراة . وهي قصة ترمز الى الصراع المديد الذي وقع بين الزراع والفلاحين المتحضرين وبين الصيادين الرحل الذين كانوا يعيشون في المناطق الصحراوية المتاخمة لاطراف الاراضي الزراعية .

ومن اولئك الذين اشتهروا في حقل العلم في النصف الاول من القرن الثاني مارينوس الصوري مؤسس الجغرافية الرياضية التي كان يعتمدها العالم القديم ، والذي سبق بطليموس الجغرافي المشهور بزمن قصير . وقد كان بطليموس[١] في مؤلفاته يشير اليه ويقول انه كان يعتمد مارينوس الصوري مصدراً لمعلوماته . وقد رسم مارينوس خرائط ذات فائدة عظيمة ، ذلك بانه وضع خطوطاً للعرض وخطوطاً للطول لكل موقع جغرافي وبذلك قضى على الحدس والتخمين الذي كان يلجأ اليه المسافرون عند تعيينهم الموقع الجغرافي الاكيد .

البلاغة والبلغاء

كانت المنافسة في الحياة الفكرية على أشدها بين مدينة صور وصيدا . وكان من علماء صور رجل اسمه مكسيموس (حوالي ١٢٥ ــ ١٨٥ ب. م.) وقد كان سفسطائياً قضى شطراً كبيراً من حياته محاضراً متجولا يلقي محاضراته في اثينة وروما ايام كومودس (Commodus) (١٨٠ ــ ١٩٢ ب. م.) . وقد كان مكسيموس رجلا عالماً بالبلاغة والفصاحة اكثر منه مفكراً مبدعاً . اما البليغ في ذلك العصر ، فقد كان الرجل الذي يحسن الدفاع في المحاكم ويتقن فن تعليم الدفاع

١ — *Geography*, Bk. I, chs. 6,7 .

والمرافعة . وفي الواقع كان اكثر هؤلاء البلغاء جماعة من الخطباء المحاضرين الذين يسافرون من مكان الى آخر لالقاء الخطب البليغة الرنانة[١] . اي ان البلاغة كانت في ذلك العصر فناً مستحباً من فنون التعبير الخطابي . وكان أشهر البلغاء السوريين رجل اسمه ليبانوس (حوالي ٣١٤ - ٣٩٢) من مدينة انطاكية ، واسمه يدل على انه من اصل لبناني . وقد كان ليبانوس من اشد المتحمسين للثقافة الهلينية . وشد ما كان استياؤه عندما علم ان احد تلامذته اللامعين في انطاكية ــ والذي اصبح فيما بعد كريصوصطم (Chrysostom) احد آباء الكنيسة المشهورين ــ نبذ الدين الاغريقي واعتنق المسيحية وظهر في مدينة صور سفسطائي آخر عالم بالبلاغة اسمه ادريانوس (١١٣ ــ ١٩٣) وكان يعلم البلاغة في المركزين الثقافيين العالميين : اثينة ورومة .

ما قدمه الفينيقيون الى الافلاطونية المستحدثة :

واهم من جميع هؤلاء الفلاسفة الفينيقيين واشهرهم فرفوريوس الصوري (ومعنى اسمه المتجلبب بالارجوان) واسمه السامي الاصيل « ملك » . ولد فرفوريوس في مدينة صور عام ٢٣٣ ميلادي . ويقول بعضهم انه ولد في بثنية من اعمال جنوب حوران . وقد تلقى العلم في صور ولكنه اقام في رومة التي شوقته اليها شهرة افلوطين المصري مؤسس تلك الفلسفة التي تجمع بين خصائص الفلسفة الاغريقية وعناصر الفلسفة الشرقية والتي عرفت فيما بعد بالافلاطونية الحديثة . وقد ظل فرفوريوس يعلّم في رومة حتى مماته في عام ٣٠٥ . وكان فضله ان جمع مقالات استاذه افلوطين الفلسفية وصنفها حسب مواضيعها ورتبها بشكل مجموعات اطلق عليها عنوان « التاسوعيات » (Enneads) ونشرها . ولولاه لظل افلوطين اسماً مجهولا . وقد كان فرفوريوس مؤلفاً كثير الانتاج فقد ذُكر له ٧٧ مؤلفاً[٢] في الفلسفة والنحو والبلاغة والحساب والهندسة والموسيقى . ومن جملة كتبه مؤلف هاجم فيه المسيحية ، وقد احرق علانية ايام ثيودوسيوس الثاني[٣] (٤٤٨) واذا كانت

١ ــ اذا اراد القارىء الاطلاع على دراسة نقدية لمكسيموس عليه ان يراجع :
Karl Meiser, *Studien zu Maximos Tyrios* (Munich, 1909) .
٢ ــ J. Bidez , *Vie de Porphyre* (Gand , 1913), appendix IV.
٣ ــ Bidez , pp. 65—79 .

المسيحية ، تلك الديانة الشرقية ، غيرت مجرى حياة الغرب فان الافلاطونية المستحدثة بروحها ومعناها غيرت مجرى الفلسفة في الغرب .

وقد كان من بين تلامذة فرفوريوس فيلسوف اسمه يمبليخوس (Iamblichus) (حوالي ٢٥٠ـ٣٢٥) . ولد هذا الفيلسوف في خلقيس (واسم موقعها الآن عنجر) في سورية المجوفة (البقاع) وقد خرج يمبليخوس على العرف الذي كان يجري عليه فلاسفة فينيقية القدماء وعلماؤها من رحلتهم الى الغرب والاقامة فيه ، بل اختار ان يظل في موطنه حيث اسس مدرسة ربما كان مركزها افامية على نهر العاصي . وقد تحدر الينا من مؤلفاته مخطوط طريف يدل على ان يمبليخوس سبق علماء التوراة الى اتباع طريقة النقد التاريخي العلمي في تعيين الزمن المتأخر الذي كتب فيه سفر دانيال. فقد كان اهل عصره يظنون ان هذا السفر قديم العهد ولكنه خطّأ ظنهم بدراسته السفر دراسة علمية نقدية. وقد اعتمد احد كتبه في المنطق ككتاب مدرسي في العصور المتوسطة . وقد كان في فلسفته يجمع بين التفكير اللاهوتي وبين الفلسفة العددية التي كان يعزو اليها ــ متّبعاً في ذلك طريق الفلسفة الفيثاغورية المستحدثة قيماً ومعاني اسمى من القيمة الحسابية او القيمة العلمية[١] . وقد كان على خلاف مع فرفوريوس في قضية العقل عند الحيوان . فقد كان يمبليخوس ينكر ان الحيوان يعقل. وقد الهّه تلاميذه واتباعه من جماعة الافلاطونية المستحدثة الذين جاؤا بعده ولقبوه بالاله (Theios) . غير ان علماء التاريخ المحدثين يعتقدون بان هذا اللقب انما اعطي له لانه كان يقوم باعمال السحر ، ولانه كانت تظهر على يديه بعض الكرامات .

الآداب اللاتينية

ظلت اللغة الاغريقية ، كما اشرنا الى ذلك آنفاً ، اللغة السائدة الشائعة في الشرق الادنى حتى بعد ان تمت لرومة السيطرة عليها . ذلك لان الاغريقية كانت اللغة الادبية ، وكانت جذورها قد تأصلت بحيث لم يكن من السهل التخلي عنها لمجرد انتقال الحكم من امة الى اخرى . وهنالك سبب آخر وهو الرومان انفسهم ، فانهم كانوا

١ ـ Edward Zeller , *Die Philosophie der Griechen* , 3 rd ed. (Leipzig , 1881) , vol. III , pt. 2 , p. 700.

يحلّون الاغريقية محلا رفيعاً في حياتهم الفكرية . غير ان بيروت صارت، كما يقول عنها مؤرخ مشهور، « جزيرة لاتينية في بحر الهليّنية الشرقية »[1] وكانت تباهي بانها اخرجت كاتباً ومؤلفاً لاتينيا : ماركوس فلاريوس بروبس . وقد يكون هنالك مؤلفون لاتينيون كتبوا باللاتينية غير ان التاريخ لا يذكر لنا عنهم شيئاً . بدأ بروبس، الذي عاش في النصف الثاني من القرن الاول للميلاد، حياته جندياً . ولكنه ما عتّم ان كرس باقي حياته لدراسة الادب الروماني الكلاسيكي في رومة التي جعل منها موطناً له . وفي رومة عني بدراسة شعر فرجيل وهوراس وغيرهما من الشعراء البارزين ونشر دواوينهم بعد دراستها دراسة نقدية . فكان بروبس قد وضع اسس الدّراسات الكلاسيكية النقدية في العهد الروماني الامبراطوري المتأخر ، واحتل مقامه الرفيع بين اللغويين والنحويين والنقاد اللاتين .

اللغة السريانية

ان ما تحدر الينا من الادب الذي كتب باللغة الآرامية ، لغة عامة الناس في ذلك العهد ، لا يترك في نفوسنا ذلك الاثر الذي يتركه الادب الذي كتب باللاتينية . كان السيد المسيح يضرب امثاله للناس ويلقي عظاته على الجماهير باللغة الآرامية . وعندما دوّن تلاميذه سيرة حياته دونوها بالآرامية ، ولكنها لم تصلنا، بل انها ترجمت في اوائل العهد الامبراطوري الروماني الى لغة اغريقية ركيكة . ولكن بالرغم من هذا ، فان اثرها الروحي كان ابعد غوراً في مجرى الحضارة من كل ما خلفه لنا الادب الاغريقي ــ اللاتيني . وعندما تنصرت هذه المنطقة اصبحت السريانية – وهي لهجة آرامية ــ لغة الكنائس في كل من سورية ولبنان والعراق ، مع العلم بانه كانت هنالك فوارق طفيفة في هذه اللهجات . وقد اتسع انتشار السريانية كلغة ادبية اتساعاً كبيراً بعد القرن الثالث للميلاد . ولم يكن السبب في انتشارها ظهور روح وطنية بقدر ما كان رغبة صادقة في نشر العقيدة المسيحية وقد كان لترجمة الاناجيل الى اللغة السريانية (بلهجة ايدسا اي الرها كما عرفها العرب واورفا كما هو اسمها حالياً) اثر بعيد في احلال هذه اللغة محلا ادبياً مرموقاً ، فاصبحت بذلك اللغة الادبية . وعندما تنصر الآراميون (سكان

١ – Mommsen, *Provinces*, vol. II , p. 130 .

سورية ولبنان) تبنوا لهجة ايدسا الآرامية وجعلوها لغة الكنيسة والادب ولغـــة الطبقة الراقية ، واصبحوا يعرفون باسم جديد سريان (اي سكان سورية) . اما اسمهم القديم « آراميون » فقد كان يذكّرهم بوثنيتهم. ولذلك تخلوا عنه واصبح هذا اللفظ « آرامي » في عقولهم ، حتى وفي معاجمهم ، اسماً مرادفاً للوثنيـــة . وهكذا اختفى الاسم السامي القـــديم « آراميون » وحل محـــله الاسم الاغريقي الجديد « سريان » ، اي إهل سورية ، واصبحت اللغة تسمى السريانيـــة عوضاً عن الاسم القديم : الآرامية . ولم تحتل السريانية في لبنان مركزاً هاماً إلا بعد ان توطنه الموارنة .

الفصل الخامس عشر

تنصر لبنان

حوالي العام السادس قبل الميلاد ولد في مدينة بيت لحم الصغيرة طفل صغير . لم يكن ظهور السيد المسيح حداً فاصلا بين عهدين : قبل الميلاد وبعد الميلاد فحسب ، وانما كان له ابعد الاثر في تغيير مجرى التاريخ . كانت فلسطين تشكل مع لبنان في تلك الحقبة مقاطعة من سورية يحكمها وال[1] روماني مقره انطاكية وكانت مدينة رومة اذ ذاك سيدة العالم وقبلة انظاره . وكانت الابصار تتطلع الى الامبراطور العظيم اوغسطس قيصر الذي كان جالساً على عرشها . فهل يعقل ان يأبه مؤرخ معاصر لحدث بسيط كهذا: ابن نجار في بقعة نائية من ديار الامبراطورية يعلّم ويعظ ويشفي المرضى ويصلب لصلابة عقيدته ؟ كلا ، كان الامر أيسر من هذا في نظرهم . ولكن الواقع ان انساناً عاقلا او صاحب رؤى ما كان ليحلم بان تلامذة هذا المعلم الناصري واتباعه سينشرون تعاليم المسيحية في زوايا الارض الاربع في خلال سنوات معدودات . وما كان احد من الناس ليصدق بان هذه التعاليم سيكتب لها البقاء والاستمرار . ولكن هذه الرسالة البسيطة ، رسالة المسيحية ، عمرت وخلدت، بينما تلاشى كل معتقد اغريقي روماني آخر. انقرضت كل فلسفة وتنوسي امرها، اما الكنيسة التي اسسها بعض رجال من اليهود والآراميين استمرت وبقيت ثابتة الاركان . تلك الامبراطورية الرومانية العظيمة القوية الراسخة ضعفت ووهنت ، اما المسيحية فقد قويت وثبتت على مدى الايام .

كانت الفكرة الرئيسية في البشارة الجديدة تدور حول المحبة ــ محبة الله ومحبة

---

١ ــ واسمه ، كما ورد في لوقا ٢ : ٢ ، كيرينيوس راجع : Josephus, *Antiquities*, Bk. XVII, ch. 5, sec. 2; Bk. XVIII, ch. 1, sec. 1; Tacitus, Bk. V, ch. 9.

حيث يذكر ان كيرينيوس عين والياً على سورية سنة ٦ بعد المسيح . اما هيرودس الذي ولد المسيح عند نهاية ولايته فقد مات سنة ٤ ق. م .

القريب . والله نفسه استحال في هذه العقيدة الجديدة الى محبة . الله محبة . وهذه المحبة التي كرز بها تلاميذ المسيح واتباعه جعلت البشرية عائلة تحت ابوة واحدة : الله . هذه الفكرة العالمية الشاملة، فكرة العائلة الواحدة تحت ابوة واحدة ، جاءت بلسماً في زمن تسوده النزعات والافكار الاقليمية الضيقة . اصبح التوكيد الآن على واجب تكريس الذات لمحبة الله وخدمة الانسان . واصبح المهم في حياة الانسان غنى الحياة الروحية الداخلية لا الطقوس والفروض ، والسلوك لا شعائر العبادة .

اننا لا نعرف عقيدة من عشرات العقائد الهلينية تقوم على فلسفة اساسية بسيطة كالفلسفة المسيحية . ربما كانت الفلسفة الرواقية تشبهها في بعض نواحيها . ولكننا لا نعرف عقيدة تشبه المسيحية ، فيها عزاء للفقراء والحزانى والمنبوذين والمطرودين . ولا نعرف عقيدة شددت على الايمان بالحياة الخالدة بعد الموت . كان الخلود عند العبران يعني خلود الامة لا الفرد . وكان الخلود عند الاغريق والرومان من نصيب القلة المختارة : اولئك الذين خدموا الانسانية . أو اولئك الذين قيض لهم الدخول الى موطن الاسرار في الديانات القديمة . لقد كان في هذه الديانة الجديدة بمُثُلها واخلاقياتها واصرارها على معرفة الازمنة العتيدة والتأكد من صحة عقيدتها ما يستهوي الجماهير المستنيرة المثقفة . فان هذه الجماهير كانت تأمل ان ترى في ديانتها ما يشبع رغائبهم الروحية والفكرية ويحقق لهم العدالة الاجتماعية . لم تكن طريق المسيحية – وهي ديانة سامية – الى العالم الاغريقي الروماني المثقف ذي التقاليد العريقة طريقاً سهلا ممهداً ، بل وعراً صعباً ولكي يستسيغها الغربي كان عليها ان تتعمَّد في الهلّينية اولا وأول من بدأ هذا العمل – صبغ المسيحية بالروح الهلينية – كان رجلا يهودياً من كيليكية ، ومواطناً رومانياً : بولس الرسول . كان بولس يتقن اللغة الاغريقية وكان عالماً بالفلسفة الاغريقية اما في لبنان الذي كان عند ظهور المسيحية لا يزال بلداً سامياً تعلوه مسحة من هلّينية ، فان دخول المسيحية اليه لم يلق معارضة شديدة . ولا شك ان الطبقة المستنيرة كانت قد تعرفت الى هذه العقيدة في عصر مبكر جداً غير انه كان هنالك عبادتان قويتان شائعتان بين طبقات الناس ومتأصلتان في نفوسهم . الاولى عبادة هدد – رمّون ، الاله السامي الذي تقمص الى اله اغريقي روماني

المشتري (جوبيتر اوزفس) ومركز عبادتـه في بعلبك (هليوبوليس) ، والثانية عبادة عشتروت ـ تموز ومركز عبادتها جبيل .

صور المركز المسيحي الاول

ما ان بدأ المسيح كرازته في الجليل حتى ذاع صيته الى ان بلغ صيدا وصور[١] فاقبل اليه جمع منهم ليسمعوا تعليمه وليشفوا من امراضهم[٢] . والمسيح ذاته اتى « ... الى نواحي صور وصيدا »[٣] وبينما كان يتجول هناك اتته امرأة كنعـانية تضرع اليه ان يشفي ابنتها المصابة بالجنون فشفاها . وهذا اهم حادث تذكره لنا الاناجيل وقع اثناء زيارته هذه البلاد . وقد بني على الموقع الذي جرت فيه هذه العجيبة كنيسة تذكارية كانت لا تزال قائمة عند منتصف القرن الرابع عشر[٤] . وهنالك على بعدميلين أو أكثر جنوبي صيدا كهف قديم، ربما كان معبداً لعشتروت، تقوم على انقاضه كنيسة شيدت على اسم سيدة المنطرة للروم الكاثوليك . ويصر التقليد على ان مريم ام يسوع اقامت هناك تنتظر قدوم ابنها الى صيدا . وعلى هذا التقليد سميت الكنيسة بسيدة المنطرة (المنطرة كلمة سريانية تعني الترقب والانتظار). وعلى اثر استشهاد استفانوس ، اول شهيد مسيحي ، تشتت تلاميذ المسيح للكرازة بانجيل المسيح . ويقول صاحب اعمال الرسل ان بعضهم « اجتازوا الى فينيقية[٥] » جميع هذه الاشارات الواردة في الاناجيل وفي التقليد التي جئنا على ذكرها تدل على ان المسيحية دخلت لبنان في عهد الرسل ووجدت تربة صالحة .

كانت صور اول مدينة فينيقية قامت فيها جالية مسيحية . يقول لنـا بولس الرسول انه عندما رجع من بلاد اليونان لزيارة اورشليم ـ وكانت اخر زيارة له

١ ـ ان ورود هذين الاسمين معاً « صور وصيدا » اللذين يردان بهذا الشكل عشر مرات في العهد الجديد (متى ١١ : ٢١،٢٢ . ١٥ : ٢١ مرقس ٣ : ٨،٧ : ٢٤،٣١ لوقا ٦ :١٧،١٠ :١٣،١٤ . اعمال الرسل ١٢ : ٢٠) يدل على ان كتاب هذه الاسفار يقصدون بها بلاد فينيقية .

٢ ـ مرقس ٣ : ٨ لوقا ٦ : ١٧.

٣ ـ متى ١٥ : ٢١ـــ٢٨ مرقس ٧ : ٢٤ـــ٣١ .

٤ ـ Ludolph von Suchem . *Description of the Holy Land* , Tr. Aubrey Stewart (London , 1895), p. 50 .

٥ ـ سفر الاعمال ١١ : ١٩ .

ـ عرج على صور فوجد فيها كنيسة تضم اعضاء من رجـــال ونساء واولاد . وقد اقام بينهم سبعة ايام . وقـــد حذره مسيحيو صور من الذهاب الى اورشليم لانهم كانوا يوجسون خيفة عليه . فتضرعوا اليه ان يظل عندهم . وعندما شيعوه الى الشاطىء ليستقل السفينة ركعوا على الرمال وصلوا من اجله[١] . ثم ان بولس الرسول عرج ، وهو في طريقـــه جنوبا ، على مدينـــة عكا حيث استقبلته الجالية المسيحية[٢] . وعندما قفل راجعاً الى رومـــة عرّج على صيدا حيث كان هنالك كنيسة وجالية مسيحية « ليحصل على عنايـــة منهم[٣] » كان ذلك عند منتصف القرن الاول الميلادي وعند منصرم القرن الثاني الميلادي اصبحت الجالية المسيحية في صور من الكثرة والقوة بحيث انه انشىء في المدينـــة كرسي لمطران ، واصبح لهذه المطرانية بعد قليـــل من الزمن اربع عشرة اسقفية . وفي كنيستها (كنيسة صور) دفن احد آباء الكنيسة المشهورين ، اوريغون[٤] ، الذي كان يرأس مدرسة الاسكندرية التي كانت تعنى بتعليم العقيدة المسيحية قبل ان تنتقل هـــذه المدرسة الى قيسارية . وحوالي ٣٠٣ هدمت كنيسة صور اثناء الاضطهاد المسيحي الكبير الذي امر بـــه ديوكليشان ، ولكن المطران بولينوس (حوالي ٣١٤ ، وفي عهد قسطنطين الكبير) اعاد بناءها وجعلها على مستوى اكبر واضخم . والواقع ان كنيسة صور كانت أكبر واجمل كنيسة في جميع انحاء فينيقية . وعندما دشنت القى مؤرخ الكنيسة الكبير ، يوسبيوس مطران قيسارية ، خطبة اثبت لنا نصها في مؤلفه عن تاريخ الكنيسة. وقد قدم لخطبته بقوله « انه عاجز وليس اهلا لهذا الاكرام ». وقد عقد في مدينـــة صور مجمع كنسي عام ٣٣٥ حـــكم بالهرطقة على اثناسيوس مطران الاسكندرية .

ويعرى فضل ادخال المسيحية الحبشة الى احد اتبـــاع مطران صور ، راهب يدعى فرومنتيوس ، وكان ذلك عام ٣٣٠ . تقول القصة ان المركب الذي سافر عليه فرومنتيوس غرق في البحر الاحمر ، ولكنـــه نجا الى البر واخذ اسيراً في بلاد

٢ ـ سفر الاعمال ٢١ : ٤ ـ ٦ .
٣ ـ سفر الاعمال ٢١ : ٧ .
٤ ـ سفر الاعمال ٢٧ : ٣ .
١ ـ ويدلونك اليوم على قبر الساحر العظيم اوريانوس ويقولون انه قبر اوريغون .

الحبشة وبيع الى الملك . غير ان الملك اعجب بدماثة خلقه وفضائله وذكائه فاعتقه. وبعد حين عينه اثناسيوس مطراناً على الحبشة . ومن ذلك الحين توثقت العلاقات الكنسية الودية بين مصر والحبشة .

وفي اوائل القرن الرابع اصبحت صيدا ، جارة صور الى الشمال ، مقراً اسقفياً . وعندما نقرأ في قائمة المطارنة الذين حضروا عام ٣٢٥ المجمع الكنسي المسكوني المشهور الذي عقد في نيقيا نجد اسم مطران صيدا : ثيودورس . في هذا المجمع الكنسي المسكوني وضع المؤتمرون قانون الايمان المعروف بالايمان النيقاوي الذي لا يزال قائماً للآن .

انتشار المسيحية شمالاً واضطهادها

تابعت المسيحية انتشارها شمالا رغم مقاومة الاباطرة الرومان ورغم الاوامر التي كانوا يصدرونها ضد هذه العقيدة ففي القرن الرابع اصبحت بيروت ـ التي لا نشك في ان الرسل والمبشرين الاول كانوا يمرون فيها عند مجيئهم الى انطاكية او عند رجوعهم منها الى اورشليم ـ مقراً اسقفياً .

ويخبرنا التاريخ عن عدد من الطلاب الوثنيين الذين كانوا يحضرون مدارس بيروت ، لا سيما مدرسة القانون المشهورة عند منصرم القرن الثالث . غير انهم تنصروا في بيروت واستشهدوامع من استشهد من المسيحيين اثناء الاضطهادالكبير الذي قام به ديوكليشان ومكسيميان في عام ٣٠٣ . وها هو يوسيبيوس المؤرخ الكنسي المشهور يذكر لنا احد اعوانه المسمى بامفيلوس (Pamphilus) الذي ينعته بأنه « كان رجلاً فاضلا مباركاً عزيزاً في عيني الرب » . وولد بامفيلوس في بيروت او في ضاحية من ضواحيها . وكان يعاون يوسبيوس في تصحيح ونشر مخطوطات الكتاب المقدس لا سيما الترجمة السبعينية ، كما وردت في الكتاب المقدس الذي وضعه اوريغون والمسمى الكتاب المسدس . وقد ذكر يوسبيوس بفخر ان بامفيلوس كان استاذه ، وبعد حين صار هذا اسقفاً في قيسارية . وكان بامفيلوس وابفيانوس (Apphianus) وهو شهيد آخر يذكره لنا يوسبيوس، يتحدران من عائلتين وثنيتين تنتميان الى العائلات الغنية الراقية . وكان يوسبيوس يعرفهما

معرفة شخصية . وقد اعتنق ابفيانوس المسيحية لما كان تلميذاً يدرس في بيروت . وهذان الشهيدان ، بامفيلوس وابفيانوس ، عذّبا وسجنا قبل ان قُتلا[١] .



قطعة نقود من عهد اسكندر سفريوس (٢٢٢–٢٣٥ ب.م.) وقد ضربت في صيدا . وعلى وجه منها يظهر رأسه وعلى الوجه الآخر ديونيسيوس .

وهنالك شهيد مسيحي آخر ، أبعد شهرة ممن ذكرنا سابقاً هو القديس جورجيوس او كما تعرفه العامة مار جرجس (او جريس). تقول الاسطورة المحلية – وهي اسطورة لا ترتكز على اساس تاريخي ثابت ، اذ ان هنالك اماكن اخرى تدّعي بان مار جرجس هو قديسها ووليها وانه عاش فيها – ان مار جرجس قتل التنين في خليج بيروت المعروف بخليج مار جرجس، وانه انقذ الاميرة هنا في هذه المدينة . ان هيكل هذه القصة يعود الى ما قبل المسيحية . فاننا نجد في الاسطورة عناصر اغريقية ومصرية وبابلية . تقول القصة ان حاكم بيروت ، اظهاراً لتقديره وشكره ، اقام لهذا البطل كنيسة فخمة شيدها عند مصب نهر بيروت وسماها باسمه – كنيسة مار جرجس – وكرسها له ، واصبح مار جرجس المنافس الاكبر لمار سرجيوس (او مار سركيس) في الكنائس السورية اللبنانية . وقد ادخل الصليبيون مار جرجس الى اوروبة حيث اصبح في انكلترا قديسها وشفيعها. ولا تزال صورته راكباً حصاناً يطعن التنين تطبع على قطع نقودها .ويقول لنا سائح الماني اتى البلاد المقدسة حاجا عام ١٣٤٠ ان مار جرجس لم يغير دين اهل بيروت من الوثنية الى المسيحية وحسب ، بل ان فضل تنصر البلاد باجمعها يعود اليه[٢] .

كان الاضطهاد الكبير الذي أصاب المسيحيين بين ٣٠٣–٣١٣ على اشده في مصر وفلسطين وسورية ولبنان . وقد انصب جام غضب الامبراطورَيْن اللذين

١ – Eusebius, tr. vol. 1, pp. 344, seq. ; vol. II, p. 33 .

٢ – Von Suchem , tr., pp. 48—9,135 .

قاما بهذا الاضطهاد : ديوكليشان وزميله مكسيميان على جميع هذه البلدان . فقد امر ديوكليشان بهدم الكنائس الى اساساتها ، وبحرق الكتب المسيحيــة وبصرف جميع المسيحيين من الخدمة المدنية والعسكرية . اما زميله مكسيميان فقد ذهب الى ما هو اشد فظاعة وهولا ، فقد كان يأمر كلَّ مسيحي ان يختار بين تقديم الذبائــح الى الآلهة المعترف بها في الامبراطورية أو الموت المحتم . وانه ليصعب على المؤرخ ان يحصي عدد الذين بترت اعضاؤهم او صلبوا أو اغرقوا أو احرقوا أو رُمي بهم الى الوحوش الجارحة في هذه المنطقة . وقد حصل اضطهاد قبل هذه الفترة. فان تراجان امر عام ١١٢ ان كل مسيحي لا يخضع للآلهة او لا يسجد للامبراطور يعد خائناً ويعاقب على خيانته . كذلك اضطهد دقيوس (داقيانوس) [١] المسيحيين . فانه بين ٢٥٠ ــ ٢٥١ عاد فثبَّت اوامر اسلافه التي كانت تقضي بمعاقبة المسيحيين الذين كانوا يرفضون ان يقدموا الذبائح علانية للآلهة الوثنية التي كانت تعترف بها الدولة . ولم يكتف الامبراطور فلريان (عام ٢٥٧ ــ ٢٥٨) بارغام المسيحيين على تقديم الذبائح علانية للآلهة الوثنية بل حظَّر عليهم ان يجتمعوا . وجميع هذه الاضطهادات كانت اضطهادات بسيطة اذا قيست بالاضطهادات التي تلتها . اما الاباطرة الذين كانوا ينتمون الى الاسرة السورية اللبنانية فانهم ، بالرغم مــن رذائلهم ونقائصهم ، كانوا على شيء من التسامح ازاء العقيــدة المسيحية . فان جوليا ماميا ، ام اسكندر سفيروس (٢٢٢ ــ ٢٣٥) ، آخر امبراطور من هذه الاسرة ،وهي فينيقية من مدينة عرقة ، كانت تحضر محاضرات اللاهوتي الشهير اوجين ، وكانت تعطف على المسيحية ان لم تكن قد اعتنقتها بالفعل . وقد نهى ابنها الامبراطور ، الذي ولد في هيكــل الاسكندر في مدينة عرقة ، الناس عن عبادته ، كما كان شائعاً في الامبراطورية ، واقام في معبده الخاص تماثيل لازدرشت (زادا) وابراهيم والمسيح .

ولكن عند مستهــل القرن الرابع اتضح لاتباع الديانات الوثنية ، ولاولئك الذين كانوا يرون فى استمرارها نفعاً مادياً، بان المسيحية آخذة في الانتشار ، ولن

---

١ ــ تقول الاسطورة ان ثمانية غلمان من مدينة افسس رفضوا تقديم الذبائح للامبراطور او للالهة فآووا الى كهف في الجبل وناموا فيه مدة من الزمن . راجع « فريحة » « قصة اهل الكهف في التاريخ » مجلة الابحاث ، السنة الاولى ، جزء ٣ ص . ٦٢ ــ ٧١ (المترجم) .

تعتم حتى تحتل المقام الاول في الحقل الروحي . وكذلك اتضح للدولة وموظفيها انه كلمـــا تدهورت الامور السياسية وكلما تردت احوال الامبراطورية تحسنت احوال المسيحية واتسع نطاقها .

المسيحية دين الدولة الرسمي

ولكن لم يمض وقت طويل على هذه الاضطهادات المفجعة حتى انقلب الامر فاصبحت الدولة تميل الى الاعتراف بالمسيحية بعد ان كانت قد جندت كل قواها للقضاء عليها . وقد كان الامبراطور قسطنطين الكبير اول من بدأ في تغيير هـــذا الاتجـــاه ، لا سيما بعد ان قضى على منافسه في الحكم واصبح الامبراطور الوحيد بين ٣٢٤ ـ ٣٣٧ . وفي عام ٣٣٠ بنى قسطنطين عاصمته الجديدة على الموقع الذي كانت تقوم عليه بيزنطة والتي لا تزال تحمل اسمه الان : القسطنطينية . ونقلُ العاصمة من الغرب الى الشرق دليل على اهمية الشطر الشرقي للامبراطورية الرومانية ورجحان كفتها . ذلك لان العدو الوحيـــد الذي ظل يناصب رومـــة العـــداء كانت فارس التي كانت قد استعادت قوتهـــا ونشاطها . واخذ موضع الثقل في الشؤون الدولية يتجـــه مرة اخرى نحو الشرق . وقبل ان يشرع في بناء عاصمته الجديدة اعترف قسطنطين بان دين الدولة الجـــديد هو المسيحية . وفي الرسائل الامبراطورية التي اصدرها عام ٣١٢ و ٣١٣ لم يكتف بان اظهر روح التسامح نحو المسيحيين في امبراطوريته بل كان يميل اليهم ويشجعهم[١] . تقول الاسطورة انه اعتنق المسيحية وهو في مسيره على رأس جيشه لمحاربة خصمه ومنافسه في رومـــة لما ظهرت له في الجوّ علامـــة صليب يلمع كالنور وعليه كتابـــة يونانية تقول : « بهذه العلامـــة تنتصر » وهكذا حدث ، فقد ظفر الامبراطور بخصمه واتخذ فيما بعد علامـــة الصليب شعاراً امبراطوريا . وكانت امه ، هيـــلانة ، امرأة مسيحية صادقـــة التعبّد ثابتة الايمان . وقد ذهبت حاجّة الى البـــلاد المقدسة حيث ، كمـــا تقول الاسطورة ، عثرت على خشبة الصليب الحقيقي الذي صلب عليه المسيح على الجلجثة ، والتي هي الآن موقع كنيسة القبر المقدس . وعليه

١ ـــ لمراجعة هذه الرسائل راجع : Eusebius, Bk X, ch. 5; tr., vol. I, pp. 315 - 20 .

نستطيع ان نقول بان تقديس الاماكن المقدسة واحترامها على انها شعائر دينية بدأ في عهـــد قسطنطين وامه . ولا شك ايضاً ان اعتناقهما المسيحية عجّل في تنصر المملكة كلها . فقد كان يصدر الامر تلو الآخر بهدم الهياكل الوثنية وتحطيم الصور والتماثيل وبمنع تقديم الذبائح للآلهة الوثنية[١]. كانت هذه الامبراطورية التي انشأها قسطنطـين بغاصمتها الشرقية ، القسطنطينية ، مسيحية في دينها اغريقية في لغتها وشرقية في اتجـاهاتها وميولها . وبالرغم مما انتابها من حوادث وما نزل بها من كوارث فانها استمرت الى ١٤٥٣ حينما استولى الاتراك على القسطنطينية واستبدلوا علامة الصليب بالهلال .

بعد وفاة ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ ــ ٣٩٥) وقع الانقسام النهائي الذي به انشطرت الامبراطورية الرومانية الى امبراطورية رومانية شرقية، والى امبراطورية رومانية غربية عام ٣٩٥ . وقد خلفه ابناه اللذان اقتسما المملكة : فاستولى احدهما على القسم الغربي والآخر على القسم الشرقي . وكان ابوهما ثيودوسيوس الكبـير مسيحياً يمشي على خطوات سلفه الاسكندر في تعضيد المسيحية الارثوذكسية[٢] وفي ايامه تابعت المسيحية زحفها الظافر الى داخل البلاد. والزعم القائل بان الفضل في بناء كنيسة مسيحية فخمة في صحن دار الهيكل العظيم في بعلبك ، التي قاسى اهلوها مر الاضطهـاد يعود الى ثيودوسيوس او الى الاسكندر زعم يحتاج الى اثبات . وقـد يكون ان كلام يوسبيوس[٣] المؤرخ الكنسي حيث يقول ان قسطنطين « بنى في هذه المدينة (بعلبك) كنيسة ضخمة رائعة » يعني ان قسطنطين امر بان يحول الهيكل الوثني (هيكل بعابك) الى كنيسة . ثم يتابع يوسبيوس قوله بان هذه المدينة منحت امتيازا بان يكون لها كنيسة على رأسها مطران يعاونه شيوخ وشمامسة . وما ان اطل القرن الخامس حتى اخذ اساقفة هيليوبوليس (بعلبك) يلعبون دوراً هاماً في حياة الكنيسة واخبارها . ويقول لنا يوسبيوس[٤] ان سكان

١ ـ Eusebius , *Life of the Blessed Emperor Constantine,* (London , **1845**),pp . **158-9 , 193-4.**

٢ ـ كلمة ارثوذكسية تستعمـل بمعنى الرأي المستقيم او القويم بالنسبة الى الفرق والشيع التي تخرج على الكنيسة الام وعلى عقائدها الاساسية (المترجم).

٣ ـ *Life of the Blessed Emperor* , *p* . **164.**

٤ ـ *Ibid.*,p. **205** .

انترادوس (اي ارواد البرية ، المدينة التي كانت على الساحل قبالة الجزيرة) احرقوا اصنامهم واعتنقوا الدين الجديد وهذه المدينة كان قد اعيد بناؤها وسميت قسطنطينية .

وقد امر قسطنطين بهدم هيكل افقا ، الذي كان معقلا حصينا للوثنية ، وذلك لان المتعبدين في هذا الهيكل كانوا يمارسون طقوساً وشعائر تتنافى مع المسيحية[1] واليك ما يقوله يوسبيوس عن هذا الهيكل :

« لم يكن هذا الهيكل في وسط مدينة بل كان في غابة نائية عن العمران بعيدة عن الطرق التي يسلكها الناس ، في مكان اسمه افقا على قمة من قمم لبنان . وكان مكرسا لعبادة شيطان رجيم يعرف بالزهرة (فينوس) . كان هذا الهيكل بؤرة فساد وشر يقيم فيه اشرار نذروا نفوسهم للدعارة والبغاء . في هذا المعبد كان الانسان يفقد كل احترام لقدسية الانسان وقدسية طبيعته الجنسية ، فكان يقدم جسده ذبيحة على مذبح الدعارة ليستميل رضا الشيطان . هنا كانوا يتجرون بالنساء ويستبيحون كل رذيلة وفساد » .

غير ان الامبراطور يوليان (٣٦١ ــ ٣٦٤) خليفة قسطنطين الذي لم يكن قد اعتنق الدين المسيحي بعد اعاد بناء هيكل افقا . ولكن الهيكل هجر بعد ان تسنم ثيودوسيوس العرش الامبراطوري .

اما بيروت فقد اصبحت مسيحية في منتصف القرن الرابع . وفي عام ٣٤٩ حدث فيها زلزال عظيم أنزل بها الخراب. فشعر بعض السكان من الذين لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية بعد انها غضبة من السماء حلت عليهم ؛ فرجعوا عن وثنيتهم واعتنقوا الدين المسيحي . وفي عهد ثيودوسيوس تمّ النصر النهائي للمسيحية. فانه عند مستهل القرن الخامس لم يكن لبنان وحده قد تنصّر بل اصبحت سورية وفلسطين بلدين تظهر عليهما الصبغة المسيحية . واخذت الآلهة الوثنية ــ ملقارت صور، وهدد بعلبك، وعشتروت جبيل وافقا، تتراجع امام يسوع الناصري الظافر.

١ ــ Eusebius, *Life of the Blessed Emperor*, p. 160.

الفصل السادس عشر

بعلبك مركز ديني وبيروت مركز ثقافي

مستعمرتان رومانيتان

كانت بعلبك وبيروت قبل العهد الروماني مدينتين مغمورتين . ولكنهم احتلتا مركزاً مرموقاً في هذه الفترة اذ اصبحتا في عهد اوغسطس قيصر مستعمرتين رومانيتين[1] . وكلتا المستعمرتان اصبحتا مركزين ممتازين للحضارة الرومانية، فكانت احداهما مركز حياة دينية والاخرى مركز اشعاع حضاري .

اما لفظة « هيليوبوليس » فاغريقية معناها مدينة الشمس . وقد اطلقه السلوقيون على مدينة فينيقية قديمة عندما كان البعل السامي يقرن بالاله الشمس . ويرجح ان يكون اسم بعلبك في شكله السامي القديم « بعل بقاع » ، والبقاع هو السهل الواقع بين سلسلتي جبال لبنان الغربي والشرقي والواقع فيه مدينة بعلبك. وقد ابقى العرب الذين فتحوا البلاد على الاسم السامي القديم مع بعض التحريف : بعلبّك (وفي العامية بعَلْبَك) . وبعض الفرق العسكرية التي استخدمها اوغسطس قيصر في الاستيلاء على بيروت احتلت مدينة بعلبك . ويظهر اسم هذه المستعمرة على النقود التي صكها اوغسطس الذي دعاها مستعمرة « جوليا اوغسطا هيليوبوليس » . غير ان المدينة بوصفها مركزاً للعبادة الفينيقية القديمة لم تتأثر بالحضارة الرومانية بالقدر الذي تأثرت به زميلتها بيروت . وكذلك لم تتأثر بالاغريقية كما تأثرت انطاكية بل ظلت تحتفظ بالعناصر السامية احتفاظاً اشد من احتفاظ هاتين المدينتين . وقد اشتهر بعض الرجال من اهل بعلبك بالفصاحة – وهي نعمة هبطت عليهم من ربات الفنون الجميلة . واشتهرت النساء بجمالهن –وهي نعمة اغدقتها عليهن

١–راجع المقالين : « Heliopolis » و«Berytus» في *The Classical Dictionary* حيث يذكر المؤلف ان بعلبك ضمت الى بيروت حتى زمن ستموس سفيروس الذي اعادها مقاطعة مستقلة .



قطعة نقود من بريتوس (بيروت) ٢١٨ـ٢٢٢ ب.م. وعلى وجه منها يظهر رأس الاغبلوس وعلى الوجه الآخر عشتروت في هيكل .

الالاهة السورية اترغاتس[1] التي كانت تحب التطواف على سفوح الجبال المحيطة ببعلبك . وكذلك اشتهرت جماعة من اهل بعلبك رجالا ونساء بضرب العود وتعدت شهرتهم الى اماكن بعيدة . وكان الاقبال على هؤلاء الموسيقيين من كل صوب ، وكان الطلب عليهم شديداً ليس فقط في الاعياد والمسرات ، بل عند القيام بالشعائر الدينية في المعابد . غير ان شهرة هياكل بعلبك العالمية فاقت شهرة اهليها .

هياكل بعلبك العظيمة :

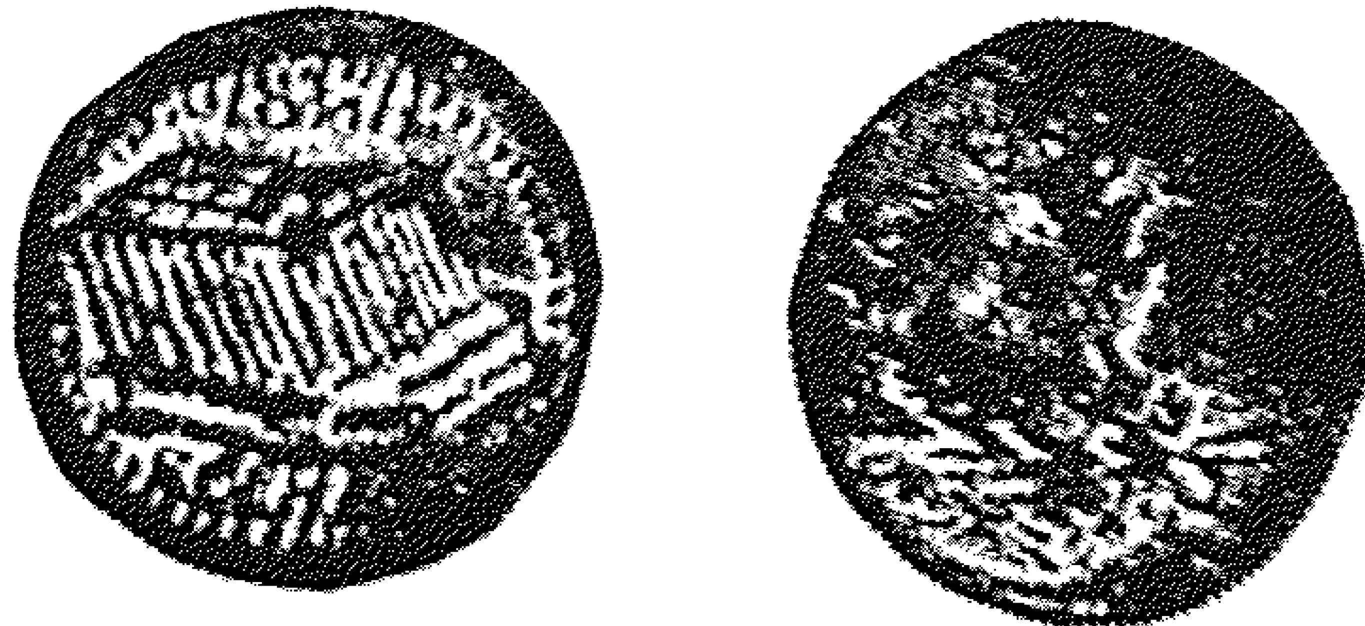
كان هذا المعبد في الاصل مكرساً لعبادة الاله الآرامي العظيم هدد ، اله البرق والرعد ، الاله الذي اذا اشفق ورضي امطرت السماء لتسقي الارض فتنتج غلالها ، واذا غضب واهتاج جاء السيل والفيضان فيهلكان الزرع والضرع . اله كهذا يروق في عيني الزراع ويفرض عليهم حبه واحترامه ، ولذا اقام له اهل سورية ولبنان معابد وهياكل في كل مكان وعلى مر الزمن اختلط امر عبادته بعبادة الشمس واصبح رأسه في التماثيل محاطاً بهالة ينبثق عنه الشعاع كما نجد ذلك في بعلبك. وفي الحقبة الهلينية تقمص الاله هدد السامي الى اله اغريقي روماني : المشتري البعلبكي (Jupiter Heliopolitanus) وبعد ذلك الى المشتري الدمشقي (Jupiter Damascenus) .

١ ـ «*Description*» in Karl Müller , *Geographi Graeci Minores,* vol . II (Paris , 1861) , p. 518 .



رسم ما يظهر على قطعة نقود من بريتوس (بيروت) . على وجه منها يظهر رأس تيشه (الحظ) وعلى الاخر صورة دلفين ونقوش .

اما الهيكل الفينيقي الذي يعود عهده الى ما قبل الفترة السلوقية فلم يبق له اثر. نقول الهيكل الفينيقي لاننا نفترض ، نسبة الى اسم المدينة ، انه كان هنالك هيكل فينيقي سابق في الزمن لهياكل بعلبك الرومانية . وقد كان لعراف هذا الهيكل ، من قبل ان اعاد اباطرة الرومان بنساءه على مستوى فخم ، شهرة بعيدة ومقام مرموق . فان الامبراطور تراجان قبل البدء بحماته العسكرية الثانية على الفرثيين (١١٦ ب.م.) اراد امتحان عراف الهيكل فقدم اليه في ظرف مختوم صحيفة ورق بيضاء لا كتابة عليها . فكان جواب العرّاف اليه ان ارسل اليه صحيفة ورق بيضاء لا كتابة عليها . فعظم مقامه في عيني الامبراطوار لانه ادرك ان العراف فهم مقصده . فتقدم الامبراطور اليه طالباً مشورته ولكن بطريقة جديدة هذه المرة . فكان جواب العراف على استشاراته ان سلمه رمزاً : حزمة قضبان ملفوفة بقطعة من قماش[١] . وفي السنة التالية قضى تراجان نحبه في كيليكية ففسر



قطعة نقود برونزية من عهد سبتموس سفيروس ضربت سنة ٢١١ ب.م. ويظهر على وجه منها هيكل جوبيتر في بعلبك .

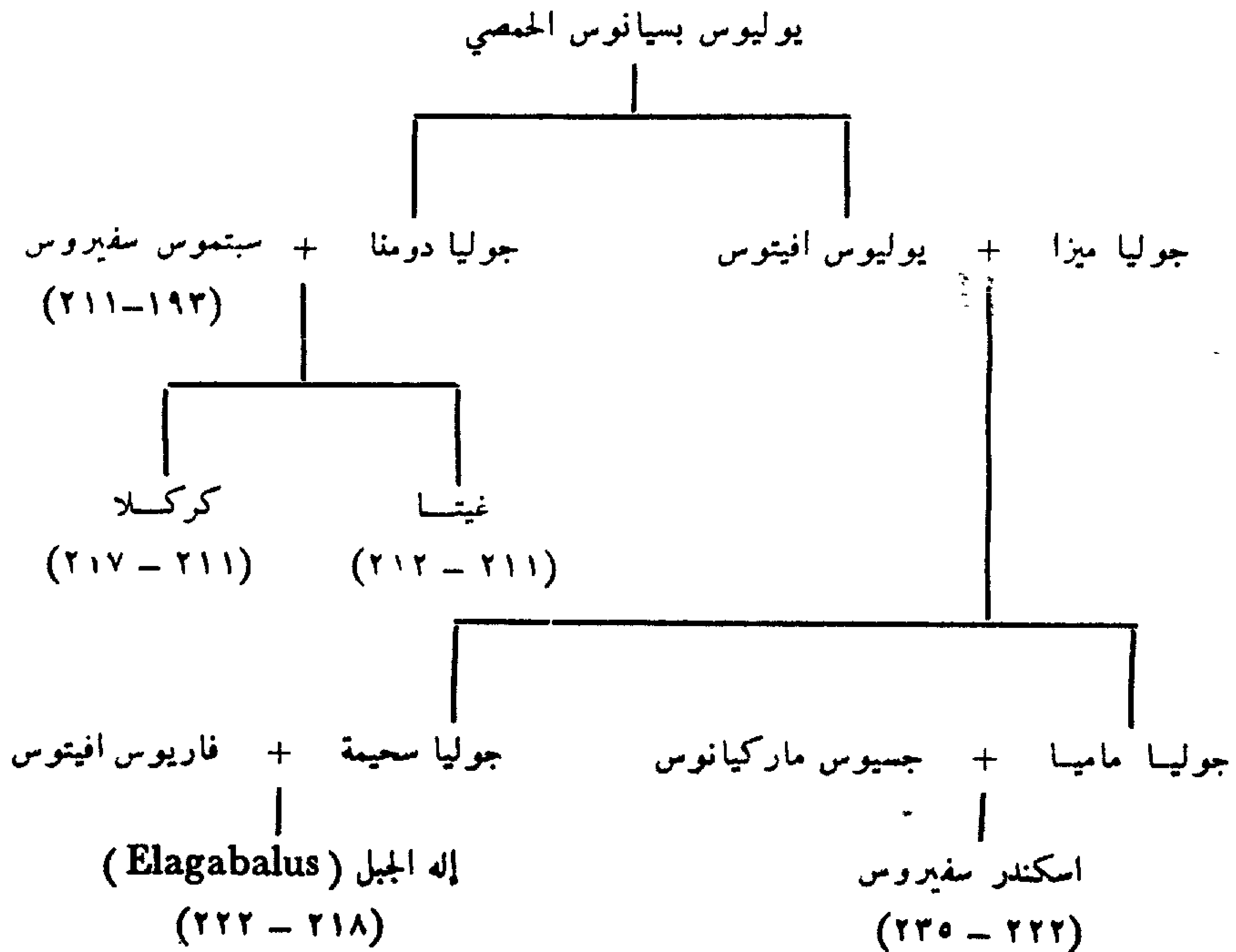
١ — Macrobius , *Saturnaliorum* , Bk. I , ch. 23 , secs. 14—16.

الناس معنى الرمز ، ولكن جاء تفسيرهم متأخراً .

كان الامبراطور انطونيوس بيوس (١٣٨ ـ ١٦١) اول امبراطور شرع في بناء الهيكل على مستوى فخم هائل . وكان اطراد العمل في البناء في عهود خلفائه من الاباطرة بطيئاً ، ولكنه أسفر اخيراً عن بناء مجموعة من الهياكل ضمن بقعة واحدة حيث كانت تعبد اترغاتس (عشتروت الزهرة) زوجة الاله هدد . وقد اتم بناءها كركلا (٢١١ ـ ٢١٧) وخلفاؤه من الاسرة السورية اللبنانية على مستوى لم تعهده من قبل . وتظهر صورة الهيكل لاول مرة على قفا القطع النقدية ايام سبتموس سفيروس (١٩٣ ـ ٢١١) ابي كركلا . كانت ام كركلا ، جوليا دومنا ، ابنة كاهن « اله الجبل » (Elagabal) من مدينة حمص . وقد كانت امرأة على جانب كبير من الجمال والذكاء . وقد لقبت باوغسطا (المعظمة) وكانت تشترك مع زوجها في تدبير امور المملكة . وكان لها اخت صغرى اسمها جوليا ميزا تفوقها ذكاء ومقدرة . وقد كانت حمصية المولد ايضاً ، وتزوجت قائداً رومانيا وانتقلت معه للسكن في العاصمة . وعندما اغتيل ابن اختها ، كركلا ، نجحت في تنصيب حفيدها الاغبلوس (Elagabalus اي اله الجبل) على العرش [1] .

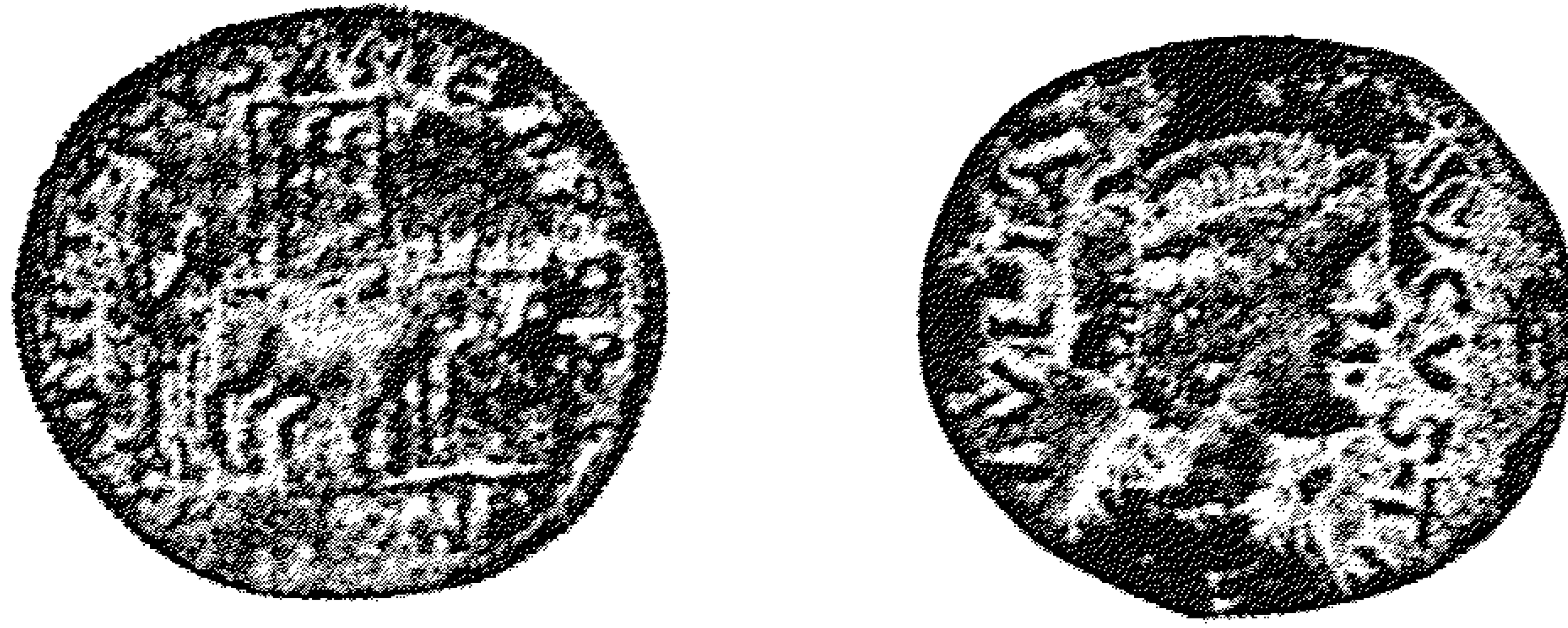
---

١ ـ شجرة الاسرة السورية اللبنانية :



في هذه الفترة فُتحت ابواب رومة على مصراعيها للهجرة السورية اللبنانية ، هذا بالاضافة الى ما كان هنالك من جنود سوريين ولبنانيين ، حسب قول احد المؤرخين « يحتلون الدرجة الثانية بين جنود رومة الممتازين »[١] . وقد كان لهؤلاء الجنود اثر بعيد الغور في توجيه السياسة الرومانية .

كان كركلا وامه يأمران بكتابة « هيليوبوليس » على النقود التي كانا يصكانها . ويستطيع زائر بعلبك في عهدنا هذا ان يرى كتابة النذور المنقوشة على مصاطب



قطعة نقود نحاسية من صور من عهد جوليا دومنا (توثيت ٢١٧ ب . م.)

الاعمدة الضخمة المرفوعة اليهما تكريما وتبركا . ويقول نقش لاتيني ان الاعمدة المغطاة بالنحاس ورؤوس الاعمدة المذهبة هي تقدمة من جندي وقفها على شرفهما[٢] . ويظهر اسم هيكل بعلبك ايضاً على النقود التي صكها فيليب العربي (٢٤٤-٢٤٩)

كان تمثال الاله قائمـاً في ابرز جزء من اجزاء الهيكل . كان التقليد الوطني يتصور هذا الاله على صورة شاب امرد لابساً لباس الفارس الذي يقود مركبة وبيده اليمنى سوط رمز للصاعقة ، وفي يده اليسرى رمز البرق ، وضمة من سنابل القمح . وبعبارة اخرى كان هذا الشاب الامرد رمزاً للعلة (المطر) والمعلول (الغلال) في الكون[٣] وكان اشراف البعلبكيين يحملون هذا التمثال على اكتافهم في بعض الاعياد الدينية ويطوفون بـه . كان حملة التمثال يستعدون لهده الاعياد استعدادا دينيا ، فكانوا يحلقون رؤوسهم ويأخذون على انفسهم عهداً الا يشربوا مسكرا والا يقربوا امرأة . وكان في هذا الهيكل اعمدة من الحجارة السوداء (وقد ذكرنا

١ - Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Roman Empire*, p. 617.

٢ - *Corpus Incriptionum Latinarum,* vol. III, no. 138

٣ - Macrobius, Bk. I ch. 23, secs. 11-13 .

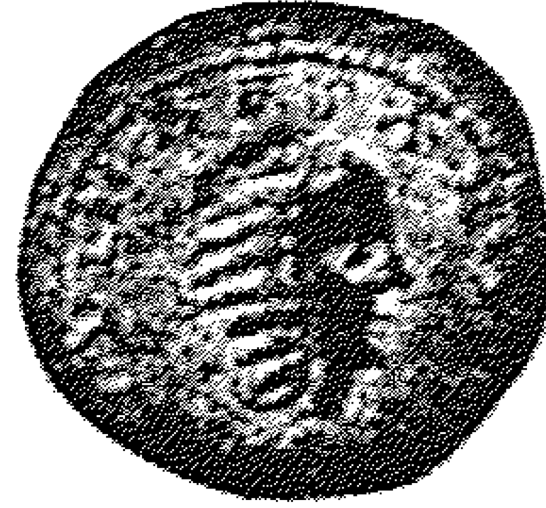
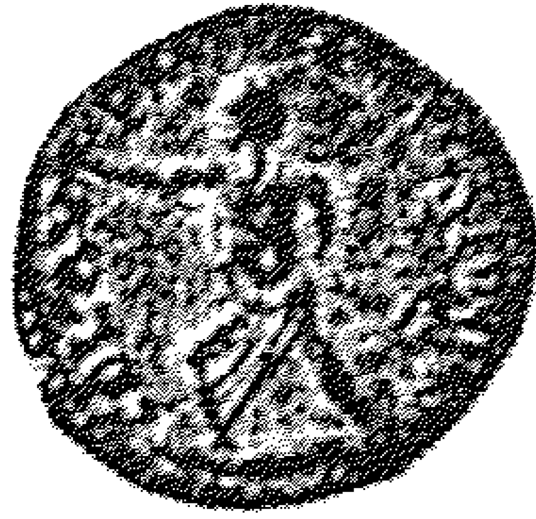
سابقاً ان الاعمدة الحجرية جزء من الهيكل وتكريمها جزء من العبادة) . وقد نقل الاغبلوس احد هذه الاعمدة الى رومة وقد جعلت هذه الهياكل من بعلبك مدينة من اشهر المدن اللبنانية واحلتها المرتبة الثانية بعد انطاكية في ولاية سورية. وكانت البقعة التي تقوم عليها الهياكل اشبه بحمى مقدس . وكانت الهياكل تنعم بالامتيازات التي كانت تمنح للحمى، اي انها كانت تنعم بالحصانة. وكان يحق لها ان تملك الاراضي وان تجمع الضرائب وان تحتفل بالاعياد السنوية. وقد حمل التجار اللبنانيون والجنود المتقاعدون عبادة هذا الاله السامي اللبناني القديم الى الغرب . وكان يعرف باسمه الروماني Jupiter Heliopoeitanus اي المشتري البعلبكي او باسمه ولقبه الكاملين Jupiter Optimus Maximus Heliopolitanus اي المشتري البعلبكي صاحب المقام الاول والمعظم .

كانت آثار بعلبك على ممر العصور مثار دهشة واعجاب عند المؤرخين والسياح ، حتى انها اصبحت تعد من عجائب الدنيا السبع. والواقع انه لم يبق لنا من آثار الرومانيين ما يضاهيها روعة وعظمة حتى ولا الآثار التي خلفوها في عاصمتهم رومة . وعندما افتتح المسلمون سورية جعلوا من هياكل بعلبك قلعة (ولا تزال تعرف بين العامة بقلعة بعلبك) ونسبوا بناءها لسليمان[١]، اذ من سوى مسخّر الجن يستطيع ان يقوم بهذه المعجزة ؟ ولا تزال آثار الجامع وآثار حوض الماء للوضوء والمحراب بادية للعيان . وكقلعة حصينة فانها لعبت دوراً في الحروب السلجوقية والصليبية وفي عهد المماليك. وفي عام ١٢٦٠ خربها احد قواد هولاغو الذي قهر الدولة العباسية في بغداد. وبالرغم من التخريب الذي قام به المغول وبالرغم من الزلازل فقد ظل من آثار الهياكل ما يثير اعجاب كل سائح او زائر . وفي البقعة التي تقع جنوبي هيكل «هدد – المشتري» آثار هيكل اترغاتس الذي يعرف عادة بهيكل باخوس[٢]. وهو هيكل اصغر حجماً من الهيكل الرئيسي، ولكن آثاره لا تزال في حالة حسنة . ولا شك في انه احسن هيكل

١ – الادريسي (طبعة غلد ميستر) ص ١٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ص ٦٧٤ ؛ المقدسي ص ١٦٠ ، ١٨٦ .

٢ – Herman Thiersch, « *Zu den Tempeln und zur Basilika von Baalbek*» *Nachrichten von der Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen*, Philologisch-historiche Klasse (Berlin, **1926**), pp. I seq; do. «*Le Temple de la déese syrinne à Baalbek*», *Revue biblique*, **vol.** XXXV (**1926**), **p. 461** .

قديم بقي سليماً بشكله وزخرفته وروعته في هذه المنطقة من الدنيا . وباب الهيكل باب فخم هائل ، علوه ٤٥ قدماً وعرضه ٢٥ قدماً . وحجارة هذا المدخل غنيــة بالتماثيــل والصور والزخارف ، ويعدّ اروع بناء خلفه لنا الرومان . اما هيكل المشتري فبناء مستطيل يحيط به صف من الاعمدة الضخمة الرائعة ، لونها اصفر ورؤوسها من النوع الكورنثي وفوقها صفان من الحجارة بشكل افريز . ولم يبق من هذه الاعمدة سوى ستة تقف بمهابة وجلال تتراءى من ورائها جبال لبنان . وقد كان عدد الاعمدة الباقية عام ١٧٥١ تسعة ، كما اخبرنا بذلك سائح انكليزي، وفي عام ١٧٨٤ كان عددها ستة على ما رواه سائح افرنسي . والظاهر ان ٣ منها تداعت وسقطت في الزلزال الذي حدث عام ١٧٥٩[١] . والواقع ان هذهالاعمدة

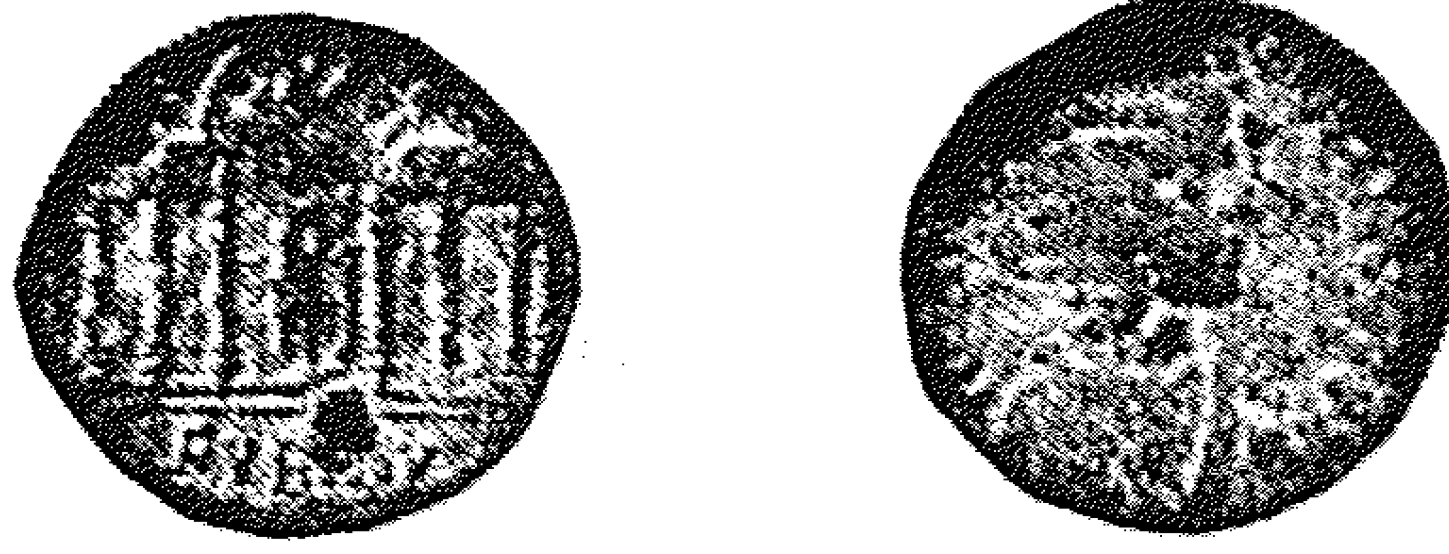
 

قطعة نقود نحاسية من عهد جوليا ميزا (توفيت ٢٢٣ ب.م.)

الستة هي كل ما تبقى من هيكل الاله « هــدد ـ المشتري » . وكل عمود يتألف من ثلاث قطع اسطوانية يبلغ علوها معاً ٦٢ قدماً وقطرها ٧ اقدام ونصف القدم. ويقول كاتب افرنسي عن هذه الاعمدة : « انه اذا تداعت هذه الاعمدة وسقطت يوماً ما فان العالم يشعر بان شيئاً من الجمال قد فارقه،ويشعر لبنان انه لم يعد هنالك شعر تحت سمائه» .وقد نقل يوستنيانوس بعض اعمدة المرمر ذات اللون الارجواني التي مصدرها مصر من بعلبــك الى القسطنطينية ليبني كنيسة القديسة صوفيا (آيا صوفيا) وقد انكسر احدها على الطريق وفيه تظهر الاساور الحلقات التي كانت تربط اجزاء العمود .

اما صحن الدار الكبير الذي يقوم فيه المذبح فمساحته تقرب من ٣٤٠ قدماً مربعاً ، وحوله صف من اعمدة عددها ٤٨ عموداً . والى الجهة الغربية من المذبح

١ ـ Robert Wood, *The Ruins of Baalbec* (London,1757),pp. 2, 22, 24; Volney, vol. II, p. 218 .



قطعة نقود من جبيل من عهد جوليا سحيمة (توفيت ٢٢٢ ب.م.)

تقوم كنيسة مستطيلة الشكل لها ثلاث غرف ناتئة محدبة خارجة عن البناء شيدت في القرن السادس . غير ان بعضهم يزعم ان قسطنطين (وبعضهم يزعم انه ثيودوسيوس) بناها في القرن الرابع[١] . والهيكل بجميع اقسامه يقوم على مصطبة مرتفعة تقوم بدورها على سلسلة من العقود. والجدار الشمالي الغربي الذي هو حائط سور الهيكل يتألف من ثلاث قطع من الحجارة الهائلة التي ربما كان القصد من ضخامتها مقاومة الزلازل . وهنالك ثلاث قطع من هذه الحجارة الضخمة في الجدار الذي تقوم عليه مصطبة هيكل المشتري يبلغ طول الواحدة منها تقريباً ٦٢ قدماً و ١٤ قدماً عرضاً و ١١ قدماً علواً ، ووزن الواحدة يقرب من ٧٥٠ طناً . ومجموع هذه الحجارة مشهور عرف في كتب الكلاسيكيين « بالحجارة الثلاثة » (trilithon) . وفي كل حجرة من المادة ما يكفي لبناء بيت مربع سماكة جدرانه قدم واحد وطول ضلعه ٦٠ قدماً وعلوه ٤٠ قدماً . وهنالك حجر شبيه بها[٢] او ربما اكبر منها لا يزال ملقى في مقلع الحجارة في ضواحي المدينة ، مما يدل على ان البنائين تركوه هنالك ليأسهم من اتمام البناء على هذا المستوى الهائل من الضخامة . ويقدر انه بالامكان قطع اربع مسلات بحجم مسلة كليوباطرة من هذا الحجر . والى جانب ضخامة الاعمدة وعظمتها وحجم الحجارة الهائلة ناحية اخرى تجعل من هذه الهيا كل تحفة بناء رائعة ، نعني فن الحفر الجميل وروعة التماثيل والزخارف التي تزين الافاريز . ويظهر في التصاوير المنحوتة سنابل القمح وشقائق النعمان الحمراء (رمز الموت والحياة) وجنّيات مجنحة ترفع بايديها قطعاً من القماش الشفاف وولدان

١ — Thiersch in *Nachrichten*, pp. 20, seq.

٢ — وتعرفه العامة بحجر الحبلى ، لان اسطورة تقول ان العاقر اذا لامسته تحبل . (ونحن نعرف اسطورة اخرى وهي ان امرأة حبلى حملته (المترجم) .

مجنحون بايديهم القسي والنبال . وهم يرمزون الى الاهة الحب ـ او راكبون على التنانين أو الدلافين . وعتبات الابواب مزينـــة بالعرائش والاكاليل ، والسقف مزدان برسوم هندسية تتخللها اوراق الاشجار، وبتماثيل نصفية للاباطرة او للالهة. ومما يدهش له الزائر بنوع خاص روعة المداخل الى هيكل اترغاتس الفنية بمختلف التماثيل وانواع الزهر .

وعلى بعد ٣٠٠ يرد من حرم الهيكل يقوم هيكل صغـــير مستدير ولكن على كثير من جمال الصنع . وقد حرصت البعثة الأثرية الالمانية ان تزيل من حوله بيوت الاهالي . ويبدو من نوع هندسة البناء انه يعود الى العهود الامبراطورية المتأخرة.



تمثال برونزي للاله هدد البعلبكي ، حوالي ١٥٠ ق.م.

وقد كان هذا الهيكل مكرساً لعبادة الزهرة او إلاهة الحظ (Fortuna) . ومن حسن الحظ ان هذا الهيكل الوثني حوّل في العصور المتوسطة الى كنيسة مسيحية كرست على اسم القديسة بربارة فكان هذا التكريس عاملا في حفظه من الخراب.

بيروت مستعمرة رومانية

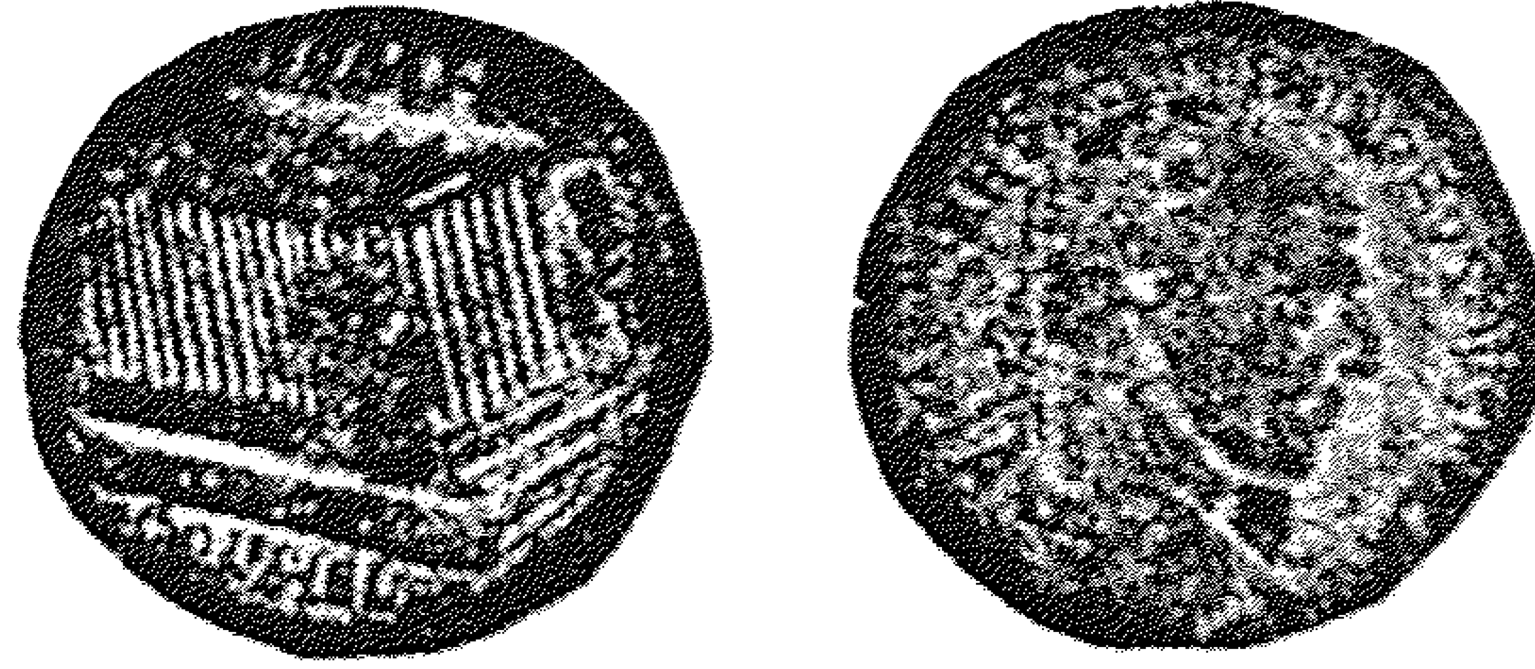
كانت بيروت المدينة الوحيدة من المدن الساحلية التي كان لها مقام ثقافي اما صيدا فقد حصلت على الامتيازات والحقوق التي تنعم بها المستعمرة ، وذلك في عهد الأغبلوس . اما صور فقد حصلت على امتيازات المدينة الحرة في عهد هدريانوس . ثم رفع مقامها ايام سبتموس سفيروس الى رتبة مستعمرة وذلك جزاء ولائها لهذا الامبراطور ايام حروبه مع منافسه نيغر (Niger) الذي كان اهالي بيروت يعضّدونه ويظهرون له الولاء. غير ان بيروت كانت اقدم مستعمرة رومانية في هذه البقعة اطلاقاً . فقد اقام بها (حوالي ١٧ ق . م .) جنود متقاعدون كانوا ينتمون الى الجيش الخامس (وهو الجيش المقدوني) والى الجيش الثالث (وهو الجيش الغاليّ اي الافرنسي القديم) بقيادة احد قواد اوغسطس قيصر . فكانت اشبه بحصن يجهّز حاكم الولاية بمزيد من الجنود عند الحاجة . فبيروت امكنها مثلا ان تمد القائد فاروس ، حاكم سورية في عهد اوغسطس قيصر ، بالف وخمس مئة جندي لما مرّ في المدينة وهو في طريقه لمحاربة بلاد اليهودية[١] . وقد اطلق على المستعمرة اسم « مستعمرة جوليا اوغسطا السعيدة ، بيروت » (Colonia Julia Augusta Felix Berytus)[٢] وذلك على اسم جوليا ابنة اوغسطس تكريماً لها . وكانت بيروت قاعدة الاسطول الروماني في الجزء الجنوبي الشرقي من المتوسط . وبما انها كانت مستعمرة رومانية فان سكانها كانوا يتمتعون بامتيازات وحقوق يمنحها القانون الروماني ، كالحكم الذاتي ، والاعفاء من ضريبة الرؤوس وضريبة الخراج . وعندما اصدر كركلا (٢١١ ــ ٢١٧) قانونه الذي منح بموجبه المواطنية لجميع المواطنين الاحرار في امبراطوريته ، اصبحت هذه الامتيازات التي كانت تنعم بها بيروت في حكم الملغاة . الا ان بيروت اصبحت

١ ــ Josephus, *Antiquities*, Bk. XVII, ch. 10, sec. 9.

٢ ــ Pliny, Bk. V, ch. 17, Sec. 20 ·

كشقيقتها في الداخلية ، بعلبك ، مركزاً للحياة الرومانية في بلاد هلّينية الحضارة.

كان الولاة اليهود الذين كانوا يحكمون كملوك تحت امرة الامبراطور الروماني يغدقون العطاء على مدينة بيروت بشكل ابنية عامة فخمة وذلك ارضاء لاسيادهم الرومان كما فعل هيرودس الملك العظيم[1] (٣٧ ـ ٣٤ ق. م.) . هنـــا في مدينة بيروت حاكم هيرودس ابنيه وقضى عليهما بالموت لخيانتهما العظمى، وذلك بعـــد ان استأذن سيده الامبراطور اوغسطس قيصر وفي اثناء المحاكمة حجز على الابنين في قرية بالقرب من بيروت ذكرها الكلاسيكيون باسم بلاطانوس[2] (Platanos) التي يمكن ان تكون قرية عرمون الحالية. اما اغريبا الاول (٤١ ـ ٤٤ ب. م.) حفيد هيرودس فقد كرم بيروت وجمّلها ببنائه مسرحاً فيها على غاية من الجمـــال والعظمة . وبنى كذلك ملعباً مستديراً للرياضة وحمامات عامـــة وابنية عامة ذات اروقة مسقوفة . وقد انفق على بنائها بسخاء واسراف[3] . والحفلة التي اقامهـــا لتدشين هذه الابنية رافقها حفلات موسيقية والعاب في المبارزة . ولكي يزيد في شدة الحماس عند الجماهير فانه اطلق في الملعب المستدير الفاً واربعماية مجرم زوجـاً زوجاً لكي يتقاتلا حتى الموت. وفي اثناء الحروب التي شنها الامبراطور فسباسيان (Vespasian) ضد اليهود نصّبه جنوده امبراطوراً واعلنوا خبر تسنمه العرش



قطعة نقود برونزية من عهد فيليب العربي ٢٤٤ـ٢٤٩ ب.م. من بعلبك ، وعلى وجه منها يظهر هيكل جوبيتر البعلبكي

١ ـ Josephus, *Antiquities*, Bk. XVI, ch. 11, sec. 2.

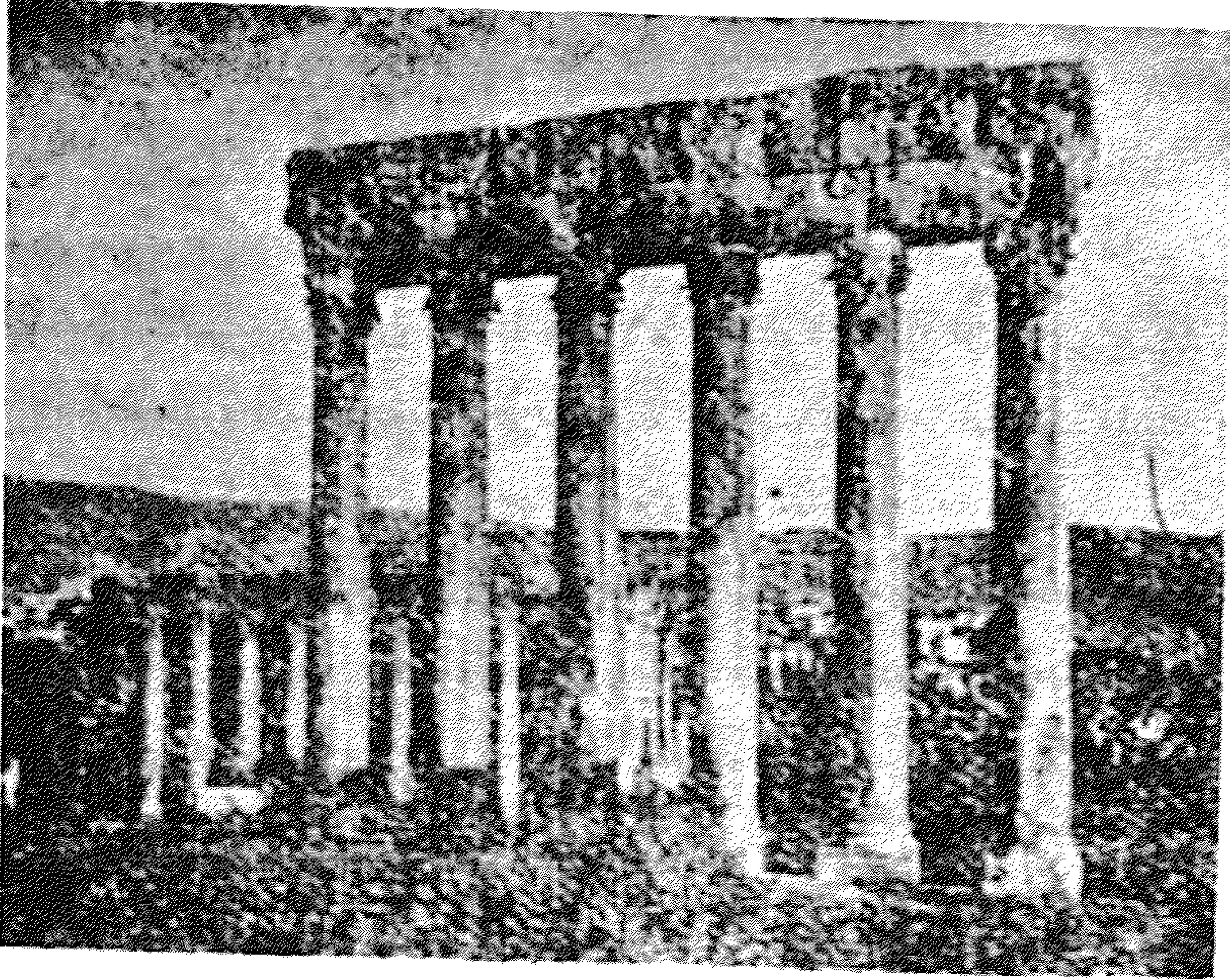
٢ ـ راجع مقالا عنها في :
Pauly-Wissowa, *Real-Encyclopädie;* Dussaud, *Topographie*, pp. 45 - 7.

٣ ـ Josephus, *Antiquities*, Bk. XIX, ch. 7, sec. 5 .

في مدينة قيسارية عام ٦٩ ب. م . وعندما قفل عائداً الى رومة عرج على بيروت وظلّ فيها مدة يتقبل تهاني الوفود التي جاءته من سورية ومن غيرها من المقاطعات. وقد جاء بعض رؤوس الوفود لابسين تيجانهم مبالغة في التكريم والتعظيم . وجاء معهم موسيانوس (Mucianus) حاكم سورية ليؤكد للامبراطور الجديد ان جميع السكان اقسموا له يمين الطاعة والولاء[١]. ثم انه قبل ان يغادر هذه البلاد عيّن ابنه طيطس قائداً ليتابع الحرب ضد اليهود . وبعدما سقطت مدينة اورشليم في قبضته (عام ٧٠ ب. م) عرّج على بيروت واقام فيها مدة ليحتفي بانتصاراته وبعيد مولد ابيه . وقد اقام بهذه المناسبة حفلات واعياداً لم تشهد لها بيروت مثيلا. ومن جملة الحفلات التي اقامها طيطس في ملعب اغريبا المستدير حفلة قذف الاسرى اليهود الى الوحوش الجارحة ومشاهدة اقتتالهم حتى يفني بعضهم بعضاً[٢] . اما اغريبا الثاني (توفي سنة ١٠٠ ب. م.) فقد بنى له قصراً لاقامته في بيروت ومسرحاً فخماً تقام فيه الحفلات التمثيلية السنوية وتفرّق اثناءها العطايا والهبات من الزيت والحنطة على فقراء الناس. ويقول يوسيفوس المؤرخ اليهودي « انه جمّل المدينة كلها باقامة التماثيل التي انفق عليها من ماله الخاص ، ورفع الصور التي رسمتها ايدي الفنانين القدماء[٣] » وقد ظلت الحفلات التمثيلية والالعاب الرياضية التي عرفت بها بيروت شائعة حتى القرن الرابع ميلادي. وعندما يحفر اهالي بيروت في يومنا هذا اساسات بناياتهم التي يشيدونها على انقاض المدينة الرومانية القديمة يعثرون دوماً على اعمدة من الغرانيت او على اجزاء منها محطمة مصدرها مصر العليا . وانك لتجد في بيروت بقايا هذه الحجارة او الاعمدة في بعض البنايات الجديدة ، كما انك تجد محادل كان الناس يستعملونها لحدل الشوارع . جميع هذه تدل على عظمة الابنية العامة التي كانت تزدان بها بيروت[٤] .

كان شفيع بيروت الرومانية والهها المفضّل بوسيدون (او نبتون) اله البحر . وتظهر صورته على النقود البيروتية حاملا بيده رمحاً او حربة مثلّثة الرأس ، او

١ — Josephus, *Jewish War,* Bk. IV, ch. 10, sec. 6 .
٢ — *Ibid.* Bk. VII, ch. 3, sec. 1.
٣ — Josephus, *Antiquities,* tr. William Whiston, Bk. XX, ch. 9, sec. 4 .
٤ — Harvey Porter, *History of Beirut,* (Beirut, 1912), pp. 26-7 .

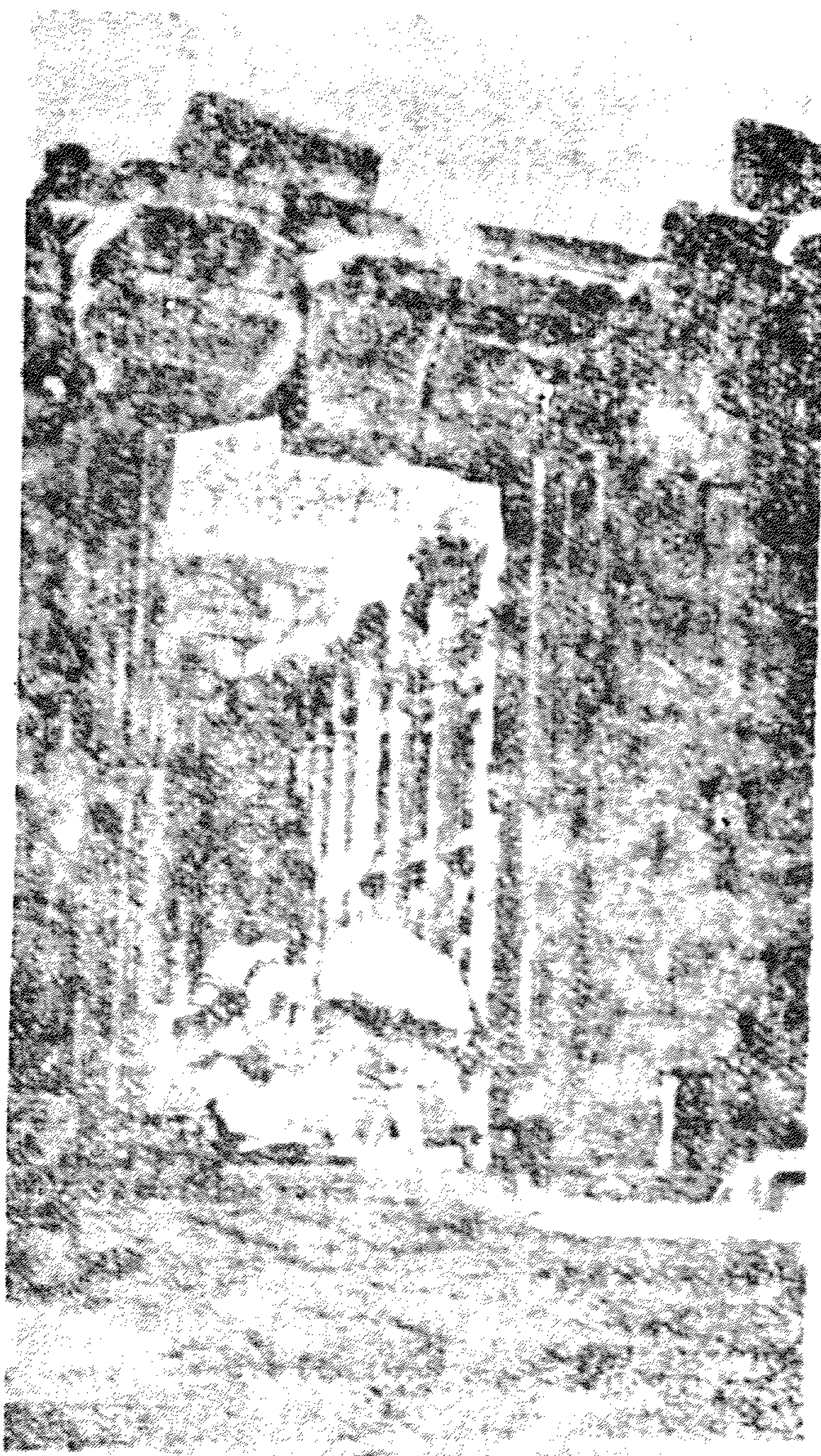


الاعمدة الستة في هيكل جوبيتر ، بعلبك

قد يظهر على بعض هذه النقود راكباً مركبة تجرها خيول البحر .

ومما يدل على توثيق الصلات بين بيروت وبعلبك عبادة البيروتيين الاله البعلبكي جوبيتر (المشتري) في دير القلعة في ضواحي بلدة بيت مري القائم على هضبة جميلة تطل على بيروت . وعلى اطلال هذا الهيكل في يومنا هذا يقوم دير للطائفة المارونية. وكنيسة الدير مبنية بحجارة الهيكل الروماني القديم . غير انه تجب الاشارة الى ان الاله الذي كان يعبد هناك ويكرّم قبل عبادة المشتري البعلبكي هو بعل مرقود[١] (واسمه اللاتيني Balmarcodes ومعناه اله الرقص) الذي ظلّ اهل بيروت يفدون الى هيكله حاملين القرابين والتقدمات حتى بعد ان شاعت فيها عبادة المشتري . كان الرقص ظاهرة خاصة بعبادته . وقد وجد في احد النقوش اللاتينية هناك اسم امرأة (من بني تيم الله) . اما الدير الماروني الحالي فمبني على انقاض هيكل روماني ، والهيكل الروماني بدوره قائم على انقاض هيكل فينيقي

١ ــ واسمه مشتق من « رقد » وهو جذر سامي معناه رقص . راجع :
L. Jalabert in *Mélanges de la faculté orientale, Université Saint-Joseph,* Vol. I (Beirut, 1920),pp. 181, seq .



مدخل هيكل باخوس ، بعلبك

اسبق في الزمن . وحول الدير بقايا اعمدة ضخمة قطر الواحد منها ٧ اقدام تذكرنا باعمدة هيا كل بعلبك . ويجد الزائر ايضاً بقايا بطاريات للمدفعية التركية التي انشأوها هناك اثناء الحرب العالمية الاولى لحماية مرفأ بيروت . واسم القرية المجاورة للدير بيت مري (اي بيت آلهتي ، او اسيادي وموالي) . وهذا الاسم يذكرنا بالبعل الفينيقي . وبالقرب من بيت مري وعلى الهضبة نفسها قرية اخرى تسمى برمانا[١] وقد يكون اسمها تحريفاً لاسم فينيقي قديم : « بيت رمون » اي هيكل الاله رمون ، اله البرق والرعد . ورمون لقب من القاب الاله هدد .

بيروت مركز معهد الحقوق

ولقد اشتهرت بيروت بكونها مركزاً ثقافياً. فقدكان فيها اشهر معهد روماني للقانون في الامبراطورية خارج ايطالية . وكانت قبلة انظار طلاب القانون من جميع انحاء المشرق . وكانت دراسة القانون احدى المتطلبات الاساسية للتوظيف العالي في الحكومة . وقد خرّج معهد بيروت للحقوق كثيرين من القضاة والحكام في المقاطعات الشرقية للامبراطورية .

من المرجّح ان يكون الامبراطور سبتموس سفيروس[٢] (١٩٣ ــ ٢١١) مؤسس هذا المعهد . فقد انشيء في المدينة هيكل على اسمه تخليداً لذكراه . وكذلك اقيم له تمثال تذكاري .

وهذا المعهد كان اقدم معهد من نوعه في المقاطعات الرومانية واشهرها . وقد عمّر اكثر من اي معهد آخر . نعم ، كان هنالك معاهد للقانون في اماكن اخرى مثل اثينة والاسكندرية وبعض المدن في المقاطعات ، ولكن لا شك ان معهد بيروت كان يحتل الصدارة . وقد تحول المعهد الى مركز فكري خلاق، وجذب اليه

١ ــ راجع فريحة : اسماء المدن والقرى تحت مادة بيت مري وبرمانا (م)

٢ ــ Cf. Paul Collinet, *Histoire de L'École de Droit de Beyrouth* (Paris , 1925) pp. 16—25; H. Lammens, *La Vie universitaire à Beyrouth sous Les Romains et Le Bas-Empire* (cairo, 1921), p. 4 .

هالة من العقول الممتازة من طلاب واساتذة قدّموا في حقل التشريع تقدمات عظيمة للتراث الروماني العالمي : الشرائع الرومانية .

كان من ابرز المشترعين الرومانيين الذين درّسوا في معهد الحقوق البيروتي عالمان مشهوران : اميليوس بابنيانوس ودوميتيوس اولبيانوس . ويظهر ان بابنيانوس كان من اهالي حمص ومن اقرباء جوليا دومنا زوجة الامبراطور سفيروس. وقد استدعاه هذا الامبراطور عام ٢٠٣ ليكون مستشاره القانوني في رومة . وقد رافق الامبراطور ، بصفته مستشاراً قانونياً ، اثناء حملته العسكرية ضد بريطانية . وهناك ، في بريطانية ، وهو على فراش الموت ، اوصى الامبراطور ان يعهد بتربية ولديه كركلا وجيتا الى بابنيانوس . ولكن بعد ان تسنم كركلا العرش (٢١١ — ٢١٧) صرف بابنيانوس من الخدمة لان عاتيا مستبداً ككركلا لا يطيق ان يرى الى جانبه حارساً دقيقاً يحاسبه على كل هفوة . وبعد صرفه من الخدمة بمدة وجيزة امر بقطع رأسه (٢١٢) لانه انتقد الامبراطور بعنف عندما قتل اخاه جيتا . يقول لنا التاريخ ان رد الفعل عند كركلا بمناسبة قتله بابنيانوس كان ان قرّع السفاح الذي قتله ، لانه استعمل فأساً عوضاً عن ان يستعمل سيفاً في قطع رأسه [١] . وبالرغم من انه قتل وهو بعد في السابعة والثلاثين من عمره فانه ترك للعالم ارثا تشريعيا اعظم واغنى من اي ارث آخر خلّفه لنا المشترعون الرومان. فانه في عام ٥٣٣ ، عندما وضعت مجموعة الشرائع المعروفة بشرائع يوستنيان الكبير ، ادخل فيها لا اقل من ٥٩٥ مادة او بندا من المواد القانونية التي خلفها بابنيانوس في مؤلفاته . ومن المعلوم ان مجموعة شرائع يوستنيان هي الاساس الذي تقوم عليه اغلب الشرائع الاوروبية في عهدنا هذا . كان الناس يقدرون علم بابنيانوس الغزير ونضج عقله الوافر ، وعدله وانصافه وصلابة خلقه بحيث ان آراءه واجتهاداته القانونية اصبحت فيما بعد ، عندما وضع قانون الاستشهاد عام ٤٢٦ ، القول الفصل . اي انه عندما كان القضاة يختلفون في الاجتهاد والاستشهاد بحيث يتعذر ايجاد كثرة تعضد هذا الرأي او ذاك فانهم كانوا يميلون الى الاخذ برأي بابنيانوس على انه القول الفصل . وهذا منتهى ما يتمناه المرء من الاكرام والتقدير .

١ — Dio (Cassius) *Historia Romana*, Bk. LXXVIII, ch. I, Sec. I; ch. 4, sec. I.

كان خليفة بابنيانوس رجــلا فاضلا من مواطنيه : دوميتيوس اولبيانوس . ولد اولبيانوس في صور حوالي ١٧٠ ب.م. وكان استاذاً في معهد بيروت. ثم انه استدعي الى رومــة ليكون معاونا لبابنيانوس مستشار الامبراطور سفيروس كما ذكرنا آنفا . وقد نفاه الاغبلوس خليفة كركلا . ثم اعيد الى وظيفته (٢٢٢ب.م.) كمستشار قانوني للامبراطور عنـــدما تسنم اسكندر سفيروس العرش . وقد كان اولبيانوس استاذه ووليه . كان هذا الامبراطور اللبنـــاني المولد يختلف خلقا عن اسلافه . فانه كان يتصف بالبساطة والطهارة والعدل والحكمة والتسامح في حياته الخاصة والعامة . وبرعايته وحمايتـــه شهر اولبيانوس حربا شعواء ضد الرذائل والاستغلال ، وقام بتعديـــل القوانين واصلاح المجتمع . وحاول ان يسن قوانين يكبح بهـــا جماح افراد الحرس الامبراطوري الذين كانوا يستغلون مركزهـــم لمصالحهم الشخصية . وفي عام ٢٢٨ هاجت جماعـــة من الثائرين الناقمين الذين ينتمون الى هذا الحرس ، ودخلوا القصر عنوة حيث كان قد لجأ اولبيانوس هربا منهم وقتلوه على مشهد من الامبراطور وامه .

وقد عمّر اولبيانوس اكثر من زميله بابنيانوس ، وكانت خدماته في حقل التشريع والقوانين اجلّ واوسع من خدمات زميله . وقد اقتبس المشترعون الذين وضعوا مجموعـــة قوانين يوستنيان (Digest) اكثر من ٢٥٠٠ بنداً او فقرة من كتاباته ومؤلفاته ، مما يشكل ثلث المجموعة اليوستنيانية . وفي مقدمة « المجموعة » ذكرٌ لرجل كان استاذاً في معهد الحقوق البيروتي اسمه انطوليوس ، وكان عمله ان يجمع القوانين المعروفـــة من هنا ومن هناك . ويمدحه كاتب المقدمة على انه كان رجلا ينتمي الى عائـــلة عريقة في علم القوانين . وقد مات انطوليوس في حادثة زلزال عام ٥٥٧ في القسطنطينية الى حيث كان قد رحل [١] . وقد كان المسؤول الاول الذي نيط به جمع القوانين لمجموعة يوستنيان استاذاً آخر من اساتذة الحقوق في بيروت ، واسمه دوروثيوس . وكان يوستنيان قد استدعاه الى القسطنطينية ، فلا عجب ان رأينا يوستنيان يفضل المدينة اللبنانية على غيرها ، ولا عجب في انه كان يلقبها « بام الشرائع ومرضعتها » . وقد كانت مجموعة قوانين يوستنيان آخر مجموعة للقانون وافضلهـــا من جهة الشمول . وقد وضعت قبلها للجزء الشرقي من

١ — Agathias, *Històriarum*, Bk. V, sec. 3 .

الامبراطورية الرومانية مجموعةاخرى عام ٤٣٨ ب . م. وضُمنت فيها جميع الشرائع والقوانين التي وضعها بابنيانوس واولبيانوس ، وتنص على ان هذه القوانين هي للقضاة والحكام قوانين نهائية .

وكما ان بيروت كانت معهداً يتثقف فيه رجال الحكم ورجال الدولة كذلك كانت مركزاً للدراسات اللاهوتية لرجال الكنيسة . واقدم ذكر لها في الكتب الكنسية جاء في خطبة لغريغوريوس الملقب بصاحب العجائب او الكرامات [١] القاها عام ٢٤٠ ب . م . وغريغوريوس اصلاً من كبدوكيا . وقد جاء بيروت يافعاً حيث بقي ٨ سنوات يطلب العلم . وقد كانت لغة التدريس في بادىء الامر اللاتينية ، غير انه عند مستهل القرن الخامس اصبحت الاغريقية لغة الامبراطورية البيزنطية. وقد صحب غريغوريوس في سفرته الى بيروت طلباً للعلم اخ له اسمه اثنودورس الذي اصبح فيما بعد مطراناً ، كما كان اخوه على بنطس [٢]. وقد كان غريغوريوس يميل الى المسيحية وعقائدها. فذهب من بيروت الى قيسارية في فلسطين حيث اعتنق الدين المسيحي على يدي استاذه اوريغون ، الاستاذ الذي كان غريغوريوس يحبه ويحترمه . ثم انه بعد ذلك سيم اسقفاً على مدينته حيث كانت رعيته تتألف اولا من سبعة عشر مسيحياً فقط، ولكن عند موته (حوالي ٢٦٥) كان عدد الذين لم يكونوا مسيحيين ١٧ فقط ، وذلك بالرغم من عنف الاضطهاد الذي كان يقوم به دقيوس في هذه الفترة. وفي اثناء الاضطهادات هرب غريغوريوس الى الصحراء ليس خوفاً من الموت انما رغبة منه في الابقاء على نفسه لخدمة رعيته. وفي الاضطهادات التي تلت اضطهادات دقيوس والتي كان بطلها الامبراطوران ديوكليشان ومكسيميان استشهد كثير من خريجي بيروت [٣]. ومن رجال الكنيسة المشهورين الذين امّوا بيروت للدرس فيها من مناطق البحر الاسود كان الاسقف غريغوريوس النازينزي (من مدينة نازينزوس في كبدوكيا) الذي اصبح فيما بعد اسقف القسطنطينية . وقد طوّب قديساً .

١ — *The Works of Gregory Thaumaturgus, Dionysius of Alexandria, and Archelaus*, tr. S. D. F. Salmond (Edinburgh, 1871). pp. 49-50.

٢ — Eusebius, tr., vol. II pp. 221-2.

٣ — للاطلاع على اسماء اخرى بارزة راجع : Collinet, pp. 84-98.

وحوالي سنة ٣٥٦ هجر غريغوريوس النازينزي اثينة مفضلا بيروت عليها. وجاءها ليتابع دروسه في القانون. ثم انه استدعي عام ٣٧٩ الى القسطنطينية ليدافع عن الايمان الارثوذكسي القويم ضد بدعة آريوس وغيره من الهراطقة. وبعد انعقاد مجمع القسطنطينية بعشر سنوات توفي. واشهر من هؤلاء جميعاً سفيروس اسقف انطاكية (من ٥١٢ــ٥١٨) الذي كان لاهوتي الجزء الغربي من الكنيسة الشرقية، التي كانت تعرف باليعقوبية. وقد خلّف لنا تلميذاً من تلامذة القانون في بيروت، واسمه زكريا الغزاوي[1]، سيرة حياة الاسقف سفيروس. وقد كان زكريا معاصراً له في التلمذة، فجاءت السيرة التي الفها سيرة ممتعة طريفة صور لنا فيها الحياة الجامعية في مدينة جامعة كبيروت تتمثّل فيها شعوب وحضارات وتقع، جسراً بين الشرق والغرب.

حياة الطلاب

التحق زكريا بمعهد الحقوق البيروتي خريف ٤٨٧ او ٤٨٨، اي بعد مقدم صديقه سفيروس بسنة واحدة. يقول انه لما دخل قاعة التدريس حيث كان الاستاذ الشهير ليونتيوس (Leontius) يحاضر شعر بشيء من التهيب والوجل اللذين يستوليان على كل طالب جامعي في بادىء الامر. ويظهر ان الطلاب القدامى كانوا يستقبلون الجدد بشيء من السخرية وقلة الاحترام امتحاناً لضبط النفس وفضيلة التحمل والجلد[2]، على نحو ما يفعله طلاب الجامعات الاميركية لعهدنا هذا، ولكن ليس بالقسوة والعنف اللذين نسمع بهما في «اسبوع الطلاب الجدد». انما يظهر ان سفيروس والطلاب القدامى استقبلوا زكريا بلطف وترحاب. وقد كان ليونتيوس من اهل بيروت، وكان والده من قبله متشرعاً مشهوراً[3] كما ان ابنه انتوليوس اصبح فيما بعد استاذاً في معهد بيروت. وهو احد الذين اشتغلوا في جمع

١ ــ وقد نشر النص السرياني، اما الاصل الاغريقي فقد فقد. وقد ترجم الكتاب تحت عنوان *Vie de Sévère* ترجمة:

M. A. Kugener in *Patrologia Orientalis*, vol. II (Paris, 1907), pp. 1—115.

٢ ــ Zacharias, p. 47.

٣ ــ Collinet, pp. 141 seq, 188 seq.

القوانين التي تعرف بقوانين يوستنيان كما ذكرنا آنفاً . كانت الدروس الاجبارية المتطلبة من كل تلميذ يريد الالتحاق بعلم الحقوق في ذلك الزمان علم اللغة (الصرف والنحو) والبيان واللغة الاغريقية واللاتينية. اما لغة التدريس ، في الفترة التي نحن بصددها ، فقد كانت الاغريقيـة . كان الطالب زكريا مسيحياً متديناً . فانه بعد انتهاء الدروس كان يذهب الى كنيسة في بيروت تسمى كنيسة القيامـة ليصلي . ثم انه كان يتمشى ناحية الميناء حيث كان يلتقي بسفيروس صديقه . وكان يحاول نصحه ورده الى محجة الصواب . كان يطلب بحرارة ان يرافقه الى الكنيسة كل يوم بعد انتهاء الدروس ، وكان يطلب اليه ان يقلع عن عادتـه في حضور سباق الخيل والذهاب الى المسارح التمثيلية والى حفلات الجلاد حيث كان السجناء والاسرى يلقى بهم الى الوحوش المفترسة لتمزقهم ، وان يكف عن العاب الميسر والمقامرة ومعاقرة الخمرة مع بنات الهوى وغيرهـا من الرذائل التي يظهر من وصف زكريا انها كانت شائعة في اوساط الطلبـة في بيروت[١] . اما سفيروس الاسقف العتيد وصديقه الحميم ، فقد كان طالباً غنيا يحف به الخدم انى ذهب. فكان يقول لصديقه النصوح ، الذي كان اصغر منه سنا ، انه طالب حقوق وليس راهباً متنسكا ولكن كان يرده بلطف قائلا انـه سينظر في الامر وسيحاول جهـده ان يكون الطالب الذي يريده ان يكونه .

كانت جميع الدروس تتوقف آخر الاسبوع ــ من السبت بعـد الظهر الى الاثنين صباحاً . وكان الطلاب يعيدون دروس النهار مساء ، لانهم كانوا احراراً في المساء يقضون اوقاتهم كما يشاؤون .وكان الطلاب يؤسسون الجمعيات والمنظمات الطلابية كما هي الحال في يومنـا هذا . ويقول لنا زكريا انه الف جمعية مسيحية كانت تجتمع مساء كل يوم في كنيسة القيامة ليتدارسوا مؤلفات باسيل كريصوصطم وغيرها من مؤلفات آباء الكنيسة . وكان رئيس الجمعية رجلا اسمه ايفركريوس من سميساط (Samosata) الذي كان قد درس في انطاكية حيث جُرِحَ اثناء اضطراب وقع في المدينة . وقد كان من اعضاء هذه الجمعية طلاب من ليسيا (Lycia في آسية الصغرى) وايدسا (الرها) وغزّة والاسكندرية مما يدل على ان معهد الحقوق البيروتي القديم كان يضم طلبة من جميع انحاء المنطقة ، كما

---

١ — Zacharias, pp. 51 - 2.

تضم الجامعة الاميركية في بيروت في عهدنا هذا طلاباً من جميع انحاء الشرق الادنى. وما ان كاد القرن الخامس ينصرم حتى اصبح معهد القانون هذا جامعة كبيرة تضم كليات متعددة : واحدة للآداب واخرى للفلسفة واخرى للقانون. وقد كان رئيسها ايفرغريوس رجلا حسن التدين صالحاً متقشفاً يصوم كل يوم ويترفع عن الشهوات . انما كان ينعم بحمام مرة واحدة في السنة وذلك مساء عيد الفصح[١] . وقد كانت حياته قدوة صالحة اقتدى بها سفيروس فأخذ بالتقشف والزهد وانقطع عن اكل اللحم .

وكان هنالك منظمات وجمعيات للطلبة تعنى بأمور اخرى : فقد كان هنالك مثلا جمعية تعنى بعلم الغيب . وقد كان من اعضائها البارزين طالب ارمني وآخر من سلونيك ولبناني من بعلبك ومصري من طيبة . وقد وقع المصري، واسمه يوحنا ، في حب امرأة لم تبادله الحب . فدُبِّرت مؤامرة لتقديم عبد المصري وخادمه ضحية للارواح السفلية املا في ان تقوى الارواح السفلية على تغيير رأي المرأة وجعلها تقع في غرام الطالب المصري [٢] . فاخذوا العبد ليلا ليقدموه ذبيحة في ملعب البلد. ولكن صادف ان مر بعض الناس فحدث اضطراب فر العبد المسكين اثناءه وذهب الى السلطات يشكو معلمه . وقد جرى تفتيش دقيق شامل عن كتب السحر التي كان يستعملها اعضاء هذه الجمعية فوُجدت مخبوءة في كرسي من كراسي الطالب المصري يوحنا ، فاخذت واحرقت جميعها . وقد كان في هذه الكتب صور للشياطين ، وفيها من الوان السحر ما يعزى الى منيثو المصري (Manetho) ومنها ما يعزى الى ازدرشت [٣] . وقد دل التحقيق على ان الاستاذ القانوني ليونيتس كان يشترك في هذه الاعمال السحرية المحرمة . وقد شكَّل المطران بالتعاون مع المجلس البلدي لجنة تحقيق. فاتهمت اللجنة هذا الاستاذ وغيره من الاساتذة بانهم كانوا يشتركون في رسم الزيجات لمعرفة الغيب والحظ من مراقبة النجوم . وهذا من شأنه تشجيع عبادة الاصنام. وقد هرب كثير من الناس خوفاً من العقاب . واما الذين صمدوا في المدينة فانهم حاولوا اثارة الشغب بين

١ — Zacharias, pp. 55-7.

٢ — Zacharias, p. 58.

٣ — Zacharias, pp. 58-62 .

الناس، ولكن السلطات هددتهم بانها سوف تسلح جموع الفلاحين في الضواحي[١] .

ولم تقف قضية السحر وما اثارته من شجون في المدينــة عند هذا الحد . فان جماعة من السحرة المشعوذين جاؤوا المدينة وأكدوا لبعضهم بان في المدينة كنوزاً خبأها داريوس الفارسي ، وان امر الكشف عنهــا ميسور . وقد تعاون معهم طالب من آسية الصغرى ، واقنعوا كاهنــين بان يشتركــا معهم في عمليــات التنقيب في مقــبرة الكنيسة . وكــان لا بــدّ من حرق البخور في المباخر لاحضار الارواح ، وكان لا بدّ من بعض الآنية الفضية الثمينة التي تستعمل في الكنائس . فاخرجها لهم الكاهنان ، وفي اثنــاء هذه العملية حدثت هزة ارضية خفيفة فذعرت الجماعة وهرب المشعوذون بالادوات الفضية الثمينة . اما الكاهنان فقد اوقفا وعوقبا ، وكان عقاب احدهما الحجر عليه في دير من الاديرة[٢] .

وقد اصيبت مدينــة بيروت بهزات ارضية قبل هــذه الحادثة وبعدهــا . فقد حدثت هزة سنة ٣٤٩ تهدم بسببها بعض اجزاء المدينة . ولكن لم تكن من العنف بحيث انها اثّرت على مجرى التدريس في المعهد . وقد شعر الناس بهزات اخرى عام ٤٩٤ و ٥٠٢ تسبّب عنهما بعض الاضرار ، وانمــا حل من جرائهما خراب في صيدا وصور . ولكن بين ٥٥١ و ٥٥٥ وقعت سلسلة من الزلازل العنيفة التي خرّبت المدن اللبنانية الساحلية تخريباً يكاد يكون كاملا ولا سيما مدينة بيروت . وقد طغت موجة عارمــة من البحر اثر احد الزلازل (٥٥١) سببت خسارة في الاواح والممتلكات اكثر مما سببه الزلزال ذاته . فقد قيل ان البحر ارتد الى الوراء مسافة تقرب من ميل واحد ، ثم انه عاد بشكل موجة عالية غمرت المدينــة كلها فاغرقت البنايات وهدمتها ، وغرقت المراكب او تحطمت على الشواطىء وغمرت الاشجار . ونرجح ان بنايات المعهد تهدمت في هذا الزلزال . وقد عثر مؤخراً في الحفريات التي اجريت في قلب المدينة على كثير من الاعمدة الرومانية التي نصبت كآثار قديمة قبالة المتحف الوطني . ويرجح ان هذه الاعمدة من بنايات معهــد الحقوق . وقــد ذكر ان ما يقرب من ٣٠ الف نسمة من سكان بيروت لاقوا حتفهم في هذا الزلزال . وقد هرب الباقون يأساً وخوفاً تاركين المدينة قفرا . اما

١ — Zacharias, pp. 66 - 8.

٢ — Zacharias, pp. 70 - 3.

الذين نجوا من الموت من اساتذة وتجـــار فانهم ارتحلو الى صيدا . وهنـــاك كان اساتذة القانون يعطون دروسا وقتية في انتظار اعادة بناء المدينة ومعهد القانون . وفي اثناء اعادة بنــــاء بيروت ، الذي كان يجري ببطء ، وقع حريق هائل التهم اكثر البنايات الجديدة . فكانت هذه النازلة الضربة القاصمة التي قضت على المدينة وعلى معهدها . وقد رثاها محام اغريقي من آسية الصغرى معاصر للحوادث بقوله: « بيروت ، اجمل المدن ، الدرة في تاج فينيقية ، فقدت لألأها ورونقها . بناياتها التي تعد آيات في فن العمارة تداعت وسقطت ولم يبق فيها جدار واقفا . لم يثبت منها سوى الاساسات » . وقـــد كان لهذه الفاجعة صـــدى تردد في جميع انحاء الامبراطورية . وقد رثاها ايضا شاعر اغريقي[1] معاصر من اسبانية بشعر تخيل فيه موقع المدينة ذاته بتفجع : « هانذا ، المدينـــة التاعسة ، كومة من خرائب ، ابنائي اموات . يا للحظ العاثر المشؤوم . الاهة النار احرقتني بعد ان هزت الاهة الزلزال اركاني . يا لتعاستي ، بعد ان كنت مجسم الجمال اصبحت رمـــاداً . هل تبكون علي ايها العابرون الماشون فوق اطلالي ، هل تسكبون علي دمعة حزن ، هل تأسون لمجد بيروت ، بيروت التي لا وجود لهـــا ، ايها الملاح لا تمل بشراعك نحو شاطئي ، لا تُنزِل شراع مركبك ، فان المرفأ الامين اصبح ارضاً يابسة قفراء. اصبحت لحدا موحشا . مِلْ عني ، سِر الى الموانيء الفرحة التي لا تعرف البكاء ، الى موانيها سِر على صوت قرع المجذاف ، هكذا شاء الاله بوسيدون ، اله البحر والزلزال ، وهكذا شاءت الآلهة السمحاء . وداعاً يا ملاّحي البحار . وداعا ايتها القوافل الآتية من وراء الجبال » .

وكان آخر زلزال حل ببيروت زلزال السادس عشر من شهر آذار سنة ١٩٥٦ . وقد نجت منه بيروت باعجوبة ولكنه احدث اضراراً جسيمة في قرى الجبال المجاورة جنوبيها وشرقيها .

١ — Barbucallus in *Anthologia Graeca Palatina,* Bk. IX, secs. 425 - 7; cf Porter, pp. 45 - 6.

القسم الرابع

العصر العربي

الفصل السابع عشر

في ظل الاسلام

ما ان مر بعض الزمن على الحوادث المؤلمة التي سببتها الزلازل التي اصابت بين عام ٥٥١ ـ ٥٥٥ الشاطىء اللبناني حتى اهتز العالم لحوادث اخرى عظيمة مثيرة حصلت في شبه الجزيرة العربية . ففي عام ٥٧٠ ولد في مكة طفل سمته امه محمداً . اما قبيلته ، قريش، فقد اطلقت عليه الاسم الامين لما كان عليه من الامانة. واما القرآن الكريم فيشير الى اسمه مرة (٦١ : ٦) باسم احمد وفي اماكن اخرى (٣ : ١٣٨ ، ٣٣ : ٤٠ ، ٤٨ : ٢٩ ، ٤٧ : ٢) يشير اليه باسم محمد . هذا النبي العربي غيّر مجرى التاريخ في الشرق الادنى وكاد ان يغيره في العالم اجمع .

في مدى حياة ، ومدى حياة الانسان قصيرة ، استطاع النبي العربي (توفي ٦٣٢ ميلادية) ان يدعو امة ليس لها من مقومات الحياة المادية ما يبشر بمستقبل عظيم ، امة لم تكن يوماً امة موحدة ، امة كانت تعيش في بقعة من الارض لم تكن في نظر العالم سوى اسم جغرافي ، نقول ، في مدى حياة قصيرة استطاع النبي العربي ان يؤسس ديناً حل محل المسيحية واليهودية في المناطق الشاسعة المجاورة للجزيرة العربية ، ديناً يعتنقه في يومنا هذا قرابة ٤٥٠ مليون نسمة ، اي حوالي ثمن سكان العالم . والى جانب تأسيسه ديناً فانه انشأ امبراطورية قيّض لها في زمن قصير ان تضم اليها اجمل مناطق العالم المتمدن آنذاك . ولو ان امرءاً جرؤ في مستهل القرن السابع ميلادي ان يتنبأ ان جيوشاً لم يعلم بها من قبل احد ، ولم يشعر بقوتها من قبل احد ، ستخرج من الجزيرة العربية ـ التي لم تكن مركزاً من مراكز الحضارة والعمران ـ لتتحدى القوتين العالميتين ، فارس وبيزنطية ، فتقوض اركان الاولى وتسلخ عن الثانية اغنى مقاطعاتها ، نقول ، لو ان امرءا تنبأ ان شيئاً من هذا سيحدث لاتهم بالغفلة والخبال . ولكن هذا ما وقع فعلا . فان الجزيرة العربية ، الجافة القاحلة ، تغيّرت ، وكأنّ تغيرها كان بفعل عصا

سحرية ، الى منبت ابطـال وعظماء لم يعرف العالم لهم مثيلا لا في نوعهم ولا في عدَدِهم . وكل ذلك تم بقيادة النبي .

قام النبي بحملة عسكرية خـارج الجزيرة العربية مرة واحدة ، وكانت على مستوى بسيط، نعني غزوة مؤتة . وهي بلدة صغيرة تقع شرقي الطرف الجنوبي من البحر الميت . وقد كان على رأس الجيش المؤلف من ٣٠٠٠ مقاتل ابنه بالتبني: زيد بن حارثة . ولكن زيداً استشهد في المعركة ، وما تبقى من الجيش عاد ادراجه الى المدينة بقيادة قرشي كان قد اعتنق الاسلام قبل الغزوة بقليل : خالد بن الوليـد الذي اصبح يلقب فيما بعـد بسيف الله . لم يكن لهذه الغزوة اي وقع يذكر على البلدان المتحضرة المجـاورة للجزيرة العربية بل كانت في نظرهم واحدة من تلك الغزوات العديدة التي كانوا قد الفوها من سكان الجزيرة . فقد كان البدو من اقدم ازمنة التاريخ يغزون الحضر جيرانهم. لكنها كانت في الواقع الطلقة الاولى في نزاع استمر حتى جثَت بيزنطة ، عاصمة المسيحية ، على ركبتيها (١٤٥٣) امام بطل آخر من ابطال المسلمين .

وفي السنة التالية قاد النبي حملة على تبوك[١] في شمال الحجاز حيث اخذها سلماً، واقام فيها حامية ، وعقد معاهدة صلح مع القبائل اليهودية في الواحة المجاورة لها، كما عقد معاهدة صلح اخرى مع نصارى ايلة (العقبة) في جنوب فلسطين. وحسب نصوص هاتين المعاهدتين اعطى النبي النصارى واليهود عهداً بحفظ حياتهم والابقاء على ممتلكاتهم والحرية في ممارسة دينهم على ان يدفعوا الجزية كل سنة. وقد اصبحت بنود هذه المعاهدة سابقة كان لها ابعد الاثر في فتوحات التالية . فان القواد العرب عند فتحهم بلدان جديدة وضمّها الى ديار المسلمين كانوا يتبعون سنة النبي في معاملتهم للنصارى واليهود .

وفي عام ٦٣٣ ميلادية ، اي بعد وفاة النبي بسنة واحدة، أتمّت جميع الاستعدادات لغزوة البلدان المجاورة على مستوى عسكري كبير . ذلك ان حروب الردة ــ وقد كانت حروبا تهدف الى ضم القبائل العربية الوثنيـة تحت لواء الاسلام اكثر مما

١ ــ البلاذري ، فتوح البلدان ، طبعة دي غويه (ليدن ١٨٦٦) ص. ٥٩ . وراجع ايضاً:
Hitti , *History of the Arabs,* pp, 119, 147 .
Hitti, *The Origins of the Islamic State* (New York,1916),p. 92 .

الفتح الاسلامي
لسورية ولبنان
المناطق الحربية والطريق الذي
سلكه خالد بن الوليد

كانت حروباً لرد المسلمين الذين رجعوا عن اسلامهم - كانت قد انتهت . وكانت القبائل العربية قد قبلت الاسلام وتوحدت في عهد الخليفة الاول ابي بكر (٦٣٢ - ٦٣٤) . وقد خلقت هذه الحروب المحلية في نفوس المحاربين اندفاعا وحماساً للفتح والاستيلاء ، لا سيما وان الدين الجديد يعتبر المسلم أخاً للمسلم فلا يجوز اذن ان يغزو الواحد منهم الآخر - والغزو عادة متأصلة بين القبائل العربية . فلم يبق لديهم الا ان يتجهوا نحو بلدان اخرى . كان الى شماليهم قوتان تصطرعان للسيطرة على غربي آسية . وقد دام الصراع قرونا مما استنزف قوى الدولتين وخلّفهما دولتين منهوكتي القوى ضعيفتين . ففي عام ٦٠٨ هاجم كسرى سورية ، والعام التالي لبنان . اما خليفته فقد هاجم فلسطين وخرب بيت المقدس عام ٦١٥ . وقد جعل الفرس من المنطقة بكاملها - باستثناء المدن الساحلية - ايالة فارسية من ٦١١ - ٦٢٢ . وقد وقعت كذلك آسية الصغرى في قبضتهم حتى مشارف البوسفور . ولكن الروم استعادوا جميع المناطق الرومانية الاسيوية في ست حملات متتالية (٦٢٢ - ٦٢٩) بما في ذلك سورية ولبنان. ولكنهم (الروم) اهملوا امر الحصون المتاخمة للجزيرة العربية وسحبوا بعض حامياتها . وكان اهل البلاد يشكون فداحة الضرائب التي كانت الدولتان الفارسية والبيزنطية تفرضهما على سكان المنطقة لمتابعة حروب لم يكن لهم فيها اية مصلحة . فاستحالت الشكوى الى تململ وتذمر . اضف الى عوامل الضعف في هذه المنطقة الانقسام العقائدي بين مختلف الكنائس المسيحية. ففي سورية ومصر كان جل المسيحيين من المونوفيستيين اي القائلين بالطبيعة الواحدة ، وفي العراق وايران كانوا من اتباع نسطور، وكلاهما على خلاف شديد مع المسيحية الارثوذكسية التي تمثلها بيزنطة . ولا شك في ان السكان الساميين في الهلال الخصيب كانوا يرون في العرب شعباً تربطهم بهم روابط القربى العرقية . فكانوا اقرب اليهم من اسيادهم الغرباء الذين ينتمون الى العرق الهندو - اوروبي. يضاف الى هذا نزول قبائل عربية على اطراف الهلال الخصيب .فقد كان الغساسنة على حدود سورية واللخميون على حدود العراق عاملا سهّل مهمة الفاتح . واخيراً تجدر الاشارة الى حقيقة اخرى كانت من العوامل التي يسرت الفتح ، وهي ان اولئك الغزاة من الصحراء كانوا قوماً اشداء ذوي بأس ونخوة ، يدفع بهم العوز الى التغلب والسيطرة . كانوا يهزأون بالموت ، لا بل يعدونه ثواباً . نعم كان نشر الاسلام شعارهم في الحرب ، وكان الاسلام قوة توحد قلوبهم ، ولكن يجب الا

ننسى انهم كانوا ايضاً بشراً يطلبون حياة مادية افضل . وهذا البلاذري افضل واعدل من أرّخ للفتوحات الاسلامية يخبرنا ان ابا بكر عندما دعا اهل الحجاز ونجد واليمن للجهـــاد كان « يرغبهم فيه (الجهاد) وفي غنائم الروم فسارع اليه الناس من بين محتسب وطامع »[١].

الحملات العسكرية

ما ان مضى على وفاة النبي عام حتى كان هنالك ثلاث سرايا تتجه شمالا من المدينة ، على رأس واحدة منها عمرو بن العاص ، وعلى رأس الثانية يزيد ابن ابي سفيان[٢] وكان هـــذان القائدان قرشيين . وكان حامل راية يزيد اخاه معاوية مؤسس الدولة الاموية في دمشق . وقـــد سار عمرو على محاذاة الساحل الى ايلة (العقبة) ، وسار القائدان الآخران في طريق تبوك معان[٣] . وكان عمرو ، فاتح مصر ، القائد الاعلى اذا اقتضت الحال توحيد الجيوش . ثم بعد ذلك التحق بهم ابو عبيدة ابن الجراح ، وهو صحابي مدني ، وقد اصبح فيما بعد القائد العام في سورية . وكان عدد هذه الجيوش مجتمعة حوالي ٢٣ الف رجل[٤] .

لم يلق هذا الجيش مقاومة حتى اتى وادي العربة جنوبي البحر الميت حيث هزم يزيد جيش سرجيوس (Sergius) قائد جيش الروم الذي انكفأ بما تبقى من جيشه غرباً ، فادركته الجيوش العربية في داثن قرب غزة واجهزت عليه اجهازاً تاماً (في ٤ شباط عام ٦٣٤) . واذ لم تعد تلقى مقاومة اخذت تشن الغزوات في جنوب فلسطين . كان الامبراطور هرقل آنذاك في مدينة حمص . ويذكر القارىء ان هذا الامبراطور كان قد اعاد وحدة الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فصار الناس ينظرون اليه انه حامي المسيحية . فلما بلغه خبر الجيوش العربية ارسل نجدة

---

١ ــ البلاذري ، ص ١٠٧ .

٢ ــ M. J. de Goeje, *Mémoire sur la conquête de la Syrie* (Leyden, 1900), pp 21-4.

٣ ــ وموقعها جنوبي شرقي البطراء في بلاد أدوم القديمة .

٤ ــ ينبغي لنا ان نذكر ان الارقام في التاريخ العربي ارقام تقريبية وليست ارقاماً تقوم على الاحصاء الدقيق . هذه الارقام تمثل حدس المؤرخين او ظنهم . وقد دونوا الوقائع والحوادث بعدان كان قد مر عليها زمن طويل .

بقيادة اخيه ثيودورس ، فتغيرت الحال قليلا غير ان الخليفة في المدينة ارسل الى خالد بن الوليد الذي كان على رأس جيش زاحف من الجزيرة نحو العراق ان يسرع الى نجدة اخوانه على الحدود السورية فعبر الصحراء السورية على رأس جيش قوامه حوالي ٨ مئة فارس في خلال ١٨ يوماً ، وهو عمل يعدّ بحق من اعمال البطولة الخالدة التي سجلها الانسان في قهره الصحراء . فانهم كانوا احياناً يتخلون عن ماء الشرب لاسقاء ابلهم وعند الحاجة القصوى كانوا يشربونها من اجربة الجمال[١]. وعندما تم الاتصال بين خالد وبين الجيش العربي في سورية اصبح الجيش العربي قويا فضمن لنفسه الظفر . اما دمشق ، عاصمة سورية ، فانها سقطت في ايدي العرب بعد حصار دام ستة اشهر بسبب خيانة بعض الموظفين النصارى . وكان تسليمها في شهر ايلول عام ٦٣٥ . وقبل ان ينصرم العام كان ابو عبيدة قد فتح حمص ، وهي واحدة من المدن الرئيسية في سورية . وبينما كان ابو عبيدة في طريقه من دمشق الى حمص فتح اول مدينة لبنانية رئيسية ، بعلبك . وقد كتب الى اهلها عهداً نثبته كمثال على الطريقة التي بها افتتح العرب سائر المدن :

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب امان لفلان بن فلان واهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على انفسهم واموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها وعلى ارحائهم . وللروم ان يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا ولا ينزلوا قرية عامرة ، فاذا مضى شهر ربيع وجمادى الاولى ساروا الى حيث شاؤا ومن اسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا . ولتجارهم ان يسافروا الى حيث ارادوا من البلاد التي صالحنا عليها وعلى من اقام منهم الجزية والخراج . وشهد الله وكفى بالله شهيداً[٢]»

اما فتح حلب (٦٣٧) وانطاكية (٦٣٨) ــ بمساعدة اعوان من النصارى واليهود ــ وحماة وسائر المدن في شمالي سورية واواسطها فقد تم بسهولة . لا بل ان بعضها رحب بالفاتحين ترحيبهم بمخلص ومنقذ . وكانت معركة اليرموك ــ وهو رافد من روافد نهر الأردن ــ التي وقعت في ٢٠ آب سنة ٦٣٦ ــ حاسمة . ذلك

١ ــ راجع Hitti, *History of Syria*, pp. 413 - 14 .

٢ ــ البلاذري ص ١٣٠

انها فتحت البلاد بكاملها امام العرب . في هـــذه المعركة قضى خالد على جيش الروم قضاء مبرماً . فقد ابدى من الدهاء الحربي والشجاعة ما كفل لجيشه الصغير ان ينتصر على جيش كبير جله من المرتزقة . وفي سنة ٦٣٨ سقطت مدينة القدس وذلك بخيانة بعض اليهود . ولكن العرب لم يتعرضوا لمدن الساحل لا في فلسطين ولا في لبنان ، لان هـــذه المدن كانت تلقى المدد من الروم بحراً . فان السيادة البحرية آنذاك كانت في يدهم . لذلك ظلت هذه المدن بعض الوقت خارج منطقة الفتوحات العربية . ولكن لم يمض زمن طويل حتى سقطت جميعها الواحـــدة تلو الاخرى ، وبدون اية مقاومة ، في يد معاويـــة ويزيد . فان بيروت سقطت عام ٦٣٥ ، وصور وصيدا عام ٦٣٦ ، وكذلك جبيل وعرقة[١] .

اما طرابلس التي كان يحيط بها سور حصين عال فقد حاصرها العرب سنة ٦٣٥ وفي سنة ٦٤٠ حاصروا جزيرة ارواد . وقد استردت اساطيل الروم بعض هـــذه المدن الساحلية ولكن معاوية عاد فاستردها . وهكذا خلال سبع سنوات وقعت المنطقة بكاملها من جبال طورس الى صحراء سيناء في ايدي المسلمين . ولكنه كان فتحا يسيرا اذ لا نعرف مدينة واحدة افتتحها العرب بقوة السيف .

ان فتح سورية يتعدّى المنافع المحلية والزمنية التي احرزها العرب . فقد كانت سورية قاعدة لاعمال حربية ضد جيرانها الى الشمال الشرقي مثل بلاد ما بين النهرين وفارس وما يليها ، والى الجنوب الغربي الى مصر وشمالي افريقيـــة . وفضلا عن القيمة الحربية ، فان فتح سورية رفع من مقام الاسلام وجعل المسلمين اكثر ثقة وايماناً بمقدرتهم .

مؤتمر الجابية

قبل ان تستسلم مدينـــة القدس بفترة قصيرة (٦٣٨) قام عمر بن الخطاب خليفة ابي بكر ، بسفرة الى البلدان المفتوحـــة . وعقد مؤتمراً مع قواده في مكان يعرف بالجابية على مسيرة يوم جنوبي دمشق دام ٣ اسابيع[٢] . كانت دمشق آنذاك

١ ــ البلاذري ص ١٢٦ ،

De Goeje, pp. 137 seq. ٢ ــ البلاذري ص ١٣٩ ، ١٥١ .

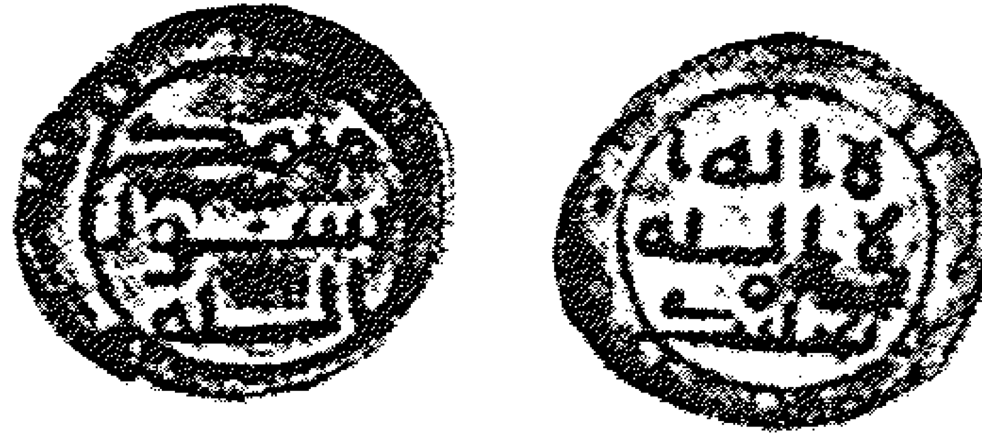
لا تزال عاصمة الغساسنة . ولا نعرف على وجه التحقيق ما جرى في هذا المؤتمر الذي يعرف « بيوم الجابية »؛ انما نعرف ان ابا عبيدة صديق الخليفة الحميم ثُبِّتَ في مركز القيادة العليا عوضا عن خالد بن الوليد ، وعيّن كذلك عاملا على جميع هذه المناطق[١] . ولا شك في أن المؤتمرين تدارسوا ايضاً مخططاً عاما للسياسة التي يجب اتخاذها نحو هذه البلدان المفتوحة . غير ان التفاصيل كما حدثنا عنها الرواة المؤرخون هي من صنع الاجيال التالية . وذلك لسبب بسيط ، وهو انه لا يمكن سن قوانين وشرائع لأحوال وظروف لم تكن بعد قد نشأت . ولكننا نرجح ان المؤتمرين اتفقوا في هذا المؤتمر على ان يكون المسلمون العرب في البلدان المفتوحة طبقة دينية عسكرية ارستقراطية تظل بمعزل عن اقتناء الارض وتعاطي اعمال التجارة والفلاحة ، وعلى ان تكون الشعوب المغلوبة لا سيما « اهل الكتاب » (وهم اليهود والنصارى والصابئة) من اهل الذمة . وكان على الذميين ان يدفعوا ضريبة على الاملاك ، وتعرف بالخراج ، وضريبة على الرؤوس تعرف بالجزية . ومقابل هذا فانهم يتمتعون بحماية المسلمين لهم، وكانوا يعفون من الخدمة العسكرية. ومن هنا كان مبدأ عدم التساوي بين الغالب والمغلوب ــ هذا اذا ظل المغلوب على دينه، اي اذا لم يكن قد اعتنق الاسلام، فانه اذا دخل في الاسلام ينتفي عنه الخراج والجزية ــ الذي اصبح سنة للاجيال التالية .

مراكز الاجناد والتقسيم العسكري

وفي مؤتمر الجابية قسمت سورية لاسباب ادارية الى اربع مناطق عسكرية (جند) وكان التقسيم استمراراً لتقسيم الروم للبلاد . اما هذه الاجناد الاربعة فقد كانت دمشق وحمص والاردن وفلسطين . وقد اضيف اليها زمن يزيد بن معاوية (٦٨٠ ــ ٦٨٣) قسم خامس : جند قنسرين الذي اقتطع من جند حمص ، وكان يشمل بلاد ما بين النهرين[٢] . اما لبنان فقد اضيف الى جند الشام . اما دمشق فقد اصبحت بعد مؤتمر الجابية عاصمة سورية كلها ثم فيما بعد مقرّ الخلافة الاموية (٦٦١ ــ ٧٥٠) التي اسسها معاوية (٦٦١ ــ ٦٨٠) . وعندما كان معاوية

١ ــ ابو يوسف : كتاب الخراج (القاهرة ١٣٤٦) ص ١٧٦ ــ ١٧٧ .
٢ ــ راجع ابو يوسف : كتاب الخراج ص ٤٧ .

عاملا على سورية كان يصرف الامور تصريفاً مستقـــلا عن مداخلات الحكومة المركزية في المدينة . وهذا يصدق بصورة خاصة على عهد خلافة عثمان بن عفان (٦٤٤ ـ ٦٥٦) احد انسباء معاوية[١] . وكان عثمان ومعاوية ينتسبان الى بني امية ، وهي اسرة عربية ارستقراطية وفرع من قريش . وقد حارب بنو اميـــة النبي في بادىء الامر وناوءوه العداء . ولكنهم عادوا ودخلوا في الاسلام قبيل وفاته . وقبل ان يصبح معاوية خليفة أدرك انه ينبغي له ان ينشىء اسطولا لحماية



قطعة نقود اموية من بعلبك ، ويعود تاريخها الى القرن الاول الهجري، ويظهر على وجه منها « لا اله الا الله » وتحتها اسم بعلبك . وعلى الوجه الآخر « محمد رسول الله » .

الشواطىء من غزوات الروم المتكرّرة . وقد وجد في عكا احواضاً بيزنطية [٢] لبناء السفن فرممّها . وكانت غابات لبنان ، كما كانت في الاجيال الغابرة، مصدراً غنياً للاخشاب . وقد جهز معاوية مراكبه بالملاحين اللبنانيين الذين كانوا يتمتعون بشهرة بعيدة في ركوب البحر . ومن غابات لبنان اقتطعوا الاخشاب التي كانوا بحاجة اليها لبناء الاسطول العربي المصري . وهكذا تم بنـــاء اول اسطول عربي . وكان باكورة عمله القيام بحملة ضد قبرص عام ٦٤٩. . وكانت نتائجها مرضية ومشجّعة . وقد هاجم هذا الاسطول جزيرة رودس واقريطش (كريت) وعاد منها بالغنائم . وفي الوقت ذاته كان معاوية يجلي بعض الروم والموالين لهم عن السواحل ويسكن محلهم اقواماً من اهل بعلبك وحمص وانطاكية . واقام حاميات في نقاط

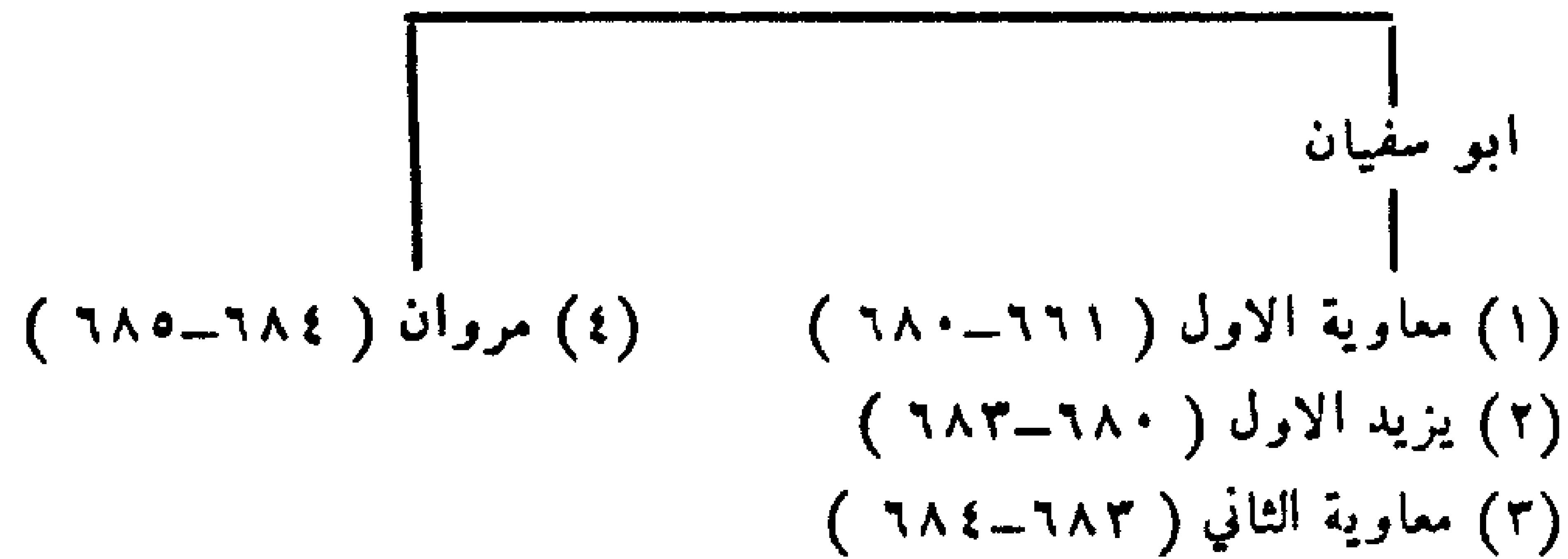
١ ـ وهو احد الخلفاء الراشدين : وهم ابو بكر (٦٣٢ـ٦٣٤) وعمر بن الخطاب (٦٣٤ـ ٦٤٤) وعثمان (٦٤٤ـ٦٥٦) وعلي ابن ابي طالب (٦٥٦ـ٦٦١) . وقد سموا بالخلفاء الراشدين لانهم كانوا « يتبعون الصراط المستقيم » وكانت عاصمة الخلفاء في هذه الفترة المدينة .

٢ ـ اطلقوا عليها « دار الصناعة » وقد دخلت هذه اللفظة العربية بعض اللغـــات الاوروبية وصارت arsenal . راجع البلاذري ص ١١٧ .

ستراتيجية . وجعل احد خلفائه ، هشام (٧٢٠ ـ ٧٢٤)[١] ، مدينـــة صور قاعدة بحرية[٢] . والواقع انه كان لصور ولعكا من الشأن في اوائل العهد العربي ما لم يكن لبيروت مثله . وقد اشار الى ذلك احد خلفاء بني امية الوليد الثاني (٧٤٣ ـ ٧٤٤) في بيت من الشعر[٣] . وفي عام ٦٥٥ التقى الاسطول العربي باسطول الروم عند الشاطىء الجنوبي لآسية الصغرى قبالة فينكس (واسمها الحالي فينيك) وكاد ان يقضي عليه قضاء تاما . وهكذا انتقلت السيادة البحرية في شرقي المتوسط من ايدي الروم الى ايدي العرب ، واصبحت الشواطىء اللبنانية ، الى زمن ، في مأمن من الغزوات البحرية .

---

١ ـ الخلفاء من بني سفيان ، وهم فرع من بني امية :



٢ ـ اليعقوبي : كتاب البلدان ، طبعة De Goeje (ليدن ١٨٩٢) ص ٣٢٧ .

٣ ـ صالح بن يحي ص ١٦ . ياقوت : معجم البلدان ، الجزء الاول ص ٧٨٥ .

الفصل الثامن عشر

الموارنة والدروز وطوائف اخرى

يحيط بتاريخ لبنان في القرون الاربعة والنصف الاولى التي تلت الفتح العربي حجب كثيفة . فاننا نجهل تاريخ الحقبة التي تقع بين الفتح العربي ومقدم الصليبيين جهلا يكاد يكون تاماً لولا بعض احداث بارزة وخطوط عريضة نتلمسها بشيء من الجهد . فلا المصادر البيزنطية تقول شيئاً ، ولا المصادر العربية تُغني طالباً . غير اننا نقدّر ان جزءاً يسيراً من الجموع العربية المتدفقة الى الهلال الخصيب اثر الفتوحات تابع تقدمه الى سواحل لبنان، لا الى جباله، واحتلوا المساكن المهجورة التي كان يقطنها البيزنطيون واعوانهم ، او مساكن الذين ارغموا على الفرار اثناء الفتح . وحوالي ٦٦٣ جاء معاوية بجاليات من الفرس لسكنهـــا صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وعرقة وذلك بغية ردّ الغزوات التي قد تقوم بها اساطيل الروم[١]. غير ان لبنان الجبل لم يكن ليستهوي فرسان الحرب وموظفي الدولة والبدو الرحل او نصف الرحل القادمين من الجزيرة العربية . فانهم ارفع قدراً من ان يتعاطوا اعمال الزراعة والفلاحة . ولم يكن ثلج لبنان بالشيء المستحب لديهم . ناهيك عن ان الحرب في مسالك الجبل ووعره ليس بالامر الذي يميـــل اليه المحارب العربي الذي كان يألف السهل .

بقايا آرامية

ان عدداً كبيراً من اسماء النبات البري والجوي في هذه المنطقة التي افتتحهـــا العرب يُرد الى اصل آرامي . وكذلك المصطلحات والمفردات التي لها علاقـــة بالفلاحة والزراعة فانهـــا في جلّهـــا كلمات سريانية وآرامية . وقل مثل هذا في المصطلحات والمفردات الدينية او التي لها علاقة بالفروض الكنسية (مثـــل العماد

---

١ ــ اليعقوبي ص ٣٢٧

والكرازة والقسيس والمزمور)[1] . واكثر اسماء المدن والقرى آرامي او فينيقي الاصل . فانك تجد في المشرق[2] ثبتاً بخمس مئة وثلاثين اسماً كلها اسماء سريانية من اصل ١٥٠٠ اسم قرية ومدينة في لبنان . فان الاسماء المركبة من «بيت» او جزء منها «ب» او «بت» تعني الدار او الهيكل او المقام كما في بتدّين اي محل القضاء ، وبصاليم ومعناها بيت الصنم او هيكل الصنم . وهنالك اسماء مركبة من «عين» واسم آخر ، او من ماء «مي» واسم آخر ، مثل عينطورا ومعناه عين او نبع الجبل ، ورشميا ومعناه راس النبع . وهنالك اسماء تعني قلعة او برج مراقبة . والقلعة او برج المراقبة في السريانية والآرامية «مجدل» كما في مجدل معوش ومجدليا ومجدلون ، وهذا الاسم الاخير تصغير ومعناه البرج الصغير . وهنالك اسماء عديدة تبدأ بلفظ «كفر» مثل كفرفاقود ومعناه قرية الآمر والحاكم وكفرشيما قرية الفضة . حتى ان اسماء المدن والقرى الساحلية حيث نزل العرب، كما اسلفنا ، لا يظهر فيها الاثر العربي بل انها اسماء فينيقية آرامية .

لم يكن خلفاء الرسول في المدينة ليدركوا عن بعد اهمية الجبل الستراتيجية فتركوه لشأنه . ولكن معاوية القريب من الجبل ادرك هذا ؛ فكان اول خليفة حاول ان يخضع سكان الجبل النصارى . ولكنه لم يفلح واعاد الكرة ولم يفلح ايضاً . كما ان الخلفاء الذين اتوا بعده لم يوفقوا لاخضاع الجبل ، ذلك لانه في هذه الاثناء قدم الجراجمة اليه من منطقة جبال طورس فكانوا عوناً ونجدة لاهل الجبل . وقد كان الجراجمة قوماً اشداء في الحرب .

المردة

كان الجراجمة من الجنود المرتزقة عند الروم ، فكانوا يشنون الغزوات على سورية، واصبحوا شوكة في خاصرة العرب الفاتحين. والتاريخ لا يعرف عن اصلهم

---

١ – راجع : Michel T. Feghali, *Étude sur les emprunts syriaques dans les parlers arabes du Liban*, (Paris, (1918), pp. 87-95 .

٢ – المشرق : المجلد ٣٧ (١٩٣٩) ص ٣٨٧–٤١٢ . والمجلد ٩ (١٩٠٦) ص ٧–١٥، ٨١–٨٧ ، ١٥٢–١٥٧ . راجع ايضاً : انيس فريحة : اسماء المدن والقرى اللبنانية جونية، ١٩٥٦

شيئاً ، انما نعلم انهم سموا جراجمة نسبة الى مدينة الجرجمة في جبل اللكام . وكانوا على شيء من الاستقلال الداخلي. ونعلم ايضاً ان العرب لما فتحوا انطاكية (٦٣٨) استخدموا بعض الجراجمة كأدلاء في معابر الجبـال التي كانت تفصل الروم عن الحدود العربية[١] . وبوصفهم من محترفي الحرب والغزو فقد كانوا دومـاً على استعداد ان يكونوا في خدمة من يدفع لهم اكبر اجر . واما انهم كانوا نصارى فأمر محقق ، الا اننا لا نعلم علم اليقين اذا كانوا من القائلين بالمشيئة الواحـدة (Monothelite) او من المونوفيسبت (اي القائلين بالطبيعة الواحدة) .

بدأ هؤلاء الجراجمة الاشداء بالتسلل الى سورية من مناطقهم الوعرة الحصينة في جبل اللكام وجبال طورس . هذه الجبال تشكل الحدود الطبيعية بين سورية والاناضول . وقد كانت سفوحها الجنوبية حاجزاً تحطمت على صخوره موجات الفتح العربي . وفي عام ٦٦٦ اتخذت الغزوات البسيطة التي كان الجراجمة يشنونها على سورية شبه حرب اجتياح. فقد كان قوادهم من الروم،وكانت فرق عسكرية من الروم تشدّ ازرهم ، كما كانت قطع من الاسطول تساندهم من البحر . وقد اوصلهم زحفهم الى قلب لبنـان فاحتلوا النقاط الستراتيجية فيه حتى مشارف فلسطين .

وكان العالم الاسلامي يعاني ازمة داخلية خطيرة ، فلم يعبأ لمـا كان يجري في لبنان . في هذه الفترة كانت الحرب قائمة بين معاوية وعلي ابن ابي طالب حول الخلافة . وقد رأى معاوية انه من الحكمة ان يدفع جزية للروم مقـابل ان يمتنع هؤلاء عن مساعدة المردة ، العدو الداخلي الجديد . وقـد كان المردة يتلقون من الخليفة جزية ايضاً. وعليه انسحبت جموع الجراجمة من لبنان . ولكن في عام٦٨٩ اثناء خلافة عبد الملك (٦٨٥ـ٧٠٥) عاد الجراجمة فاجتاحوا لبنان ، كما فعلوا اثناء خلافة معاوية ، وتحصنوا في مرتفعاته الشمالية . وقد قبل عبد الملك ان يدفع ضريبة الى الامبراطور يوستنيان الثاني وان يدفع للجراجمة مبلغ الف دينـار كل اسبوع . وكأنه في اذعانه هذا ، على حدّ قول البلاذري ، « اقتـدى في صلحه

١ ــ ياقوت : معجم البلدان ، الجزء الثاني ص ٥٥ . البلاذري ص١٥٩ .

بمعاوية[١] ، . وقد اندمج الجراجمة بسكان الجبال - ولم يكن الجبل بعد مكتظاً بالسكان — من النصارى الذين كانت لغتهم لهجة آرامية ، واوجدوا بذلك ملجأ يلوذ به الملهوف والمضطهد من سكان سورية ومن سكان الساحل اللبناني .ويلوح لنا ان الجراجمة ، بعد اندمـــاجهم بسكان الجبل الاصليين ، اصبحوا ، في هذه الحقبة ، يعرفون بالمردة[٢] . ومنذ ذلك الحين اصبح لبنان معقلا آمناً للاقليـــات وللطوائف المذهبية ، ولكل داعية أو خارج كان يحس بان الفشل ينتظره . وقد اسفرت عملية الاندماج هذه بين الجراجمة ونصارى لبنان عن قيام الطائفة المارونية التي لا تزال الطائفة القويةالسائدة في شمال لبنان ، والتي تؤلف اكبر وحدةمسيحية موحدة متراصة .ومنذ هذا الوقت يبدأ جبل لبنان بالظهور على مسرح السياسة في هذا القسم من العالم .

اما الوليد (٧٠٥ــ٧١٥) ، بن عبد الملك وخليفته ، فقد عقد النية على ان يتخلّص من الخطر الذي كان يهدده من الشمال وذلك بتهديم المتكأ الذي كان يجده الروم في لبنان . فبعث (٧٠٨) اخاه مسلمة — الذي اصبح فيما بعد القائد الذي سيّر حملة كبيرة ضد بيزنطة — على رأس سرية للاستيلاء على مقرهم الجُرْجُمَة. وقد فر بعضهم الى بلاد الاناضول واذن لبعضهم الآخر في التوطن في سورية ولبنان حيث رخص لهم ايضاً ان يمارسوا طقوس دينهم النصراني دون ان يؤدوا الجزية كما كان يفرض على اهل الذمة[٣] . وتجـــدر الاشارة الى ان الخلافة العربية بلغت اوجها في الرفعة والمجد

---

١ ــ البلاذري ص ١٦٠ ، وكتـــاب انساب الأشراف ، نشر S. D. F. Goitein الجزء الخامس (القدس ١٩٣٦) ص ٢٩٩ــ٣٠٠ .

٢ ــ للاطلاع على مزيد من الجراجمة والمردة راجع :
Lammens in *Mélanges*, vol. I,pp. 14-22. تسريح الابصار الجزء الثاني ص ٤١ــ٤٨ .

٣ ــ البلاذري ، ص ١٦١ .

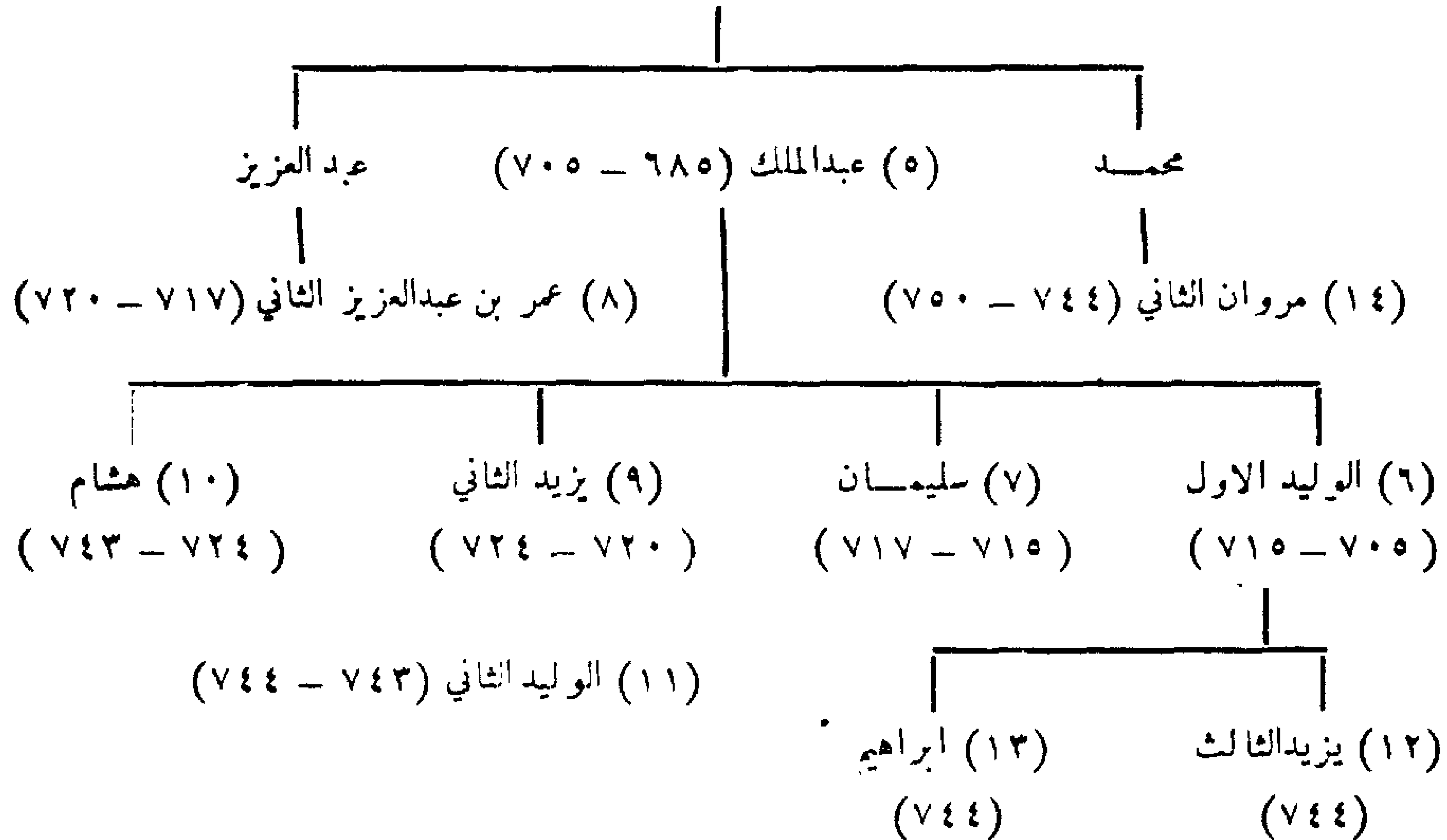
زمن عبـــد الملك واولاده [1] . فقد كانت رقعتها الجغرافية تمتد من شواطىء الاطلسي في اسبانية وفرنسة الى شمال افريقية فالى غربي آسية فنهر السند وتخوم الصين، وهي رقعة لم تبلغها الامبراطورية الرومانية في عهدها الذهبي.

القديس مارون

تنتسب الطائفة المارونية التي كانت عند بدئها تتألف من عناصر لبنانية مسيحية مختلفة الى القديس مارون [2] شفيعها . وقد عاش هذا القديس الراهب المتقشف في اواخر القرن الرابع ومات حوالي ٤١٠ في البرية التي تقع بين انطاكية وقورش او قورس (Cyrrhus) الى الشمال. اما الحقائق الثابتة عن حياته فيمكن تلخيصها في عبارات قليلة. ان اقدم المصادر لدينا هي تلك التي خلفها لنا معاصره ثيودورث اسقف قورش الذي يقول عنه انه هو الذي « غرس حديقة النسك » في المنطقة [3].

---

١ ـ الخلفاء من آل مروان ، وهم فرع من بني امية :



٢ ـ مارون لفظ سرياني وهو تصغير « مارو » ومعناه السيد والمولى والتصغير هنا للتحبب .

٣ ـ J. P. Migne, *Patrologiae Graecae*, vol. LXXXII (Paris, 1864), pp. 1418-19.

وكذلك نعلم بعض الشيء عن حياة القديس مارون عن طريق معاصر انطاكي آخر ولكنه ابعد شهرة من اسقف قورش نعني يوحنا كريصوصطم . ذلك انه لما كان في طريق منفاه بعث (عام ٤٠٤) برسالة الى صديقه الحميم « مارون الراهب» يطلب فيها اليه ان يصلي لاجله وان يبعث اليه باخباره [١] . ولكنا لسنا على يقين ان هذا الراهب المسمى مارون هو مارون شفيع المارونية . وليس هنالك ما يؤكد ان القديس مارون كان يعرف اللغة اليونانية ، او انه درس في انطاكية حيث كان كريصوصطم يعلّم . كان مارون عضوا في الكنيسة السورية وكان يستعمل اللغة السريانية في الخدمة الكنسية . ولا نعلم على وجه التدقيق السبب الذي كان من اجله نزح تلامذة مارون ومريدوه بعد موته بقليل الى مكان بالقرب من افاميه (Apamea وتعرف الآن بقلعة المضيق) على نهر العاصي . قد يكون سبب هذه الهجرة الى قلعة المضيق وقوع خلاف عقائدي بين كنيسة الروم الارثوذكسية التي كان مركزها انطاكية وبيزنطة وبين القديس مارون . وفي هذا المكان شيّد تلامذته واتباعه ديراً على اسم القديس مارون . وتقول الرواية انهم حملوا معهم رفات القديس مارون ، ومن هناك نقلت الى لبنان. وكان انه عندما ازداد عدد اتباع مارون حول منطقة افامية وقع خلاف شديد وعداء مستحكم بينهم وبين اليعاقبة [٢] الذين كانوا ايضا يستعملون اللغة السريانية في الخدمة الكنسية . وفي عام ٤٥٢ وسع الامبراطور مرقيانوس (Marcianus) بناء الدير [٣] . وفي عام ٥١٧ قتل اليعاقبة الذين كانوا يتوطنون وادي العاصي حوالي ٣٥٠ راهبا من رهبان الدير . غير ان الامبراطور يوستنيان الكبير (٥٢٧ ـ ٥٦٥) اعاد بناءه . ومن بين اباطرة الروم الذين عطفوا على الدير وشملوه بالرعاية هرقل الذي زاره عام ٦٢٨ بعد انتصاره على الفرس [٤] . وقد كان هرقل المدافع عن اصحاب الطبيعة الواحدة وحامي معتنقيها . وهي عقيدة لم تكن تنظر اليها الكنيسة

---

١ ـ اسطفان الدويهي : تاريخ الطائفة المارونية (بيروت ١٨٩٠) ص ١٩ ـ ٢٠

٢ ـ وهم فرع من اصحاب الطبيعة الواحدة .

٣ ـ ابو الفداء : التواريخ القديمة من المختصر في أخبار البشر ، نشر فليشر (ليبسغ ١٨٣١) ص ١١٢ . لامنس : تسريح الابصار ، الجزء الثاني ص ٩٠ .

٤ ـ سعيد ابن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، نشر شيخو الجزء الثاني (بيروت ١٩٠٩) ص ٥ .

انها عقيدة ارثوذكسية . وفي رواية سريانية نجهل صاحبها ان الموارنة واليعاقبة احتكموا عام ٦٥٩ الى معاوية لفض النزاع العقائدي بينهم [١]. غير ان الخصام لم يحسم فوقعت حروب ثأرية بين الموارنة واليعاقبة في النصف الثاني من القرن السابع اسفرت عن هجرة اقوام من الموارنة الى شمال لبنان الذي اصبح فيما بعد موطناً دائماً للمارونية . والهندسة المعمارية البيزنطية التي لا تزال بقاياها بادية في الكنائس وقطع الفسيفساء التي تزين جدران الكنيستين القديمتين في اهدن وفي كفرشليمان [٢]، والكتابات الاغريقية ، تدلنا على ان البلاد التي استوطنها الموارنة كانت بلاداً يقطنها نصارى . والواقع ان اقدم الكنائس في هذه المنطقة تعود الى عهد الامبراطور يوستنيان في اوائل القرن السادس . وفي المتحف البريطاني مخطوط مسيحي مكتوب باللغة السريانية يرجع تاريخه الى عام ٨٢٠ للتاريخ اليوناني (ويقابله ٥٠٩ ميلادي) يذكر لنا قرية في جبل لبنان : حدث الجبة [٣] . اما الكنيستان في معاد وحدثون ففيهما بقايا من العهد الوثني [٤] .

يوحنا مارون

اذا كان مارون قديس الطائفة المارونية فان يوحنا مارون (Joannes Maro) المتوفى حوالي ٧٠٧ كان بطل القومية المارونية وباني موطنها على جوانب وادي قاديشا وفي ظلال الارز . كان يوحنا مارون اول بطريرك للطائفة . وفي عهده برزت اولى الخصائص القومية التي جعلت من هذا الشعب امة . ولد يوحنا في سروم بالقرب من انطاكية ، ودرس السريانية والاغريقية في انطاكية قبل ان التحق بدير مارون في وادي العاصي . وقد تابع دراسته في القسطنطينية . وسيم اسقفاً (حوالي ٦٧٦) على البترون على الساحل الشمالي من لبنان . وكان مقره اولا في سمار جبيل ومن هناك انتقل الى كفرحي على مسافة عشرة اميال شرقي البترون وتقوم اليوم مدرسة

---

١ — Th. Noldeke, *Z. D. M. G.*, vol. XXIX (1875), pp. 82-96.

٢ — لامنس : تسريح الابصار ، الجزء الاول ص ١٩١ ، ٨٥ — ٨٦ .

٣ — W. Wright, *Catalogue of Syriac Manuscripts in The British Museum*, pt ii (London, 1871), p. 417.

٤ — لامنس : تسريح الابصار ، الجزء الاول ص ٨٥ — ٨٦ .

تعرف باسمه على البقعة من الارض التي اختارها لبناء دير ومقبرة له. وقد استطاع بقيادته الحكيمة ان يجعل من الموارنة شعباً ذا سيادة . فقد استطاع بدهائه ان يرد خليفة المسلمين باليد الواحدة وامبراطور الروم بالاخرى . ولما هدمت جيوش الامبراطور يوستنيان الثاني دير مارون في وادي العاصي وتابعت زحفها لمحاربة الموارنة في لبنان تصدى لها البطريرك يوحنا بجيش ماروني وهزمه في اميون شر هزيمة[١] . ومنذ ذلك الحين اخذت تظهر في الطائفة المارونية تلك الخصائص التي جعلت منهم امة جبلية مستقلة منعزلة عن سائر الطوائف التي كانت تقطن هذه المنطقة من الارض . يقول[٢] (Gibbon) « عمرت هذه الامة الصغيرة المحتشمة اكثر مما عمّرت امبراطورية القسطنطينية التي اضطهدتها » . ومنذ القرن الخامس عشر اصبح دير قنّوبين الحصين المبني في صخر من صخور وادي قاديشا الوعر مقراً للبطريركية المارونية . غير ان بكركي هي المقر الشتوي في يومنا هذا . ولا يزال سيد بكركي يلقب ببطريرك انطاكية وسائر المشرق » .

انتشار المارونية

لقد ظل في وادي العاصي جالية مارونية حتى بعد انتقال مقر البطريركية الى لبنان وكذلك ظلت جالية منهم في جهات قورش . وكان المنجم الاول في قصر الخليفة العباسي المهدي (٧٧٥ــ٧٨٥) والمترجم الذي نقل الياذة هوميروس الى السريانية رجلا مارونياً اسمه توفيل (ثيوفيلوس) بن توما من شمال سورية[٣] . ويذكر المسعودي[٤] المؤرخ والرحالة العربي البغدادي، والذي كتب تاريخه حوالي ٩٥٠ ، ان معظم اتباع هذه الطائفة يعيشون في لبنان وفي نواحي حمص وحماه ومعرة النعمان . ويضيف انهم كانوا من اصحاب المشيئة الواحدة . هذه العقيدة

---

١ ــ واذا اراد القارىء الاطلاع على حياة هذا البطريرك فان عليه مراجعة يوسف سمعان السمعاني *Bibliotheca Orientalis*, vol. I, (Rome, 1719), pp. 496—520

٢ ــ Edward Gibbon, *The History of The Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. J. B. Bury, vol. V (London, 1898), pp. 156-7

٣ ــ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، نشر انطون صالحاني (بيروت ١٨٩٠) ص ٢١٩ــ٢٢٠

٤ ــ التنبيه والاشراف (طبعة دي غويه ، ليدن ١٨٩٣) ص ١٥٣ــ١٥٤ .

التي تقول انه كان للمسيح مشيئة واحدة قال بها بطريرك الامبراطور هرقل (٦٣٨) ليوفق بين عقيدة اصحاب الطبيعة الواحدة (المونوفيسيت) الذين كانوا يشكلون الاكثرية من رعاياه النصارى في سورية وبين اصحاب العقيدة الارثوذكسية الرسمية للكنيسة البيزنطية وقد كانت هذه المحاولة الاخيرة التي قام بها الامبراطور ليسد الثغرة التي اوشكت ان تفصل بين الكنيسة السورية والكنيسة البيزنطية. ولكن هذه المحاولة، شأن كل محاولة للتوفيق، لم تملح في ارضاء اي من الفريقين. وثمة معاصر للمسعودي هو بطريرك الاسكندرية سعيد بن البطريق (Eutychius يوتيخيوس المتوفى ٩٤٠) الذي يصف الموارنة بانهم من اصحاب المشيئة الواحدة ويجعل الامبراطور هرقل مارونياً [١]. اما وليم الصوري [٢] الذي ارخ للصليبيين فانه يوافق ابن البطريق، اذ يقول: «ان بدعة مارون واتباعه الآن وفيما مضى من الزمان تقوم على المعتقد القائل بان في سيدنا يسوع المسيح منذ البدء مشيئة واحدة وقوة واحدة». ويقدر وليم عددهم باربعين الفاً، ويضيف بانهم عام ١١٨٠ تخلوا عن هرطقتهم هذه وعادوا الى حظيرة الكنيسه الكاثوليكية. اما المؤرخون من الموارنة. بدءاً بالدويهي [٣] (توفي ١٧٠٤) وابن نمرون [٤] (توفي ١٧١١). فانهم حاولوا دوماً دحض هذه التهم، واصروا اصراراً شديداً على ان الموارنة كانوا ابداً من المستقيمي الرأي[٥]. وتدعيما لرأيهم يشيرون الى انه عندما عقد المجمع الكنسي الثالث في القسطنطينية عام ٦٨٠ – ٦٨١ وحرم اصحاب المشيئة الواحدة لم يرد ذكر الموارنة ابداً. ولعله ثمة بعض الصحة في القول بان وليم الصوري وغيره من المؤرخين كانوا يخلطون بين موارنة

---

١ – سعيد بن البطريق، الجزء الثاني ص ١٢، ٣٠ – ٣١

٢ – *A History of Deeds done Beyond the Sea*, tr. Emily A. Babcock and A. C. Krey (New York, 1943), vol. II, p. 459.

٣ – الدويهي، ص ٢٩٢ وما يليها.

٤ – Fausto (Murhij) Naironi, *Dissertatio de origine, nomine, ac religione Maronitarum* (Rome, 1679).

٥ – ومن المحدثين الذين دافعوا عن عقيدة الموارنة افرام الديراني: المحاماة عن الموارنة وقديسيهم (بيروت ١٨٩٩) يوسف الدبس: تاريخ سوريه، الجزء الخامس (بيروت ١٩٠٠) ص ١٥٦ وما يليها.

Pierre Dib, *L' Église Maronite*, vol. I, (Paris, 1930), pp. 63 - 143.

لبنان الشمالي
مقدم الموارنة في القرن السابع وفي القرون التالية
اميال انكليزية
٠ ٥ ١٠ ١٥ ٢٠

البحر المتوسط
طرابلس
عرقة
زغرتا
بطرام
اهدن
قنوبين
اميون
بشري
كفرحي
البترون
الديمان
حصرون
سمرجبيل
حدث الجبة
تنورين
معاد
حدتون
العاقورة
جبيل
نهر ابراهيم
قرطبا
المنيطرة
افقا
غزير
عين ورقة
زوق ميكايل
بكركي
بسكنتا
بيت شباب
عينطورا
بيروت
الشوير
برمانا
بيت مري
زحلة
كسارة
صليما
الحدث
عين صوفر
بحدون
عين عنوب
شملان
عين زارا
قب الياس
بعلبك
مجدلون

لبنان وجماعة اخرى من اتباع رجـــل من الرهبـــان يدعى هو الآخر مارون (توفي حوالي ٥٨٠) وكان من اصحاب المشيئة الواحدة ، او لعل مثل هذا القول ممـــا يجب ان يؤخذ بعين الاعتبـــار[١] . ويختلف الموارنة عن الطوائف المسيحية الاخرى التي اتحدت مع رومة ـ هذا اذا كان يحق لنا ان نحشرهم في عداد هذه الطوائف ـ في انهم يعترفون بسلطة البابا باعتبارهم طائفة وكنيسة تامة ، بينما نجد ان سائر الطوائف التي تعرف بالطوائف المتـحدة قامت على دعوة اشخاص او جماعات صغيرة قطعت علاقاتها بكنيستها الاصلية .

يذكر بعض الرحالة انه كان في القرن الثاني والثالث عشر جاليـــات مارونية في تكريت وفي غيرهـــا من المدن بين دجـــلة والفرات . وكان في قبرص (في فاماغوستا وضواحيها) جالية مارونيـــة في اوائـــل القرن الثاني عشر بحيث انها كانت تملك كاتدرائية عام ١١٢٠ . وكان الموارنة منتشرين في قرى عديدة يبلغ عددها حوالي الثلاثين قرية[٢] . ومن المحتمل ان اولئك الذين هاجروا الى قبرص كانوا لاجئين فروا الى هناك من اضطهاد العباسيين ، ولا سيما في عهد المتوكل[٣] (٨٤٧ـ٨٦١) . وفي عهد الصليبيين هاجر عدد من الموارنة الى قبرص. وهذه الجالية المارونية ـ التي تعد أقدم جالية مارونية في المهجر ـ يبلغ عددها في عهدنا هذا حوالي اربعة آلاف نسمة ، ولهم كاتدرائية في كورمكيتي، وقد احتفظوا بلهجة هي مزيج من السريانية والعربية، على نحو ما كان شائعاً في لبنان في القرن الثاني عشر . ومما لا شك فيه ان الموارنة استرعوا انظار رومة اثناء الحروب الصليبيـــة . فقد كانوا يتطلعون اليها ، بالرغم من ان اتحادهم بالكنيسة الكاثوليكية في رومة لم يتم الا في القرن الثامن عشر . وقد احتفظت الكنيسة المارونية ، التي يمكن اعتبارها الكنيسة اللبنانيـــة الوطنية ، باللغة السريانية في القداس الى يومنا هذا . وخدمـــة القداس مأخوذة عن تلك التي تعزى الى القديس يعقوب . ورجال الاكليروس الماروني لا يتزوجون . ورئاسة الجمهورية اللبنانية للطائفة المارونيـــة . وبحسب

---

١ ـ Bernard G. Al - Ghaziri, *Rome et L' Église Syrienne - Maronite* (paris, 1906), pp. 31 - 33, 43 - 5, Robert W. Crawford in *Speculum* vol. XXX (1955), pp. 222 - 80.

٢ ـ لامنس : تسريح الابصار ، الجزء الثاني ص ٥٥ ـ ٥٦ .

٣ ـ Dib, pp. 175 - 6; Hitti, *History of the Arabs*, p. 353 .

الاحصاء التقديري لعام ١٩٥٢ كان عدد الموارنة ٣٧٧,٥٤٤ من مجموع السكان الذي يبلغ ١,٣٠٣,٩٤ . وقد احتفظت الجاليات المارونية في المهجر بطقوس كنيستها كما هي الحال في ايطالية وفرنسة والاميركتين الشمالية والجنوبيـــة وفي اوسترالية وانحاء اخرى من العالم .

الكنيسة السريانية الشرقية

ان الموارنة فرع من الكنيسة التي كانت لغتها السريانية. اما الفرعان الآخران فهما الكنيسة السريانية الشرقية والكنيسة السريانية الغربية . وخدمة القداس في الكنيسة السريانية اقدم عهداً من خدمة القداس اليونانية او اللاتينية . وهذه الخدمة تعزى الى القديس يعقوب اخي يسوع (او ابن عمه ؟) ورئيس كنيسة القدس. ولا شك في انها اقدم خدمة في الكنيسة المسيحية . فانها في اصولها ترجع الى العشاء الرباني الاخير والى اجتماع الرسل في « العلّية » (اعمال الرسل ١ : ١٣) وقد احتفظت بطابعها السرياني حتى في الكنائس التي تعترف بسلطة البابا .

تأسس الفرع الشرقي للكنيسة السريانية ، او الكنيسة الشرقية كما يدعوهـــا اتباعها تفاخراً ، عند منصرم القرن الثاني ولكنها تدعي انها بتعاليمها وطقوسها وتقاليدها تعود الى عهد اقدم من هذا بكثير ، الى عهد الملك ابجر ملك ايدسا (أو الرها) الذي كان معاصراً للسيد المسيح . تقول الرواية ان هـــذا الملك ، ابجر الأسود ، بعث برسالة الى السيد المسيح يدعوه فيها الى زيارة ايدسا ، ليشفيه من داء النقرس الذي كان مصاباً به . غير ان السيد المسيح وعده بأنـــه سيرسل له رسولا بعد صعوده الى السماء[1] . وفي رسالة السيد المسيح له يقول انك ستشفى لانك آمنت بي ولم ترني . وتعرف هذه الكنيسة بالنسطوريـــة نسبـــة الى نسطور الكيليكي اسقف القسطنطينية من ٤٢٨ـ٤٣١ . وقد حُرم نسطور بعد ان حكم عليه في المجمع الكنسي المسكوني الذي عقد في افسس . وذلك بسبب تعاليمـــه القائلة بأن الأقنوم الالهي (الكلمة) والانساني اتحدا اتحاداً تاماً كاملا في المسيح ، ولكن لم يكن الاتحاد في طبيعة واحدة، اي ان في المسيح اقنومين ، أو شخصين.

١ ــ يحيى ابن سعيد الانطاكي ، في ابن البطريق ، الجزء الثاني ص ٢٦٣ــ٢٦٤

وهذا يخالف المعتقد الارثوذكسي (المعتقد القديم الذي تقول بـه الكنيسة) الذي يقول انـه بالرغم من ان في المسيح طبيعتين فـان هاتـين الطبيعتين اتحدتا في شخص واحد . والكنيسة الشرقيـة تعتبر الاسقف نسطور من آباء الكنيسة اليونانية لا من الآباء السريان . وقد كان لهذا المعتقد ، معتقد نسطور ، اتباع واشياع عديدون في سورية ، ومنها انتشروا شرقاً الى بلاد ما بين النهرين . وهذه التسمية ، الكنيسة النسطورية ، التي اطلقت اولا على الكنيسة الشرقية لرفضها تحريم نسطور[1] ولعنه ، اصبحت فيما بعد تسمية غير مستحبة بـين اتباع هـذه الكنيسة ، لاسيما بعـد ان انضم فرع منها ، وهم الكلدانيون[2] ، الى الكنيسة الكاثوليكية في رومة واصبحت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تُطلق هذا التعبير على انه سمة للهرطقة . وفي الاحصاء التقريبي لسنة ١٩٥٢ نجد ان لبنـان فيه ١٣٩٠ نسمة من الكلدانيين . وفي القرن التاسع عشر اطلقت الارسالية الانكليكانية التي كانت تعمل في شمال العراق اسم « الكنيسة الاشورية » على السريان الشرقيين مما زاد في فوضى الاسماء .

وقد انتشرت الكنيسة الشرقية من ايدسا شرقاً الى ايران . وعند ظهور الاسلام كانت الكنيسة الشرقية لا تزال تحتفظ بنشاط وحيويـة استطاعت معها ارسال بعثات تبشيرية الى الصين ، وقبل ذلك ارسلت مثل هذه البعثات الى الهند . وكان جل التراجمة الذين ترجموا الكتب الفلسفية الرئيسية والكتب الطبية من اليونانيـة الى العربية عن طريق السريانية من اتباع هذه الكنيسة مثل حنين ابن اسحاق (واسمه اللاتيني Joannitius ‏٨٠٩ ــ ٨٧٣) وبذلك يعدون حلقـة اتصال بين الفكر الاغريقي والفكر العربي .

الكنيسة السريانية الغربية

كانت العقيدة اللاهوتيه التي قال بها الفرع الغربي للكنيسة السريانية هي عقيدة

---

١ — George P. Badger, *The Nestorians and Their Rituals* (London, 1852), vol. II, pp. 49-51, 128-9.

٢ — يجب التفريق بين الكلدانيين القدماء الذين نشأوا في جنوبي العراق في التاريخ السابق للتاريخ الميلادي وبين الكنيسة الكلدانية واتباعها ، اذ قد لا يكون هنالك قرابة عرقية بين الاثنين .

اصحاب الطبيعة الواحدة (المونوفيسيت) التي كانت تقول بوحدة طبيعة المسيح والتقليل من اهمية الطبيعة البشرية . والحقيقه ان اصحاب الطبيعة الواحدة هم الذين رفضوا الاخذ بالرأي القائل ان في المسيح طبيعتين (لاهوتية وناسوتية) ، ذلك الرأي الذي اقره المجمع الكنسي الخلقدوني الذي عقد سنه ٤٥١ . وعند مستهل القرن السادس ازداد اتباع اصحاب الطبيعة الواحدة ازدياداً كبيراً في شمال سورية وذلك بفضل شخصية ونشاط سفيروس اسقف انطاكية (٥١٢ ــ ٥١٨) واحد خريجي اكاديمية بيروت . اما الفضل في حركة التنظيم في سورية فيعود الى يعقوب البردعي (او البردعاني)اسقف ايدسا (الرها ، حوالي ٥٤٣ ــ ٥٧٨) . وقد اصبحت الكنيسة السريانية المونوفيسيتية تسمى باسمه فيما بعد ، اي الكنيسة اليعقوبية ، واتباعها يسمون اليعاقبة . امـا يعاقبة اليوم فانهم يؤثرون ان يسموا بالسريان الارثوذكس ، او السريان القدماء . وقـد انتشرت المونوفيسيتية من سورية الى ارمينية حيث اخذت بها الكنيسة الغريغورية والى مصر حيث اخذت بها الكنيسة القبطية . ويبلغ عدد السريان الغربيون (او السريان الارثوذكس) في لبنان حوالي ٥٠٠٠ ، وعدد السريان الكاثوليك نحو ٦٥٠٠ . والسريان الكاثوليك مرجعهم رومة ، ويقيم بطريركهم في بيروت او في دير الشرفة .

الملكيون.

وقد كان الى جانب الكنيستين السريانيتين الشرقية والغربية وما تفرع عنهما جماعة اخرى مسيحيـة وقعت تحت تأثير اللاهوت الاغريقي الذي كان مصدره انطاكية والقسطنطينية . وقـد قبلت هذه الجماعة ، مقررات المجمع الكنسي الخلقدوني (٤٥١) بـدون تحفظ . وبسبب ذلك عرف هؤلاء بارثوذكسيتهم (اتباعهم الايمان الكنسي القويم) ونجوا من الحرم ونالوا حماية كنيسة الدولة وعطف العاصمة الامبراطورية . وقد اخذ خصومهم ، من المسيحيـين السريان فيما بعد وخاصة في ايام يوستنيان الثاني (٦٨٥ ــ ٦٩٥) يطلقون عليهم لقب « ملكيون» وكان جل اتباع هذه الطائفة من سكان المدن ومن ابناء الجاليات اليونانية . وقد استعيض تدريجياً عن السريانية بالاغريقية كلغة للفروض والطقوس ، وحلت خدمة القداس البيزنطية محل الخدمة السريانية . وبالرغم من ان هذه الطائفة كانت تحظى

بعطف الامبراطور وحمايته فقد ظلت طائفة مستضعفة ، وصارت تسمى بالروم الارثوذكس . ومناطق توطنهم في لبنان هي في الكورة وفي المتن . وخدمة القداس عندهم هي الخدمة المعروفة بخدمة القديس باسيل التي تعزى الى باسيليوس اسقف قيسارية كبدوكيا المدينة التي ولد فيها . وتوفي باسيليوس عام ٣٧٩ . وقد ادخل القديس يوحنا كريصوصطم اسقف القسطنطينية (٣٩٨ ـ ٤٠٤) بعض التعديل على خدمة القداس . ومن الغرابة انه في العصور المتأخرة اصبحت التسمية « ملكي » (او روم ملكي) تطلق على المسيحيين الذين تركوا الكنيسة الارثوذكسية بسبب الاعمال التبشيرية التي كان يقوم بها المبشرون الكاثوليك وانضموا الى رومة (١٧٢٤) ويعرفون احياناً بالروم الكاثوليك . ذلك لان خدمة القداس عندهم لا تزال بالاغريقية . وخدمة القداس عندهم لا تختلف عن خدمة القداس في الكنيسة الارثوذكسية الا بذكر قداسة البابا . ولكنهم يدعون بان صلتهم بكنيسة رومة ترجع الى اقدم العصور ، وان هذه الصلة لم تنقطع يوماً . اما بطريركهم فيقيم في لبنان تارة وفي مصر تارة اخرى . ومنطقتهم الرئيسية مدينة زحلة التي يبلغ عدد سكانها ٣١ الف نسمة . ومن الاحصاء التقريبي في لبنان لسنة ١٩٥٢ يظهر ان عدد الروم الارثوذكس هو ١٣٠,٨٥٨ وعدد الروم الكاثوليك هو ٨١,٧٦٤ .

جزيرة مسيحية في بحر اسلامي

لما طغت موجة الفتوحات العربية مجتاحة سورية الداخلية والشواطىء البحرية وحلّ الاسلام تدريجاً محل المسيحية ، ظهر لبنان وكأنه جزيرة مسيحية صغيرة في بحر من الاسلام . فنزحت الى اقسامه الشمالية جماعات مسيحية من المناطق المجاورة؛ فالبعض هرب من دفع الجزية ، أو تجنباً لأن يكونوا مواطنين من الدرجة الثانية ، والبعض هرب مما فرضه الخليفة الاموي عمر بن عبدالعزيز (٧١٧ ـ ٧٢٠) من قيود وتمييز بين المواطنين . وهذا التمييز وهذه القيود التي فرضها عمر بن عبدالعزيز بشكل تشريع على اهل الذمة كانت الاولى من نوعها . وخلاصتها انه منع المسيحيين من الوظائف الحكومية العامة . وحظّر عليهم لبس العمائم ، وطلب اليهم ان يلبسوا ثياباً ذات زنانير من جلد تميزهم عن سائر الناس ، وان يركبوا

الدابة دون ان تسرج او ان يكون عليها بردعة ، وألا يبنوا كنائس ، وان تكون صلواتهم باصوات منخفضة لا تسمع في الخارج . هؤلاء النازحون الى شمال لبنان اندمجوا بالطائفة المارونية . ومن جملة العائلات اللبنانية العريقة التي ترجع بنسبها الى عائلات في حوران : آل الخازن الذين يدّعون انهم من الغساسنة (اي من عرب الجنوب) ، وآل ملحمة الذين يدعون ايضاً انهم من عرب الجنوب وان جدودهم اتوا الى العاقورة بطريق دمشق . وتقول بعض الروايات ان اشهر العائلات المارونية قدمت من بلدة صدد[1] التي لا تزال الى يومنا هذا بلدة سكانها مسيحيون من اليعاقبة . ومن هذه الاسر عائلة السمعاني وعواد ومسعد والشدياق وثابت والدبس . ويُرجِع آل التيان وآل سركيس نسبهم الى عائلات كانت تسكن القريتين[2] .

ان انتصار المسلمين في الحرب في منطقة حوض المتوسط الشرقية الذي تم خلال حوالي عشر سنوات كان حقاً انتصاراً للقومية العربية وانتصاراً للدولة الدينية الاسلامية . كان هذا الانتصار المرحلة الاولى من مراحل الفتوحات . فقد انتهت المعارك الحربية اما المعارك الاخرى فلم تكن قد بدأت بعد . كانت الفتوحات المادية ممهدة للمرحلة الثانية اي الفتح الديني . وهذه المرحلة الثانية من مراحل الفتوحات كانت أبطأ في سيرها ولم تكن متعمدة تماماً . فان انتشار الاسلام اقتضى قرونا لا عشرات السنين . فالخلفاء الامويون باستثناء عمر بن عبد العزيز لم يهتموا كثيراً بان يغير الناس دينهم فيعتنقوا الاسلام لا سيما الجماعات التي تملك الاراضي الزراعية . وذلك لاسباب اقتصادية معروفة . وفضلا عن هذا فان الحكم الاموي بوجه عام ، كان حكما يتصف بالتسامح الديني . وهذا التحرر وهذا التسامح اللذان ظهرا في ذلك الوقت تعدّيا القضايا الاقتصادية والمادية الى قضايا الدين والفكر . فقد كان حكم معاوية ، مؤسس الدولة الاموية ، وسلوكه في تصريف الحكم ، مثالا احتذاه خلفاؤه . فقد واجهته مقاومة عنيفة على ايدي الشيعة في العراق ، وتعصب شديد ورجعية على ايدي اهل الحجاز ، فاعتمد

---

١ ــ وهي صدد الوارد ذكرها في سفر العدد ٣٤ : ٨ وتقع على بعد ٣٥ ميلا جنوبي شرقي حمص .

٢ ــ الكونت فيليب دي طرازي : أصدق ما كان عن تاريخ لبنان (بيروت ١٩٤٨) الجزء الثاني ص ٢٤ــ٢٥ ، ٥١ وما يليها ، ٧٦ وما يليها .

رعاياه النصارى لتثبيت سلطانه في وجه هذا كله . فتزوج ميسون ، وهي نصرانية من طائفة اليعاقبة، التي احتفظت بدينها وولدت له وريثه يزيد . وقد كان شاعر بلاطه الاخطل مسيحيا . وكذلك كان طبيبه الخاص . وكان وزير مـاله منصور بن سرجون جد القديس يوحنا الدمشقي . والحق ان الحكم العباسي لم يكن كالحكم الاموي في تسامحه وتحرره . وانا ان نعتقد بان هجرة المسيحيين الى لبنان ازدادت ايام العباسيين لا سيما في خـلافة هرون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) وفي خـلافة المتوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١) الذي عاد ففرض على النصارى ما كان قد فرضه عمر بن عبد العزيز ،لا بل اضاف اليها اموراً اخرى. فانه (المتوكل) امر ان يعلق النصارى على ابواب بيوتهم تماثيل خشبية تمثل الشيطان، وامر الا ترتفع قبورهم عن مستوى وجه الارض ، والا يركبوا سوى البغال والحمير ، وان يعلقوا على اردان البستهم قطعاً من القماش الملون دلالة على انهم نصارى . ولنا ان نعتقد انـه عند منصرم القرن العاشر اصبحت سورية ومصر والعراق بلدانا اسلامية في حياتها ومظاهرها العامـة . اما في مصر فان القوانين التي سنها الخليفة الفاطمي الحـاكم بامر الله (٩٩٦ ـ ١٠٢١) اجهزت على ما تبقى من معالم النصرانية وجعلت البلاد بلادا اسلامية محضة .

اما المرحلة الثالثة من مراحل الفتح العربي فقد كان انتشار العربية وسيادتها في المنطقة . وهذه المرحلة كانت ابطأ المراحل في سيرها وتقدمها . فان الامم المغلوبة على امرها ابدت من المقاومة اللغوية ما لم تبده في المقاومة الحربية او الدينية . ولا شك في ان انتصار القرآن على انه كتاب الاسلام سبق انتصار العربية كلغة محكية بين الناس . فقد كان على اللغة العربيـة ، التي كانت لغة قوم بدائيين وعلى شيء يسير من الحضارة ان تسمو اولا وان ترتقي علميا وفكرياً قبل ان تفرض نفسها على الاقوام المغلوبة . وقد كان لحركة الترجمة من الاغريقية الى العربية عن طريق السريانية أيام الرشيد والمأمون (٨١٣ ـ ٣٣) في بغداد اكبر اثر في تطوير العربية وفي جعلها اللغة الشائعة السائدة . فقد ظل الكتاب والعلماء يؤلفون برعاية الخليفة قرونا طويلة قبل ان اصبحت اللغة العربية لغة الفلاحـين والعمال . ولم يتم انتصار العربية كلغة يتكلمها الناس المغلوبون على امرهم الا عند منصرم العهد العباسي ، اي في اوائل القرن الثالث عشر .

وما جئنا على ذكره من إنتشار الاسلام وسيطرة العربية لا يصدق على لبنان . لانه ظلّ قروناً — بعد ان كانت سائر المناطق قد اسلمت في دينها وتعربت في لغتها — مسيحياً في دينه وسريانياً في لغته . وقد كان ابو الفرج ابن العبري[١] (المتوفى ١٢٨٦) الاسقف اليعقوبي في الموصل يعتبر السريانية لغة لبنان .

الدروز

بعد ان توطن الموارنة في شمال لبنان ، واصبح له مركز في التاريخ ، بدأت طوائف اسلامية تخالف السنة في عقائدها وهي الشيعة والاسماعيلية ، وجماعات عرقية مختلفة من فرس وعرب تنزح الى لبنان الجنوبي . هذه الاقوام اندمجت فيما بعد ، ومن اندماجها نشأ الدروز في منتصف القرن الحادي عشر . هؤلاء النازحون الجدد اندمجوا ، كما فعل قبلهم الموارنة بالسكان الاصليين من العرق الآرامي . ان الشكل العام السائد في جماجم اللبنانيين – دروزاً كانوا ام موارنة – في يومنا هذا ، حسب نتائج الابحاث الانثروبولوجية التي اجريت في هذا الحقل[٢] . هو من نوع الجماجم القصيرة العريضة التي تعرف في علم الانثربولوجية بالجماجم العريضة . وهذا يخالف الشكل السائد لجماجم بدو الصحراء السورية المستطيلة مخالفة بارزة . وكذلك يخالف شكل جماجم عرب الشمال . ان القياسات التي احراها يُونغ (Ewing) على جماجم الموارنة المولودين في لبنان وجماجم الموارنة المولودين في الولايات المتحدة تدعم النظرية التي تقول بان عادة تنويم

---

١ — نشر الصالحاني ، ص ١٨ .

٢ — Carl C. Seltzer, *The Racial Characteristics of Syrians and Armenians* (Cambridge, Mass. 1936), pp. 10 seq.; do., *Contributions to the Racial Anthropology of the Near East* (Cambridge, Mass., 1940), pp. 20-1, 37-50; William M. Shanklin and Nejla Izzeddin in *American Journal of Physical Anthropology,* vol. XXII (1937), pp. 397 seq.; C. N. Ariëns Kappers, *The Anthropology of the Near East* (Beirut, 1932), pp. 8-10; J. Franklin Ewing, *Hyperbrachycephaly as Influenced by Cultural Conditions* (Cambridge, 1950), pp. 7-8, 26-7, 31-2, 35, 79 .

الطفل على ظهره وتقميطه في السرير يسبب فلطحة في قفا الجمجمة. وهذا ما يجعلها من نوع الجماجم القصيرة جداً . وبظهور الدروز كطائفة جديدة في لبنان ، فان تاريخه منذ ذلك الحين بدأ يتركز على هاتين الطائفتين وعلى علاقة الواحدة منهما بالاخرى ، نعني الدروز والموارنة .


الرسالة الموسومة بالمسيحية ... بهاء الدين ...
توكلت على المولى الإله الحاكم المنزه عن العدد والولد
وشكرت عبده الشيخ الأجل ... المقتنى عبده
وسلمت على السيد الهادي الشيخ ...
... على اهل التوحيد
... العارفين ...
في ... على ما اتفق عليه ...
الباذلين ...

الصفحة الاولى من رسالة لبهاء الدين عن المسيحية .

ان اسم « الدروز » يُرَدُّ الى اسم داعٍ تركيٍّ الاصل : محمـــد ابن اسماعيل الدرزي (وهي لفظة فارسية معناها خيّاطٌ) الذي كان احد اعوان الخليفـــة الفاطمي السادس في القاهرة ، الحاكم بامر الله (٩٩٦ ـ ١٠٢١) . وهي تسمية لا يرضى عنهـا الدروز انفسهم ، لانهم انتقضوا عليه ، وانكروا دعوته ، وذلك

لتعاليمه الاباحية . أما الدروز فانهم يؤثرون بان يُسَمَّوا بالموحدين ، اي الذين يؤمنون باله واحد . وقد كان الدرزي اول من قال بعبادة الحاكم . ان الاعتقاد بالحلول (اي ان الله يتجسد) قديم العهد بين غلاة الشيعة . وهو اعتقاد يحاول فيه اتباعه ان يسدوا الفجوة البعيدة التي تفصل الانسان المحدود عن الله غير المحدود ، كوسيلة لاقامة علاقات شخصية انسانية مع ذات الله . ويعتقد الدروز ان الله ذاته تجسد تسع او عشر مرات ، كان آخرها وافضلها تجسده بشخص الحاكم . وليس هذا المعتقد الدرزي الاساسي سوى استمرار للعقيدة الاسماعيلية اتباع الامام السابع اسماعيل (توفي ٧٦٠) الذين يعرفون ايضاً بالسبعية [١] .

ان الصورة التي تركها لنا المؤرخون — ويجب ان نتذكر ان جلهم لم يكونوا من الذين يعطفون على الفاطميين ولا سيما على قضية الحاكم — صورة مشوشة . فهو عندهم رجل غامض الاطوار لا يستقر على رأي ، ولكنه رجل يتميز بنزعته الاجتماعية . يقول لنا المؤرخون مثلا انه كان محباً للعلم يشجع العلماء ، وانه بنى دار الحكمة وجعلها مركزاً للابحاث وللترجمة ، وانه بنى الجوامع ووقف لها الاوقاف وانشأ معاهد للعلم ومؤسسات للفقراء . ولكن يقول لنا هؤلاء المؤلفون ايضاً انه هدم كنيسة القيامة في القدس (١٠٠٩) ونفى جميع المغنين والمهرجين ومنع الناس عن اكل الملوخية وحظر على النساء ان يتبرجن وان يذهبن الى الحمامات العامة ، وفرض على اليهود والنصارى فروضاً شديدة الوطأة . فكان عليهم ان يلبسوا الثياب السوداء وان يعتموا بالعمائم . وحظر عليهم ركوب الخيل — واذا اقتضى الامر فان لهم ان يركبوا الحمير — ومنع عنهم الوظائف العامة [٢] . وقد بويع الحاكم بالخلافة وهو بعد ابن احدى عشرة سنة ، وقتل في مؤامرة محكمة دبرتها اخته ست الملك التي كان قد ارتاب في مسلكها . ولكن اتباعه

---

١ — Hitti, *History of the Arabs*, pp. 441-3; do., *The Origins of the Druze People and Religion* (New York, 1928), pp. 27-8.

٢ — يحيى بن سعيد في ابن البطريق ، الجزء الثاني ص ١٩٥ وما يليها . ابن العبري ص ٣١٢— ٣١٣ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، الجزء الثالث (القاهرة ١٢٩٩) ص ٤—٧ . ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، نشر H. F. Amedroz (ليدن ١٩٠٨) ص ٤٤—٤٩ ، ٥٥ — ٥٦ .



الصفحة الاولى من كتاب السيد عبدالله التنوخي ، وهو كتاب يشرح فيه العقيدة الدرزية .

انكروا انه قد مات بل قالوا انــه في الغيبة ولن يلبث حتى يعود ظافراً عندمـا يحين الوقت[١] .

اما في مصر فلم تلق الدعوة اذنا صاغيــة . واما اسماعيل الدرزي الذي كان قد اعلن الوهية الحاكم فانه هرب ناجيا بنفسه من غضب الجماهير التي اهتاجت عند سماعهــا اعلان ربوبية الحاكم . ولكن دعوته لقيت تربة صالحة في وادي التيم

١ — ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نشر William Popper الجزء الثاني (بركلي ١٩٠٩) ص ٧٠ وما يليها .

Hitti, *Origins of the Druze People*, p. 31.

عند سفح جبل الشيخ . ولكنه قتل هناك بعد سنتين قضاهما في الدعوة الى الحاكم[١]. وقد قبح تعاليمه وشهر بها داع آخر فارسي اسمه حمزة اللبّاد الزوزني[٢] الذي كان الزعيم الفكري للدعوة الجديدة . فانه هو واضع فلسفة العقيدة الدرزية . وكانت فلسفته اللاهوتية باطنية في طريقها ، اي انها (الباطنية) تقول بان للنصوص معنى باطنيا غير معناها الظاهري ، وهذا المعنى لا يفقهه الا الأئمة والراسخون في العلم . والحقيقة في نظر الباطنية يجب ان يفتش عنها في المعنى الخفي الباطني لا في المعنى الحرفي الظاهري الذي ليس سوى حجاب يستر الحقيقة عن اعين الجهال الذين لم يوقفوا بعد على الاسرار الداخلية . وقد قتل حمزة في القاهرة اثناء هياج الشعب بعد موت الحاكم بمدة قصيرة .

كان خليفة حمزة في نشر الدعوة تلميذ ـ ربما كان سوريا مسيحيا ـ اسمه المقتنى بهاء الدين (توفي حوالي ١٠٤٢) . وقد عاش المقتنى برهة من الزمن متخفيا ، لكننا لا ندري على وجه التدقيق اين كان اختباؤه في مصر ام في سورية . وقد بعث بهاء الدين برسائل عديدة الى الاتباع او الى اشخاص يدعوهم فيها الى قبول الدعوة في اماكن مختلفة متباعدة مثل بيزنطة والهند . ومجموع هذه الرسائل يشكل بعض كتب الدروز الدينية التي يقرأونها ويتدارسونها في خلواتهم . فقد بعث مثلا برسالة الى الامبراطور قسطنطين الثامن (١٠٢٥ ـ ١٠٢٨) وهي الرسالة الموسومة بالقسطنطينية . وبعث برسالة اخرى يرد فيها على النصارى وهي الرسالة الموسومة بالرسالة المسيحية[٣] . ويعزى اليه كتابة اربعة كتب من كتب الدروز الدينية مما يضعه في المقام الاول بين كتبتهم اللاهوتيين . وآخر من شرح رسائل بهاء الدين كان عبد الله التنوخي[٤] الذي يعرف بالسيد (توفي ١٤٨٠) ومزاره في بلدة عبيه وهو مزار مكرم يفده الوف الزوار فيقدمون له الهدايا ويوفون بالنذور . وتنوخ كانت اصلا قبيلة عربية مسيحية .

١ ـ يحيي بن سعيد في ابن البطريق ، الجزء الثاني ، ص٢٢٣ حيث يذكر ان الجنود الاتراك قتلوه .
٢ ـ ابن حجر العسقلاني : رفع الاصر عن قضاة مصر ، وهو تكملة للكندي : كتاب الولاة والقضاة (بيروت ١٩٠٨) ص ٦١٢ .
٣ ـ Hitti, *Origins*, pp. 64—9 .
٤ ـ Hitti, *Origins*, pp. 71—4 .

وقبيل وفاته حدد بهاء الدين سياسة الطائفة الدينية الجديدة : اثناء غيبة الحاكم يجب الا تفشى اسرار الدين او ان تعلن للناس . ولا شك ان الاصرار على ابقاء الدين امراً سراً املته عليهم الظروف السياسية . فانهم كانوا فرقة صغيرة العدد تحاول البقاء في وسط عدائي قوامه السنة والشيعة والنصيرية . وقد اعلن بهاء الدين ان العالم لا يستحق ان ينال البركات والنعم التي وعــد بها الدين الجديد لاتباعه . ومنذ ذلك الحين « اقفل باب الدعوة » . فلا يقبل جديد ولا يقبل مرتد . وهم يمنعون كتبهم الدينية ــ التي هي دائماً بشكل مخطوطات اذ لا يجوز طبعها ــ حتى عن الدروز الجهال. اما العقال فيجوز لهم ان يقرأوا هذه الكتب . ولا يصل درجة العقال الا من كان منهم رجلا حسن الاخلاق عالي الهمة يوثق بصلاحه وبقدرته على كتمان السر .وقبل ان يُقبل الدرزي في عداد العقال يعرض الى امتحان قاس يختبرون فيه صبره وجلده وحسن سيرته . وبعــد ان يبرهن الرجل على انه اهل لهذا المقام فان العقال منهم يدخلونه في عدادهم بنوع من التكريس. وعلى العاقل ان يتمسك باهداب الفضيلة والاخلاق وعليه ان يسلك سلوكاً حسناً يتميز بالرصانة والوقار. وعليه ان يمتنع عن الكسب ان لم يكن كسباً حلالا . وعليه ألا ينبس بكلمة نابية أو بذيئة وألا يشرب خمراً او يدخن تبغاً . والاجاويد منهم يمتنعون عن ان يتناولوا طعاماً أو ان يشربوا ماء عند موظف حكومة لئلا يكون مأكلا او مشرباً حراماً. والمرأة الدرزية اذا كانت من اهل الصلاح والتقوى فانها تدخل في عداد العاقلات المتدينات . والدروز يختلفون عن المسلمين في انهم لا يسمحون بتعدد الزوجات . بل انهم يتزوجون امرأة واحدة. ويقيمون صلواتهم الجماعية ليلة الجمعة في ابنية على غاية من البساطة والتقشف تسمى خلوات، وتبنى عادة على تلال او رواب تشرف على قراهم . واقدم هذه الخلوات وارفعها مقامــاً عندهم خلوات البيّاضة قرب حاصبيا . والى الجنوب الشرقي من هذه الخلوات خلوة شبعا التي نهب كتبها جيش ابراهيم باشا عام ١٨٣٤ ، فكانت المرة الاولى التي تعرّف فيها العالم الى كتبهم . واقدم دراسة اوروبية للطائفة الدرزية وتاريخها وعقائدها قام بها عالم افرنسي اسمه سلفستر دي ساسي[١] . واول ذكر لهم في الادب الاوروبي يرد في رحلة يهودي

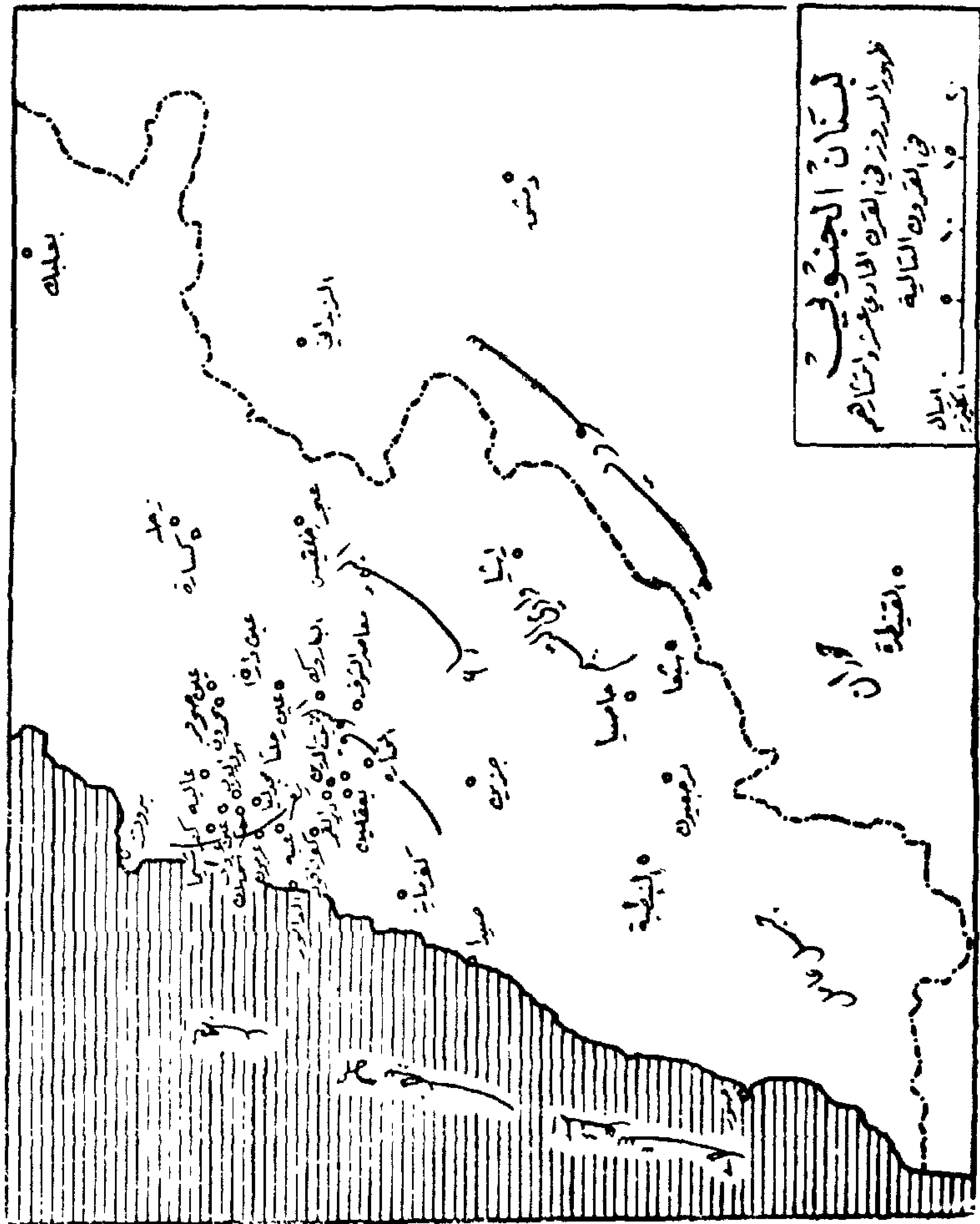
١ – Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druses*, 2 vols. (Paris, 1838).

اسباني الى الشرق اسمه بنيامين التودلي[١] (حوالي ١١٦٩) .

انتشار الدرزية

من مهدها الاول في جنوبي لبنان اخذت الدرزية بالانتشار في الجبال شمالا متحاشية الساحل والبقاع . في هذا الموطن الجبلي اكتسب الدروز على ممر الاجيال تلك الصفات والميزات التي عرفوا بها في جميع مراحل تاريخهم : ولاء صادق للجماعة وتضامن جماعي قوي ، وحب شديد للحرية والاستقلال ، وصبر على تحمل المكاره والشدائد . وفي اثناء انتشار الدرزية شمالا انضمت الى طائفتهم قبائل عربية او متعربة مثل التنوخيين والمعنيين وآل ارسلان وآل جنبلاط الذين تزعموا ولا يزالون يتزعمون الدروز وفي زمن الحروب الصليبية وصل الدروز في توسعهم الى منطقة الشوف جنوبي شرقي بيروت واستولوا عليها . وقد وجد الموارنة ، بعد ان كان المماليك قد قتلوا في كسروان عدداً كبيراً من الطوائف الاسلامية التي لا تنتمي الى الطائفة السنية ، ان الفرصة امامهم سانحة للتوسع جنوباً الى منطقة الدروز . وقد تابع الموارنة من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر توغلهم جنوباً الى مناطق الدروز . وقد كان هذا التوسع اثناء القرن التاسع عشر سبباً من اسباب الحروب الاهلية المفجعة . وقد بلغ الدروز القمة في القوة والمنعة ايام فخر الدين المعني امير لبنان من ١٥٩٠ ـ ١٦٣٥ الذي كان ملكه يمتد من انطاكية شمالا الى صفد في فلسطين جنوباً . وفي هذه الفترة توطن بعض الدروز في جبل الكرمل وفي منطقة الجليل . وفي عام ١٩٤٧ كان عدد الدروز في فلسطين ١١ الفاً وفي اوائل القرن الثامن عشر حدثت هجرة درزية من الشوف الى حوران اثر حرب اهلية بين الحزب القيسي واليمني . هذان الحزبان قديمان يمثل الاول منهما عرب الشمال الذين نزحوا قديماً الى سورية ولبنان والثاني عرب الجنوب . وقد ازداد عدد الدروز في حوران اثر هجرة درزية ثانية حدثت في القرن التاسع عشر وقوامها لاجئون وناقمون من الدروز لجأوا الى حوران بعد حوادث ١٨٦٠ . وقد

١ – *Itinerary*, ed., and tr. A. Asher (New York photographic reproduction of London 1840-1), vol. I, text, pp. 29-30; tr, pp. 61—2 .



توطن مهاجرو الدروز الى حوران القسم الجبلي وصار يعرف بجبـــل الدروز . وعددهم في حوران ٨٩ الفاً مقابل ٨٥ الفا في لبنان. اما مواطن الدروز الرئيسية في لبنان فهي قرى الشوف والمتن وبالرغم من ان عددهم قليل نسبياً فان الدور الاجتماعي والسيـــاسي الذي يمثله الدروز في كلا البلدين ، سورية ولبنـــان ، عظيم الشأن .

النصيرية

ان الطائفة النصيرية التي كانت تتوطن جنوبي لبنان عند ظهور الدعوة الدرزية تقيم الآن في منطقة جبـــال العلويين في سورية الى الشمال من لبنان. وهم كالدروز فرع من الاسماعيلية . ويرجح انهم سموا بالنصيرية نسبة الى رجل اسمه محمد بن نصير الذي كان احد اشياع الامام العلوي الحادي عشر الحسن العسكري (توفي ٨٧٤). وكان محمد بن نصير من الكوفة وهو من رجال القرن التاسع . واقدم ذكر للطائفة النصيرية يرد في كتابات حمزة بن علي وغيره من كتاب الرسائل والمواعظ الدرزية. وهي طائفه تحتفظ باسرار دينها وتمنعه عن الناس . اما نظامهم الاجتماعي والديني فمن النوع الذي يتميز بالطبقية . وهم من الباطنية، اي الجماعة التي تقول بأن للنصوص الدينيـــة معنى غير المعنى الظاهر او المعنى الحرفي . ولا شك في ان هذه الطائفة التي خرجت كثيراً عن حظيرة السنّة كانت وستظل لغزا في التاريخ الاسلامي[١] .

المتاولة

والمتاولة هم الشيعة في سورية ولبنان . بهـــذا الاسم تعرفهم عامـــه الناس . والمتوالي (وهي مفرد متاولة) هو من اتبـــاع عليّ . والسنة والشيعة هما الفرقتان الكبيرتان التي انقسم المسلمون اليهما حول الخلاف الذي نشب بعد وفـــاة النبي ، الخلاف الذي يدور حـــول من سيخلفه في جميع الاعمال التي يقوم بها ـ باستثناء النبوة ، لانه كان خاتم النبيين . وكانت الشيعة تقول ان الخلافـــة من حق علي ، صهر النبي ، ومن حق ابنائه من بعده . وفي نظرهم ان الخلفاء الشرعيين هم علي

١ – Hitti, *History of Syria, pp. 586 - 7.*

وابناؤه . ويؤثرون ان يسموهم ائمـــة . وجميع الخلفاء الراشدين (طبعا باستثناء علي) والامويون والعباسيون هم في نظرهم خلفاء مغتصبون غير شرعيين . امـــا السنة فينظرون الى الخليفة على انه الرئيس العلماني الزمني للمسلمين، بينما تنظر اليه الشيعة على انه ، بالاضافة الى كونه الرئيس العلماني ، القائد الديني والروحي ، وقيادته وسلطته مستمدتان من الله لا من اجماع الناس على انتخابـــه . وعليه فيكون ائمة الشيعة من ابناء علي وفاطمة (ابنة الرسول محمد) في نظر اتباعهم خلفاء يتمتعون بسلطة خفية سماوية يتوارثونها اباً عن جـــد . وقد غالى بعض الشيعة (ويعرفون بالغلاة) في اعتبار الامام الها متجسداً . وخلال التاريخ الاسلامي نجد ان الاهداف السياسية والمطامح السياسية والقضايا الاقتصادية كانت تزيد في حدة الاختلافات العقائدية بين السنة والشيعة . وشاهد على هذا تاريخ القرامطة الذين كانوا[1] من ابناء العمومة للاسماعيليين .

عند مستهل القرن السادس عشر اصبحت بلاد فارس حصن الشيعة المنيـع . ونحن اذا جمعنا الى الشيعة جميـع الفرق والفروع التي نشأت عنها مثـــل الاسماعيلية والدروز والنصيرية نجد انهم يشكلون عدديا اقلية ضئيلة في العالم الاسلامي . امـــا في لبنان فان جلّ المتاولة يقطنون جبل عامل شرقي مدينة صيدا وفي سهل البقاع ، ولا سيما في بعلبك وضواحيها ، وعددهم حوالي ٢٢٠ الف نسمة .

الفصل التاسع عشر

لبنان في عهد الخلافة العباسية والدويلات التي تلتها

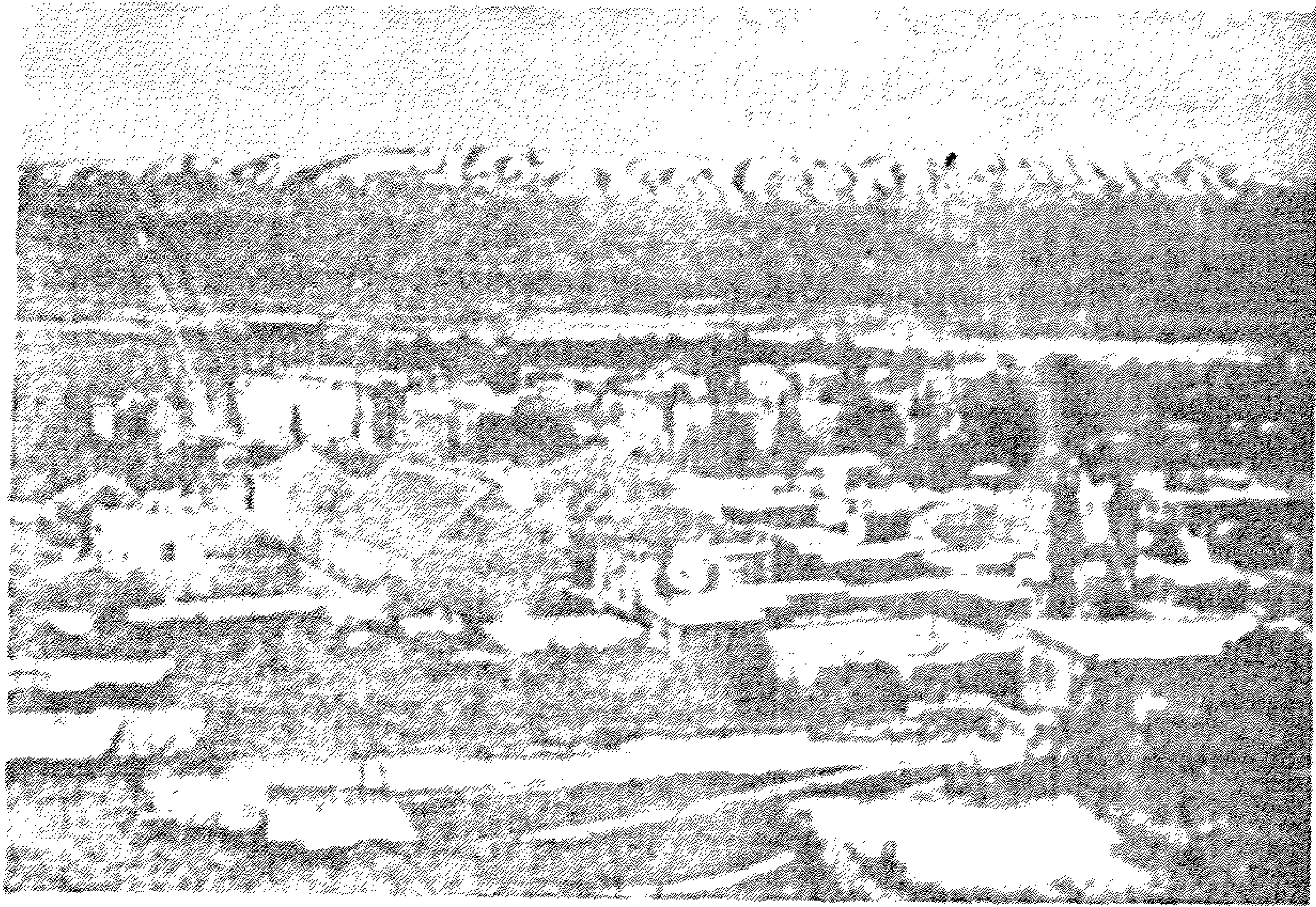
العباسيون يخلفون الامويين

كان من الاسباب الداخلية لانهيار الخلافة الاموية عام ٧٥٠ ضعف الخلفاء الأخيرين وعدم كفاءتهم في الحكم وسوء تصرفهم . وكان من الاسباب الخارجية التي عملت على تقلص ظل الامويين تكتل الاحزاب المناوئة لهم : العلويين والعباسيين وجل اهل العراق والفرس وغيرهم من الفئات الناقمة . وقد استمرت عوامل الهدم طويلا لا يأبه لها احد من الخلفاء الامويين. أما العباسيون ، وهم من ابناء العباس عم النبي ، فقد ادعوا بانهم احق بالخلافة من بني امية . واما الشيعة ، اتباع علي ، فقد كانوا يعتبرون الخلفاء الامويين في دمشق مغتصبين لا عهد لهم ولا ذمة. فانهم اقترفوا في حق اهل البيت افظع الجرائم واشدها هولا (تقتيل افراد من اهل البيت كالحسين مثلا) ، وقد كان اتباع علي على جانب عظيم من القوة والمنعة في العراق حيث اتخذ علي الكوفة مقراً لخلافته . وفضلا عن هـذا فان العراقيين نقموا على اخوانهم السوريين لانتقال مركز الخلافة من العراق الى دمشق .

اما المسلمون من غير العرب بوجه عام والفرس بوجه خاص ـ وقـد كانوا شعباً حراً مستقلا ينعم بقوميته ـ فقد كانوا يشعرون بامتعاض جديـد من جراء المعاملة السيئة التي كان الخلفاء الامويون في دمشق يعاملونهم بهـا . والى جانب هؤلاء كان علماء الدين يذكّرون الناس بماضي بني اميـة فيقولون لهم انهم كانوا آخر من قبل الدعوة ، وكانوا يشيرون الى ان حكم بني امية كان حكماً علمانيـاً يخالف الشريعة . وهكذا كان الجو مهيأ للانقلاب ، انمـا كانت تنقص هذه الجماعات الناقمة القيادة الجريئة الى ان برز ابو العبـاس عبد الله حفيد العباس الاكبر عم النبي .

موقعة الزاب الحاسمة

في شهر كانون الثاني من عام ٧٥٠ وقف الجيشان وجهاً لوجه عند الضفة الشمالية من نهر الزاب الاعلى ، وهو احد الروافد التي تصب في دجـلة . وكان مروان الثاني (٧٤٤ – ٧٥٠) يقود الجيش الاموي ، وعبد الله ابن عـلي ، عم العباس ، يقود الجيش الائتلافي الثائر ضد بني امية . وقـد ظلت المعركة مستعرة مدة تسعة ايام كانت الغلبة فيها للعباسيين، وكانت هزيمة الامويين نهائية . وبالرغم من الحرب الصورية التي قام بها الامويون حوالي دمشق فانهـا وقعت في ايدي الثائرين (٢٦ نيسان ٧٥٠). ثم اخذت المدن السورية بالاستسلام صلحاً الواحدة تلو الاخرى للقائد عبدالله ولجيشه العراقي وكذلك فعلت المدن اللبنانية . وتابع



مدينة بعلبك الحالية ، وفي مؤخرة الصورة جبال لبنان المغطاة قممها بالثلج

الجيش الظافر زحفه جنوباً الى فلسطين. اما الخليفة الأموي الهارب فقد القي عليه القبض في مصر العليا وقطع رأسه وأرسل مع شارات الخلافة – وهي بقايا مقدسة خلفها الرسول – الى ابي العباس ولكي يقضوا قضاء مبرماً على الامويين وإبادة ذريتهم فان عبد الله دعا قرابة ثمانين رجلا من امرائهم الى مأدبة اقامهـا لهم بالقرب من يافا . وبينما هم يأكلون اطلق عليهم رجاله فأعملوا فيهم السيوف وقتلوهم جميعاً .

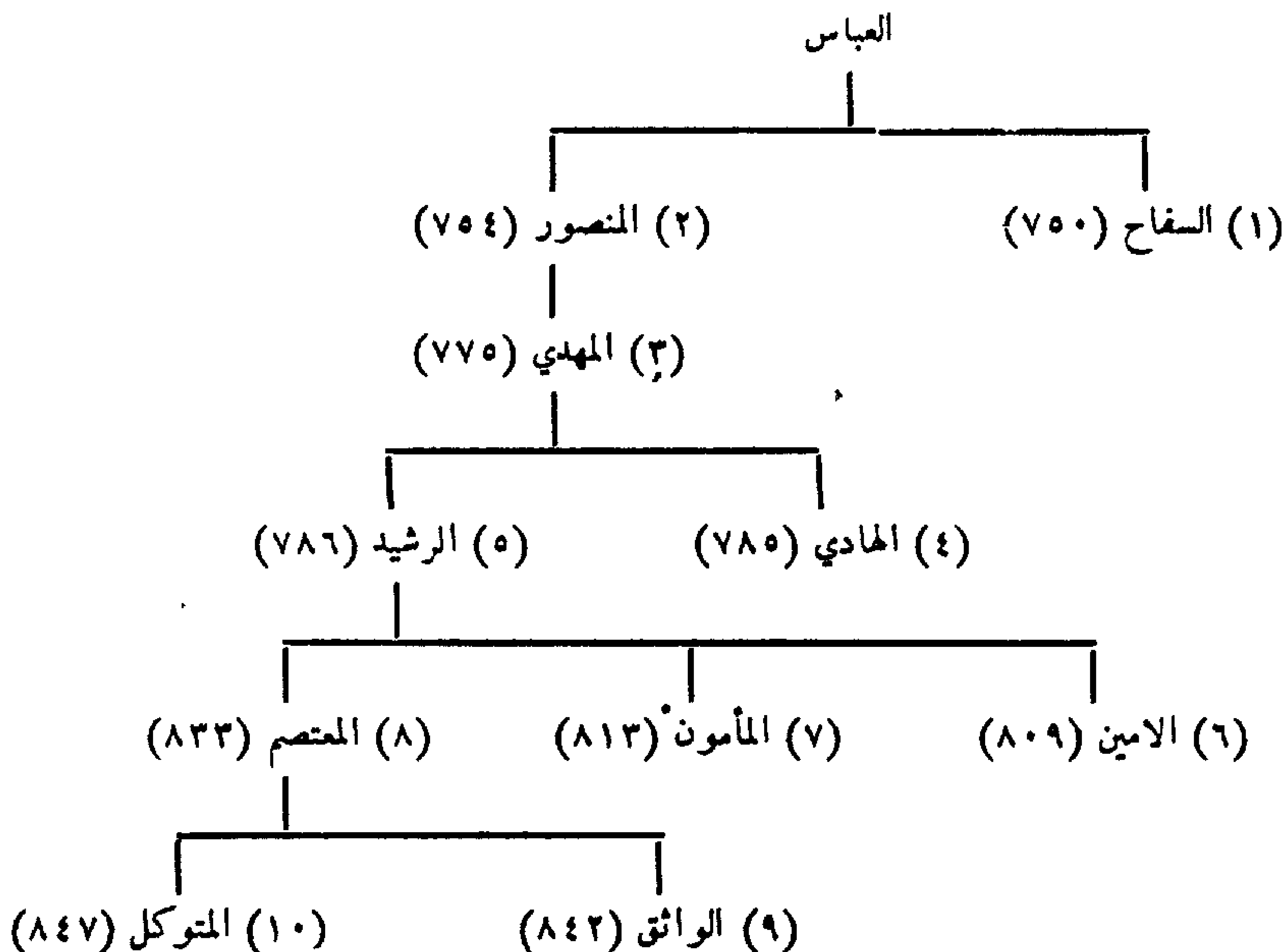
ولم يكتفوا بقتل الاحياء شفاء لغليلهم ، بل انهم نبشوا قبورهم ودنسوها[١] .

كان سقوط الدولة الاموية ضربة قاصمة على زعامة سورية وسؤددها ومجدها في العالم الاسلامي . وانتقل مركز الثقل شرقاً الى بغداد . وكانت الدولة الجديدة دولة العباسيين ، فارسية باتجاهاتها وميولها . وقد فاقوا الدولة الاموية في اعتمادهم القوة والبطش أداة لتنفيذ خططهم وسياستهم . فان مؤسس دولتهم ، أبا العباس (٧٥٠ ــ ٧٥٤) كان يلقب بالسفاح . وقد وليه في الخلافة اخوه ابو جعفر المنصور مؤسس عاصمة ملكهم، بغداد (٧٦٢) ، والجد الاعلى لخمسة وثلاثين خليفة من العباسيين جميعهم من صلبه . وقد عمر هذا البيت الحاكم اكثر من اي بيت حاكم آخر . وكان من بينهم خلفاء يعدون من اشهر خلفاء المسلمين . وقد وصلت الدولة العباسية اوج مجدها وعزها في عهد الخليفة الخامس ، هارون الرشيد (٧٨٦ ــ ٨٠٩) الذي خلد اسمه في قصص الف ليلة وليلة ، وفي عهد ابنه المأمون (٨١٣ ــ ٨٣٣) الذي اشتهر برعايته ترجمة الفلسفة اليونانية الكلاسيكية والطب والفلك والرياضيات الى العربية[٢] . وقد كان سقوط الخلافة العباسية على يد هولاغو المغولي سنة ١٢٥٨ .

---

١ ــ Hitti, *History of Syria*, pp. 527-33.

٢ ــ الخلفاء العباسيون :



الثورة في لبنان

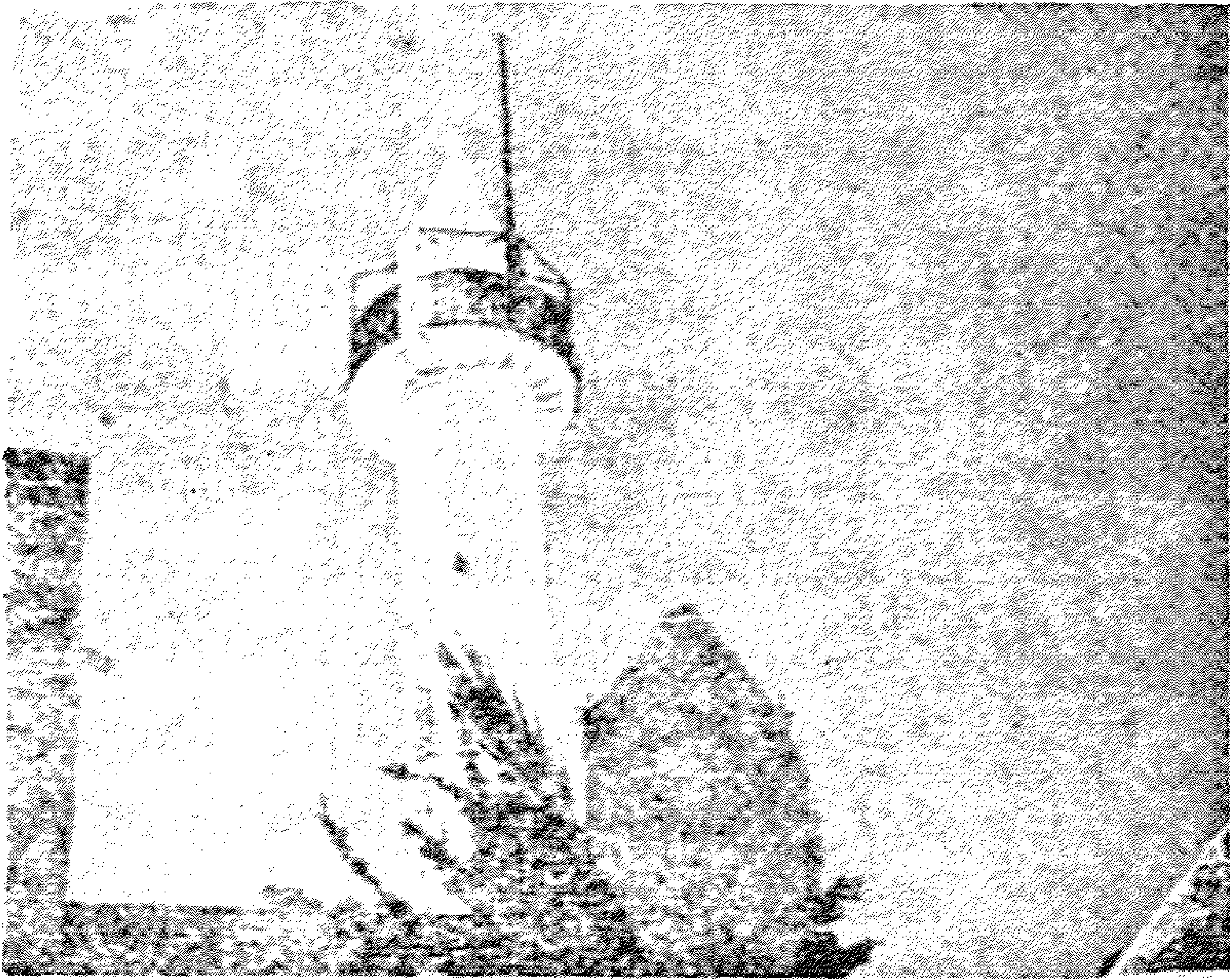
لم يفلح العباسيون في استمالة اهل سورية الى جانبهم ولم يستطيعوا ان يظفروا بولائهم لهم . فقد ظلت هذه المنطقة بكاملها ، بما فيها فلسطين ، في حالة غليان واضطراب ، ان لم نقل في حالة ثورة . يدلُّك على عظم نقمة السوريين على العباسيين قول جعونة للمنصور : « الله اعدل من ان يجمعك علينا والطاعون »[١] فأمر المنصور أن يقتل الرجل فوراً . واما فيما يتعلق بالنصارى فان الحالة كانت أسوأ وذلك بالنسبة الى الظلم الذي كانوا يلقونه على ايدي الحكام وفداحة الضرائب التي كانت تفرض عليهم .

شبت اولى الثورات في لبنان عام ٧٥٩–٧٦٠ في بلدة صغيرة في اعالي لبنان، المنيطرة[٢] القريبة من افقا . فقد ثار نصارى هذه القرية ضد تعسف عامل العباسيين وجوره في فرض الضرائب عليهم، واستولوا على عدة قرى في البقاع وتقدموا نحو بعلبك التي كانت مقراً لعامل العباسيين . وكان زعيم هذه الثورة شاباً جبلياً عملاقاً شديداً يلقب نفسه بالملك . وقد نصب له جنود العباسيين كميناً وهو في طريقه الى بعلبك فانقضت عليهم الفرسان ومزقوا شملهم . وكانت ردة الفعل عند العباسيين عنيفة ، فان العامل العباسي ، صالح بن علي – وهو اخو عبدالله القائد العام للجيوش العباسية – هاجم القرى الثائرة في منطقة المنيطرة وشتت سكانها في طول البلاد وعرضها ، ولكنه لم يتعرض لدينهم بسوء . وقد كان لهذا العمل العنيف اثر سيء في نفس الامام الاوزاعي ، الفقيه المحدث المشهور فكتب للخليفة :

« وقد كان من اجلاء اهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت . فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم واموالهم وحكم الله تعالى ان لا تزر وازرة وزر اخرى . وهو احق ما وقف عنده واقتدى به، واحق الوصايا ان تحفظ وترعى وصية رسول الله (ﷺ) فانه قال من ظلم مُعاهِداً وكلفه فوق طاقته فانا حجيجه »[٣] .

١ – ابن عساكر : التاريخ الكبير، طبعة عبد القادر بدران، المجلد الثالث (دمشق ١٣٣١) ص ٢٩٢ .
٢ – وقد ورد ذكر هذه البلدة عند كلامنا عن الصليبيين .
٣ – البلاذري ص ١٦٢ .

الامام الاوزاعي وهو عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي الذي يرجع بنسبه الى عرب الجنوب[١] . ولد الامام الاوزاعي في بعلبك سنة ٧٠٧، ثم انتقل ، وهو بعد يافع ، مع امه الى بيروت حيث ذاع صيته في جميع انحاء العالم الاسلامي اذ ذاك . ولم تقتصر شهرته على معرفته بالفقه والحديث وانما اشتهر بسمو اخلاقه وفضل مناقبه وشدة تقشفه . وقد لقب بامام اهل الشام ، «وكانت سلطته تفوق سلطة الخليفة[٢]» وعندما مر المنصور في بيروت سمع الاوزاعي يخطب في المسجد فاعجب به كثيراً واحبه . وقد استشاره بعد ذلك في بعض الامور . وعندما سمع الاوزاعي مرة ان الخليفة تردد في افتداء بعض اسرى المسلمين الذين وقعوا في يد الروم بعث اليه برسالة عن لسانهم يطلب فيها اليه افتداءهم . وعندما تسلم الخليفة الرسالة استجاب



مئذنة جامع الاوزاعي في بيرحسن بالقرب من بيروت

١ ـ راجع ياقوت : معجم البلدان ، الجزء الاول ص ٤٠٣ــ٤٠٤ . الطبري : المجلد الثالث ص ٢٥١٤ . وراجع ايضاً زين الدين الخطيب : محاسن المساعي في مناقب ابي عمرو الاوزاعي ، نشره الامير شكيب ارسلان (القاهرة) ص ٤٧ــ٤٨ .

٢ ـ ابن خلكان . الجزء الاول ص ٤٩٢ . ابو الفداء : تاريخ ، (القسطنطينية ١٢٨٦) الجزء الثاني ص ٧ . صالح بن يحيى ص ١٥ .

للنداء فوراً .ومما يدل على انقطاع الاوزاعي الى العلم وشدة شغفه، ما رواه حفيده عن لسانه قال: « من تعلّم باباً من العلم كان افضل من عبادة حولٍ يُصامُ نهاره ويُقام ليله»[1] .

ان النظرة اللبنانية الشاملة ، والروح اللبنانية السمحة تتجسدان في سماحة روح الاوزاعي وفي نبل اخلاقه . فانه كان يشدد على فكرة العدل والرفق والعطف عندما كان الامر يتعلق بالرعايا من غير المسلمين . وكان يحب البلاد التي يعيش فيها ويعتز بمجدها الغابر . واننا لا نعرف فقيهاً من فقهاء المسلمين اظهر من نبل العاطفة ما اظهره الاوزاعي في دعوته الى الاخوة الانسانية . فان معاصره العراقي مثلا ، ابا حنيفه (توفي ٧٦٩) ، مؤسس المذهب الحنفي الذي يعتبر من افضل المذاهب الاسلامية سماحة وتحرراً.قد يتغاضى عن قطع النخيل وغيره من الاشجار عند مقاتلة المشركين . ولكن الاوزاعي ، الفقيه اللبناني ، يمنع عملا كهذا .[2] فقد كان ابو حنيفه يحرم اكل اللحم اذا كان من ذبح مرتد ، ولو كان مرتداً ذمياً ، ولكن الاوزاعي كان يحلله . وقد كان ابو حنيفة يعتبر ارض الرجل الذي دخل في الاسلام ، اذا كان هـــذا الرجل يقطن بلاداً وقعت فيها الحرب بين المسلمين والمشركين ، داخلة ضمن الغنائم ، اما الاوزاعي فكان لا يقر هذا الرأي ، ولا سيما اذا كان الداخل في الاسلام من النصارى او اليهود .[3] وفي رأي الاوزاعي انه اذا حـــارب ذمي في صفوف المسلـــين فان حصته من المغانم يجب ان تكون حصة المسلم .

وما كان الامام الاوزاعي ليقر قتل الرهائن وهو ممن يقولون بان نكث العهد يجب الا يقابل بنكث العهد بل بالمرؤة والشهامة . وقد شاع مذهب الاوزاعي في سورية ولبنان حيث ظل الفقهاء والقضاة يأخذون به مدة قرنين من الزمن الى ان

---

١ ــ ابن عساكر ، نشر احمد عبيد ، الجزء السابع (دمشق ١٣٥١) ص ٢٩٨ .

٢ ــ الطبري : اختلاف الفقهاء ، نشر جوزف شاخت (ليدن ١٩٣٣) ص ١٠٣ وما يليها .

٣ ــ ابو يوسف: الرد على سير الاوزاعي، نشر ابو الوفاء الافغاني (القاهرة ١٣٧٥) ص٨٥ ، ١١٥ ــ ١١٦ ، ١٢٦ ــ ١٢٧ . قابلْ ايضاً الشافعي : كتـــاب الام (بولاق ١٣٢١) الجزء السابع ص ٣٢٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

حل محله المذهبان الحنفي والشافعي[١] ومن لبنان وسورية انتشر مذهب الاوزاعي الى المغرب والاندلس حيث ظل الفقهاء يأخذون بهمدة اربعين سنة ، ثمّ حلّ محلّه المذهب المالكي . ولا شك ان روح التحرر والتساهل التي تظهر جلية في مذهب الاوزاعي كانت من العوامل التي ساعدت على انتشار الاسلام في الاندلس المسيحية . وفي يوم قارس البرد من شتاء ٧٧٤ دخل الاوزاعي غرفة الحمام حيث وضعت له زوجته كانونا فيه جمر فحم لتدفىء الغرفـة ولكن يظهر ان غاز المونوكسيد كان قويا في الغرفة فمات خنقا . وقد وجـدته زوجتـه ملقى على الارض ووجهه نحو القبلة[٢] . واما الثروة التي خلفها فقد كانت سبعة دنانير ! وقـد دفن عند كثبان الرمل التي تقع على الشاطىء جنوبي بيروت . ومقامه احد المقامات القليلة التي لا تزال قائمة الى يومنا هذا في مدينة بيروت حيث يقال ان جملة من مشاهير المسلمين ، بما فيهم بعض الصحابة ، قد دفنوا فيها[٣] . ومنـارة المقام تطل على مطار بيروت الدولي الذي انشىء بالقرب منه .

قسطا بن لوقا

وهنالك عالم آخر من اصل بعلبكي ، ولكن نصراني المذهب، هو قسطا بن لوقا الذي كان مفخرة بلاده وعصره (توفي حوالي ٩١٢) . كان قسطا يتقن الاغريقية والسريانية والعربية . وقـد سافر الى بلاد الروم في طلب الكتب والمخطوطات ثم استقر به المقام في بغداد مركز الحياة الفكرية ومركز النقل والترجمة . كان قسطا بن لوقا طبيبا وفيلسوفا وعالما بالفلك والرياضيات انما اشتهر اولا واخراً كمترجم من اللغة الاغريقية . فانه نقـل كتبا اغريقية في الفلسفة والرياضيات الى العربية . واليه يعزون ترجمة ما لا يقل عن ١٧ كتابا . وقد الف ٦٩ كتابا تجدر الاشارة الى اثنين منهـا : شرح وتعليق على اقليدس ، ومؤلف عن الاسطرلاب الكروي ــ وهو

١ ــ من اراد ان يطلع على هذه المذاهب الفقهية فليراجع كتابنا تاريخ العرب الطبعة الانكليزية ٣٩٧ ــ ٤٠٠ .

٢ ــ زين الدين الخطيب ، ص ٩٨ ، ١٥٩ ــ ١٦١ .

٣ ــ صالح ص ١٦ .

اقدم اسطرلاب من نوعه في العالم[١] — وقد مات قسطا عام ٩١٢ في بلاد ارمينية الى حيث كان قد ذهب بدعوة من ملكها الذي اكرم وفادته ، والذي بنى له قبراً فخماً يليق بمكانته العلمية .

انحلال الخلافة العباسية

في هذه الاثناء اخذت الخلافة العباسية تسير في طريق الانحلال . واذا نحن استثنينا فترات قصيرة قليلة ، نستطيع القول ان قوة الدولة كانت تسير بسرعة نحو الضعف والتفكك ، واخذت تظهر هنا وهناك في الشرق والغرب ، دويلات تركية وفارسية وعربية .

اتخذ الخلفاء الثلاثة[٢] الذين سبقوا المتوكل والخلفاء الخمسة الذين تولوا الخلافة بعده[٣] سامراء عاصمة للخلافة . وهي مدينة على دجلة على ستين ميلا شمالي بغداد ، وذلك لانهم كانوا يوجسون خيفة من قيام الثورة ضد الموالي في بغداد . وجل هؤلاء كانوا من الاتراك الذين اتخذهم هؤلاء الخلفاء حرساً خاصاً لهم . وكان سلوك هؤلاء الموالي الاتراك وتصرفهم مما يثير في نفوس اهل بغداد الاستياء الشديد . فقد ظلت بغداد ، بعد ان عادت الخلافة اليها ، مدة خمسين سنة مسرحاً لتمثيل مأساة مفجعة . فقدكان خليفة بعد آخر يحمل على التنازل عن امتيازات الخلافة وصلاحياتها ويجبر على تسليمها الى رئيس الحرس الذي كان يلقب نفسه امير الامراء . كان امير الامراء يخلع خليفة وينصب آخر مكانه

١ — راجع قائمة مؤلفاته في الفهرست لابن النديم نشر فلوغل (ليبسك ١٨٧٢) ص ٢٩٥ . وكذلك ابن القفطي : تاريخ الحكماء نشر Julius Lippert (ليبسك ١٩٠٣) ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .

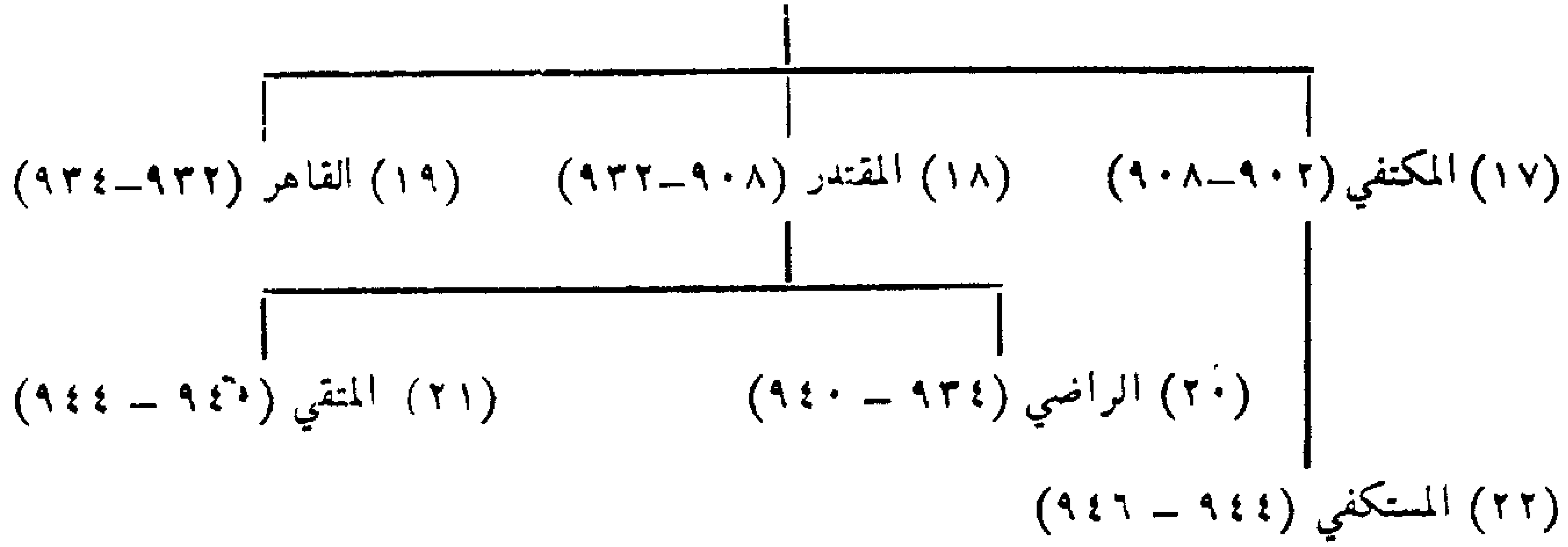
٢ — راجع شجرة الخلفاء العباسيين ص ٣٢٦

٣ — وهم المنتصر (٨٦١ — ٨٦٢) والمستعين (٨٦٢ — ٨٦٦) والمعتز (٨٦٦ — ٨٦٩) والمهتدي (٨٦٩ — ٨٧٠) والمعتمد (٨٧٠ — ٨٩٢) .

كما يشاء[١] . وقد تلا هذه الفترة قرنٌ من الزمن (٩٤٥ ــ ١٠٥٥) قامت فيه اسرة فارسية الاصل تدّعي انها من سلالة ملوكية ترجع بنسبها الى ما قبل الاسلام. استولت هذه الاسرة البويهية على بغداد وعلى جزء كبير من المملكة التي كانت تدين الى بغداد بالولاء[٢] . ثم جاء السلجوقيون الاتراك على اعقاب البويهيين (١٠٥٥ ــ ١١٩٤)[٣] فكان الخلفاء في العهد السلجوقي يملكون ولا يحكمون . وكانت مدة آخر الخلفاء الثلاثة[٤] كناية عن قلق وخوف مستمرين وذلك بسبب اجتياح المغول .

---

١ ــ واليك قائمة بخلفاء بغداد الذين كان الاتراك يتحكمون بهم :



٢ ــ الخلفاء العباسيون في الحكم البويهي ، الثالث والعشرون : المطيع (٩٤٦ ــ ٩٧٤) ثم الطائع (٩٧٤ ــ ٩٩١) وهو الرابع والعشرون ، ثم القادر (٩٩١ ــ ١٠٣١) وهو الخامس والعشرون ، ثم القائم (١٠٣١ ــ ١٠٧٥) وهو السادس والعشرون .

٣ ــ الخلفاء العباسيون اثناء السيادة السلجوقية :

(٢٦) القائم (١٠٣١ ــ ١٠٧٥)

(٢٧) المقتدي (١٠٧٥ ــ ١٠٩٤)

(٢٨) المستظهر (١٠٩٤ ــ ١١١٨)

(٢٩) المسترشد (١١١٨ ــ ١١٣٥)
(٣٠) الراشد (١١٣٥ ــ ١١٣٦)

(٣١) المقتفي (١١٣٦ ــ ١١٦٠)
(٣٢) المستنجد (١١٦٠ ــ ١١٧٠)
(٣٣) المستضيء (١١٧٠ ــ ١١٨٠)
(٣٤) الناصر (١١٨٠ ــ ١٢٢٥)

٤ ــ الظاهر (١٢٢٥ـ١٢٢٦) والمستنصر (١٢٢٦ـ١٢٤٢) والمستعصم (١٢٤٢ـ١٢٥٨) .

الاسرة الطولونية

كان عامل الخليفة العباسي في مصر قائداً تركياً اسمه احمد بن طولون (٨٦٨ ـ ٨٨٤) . واحمد بن طولون هذا مولى من بخارى اهدي الى المأمون (٨١٣ـ٨٣٣). وقد استغل ابن طولون ضعف الخلافة المركزية في بغداد وبعد الشقة بينه وبينها فاعلن استقلاله بمصر وانفصاله عن بغداد . وعندما توفي عامل سورية استولى احمد بن طولون على فلسطين وداخلية سورية (٨٧٨) دون اية مقاومة[١] ، فاصبح لبنان بذلك نسبة لعزله عن بغداد ، ولاية خاضعة لمصر . وقد ارسل احمد ابن طولون جنداً واحتل بيروت ، واعاد مدينة عكا ميناء بحرية مركزاً لاسطوله[٢]. وكان ابن طولون يعتمد في قوته التي كان يتحدى بها سلطة الخلافة في بغداد على اسطوله الذي عززه كثيراً ، وعلى حرس من الجيش التركي قوامه ٢٤٠٠٠ محارب وعلى جند من الزنوج عدده ٤٠ الفاً . وقد قبض على المنطقة بكاملها بيد من حديد. وقد عقد ابنه وخليفته ، خمارويه ، معاهدة مع الخليفة في بغداد جعل بموجبها مصر وسورية تحت لوائه مقابل جزية سنوية يدفعها الى الخليفة قدرها ٣٠٠ الف دينار . وقد كان خمارويه حاكماً خليعاً مبذراً فانفق مال الخزينة وخلفها على شفا الافلاس[٣]. وبعد فترة وجيزة تميزت بالفوضى والاضطراب في ظل حكم ابنيه واخيه شيبان (٩٠٤ ـ ٩٠٥) وجه الخليفة العباسي اليه جيشاً فقهره واعاد نفوذ العباسيين الى مصر .

عند اواخر هذه الفترة السياسية القلقة المضطربة هاجم القرامطة ـ الذين كانوا قد انشأوا لهم دولة مستقلة ذات سيادة على الشاطىء الغربي للخليج الفارسي ـ سورية (٩٠١)[٤] وخربوا مدينة حمص وغيرها من المدن السورية وكادوا ان

١ ـ الطبري ، الجزء الثالث ص ١٦٧٠ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٢ . ابن خلدون الجزء الثالث ص ٢٩٥ ، والجزء الرابع ص ٢٩٧ ـ ٢٩٩ .

٢ ـ ياقوت ، معجم البلدان ، الجزء الثالث ص ٧٠٧ ـ ٧٠٨ حيث يرد الاسم « عكة » .

٣ ـ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة T. G. T. Juynboll الجزء الثاني (ليدن ١٨٥٥) ص ٥٧ ـ ٥٩ . المقريزي ، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (بولاق ١٢٧٠) الجزء الاول ص ٣١٦ ـ ٣١٧ .

٤ ـ الطبري ، الجزء الثالث ص ٢٢٢١ ـ ٢٢٢٢ .

يبيدوا اهل بعلبك. ابادة تامة . وقد سموا بالقرامطة نسبة الى زعيمهم حمدان قرمط الذي كان فلاحاً من اهل سواد العراق .[١] وحركة القرامطة تمت في نشأتها الى الاسماعيلية بصلة وثيقة . فقد كان نظامها نظاماً سرياً ، وكانت في عقائدها تمثل مزيجاً من عقائد شيوعية وتعاليم غلاة الشيعة . ولا تختلف نشأة القرامطة عن نشأة غيرها من الفرق الاسلامية في كونها نتيجة عوامل اقتصادية ونتيجة استياء سياسي في الاوساط الشعبية .

الدولة الاخشيدية

كان قائد الجيش الطولوني الذي دافع عن دمشق لما هاجمها القرامطة رجل تركي من فرغانة اسمه طغج . وكان له ولد اسمه محمد . وقد تمكن محمد بن طغج من انتزاع الملك من الطولونيين والاستيلاء عليه بالقوة . وفي عام ٩٣٥ ، بعد ان ثبت اركان ملكه واشاع الامن والطمأنينة ، اتخذ الفسطاط مقراً له . وفي عام ٩٤١ الحق سورية والحرمين (مكة والمدينة) بمملكته . وقد اغدق عليه الخليفة العباسي لقب الاخشيد وهو لقب فارسي ، واقطعه مصر ، كما فعل مع اسلافه الطولونيين مدة ٣٠ سنة له ولخلفائه من بعده. وفي عام ٩٤٦ عندما توفي الاخشيد انتقل زمام الحكم الى زنجي خصي كان في خدمته واسمه ابو المسك كافور. وقد استولى اولا على الحكم باسم ولدي الاخشيد القاصرين، ولكنه تخلص منهما وحكم البلاد باسمه (٩٦٦ـ٩٦٨) . وقد خلد المتنبي (٩١٥ـ٩٦٥) اشهر شاعر في ذلك العصر ، اسم كافور مدحاً وهجاء ، كما فعل بعدو سيف الدولة في حلب ، بشعر لا يزال طلاب المدارس في العالم العربي باسره يستظهرونه الى يومنا هذا . وقد بدأ المتنبي شعره في كافور بقصائد مدح املا منه بان يحظى منه بجائزة أو عطف ، ولكن سرعان ما انقلب مدحه الى هجاء مر .

كان الحمدانيون (٩٤٤ ـ ١٠٠٣) ، وهم من قبيلة عربية ، ينازعون الاخشيديين السيادة على سورية الشمالية . وقد افلحوا في انشاء دولة حمدانية عاصمتها حلب. وكان اعظم حكامها وابعدهم شهرة سيف الدولة (٩٤٤ـ٩٦٧) .

١ ـ واسمه آرامي ومعناه « معلم سري » .

فقد ضم بلاطه شعراء لامعين كالمتنبي وفلاسفة كالفارابي (توفي ٩٣٠) وعلماء آخرين برزوا في مختلف العلوم والفنون . وكان سيف الدولة يرعاهم ويغدق عليهم العطاء . وبما ان الدولة الحمدانية كانت على حدود الروم فان الحمدانيين اخذوا على عهدتهم حماية الثغور ضد هجمات النصارى . ولنا ان ننظر الى الصراع الذي قام بين الحمدانيين واعدائهم الروم الى الشمال كمقدمة للحروب الصليبية التي تلت .

الفاطميون

كانت الدولة الفاطمية التي قامت في مصر (٩٠٩ — ١١٧١) اقوى دولة من تلك الدويلات التي نشأت لما دب التفكك في الدولة العباسية . والحق اننا يجب الا نحشرها في عداد هذه الدويلات المنشقة عن الخلافة العباسية لانها كانت في الواقع خلافة مستقلة تحدت الخلافة في بغداد وكادت ان تقضي عليها . اما مؤسس هذه الدولة الفاطمية فهو عبيد الله المنتسب الى فاطمة .[1] وقد اعلن نفسه المهدي المنتظر الذي تتطلع الشيعة الى ظهوره . ويظن انه ولد في سَلَمْية بالقرب من مدينة حمص ومنها سار الى المغرب حيث اسس عاصمة له في تونس دعاها المهدية واقام فيها من ٩٠٩ الى ٩٣٤ . وفي عام ٩٧٣ نقل خليفته الثالث . المعز (٩٥٢ — ٩٧٥) ، عاصمة ملكه الى مصر حيث كان قائده جوهر — وهو مولى مسيحي من صقلية — قد اسس عاصمة جديدة لاسياده الفاطميين سماها القاهرة . وجوهر هذا هو الذي بنى جامع الازهر، الذي يعد من اكبر المؤسسات الدينية المحافظة في العالم كله ، وهو الذي وسع ملك الفاطميين حتى بلغ سنة ٩٦٩ الشاطىء اللبناني بكامله ، وهو الذي طرد الاخشيديين من مصر وسورية . وفي خلافة العزيز (٩٧٥ — ٩٩٦) بلغت رقعة المملكة ذروتها في الاتساع . فقد كان الناس يعترفون بسيادة الفاطميين من المحيط الاطلسي الى البحر الاحمر فالحجاز

---

١ — ابن الاثير الكامل في التاريخ (طبعة Tornberg) الجزء الثامن (ليدن ١٨٦٥) ص ١٧—٢٠ . ابو الفداء الجزء الثاني ص ٦٧ — ٦٨ . ابن خلدون الجزء الرابع ص ٣١ . المقريزي، خطط ، الجزء الاول ص ٣٤٨ — ٣٤٩ يؤيد صحة نسب الفاطميين . ابن خلكان الجزء الاول ص ٤٨٧ . ابن تغري بردي (طبعة Popper) الجزء الثاني القسم الثاني ص ١١٢ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٣٠٥) ص ٢١٤ يشك ، او انه ينكر صحة هذا النسب .

واليمن ، وحتى الموصل في شمال العراق . اما ابنه وخليفته ، الحاكم (٩٩٦ — ١٠٢١) فاليه تعزى الحركة الدينية التي عرف اتباعها فيما بعد بالدروز .

وفي السنة الثانية من حكم الحاكم بأمر الله اعلن ملاح جريء اسمه علاقة من مدينة صور استقلاله وصك نقوداً باسمه كتب عليها «العز بعد الفاقة للامير علاقة» . وقد تحدى سلطة الجيش الفاطمي مدة من الزمن ، وبمعونة قطع من الاسطول البيزنطي وقف مدة من الزمن في وجه الفاطميين . ولكنه اجبر اخيراً على الاستسلام فسلم مدينته المحاصرة . اما هو فانه سلخ حياً وحشي جلده تبناً وقشاً وعرض على الناس[1] . وفي عام ١٠١٥ اقطع الحاكم مدينة بيروت وصور وصيدا احد عماله ، الفتح ، لقاء ضريبة يدفعها له قدرها ٣٠٠ الف دينار .

هجات الروم

منذ ان فقد الروم (البيزنطيون) سيطرتهم على الشاطيء الشرقي للبحر الابيض المتوسط لم ينقطعوا يوماً عن اسداء العون لكل حركة مناوئة للعرب تقوم في تلك المنطقة ، ولم ينفكوا يوماً عن التطلع الى استعادة ملكهم المفقود . ففي الاحدى



دينار ذهبي فاطمي من عهد الخليفة المستنصر بالله ، وقد ضرب في عكا ٤٧٢ للهجرة

والثلاثين سنة الاخيرة من سني القرن العاشر جرّدوا اربع حملات عسكرية يقودها الامبراطور بنفسه ضد سورية . وكانت اولى محاولاتهم العسكرية تلك التي قادها نقفور فوكاس (Phocas) عام ٩٦٩ والتي اسفرت عن اخضاع انطاكية وحلب واعادتهما الى الحكم البيزنطي . اما حملة يوحنا زيميسز (Zimices) (٩٧٤_٩٧٦) فقد اسفرت عن استرجاع حمص . ثم انه بعد ذلك تابع سيره عبر البقاع واستردّ

١ ــ ابن القلانسي ص ٥٠ ــ ٥١ . يحيى بن سعيد في ابن البطريق ، الجزء الثاني ص ١٨١ .

بعض اجزاء فلسطين . اما صيدا فقد فرضت عليها الجزية . وأما بيروت بالرغم من المقاومة التي ابدتها فانها نهبت وسبي كثيرون من سكانها . ولم تنج جبيل مما حلّ بغيرها من المدن اللبنانية . وفي عامي ٩٩٥ و ٩٩٩ قام باسيل الثاني بحملتين فاشلتين ضد طرابلس التي كانت على ما يبدو ، أحسن المدن على الشاطىء تحصيناً وذلك بفضل حاميتها وأسوارها المنيعة[1] . وقد كان على الفرنجة ان ينتظروا قرناً آخر قبل ان يتمكنوا من تثبيت اقدامهم على الشاطىء اللبناني .

السلاجقة الاتراك

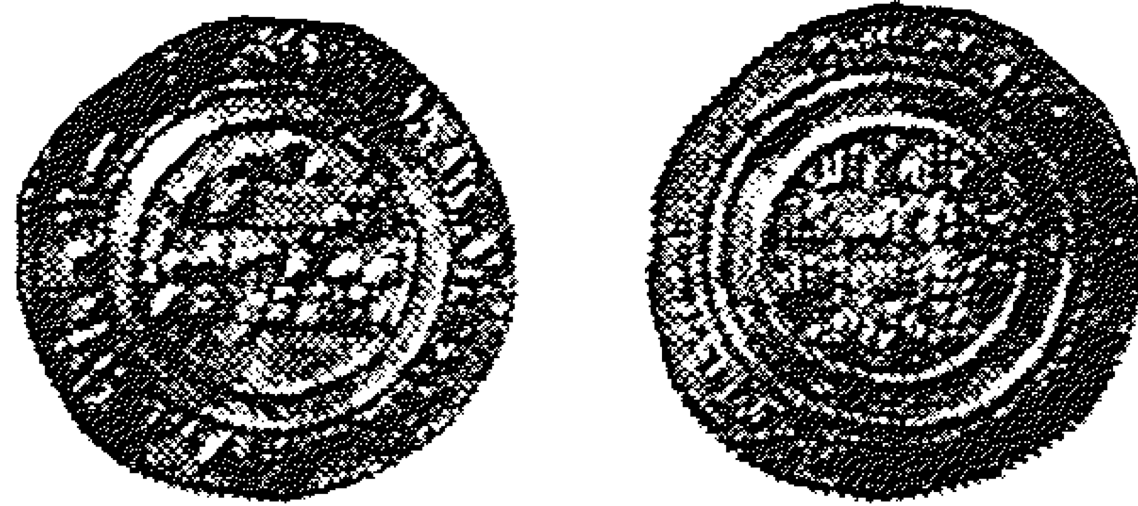
في الوقت الذي كان فيه الفاطميون يحاولون بيأس الاحتفاظ بجنوبي سورية وبالساحل ، كان السلاجقة الاتراك يوطدون اقدامهم في شمال سورية . ففي عام ١٠٧٠ استولى الب ارسلان ، ابن اخي طغرل الذي اقام نفسه سلطاناً في بغداد ، على حلب . اما قائده فقد تابع الزحف جنوباً في اتجاه فلسطين ، وفي عام ١٠٧٦ استولى على دمشق . اما حكام المدن اللبنانية من طرابلس وجنوبا فقد احتفظوا بسيطرتهم على مدنهم واستمروا في الاتكال على العون المصري ، ولكن في الوقت ذاته كانوا يحاولون استمالة الغزاة من الشمال وخطب ودهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وهكذا وجد لبنان نفسه مرّة اخرى يتأرجح بين قوتين جبارتين الى الشمال والى الجنوب .

« بلد النساك والاثمار الشهية »

ولكن بالرغم من اضطراب الحالة السياسية وبالرغم من تعاقب الحكومات العسكرية التي كانت تتولى الحكم فان حالة لبنان الاقتصادية لم تتأثر كثيراً . فقد كان لبنان في نظر جغرافيي العرب في القرن العاشر بلد النساك والاثمار الشهية . يقول ابن الفقيه[2] (حوالي ٩٠٣) : « وبدمشق لبنان ، وهو الجبل الذي يكون عليه العباد والابدال وعليه من كل الثمر والفواكه وفيه عيون كثيرة عذبة » . ثم

١ — ابن القلانسي ص ١٣ — ١٤ ، ٤٤ . وراجع ايضاً المقدسي ص ١٦٠ .
٢ — ص ١١٢ ، وراجع المقدسي ص ٤٤ .

انه يشير بعد ذلك الى نوع من التفاح اللبناني الذي له خاصة غريبة. يقول عن هذا التفاح انه عندما يقطف عن الشجر لا يكون له نكهة ولا رائحة ولكن اذا حمله المرء وعبر به نهر البليخ (احد روافد الفرات) فانه يكتسب في الحال نكهة طيبة[١]. اما ابن حوقل[٢]، وهو رحالة عاش في منتصف القرن العاشر، فقد اعجب غاية الاعجاب بخصب تربة طرابلس الذي يعزى، ولا شك، الى نهر ابي علي. ويعجب ابن حوقل ايضاً من رخص اثمان السلع المنتجة فيها. اما الجغرافي الفلسطيني المقدسي[٣] الذي مر في لبنان حوالي ٩٩٥ فانه يخبرنا عن مدينة بعلبك بانها مدينة تكثر فيها الالبان ومشتقاتها وفيها جميع اصناف العنب العجيب. ثم يحدثنا عن جبل عاملة (اي جبل عامل) فيقول ان فيه احسن انواع العسل، وفيه يكثر العنب والزيتون والفاكهة وعيون الماء. ويتابع كلامه فيقول: « واما جبل لبنان فهو متصل بهذا الجبل كثير الاشجار والثمار المباحة وفيه عيون ضعيفة يتعبد عندها اقوام قد بنوا لانفسهم بيوتاً من القش يأكلون من تلك المباحات ويرتزقون بما يحملون منها الى المدن من القصب الفارسي والمرسين وغير ذلك »[٤].



دينار ذهبي فاطمي من عهد الخليفة المستنصر بالله، وقد ضرب في طرابلس، ٤١١ للهجرة.

ويذكر لنا المقدسي مدينة اخرى اشتهرت بزراعة الزيتون: عكا[٥]. اما صور فقد كانت ايام المقدسي مدينة مشهورة بتصدير السكر والخرز والاواني الزجاجية كما عرفت بذلك في العهود القديمة[٦].

---

١ ـ ابن الفقيه ص ١١٧.
٢ ـ كتاب المسالك والممالك طبعة دى غويه (ليدن ١٨٧٣) ص ١١٦
٣ ـ المقدسي ص ١٨١، ١٨٤، ١٦٠.
٤ ـ المقدسي ص ١٨٨.
٥ ـ المقدسي ص ١٦٢.
٦ ـ المقدسي ص ١٨٠.

ويذكر لنا الرحالة الجغرافيون الذين زاروا هذه المدن الساحلية بانها «حصينة» تحيط بهـا اسوار وابراج وقلاع . فانهم كانوا يخشون عدوين : قرصان البحر وغزوات الروم (البيزنطيين) . وقد اهتم ابن طولون اهتمامـا خاصاً بمدينة عكا لكونها قاعدة بحرية حصينة . فان البرج العالي القائم على سورها المزدوج الجدران كان من المناعة بحيث ان حاميته استطاعت قرابة سنتين من الزمن ان تصد هجمات ملكين من ملوك الصليبيين . حتى بعد ان انقضى على هذا البرج قرون عـدة استطاع المدافعون عنه ان يصدوا هجمات نابليون بمدافعه الضخمة. ويخبرنا المقدسي ان ابن طولون استدعى جده من بيت المقدس ليبني ميناء للمدينة في داخل البحر . وقد تم انشاء ميناء كهذا بضم جذوع شجر الجميز الضخمة بحيث يضعون جذعاً الى جانب جذع ثم يضعون فوقها حجارة ضخمة . وقد تُركت في السور الغربي فتحة واسعة بشكل باب للميناء ، وربطت بها سلاسل ضخمة لتمنع دخـول المراكب غير المرغوب فيها ، ولا سيما ليلا . ولم يقتصر بناء هذا النوع من الميناء على عكا بل تعداه الى صور وبيروت اللتين جهّزتا بسلاسل من هذا النوع .

اما في القرن الحـادي عشر فان افضل وصف للبنان اتحفنا به رجل فارسي الاصل ، ناصر خسرو . كـان ناصر خسرو داعية اسماعيلياً مر في لبنـان وهو في طريقه الى الحج . وقـد قارن بين لبنان وبين سائر الاقطار الاسلامية فاثنى ثناء طيبـاً على ما شاهده في لبنان ، واعجب بعمرانه . ويظهر انه قدم طرابلس في اواخر فصل الشتاء من عام ١٠٤٧ . وفي مثل هذا الفصل تكون البساتين والمزروعات على احسنهـا . وقد اعجب ناصر خسرو بجودة قصب السكر وبمختلف انواع البرتقال ، الحلو منه والمر ، وببساتين الموز والنخيل . يقول ، في هذه المدينة التي يبلغ عدد سكانها عشرين الف نسمة فنادق ذات طبقات يتراوح عددها بين اربع وست طبقات . وفيها من جميع اصناف اللحوم والمآكل والفاكهة . وكل ما في بلاد فارس من مأكل او مشرب يستطيع المرء ان يجده في طرابلس ، ولكنهـا تفوق ما في فارس كثيراً . وبيوتها نظيفة حتى يخيل للمرء ان كل بيت منها اشبه بقصر من القصور . وفي سوقها عين مـاء يتدفق الماء من خمسة ميازيب . وفيها رباطات للعباد والمتقشفين . وتحمي المدينة حامية من الجنـود الفاطميين ، وفي اعالي اسوارها نصبت المنجنيقات . وتؤم ميناءهـا مراكب من بـلاد اليونان

والفرنجة واسبانيا والمغرب . ومنها تسير مراكب الفاطميين الى بلاد اليونان وصقلية والمغرب[١] . وأما الورق الذي يصنع في طرابلس فيفوق الورق الذي يصنع في سمرقند جودة وحسناً . فان المسلمين تعلموا صنع الورق في سمرقند حوالي ٧٥١ . وقد أخذوا الصناعة عن الاسرى الصينيين . وأول مصنع لصنع الورق انشيء في بغداد زمن الرشيد (توفي ٨٠٩) . ولكن بالرغم من هذا كله ، فان طرابلس لم تكن بعد قد بلغت ذروة مجدها في العمران . كان عليها ان تنتظر ردحاً من الزمن حتى قيّض لها ان يحكمها امراء بني عمّار . اما جبيل المحاطة بسور عال منيع فغنية بالنخيل وباشجار الفاكهة . يقول لنا هذا الرحالة الفارسي انه لقي ولداً في جبيل يحمل بيده وردتين الواحدة حمراء والاخرى بيضاء وذلك في اليوم الخامس من شهر آذار[٢] .

ولما دخل ناصر خسرو بيروت رأى قنطرة عظيمة فوق الطريق المؤدي الى المدينة علوها يتراوح بين ثمانين وتسعين قدماً . وتقوم القنطرة على ركيزتين مبنيتين من حجارة الرخام الابيض وزن الحجر منها طن ونصف الطن . وتقوم على رأس القنطرة اعمدة الرخام علو العمود منها يتراوح بين ١٤ و ١٥ قدماً ودائرة العمود كبيرة بحيث يكاد رجلان لا يستطيعان الاحاطة به . وفوق هذه الاعمدة سلسلة من قناطر علو القنطرة الوسطى يتراوح بين ٧٥ و ٨٠ قدماً ، وجميعها مبنية من الحجارة المنحوتة تزن الواحدة منها عشرة اطنان . اما الفسحة التي تحيط بهذا البناء الفخم ففيها اعمدة ذات رؤوس من الرخام وحجر الغرانيت[٣] . ولا نشك في ان هذا الذي رآه خسرو كان من بقايا ابنية بناها الرومان ونرجح ان القنطرة التي وصفها كانت احدى الانصبة التي جمّل بها هيرودس اغريبا مدينة بيروت .

اما سور صيدا المحكم البناء فقد كان له ٤ ابواب . ويقول خسرو ان اسواق صيدا مزينة تزييناً رائعاً حتى يخيل للزائر بان المدينة تستعد لاستقبال السلطان .

١ — ناصر خسرو ، سفر نامه ، نشر وترجمة : Charles Schefer أما في النص الاصلي ص ١٢ وفي الترجمة ص ٤٠ — ٤٢ ، قابل ترجمة :

Guy Le Strange, *Diary of a Journey through Syria and Palestine*, (London, 1896), pp. 6 - 8 .

٢ — راجع النص ص ١٣ وفي الترجمة ص ٤٣ — ٤٤ .

٣ — ناصر خسرو ، في النص الاصلي ص ١٣—١٤ ، وفي الترجمة ص ٤٤—٤٥ .

وكذلك بساتين صيدا فانها انشئت حسب هندسة جميلة كانما انشئت خصيصا لتكون حديقة لسلطان . واما اسواق صور المزدهرة المكتظة بالبضائع والسّلع فعلى غاية من النظافة ، وخاناتها ابنية ذات خمس او ست طبقات. اما سكان صور فاكثرهم من الشيعة كما هي الحال في طرابلس . والمدينة مجّهزة بالماء الذي يصلها من الجبال في قناة مرتفعة . وفي عكا جامع رئيسي يتوسط المدينة ويرتفع فوق جميع ابنيــة المدينة ، واعمدتها من الرخام . وعلى بعد ٨٠ قدماً من الميناء لا نجد جداراً لحماية المراكب كما هو الحال في سائر الموانى وانما هنالك سلاسل غليظة مربوطة بطرفي حائطين ، وعندما يقترب مركب من الميـنــاء تُرخّى السلاسل فتغوص في الماء ويدخل المركب واما اذا كان المركب مركباً غريباً أو مركباً للاعداء فان السلاسل ترفع وتربط فتمنع المركب من الدخول[١] .

ما كان ليخطر على بال اولئك الرحالة الجغرافيين والحجّاج الذين مرّوا في لبنان واسهبوا في وصف حصون المدن اللبنـــانية البحرية ، وفي وصف الوسائل المتخذة لحمـــاية تلك الحصون ، نقول انه لم يكن ليخطر على بالهم أو على بال الطولونيين والفاطميين الذين اقاموا هذه الحصون ان هجمات خطرة ستنقض عليها من غربي اوربة هذه المرة لا من البيزنطيين عن طريق الشرق . هؤلاء الغزاة الجدد كانوا الصليبيين .

١ ــ في النص ص ١٤ــ١٥ ، وفي الترجمة ٤٨ــ٥٠ .

الفصل العشرون

الشرق والغرب يلتقيان

الصليبيون

عند مستهل القرن العاشر ظهر التفكك في الوحدة الاسلامية ، سواء في ذلك الاسلام كدين والاسلام كدولة . ففي اواخر القرن الحادي عشر ، كان السلاجقة الاتراك والتركمان ــ وكلاهما من السنة ــ يسيطرون سيطرة تامة على آسية الصغرى وشمالي سورية. اما مصر وفلسطين وسورية فقد كانت تحت حكم الفاطميين ، وهم شيعة . وفضلا عن هذا فقد كان في داخل الامبراطورية الاسلامية امراء يحكمون امارات صغيرة ومقاطعات تكاد تكون مستقــلة عن بغداد ــ بعضهم من السنّة وبعضهم الآخر من غير العرب . وقد أدّى العداء والتنافس بين الاخوة والتنابذ ومشاكل التعاقب على الحكم بين هؤلاء الحكام والامراء المنشقــين الى فوضى سياسية والى حالة دائمة من القلق والاضطراب . واما المنطقة الجبليــة فقد كانت ملجأ لمختلف الفرق الاسلامية المنشقة والطوائف المسيحية المختلفة: النصيرية بالقرب من اللاذقيــة ــ ولم يمض زمن حتى استقر الى الشرق منهم جماعــة من الحشاشين الاسماعيليــة ــ والموارنة في شمال لبنــان ؛ والدروز في جنوبه ، وبينهما المتاولة (الشيعة) وممــا زاد في حدّة الفوضى سيل مستمرّ من الاعراب الذين كانوا يهجرون الصحراء ليستقروا في المناطق الزراعية او في المراكز العسكرية التي كانت تقام على الحدود ، وسيل آخر من الاكراد الوافدين الى المنطقة من الجبال الشمالية الشرقيــة ، ومن التركمان الذين كانوا على استعداد للانخراط في جيش الامير او الحاكم الذي يمنحهم خير الجزاء .

بعد معركة منزكرت (ملازكرت) التي وقعت عام ١٠٧١ والتي انتصر فيها القائد السلجوقي الب ارسلان على اعدائه من البيزنطيين واسر امبراطورهم اصبحت آسية الصغرى وسورية في متناول الاتراك والتركمان . وقــد كانت هذه اول مرة

وطدت هذه الشعوب الوافدة من اواسط آسية اقدامها في منطقة الشرق الادنى . ومن آسية الصغرى تمكنوا من تهديد القسطنطينية عاصمة البيزنطيين، تهديداً مباشراً. وقد كان بعض حكام المدن السورية يمتون الى السلاجقة الروم بصلة القرابة ،ولكنهم كانوا يدينون بالولاء الى سلاجقة بغداد .

نداء البابا

وقد بعث الامبراطور البيزنطي ، الكسيوس كومنينوس النداء تلو الآخر الى قداسة البابا يستجيره ويطلب منـه العون ليجابه الخطر الذي احاق بممتلكاته الآسيوية . وأخيراً استجاب البابا اوربان الثاني، فالقى في اليوم السادس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٠٩٥ ، خطاباً حماسياً شديداً في مدينة كلرمونت في جنوبي فرنسة وهذه المقاطعة الافرنسية الجنوبية كانت الى زمن عرضة لهجمات المسلمين من اسبانيا . وكان نداء البـابا استنفاراً لانتزاع القبر المقدس من ايدي « الكفرة » . وما ان حلّ ربيع ١٠٩٧ ، حتى لبّى النـداء جيش عظيم من الافرنج[١] والنورمان (سكان الشمال) قوامه مئة وخمسون الف محارب تجمّعوا في القسطنطينية .

اما النورمان فقد اتوا من جنوبي ايطالية ومن صقلية . وكانوا يحملون شارة الصليب شعاراً ، ولذلك عرفوا بالصليبيين . وما لا شك فيه ان بعضاً منهم كانت تحدوهم حوافز دينية ، ولكن اكثرهم كانوا يضمرون اموراً دنيويـة . وكذلك قوادهم ، فان بعضهم كان يأمل في الحصول على امارة او ملك . وكـان بينهم جماعة من التجار ـ وجلّهم من مدن تجارية كمدينة جنوا والبندقية وبيزا ـ يحلمون باعمال تجارية تدرّ عليهم الارباح . ولا ننسى ان نذكر جماعة المجرمين والاشقياء والخطاة الذين كانوا يطلبون المغفرة عن طريق الحج الى الارض المقـدسة التي داستها قدما المسيح . وكان هنالك شبان يشعرون بشيء من النقمة وعدم الرضا في الحياة ، فكان حمل شارة الصليب عندهم نوعاً من العزاء الذي يناله الانسان

١ ـ وهي تعريب Franks اي افرنسيون ، ومنذ ذلك الزمن اصبحت لفظة افرنج تطلق على الاجانب الاوروبيين .

الذي يذبح ذبيحة او يقدم قرباناً . وكان هنالك مغامرون يفتشون عن مغامرة رائعة مثيرة يشتركون فيها . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، اذا نحن نظرنا الى الحروب الصليبية نظرة شاملة بعيدة، نجد انها تتمة لسلسلة من الصراع الطويل الامد بين الشرق والغرب الذي بدأ بالحروب التي وقعت بين داريوس الفارسي والاغريق واستمرت بين البيزنطيين والمسلمين وظلت الى يومنا هذا .

الانتصارات الاولى

كانت الطريق التي سلكتها الحملة الصليبية الاولى تلك التي تمر في آسية الصغرى التي كان قد استولى عليها السلاجقة . واول مدينة استولوا عليها بعد ان غادرت الحملة القسطنطينية كانت مدينة نيقيا وهي مركز عسكري استراتيجي هام (حزيران ١٠٩٧) ، ثم دوريلايوم (اسكي شهر)[١] . وهكذا استعاد الامبراطور البيزنطي اكثر المقاطعات التي كان قد فقدها في شبه جزيرة آسية الصغرى .

وما ان جاء الصليبيون سورية الشمالية واصبحت جبال طوروس وراءهم حتى بدأت المنافسات بين قوادهم، اذ اخذ كل واحد منهم يضع الخطط للاستيلاء على مقاطعة يحتفظ بها ملكاً لنفسه . اما بولدوين اللوريني فقد اتجه شرقاً نحو الرها (ايدسا القديمة) التي كانت واقعة تحت حكم الارمن ، واحتلها عام ١٠٩٨ . وهكذا تأسست اولى الدويلات اللاتينية . وقد اصبح بولدوين فيما بعد الملك الثاني لمملكة لقدس اللاتينية واصبح يعرف ببولدوين الأول. اما تنكرد، وهو قائد نورماني،

---

١ – *Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum*, ed. Heinrich Hagemeyer (Heidelberg, 1890), pp. 197, 208 seq.; Fulcher, *Historia Hierosolymitana*, ed. Hagemeyer (Heidelberg, 1913), pp, 192 seq.; Ibn-al-Qalanisi, p. 134; tr. H. A. R. Gibb, *The Damascus chronicle of the Crusades* (London, 1932), p. 42 .

ولاجل مراجع عامة تتعلق بالصليبيين يجب مراجعة :

Claude Cahen, *La Syrie du Nord à l'époque des Croisades* (Paris, 1940), pp. 3-104 .

فانه اتجه غربا الى كيليكية التي كان يقطنهاشعب مسيحي مزيج من يونانيين وارمن فاحتل طرسوس والبلاد المجاورة لها . اما القسم الاكبر من جنود الحملة فقد استمر في زحفه جنوبا باتجاه هدفه الاول : بيت المقدس . وكانت مدينة انطاكية — وهي المدينة التي فيها سمي اتباع السيد المسيح بالمسيحيين (اعمال الرسل ١١ : ٢٦) — تقع على الطريق التي سلكتها الحملة . وكان اميرها اميراً سلجوقيا عاملا لسلاجقة بغداد . فضرب الصليبيون الحصار على المدينـة ، وكان حصاراً شديداً طويل الامـد (٢ تشرين الاول ١٠٩٧ الى ٣ حزيران ١٠٩٨) حاول اثنـاءه اميران سلجوقيان اخوان احـدهما على حلب والآخر على دمشق ان يفكا الحصار عن انطاكية مرتين ولكنهما اخفقا . وكان قائد الجيوش المحاصرة بوهمند ، وهو قائد نورماني ، يسانده من البحر اسطول ايطالي . وكان سبب تسليم المدينة ووقوعها في ايدي الصليبيين خيانة قائد ارمني ناقم[١] . اما معرة النعمان ، المدينة التي ينتسب اليها الشاعر الاعمى المشهور ابو العلاء المعري(توفي١٠٥٧)، فقد احرقت واستبيح سكانها[٢] .

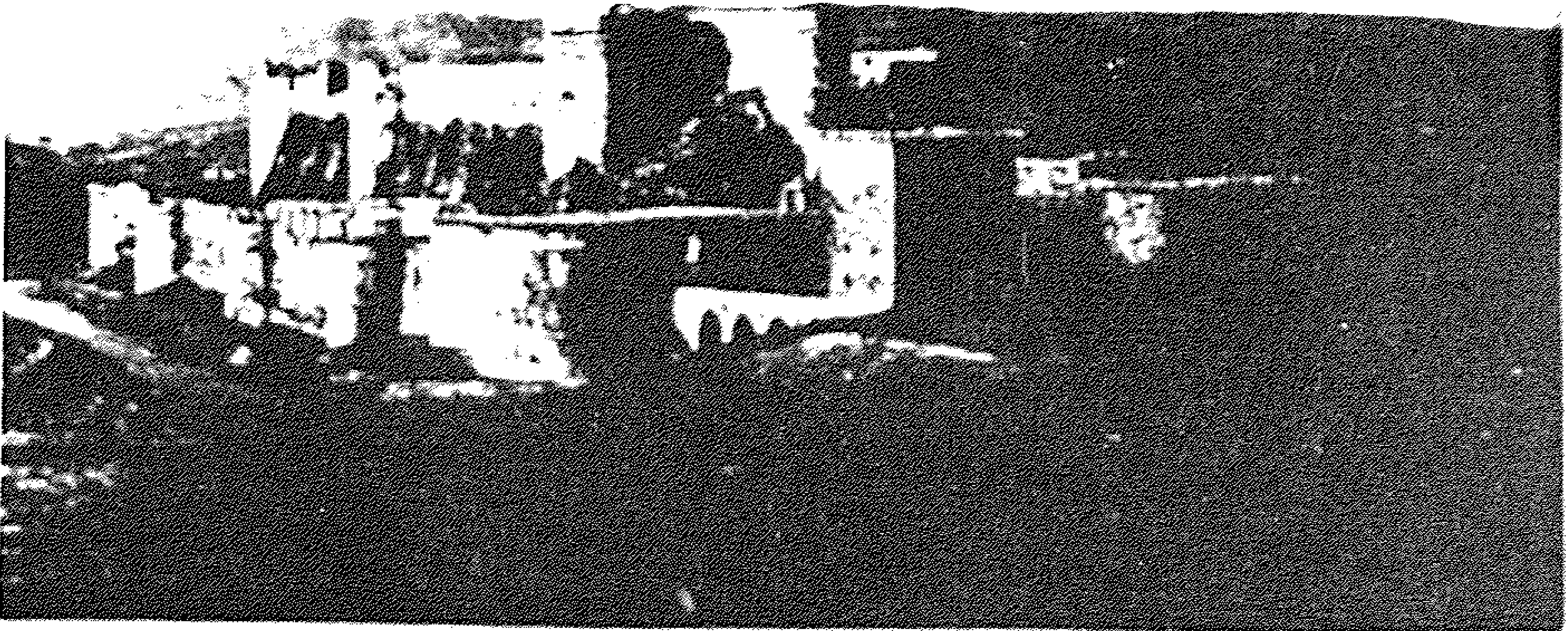
في طريقهم الى بيت المقدس

بعد ذلك تابع جيشان من الصليبيين تقدمهما جنوبا نحو بيت المقدس . وقد سلكا الطريقين القديمتين اللتين كان يسلكهما غزاة سورية ولبنان: الطريق الداخلية عبر وادي العاصي والطريق الساحلية . اما الذي سار في الطريق الداخلية عبر وادي العاصي فقد كان الكونت ريموند ابن صنجيل (Saint Gilles) كما سماه العرب . وقد كان رجلا غنياً يقود جماعة من الفرنسيين الجنوبيين (البروفنسال) . وقد كان يأمل ان يفوز بولاية انطاكية ولكن الآخرين انكروها عليه فكان استياؤه شديداً . وفي سيره جنوباً بلغ حصن الاكراد واستولى عليه . ويقع هذا الحصن في مكان ستراتيجي

١ — كمال الدين ، تاريخ حلب في: *Recueil des historiens des Croisades historiens orientaux,* vol. III (Paris, **1884**), pp. **580** seq .
ابن القلانسي ص ١٣٥

٢ — ابن الاثير ، جزء ١٠ ص ١٩٠ ، ومختصره في ابي الفداء ، جزء ٢ ص ٢٢١ . وقابل *Gesta Francorum* ص٣٨٧ . كمال الدين في *Recueil* جزء ٣ ص٥٨٦—٥٨٧ . كذلك William of Tyre, vol. I, pp. 310-12 .

هام يشرف على المضيق الذي يصل الساحل بسهول البلاد الداخلية. في وادي العاصي. وقد بنى حصن الاكراد هذا ، واسمه اليوم قلعة الحصن ، امير حمص ووضع فيه حامية من الجنود الاكراد . وقد بنى الصليبيون على أنقاضه فيما بعد قلعة حصينة



حصن الاكراد ، وهو اكبر حصن من حصون الصليبيين وامنعها

عرفت باسم Crac des Chevaliers [١] . اما مدينة عرقة الحصينة ، التي فيها ولد احد الاباطرة الرومانيين من الاسرة السورية ، فقد قاومت الحصار الذي ضرب حولها من شهر شباط الى منتصف شهر ايار ١٠٩٩ . وكانت عرقة اول مدينة لبنانية هاجمتها الجيوش الصليبية . اما غودفري دي بويون (وهي عاصمة اللورين السفلى) واخو بولدوين فقد سلك الطريق الساحلي . وقد حاول الاستيلاء على اللاذقية . ثم انه ضرب الحصار على جبلة ولكنه لم يفلح . غير انه استولى على طرطوس (Antartus) [٢] التي وجدها خالية من السكان . ثم عاد بعد ذلك والتقى بجيش اخيه بولدوين . وقد كانت المدينتان جبلة وطرطوس تابعتين لمدينة طرابلس . وفي مدينة طرطوس شيد الصليبيون كاتدرائية فخمة لا تزال قائمة في

١ ـ ولفظة Crac تحريف للفظة « اكراد » وتختلف عن كلمة Crac الواردة في Crac de Montréal او Crac des Moabites فان لفظة Crac في هذين الاسمين تحريف للفظة آرامية « كرخا » ومعناها مدينة .

٢ ـ انطارطوس تحريف للفظ اغريقي : Antaradus اي ارواد الجديدة .

المدينة وهي من احسن الآثار الصليبية التي بقيت سليمة الى يومنا هذا . وبما ان الاتراك لم يكن عندهم قوة بحرية فانهم لم يستطيعوا ان يستردوا المدن الساحلية او ان يحتفظوا بها كما فعل الفاطميون عام ١٠٨٩ [١] .

اما ريموند فقد وجد نفسه مكرها على فك الحصار اولا لانه كان قد نفذ صبر رجاله الذين كانوا تواقين الى بلوغ هدفهم الرئيسي ، القدس ، وثانياً لان فخر الملك ابن عمار امير طرابلس — وكانت عرقة تابعة له — كان قد عرض عليه مالا وهدايا : ١٥ الف قطعة ذهبية وخيلا وبغالا وحريراً ومزهريات ثمينة . وفضلا عن هذا فان ابن عمار جهز الصليبيين بالمؤن والعلف لكي يمنع الجند من الاعتداء على الفلاحين في القرى والدساكر المحيطة بطرابلس[٢] .

بعد هذا تابع الصليبيون سيرهم نحو بيت المقدس على الطريق الساحلي الذي سلكه الغزاة الفاتحون من بابليين واشوريين ويونانيين ورومانيين منذ اقدم العصور . اما البترون وجبيل فقد كانتا تابعتين لامارة طرابلس وقد نجتا من ويلات الحرب. وفي البترون جرى اول اتصال بين الصليبيين والموارنة — « وهم شعب قوي الشكيمة ومحاربون شجعان[٣] » — الذين امدوا الصليبيين بادلاء كانوا في امس الحاجة اليهم . اما في بيروت فانهم باتوا ليلة واحدة . فان الحاكم الفاطمي في بيروت حذا حذو زميله في طرابلس ابن عمار . فانه اعطاهم كمية من المال وجهزهم بوافر المؤن لكي لا يتعرضوا للغلات والاشجار . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان الصليبيين كانوا يرغبون اشد الرغبة في السير نحو بيت المقدس دون ابطاء . وهكذا لم يتعرضوا لاهل بيروت بسوء ولم يتعرض اهل بيروت لهم بسوء . وفي اليوم الثاني قدموا مدينة صيدا التي وجدوا في بساتينها ظلا وارفا ونسيما عليلا فنصب الصليبيون خيامهم في تلك البساتين وارسلوا بعض الجنود لسلب الماشية وجلب الاطعمة وقد ابدى الحاكم الفاطمي مقاومة شبه ضعيفة قصد ايقاف زحفهم . وفي اثناء اقامتهم في بساتين صيدا تعرضوا لخطر لسع الحيات السامة ولكن اهل صيدا علموهم — وعن طيبة خاطر — كيف يتقون خطر السم .

١ — ابن الاثير ، جزء ١٠ ، ص ١١٦ — ١١٧ . ابن ميسر : اخبار مصر نشر Henri Massé (القاهرة ١٩١٩) ص ٢٨ .

٢ — William of Tyre, vol. I, pp. 329 - 30 .

٣ — William of Tyre, vol. II, p. 459; vol. I, p. 330 .

صور تنجو

كانت صور ، بعد طرابلس ، احسن المدن اللبنانية ازدهاراً وعمرانـاً عندما قدمها الصليبيون . فانه فضلا عن صناعاتها القديمة المشهورة التي جئنا على ذكرها سابقاً كانت صناعة السكر فيها صناعة مزدهرة . وكان الاقبال على مادة السكر قد ازداد كثيراً اولا كطعام وثانيـاً لخاصيته في تحضير الادوية . وكانت صور ، الجزيرة البحرية ، تنعم باسالة ماء وفير وذلك بواسطة القناة التي كان الرومان قد انشأوها لمدّ المدينة بالماء من نبع راس العين ولا تزال صور الى يومنا هذا تستفيد من هذه القناة . وبما ان صور كانت ميناء هاماً منه تخرج مراكب المسلمين لمحاربة القرصان البيزنطيين ، فانها كانت محصنة تحصيناً قوياً . فقد كان يحيط بها من جهة البر سور منيع يتألف من ثلاثة اسوار ، ومن جهـة البحر سور مزدوج . ولكن تجار صور لم يكونوا آنذاك يحتكرون التجارة الدولية كما كانوا يحتكرونهـا في السابق بل كان لهم منافسون اشدّاء . ولم تقتصر المنافسة على تجار جنوا والبندقية وبيزا بل كان على تجار صور ان ينافسوا تجار املفي ومرسيليا . ويصادف ان مدينة صور ، قبل ان قدمها الصليبيون بسنة ، ثارت في وجه حكامها الفاطميين في مصر وهكذا تعرضت المدينة لهزة رهيبة اما الصليبيون فانهم نصبوا خيامهم بالقرب من « ينبوع الجنات المشهور ، وهو نبع ماء حي واعجوبة من عجائب الدنيا[1] » . ومياه هذا النبع لا تنبع من الجبل « انما تتدفق من جوف الارض » . ويظن انه النبع الذي تغنّى به سليمان الحكيم حين قال : « ينبوع جنات بئر مياه حية وسيول من لبنان[2] » .

القدس عاصمة المملكة اللاتينية

وفي اليوم الثاني تأهب الصليبيون لمتابعـة سيرهم جنوبا . فساروا في محاذاة الشاطىء الى عكا وارسوف الى ان بلغوا قيسارية ومن هنـاك ارتدوا شرقا نحو

---

١ – William of Tyre, vol. I, p. 331 .

٢ – نشيد الانشاد ٤ : ١٥ William of Tyre, vol. II, p. 6 .

داخلية البلاد مارين بالرملة . وفي اليوم السابع من شهر حزيران ١٠٩٩ بلغوا هدفهم الرئيسي : القدس . وبعد حصار دام شهراً واحداً ضربه حولها كل من غودفري وريموند وتنكرد استسلمت المدينة المقدّسة ، فاستولى عليها الصليبيون واعملوا السيف في اهلها دون اي نظر في السن او الجنس . وبعد ان جعلوا مدينة القدس مركزاً لهم احتلوا جزءاً كبيراً من فلسطين يؤازرهم الاسطول في عملياتهم الحربية. وبعد ان حكم غودفري القدس سنة واحدة خلفه عليها اخوه بولدوين امير ايدسا الذي نصب ملكاً على مملكة القدس اللاتينية في يوم عيد الميلاد عام ١١٠٠ .

احتلال الموانئ اللبنانية

كانت اول مهمة مستعجلة شعرت المملكة اللاتينية بضرورة القيام بها فوراً ، الاستيلاء على المدن الساحلية لضمان حرية المواصلات مع اوروبة . وقد تم لهم ذلك بالرغم من مناعة المدن الساحلية الحصينة بمساعدة المراكب الحربية التي قدمتها لهم الجمهوريات الايطالية ، فانها كانت تمدهم بالطعام والسلاح والمدد من الجنود . اما الاسطول الفاطمي ، الذي كان يتألف احياناً من ثلاثين او اربعين سفينة ، فلم يكن يقوى على مقاومة الاساطيل الصليبية مقاومة فعالة . ولقاء هذه المساعدة البحرية التي اسدتها الاساطيل كان الملاحون الاوروبيون يقتسمون الغنائم مع الصليبيين. فقد كان لهم احياء خاصة في المدن الساحلية تخضع لسيادة الجمهوريات التي ينتمون اليها ، وكان لهم الحق في توريد البضائع وتصديرها دون دفع ضريبة المكوس[1] . وقد كانت هذه المنافع والامتيازات التي كانوا يمنحونها حافزاً لبذل المزيد من الجهود في مساعدة الصليبيين ، كما انها كانت مقدمة لما عرف فيما بعد بالامتيازات الاجنبية التي كانت تمنح للتجار الاجانب في الشرق الادنى كما سيأتي ذكره . وقد استولى الصليبيون على ارسوف وقيسارية عام ١١٠١ . اما عكا الحصينة فقد ضرب عليها الاسطول الجنوي الحصار من جهة البر والبحر . وبعد مرور ثلاث سنين استسلمت . وفي عام ١١١٠ حوصرت مدينة بيروت احد عشر يوماً كان آخرها الثالث عشر من ايار لما انقض عليها الجنود المحاصرون وقد رجد

---

١ – William of Tyre, vol. I, pp. 434, 455 .

الصليبيون في غابة الصنوبر التي كانت تحيط بالمدينة من جهة الجنوب، والتي لا تزال قائمة الى عهدنا هذا ، مصدراً للاخشاب التي بنوا بها ابراجاً تشرف على المدينة لرمي الاسوار ودكها . وقد خف الاسطول الفاطمي المؤلف من ١٨ سفينة لنجدة المدينة كي لا تقع في ايدي الصليبيين ، ولكن هذا الاسطول لم يستطع ان يقف في وجه الاسطول الاوروبي المؤلف من ٤٠ سفينة بعضها يعود الى جمهورية جنوا وبعضها الى مملكة القدس اللاتينية . ولما دخلها الجند اعمل فيها النهب والسلب ، وقتل واليها وكثيراً من سكانها ، واسر بعضهم ، ونجا بعضهم الآخر هرباً الى جزيرة قبرص .[١] وكان حكام بيروت من الصليبيين من اسرة ابلن .[٢]

في شهر آب قاد بولدوين حملة ضد البقاع وبلغ مدينة بعلبك التي كانت وقتئذ تابعة لحكم اتابك تركي[٣] ، طغتغين حاكم دمشق . وقد قبل والي دمشق ان يسلم الصليبيين ثلث غلال سهل البقاع الخصيب وفي الرابع من شهر كانون الاول من السنة ذاتها استولى اسطول يتألف من ستين سفينة نروجية وبندقية على صيدا . وكان الفرنج قد بنوا برجاً غريباً في نوعه وغطوه باغصان الاشجار والحصر والجلود ليقوه من شر القذائف ، وكانوا يجرونه على جرارة. وقد وضعوا فيه الماء والخل لاطفاء النار ليلا . وبعد حصار دام سبعة واربعين يوماً استسلمت المدينة وقبلت ان تدفع جزية قدرها عشرون الف دينار . وبهذا تجنبت الكارثة التي حلت بجارتها الى الشمال . وقد كانت المراكب النروجية تحمل معها حجاجاً ومحاربين

---

١ - ابن القلانسي ص ١٦٧ - ١٦٨ . صالح بن يحيى ص ١٧ - ١٨ .
William of Tyre, vol. I. pp. 484-5; Albert Aquensis in *Recueil des historiens des croisades : historiens occidentaux*, vol. IV (Paris, 1879) pp. 669-70; W. B. Stevenson, *The crusaders tn the East* (Cambridge, 1907), pp. 58-9.

٢ - للاطلاع على قائمة حكام بيروت من الصليبيين راجع :
René Grousset, *L'Empire du Levant: histoire de la question d'Orient,* new ed. rev. (Paris, 1949), p. 330; cf. *do., Histoire des Croisades et du royaume franque de Jérusalem,* vol. II (Paris, 1935), pp. 850-2 .

٣ ان لفظة اتابك تركية (ومعناها ابو الامير) . وكانت تطلق اولا على الوصي او على القيم على الوريث السلجوقي . اما طغتغين ، الذي كان خادماً عند ابي الوريث السلجوقي فانه اغتصب الملك في سورية ، ثم ان السلجوق الاكبر في بغداد عاد فاعترف به وثبته على سورية .

واسلحة ومؤناً . اما المحاربون فقد انخرطوا في خدمة الملك بولدوين الاول[١] . وعندما توفي هـذا الملك ، بولدوين الاول ، كانت المملكة قد بلغت الذروة في اتساعها : من العقبة على البحر الاحمر الى بيروت . وقد خلفه ابن اخيه كونت ايدسا ولُقِّب ببولدوين الثاني ، وملك من ١١١٨ الى ١١٣١ .

ولم يبق في ايدي المسلمين سوى صور وذلك بفضل موقعها الجغرافي (شبه جزيرة) ومناعة اسوارها . وقد قام الصليبيون بمحاولة للاستيلاء عليها عام ١١١٢ ولكنهم اخفقوا ، وذلك لان طغتغين بعث اليها بالمدد ، ولان المسلمين استعملوا النفط والقطران في اشعال النار في البرج الذي كان الصليبيون قد بنوه لمهاجمة المدينة . غير انهم استطاعوا اخيراً الاستيلاء عليها عام ١١٢٤[٢] .

بنو عمار في طرابلس

كان على الصليبيين الذين اسسوا في الشمال مملكة في انطاكية واخرى في ايدسا. وفي الجنوب مملكة لاتينية في القدس ، نقول كان على هؤلاء الفرنج ان يخضعوا البلاد الواقعة بين تلك الممالك لكي يضمنوا لانفسهم البقاء في الشرق هذه المنطقة الواقعة بين ممالكهم في الشمال والجنوب كانت تابعة لمدينة طرابلس . وقد كان ريموند ، الذي مرّ بها وهو في طريقه الى بيت المقدس ، يرغب في الحصول على طرابلس امارة له . وعندما تمّ له الاستيلاء على القدس عاد الى طرابلس موطّداً العزم على اخضاعها والاستيلاء عليها . ولكن ريموند في هذه الاثناء كان قد فقد كثيراً من نفوذه ومقامه . ذلك انه كان موالياً للامبراطور الكسيوس كومنينوس في القسطنطينية وكان ريموند قد اقسم له يميناً ، وبشيء من التحفظ ، ان يسلمه البلاد التي يستردها من المسلمين . وكان الامبراطور الكسيوس يأمل في ان يحارب الصليبيون حروبه فيستردون له البلاد التي اغتصبها منه المسلمون وكان عدد رجال

---

١ ــ ابن القلانسي ص ١٧١ . وقد اخذ عنه ابن الاثير بعد تعديل طفيف ، الجزء العاشر ص ٣٣٦ ــ ٣٣٧ . واذا اردت معرفة الحكام الذين تولوا الحكم في صيدا راجع Grousset, *L'Empire*, p. 330; cf. *do. Histoire des Croisades*, vol. II app.

٢ ــ ابن تغري بردي ، المجلد الثاني ، القسم الثاني ص ٣٣٦ ــ ٣٣٨ . سبط ابن الجوزي . مرآة الزمان ، في *Recueil : orientaux*, vol. III, pp. 543 - 6, 564 - 5 .

ريموند الذين قدموا معه الى طرابلس ثلاث مئة فارس، فضرب الحصار (١٠٩٩) على المدينة المحصنة القائمة على شبه جزيرة والتي يبلغ عدد سكانها عشرين الفاً. ولكن عبثاً حاول الاستيلاء عليها. فعمد سنة ١١٠٣ الى بناء قلعة على تلة تشرف على المدينة سماها قلعة الحجاج واطلق على التلة اسم «تلة الحجاج». وقد كانت هذه القلعة اولى القلاع العديدة التي بناها الصليبيون على التلال المحاذية لشاطىء.



قلعة صليبيين في طرابلس بناها ريمون دو تولوز حوالي ١١٠٠ للميلاد، وهي من اقدم الحصون الصليبية عهداً

وهذه القلعة لا تزال باقية الى يومنا هذا. وقد رممها الاتراك وجعلوها سجناً يعرف بقلعة طرابلس. واثناء الحرب العالمية الثانية اقام الانكليز فيهـا مدافع مضادة للطائرات. اما واجهتها الشرقية التي يطل المرء منها على نهر ابي علي، فيعود زمن بنائها الى القرن الثاني عشر. وقد نشأ حول القلعــة حيّ لاتيني في فترة وجيزة. وطرابلس الحديثة تقوم على هــذا الموقع ذاته. ويفصل بين المدينة الحديثــة وطرابلس القديمة التي كانت تقوم على شبه جزيرة (واسمها الميناء) جنائن وبساتين حسنة يروي ارضها الخصبة نهر ابي علي.

كان شرف الدفاع عن المدينة من نصيب ابي علي فخر الملك ابن عمار الذي كان قد تسنم الامارة عام١٠٩٨. اما مؤسس امارة طرابلس فهو عمه ابو طالب

امين الدولة بن عمار ، وقد كان قاضياً شيعيا في طرابلس . ولما توفي الحاكم الفاطمي حوالي ١٠٦٩ اعلن نفسه حاكما مستقلا على المدينة . وكان ابو طالب يهتم بالعلم ويحنو على العلماء . وقد بنى مدرسة سماها دار العلم[١] ، وانشأ مكتبة – قيل انها كانت تحوي مئة الف مجلد – واستمال طلاب العلم إلى العاصمة . فكان عمله هذا شبيها بما قام به سيف الدولة في حلب[٢] . وكان من جملة من امّ مكتبة طرابلس ابو العلاء المعري . وهكذا بلغت طرابلس ، اثناء حكم بني عمار ، الذروة في الشهرة العلمية وفي الازدهار الاقتصادي[٣] . ولكن هذه الفترة لم تدم طويلا . فانه في اثناء الحصار الطويل الامد الذي ضربه الفرنج على طرابلس كان ريموند يأتيه الرجال من الجبال المجاورة لطرابلس[٤] ، وكان الاسطول الجنوي يعاونه من البحر . وقد استولى ريموند على الجوار رغبة منه في ان يعزل المدينة عزلا تاماً . وكانت المدينة تتلقى بعض العون من حمص ودمشق ، ولكنه كان عونا وقتيا . واصبحت المدينة مهددة بالمجاعة . فقد بيع الرطل من التمر بدينار من الذهب . واخذ السكان يهربون . وفي عام ١١٠٨ عهد فخر الملك بشؤون الامارة وادارتها الى ابن عمه ابي المناقب ابن عمار وغادر طرابلس قاصداً بغداد ليطلب النجدة من الخليفة ومن السلطان السلجوقي اقوى سيد في العصر . وفي بغداد استقبله الخليفة استقبالا حسنا وأثنى عليه ثناء طيباً ، واقام عنده ضيفاً مكرماً مدة اربعة اشهر . واظهر له الخليفة كل مودة واكرام لانه كان يدافع عن الدين الحنيف . وكان هذا كل ما ناله ابن عمار من حكام بغداد . وفي اثناء غيابه سلّم ابو المناقب مدينة طرابلس الى الخليفة الفاطمي الذي القى القبض على افراد عائلة فخر الملك واستولى على خزائنه ، فلم يستطع هذا الامير السيء الطالع العودة الى مدينته قط . وفي هذه الاثناء كان الاسطولان الجنوي والفرنسي قد منعا كل اتصال مع المدينة من جهة البحر ، واشترك قواد آخرون من الفرنج في الهجوم على المدينة فسقطت في اليوم السادس والعشرين من حزيران (يونيو) عام ١١٠٩

١ ـ اسامة بن منقذ ، ص ٢٠٨ .

٢ ـ Hitti, *History of Syria*, pp. 566-70 .

٣ ـ ابن القلانسي ص ٩٦ – ٩٧ ، ١١٤ . ابن تغري بردي ، الجزء الثاني والقسم الثاني ص ٢٦٧ G. Wiet in *Mémorial Henri Basset* (Paris, 1928), pp. 279 - 84.

٤ ـ ابن خلدون الجزء الخامس ص ١٨٦ .

سلطنة السلاجقة الأتراك

بلاد الروم

مملكة أرمينية

بلاد الرها

ولاية الأتابكة

قبرص

الخلافة الفاطمية

الدول الصليبية
في سورية ولبنان
حوالي ١١٤٠

اي بعد مرور ٤ سنوات على وفاة ريموند . اما مكتبتها فقد امّحى لها كل اثر[١] . وهكذا ظهرت امـــارة لاتينية جديدة : كونتية طرابلس التي كانت تمتد من قلعة المرقب الى جبيل . وكان على هذه الكونتية برترند ابن ريموند سَفاحاً[٢] . امـــا مدينة اللاذقية الى الشمال فقد كانت في ايدي النصارى . اذ كان تنكرد قد استولى عليها (١١٠٣) وألحقها بامارة انطاكية . وهـــذه الممالك اللاتينية الثلاث ايدسّا وانطاكية وطرابلس كانت جميعها خاضعة لملك بيت المقدس . وهذه الفترة التي تمّ فيها تأسيس هذه الدويلات اللاتينية تمثل ذروة الانتصار الذي اصابه الفرنجة .

الحصون

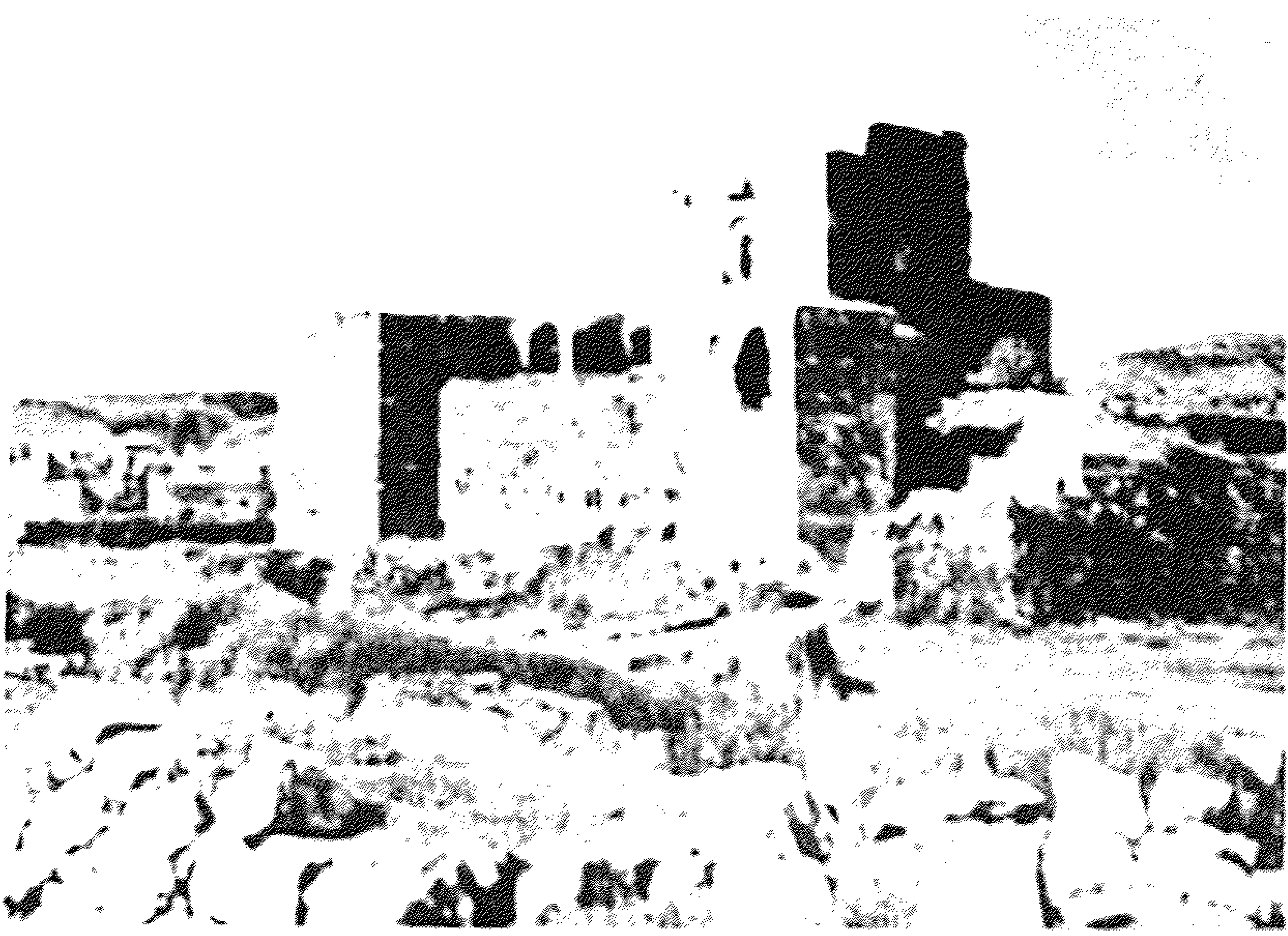
هذه الانتصارات الحربية الاولى التي احرزها الصليبيون في بادىء الامر ــ وكانت في الواقع الانتصـــارات الوحيدة التي احرزوهـــا .ـ ما كانت لتبعث في نفوسهم الثقـــة ولا التفاؤل بالمستقبل . وما كان الصليبيون ليطمئنوا الى مصيرهم وبقائهم في الشرق . واذا نحن استثنينا الطرفين الشمالي والجنوبي للبقعة التي احتلها الصليبيون نجد ان معظم البلاد التي استولوا عليها كانت تقع على الساحل ، ولكنها كانت تحت رحمة عدد من المدن الداخلية المتسلطة عليها والتي لم تكن اي منهـــا تبعد عن ارض الاعداء اكثر من مسير يوم واحد . والذي نود ان نقوله هو ان داخلية البـــلاد لم تقع في ايدي الفرنجة ، ولم يستطيعوا ان يخضعوها لسلطانهم . نعم ، كانت هنالك مدن في الداخلية مثل حلب وحماة ودمشق وبعلبك تدفع لهم الجزيـــة حينا بعد آخر ، ولكن الصليبيين لم يخضعوهـــا لسلطانهم قط . حتى في عواصم الامارات اللاتينية التي انشأوهـــا ــ ايدسا وانطاكية وطرابلس وبيت المقدس ــ كان الفرنجة اقلية ، واقلية غريبة لا هي تمثلت السكان ولا هم تمثلوها .

١ ــ ابن تغري بردي ، الجزء الثاني والقسم الثاني ص ٣٣٤ ــ ٣٣١ . ابن القلانسي ص ١٦٠ ــ ١٦١ ، ١٦٣ ، ابن الاثير الجزء العاشر ص٣١٥ ــ ٣١٧ ، ٣٢٣ ــ ٣٣٤ . سبط ابن الجوزي في *Recueil: orientaux,* vol. III, pp. 534-5 . ابن ميسر ص٤٣ . William of Tyre, vol. I, pp. 477-8; Fulcher, pp. 531-3; Albert Aquensis in *Recueil: occidentaux,* vol. IV, P. 668 .

٢ ــ اذا اراد القارىء الاطلاع على قائمة حكام طرابلس عليه ان يراجع : Grousset, *L'Empire,* p. 329; cf. Steven Runciman, *A History of the Crusades,* vol. II (Cambridge 1952), app. III .

والجاليات اللاتينية التي كانت منتشرة هنا وهناك ، لم يكن اكبرها يتجاوز عدد افرادها الثلاث مئة نفس . وفضلا عن ان هذه الجاليـات اللاتينية كانت مراكز محصورة محاطة بالاعداء ، فانها كانت ايضاً على خصام ونزاع فيما بينها .

ولكي يحتفظ الصليبيون بموطىء قدم لهم على الشاطىء كان عليهم ان يحتفظوا بسيـادتهم على البحر لكي يُبقوا على الصلات التي تربطهم بمواطنيهم في الغرب ،



قلعة الصليبيين في جبيل

ولكي يحظوا بعطفهم فيواصلون امدادهم بالرجال . ولقـد شعر الصليبيون انهم يستطيعون الاحتفاظ بممتلكاتهم اذا استمر سيل المساعدات بالعتاد والرجال يأتيهم من اوروبة ، واذا ظل اعداؤهم متفرقي الكلمـة لا يوحدهم زعيم قوي . فكان عليهم اقامة التحصينات الساحلية لكي يؤمنوا العمليات البحريـة . ولذا فانهم اقاموا عنـد مداخل الموانىء البحرية في عكا وصور وصيدا وجبيل ومدن بحرية

اخرى ابراجاً عند آخر السور او الحاجز الذي يمنع الموج ، او على جزر صغيرة بالقرب من مداخل هذه الموانىء . وهكذا بنوا سلسلة من هذه الابراج التي كانوا يستخدمونهـا للمراقبة على طول الشاطىء اللبناني لكي يؤمنوا الاتصال بينهـا . وقد بقي من هذه الابراج الى يومنا هذا تسعة ابرزها برج جبيل القائم على هضبة جنوبي شرقي البلدة . وجميع هذه الابراج تقوم على مواقع ابراج او قلاع قديمة ، ومواد البناء التي بنيت بهـا كانت انقاض تلك الابراج . وكذلك بنى الصليبيون قلاعاً تحيط بالموانيء من جهة البر . اما في طرابلس وصور وعسقلان حيث كانت المقاومة عنيفة شديدة وطويلة الامد فان الصليبيين بدأوا ببناء قلاع كهذه في زمن مبكر ، وكانت هذه القلاع التي بنوها من العوامل التي عجلت في اخضاع المدن والاستيلاء عليها . وبقايا قلعة الصليبيين في جبيل هي اول ما يسترعي انتباه السائح في تلك المدينة[١] . وجميع هذه القلاع والحصون الصليبية في لبنان يعود زمن بنائها الى القرن الثاني عشر ، وبعضها الى القرن الثالث عشر . اما قلعة البحر في صيدا فانها بنيت على جزيرة صغيرة عام ١٢٢٧ ــ ١٢٢٨ وكان يربطها بالمدينة جسر طوله ٨٥ يرداً لا يزال قسم منه قائمـاً الى يومنا هذا . ولما اخذ لويس التاسع بترميم حصونها وقلاعها استعمل مواد البناء ذاتها التي كان الرومان والفينيقيون قـد استعملوها في بناء تحصينات المدينة . فاننا نجد مثلا اعمدة من حجر الغرانيت حمراء ورمادية اللون من مصر . وفي الواقع ان اكثر الحصون والقلاع اللبنانية التي اقامها الصليبيون لم تكن سوى ترميمات او اعادة بناء حصون وقلاع اقامها اما البيزنطيون او الرومان او ربما الفينيقيون انفسهم . وهذه القلاع ذاتها رممها المماليك واعادوا بناءها في عصر تال . ذلك ان مواقعها الستراتيجية الممتازة يجب ان تكون قـد استرعت انتباه العسكريين قبـل مقدم الصليبيين بازمنة كثيرة . فان الادريسي ،

---

١ — Max Van Berchem and Edmond Fatio, *Voyage en Syrie* vol. I, (Paris, 1914), pp 108-10.

الرحالة والجغرافي المراكشي ، (توفي ١١٦٦) لما زار هذه البلاد قبل الفترة التي نحن بصددها جاء على ذكر ثلاث قلاع بين صيدا وبيروت وست عشرة قلعة بين بيروت واللاذقية[١] .

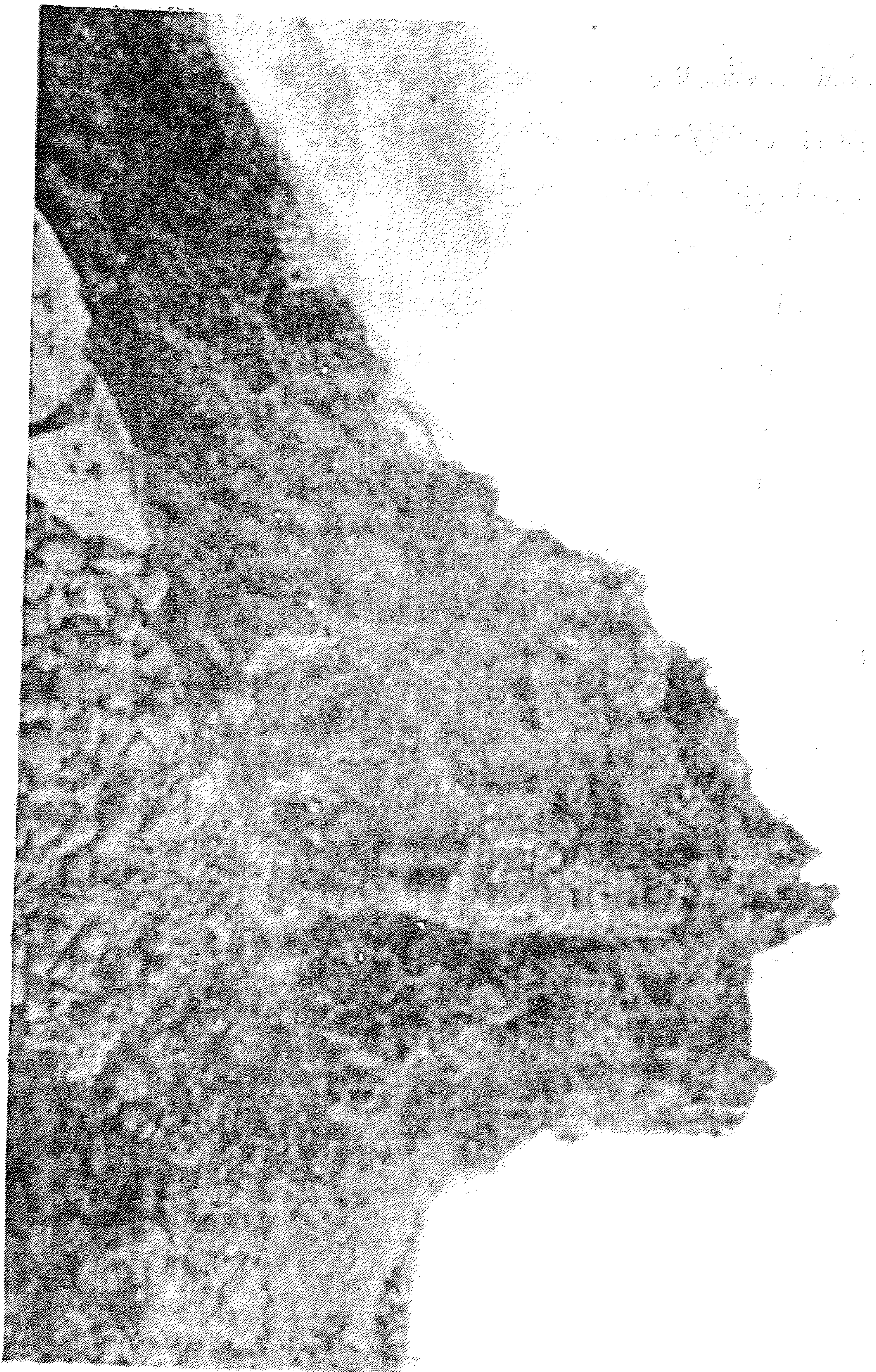
قلعة الشقيف

لقد حرص الصليبيون على ان يسيطروا على المضايق والمعابر الستراتيجية التي تربط الشاطىء الذي كان في حوزتهم بداخلية البلاد ولذا فانهم اقاموا الى جانب القلاع والحصون الساحلية سلسلة اخرى من القلاع على المرتفعات او عند سفوح الجبال الغربية المشرفة على الساحل . ولا شك ان اروعها قلعة الشقيف التي سماها الرحالة العرب « شقيف عرنون » (نسبة الى قرية صغيرة بالقرب منها تسمى عرنون) اما اسمها عند الغربيين فهو قلعة بلفورت (Belfort)[٢] . تقوم هذه القلعة ، وكأنها عش نسر ، على شاهق يشرف على نهر الليطاني على ارتفاع ١٥٠٠ قدم من مجرى النهر ، وعلى ارتفاع ٢١٩٩ قدما فوق سطح البحر. وهي بمثابة حارس يقوم على حراسة الممر الجنوبي الذي يربط شاطىء صيدا وصور بالبقاع فدمشق ، تماماً كما تقوم قلعة حصن الاكراد على حراسة الممر الشمالي الذي يربط شاطىء طرابلس وطرطوس بسهول حمص وحماة . وفولك (Fulk) ملك القدس[٣] هو الذي بنى قلعة الشقيف عام ١١٣٥ على موقع استراتيجي كان الرومان قد اقاموا عليه من قبل حصنا . وبعد زمن رممها فخر الدين الثاني ، الامير الدرزي حاكم لبنان ، وجعل منها حصنا منيعا اثناء حروبه

١ — الادريسي ، طبعة Gildemeister ص ١٦ — ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ .

٢ — ان لفظة شقيف سريانية ومعناها الصخر الشاهق . وعرنون سريانية ايضاً ومعناها الساقية الشديدة الجريان . وليس لهذا الاسم اية صلة بلفظ Arnold كما كان يظن سابقاً . قابل Stevenson ص ٢٦١ . وراجع فريحة : اسماء المدن ص ٦ ، حيث يثبتها بالهمزة لا بالعين . وراجع ايضاً ص ١٩٠ .

٣ — هو Fulk of Anjou صهر بولدوين الثاني وخليفته . وكانت مدة ملكه من ١١٣١ — ١١٤٢ .



قلعة الشقيف (بلفورت) القائمة على تلة مشرفة على الليطاني

مع الاتراك . وتبلغ واجهـــة القلعة ١٣٠ يردا طولاً و٣٣ يردا عرضاً ، وترتفع جدرانها الى علو يتراوح بين ٥٨ الى ٧٨ قدمـــاً من الخندق المحيط بها من جهتي الجنوب والغرب . وهذا الخندق محفور في الصخر وعمقه يتراوح بين٤٨ الى ١١٥ قدما . وفي قلب الخندق حفرت غرف آبار لحفظ الماء . وكانت هذه القلعة تعد حصنا لا يقهر[١]. وبالرغم من مرّ القرون فان هذه القلعة ، مثل اختيها في الشمال ، حصن الاكراد والمرقب ، لا تزال قائمـــة على هضبتها تشرف على ما حولها من اودية وتلال بإباء وشمم . فلا غرو اذا كانت الحكومتان اللبنانية والسورية ترصدان كل سنة في ميزانيتيهما مبلغا من المال لترميم هذه الآثار وحفظها ، فانها من الامور التي تجذب الى هذه الديار السياح من الخارج والداخل. وهنالك قلعة اخرى بنيت على قمة عند سفح جبل الشيخ، واسمها قلعة الصبيبة لتحمي هذا المضيق من الضفة الشرقية . وهـــذه القلعة واقعة الان ضمن الاراضي السورية . هذه القلعة هي قلعة بانيـــاس وتسميها العامة قلعة النمرود . ويعود زمن بنائها الى ما قبل مجيء الصليبيين . وفي عام ١١٢٦ وهبها طغتجين الى جماعة الاسماعيلية (الحشاشين) . وبعد مضي اربع سنوات استولى عليها الافرنج ورممها الملك فولك . ويظهر من بناء واجهة القلعة انها بنيت مرة بعـــد اخرى على ممرّ القرون . ومن جهتها الغربية يستطيع المرء ان يشرف على مناظر رائعة تطل على بحيرة الحولة والتلال عبر نهر الاردن .

تقع الى جنوبي قلعة الشقيف والى شرقي صور قلعة تبنين التي لم يبق منها سوى آثار . وقد بناها حاكم طبرية حوالي ١١٠٤ بقصد عزل مدينة صور[٢] . وسماها Le Toron [٣] . وفي القرن الثامن عشر أعاد ظاهر العمر، الثائر البدوي ، بناءها ورممها وجعل منها حصناً له . والى شمالي قلعة الشقيف على بعد بضعة اميال يقع

---

١ ــ من اراد المزيد من المعرفة حول هذه القلعة فليراجع :
G. Rey, *Études sur les monuments de l' architecture militaires des Croisés en Syrie* (Paris, 1871), pp. 127 et seq.; Camille Enlart, *Les monuments des Croisés*, vol. II (Paris, 1928) pp. 42 - 3; *Les Guides bleus: Syrie - Palestine* (Paris, 1932) pp. 415 - 19 .

٢ ــ William of Tyre, vol. I, p. 469; E. Rey, *Les Colonies Franques de Syrie* (Paris,1883), pp. 499 - 500 .

٣ ــ اي التلة المنعزلة . اما لفظة « تبنين » فآرامية : تفنيس وهي اسم الموقع القديم . (ولكن راجع فريحة : اسماء المدن ص ٧٨ تجد رأياً آخر) راجع ايضاً : Abel, vol. I, p. 309.

شقيف تيرون[١] كما سماه جغرافيو العرب الرحالة وقلعة نيحا كما تعرف الآن . وقد وهب حاكم صيدا وصاحب قلعة الشقيف عام ١٢٥٧ قلعة نيحا وغيرها من القلاع الجبلية الى الفرسان التيوتون[٢] . والى هذه القلعة التجأ الامير فخر الدين الثاني واختبأ في مغارة فيها محفورة في الصخر تحتوي على ثلاث غرف . وقد حاصرها الاتراك مدة شهرين قبل ان استسلم اليهم . واعلى قلعة (بالنسبة الى موقعها) بناها الصليبيون قلعة المنيطرة (واسمها الافرنجي Le Monestre) بالقرب من افقا . وقد شيدت هناك لحراسة المعبر الجبلي الذي يربط بين جبيل وبعلبك . وقد كانت هذه القلعة حصناً عربياً ، غير ان طغتجين تنازل عنه للفرنجة عام ١١٠٩[٣] .

وعلى لسان مرتفع داخل في البحر بين البترون وطرابلس تقع قلعة المسيلحة التي لم يبق منها سوى آثار ولا يزال الغموض يكتنف اصلها وتاريخ بنائها . اما اسمها الحالي فعربي ، وهو تصغير « مسلحة » اي مكان للاسلحة. وفن العمارة فيها عربي ايضاً كما هو في قلعة شيزر على العاصي وقلعة مصياف في جبال النصيرية[٤]. ولكن هذه القلعة لم يرد لها ذكر في المصادر العربية او اللاتينية ، ولم يعثر فيها على نقوش كتابية نستطيع معها ان نعلم شيئاً راهناً عن تاريخها. والغريب انه بالرغم من سهولة الوصول اليها فانها من بين القلاع اللبنانية القلعة المغمورة التي نجهل الكثير عنها . اما جدرانها الخارجية المبنية بالحجارة الرملية الخشنة الناتئة فلا تزال قائمة لم يتطرق اليها الخراب . وقد عزا دي لاروك[٥] (De La Roque) ، الذي زار المسيلحة في اوائل القرن الثامن عشر ، بناءها الى الامير فخر الدين الثاني . ولكننا نرجح ان بناء القلعة يعود الى زمن يسبق زمن فخر الدين . اما

١ ــ اما وليم الصوري ، مجلد ٢ ، ص ٣١٢ فانه يسميها ، عند كلامه عنها ، كهف صور Cavae de Tyrum ونرجح ان التسمية العربية «شقيف تيرون» انما هو ترجمة للتسمية اللاتينية .
Cf. Stevenson, p. 190, note 2, p. 337 .

٢ ــ Rey, *Études sur les monuments,* p. 280; do. *Les colonies franques,* p. 513 .

٣ ــ سبط ابن الجوزي في : *Recueil : orientaux,* vol. III, p. 537

٤ ــ واذا اراد القارىء المزيد فعليه ان يراجع .
Van Berchem and Fatio, pp. 113 - 16 .

٥ ــ p. 167 .

بوركهارت[١] الذي زارها بعد مضي قرن على زيارة دي لاروك فيقول انها كانت يوماً من الايام في ايدي المتاولة .

ردة الفعل الاسلامية : زنكي

في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يعززون مراكزهم باقامة القلاع والحصون كان العالم الاسلامي يستفيق . ولا شك في ان الصليبيين اطمأنوا الى مناعة قلاعهم وحصونهم كما اطمأن الفرنسيون في الازمنة الحديثة الى مناعة خط ماجينو . ولكن هذه العقلية التي تستكين بفعل الاعتماد على الحصون لا تعتم طويلا حتى تدرك مبلغ الخطر . واول اشارة لهـذا الخطر انبعثت من الموصل . بعثها اتابك تركي ازرق العينين اسمه عماد الدين زنكي . وقد كان زنكي مولى لاحد السلاجقة ، ولكنه وفق الى الاستيلاء على الموصل ، ومن الموصل تقدم لغزو سورية . فانه في عـام ١١٢٨ استولى على مدينة حلب ، وفي السنوات التالية احتل حماه وحمص وبعلبك . اما حامية بعلبك التي كانت متمركزة في قلعتها فقد ابدت مقاومة ضارية . ولكنه اخضعها واعمل السيف في جنودها وصلب وعذب عدداً كبيراً منهم بالرغم من انه قطع لهم عهد امان.[٢] فكان عمله هذا عبرة قاسية لمن كانت تخوله نفسه المقاومة سواء اكان من النصارى ام من المسلمين . وقد كان من الضروري ان توحد البلاد قبل الشروع بمحـاربة الصليبيين . وقد بدأت عملية التوحيد بضم شمالي سورية وشمالي العراق تحت قيادة واحدة . اما امارة ايدسا فقد كانت تقع بين البلدين . وفي عام ١١٤٤ هاجم زنكي هذه الامارة اللاتينية ، وبعد حصار دام اربعة اسابيع سقطت ايدسا فانتزعها المسلمون من يد جوسلين الثاني ، فكانت اول امارة لاتينية اسسها الفرنج واول مملكة لاتينية تقـع في ايدي المسلمين . فكان سقوطها بداية النهاية بالرغم من ان النهاية كانت لا تزال بعيدة يعترضها كثير من التضحيات . غير ان الامر الهام هو ان الهجوم المنظم العنيف كان قد بدأ ، وكان بطل هـذا الهجوم زنكي ، فانه كان اول من سدد الضربات القاسية المؤلمة ، تلك الضربات

---

١ — p. 178 . اما الاسم هنا فانه محرف .

٢ — جمال الدين بن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، طبعة جمال الدين بن الشيال (القاهرة ١٩٥٣) ص ٨٦ . ابن القلانسي ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

التي استمر بها نور الدين وزاد في حدتها وعنفها صلاح الدين ثم بيبرس وخلفاؤه من المماليك الى ان جلا آخر جندي من جنود الفرنجة عن هذه البلاد .

وفي عام ١١٤٦ تسلم قيادة المسلمين ابن زنكي وخليفته نور الدين محمود . واول انتصار عسكري باهر احرزه نور الدين كان استيلاءه على دمشق التي كان عليها احد اتباع طغتجين والذي كان قد قاوم الحصار الذي كان قد ضربه زنكي على مدينته بشدة[١] . ولقد كان سقوط دمشق في ايدي المسلمين بمثابة ازالة الحاجز الاخير الذي كان يفصل مملكة نور الدين وبين المملكة اللاتينية ، واصبحت البلاد الواقعة في ايدي المسلمين تمتد من اعالي دجلة شمالا الى القرب من منابع نهر الاردن جنوباً . وتجب الاشارة الى ان دمشق ، قبل ان تسقط في يد نور الدين ، ظلت تقيم العلاقات الطيبة مع القدس ، واحياناً كانت تتحالف معهـا ضد الدول الاسلامية[٢] . ولم تنفرد دمشق بهذه السياسة وحدها بل ان مدناً اسلامية اخرى في حوران وفلسطين ، مثل صرخد (صلخد الحالية) وبصرى وبانياس التي كانت في ايدي الاسماعيليين ، فانها كانت في بعض الاحيان تتطلب العون من الفرنجة ، وكان الفرنجة يلبون طلبها هذا[٣] . وكانت قبائل البدو من الصحراء السورية مثل قبيلة بني فضل الطائية تحارب احياناً الى جانب الفرنجة واحياناً اخرى الى جانب الفاطميين ضدهم . وكذلك كان جيش المملكة اللاتينية في بيت المقدس يضم ، الى جانب الفرنجة فيه ، كتيبة من الفرسان المسلمين الذين كانوا يطلقون عليهم اسم Turcopuli اي ابناء الاتراك ، وكتيبة من المشاة الارمن واخرى من حملة الاقواس الموارنة[٤] .

---

١ — ابن الاثير ، المجلد الحادي عشر ص ١٣٠ — ١٣١ .

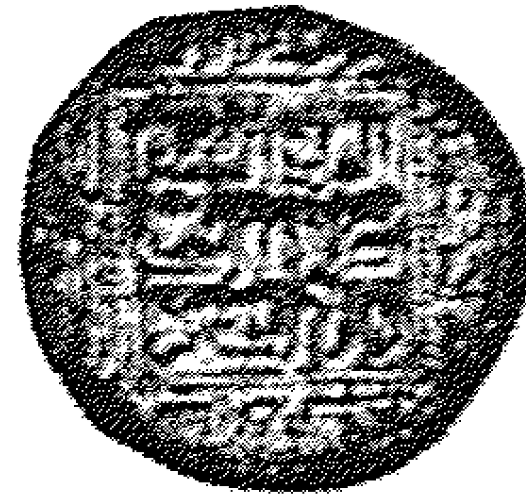
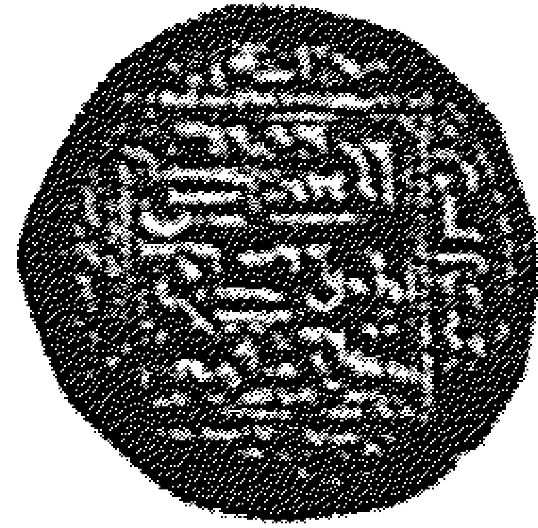
٢ — ابن القلانسي (وقد كان يحتل مركزاً حكومياً سامياً في دمشق في هـذه الفترة التي نحن بصددها) ص ٣٠٨ — ٣٠٩ : William of Tyre, vol. II, pp. 76-7; 147-8; 224.
ابو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ، المجلد الاول (القاهرة ١٢٨٧) ص ٧٧ .

٣ — ابن القلانسي ، ص ٢٨٩ — ٢٩٠ ، ٣١٤ ، ٣١٦ . ابو الفداء ، المجلد الثالث ، ص ٢ — ٣ . ابن خلدون ، المجلد السادس ص ٦ وما يليها :

٤ — Dib, p. 94; cf. Jacques de Vitry, *The History of Jerusalem*, tr. Aubrey Stewart (London, 1896), p. 79 .

صلاح الدين

اما البطل الثالث في الحروب الصليبية ، واعظمهم شوكة وأشهرهم اسماً ، فقد كان صلاح الدين الذي بدأ حياته العسكرية في خدمة نور الدين ، ثم خلفه في الحكم . واسمه الكامل والقابه : الملك الناصر ، السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب . ولد صلاح الدين في تكريت ، وهي بلدة تقع على دجلة ، سنة ١١٣٨ . وكان والداه كرديين . ولما كان له من العمر سنة واحدة انتقل به والداه الى بعلبك حيث كان ابوه والياً عليها من قبل زنكي . وقد بدا منه في مقتبل عمره ميل لدراسة الدين والفقه . حتى ان مرافقته لعمه اسد الدين شيركوه سنة ١١٦٤ في حملة عسكرية ضد الفاطميين كانت خلافاً لميوله . اذ انه لما سأله عمه أن يلتحق به قال : «كأنما قلبي اصيب بطعنة خنجر »[١] . وقد كان نور الدين يعلم ان الخلافة الفاطمية قد شاخت ودب فيها الوهن وان ضعفها هذا يشكل اغراء يدفع بالصليبيين

درهم فضي من عهد صلاح الدين ، وقد ضرب في دمشق ، ٥٧٣ للهجرة

لغزو ديارها . ولكنه كان قد عزم ان يسحق شوكة الصليبيين بعد ان يكون قد رمى بهم بين حجري الرحى : من الشمال ومن الجنوب . فارسل صلاح الدين الى مصر ليحقق ثلاثة اهداف رئيسية: لقلب الخلافة الشيعية الفاطمية واستبدالها بخلافة سنية، ولتوحيد سورية ومصر تحت صولجان واحد ، ولمتابعة الحرب ضد الصليبيين حتى النهاية . وقد كان تحقيق الهدف الاول ، قلب الخلافة الفاطمية ، اسهل الثلاثة . فانه لما اصبح وزيراً في البلاط الفاطمي اخذ يترقب الفرص لتحقيق غايته . اذ بينما كان الخليفة العاضد ــ وكان عمره ٢٠ سنة ــ يعاني سكرة الموت عام ١١٧١ ، امر صلاح الدين ان يذكر الخليفة العباسي في بغداد ، المستضيء ،

١ ــ ابو شامة الجزء الاول ص ١٥٥ . ابن الاثير الجزء الحادي عشر ص ٢٢٣ و ٢٢٦ . ابو الفداء الجزء الثالث ص ٤٧ .

في صلاة الجمعة عوضاً عن ذكر الخليفة الفاطمي . وقد كانت هذه الخطوة بسيطة وسهلة التحقيق اذ لم يرافقها شيء من المقاومة او الاحتجـاج . وبضربة واحدة استطـاع صلاح الدين السني وقائد الجيش ان يقضي على اسرة ويقوض اركان خلافة. ولم يقف الامر عند هذا الحد بل انه قضى على استمرار الانقسام الخطير الذي كان يمزق العالم الاسلامي . ومنذ ذلك الحين اخذت السنّة تنتقل من نصر الى نصر .

بعد ثلاثة سنوات على هذه الامور توفي نور الدين في دمشق من علة اصابته في حنجرته وهو في السادسة والخمسين من عمره . فخلفه في الحكم احـد ابنائه ، اسماعيل ــ وهو صبي في الحاديـة عشرة من عمره ــ وهكذا لم يجد صلاح الدين صعوبة في اغتصاب الملك من هـذا الصبي . وقد سارع الخليفة العباسي في بغداد الى اصدار براءة حكم كان صلاح قد طلبها منـه يعينه بموجبها حاكما على مصر وسورية . وقد ضمت القيروان والنوبة والحجاز واليمن وجزء من العراق الشمالي الى مملكة صلاح الدين . وهكذا قامت السلطنة الايوبية على انقاض الخلافة الفاطمية في مصر والاتابكة في سورية . فكان على صلاح الدين ، بعد ان استتب له الامر ، ان يحقق الحلم الذي كان يراود نور الدين: حصر الصليبيين والاحاطة بهم من كل جانب تمهيداً للقضاء عليهم . وهكذا ، بعـد ان حقق صلاح الدين الهدفين الاولين ، قلب الخلافة الفاطمية وتوحيد مصر وسورية ، شرع في الاستعداد لتحقيق هدفه الثالث طرد الصليبيين .

دقت ساعة الخطر لما التحم جيش المسلمين مع جيش المملكة اللاتينية في الثالث من تموز عام ١١٨٧ في حطّين على مقربـة من قرون بركان هامد يرتفع ١٧٠٦ اقدام فوق سطح بحيرة الجليل (طبرية) بالقرب من المكان الذي القى فيـه السيد المسيح عظته الشهيرة: العظة على الجبل . هناك أحاط جيش المسلمين بجيش الافرنج الذي كان قد انهكه المسير وشـدة الحر واجهده العطش ، فامطروهم وابلا من النبال والقذائف الاخرى فحصدوهم حصداً . وقد نجا من هذا الجيش الذي كان يعد ٢٠ الفا عدد قليل . اما الاسرى فقد كان على رأسهم ملك بيت المقدس ، غي دي لوزينيان، الذي استقبله صلاح الدين استقبالا ينم عن كرم ونبـل . ولكن معاملة صلاح الدين لزميله رجينالد (ويسميه العرب ارناط) حاكم الكرك الذي كان قد نقض العهد وهاجم الحجاج المسلمين وقوافلهم التجارية التي كانت تمر بالقرب من

حصنه ، والذي كان يُعِدُّ عن حمق حملة لمهاجمة المدن المقدسة في الحجاز ، نقول ان صلاح الدين عامله معاملة تختلف عن المعاملة الحسنة التي عامل بها ملك بيت المقدس . فان صلاح الدين كان قد اقسم انه سيقتل بيده ارناط ، عدو الاسلام ، ان ظفر به . ولما جاؤوا بالاسرى المكبلين وعلى رأسهم ملك بيت المقدس أعطُوا ماء للشرب . ولكن اعطاءهم الماء لم يكن بمثابة اعطاء امان لهم — كما هي الحال عند العرب في مثل هذه الظروف — فان ارناط الذي كان يتكلم العربية حسناً ، طلب شربة ماء ولكنه لم يُعْطَها ، وقد قتله صلاح الدين بيده[1]

ولم تقتصر نتائج معركة حطين على القضاء على جيش مملكة بيت المقدس ، انما كان لها نتائج خطيرة في سائر الدويلات اللاتينية التابعة لها . فان طبرية استسلمت . وقد كانت الكونتس زوجة ريموند الثالث ، كونت طرابلس وامير بلاد الجليل ، تدافع عن طبرية باسم زوجها . وقد احسن صلاح الدين معاملتها وردها مكرمة مع حاشيتها واهل بيتها الى مدينة طرابلس. اما جيش المسلمين فقد تابع زحفه نحو عكا حيث استبيحت المدينة للسلب . وقد غنم المسلمون مقادير كبيرة من البضائع والحرائر والمعادن والمجوهرات والاسلحة التي خلفها التجار النصارى وراءهم ووزعوها على الجند . ثم انهم اعادوا بناء حصونها . من هناك ارسلت فرق من الجنود الى نابلس وتبنين واماكن اخرى في شمال فلسطين ولكنها لم تلق مقاومة ما. واخيراً هاجموا يافا واقتحموها وباعوا سكانها من اللاتين رجالا ونساء واطفالا في سوق الرقيق . ويذكر ابن الاثير[2] الذي اشرنا اليه مراراً انه ابتاع جارية في حلب . وكان معها طفل عمره سنة واحدة . وهذه الجارية كانت

١ — ابو شامة ، الجزء الثاني ص ٧٥ وما يليها (وهو تقرير شاهد عيان) . ابن الاثير ، الجزء الحادي عشر ص ٣٥٢ — ٣٥٥ . بهاء الدين ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في : *Recueil : orientaux*, vol. III, pp. 39 - 40, 92 - 9; tr. *Saladin : or What Befell Sultan Yusuf* (London, 1897) pp. 42 - 3, 110 - 117 . عماد الدين الاصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، طبعة لندبرغ (ليدن ١٨٨٨) ص ٢٢—٢٨ . (وقد كان عماد وبهاء كاتبين عند صلاح الدين وكتبا سيرة حياته) .

Ernoul and Bernard le Trésorier, *Chronique,* ed, M. L. de Mas Latrie (paris, 1871) pp. 172 - 4 .

٢ — الجزء الحادي عشر ص ٣٥٧ .

قد فقدت زوجها واخوتها الستة واختيها . ويذكر لنا قصة جارية اخرى ذهبت مع مولاها الحلبي لزيارة احد اصدقائه ، وشد ما كان عجبها عندما التقت هناك باخت لها ، فضمتها الى صدرها وتعانقتا ووقعتا على الارض مغشياً عليهما . ولم تعرفا شيئاً عما حل بسائر افراد عائلتهما. ويبدو ان روح الجهاد الذي كان قد استولى على النصارى في سبيل استرجاع الارض المقدسة من ايدي المسلمين قد انتقلت الآن الى المعسكر الثاني ، الى المسلمين .

وقد اصبح السبيل الآن ممهداً امام جيوش المسلمين لغزو مدن الساحل اللبناني. ونذكر ان ما تبقى من جيوش الافرنج بعد معركة حطين ارتد منهزماً الى صور . ولما كانت اسوار صور من جهة البر حصينة منيعة ، فقد آثر صلاح الدين ان يتعداها الى صيدا التي استسلمت بدون مقاومة فخربت . اما حاكمها الافرنجي رجينالد فانه لجأ الى الشقيف . وسقطت بيروت في يد المسلمين في السادس من آب . واما جبيل فان حاكمها اشترط في تسليمها ان يُخَـلّى سبيله . وقد تم له ما طلب ، فسلم المدينة . ولم يبق على الشاطىء اللبناني في ايدي الافرنج سوى صور وطرابلس .

اما بيت المقدس فقد استولى عليها المسلمون في اليوم الثاني من شهر تشرين الاول عام ١١٨٧ . وقد لقي اهل المدينة من حسن المعاملة ما لا يقاس بما لاقوه قبل ذلك بثمان وثمانين سنة على ايدي الافرنج لما دخلوا المدينة . وعند نهاية عام ١١٨٩ استرد المسلمون كلا من طرطوس وجبلة واللاذقية وعسقلان وغزة . ولم يتحرشوا باللاذقية بل تركوها وشأنها[1] . وفي تلك السنة ضرب المسلمون الحصار على قلعة الشقيف الى حيث كان قد لجأ رجينالد صاحب صيدا . وكان هذا الرجل يحسن العربية ، وقد درس آدابها . ولما تمت له مقابلة مع صلاح الدين في خيمته اعجب به صلاح الدين وبحسن حديثه . وقد عرض رجينالد ان يسلم الحصن بعد مضي ثلاثة اشهر ووعد بان يعتنق الاسلام . ولكنه في الواقع استغل الهدنة هذه ليدعم مركزه وليقوي دفاعه . ولما رافقه المسلمون الى

١ ــ المقريزي : كتاب السلوك في معرفة الملوك ، طبعة م . مصطفى زيادة ، الجزء الاول ، القسم الاول (القاهرة ١٩٣٤) ص ٩٩ ــ ١٠١ . عماد الدين ، ص ١٣٦ وما يليها .

بوابة القلعة امر الحامية باللغة الفرنسية ان يستعدوا للمقاومة . ولكن لم تنطل الحيلة على المسلمين . فضربوا الحصار على القلعة وارسلوا صاحبها مخفوراً الى دمشق . وفي عـام ١١٩٠ استسلمت القلعة[١] . وكانت حاميتها تتألف من فرسان الهيكل (Templars) او الداوية . وقد سموا بفرسان الهيكل نسبة الى هيكل سليمان حيث انشأوا مقرهم الاول بالقرب من موقع الهيكل في بيت المقدس . وقـد تنظمت جمعيتهم هـذه حوالي ١١١٩ وكانت غايتها المحافظة على سلامـة الحجاج الى الارض المقدسة .

معركة عكا

اثار وقوع بيت المقدس في ايدي المسلمين رد فعـل عنيفا في اوروبة وبعث روحاً صليبية جديدة اشترك فيها اعظم ملوك في اوروبـة قوة وبأساً : فردريك بربروسا (اي ذو اللحيـة الحمراء) من المانيا ، وفيليب اوغسطس من فرنسة ، وريكاردوس الاول ، الملقب بقلب الاسد من انكلترة . وهكذا يبدأ فصل جديد في صراع الغرب مع الشرق بطلاه صـلاح الدين وريكاردوس . ولقد اختـار الافرنج مدينـة عكا مسرحاً لتمثيل هـذا الفصل من المأساة على انها موقع ممتاز ونقطة انطلاق لاسترداد البلاد المقدسة . فضربوا عليها الحصار من جميع الجهات. وكان يعاون الافرنج هذه المرة اسطول بيزا ، فاحكموا الحصار عليها من جهـة البحر . اما فردريك فانـه غرق في نهر في آسية الصغرى عندما كان يستحم ، فتشتت جيشه شر تشتت . وقد دام هـذا الحصار وما رافقه من معارك كانت تعد من اعنف معـارك القرون الوسطى واهمهـا من ٢٧ آب ١١٨٩ الى ١٢ تموز ١١٩١ . فجاء صلاح الدين على رأس جيش لنجدة حامية المدينـة وعسكر وراء جيش الافرنج المحاصر . وكان يتصل بحامية المدينة بواسطة سباحين يتسللون الى المدينة او بواسطة الحمام الزاجل . وقد ارسل من بيروت مركباً محملا بالقمح واللحم والجبن والبصل وأرسله الى عكا ليخفف من حدة المجاعة فيها . ولكي تنطلي الحيلة على اسطول الفرنجة فانه وضع على ظهر المركب خنازير وغيّر

١ ــ بهاء الدين في Recueil : *orientaux,* vol. III, pp. 121 - 2, 129 - 30;
ابو شامة صفحة ١٣٩ ــ ١٤٠ .

البسة الملاحين المسلمين وطلب اليهم ان يعلقوا على صدورهم شارة الصليب لكي يحسبهم الصليبيون انهم من جماعتهم[١] . وكان صلاح الدين قد طلب النجدة من



قطعة نقود بيزنطية عليها كتابة عربية يعود تاريخها الى سنة ١٢٥٠ للميلاد ويظهر على وجه منها : إله واحد ، ايمان واحد ، ومعمودية واحدة . وعلى الوجه الآخر : الآب والابن والروح القدس إله واحد .

الخليفة العباسي الناصر في بغداد ، ولكن حظه من هذه النجدة لم يكن باحسن من حظ ابن عمار صاحب طرابلس الذي كان قد طلب العون ايضاً من الخليفة العباسي ــ وكان آنذاك ابا الخليفة الناصر . واخيراً استسلمت المدينة ، فعدل صلاح الدين عن خطة الهجوم واتخذ الدفاع خطة جديدة له . اما الافرنج فانهم استعادوا عسقلان واعادوا تحصين يافا واحتلوا الرملة . وبعد ذلك استعدوا للانقضاض على بيت المقدس . وفي اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني ١١٩٢ عقد الصلح بين المسلمين والافرنج على ان يبقى الساحل من صور الى الجنوب في ايدي الافرنج ، وان تكون داخلية البلاد في ايدي المسلمين شرط ان يُسمَح للنصارى بالحج الى بيت المقدس[٢] اي ان فلسطين قسمت الى منطقتين على غرار ما جرى سنة ١٩٤٨ . وقد عاد ريكاردوس الى وطنه ، واما صلاح الدين فانه توفي اثر حمّى اصابته في العام التالي ، وكان له من العمر ٥٥ عاما ، ولا يزال اسمه في التاريخ والاسطورة على انه يمثل الفروسية العربية في اسمى معانيها . وقبره قرب الجامع الاموي في دمشق محجة يؤمها الناس .

١ ــ بهاء الدين في Recueil: *orientaux*, vol. III, p. 178, وابو شامة ، الجزء الثاني ص ١٦٠ ــ ١٦١ .

٢ ــ بهاء الدين في : Recueil: *orientaux*, vol. III, pp. 320 - 2 .

خلفاء صلاح الدين

ولكن ما ان توفي صلاح الدين حتى تجزأت تلك المملكة المترامية الاطراف التي انشأها بقوة السلاح وتقاسمها ابناؤه واخوته وابناء عمومته . فان احد اولاده استولى على حلب ، وآخر على دمشق وثالث على القاهرة . وفي وسط هذه الفوضى يبرز اخوه الاصغر الملك العادل سيف الدين (١١٩٩ ـ ١٢١٨) كوريث جدير بالحكم . فانه استولى على مصر وعلى اكثر المناطق السورية . وهو الملك الذي يذكره مؤرخو الحروب الصليبية باسم Saphadine . وكان ريكاردوس قد عرض عليه ان يزوجه اخته (اخت ريكاردوس) وان يهبهما عكا وبيت المقدس ، وبذلك يتم الصلح بين المسلمين والنصارى . والواقع ان الملك العادل كان يؤمن بالتعايش السلمي : علاقات ودية مع الافرنج وعلاقات تجارية مع اوطانهم في اوروبة . وقد نشأت بعد الملك العادل دويلات ايوبية متعددة في مصر ودمشق والعراق ، كما قامت دويلات ايوبية اخرى في حماة[1] وحمص واليمن . وكان طبيعياً ان تقع الحروب بين هذه الدويلات ، فكان من جراء ذلك ان استعاد الافرنج مقاطعة بعد اخرى . فقد استعادوا بيروت عام ١١٩٧[2] بعد ان ظلت في ايدي المسلمين مدة عشر سنوات . وفي عام ١١٩٨ وقعت جبيل في ايدي الافرنج وتبنين و بيت المقدس (١٢٢٩) ويافا والناصرة ١٢٠٤ وصيدا وصفد ١٢٤٠ وطبرية ١٢٤٤ . اما قلعة الشقيف وصيدا وصفد فان الملك الصالح اسماعيل الايوبي ، سلطان دمشق ، قدمها الى الافرنج على ان يحميه الافرنج من شر نسيبه الملك الصالح ايوب سلطان مصر الذي كان قد عزله واستولى على دمشق عاصمة ملكه . وهكذا تخلى المسلمون عن وحدتهم السياسية وتماسكهم ضد عدوهم المشترك وفقدوا روح الجهاد الذي الهب مؤسس دولتهم ، صلاح الدين .

١ ـ وقد كان المؤرخ الجغرافي ابو الفداء احد افراد هذه الاسرة الايوبية . وقد اشرنا اليه مراراً عديدة في هذا المؤلف .

٢ ـ يقول صالح ابن يحيى ص ٢٣ ، ٢٥ ان حاكم بيروت كان في ذلك الوقت اسامة ابن منقذ صاحب قلعة شيزر وصديق صلاح الدين ومؤلف كتاب الاعتبار (الذي اشرنا اليه مراراً) . وقد وصفه صالح على انه جبان سلم المدينة ، مدينة بيروت ، بدون مقاومة . ولكن الصحيح ان اسامة كان قد توفي قبل هذا التاريخ بعشر سنوات .

ولم تكن حالة الافرنج من هذه الناحية افضل من حالة المسلمين . فقد كـــان التنافس عنيفاً بين جنوا والبندقية والتحاسد شديداً بين فرسان الهيكل او الداوية والاسبتارية . اما زعماؤهم فقد كانوا على عداء مستحكم فيا بينهم مما وقف سداً مانعاً في وجه الاستفادة من الحالة التي وقع فيها المسلمون . امـــا الاسبتارية ، او فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس فانهم كانوا هيأة غرضها تأسيس الفنادق والخانات لراحة الحجاج الى بيت المقدس لا تأسيس المستشفيات كما دعوا فيا بعد (Hospitallers) . ولكنهم انقلبوا بعد ذلك الى جنود يتعاطون مهنة الحرب . وقد كان نظام الداوية والاسبتارية نظام رهبنة . ولكن هذا لم يحل دون وقوع المنازعات بينهم ولم يمنع ان يلجأ احدهم الى طلب العون من المسلمين تماماً كما كان يفعل المسلمون في منازعاتهم وحروبهم الداخلية عندما كانوا يستنجدون بالصليبيين لمحاربة بعضهم بعضاً .

في منتصف القرن الثالث عشر ظهر في فرنسة الملك لويس التاسع الذي اعاد الى الروح الصليبية نشاطها وحيويتها . كان هذا الملك مثالياً يعيش في عالم بعيد عن الواقع . فانه أهمل شؤون مملكته وتركها نهباً للمفسدين ، وحمل شارة الصليب وقرر ان يلتحق بالصليبيين . وقد ادرك لويس ان مصر آنذاك ، هي قلب العـــالم الاسلامي ومركز الثقل فيه . فصمم على ان يهاجم مصر اولا . ولكنه اخطأ التقدير ومني في مصر بهزيمة نكراء ووقع هو نفسه في الاسر . وبعد ان افتدى نفسه بمبلغ كبير من المال جاء الارض المقدسة في شهر شباط عام ١٢٥٠ واقام ٤ سنوات في صيدا التي اعاد بناءها ورمم حصونها . وجعل مقرّه في القلعة التي كان الصليبيون قد بنوها من قبل والتي عرفت فيا بعد بقصر سانت لويس وتعرف الآن بقلعـــة المزّة . وكذلك اعاد الملك لويس بناء حصون قيسارية ويافا.[1] وما تبقى لديه من وقت قضاه في المفاوضات والمداولات . وكان جيشه يعد ١٤٠٠ فارس . ولما كان في عكا استقبل وفداً من قبل زعيم الحشاشين في مصياف الذي حمل معه هدية للملك لويس: ادوات للزينة وفيلا وزرافة من البلور وكهرمان ولعبة نرد وشطرنج وخاتماً وقميصاً . اما الخاتم فيرمز الى اتحادهما وتحالفهما ، واما القميص فترمز الى ان ملك فرنسة قريب الى شخص زعيم الحشاشين قرب القميص من الجسم . وقـــد بعث

---

١ — Joinville, secs. 406-603.

لويس بهدية الى زعيم الحشاشين: مجوهرات وقماش قرمزي اللون واقداح من ذهب ولجام من فضة .[١] ولم يكن لويس فارساً كريماً ومحارباً شجاعاً ورجلا صبوراً في الشدائد وحسب ، وانما كان الى جانب هذه الفضائل رجلا مسيحياً تقياً ورعاً يصوم ويصلي . حتى انه كان في اسفاره يصطحب كهنة يرتلون له الترانيم الدينية وهم يحيطون به على ظهور الجياد . وكان يمثل احسن ما في زعماء الصليبيين من خلق وتدين. وقد طُوب قديساً عام ١٢٩٧ ولا يزال اسمه حياً في التاريخ الاوروبي على انه كان يمثل الملك المثالي في القرون المتوسطة .

المماليك يخلفون الايوبيين

تميز منتصف القرن الثالث عشر بحادثين على غاية من الخطورة : قيام دولة المماليك الذين خلفوا صلاح الدين واستولوا على المملكة التي انشأها ، وغزوة المغول التي عرضت المنطقة باجمعها الى فترة خراب وفوضى .

كان المماليك (ومفردها مملوك ومعناه العبد والمولى) جماعة عسكرية ينتمي افرادها الى الاتراك او المغول او الشركس استولت على الحكم من سنة ١٢٥٠ الى مقدم الاتراك العثمانيين في عام ١٥١٧ . ولا يعرف شيء عن نسب هؤلاء المماليك، لانهم كانوا يبتاعون في سوق النخاسة في البلاد الروسية او القفقازية . واول من نظم امرهم الملك الصالح ايوب (١٢٤٠ ، و ١٢٤٥ ــ ١٢٤٩) اذ ابتاع جماعة منهم ليكونوا بمثابة حرس له . وينقسمون الى جماعتين: المماليك البحرية (١٢٥٠ــ ١٣٩٠) نسبة الى مقرهم الذي كان على جزيرة صغيرة في نهر النيل(والعامة في مصر تسمي النيل بحراً) ، والمماليك البرجية (١٣٨٢ــ١٥١٧) نسبة الى ان مقرهم كان ابراج القلعة التي بناها صلاح الدين في القاهرة . وكان اول من استولى على الحكم منهم مملوك تركي اسمه عزالدين ايبك (١٢٥٠ ــ١٢٥٧) الذي كان قد تزوج شجر الدر ارملة سيده الملك الصالح ، التي استولت على الحكم الى فترة قصيرة بعد موت زوجها .

---

١ — Joinville, secs. 456-458.

غزوة المغول

كانت حملات جنكيزخان بدء سلسلة من هجمات المغوليين على العالم الاسلامي، تلك الهجمات التي احدثت فيه من الدمار والتخريب ما لم يزل اثره بعد. كان جنكيزخان من اعظم بناة الامبراطوريات في العالم. فانه، قبل ان ادركته الوفاة عام ١٢٢٧، كان قد اسس امبراطورية تمتد من اطراف الصين الشرقية الى ايران ووادي السند (الاندس) في الهند. وقد كانت جحافله المغولية التي كانت تغير المرة بعد الاخرى على الممالك الاسلامية تنشر القتل والخراب انى نزلت. وقد ظل العالم الاسلامي يعاني الامرين من اثر الضربات التي انزلها به المغول امداً طويلا. وقد تابع هولاغو، حفيده، الزحف غربا من حيث انتهى اليه جنكيزخان. فانه بعد ان قضى على قلعة ألَموت، حصن الحشاشين المنيع، وبعد ان خرب بغداد وقضى على الخلافة العباسية، ظهر فجأة امام اسوار حلب، فلما فتحها قتل من اهلها ٥٠ الف نسمة. ثم جاء دور حماة فنالت نصيبها. وخرّب بعلبك. واما صيدا فانه خلفها اكواماً من تراب. ثم انه بعث باحد قواده الى دمشق، اما هو فقفل راجعاً الى ايران بسبب مقتل اخيه هناك. والحقت انطاكية اللاتينية بالامبراطورية المغولية. فان البابا لويس التاسع اعتبر التحالف بين الافرنج والمغول امراً مرغوباً فيه لمواجهة عدوهم المشترك: الاسلام. وقام قائد مغولي آخر، وكان نصرانياً اسمه كتبوغا، بالتوغل جنوبا الى ان جاء فلسطين. وقد يسأل احدنا عن كون هذا القائد المغولي نصرانياً فنقول ان المبشرين النسطوريين ادخلوا المسيحية الى الصين قبل هذه الفترة التي نحن بصددها بزمن طويل. ولما اقترب المغول من فلسطين كان سلطان مصر المملوك قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠) فاتجه شمالا ليدفع عن مصر غائلة الاجتياح المغولي. وكان قائده في المقدمة بيبرس — وهو مولى مغولي من موالي الملك الصالح. وهذا هو الذي انتصر انتصاراً باهراً على المغول في معركة عين جالوت (عين جليات الجبار في اسفار العهد القديم) بالقرب من الناصرة. وقد تابع مطاردة الجيش المغولي المنهزم الى ان جلاه عن سورية. وبينما كان بيبرس في طريقه راجعاً الى مصر منتصراً ظافراً طعن مولاه قطز خلسة بخنجر في عنقه واغتصب الملك لنفسه.

بيبرس بطل مقاومة الصليبيين

كان بيبرس (١٢٦٠ ــ ١٢٧٧) الرابع بين المماليك البحريين. وهو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك . ولد بيبرس في كيبتشاك في اواسط آسيــة ، وبيع فتى في سوق النخاسة في دمشق بثماني مئة درهم. ولكن سيّده ردّه الى البائع لانه اكتشف بعض العاهة في احدى عينيه الزرقاوين . فاشتراه الملك الصالح في حماة . ولما وفق بيبرس في وقف الهجوم المغولي وردّه شرقاً عمد الى توحيد سورية التي حررها مع مصر . عندها اصبح في وضع يستطيع معه ان يعدّ العدّة لمهاجمة الصليبيين . فأخذ يضرب الحصار على المدينة تلو الاخرى الى ان اخضع جميع المواقع الحصينة التي كانت بيد الصليبيين . وفت في عضد الصليبيين فلم يتمكنوا من تأليف جيش تبلغ قوته حداً يستطيع معها ان يقف في وجه المماليك . ومنظّمتا الهيكليين والداويــة القابعتان في قلاعهما الحصينة ، التي كانت للفرنج بمثابة العمود الفقري ، لم تكونا لتستطيعا الوقوف في وجه هذا البطل الجديد خليفة صلاح الدين. وهكذا سقطت هذه القلاع والحصون الواحدة تلو الاخرى. ففي عام ١٢٦٣ سقطت الكرك وهدّمت، وفي عام ١٢٦٥ احتلت قوى بيبرس قيسارية وارسوف، ثم صفد في ١٢٦٦ . أما يافا وشقيف عرنون فقد سقطتا عام ١٢٦٨ اما ارسوف وهو الحصن الذي تحتله الداوية ؛ والشقيف ، وهو مركز الهيكليين، فقــد كانا الحصنين الوحيدين اللذين استطاعا ان يقاوما حصاراً دام خمسة اسابيع . وقد سلّط بيبرس على قلعة الشقيف ٢٦ منجنيقاً[١] . وفي عام ١٢٦٨ سقطت انطاكية ، اقدم دولة لاتينيــة اسسها الافرنج . وقد قتل من سكانها ومن افراد حاميتها ١٦ الف نسمة . ويقــال ان مئة الف نسمة اخرى سيقت الى الاسر ، فبيع الفتى باثني عشر درهماً ، والفتــاة بخمسة. وقد غنم الفاتحون كثيراً حتى انهم كانوا يكيلون الدراهم للجنود بالاقداح. اما المدينة نفسها بقلاعها وكنائسها المشهورة فقد احرقت ولم يقم لهــا قائمة بعد ذلك[٢] . وفي عام ١٢٧١ سقط حصن الاكراد ، القلعة الحصينة العنيدة التي كانت

١ ــ المقريزي : سلوك ، الجزء الاول ، القسم الثاني ص ٥٦٥ ــ ٥٦٦ .

٢ ــ ابو الفداء ، الجزء الرابع ص ٤ ــ ٥ . المقريزي : سلوك ، الجزء الاول والقسم الثــاني ص ٥٦٧ ــ ٥٦٨ . ابن العبري ص ٥٠٠ .

تحتلها الداوية بعد حصار دام خمسة عشر يوماً . وكانت تقع في كونتية طرابلس . وكانت تسع الفي رجل محارب في وقت واحد . وكذلك سقطت مصياف وغيرها من القلاع التابعة لفرقة الحشاشين الذين كانوا احلاف الداوية . وقد سارعت كل من طرطوس ، حصن الهيكليين الرئيسي ، وقلعة المرقب[١] التي كانت تحتلها جماعة الداوية لعقد صلح مدته عشر سنين وعشرة اشهر .

قلاوون

كان السلطان قلاوون (١٢٧٩ ــ ١٢٩٠) جديراً بان يخلف بيبرس . فانه لم يكن باقل منه قدرة وشجاعة وحماساً . وقد ولد قلاوون في كبتشاك وهي البلدة ذاتها التي ولد فيها بيبرس. ومثل بيبرس كان قلاوون مولى في خدمة الملك الصالح. وكان يلقب بالألفي ، ذلك لان ثمنه في سوق النخاسين كان الف دينار . كان قلاوون وصياً على ابن بيبرس الذي تسنم العرش وهو ابن سبع سنين . ولكنه لم يعتم ان خلعه واقام نفسه سلطاناً مكانه . وفي عام ١٢٨٢ جدد قلاوون معاهدة الهدنة بين المسلمين وصاحب طرطوس لمدة عشر سنوات وعشرة اشهر . وبعد ثلاث سنوات عقد معاهدة هدنة مع اميرة صور التي كانت تحكم بيروت ايضاً[٢] ولم تكن بنود هذه المعاهدة تختلف عن بنود سابقاتها من المعاهدات بما في ذلك البند الخاص الذي يمنع بناء حصون او قلاع اضافية . وفي السنة نفسها (١٢٨٥) ضرب الحصار على قلعة المرقب التي كانت تفاوض المغول الذين استولوا على حلب . وقد دام الحصار ثمانية وعشرين يوماً ولما استسلمت سمح لفرسان حاميتها ان يخرجوا الى طرابلس ومعهم جميع اموالهم المنقولة التي يستطيعون حملها باستثناء السلاح[٣] . ولا يزال المرء يرى رؤوس النبال وقذائف المنجنيقات في جدران القلعة وابراجها المبنية من الحجارة البركانية السوداء . وكان المؤرخ ابو الفداء[٤]

١ ــ المقريزي : سلوك ، الجزء الأول ، والقسم الثاني ص ٥٩١ ــ ٥٩٢ .

٢ ــ المقريزي (طبعة كاترمر) المجلد الثاني (القسم الثالث) ص ١٧٢ ــ ١٧٦ ، ١٧٧ ــ ١٧٨ .

٣ ــ ابن الفرات ، تاريخ (نشر قسطنطين زريق ونجلا عز الدين) المجلد الرابع (بيروت ١٩٣٩) ص ١٧ ــ ١٨ .

٤ ــ الجزء الرابع ص ٢٢ .

الذي اشرنا الى تاريخـه مراراً ابن اثنتي عشرة سنة آنذاك ويظهر انـه حضر المعركة . وفي عام ١٢٨٩ هاجم المسلمون طرابلس ودمروها تماماً بعد حصار دام شهراً استخدم فيه الف وخمسمائة عامل وظيفتهم الهدم والتقويض ، وتسع عشرة آلة من آلات الحصار . وقد لجأ كثير من الهاربـين من المدينة الى جزيرة صغيرة قريبة من الشاطىء غير ان السباحين في ساعات الجزر كانوا يسبحون الى الجزيرة ويقتلون اللاجئـين . ويقول ابو الفداء ان رائحة اجساد الموتى المتفسخة كانت كريهة جداً لا يستطيع امرؤ ان يطيقها[١] . وقد هرب بعض سكان طرابلس بحراً لان اسطول المماليك لم يكن ذا فعالية كبيرة في فرض الحصار عليهـا من البحر . وبعد ان سقطت طرابلس استرد المسلمون البترون بدون مقاومة تذكر .

استرداد عكا

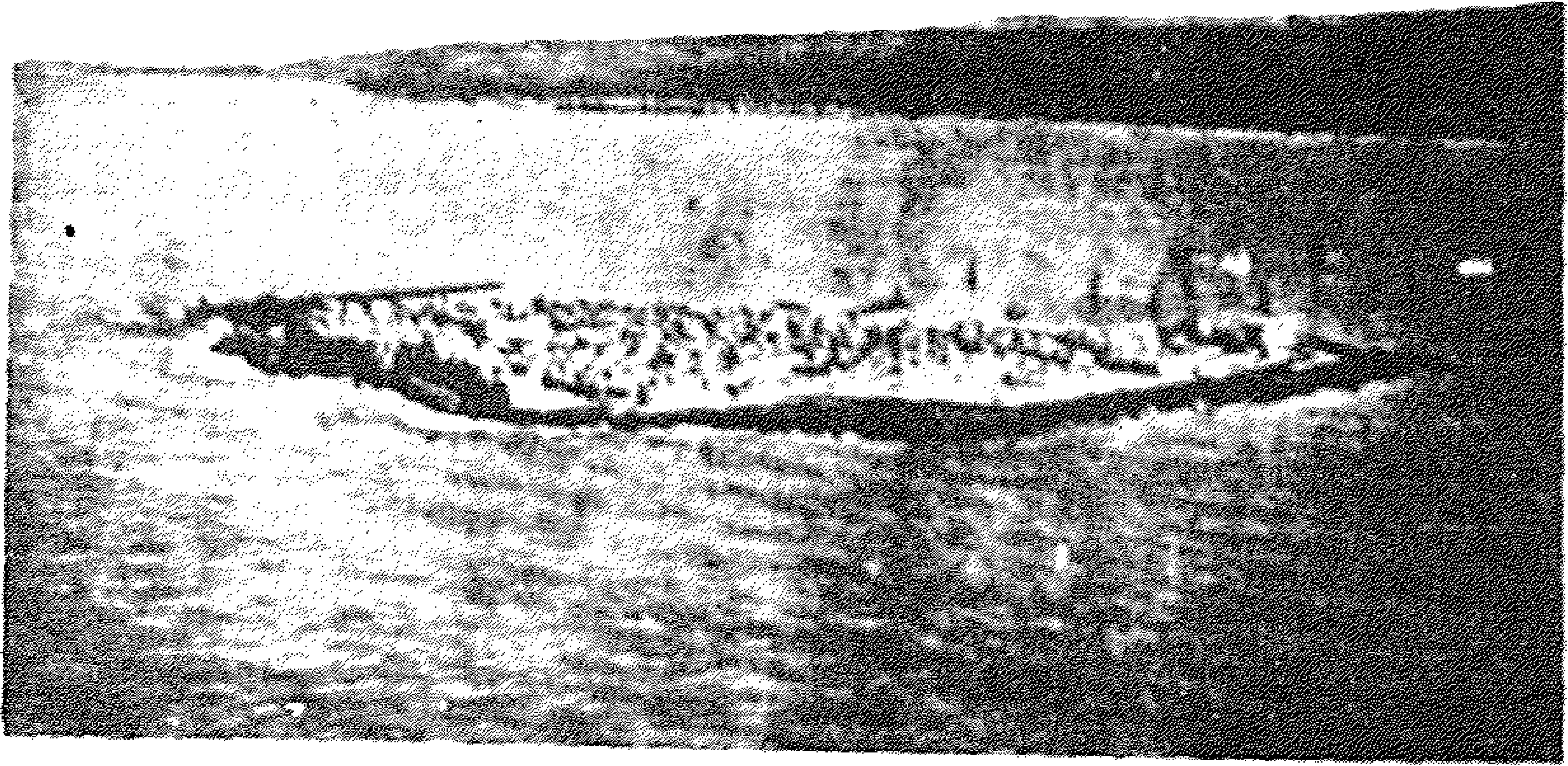
لم يبق في يد الافرنج ، بعد سقوط طرابلس ، مركز عسكري ذو شأن سوى عكا . وقد حاصرهـا السلطان الاشرف (١٢٩٠ ــ ١٢٩٣) ، ابن قلاوون وخليفته شهراً من الزمن . وفي اليوم الثامن عشر من شهر ايار ١٢٩١ ، اي بعد مرور قرن واحد على استيلاء الافرنج عليها ، هاجمها الجند واستلمت . وقـد استخدم الاشرف في حصارها اثنين وتسعين منجنيقاً . وهذا اكبر عدد من آلات الحصار التي استخدمت ضد اسوار عكا . اما حماتها من فرسان الداوية ، وعددهم قرابة تسعمائة فارس ، فقد قتلوا بعد ان كان السلطان قد امّنهم على انفسهم ليتركوا المدينة . وكان الى جانب هؤلاء ما يقرب من خمسة عشر الف راجل في المدينة . وقد وصف لنا ابو الفداء استيلاء المسلمين على عكا ، وكان وصفه وصف شاهد عيان[٢] . وقد هدمت المدينة وكاد ان يمحي لها كل اثر الى ان اعاد بناءها ظاهر العمر في القرن الثامن عشر . وبسقوط عكا فقدت باقي مدن الساحل التي كانت بيد

---

١ ــ ابو الفـداء الجزء الرابع ص ٢٤ . تاريخ ابن الفرات الجزء الثامن ص ٨٠ ــ ٨١ اما الادريسي (طبعة غلد ميستر) ص ١٨ فانه يذكر اربـع جزر صغيرة في الميناء . اما الصخور الصغيرة التي نراها في يومنا هذا فلا تستحق اسم جزيرة .

٢ ــ الجزء الرابع ، ص ٢٥ ــ ٢٦ . المقريزي ، سلوك ، الجزء الاول ، والقسم الثالث ، ص ١٠٠٢ ــ ١٠٠٥ Marinus Sanuto « Liber Secretorum », in Bongars, *Gesta dei per Francos* (Hanau, 1611), vol. II, p. 201 .

الافرنج كل امل بالمحافظة على كيانها . فان حماة صور غادروهــا في اليوم الذي سقطت فيه عكا . واما صيدا فسقطت في الرابع عشر من تموز . وبعد سبعة ايام استسلمت بيروت . وفي الثالث من آب انطرطوس . وقد هجر الفرسان الداويّة عثليث (واسم الحصن في اللاتينية Castrum Peregrinorum ويعرف بالافرنسية بـ Château Pèlerin) فدخلها المسلمون وهدّموهــا في اواسط شهر آب[١] . وكان ذلك آخر موطىء قدم للافرنج . وقد عبّر ابو الفداء عن شعور المسلمين



جزيرة ارواد

اذ ذاك بقوله : « وهكذا تحررت سوريا ومدنها الساحليـــة من الافرنج ...... والحمد لله »[٢] . اما ارواد[٣] فقد ظلت في يد الفرسان الداوية مدة احدى عشرة سنة اخرى . وعلى العتبة فوق مدخل القلعة الخربة يرى المرء رسم شعار ممـــا يدل على صلتها القديمة بالشعوب اللاتينية . وبسقوط ارواد ينزل الستار على آخر مشهد من المأساة التاريخية التي وقعت بين المسيحية والاسلام .

١ ــ صالح ص ٤٢ . ابو الفداء ، الجزء الرابع ، ص ٢٦ .
Sanuto, vol. II, pp. 231 seq.

٢ ــ ابو الفداء ، الجزء الرابع ، ص ٢٧ .

٣ ــ اثناء الانتداب الافرنسي على سورية ولبنـــان استعمل الافرنسيون الجزيرة منفى للمبعدين السياسيين .

الفصل الحادي والعشرون

العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين اللبنانيين والافرنج

بالرغم من أن الحروب الصليبية كانت غنية في التمثيل الرائع والحوادث المثيرة فانها كانت حروبا عقيمة هزيلة فيما حققته من نتائج في حقل الفكر والثقافة . فهي لم تقصر في بلوغ غايتها الاساسية ، الاستيلاء على الارض المقدسة ، فحسب ، بل عجزت عن تحقيق شيء ذي قيمة . وان المرء ليستطيع القول ان اثرها في الغرب كان افضل من اثرها في الشرق . فان هذه الحروب فتحت امـــام الغربيين كوى اطلوا منها على آفاق رحبة بعيدة لا سيما في حقلي التجارة والصناعة . اما اثرها في الشرق فقد كان خراباً على طول الشاطىء وحقداً وكراهية بين المسلمين والنصارى.

ما تعلمه الافرنج من الشرق

اما في فنون الحرب فان الافرنج تعلموا صنع اسلحة جديدة ، واتقنوا اساليب جديدة . فقد تعلموا استعمال القوس الذي يشبه الصليب، واستخدام قذائف محرقة من مختلف المواد الملتهبة ، وصنع الحواجز الجديدة لابواب القلاع والحصون[1] ، واستعمال الطنبور والنقارة في الجوقة الموسيقية العسكرية ، واستخدام الحمام الزاجل لنقل الرسائل والاخبار الحربية ، واستعمال النار في اعطاء الاشارات ليلا. وتعلموا اساليب جديدة في حفر الانفاق للنفاذ الى داخل الحصون ، وفي استخدام آلات الحصار كالمنجنيق . ولكثرة التقائهم بالفرسان من اعدائهم المسلمين فانهـــم كانوا يلبسون مختلف الشارات والدروع العسكرية واخذوا في حمل الاسلحة الثقيلة الغالية الصنع[2] .

---

١ ــ ويسمونها في الايطالية saracinesca . وقد كانت هذه الحواجز معروفة عند الرومان قبل ان عرفها العرب .

٢ ــ . **Dana C. Munro**, ***The Kingdom of the Crusades*** **(NewYork, 1935), p. 184** .

ويجب ان نذكر بان اوقات السلم بين المسلمين والافرنج كانت اطول من فترات الحرب سواء اكان ذلك شتاء ام صيفاً . وهذه الفترات التي كانت تقع فيها الهدنة اتاحت الفرصة لأهل البلاد والافرنج لان يختلطوا اجتماعياً ويتعاطوا مختلف الاعمال الاقتصادية . فكانت الحروب الصليبية عاملا في ازدياد وسائل النقل والمواصلات وفي تعميم الانتــاج الزراعي ونشر السلع الصناعية الشرقية في السوق الاوروبية . فازداد الطلب عليها ازدياداً كبيراً . وقد شجعت هذه الحروب المشاريع التجارية بين الشرق والغرب ورغّبت الحجاج في زيارة الارض المقدسة ، فاتسع نطــاق التجارة والحج عما كان عليه في الازمنة السابقة . وفي اثناء اقامتهم في الشرق تعلم الافرنج اساليب العيش الشرقي واستخدموا خدماً من ابناء البــلاد وممرضات وسائسي خيول . وعلى مر الايام تعرفوا الى كثير من الغــلال ومن مواد الاطعمة الشرقية كالسمسم والخروب والارز والليمون والبرقروق (واصل الكلمة لاتيني) والكرات والعنصل الذي يعرف احياناً بالاسقال (وهي تحريف لكلمة عسقلان ، والفرنجة يسمونه Scallions اي نسبة الى عسقلان) . وصاروا يستمرئون التوابل في اطعمتهم ، واصبحوا يتذوقون استعمال الروائح العطرية والافاويه وغيرها من منتوجــات المناطق المدارية والشبيهة بذلك واهم من هذه جميعها مادة السكر وقصبه اللذين تعرفوا اليهما على الشاطىء اللبناني . وقد كانت السهول المحيطة بصور ، مدينة المؤرخ وليم الصوري (توفي حوالي ١١٩٠) الذي اشرنا اليه كثيراً [١] غنية بزراعة قصب السكر . فان دي فتري [٢] يقول لنا «انه رأى حقولا واسعة مزروعة بقصب السكر في هذه النواحي (نواحي صور) وقصب السكر في داخــله كثير من العسل » . ولا يزال باستطاعة المرء ان يرى الاطفــال على الساحل يقطّعون القصب الى عقد صغيرة ويمضغونه . وموطن نبتة قصب السكر الاول وادي نهر الكنج ، ومن هنــاك ادخلت الى بلاد فارس . وفي القرن السابع ميلادي كانت زراعة قصب السكر زراعة محدودة جداً في مناطق الشرق الادنى . ولكن لما فتح العرب هذه البلدان ازدادت زراعته ازدياداً كبيراً . ولقد عثر في مصر على آنيــة زجاجية يعود عهدها الى القرن الثامن الميلادي كانت تستعمل مكيالا للسكر ، وقد

---

١ — Vol. II, P. 6.

٢ — De Vitry, *Jerusalem*, p. 28

كتب عليها كلمة « سكر » وهذا اقدم دليل كتابي على ورود كلمة سكر في اللغة العربية[١] . وقد كانوا يستعملون السكر اولا كدواء .

وكما ان الافرنج استمرأوا الوان الطعام الشرقي فانهم ايضاً استلطفوا الثياب الشرقية . فان رجالهم اخذوا بلبس السراويل الفضفاضة والثياب الواسعة المتهدلة (التي تخفف من شدة الحرّ) وصاروا يعتمرون الكوفية وامتنعوا عن حلق لحاهم. وصارت نساؤهم يرتدين الثياب الشرقية ويضعن على وجوههن الحجاب في الامكنة العامة[٢] . وكثيرون منهم كانوا يبعثون بالسجاد الشرقي والستائر الى اوطانهم ، ومنهم من كان يحملها معه عند مغادرته البلاد . وراجت في اوروبة الانسجة والاقمشة الشرقية كالدمقس (وهو damask تحريف اسم دمشق) والاطلس والساتان (satin)[٣] وصار النساجون في اوروبة يقلدون صنعها . وكذلك راجت في الاسواق الاوربية الآنية الخزفية والزجاجية الشرقية التي اشتهرت مدن لبنان الساحلية بصنعها منذ اقدم الازمنة. وكانت المناطق المجاورة لبيروت وطرابلس تُعنَى بتربية دود الحرير منذ العهد البيزنطي المتأخر (اواخر القرن السادس الميلادي). وقد اشتهرت صور بصنع قماش حريري رفيع يعرف بالحرير السندي . اما عكا وبيروت واللاذقية فقد اشتهرت بصنع القماش الحريري السميك المقصب الذي يعرف بالحرير المقصب المسدس الخيطان. كانوا يدخلون في حياكته خيطاناً مذهبة ومفضضة ليستعمل اغطية فخمة للمساند ولألبسة الكهنة . واشغال التطريز (شغل الابرة) كانت تسير جنباً الى جنب مع صناعة النسيج . والزجاج الملون يعود في اصله الى وحي شرقي . والى جانب السلع والبضائع الوطنية كان الصليبيون يتعرفون ايضاً الى انواع اخرى من البضائع المستوردة الى الشرق الذي عرفوه .

كان من نتائج ازدياد التجارة الدولية وازدهارها اقبال عظيم على النقد المتداول مما ادى الى وضع اقتصاد يقوم على العملة ، وهذا بدوره ادى الى ازدياد في صك النقود والى ازدياد في كمية المتداول منها . وقد كان فرسان الهيكل صيارفة ذلك

١ – George C. Miles, *Early Arabic Glass Weights and Stamps : a Supplement* (New York, 1951), pp. 35,44 .

٢ – ابن جبير ص ٣٣٣ .

٣ – هذه اللفظة، ساتان satin ، تحريف اسم مدينة في الصين كانت مشهورة بصنع الحرير . وقد سمى العرب المدينة الصينية « زيتونة » ثم حرفها الافرنج الى satin .

العهد . وكذلك اسست القنصليات في المدن الساحلية، واول قنصلية اسست كانت في مدينة عكا حوالي ١١٨٠ وكان القنصل رجلا من مدينة جنوا . اما التفاعل الفكري بين الافرنج والعرب فلم يتم بتلك السرعة .والحرية التي تم فيها التفاعل المادي . ومما لا شك فيه ان الحضارة الشرقية كانت على مستوى ارفع من مستوى الحضارة الغربية . غير ان العداء المستحكم بين الشرق والغرب والتعصب الديني والحاجز اللغوي جميع هذه كانت تقف حائلا دون التفاعل الفكري . واذا استثنينا كتاب «كامل الصناعة الطبية» لمؤلفه علي ابن العباس المجوسي (توفي سنة ٩٩٤) – وكان الافرنج يضيفون الى اسمه «القديس» – فاننا لا نعرف كتاباً علمياً عربياً نقل الى اللاتينية ايام الحروب الصليبية . وقد تُرجم هذا الكتاب من العربية الى اللاتينية في مدينة انطاكية ، وقد قام بترجمته رجل ايطالي من مدينة بيزا اسمه اسطفان .

اثر الحروب الصليبية في الشرق : فن العمارة

ويهمنا ان نتعرف الى اثر الحروب الصليبية في البلاد التي دارت فيها رحى الحرب . وابرز هذه الآثار المرئية الملموسة بقايا البروج المنتشرة على طول الساحل السوري اللبناني ، وخرائب القلاع الهائلة القائمة على الهضاب القائمة عند سفوح جبال لبنان ، والكنائس العديدة التي حُول معظمها الى مساجد وجوامع . وقد حرص بناة هذه القلاع ان يكون بناؤها عملا فنياً يتمشى مع فن العمارة البيزنطي الشائع في البلاد . وكان بناء الكنائس يتبع الاسلوب الرومنسي والقوطي المألوف، اما زخرفها فكان يحتذي النماذج البيزنطية . والاقواس ذات الرؤوس الحادة التي نراها في كاتدرائية طرطوس، والتي أتم بناؤها عام ١١٠٢ ، سبقت ظهور اقواس ذات رؤوس مثلها حادة في الغرب، مما يدل على ان الافرنج نقلوا بناء هذا الشكل من الاقواس عن الشرقيين . اما كاتدرائية نوتردام في صور (وقد كان المؤرخ وليم الصوري[1] رئيساً لاساقفة المدينة من ١١٧٥ الى حوالي ١١٨٥) فقد بُدىء ببنائها عام ١١٢٧ على موقع قديم لكنيسة تعود الى القرن الرابع الميلادي ، ولعلها الكنيسة التي كرسها يوسبيوس[2] . وبسبب ان صور كانت مدينة كبيرة

١– Vol. II , p. 411 .

٢– Enlart , vol. II , p. 353 .

جامعة فقد كان اساقفة بيروت وصيدا وعكا وحتى الى البتراء جنوباً يعتبرون كمساعدين لرئيس اساقفة صور . وقد كان في صور كنيسة ثانية كرست للقديس مرقس بناها اهل البندقية تقريباً في هذه الفترة من الزمن . وتدل اعمدة الغرانيت ذات اللون الوردي المبعثرة في الخرائب هنا وهناك على انها اخذت من خرائب بناء اقدم عهداً من الكنيسة . وبعد انقضاء مدة تزيد على مئة وستين عاماً على بنائها هجرها الافرنج ثم خربها وهدمها الملك الاشرف مع ما تهدم من المدينة . وتقع بين صور وصيدا خرائب بلدة صرفند [١] حيث انشأ الصليبيون مقراً اسقفياً . وهنالك كنيسة شيدت على الموقع الذي يقول التقليد ان النبي ايليا كان يسكن فيه . اما اليوم فقد تحولت الكنيسة الى مزار اسلامي للخضر ، والخضر في التقليد الاسلامي هو النبي ايليا[٢] . اما في صيدا فان حيطان الكنيسة المستطيلة التي بنتها الاسبتارية وكرستها لشفيعها القديس يوحنا اصبحت في يومنا هذا جزءاً من الجامع الكبير ، وهو اكبر مسجد في مدينة صيدا . ويعود تاريخ بنائها الى القرن الثالث عشر .

وقد كان لمدينة بيروت ، كما كان لاكثر مدن العصور المتوسطة ، قلعة ظلت قائمة حتى سنة ١٨٥٦ [٣] . وقد كان موقع برجها البالغ علوه ثمانين قدماً في ساحة البرج ليومنا هذا . وفي بيروت حي يعرف بالسور (وتسميه العامة عصّور اي على السور) ويشير الاسم دلالة على ان قسماً من سور المدينة كان في هذا الحي . واهم ما تبقى لنا من الآثار الصليبية في بيروت كنيسة يوحنا المعمدان التي بناها الملك بولدوين عام ١١١٠ بعد استيلائه على المدينة بزمن قصير . وقد حولها المسلمون الى جامع يعرف اليوم بالجامع العمري وهو اكبر جامع في العاصمة اللبنانية . وقد كان البناء على غاية من البساطة حسب الشكل الهندسي الرومنسي . ويبدو ان اعمدة الكنيسة هذه ورؤوسها كانت قبلا اعمدة بزنطية الشكل اخذت من عمارة سابقة . اما الرسوم والزخارف المنحوتة في الحجر فقد غشاها الكلس الذي تطرش به الجدران . وقد يكون موقع هذه الكنيسة (الجامع العمري الآن) موقعاً

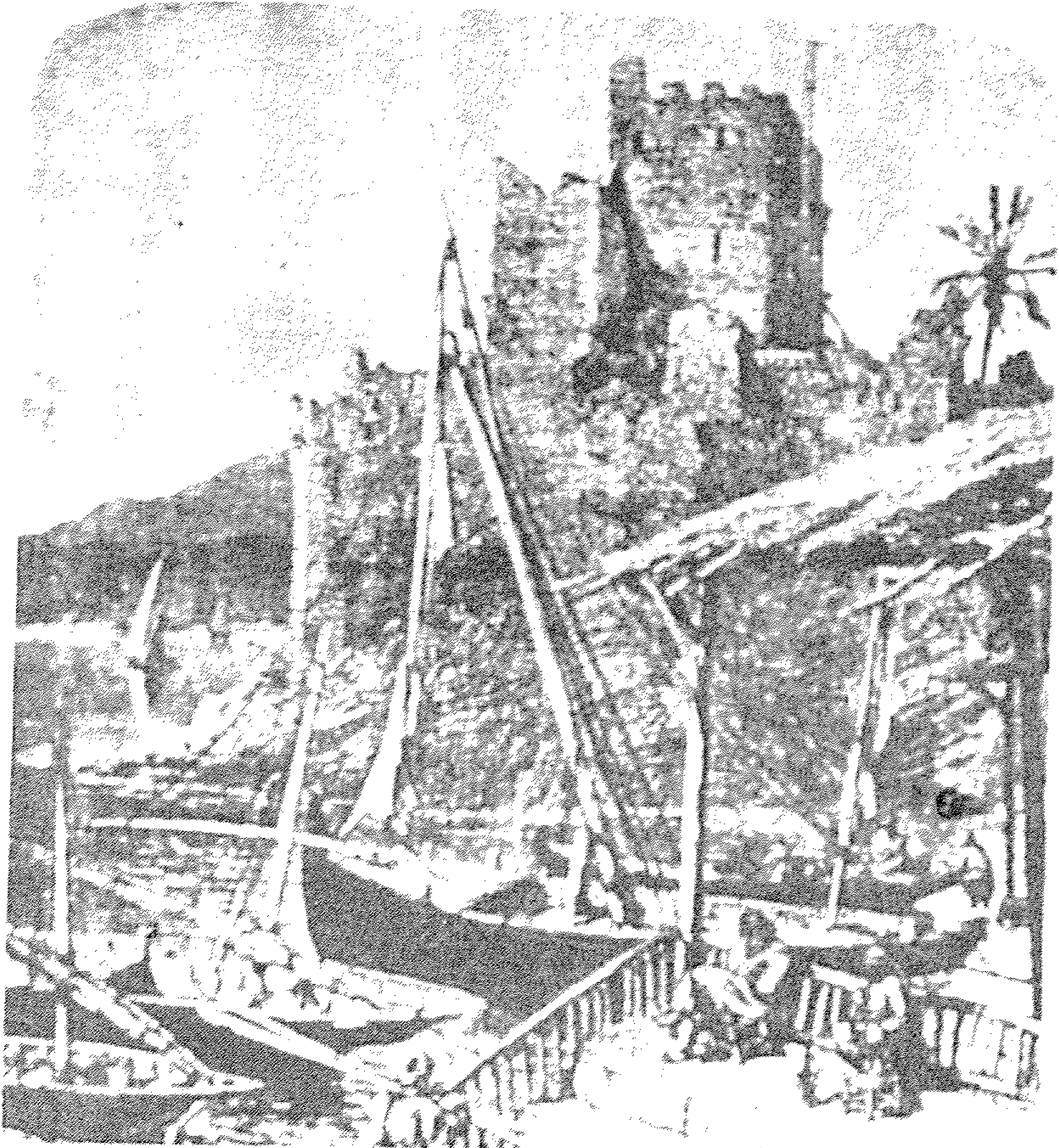
---

١ — وهي صرفة الوارد ذكرها في سفر الملوك الاول ١٧ : ٩ وفي انجيل لوقا ٤ : ٢٦ .

٢ — ويرى بعض المسلمين ان الخضر هو مار جرجس .

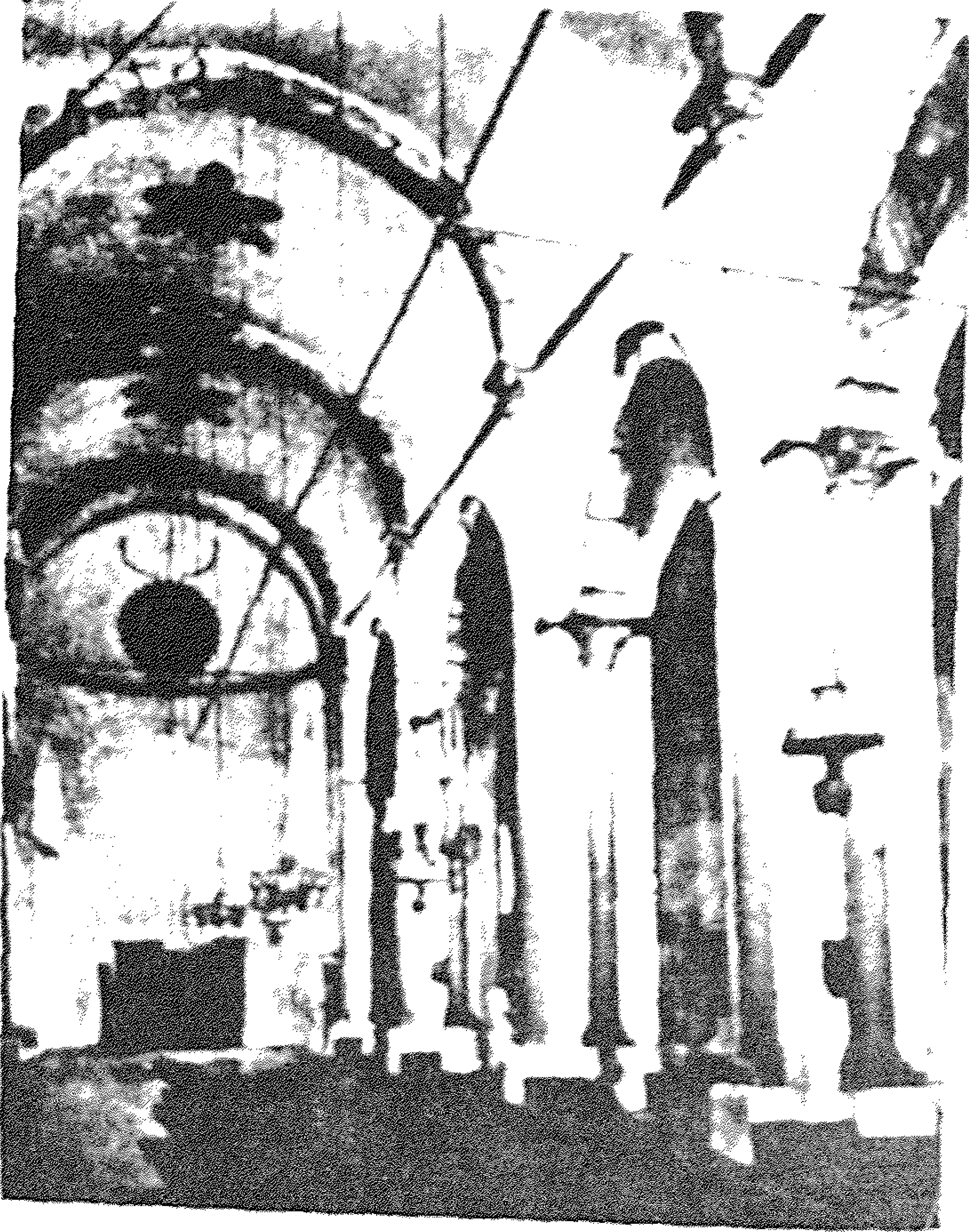
٣ — ولهذه القلعة صورة حفظها لنا جسب (Jessup) المجلد الاول : في الصفحة مقابل ٢٠ .

قديماً لهيكل فينيقي . ومنـــذ ان استرد المسلمون بيروت عام ١١٥١ ، اصبحت الكنيسة جامعاً . ويخبرنا المؤرخ صالح ابن يحيى[1] ان اسلافه حولوا ديراً وكنيسة كانا للرهبان الفرنسسكان في بيروت الى اسطبل للخيل . وهـــذا المؤرخ صالح (عاش حوالي ١٤٥٠) من بني تنوخ الذين جاءوا لبنان واستقروا شرقي بيروت عند مستهل القرن التاسع . وبعد سنة ١١٤٠ عيّن احد افراد عائلته من بني بحتر اميراً على المقاطعة التي كانت تعرف بالغرب (وصاروا يعرفون بامراء الغرب) . واول مرة في التاريخ يرد فيها ذكر قرى صغيرة مثل شملان (واسمها سرياني معناه



قلعة بيروت التي تعود تاريخها الى العصور المتوسطة . وقد كان موقعها قرب الميناء . وليس لها من اثر الآن .

١ ـ صالح ابن يحيى ، ص ١١٠ ـ ١١١ :



الجامع العمري في بيروت . وكان سابقاً كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان

التمام والكمال) وعيناب وعيتات وسرحمول ، من قرى الغرب ، عندما اقطعهـا الملك بيبرس (١٢٦٢) بني بحتر اسلاف صالح ابن يحيى[1] . وقد انيط عام ١٢٩٤ امر الدفاع عن بيروت في وجه غزوات القرصنة المتكررة بهذه العائلة .

اما الكنيسة الصليبية في جبيل التي يعود زمن بنائها الى عام ١١١٥ فهي اليوم كنيسة مارونية على اسم القديس مار يوحنا[2] . والى الشمال في بلدة البترون كنيسة جديدة مسماة بكنيسة مار يعقوب فيها حائط واحد من العهد الصليبي . وقد كان

١ ــ صالح ابن يحيى ص ٥٦ .

٢ ــ Max Van Berchem and Edmond Fatio, pp. 110 - 13 .

في اميون ، البلد الارثوذكسي ، الى عهد قريب خرائب كنيسة قديمة تعرف بكنيسة مار فوكاس (St. Phocas) وقد رمّمت واعيد بناؤها عام ١٩٢٥ . اما الكنيسة القديمة فيعود تاريخها الى هذه الفترة التي نحن بصددها ان لم يكن الى عهد اسبق في الزمن[١]. وعلى هضبة جنوبي طرابلس يقوم دير يعرف بدير البلمند، وهو احد الابنية الصليبية القليلة التي احتفظت باسمها اللاتيني . وقد بني هذا الدير عام ١١٥٧ للرهبنة التي تعرف بالسّسترسيّة ، وسمي باللاتينية Abbatia Belimontis اي الدير القائم على جبل جميل . وفي القرن السابع عشر استولى عليه اليعاقبة، وبعد قرن من الزمن انتقلت ملكيته الى ايدي الروم الارثوذكس . اما الرهبان اللاتين الذين كانوا فيه لما استولى قلاوون على طرابلس عام ١٢٨٩ ، فقد قتل منهم من قتل وهرب من هرب[٢] . اما الجامع الكبير في مدينة طرابلس فيقوم على الموقع ذاته الذي كانت تقوم عليه كاتدرائية صليبية تعرف بكاتدرائية القديسة مريم ؛ وقد شيدت هذه الكاتدرائية في اوائل القرن الثاني عشر ؛ غير انها خرّبت في الزلزال الذي وقع عام ١١٧٠ ثم أعيد بناؤها في القرن الثالث عشر ، وعندما وقعت طرابلس في ايدي المسلمين بعد تحريرها من الصليبيين ، هدمت الكاتدرائية وأقيم مكانها جامع هو الجامع الكبير . وقد احتفظت بعض نوافذه وابوابه ببقايا تدل على اصلها الصليبي . وهنالك كنائس ومعابد اخرى عديدة هدّمت ولم يبق لها من اثر .

الاقتصاد

ان الحوافز التي كان مبعثها الحروب الصليبيـة والتي عملت على تنشيط التجارة والحج الى الاراضي المقدسة تنعكس في الاخبار والروايات التي تحدّرت الينا من الرحالة العرب . وقد اكثر هؤلاء الرحالة الجغرافيون من ذكر صور ، فانهـا كانت تأتي في المرتبة الثانية بعـد عكا في الازدهار والعمران ايام الصليبيـين .

١ ـ Enlart, vol. II, pp. 41, 35 -7 .

٢ ـ راجع لامنس ، تسريح الابصار ، الجزء الاول ص ١٥٤ ـ ١٥٦ . ومن اراد الاطلاع على معلومات اركيولوجية فعليه ان يراجع :
Camille Enlart in *Syria*, vol. IV, (1923), pp. 1 - 22 .

فان الادريسي [١] ، الرحالة المغربي كتب عام ١١٥٤ قائلا : « وفي صور يصنع افخر الزجاج والخزف . ويصنعون فيها ايضاً نوعاً من القماش الابيض لا يعد له قماش آخر من حيث النوع وجودة الصنع ويصدرونه الى جميع البلدان ولايصنع قماش يضاهيه من حيث جودته في اي من الاقطار الاخرى » .

ان وصف الادريسي لصور صدى يردد عهد الفينيقيين الزاهي . ثم ان الادريسي[٢] يصف لنا صيدا قائلا : « انها مدينة كثيرة السكان واسواقها مزدحمة والاسعار فيها منخفضة . وتحيط بها بساتين واشجار ، والماء فيها وافر » . وقد كان وصف الادريسي لصيدا آخر وصف لعمران صيدا وازدهارها . اما الرحالة اليهودي بنيامين التودلي[٣] الاسباني الذي مر في لبنان بعد مضي خمس عشرة سنة فانه ايضاً يذكر « الزجاج الصوري الشهير . و« الصباغ الارجواني » الذي اشتهرت به هذه « المدينة التجارية التي يؤمها التجار من كل انحاء المعمور » . وقد جاء بنيامين على ذكر الخراب الذي اوقعه الزلزال في مدينة طرابلس ، اذ يظهر ان عدداً من الزلازل وقع في البلاد اثناء القرن الثاني عشر . واشدهذه الزلازل هولا الزلزال الذي وقع عام ١١٥٧ والذي قتل فيه خمس مئة نفس في حلب وعشرة الاف في مدينة حماة . وفي شيزر نجا من اهلها امرأة واحدة وخصي واحد فقط . اما حصن الاكراد وعرقة فانهما خربا تخريباً يكاد يكون تاماً . كذلك في طرابلس هدمت احياء كثيرة [٤] . وقد ذكر سائح الماني اسمه ثيودورش[٥] (عاش حوالي ١١٧٢) انه وجد مدينة صور احسن المدن الفينيقية من حيث مناعة ابراجها ومتانة اسوارها . وقد وصف بيروت انها مدينة غنية قوية كثيرة السكان . اما الرحالة الاندلسي ، ابن جبير [٦] ، الذي مر في صور في سنة ١١٨٤ او ١١٨٥ فيقول انــه وجدها عظيمة في تحصيناتها التي يضرب بها المثل . ووجد ان اسواقها احسن نظافة من اسواق عكا ، وان « الكفار » يعاملون

١ ــ الادريسي ، طبعة غلد ميستر ص ١٢ .

٢ ــ الادريسي ، طبعة غلد ميستر ص ١٥ .

٣ ــ Vol, I, p. 63

٤ ــ Bar Hebraeus, *Chronography*, tr. Ernest A. W. Budge. Vol. I (Oxford,1932) , pp. 284-5.

٥ ــ Theodorich. *Description of the Holy places*, tr. Aubrey Stewart (London 1896) pp. 71, 72 - 3 .

٦ ــ ابن جبير ، ٣٠٤ ــ ٣٠٦ .

المسلمين بشيء من التسامح . ويصف ابن جبير عرساً افرنجياً حضره مع جماعة من المسلمين . اما وليم الصوري [١] فانه يذكر لنا المياه الغزيرة في ضواحي صور (اشارة الى مياه رأس العين) التي تسقي الجنائن الجميلة وتروي بساتين قصب السكر . يقول وليم الصوري : « يصنعون من عصير هذا القصب مادة اسمها السكر (zachara) وهي مادة من اثمن المواد، وضرورية لصحة الانسان . ويصدر التجار هذه المادة من صور الى اقصى بلدان العالم » . وقد اعجب راهب كريتي اسمه يوحنا فوكاس (١١٨٥) بمدينة صور فهو يقول : « ان صور تفوق بجمالها سائر المدن الفينيقية . فهي ، مثل طرابلس ، مبنية على شبه جزيرة ، ولكنها اكثر منها اتساعاً وافخم منها دوراً وبنايات » . [٢] وقد وجد هذا الراهب ، فوكاس ، بيروت « مدينة كبيرة كثيرة السكان » [٣] .

التفاعل الثقافي والاجتماعي

اما في الحقل الثقافي الصرف فقد كان اثر الغرب ، قليلا جداً ، غير انه كان اثراً واقعياً . واول ما تبدو معالم هذا الاثر في العلاقات الاجتماعية والدينية . اما عامة الناس فلم يتأثروا بكثير او قليل ، الا اذا استثنينا الاماكن التي شيدت فيها القلاع والحصون . اذ لا بد انه تم في هذه الاماكن نوع من التفاعل بسبب الاتصال والاحتكاك بين الفريقين . اما المسلمون في كل مكان فقد كانوا يعتبرون انفسهم ارفع ثقافة من الافرنج، فكانت نظرتهم اليهم نظرة ترفع وفيها شيء من الازدراء . وعليه فلم ير المسلمون ان عند الافرنج شيئاً يستحق الاهتمام .

واحسن من عبر عن موقف المسلمين من الافرنج ــ بالنسبة الى الثقافة والعلم ــ اسامة بن منقذ صاحب شيزر . فقد خلف لنا اسامة (١٠٩٥ ــ ١١٨٨) «مفكرة» ضمنها امتع الملاحظات وادقها واكثرها انصافاً وواقعية . كان اسامة فارساً مغواراً وجواداً شاعراً يحسن الطراد والصيد . وكان ايام الحرب يشترك في القتال

---

١ ـ Vol. II, p. 6.

٢ ـ *The Pilgrimage of Joannes Phocas* tr. Aubery Stewart (London, 1896), p. 9.

٣ ـ Phocas, p. 9.

ضد الافرنج اما في ايام الهدنة فانه كان يعاشرهم ويؤاخيهم . وكان الافرنج في نظره قوماً : « ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة » . [١] ولما ذهب اسامة مرة الى صور ودخل الحمام وجد هناك امرأة من نساء الافرنج فكاد لا يصدق ما تراه عينه ، فارسل خادمه ليتأكد من صحة الامر . [٢] ويسخر اسامة من عادات الافرنج البدائية لا سيما من رمي المتهم في الماء للفصل فيما اذا كان مذنباً أو بريئاً ، ومن عادة المبارزة بينهم للفصل في من هو على حق . وكان الافرنج الجدد الذين يفدون الى البلاد لاول مرة في نظر اسامة ، قوماً على غاية من البساطة والغفلة اذا ما قوبلوا بالافرنج القدامى الذين سبقوهم والذين كانوا قد تمرسوا بعادات البلاد . [٣] ويظهر ان فارساً من فرسان الافرنج كان يخاطب اسامة بقوله «اخي» نسبة الى الصداقة بينهما . وقد طلب هذا الفارس مرة من اسامة ان يعطيه ابنه الاصغر ليأخذه معه الى أوروبة. ولكن اسامة اجاب بلباقة ولطف ان جدته شديدة الكلف به فلا يستطيع والحالة هذه ان يلبي طلب صديقه الفارس . ولكن اسامة لم يتمالك في نفسه عن ابداء دهشته من هذا الطلب اذ كيف يعقل ان يطلب نصراني مثل هذا الطلب من رجل مسلم . [٤] وفي القصة التالية تظهر الفروقات الكبيرة بين المسلمين والافرنج في وسائل الطب والعلاجات . وقد وقعت هذه الحادثة في قرية من قرى اعالي لبنان ، في المنيطرة . وقد روى الحادث طبيب لبناني نصراني اسمه ثابت قال :

«احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة ، وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيئاً يداويهم . وقال للفارس ايما احب اليك تعيش برجل واحدة او تموت برجلين ؟ قال : اعيش برجل واحدة . قال : احضروا لي فارساً قويا وفأساً قاطعاً. فحضر الفارس والفأس ، واناحاضر . فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة

١ ــ اسامة ابن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ص ١٣٥ ، ١٣٢ .
٢ ــ اسامة ابن منقذ ، ص ١٣٧ .
٣ ــ اسامة ابن منقذ ، ص ١٣٤ ــ ١٣٥ ، ١٤٠ ــ ١٤١ .
٤ ــ اسامة ابن منقذ ، ص ١٣٢ .

اقطعها . فضربه ، وانا اراه ، ضربة واحدة ما انقطعت . فضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته . وابصر المرأة فقال : هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها ، فحلقوه . وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل . فزاد بها النشاف . فقال : الشيطان قد دخل في رأسها . فاخذ الموسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح . فماتت في وقتها . فقلت لهم : بقي لكم اليّ حاجة ؟ قالوا : لا . فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم اكن اعرفه » [١] .

اما الامراء الافرنج والفئة الارستقراطية منهم فانها كانت تؤثر الطب الاسلامي ووسائل العلاج عندهم لا سيما فيما يتعلق بالامراض المحلية. يقول وليم الصوري[٢] ، وبشيء من الاسى : « ان امراءنا الشرقيين ، تحت تأثير نسائهم ، يزدرون بالادوية وبالوسائل الطبية اللاتينية ولا يؤمنون الا بالاطباء اليهود والسامريين والسوريين والعرب » . ولكن عندما تناول الملك بولدوين الثالث — وكان عمره ثلاث وثلاثون سنة وكان يتمتع بصحة جيدة — بعض الحبوب التي وصفها له بركة (Barac) طبيب كونت طرابلس على انها مقو فمرض ومات في بيروت (١١٦٢) سرت اشاعة انه مات مسموماً . [٣] وبعد اثنتي عشرة سنة، لما مرض الملك املرك بمرض الزحار وهو في بيت المقدس ، رفض الاطباء السوريون ان يفصدوه أو ان يعطوه مسهلا . غير ان اطباءه من جماعة الافرنج عالجوه بالفصد والمسهل فمات على الفور . [٥] ولم يكثر التزاوج بين الافرنج والمسلمين ، والتزاوج دليل على الاختلاط والتفاعل الاجتماعي . وقل من المسلمين من كان يتزوج من اوروبية. غير انهم كانوا يتسرون منهن السراري اللواتي كن يقعن في الاسر ، ولا شك في ان عائلات افرنجية عديدة ظلت في البلاد بعد القضاء على الصليبيين . وقد اندمجت هذه العائلات اخيراً باهل البلاد اندماجاً كلياً فقدوا معه كل طابع لاتيني . وقد

١ — اسامة ابن منقذ ، ص ١٣٢—١٣٣

٢ — اسامة ابن منقذ ، ص ١٣٢ — ١٣٣

٣ — Vol . 11 , p . 292 .

٤ — William of Tyre , vol. 11 , pp . 292 - 3 .

٥ — William of Tyre , vol. 11 , pp . 395 .

اوصى البابا اسكندر الرابع في رسالة بعث بها (١٢٥٦) الى البطريرك الماروني ، سمعان الحدثي ، باولئك الصليبيين الذين لجأوا الى جبال لبنان خيرا وطلب الى البطريرك ان يحافظ عليهم . [١] وهنالك عائلات لبنانية عديدة تدعي انهـا من اصل افرنجي وتحتفظ باسماء لاتينية تشير الى انها تحدرت من الصليبيين الذين تخلفوا في البلاد ، امثال عائلة الصليبي [٢] وبردويـل (Baldwin) وفرنجية والدويهي (de Douhai) ودريان (Comte d'Orient) وطربيه (Torbey) [٣]. واكثر هذه العائلات تنتمي الى الطائفة المارونية . اما في المدن حيث كانت تقيم جاليـات لاتينية فقد نشأ جيل هجين من امهات وطنيات وكانوا يسمون الواحد من هؤلاء الهجناء بولان (Poulain ومعناه مهر صغير) . وكان هؤلاء الهجناء في غالب الحالات يتبعون دين امهاتهم لا دين آبائهم . وكانوا يتكلمون العربية ويحجبون نساءهم ويحجرون عليهن بشدة ويمنعونهن من الذهاب الى الكنائس . [٤]

اللغة والدين

كانت اللغة والدين العقبتين الكؤودتين اللتين حالتـا دون التمازج الاجتماعي والتلقيح الثقافي . وعندنا وثائق تدل على ان بعض الفرنجة اتقنوا العربية بينما لا نعلم احداً من المسلمين تعلم اللاتينية او الافرنسية القديمة . فقد كان العربي المسلم الذي يتكلم لغة القرآن يراها حطة على نفسه ان يتعلم لغـة الكفار . اما وليم الصوري ووليم الطرابلسي (توفي ١٢٧٣) — وقد ولدا في لبنان كما ولد كثيرون من الافرنج — فقد كانا يجيدان لا اللغة العربية المحكية فحسب ، بل العربية الفصحى ايضاً . وقد وجد امراء الافرنج واقطاعيوهم وتجارهم ورهبانهم ان من الخير لهم ان يتعلموا العربية . فبالاضافة الى امراء قلعة الشقيف والكرك ، القلعتين اللتين اشرنا اليهما

١ — Paul Abraham, *The Maronites of Lebanon* (Wheeling,1931) , p . 186 ; Tobias Anaissi , *Bullarium Maronitarium* (Rome , 1911) pp. 9 - 13 .

٢ — راجع . محمد د . الصليبي ، تاريخ العشيرة الصليبية (بيروت ١٩٥٠) ص ٨ وما يليها .

٣ — René Ristelhueber, *Traditions françaises au Liban*, (Paris, 1918), pp. 62—3 .

٤ — De Vitry, *Jerusalem*, p. 65 .

سابقاً ، نجد ان ريموند الثالث ملك طرابلس يتقن العربية فقد تعلمها اثناء وقوعه في الاسر في حلب بدءاً بعام ١١٦٥ ، واصبح يعرف الاسلام وعادات اهله معرفة الخبير[١] . ويذكر لنا كاتب سيرة الملك لويس التاسع ان عدداً من الافرنج كانوا يعرفون العربية[٢]. ولما ارسل رئيس طائفة الحشاشين (الاسماعيلية) وفداً الى لويس التاسع احتاج الرسل الى تراجمة من الافرنج ينقلون الرسالة بواسطتهم . غير انه لما ارسل راشد الدين سنان ، رئيس الطائفة الاسبق – وكان يعرف عند الافرنج بشيخ الجبل – رسلا الى صلاح الدين عند محاصرته عكا ، « فانهم كانوا يلبسون ثياب الافرنج ويتكلمون لغتهم[٣] » . ذلك انهم كانوا عرباً لكنهم تخفوا بزي الافرنج رغبة منهم في الوصول الى قتل ملكهم (اي ملك الافرنج) .

وكذلك في الدين ، فان المسلمين اتباع الدين الحنيف، وهو عندهم آخر وحي اوحاه الله ، ودين يشمل مبادىء اليهودية والمسيحية ، كانوا لا يرون سبباً في ترك دينهم ليعتنقوا النصرانية . غير انه لدينا بعض الاخبار التي تتحدث عن وقوع حوادث تنصُّر افرادية لا سيما بين المرتزقة والعبيد والاسرى من المسلمين . فان دي فتري[٤] ، اسقف عكا (١٢١٧) وبطريرك بيت المقدس (توفي ١٢٤٠) يذكر لنا « ان بعض هؤلاء المسلمين » تعمدوا بعمودية يسوع المسيح لكي ينجوا من الموت .

الموارنة وفرنسة والبابا

كانت اوثق العلاقات التي اقامها الافرنج مع اهل منطقة الشرق الادنى تلك التي اقاموها بينهم وبين الموارنة . فانها كانت علاقات مثمرة ودائمة . ذلك بان القيود التي فرضها عمر بن عبد العزيز الاموي والمتوكل العباسي والحاكم بامر الله الفاطمي على الاقليات المسيحية ـــ التي جعلت منهم مواطنين من الدرجة الثانيةـــ

١ – William of Tyre vol. II, pp. 308, 390, 403 - 4

٢ – Joinville, secs. 354, 361, 444.

٣ – Stanislas Guyard in *Journal asiatique*, vol. IX (1877), pp. 410, 465 .

٤ – *Histoire des Croisades*, ed, M. Guizot (paris, 1825), p. 31 .

جعلتهم يتلفتون الى الغرب . ان التقارب الودي بين الافرنج والارمن الذي بدأ في وقت مبكر في ايدسا وانطاكيـة ، وانتهى باعتراف المجمع الكنسي الارمني بسلطة الكنيسة الرومانية (١٣٠٧) ، نقول ان هـذا التقارب لم يعمر طويلا ولم يكتب له النجاح . فقـد كان لقرار المجمع الكنسي اثر سيىء في نفوس الجماهير حتى انه ماكاد يعلن حتى اضطر المجمع الى الغائـه . وقبل هـذا ابدى بطريرك اليعاقبة في انطاكية خضوعه التام (١٢٣٧) لسلطة الكنيسة البابوية بحضور ممثل دومينيكي . ولكن اتحاد اليعاقبة بالكنيسة البابوية لم يرض عنه الشعب . وبعد زمن قصير اعلن الغاؤه . وقد كان على كنيسة رومة ان تنتظر اجيـالا عديدة قبل ان استطاعت ان تجذب اليها احدى هذه الطوائف المسيحية الشرقية . لكن الامر كان على نقيض هذا مع الموارنة .

لا شك في ان الموارنة يشكلون اكبر طائفة مسيحية وثيقة التماسك شديـدة الوحدة ، وقد بدأت العلاقة الودية بين الموارنة والصليبيين في عهد مبكر . كان ذلك لما قدّموا للحملة الصليبية الاولى أدلاء يرشدونهم الى الطرق والمعابر ، ولما ارسلوا فرقة من النشابة المتطوعة الى مملكة بيت المقدس . وحسب تقليد الموارنة فان لويس التاسع كان اول صديق افرنسي لهم . تقول الرواية انه عندما نزل الى البر في عكا تقدم اليه وفد مؤلف من خمسة وعشرين الف ماروني ومعهم المؤن والهدايا . وفي هذه المناسبة سلمهم رسالة مؤرخة في ٢١ ايار عـام ١٢٥٠ فيها تصريح بان فرنسة تتعهد بحمايتهم . يقول في هذه الرسالة : « ونحن مقتنعون بان هذه الامة التي تعرف باسم القديس مارون هي جزء من الامة الافرنسية »[١] . وقد كان الموارنة يحتلون في الممالك التي شيدها الافرنج المرتبة الاولى بعد الافرنج. وكانوا يقدمون على جميع الطوائف المسيحية، وكانوا يتمتعون بالحقوق والامتيازات التي كانت تتمتع بها البورجوازية اللاتينية، بما في ذلك حق ملكية الأرض في مملكة بيت المقـدس[٢] حيث كان للموارنة هناك جالية كبيرة . وقد سمح لكهنة

---

١ ــ للاطلاع على النص الكامل يجب الرجوع الى :
Ristelhueber, pp. 65 - 6; I. de Testa, *Recueil des traitès de la Porte ottomane*, vol. III (Paris 1866), p. 100; الدويهي ، ص ١١٠ ــ ١١١

٢ ــ Grousset, *Histoire des Croisades*, vol. II, p. 758; Ristelhueber, pp. 50-1 .

الموارنة ان يقوموا بخدمة القداس على مذابح لاتينية. وبعد ان استولى صلاح الدين على بيت المقدس ذهب الملك غوي دي لزنيان الى قبرص فتبعه جمهور كبير من الموارنة واستوطنوا الجبل الذي يقع شمالي نيقوسيا [١] ذلك الجبل الذي كان يذكرهم بجبل لبنان . ويجوز ان بعض هؤلاء الموارنة ذهبوا مع الاسبتارية الى جزيرة رودس وفي القرن السادس عشر ذهبوا مع فرسان رودس الى مالطة . وقد استمر هذا الود التقليدي بين الموارنة والغرب في الأجيال التالية كما حدث لما ارسل نابليون الثالث فرقة افرنسية لتهدئة الجبل عام ١٨٦٠ ، وكما جرى بعد الحرب العالمية الاولى عندما وقع لبنان تحت الانتداب الافرنسي .

في تلك الاثناء اخذت الكنيسة المارونية تتخلى رويداً عن طقسها في خدمة القداس — وطقس الكنيسة المارونية يعد من اقدم الطقوس في الكنائس المسيحية — لتتبنى الطقس اللاتيني . حوالي ١٢١٣ زار البطريرك ارميا العمشيتي رومة ، وعند عودته ادخل بعض « الاصلاحات » فيما يتعلق بالليتريجية (خدمة القداس وطقوس العبادة) وسيامة الكهنة ، وكان اول بطريرك ماروني اقام علاقات شخصية مع المقرّ البابوي . اما تحويل الطقس الماروني القديم الى الطقس اللاتيني فقد بدأ رسمياً في عهد البابا انوسنت الثالث على يدي قاصده (حوالي ١٢٠٣) عندما ادخل بعض التعديلات الاساسية منها تغطيس المعمود ثلاث مرات في الماء وطلبة واحدة للثالوث وتكريس الاحداث على ايدي المطارنة فقط . وصار كهنة الموارنة يتبعون الزي اللاتيني في لبس الخواتم والقلنسوة التي تشبه التاج وحمل العكّاز . وكانت الكنائس المارونية ، كما كانت سائر الكنائس الشرقية ، تدعو الناس الى القداس بواسطة قرع نواقيس من الخشب ، ولكن حوالي ١١١٢ بدأت تستعمل الاجراس [٢] . وفي هذه الامور جميعها انما كانت الكنيسة المارونية تتبع التقليد اللاتيني . ويذكر لنا راهب دومينيكي زار البلاد المقدسة عام ١٤٨٠ ، ثم عاد اليها ثانية عام ١٤٨٣ ، ان من بين الكنائس الشرقية الموارنة هم الوحيدون الذين يستعملون الاجراس في كنائسهم بينما يستعمل غيرهم نواقيس خشبية [٣] .

---

١ — Dib, p. 259; Ristelhueber, pp. 70-1.

٢ — الدويهي ، ص ١٠٣آ . De Vitry, *Jerusalem*, p. 80 ;

٣ — Felix Fabri, *The Book of the Wanderings*, tr, Aubrey Stewart (London, 1893), vol. 11, p. 389 .

وقد احتكرت عائلة نفاع من بلدة بيت شباب (المتن) صناعة صبّ الاجراس . ويروي دي فتري[١] ان الموارنة «اظهاراً لخضوعهم الى كنيسة رومة فانهم يتبعون الطقوس والفروض اللاتينية » . ويخبرنا فون زوخم[٢] الذي كان يقيم في البلاد المقدسة بين ١٣٣٦ و ١٣٤١ انه حضر سيامة مطارنة موارنة على ايدي رؤساء اساقفة لاتين . لكن اتحاد الكنيسة المارونية التام مع الكنيسة البابوية لم يتمّ الا عام ١٧٣٦ . وبوجه عام اصبحت الكنيسة المارونية ، على مرور الزمن ، من الكنائس المحببة الى باباوات رومة ومن الكنائس المكرّمة في نظرهم . فقد كان الباباوات يبعثون برسائل الى بطاركة الموارنة يشيدون فيها بحسن ايمان الكنيسة المارونية وبرسوخ عقيدتها الثابتة ويشبهونها « بوردة بين العليق » . واقدم رسالة من هذا النوع ارسلها البابا انوسنت الثالث ويعود تاريخها الى سنة ١٢١٣[٣] .

الحركة التبشيرية

وكان من نتائج الحروب الصليبية غير المقصودة فكرة اجتذاب المسلمين الى اعتناق المسيحية عن طريق الاقناع بدلا من طريق القوة والاكراه . وهي فكرة كان لها فيما بعد ابعد الاثر في الحياة الثقافية في الشرق الادنى . ان الخيبة التي منيت بها الحملات الصليبية في الوصول الى غايتها ، وموت الدوافع التي كانت تدفع بالناس للالتحاق بها مهّدا الطريق لفكرة جديدة : استمالة المسلمين واجتذابهم بطرق سلمية ودية. وهذه الفكرة هي اساس مبدأ التبشير المسيحي . في عام ١١٥٤ اسس راهب صليبي في الارض المقدسة رهبنة عرفت فيما بعد بالرهبنة الكرملية نسبة الى جبل الكرمل حيث كانت تقيم ، ومن ثم انتشروا في سورية ولبنان . وقد اسسوا لهم مركزاً في طرابلس . ثم تلاهم تأسيس رهبنتين جديدتين عند مستهل القرن الثالث عشر : الفرنسسكان والدومينيكان . في عام ١٢١٩ نزل القديس

١ — *Jerusalem*, pp. 80 - 1 .

٢ — Von Suchem, p. 135 .

٣ — للاطلاع على هذه الرسائل يجب الرجوع الى :
Anaissi, pp. 2, seq; Ghaziri, pp. 84, seq. ; Paul Abraham, pp. 186, seq;Camille de Rochemonteix,*Le Liban et L'expédition Française* (1860 — 1861) (Paris, 1921),pp. 7 — 8 .

فرنسيس الاسيسي ، مؤسس الرهبنة الفرنسسكانية : على شاطىء عكا ، وبعد مضي سنتين جمع اتباعاً حوله كانوا فيما بعد نواة الجالية الفرنسسكانية في الارض المقدسة (فلسطين) . واتخذت عكا مقراً رسمياً للرئيس الفرنسسكاني العام في المنطقة . وبعد مدة قصيرة اسست ارسالية تبشيرية فرنسسكانية في مدينة طرابلس ، واسس دير لهم في بيروت . وفي عام ١٢٣٠ وصلت دمشق ارسالية دومينيكانية ، ومن ثم تقدمت الى طرابلس وعكا واماكن اخرى حيث اسست لها اديرة . وقد كتب احد اساقفة الدومينيكان ، وليم الطرابلسي ، سنة ١٢٧٠ افضل كتاب ظهر عن الاسلام في العصور المتوسطة . في هذا الكتاب Tractus de Statu Saracenorum (مقال في حالة المسلمين) يدافع الاسقف وليم عن النظرة الجديدة : نريد مرسلين لا جنوداً لاسترداد الارض المقدسة . وقد لاقت هذه الفكرة الجديدة استحساناً عظيما عند رجل يدعى ريموند لَـلْ (توفي ١٣١٥) الذي اصبح زعيم الحركة المفوه . كان لَـلْ قسطلانيا يجيد العربية . وكان يدرسها ويدعو الى ادخال تعليمها في المؤسسات التعليمية لتحضير المرسلين ليعيشوا في الاقطار الاسلامية . وقد كان هم الاكليروس اللاتيني في الارض المقدسة ، حتى ذاك العهد ، ينصبُّ على قضية توحيد الطوائف المسيحية المنشقة . لكن منذ ذلك الوقت اصبح همهم تنفيذ الفكرة الجديدة : حمل بشارة الانجيل الى غير المسيحيين . وقد انضم اليهم جماعة الكبوشيين واليسوعيين . وفي القرن السابع عشر وما تلاه من عصور ساهمت هاتان الارساليتان ، الكبوشية واليسوعية ، مساهمة كبيرة في بعث الحياة الفكرية في لبنان، وبواسطة لبنان في سائر العالم العربي .

المماليك ينتقمون

ان عادة تخريب المدن التي استردها المسلمون وتعطيلها ــ لا سيما اذا كانت المدن موانىء ــ التي بدأ بها صلاح الدين استمرت ايام المماليك لا بل زادت عنفا حتى اصبحت سياسة يصح ان نسميها سياسة « حرق الارض » . فان الموانىء كانت تردم او تسد لمنع سفن الاعداء من دخولها . فلا الايوبيون ولا المماليك كانوا على شيء من القوة البحرية ليدافعوا عن الموانىء ضد محاولات الصليبيين

لاستردادها . فان بناء اساطيلهم كان يعتمد فيه ـ كما كانت اساطيل الفراعنة سابقاً ـ على خشب الارز من لبنان التي اصبحت موانيه الان في ايدي الصليبيين. وكان المسلمون يخشون اكثر مايخشونه، رجوع الافرنج الذين جلوا الى قبرص. وبالاضافة الى هذا فان غزوات المغول والزلازل التي توالت زادت من حدة الخراب فانه بين ١٢٦٠ و١٣٠٣ اجتاحت جحافل المغول بلاد سورية المملوكية اربع مرات تاركة وراءها سيلا من الدماء. وهكذا اصبحت جميع مدن الشاطىء الواقعة بين عسقلان وطرابلس خرابا او ما يشبه الخراب[١]. ففي عام ١١٨٥ عندما مر ابن جبير في صور ذكر عنها انها مدينة لا مثيل لها في مناعة تحصيناتها ، ولكن بعد قرن من الزمن ذكر ابو الفداء عنها انها مدينة خربة[٢] . واليك قصة مدينة صيدا بايجاز : في عام ١١٠٧ حاولت ان ترشو الافرنج الذين كانوا على وشك فرض الحصار عليها ، وفي ١١١١ استولى عليها بولدوين الاول ، وفي ١١٨٧ خربها صلاح الدين ثم استردها الافرنج ثانية عام ١١٩٧، وفي العام ذاته استردها المسلمون وهدموها ، فاعاد بناءها الافرنج عام ١٢٢٨ ، فعاد المسلمون وخربوها عام ١٢٤٩ . ثم استردها لويس التاسع واعاد بناء تحصيناتها عام ١٢٥٣. وفي عام ١٢٦٠ اجتاحتها جحافل المغول وخربتها ونهبتها . واخيراً استقرت المدينة في حوزة المسلمين عام ١٢٩١ على يدي الملك الاشرف الذي هدّمها الى اساساتها . فهل من عجب بعد هذا اذا قال عنها المحدثون في العصور الاخيرة انها بلدة حقيرة بالنسبة الى ما كانت عليه سابقاً ؟ واليك مقتطفات من رحلة ابن بطوطة[٣] الذي مر في هذه البلاد عام ١٣٢٧ :

« ثم سافرت الى عسقلان ، وهي الآن خراب ... ثم سافرت على الساحل ، فوصلت الى مدينة عكا وهي خراب . وكانت عكا قاعدة بلاد الافرنج بالشام . وهي خراب . ثم سافرت منها الى مدينة صور وهي خراب ، وبخارجها قرية

١ ـ ابو الفداء : تقويم ، ص ٢٣٩
Lammens, *Syrie*, vol. I, p. 265; vol. II. pp. 2 - 3 .

٢ ـ تقويم ، ص ٢٤٣ .

٣ ـ ابن بطوطة في تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار طبعة وترجمة :
C. Defrémery and B. R. Sanguinatti, vol. I (Paris, 1893), pp. **126, 129, 130, 132** .

معمورة . ثم سافرت منها الى مدينة طبرية ، وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها الا رسوم تنبيء عن عظمتها وعظم شأنها » . ولا يذكر لنا الحجاج الذين حجوا الى البلاد المقدسة في القرن الخامس عشر ان الاحوال العمرانية كانت قد تحسنت . فان فارساً حاجاً من مقاطعة برغندي واسمه دي لا بروكير[١] زار البلاد المقدسة عام ١٤٣٢ و ١٤٣٣ وذكر انه لم ير في يافا سوى اكواخ مسقوفة بالقصب ، وليس في عكا سوى ثلاث مئة بيت . ويقول ان بيروت كانت سابقاً اكبر جداً مما هي عليه الآن .

وقد اعاد السلاطين المماليك فرض القيود المجحفة بحق الذميين واليهود . فقد امروا النصارى واليهود ان يلبسوا البسة خاصة تميزهم عن المسلمين ، ومُنعوا من ركوب الخيل والبغال . وانصب الحقد والكره اللذين ولدتهما الحروب الصليبية على النصارى من اهل البلاد . ففي عام ١٢٨٣ توغل جيش السلطان قلاوون الى معاقل الموارنة في اعالي لبنان الشمالي ، الى بشري واهدن وحدث الجبة وخربها[٢] . فنزحت جماعات يقدر عددها بالالوف هرباً الى جزيرة قبرص حيث بلغت جالياتهم هناك ثمانـين الف نسمة . حتى انه في سنة ١٣٤٠ اقاموا لهم في الجزيزة مطرانية مارونية [٣] . وفي يومنا هذا نجد في النظام الاكليركي عند الموارنة مطراناً شرقياً لجزيرة قبرص . وتناولت سياسة المماليك الجديدة اعادة توحيد الفرق الاسلامية المنشقة وضمها الى حظيرة السنة ، وذلـك لان بعض هذه الفرق الاسلامية اعانت العدو وهادنته . وقد قتل المماليك من الاسماعيلية والنصيرية والشيعة عدداً كبيراً . ويبدو انهم كانوا اشداء اقوياء وان عددهم كان كبيراً في جميع انحاء سورية [٤] . وقد هرب من الشيعة جماعات والتجأت الى جبال لبنان والبقاع ذلك لان المماليك كانوا يرون في الشيعة خطراً سياسياً . وقد حاول الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ـ ١٢٧٧) ان يرغم النصيرية على بناء مساجد في قراهم ، ولكنه اخفق في جعلهم

De La Brocquière, « Travels », in *Early Travels in Palestine*, ed. Thomas Wright (London, 1848), pp. 286, 292.

٢ ـ الدويهي ، ص ١١٥ . وراجع ايضاً الدويهي « تاريخ الازمنة » في مجلة المشرق المجلد ٤٤ (١٩٥٠) ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

٣ ـ Dib, p, 263.

٤ ـ ابن جبير ص ٣٠٤ .

يصلون فيهــا . وعوضاً عن الصلاة فيها فانهم حولوها الى اسطبلات وزرائب لماشيتهم وعندما كان يأتي الغريب ويؤذن داعياً إلناس الى الصلاة كانوا يقولون له : « لا تنهق فان عليقك سيقدم لك حالا »[١] اما الدروز فلم ينظر المماليك اليهم نظرتهم الى الشيعة والاسماعيلية . ذلك لان الدروز كانوا قد انحرفوا عن السنة في قضايا لاهوتية فلم يُعتبروا انهم يشكلون خطراً سياسياً على المسلمين . فانهم عددياً كانوا اقلية صغيرة وجغرافياً كانوا يتوطنون بقعة صغيرة محصورة ، وسياسياً لم يكن لهم اهداف تشكل خطراً على المسلمين،ولذا فلم يكن المماليك يرون في الدروز مشكلة ذات بال . ولكن بالرغم من هذا كله فان الملك الاشرف طلب اليهم ان يكونوا ، ولو ظاهرياً ، مسلمين . الا ان طلبه هذا لم يحقق وفي سنة ١٣٠٠ هاجم النشابة الدروز جيش الملك الناصر المنهزم امام هجمات المغول التي اوصلتهم الى حمص ودمشق وهددت المنطقة بكاملها .

كانت الحملات العسكرية التي وجهها الملك ناصر سنة ١٣٠٢و١٣٠٦و١٣٠٧ ضدّ كسروان[٢] من اعنف الحملات التي تعرّض لها لبنــان ومن اشدّها فتكاً وخراباً . وكانت كسروان آنذاك تمتد جنوبا الى نهر بيروت ، والى جبل صنّين وجبل الكنيسة . وكانت تشمل ايضاً منطقة المتن الشمالي والجنوبي وكان سكانهامن قليل من الموارنة واليعاقبة والدروز والشيعة والنصيرية . وقد اشترك في هذه الحملة العسكرية جنود من صفد وطرابلس ودمشق . وكان القائد العام جمال الدين الآقوش حاكم دمشق . وقد افتى ابن تيمية ــ وكان من اعاظم فقهاء عصره في سورية ــ بان الدروز والنصيرية ليسوا مسلمين وانهم دون النصارى مرتبة ويجب ابادتهم[٣] واشترك ابن تيمية نفسه في هذه الحمــلة . وكان مقدمو الدروز في ذلك الوقت الامراء اللمعيين (وهم في يومنا هذا موارنة) ، وكان مقرهم في كفرسلوان وآل مزهر في حمانا . ولا يزال آل مزهر في حمانا يحتفظون بلقبهم : المقدّمين .

---

١ ـ ابن بطوطة ، الجزء الاول ص ١٧٧ .

٢ ـ تقول الروايات القديمة ان هذا الاسم ، كسروان ، نسبة الى امير ماروني من القرن الثاني عشر اسمه كسرى استولى على هذه المقاطعة وعرفت باسمه فيما بعد . وهذا يدل ، ان صحت الرواية، على ان المنطقة كانت منطقة مسيحية في ذلك العهد . قابل :

Lammens, *Syrie*, vol. II, p. 16 .

٣ ـ صلاح الدين المنجد : ولاة دمشق في العهد العثماني (دمشق ١٩٤٩) ص ٦ـ٧ .

وكانت المعركة الفاصلة في عين صوفر سنة ١٣٠٧ . فقد اباد جيش المماليك البالغ عدده خمسين الف مقاتل قرابة عشرة آلاف كسرواني ، معظمهم من الدروز ، وخربوا ابلادهم، وقطعوا اشجارهم وذبحوا انساءهم واطفالهم، وتقاسمت ثلاث مئة عائلة تركمانية المنطقة الساحلية الواقعة شمالي بيروت الى جنوبي طرابلس كاقطاعات بينها[1]. وفي ذلك العهد كانت العلاقات بين الموارنة والدروز على احسن ما يكون من الود والصفاء . فأنه في عام ١٤٤٤ رافق وفد يتألف من الدروز والنصارى القاصد البابوي الى رومة في بعثة صداقة وسلام[2] .

ومع ان سياسة المماليك في ابادة الطوائف المنشقة عن الاسلام لم تنجح فانها اضعفت هذه الطوائف . وقد وجهت هذه السياسة انظار السكان في شمالي سورية وفي لبنان وفلسطين التي ظلت زمناً طويلا تحت الحكم الاوروبي — وفي الدرجة الاولى افرنسي — الى الغرب . وفضلا عن هذا فان المماليك اسدلوا ستاراً حديدياً بين الشرق والغرب . وقد بلغ اسدال هذا الحاجز بين الشرق والغرب اشداحكامه في عهد الاتراك العثمانيين خلفاء المماليك .

١ — الدويهي ص ١٢٣ — ١٢٥ . ايضاً الدويهي في المشرق ، المجلد ٤٤ (١٩٥٠) ص ١٦٠ — ١٦٤ . صالح ، ص ٣٢ — ٣٣ ، ١٠٠ — ١٠١ . ابراهيم عواد : « لبنان في عهد المماليك » المشرق ، المجلد ٤٠ (١٩٤٢) ص ١٦ — ٢١ .

٢ — عواد ، في المشرق ، المجلد ٤٠ (١٩٤٢) ص ٢٨ . ذيب ص ٢٢٢ .

الفصل الثاني و لعشرون

الحياة في القرن الرابع والخامس عشر

بلغ سلاطين المماليك في مستهل القرن الرابع عشر من العظمة والمنعـــة مبلغاً لم يضاهيهم فيهما ملك من ملوك العرب لا في الشرق ولا في الغرب ، ولعله لم يفقهم حاكم مسلم سؤدداً وقوة . فانهم كانوا قد طردوا الصليبيين وصدوا غزوات التتر ، وسحقوا شوكة الطوائف التي خرجت عن الاسلام في لبنان وسورية واثبتوا سيادة السنّة . وعندما استتب لهم الامر في ملكهم الشاسع الذي كان يضم مصر وسورية ولبنان وفلسطين شرعوا في تطبيق سياستهم الخاصة التي كان قد املاهـــا عليهم تغير الحال .

تقسيم لبنان

قسّم المماليك ممتلكاتهم في سورية الى ست نيابات (او ممالك) وكان نصيب لبنان ان جزّىء الى ثلاثة اجزاء تلاشت في ثلاث نيابات من النيابات الست، وذلك لمنع الوحـــدة والاستقـــلال[1] . وقد شملت نيابة طرابلس شمالي لبنان والمنطقة الساحلية من شمالي اللاذقية الى نواحي جبيل . وشملت نيابة صفد لبنان الجنوبي وصور، وادرجت المقاطعات والمدن الباقية في نيابة دمشق ، اي صيدا وبيروت وبعلبك والبقاع . ثم ان البقاع قسّم الى قسمين اداريين : الشمالي او البقـــاع البعلبكي ، والجنوبي الى البقاع العزيزي. وكان نواب(اي حكام) هذه المقاطعات من « ارباب السيوف » ــ مقابلة لهم بارباب القلم ــ وهم في الاصل من الموالي عند السلطان . وقد كان هؤلاء النواب مستقلين الواحد عن الاخر في ادارة نيابته . وكان اسلوب الحكم ، بوجه عام ، يشبه حكم السلطان في القاهرة . وقد كانت مدة النيابة القصيرة الى جانب التنابذ والتحاسد بين النواب من جملة العوامـــل التي كانت تحول دون

---

١ ــ القلقشندي : صبح الاعشى ، الجزء الرابع (القاهرة ١٩١٤) ص ١٦٣ وما يليها .

لبنان في عهد المماليك

القرن الرابع عشر

حوالي ١٣٥٠ ميلادية

توسع احدهم على حساب غيره او اتحادهم ضد السلطة المركزية في القاهرة . فقد كـان الموظف الكبير يكاد لا يشغل وظيفته اكثر مـن ثلاث سنوات ، وكان كثيرون من القضاة يعينون ويصرفون من الخدمـة اكثر من عشر مرات اثنـاء حياتهم العامـلة . وكان السلطان برقوق (١٣٨٢ ــ ١٣٩٨) لا يتردد لحظة في عزل نائب دمشق وتعيين نائب ليحل محله[١] .

وقد كان اسراف الحكام في بذخهم وظلمهم الرعية ومنازعاتهم وفساد حكمهم سبباً في اشاعة الفوضى والاضطراب في جميع انحاء المملكة . وقد زاد البلاءَ شدةً المجاعةُ والقحط والزلازل والطاعون التي نزلت بالبلاد فعم الموت والهلاك . وقد خصّ المقريزي البعلبكي الاصل ، وهو مؤرخ فاضل من خيرة مؤرخي زمانـه ، جزءاً كاملا من مؤلفه[٢] لذكر المجاعات التي حلت بالبلاد المصرية وبالبلدان المجاورة لها حتى عام ١٤٠٥ ، وهي السنة التي كتب فيها كتابه هذا . ويذكر زميله المؤرخ ابن تغري بردي[٣] ان مرض الطاعون فشا في البلاد اربع مرات خلال القرن الرابع عشر . ويذكر مؤرخون آخرون لا اقل من اربعة عشر وبأً كاسحاً حل بالبلاد خـلال القرن الخامس عشر ، اي بمعـدل وبأ واحد لكل سبع سنوات . وهدّم الزلزال الذي وقع عام ١٣٠٢ مدناً عديدة ودفن « ما لا يحصى من الناس في جميع انحاء سورية ومصر » احياء في الركام ، وتصدّعت جدران الجامع الاموي في دمشق ، وخرّب جزءاً كبيراً من قلعة صفد، وتراجع البحر قبالة عكا مسافة فرسخين وعاد بشكل موجة عارمة طغت على البر فغرقته[٤]. وقد هلك في الطاعون الاعظم الذي حل بدمشق ، في الايام الاخيرة منه ، الفا نسمة كل يوم .وقد كان ابن بطوطة[٥] آنذاك في دمشق فشاهد جماهير الناس تخرج الى الشوارع كباراً وصغاراً ، ذكوراً واناثا ، مسلمين ونصارى ويهود خارجين حاملين مصاحفهم واناجيلهم وتوراتهم « باكين

---

١ ــ صالح ، ص ١٩٨ . واذا اراد القارىء المزيد حول الادارة عليه ان يراجع كتـاب الدكتور نقـولا زيادة : *Urban Life in Syria under the Early Mamluks* (Beirut, 1953), pp . 12 - 14 ; Gaudefroy-Demombynes, *La Syrie a l'époque des Mamelouks* (Paris , 1923), pp. CVI - CXI .

٢ ــ اغاثة الامة في كشف الغمة، نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٤٠).

٣ ــ الجزء الخامس ص ٧٠ ــ ٧٦ ، ١٥٤ ، ١٨٥ ، ٤٠٨ ، ٥٠٧ .

٤ ــ المقريزي : سلوك ، الجزء الاول ، القسم الثالث ص ٩٤٤ ــ ٩٤٥ .

٥ ــ الجزء الاول ، ص ٢٢٨ ــ ٢٢٩ .

متضرّعين متوسلين الى الله بكتبه وانبيائه » . وكان حاكم دمشق قد امر الناس بالصيام فصاموا ثلاثة ايام وثلاث ليال . ويذكر ابن تغري بردي [١] ان عدد الذين كانوا يهلكون بالطاعون في حلب كل يوم كان خمس مئة نفس، والفا ومئتين في دمشق ، وان الطاعون جرف اهل صفد عن بكرة ابيهم ، وكذلك بيت المقدس ونابلس والكرك وغزة ومدن ساحلية اخرى . هذه الكوارث الطبيعية ، الى جانب المصائب والاحزان التي كان يسببها الانسان نفسه ، خفضت عدد السكان في عهد المماليك الى الثلث مما كان عليه سابقاً . اما المناطق الريفية ، بما في ذلك لبنان ، فانها لم تصب باذى من جراء الطاعون كما اصيبت به المدن .

كان سحق الموارنة والدروز في كسروان ، كما ذكرنا سابقاً ، من العوامل التي ادت الى زوال روح المردة ، تلك الروح التي تميزت بها الطائفة المارونية ، وعلى زوال الروح العسكرية والحماس اللذين تميزت بهما الطائفة الدرزية . وقد ضعفت جميع مدن الساحل ــ باستثناء بيروت وطرابلس ــ وحل بها الوهن الاقتصادي ، وذلك بسبب زوال التجارة اللاتينية من جهة ، وبسبب التقييدات الشديدة التي فرضها المماليك من جهة ثانية. وكان الحفاظ على هذين المينائين، بيروت وطرابلس، من مقتضيات الحفاظ على التجارة التي كان ينظر اليها انها ضرورة لسد حاجات البلاد من الخارج . وكان بطريرك الموارنة ينقل مقره من قرية الى اخرى نظراً للحالة القلقة السائدة وانقطعت الرسائل بينه وبين رومة الى ان جاء البابا يوجينيوس الرابع [٢] (١٤٣١ ــ ١٤٤٧) . وفي كتاب البراءة الذي ارسله السلطان الى بطريرك الملكيين الروم ينبهه الا يقابل الاجانب والا يستضيفهم لا سيما اذا كانوا من الاجانب المشتبه بهم ، والا يراسل حاكماً او ملكاً في دولة اجنبية .وقد أرسل تنبيه مماثل الى بطريرك اليعاقبة [٣] . ولكن بالرغم من هذا كله فقد ظل الموارنة في شمال لبنان يمارسون نوعاً من الاستقلال الداخلي بقيادة رؤسائهم، وهم المسمون المقدمون [٤] ، الذين كانوا يجمعون الضرائب وينشئون المحاكم القضائية لاجراء

١ ــ الجزء الخامس ص ٦٤ ــ ٦٨ .

٢ ــ Dib , pp . 156 , 219 .

٣ ــ العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة ١٣١٢) ص ١٤٥ ــ ١٤٦ .

٤ ــ يخص طنوس الشدياق في مؤلفه « اخبار الاعيان في جبل لبنان » امراء الموارنة ومقدميهم بفصل خاص ، ص ٢٠١ ــ ٢٢٣ .

العدل . انما كانت الامور التي تتعلق بالاحوال الشخصية تترك للمحاكم الروحية التي كان الاكليروس يقضي فيها . ويذكر لنا الدويهي [١] خبراً طريفاً هو ان السلطان الظاهر برقوق ظهر يوماً في بشري متخفياً بزي غير زي الملوك . وقد احسن وفادته شماس اسمه يعقوب ابن ايوب ، فارسل اليه السلطان بعد ذلك بكتاب براءة حفر على لوح من النحاس عينه بموجبه مقدماً على المنطقة بكاملها . وكذلك استقبل دير قنوبين المشهور السلطان برقوق بحفاوة واكرام فاعفاه السلطان من دفع الضرائب المتوجبة عليه . وقد يكون ان هذه الحوادث وقعت سنة ١٣٨٩ و ١٣٩٠ عند نهاية عهد السلطان برقوق الذي سببه الحاجّي .

اما لبنان الجنوبي فقد سارت اموره سيراً حسناً . كانت حاصبيا ومنطقة وادي التيم تحت حكم الشهابيين وكانت بعقلين ومنطقة الشوف تحت حكم المعنيين ، وكانت صور وشيعة (متاولة) جبل عامل تحت حكم بني عاملة . ولم يكن الوقت بعد قد حان ليلعب الامراء المعنيون والشهابيون دورهم الخطير في تاريخ لبنان : اما في الفترة التي نحن بصددها فقد كانت الانوار تنصب على بني بحتر من قبيلة تنوخ .

بنو بحتر في الغرب

بنو بحتر هم الامراء [٢] الاقطاعيون الذين استولوا على بيروت وعلى منطقة الغرب ، وهي سفوح الجبال المجاورة لبيروت والتي تمتد جنوباً الى اعالي الدامور. وكان مقرهم اولا قرية سرحمول وقرية عرمون . ويظهر انهم توطنوا هذه المنطقة قبل ١١٣٥ ، وكانوا اصحاب اقطاع ، وكانوا يقدمون خدماتهم العسكرية للصليبيين الذين استولوا على بيروت وصيدا . وفي اثناء الحروب التي وقعت بين التتر والمماليك كان آل بحتر احياناً يقاتلون مع الفريقين ، ليضمنوا لانفسهم ان يكونوا في الكفة الراجحة [٣] . هذه السياسة ، سياسة الترقب والحذر وسياسة

---

١ ــ الدويهي ، ص ١٣١ . الشدياق ص ٢١٣ ــ ٢١٤ .

٢ ــ لفظة امير عربية . اما لفظة مقدم ، كما كان يسمي اهالي شمال لبنان حكامهم وامراءهم، ففيها شيء من السريانية .

٣ ــ صالح بن يحيى ، ص ٥٠ ــ ٥١ ، ٥٧ ، ٨٠ ، ٦٥ ، وقابل ص ١٩٦ .

الغرب

في عهد البحتريين

القرن الرابع عشر

اللعب على الفريقين كانت السياسة ذاتها التي مارسها سكان لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح ؛ وظل اهل لبنان يأخذون بهـا حتى زمن فخر الدين المعني الاول (١٥١٦) وخلفـائه من بعده . وقد عهـد المماليك الى البحتريين بحماية الشاطىء ضد هجمات الافرنج ولا سيما الغزوات التي كانوا يقومون بها من جزيرة قبرص . وبذلك تمكن البحتريون مـن تثبيت سلطتهم وحكمهم حتى اواخر القرن الخامس عشر . وفي اثناء حكمهم النيّر السمح كانت مقاطعة الغرب تنعم بما يشبه الاستقلال الداخلي وتتمتع بشيء من الازدهار الاقتصادي . وبالرغم من انهم كانوا ظاهرياً مسلمين سنيين فانه من المرجح انهم كانوا دروزاً في عقيدتهم . وقد فتحوا ابواب مدينة بيروت تدريجياً امام الاجانب من التجار وجعلوا منها مرفأً لمدينة دمشق . فاخذت السفن تمخر بانتظام بين مينائها وجزيرة قبرص. وكان حجاج الارض المقدسة يلتقون فيها ومنها كانوا يذهبون الى فلسطين . وقد سمح للتجار الاوربيين ان يبنوا خانات وحمامات وكنائس [١] فازداد عدد سكانها الى قرابة عشرة آلاف نسمة. وبسبب الصلات التي عادت فتوطدت بينها وبين الممالك اللاتينية الصليبية وبعض البلدان الاوربية فان مرفأ بيروت اصبح المرفأ التجاري الذي يغذي داخلية البلاد . وكانت بيروت تستطيع الاتصال بدمشق عن طريق البريد الذي انشأه السلطان بيبرس بين القاهرة ودمشق . اما في اوقـات الخطر ، فكانت تتصل بالخارج بواسطة الحمام الزاجل او بواسطة النيران. كانت الاشارات النارية تعطى ليلا في مكان يسمى راس بيروت، وهو لسان مرتفع داخل في البحر، ثم الى قمة بوارج[٢] وهي قمة في جبل الكنيسة ومنها الى يبّوس في سلسلة جبال لبنان الشرقية ، ومن هناك الى جبل الصالحية الذي يشرف على مدينة دمشق[٣] .

كان من حسن طالع نيابة دمشق انحكمها، بين سنة ١٣١٢ و١٣٤١ ، تنكيز، وهو مولى من موالي السلطان الاشرف ، وهو الذي يعتبر سجل اعماله نقطة مشرقة في اخبار المماليك في البلاد السورية . وقد اعاد تنكيز بناء جسر الدامور (بـين بيروت وصيدا) الذي كان يخرّبه طغيان النهر مرة بعـد اخرى ، واعاد بنـاء

١ ـ صالح ابن يحيى ، ص ٣٩ ـ ٤٠ . Von Suchem, p. 49.
٢ ـ هذا هو الاسم وقد وردت بوارش في صالح بن يحيى ص ٨٠ .
٣ ـ صالح ابن يحيى ص ٨٠ . الشدياق ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

حصون بيروت ، وبنى فيها خاناً جديداً وحماماً للعامة . وكان يمد يد العون الى البحتريين في ادارتهم البلاد . ومن جملة المدن التي انتفعت من حكمه الفاضل بيت المقدس . فانه جلب لها الماء . واخيراً اتهم انه اساء استعمال المال المخصص له فالقي عليه القبض وسجن في الاسكندرية وظل في السجن حتى مات[١] . اما خليفته فقد امره السلطان ان يسرع في بناء اسطول ليثأر من دولة الكوزينيانيين الصليبية التي كان اسطولها البحري يقض مضاجع اهل الموانى اللبنانية والمصرية . وفي عام ١٣٠٣ اسر الافرنج احد امراء بني بحتر عندما كان يصطاد الحجلان بالقرب من الدامور ولم يخلوا سبيله حتى دفع لهم البحتريون فدية قدرها ثلاثة آلاف دينار[٢]. وفي سنة ١٣٦٥ هاجم الصليبيون مدينة الاسكندرية . وفي السنة ذاتها بدأ بناء الاسطول على الشواطىء بالقرب من بيروت . ولكنهم بعد ان انزلوا في الماء سفينتين للنقل وتكبدوا النفقات الطائلة عدلوا عن العمل فجأة . وقد تركوا هاتين السفينتين وهيا كل السفن التي شرعوا في بنائها في مكانها للسوس ينخرها . اما الحديد فيها فقد نهبه بعض البيروتيين وقد اختار المماليك بيروت لبناء هذا الاسطول بسبب احراج الصنوبر في ضواحيها، وقد كانت اعمر من ذي قبل، ولوجود معدن الحديد بالقرب منها والذي كانت تصدره الى مصر[٣] . وفي سنة ١٣٨١ هاجم اسطول من جنوا مدينة صيدا واعمل فيها النهب والسلب . ثم هاجم بيروت التي كان يدافع عنها يحيى ابو صالح المؤرخ الذي اشرنا اليه مراراً . وقد ارسل نبأ هجوم الاسطول الجنوي الى دمشق بطريقة الاشارات النارية . فوصلت كتيبة من الفرسان مساء اليوم الثاني من وصول الاسطول ، ولكن الوقت كان قد فات فلم تشترك هذه الكتيبة في الدفاع عن المدينة[٤] . وفي سنة ١٤٠٤ ظهر هذا الاسطول مرة اخرى على شواطىء بيروت واعمل فيها النهب والسلب واحرق اسواقها القريبة من الميناء وروع السكان فولوا هاربين الى الجبال . ولا يذكر لنا التاريخ محاولات اخرى عدائية بعد ذلك الحين . ويبدو ان الناس اقتنعوا بان العلاقات التجارية الطبيعية اجدى واكثر نفعاً على مر الايام .

١ ـ صالح ابن يحيى، ص ١٠٧ ، ١١٧ ، ابن بطوطة الجزء الاول ص ١٢١ . ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجزء الأول (بولاق ١٣١١) ص ١٧٢ .

٢ ـ صالح ابن يحيى ، ص ١٤٩ ــ ١٥٠ .

٣ ـ صالح ابن يحيى ، ص ٣٤ ــ ٣٥ . ابن بطوطة ، الجزء الاول ص ١٣٣ .

٤ ـ صالح ابن يحيى ، ص ٣٥ ــ ٣٦ .

الاقطاعية في لبنان

لم يكن الاقطاع ـ على مختلف اشكاله ـ الذي بدأه سلاطين المماليك وجعلوه غير وراثي لينطبق على الحالة في لبنان[١] . وقد اراد المماليك بذلك ان يبقوا صاحب الاقطاع خاضعاً لارادة القاهرة . وكان الاقطاع في عهد المماليك ، كما كان سابقاً في صدر الاسلام ، منحة يهبها السلطان مقابل خدمات عسكرية يقوم بها الافراد للدولة . ويظل مفعول الاقطاع معمولا به مـا دام الخليفة او السلطان راضياً عن صاحب الاقطاع . وكان السلطان ينتظر من صاحب الاقطاع ان يبعث اليه خراجا سنويا وكتيبة من الجنـود من ابنـاء المقاطعة . امـا بنو بحتر فكانوا يتوارثون اقطاعاتهم جيلا بعد جيل الى اواخر عهد المماليك . وفي عـام ١٣٧٥ عندما توفي احد المقدّمين الموارنة في العاقورة تزوجت ابنته احد افراد آل الدحداح وورثت اقطاع ابيها[٢] . وهكذا اصبح آل الدحداح ، وهي عائلة لا تزال من اهل اليسر حتى يومنا هذا ، من اصحاب الاقطاع . وفي عام ١٣٢٢ صدر امر السلطان الى حسين الشهابي من حاصبيا ان يبعث اليه بالجنود لمحاربـة صاحب قلعة الكرك . ولكنه ابى ان يلبي الطلب بكثـير من الاباء . فاستنفر السلطان مقدمي البقـاع واغراهم به فحاربوه ولكنه قتل منهم خمس مئة رجل[٣] . وكذلك فعل البحتريون فانهم لم يبعثوا بالجند الى المماليك . امـا واجبهم العسكري نحو المماليك فقد كان حراسة الشواطىء بين بيروت وصيدا (بالاضافة الى شواطىء المدينتين) . وكانوا يستخدمون لهذه الحراسة تسعين فارساً كل ثلاثين منهم يخدمون مدة شهر كامل.

اما الفلاحون والعمال اللبنانيون الذين كانوا يعملون في الاقطاعات فلم يكونوا اقنانا كما كان الفلاحـون والمزارعون في سورية ومصر . انهم كانوا احراراً ينتقلون من اقطاع الى آخر وكان لهم ان يؤثروا اقطاعيـا على اقطاعي آخر فينتقلون الى خدمته . وهـذه الحرية لم يتمتع بها الفلاحون والمزارعـون في النظام الاقطاعي اللاتيني الذي ادخلوه الى البـلاد ، بل كانوا اقنـانا

١ ـ القلقشندي ، الجزء الرابع ، ص ٥٠ ـ ٥١ .
٢ ـ الشدياق ، ص ١٠٩ .
٣ ـ الشدياق ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .

تحت رحمة الاقطاعي . والاقطاع في لبنان كان صغيراً يشمل قرية الى عشر قرى موزعاً بين العائلات اللبنانية الارستقراطية . وكان حصة المزارع (ويسمونها المقاسمة) جزءاً معيناً من الغلة ، وكانت تتراوح بين ٤/٣ و ٣/٢ الغلة الا في الاراضي المسقية حيث كان معدل حصة الفلاح المزارع النصف . وقد ذكر في ايجار اقطاع احد الامراء البحتريين الزيتون والصابون والحرير[١] .

طرابلس عاصمة نيابة

كانت طرابلس من جملة المدن اللبنانية التي كانت مقراً لنـائب . وكان نائب طرابلس يفوق نائب حماة وصفد مرتبة ومقاماً، ولكنه ادنى مرتبة من نائب دمشق وحلب[٢] . وكانت صيدا تنافس بيروت في كونها منفذاً تنفذ اليه تجارة دمشق . اما صور فقد بقيت مدينة مقفرة . يقول مؤرخ عنها : « هنـا مدينة كانت فيما مضى من الزمن مدينة مسيحية حسنة عظيمة . غير ان المسلمين خربوا اكثرهـا ، وهم يحرسون ميناءها خوفاً من ان يدخله النصارى[٣]» . وقد وجدها فون زوخم مدينة تكاد تكون خراباً[٤] .

كان من اعمال حكام المقاطعـات المحافظة على الامن وقمع الثورات وتعيين الموظفين الذين لا يعينهم السلطان . وكانت الادارة في عهد المماليك مركزية . امر السلطان سنة ١٣١٧ حاكم طرابلس ان يقفل ابواب حانة للخمر في المدينة حيث كانت ترتكب اعمال الفحشاء . وامره ايضاً ان يبني مساجد في قرى النصيرية . ولكن التاريخ لا يذكر لنا شيئاً عن وجه استعمال هذه المساجد . فقد بنيت مساجد

١ ـ صالح ابن يحيى ص ١٨١ . وراجع عواد في المشرق الجزء ٤٠ (١٩٤٢) ص ٢٦ـ٢٨، وراجع ايضاً :
A.N.Poliak, *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon,* (London,1950), pp. 64 seq .

٢ ـ ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، طبعة يوسف سركيس (بيروت ١٩٠٩) ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

٣ ـ « The Book of Sir John Maundeville, A.D. 1332 — 1356 », in Thomas Wright, *Early Travels,* p. 141 .

٤ ـ Von Suchem, p. 50 .

قبل ذلك في بلاد النصيرية ولسنا نعلم اذا كانت قد استعملت للصلاة ام لا [١] . وكان القاضي يأتي بعد الحاكم في المرتبة. وكانت وظيفته الفصل في الدعاوى حسب احكام الشريعة الاسلامية . وكان مقر قاضي القضاة في العاصمة . ومن اشهر قضاة طرابلس ابن منظور المصري المولد (١٢٣٢ ـ ١٣١١) وصاحب «لسان العرب» ـ ومعجمه يشبه معجم الجوهري (توفي ١٠٠٨) « صحاح اللغة » ـ الذي رتبه على حروف الهجاء متخذاً الحرف الثالث من الجذر . وهو معجم معروف كثير الاستعمال في جميع انحاء العالم العربي حتى في يومنا هذا . وكان للمدن الكبيرة، مثل بيروت، قضاتها . وعلى مقربة من بيت القضاء كان هنالك رئيس للشرطة عمله تنفيذ اوامر الحاكم واحكام القاضي . وكان هنالـــك موظف آخر له عمل طريف : المحتسب . ومن وظائفـــه فحص الاطعمة والبضائع والموازين والمقاييس واجراء التفتيش على التجار والصناع والمحافظة على الاخلاق والآداب العامة . بكلام آخر كان منفذ القوانين والشرائع ، ولذا كان الصق الناس بالعامة . وقد تحدر الينا من عهد المماليك عدة مؤلفات تبحث واجبات المحتسب ووظائفه التي كان من جملتها مراقبة الفصـــادين والحجامين والاطباء والجراحين والكحالين والمجبرين ومعلمي المدارس والوعّاظ والمنجّمين والكتّاب [٢] . وكان يمتحن بعض اصحاب هذه المهن . وقد عد ابن خلدون [٣] ، قاضي القضاة المالكي في القاهرة في عهد المماليك، الحسبة من الوظائف الدينية في الدولة الاسلامية [٤] .

اما الذميون فان احوالهم الشخصية ظلت في نطاق سلطة الاكليروس كما كان يقضي العرف الاسلامي المتبع في مثل هذه الاحوال . وقد كان البطريرك يعمـــل كوسيط بين رعيته وبين السلطان . وكان اكثر الموارنة يقيمون في نيابة طرابلس، ولكننا لا نعثر على ذكر بطريركهم في الوثائق الرسمية التي تحدرت الينا . غير ان

١ ـ القلقشندي ، الجزء الثالث عشر ص ٣٥ .

٢ ـ ابن الاخوة : معالم القربة في احكام الحسبة طبعة
Reuben Levy (Cambridge,١٩٣٨), pp. 165 - 84 (text) , 54 - 68 (tr.) .

٣ ـ المقدمة (القاهرة ١٢٨٤) ص ١٨٨ .

٤ ـ Consult Ziadeh, pp. 105 - 27; Gaudefray-Demombynes pp. 222 - 8.

هذه الوثائق تذكر بطريرك طائفة الروم الملكيين وبطريرك اليعاقبة السريان[١] . وبما ان اكثرية الموارنة الساحقة كانت تتوطن الجبال وتتكلم اللغة السريانية فانه كان ينظر اليهم انهم اقلية عنصرية لا طائفة او ملة . وليس بمستبعد انهم كانوا من ضمن « الجبلية » التي يتكلم عنها القلقشندي[٢] والتي كانت تضم ايضاً جماعة التركمان والاكراد الذين كانوا جميعاً تحت امرة مقدميهم. وكان البطريرك مسؤولا عن تصرف رعيته وعن الاحوال الشخصية كالزواج والطلاق والارث ، كما تنص عليها الشرائع الكنسية الخاصة بهم ، وعن ادارة الاوقاف والمؤسسات الخيرية . اما الضرائب فقد كان الاقطاعيون يجمعونها . وكان يفرض على النصارى واليهود ان يلبسوا ثياباً تميزهم عن المسلمين . وفي كتابات ابن تيمية ، الفقيه السوري ، انعكاس لروح العداء والظلم ضد الذميين في جميع انحاء المملكة. فقد كان ابن تيمية من اتباع المذهب الحنبلي الذي نشأت عنه فيما بعد الحركة الوهابية . وقد كان ابن تيمية شديد الوطأة في احكامه ضد النصارى واليهود،وكان يقاوم بشدة احتفاظهم بالكنائس واماكن العبادة او تشييدها . يقول لنا دي لا بروكير[٣] انه لما قدم دمشق زائراً اضطر ان ينزل عن دابته لما دخل المدينة .

الزراعة

يكثر المؤرخون والسياح من التكلم عن مقادير الغلال الزراعية وجودتها في البلاد . فقد كان لبنان وساحله يفوقان سائر البلدان بجودة فاكهتهما . وكان سهل البقاع مشهوراً بحبوبه . وقد ذكر لنا الجغرافي السوري، الدمشقي[٤] (توفي١٣٢٧) ان بساتين طرابلس التي يسقيها نهر ابو علي لا مثيل لها في العالم . ويذكر بصورة خاصة قصب السكر والجميز واشجار الحمضيات والقلقاس[٥]. والجبل غني بالنباتات

١ ــ في كتاب الملك لويس التاسع ــ الذي اشرنا اليه سابقاً ــ الى الطائفة المارونية يخاطب فيه « امراء الطائفة المارونية وبطريركها واساقفتها » . وكذلك في رسائل اخرى نجد ان « الامير »او « الامراء » يحتلون المرتبة الاولى .

٢ ــ الجزء التاسع ، ص ٢٥٤ . العمري ، تعريف ، ص ١١٣ ــ ١١٤ .

٣ ــ In Wright, *Early Travels*, p. 293

٤ ــ الدمشقي : نخبة الدهر ، ص ٢٠٧ .

٥ ــ واصل اللفظة يوناني : colocasia

التي تستخرج منها الادوية . فالترياق مثلا ، على ما يقول الدمشقي[1] ، يستخرج من نبتة تنمو في شقوق الشواهق التي لا يستطيع المرء ان يصل اليهـا الا اذا ربط ودلي بحبل . وهنالك شجرة يصلح خشبها لصنع الملاعق والادوات المنزليـة التي يمكن تغليفها برقائق الذهب والفضة ثم تصديرها الى جميع انحاء المعمور . ويذكر ابو الفداء[2] ، وقد كان معاصراً للدمشقي ، بساتين بيروت وخصب التربة فيها . ويتحدث عن قناة محفورة في قلب الارض تجلب بواسطتها مياه الشرب الى المدينة. ويشير كذلك الى برجيها . وقد زار ابن بطوطة[3] طرابلس البرية فوجد ان اقنية عديدة تخترق شوارعها وان البساتين تحيط بها من كل صوب . وقـد أخِذ بغنى الارض وبغنى المدينة بالمواد البحرية . وكانوا يشبهون بعلبك بانهارها وبساتينها بمدينة دمشق .

ولم يكن اعجاب السائحين الاوروبيين باقل من اعجاب السيَّاح والمؤرخين العرب. فان القسيس الالماني فون زوخم[4] الذي كان في البلاد المقدسة بين ١٣٣٦ و ١٣٤١ يقول عن شمال لبنان انه : « جبل تكسوه اجمل الاشجار ، غني بجميع انواع الفاكهة والاعشاب التي يمكن ان يتصورها العقل . وفي الجبل مدن وقرى لا عدّ لها، سكانها من المسيحيين» . ويقول راهب الماني آخر اسمه بوركهارت[5]، ذهب الى الشرق عام ١٢٣٢، ان البلاد التي تحيط بمدينة طرابلس جنة لما فيها من الكروم الجميلة التي لا تحصى ومن بساتين الزيتون والتين وقصب السكر التي لا اظن اني رأيت لها مثيلا في اي جزء من اجزاء المعمور » .

الصناعة والتجارة

ولا نظن ان الحالة الاقتصادية كما وصفها لنا الرحالة العرب والسياح الاجانب

١ ــ ص ١٩٩ ــ ٢٠٠ .
٢ ــ ابو الفداء : تقويم ، ص ٢٤٧ .
٣ ــ الجزء الاول ص ١٣٧ ــ ١٣٨ ، ١٨٥ .
٤ ــ Von Suchem, p. 48 .
٥ ــ *A Description of The Holy Land,* Tr. Aubrey Stewart (London, 1896), p. 16 .

كانت حسنة كما يبدو من تقاريرهم . فان الضرائب التي كانت تفرضها الحكومة المركزية كانت فادحة ان لم نقل انها كانت ابتزازاً . والسياسة المالية التي كانت تتبعها كانت سياسة عقيمة فاسدة . ولا شك في ان هذين العاملين ، الضرائب الفادحة والسياسة المالية الفاسدة ، قد زادتا من خطورة الحالة الاقتصادية . ولم تقتصر الضرائب على السلع التجارية كالخيل والمراكب بل كانت تتناول ضروريات الحياة كالملح والسكر التي كانت الضرائب عليها عالية جداً . وبعض هذه السلع كانت احتكاراً يحتكره السلطان الذي كان يتلاعب بالاسعار لابتزاز الاموال . وكانت قيمة العملة احياناً تخفض لصالح الحكام مما كان يزيد في فوضى التضخم المالي . والسلاطين المماليك ـ الذين كانوا يختلفون عن السكان عرقاً ولغة وحضارة ـ ارادوا ان يكسبوا عطف رعاياهم وولائهم فقاموا بمشاريع بناء على صعيد ضخم كبناء المدارس الفخمة والجوامع الكبيرة والقبور المقببة مما اقتضى تشييده انفاق المبالغ العظيمة من اموال الخزينة . ولكي يستعيدوا الى الخزينة حالتها الطبيعية كانوا يلجأون الى فرض ضرائب جديدة فادحة لا يقرها قانون او عدل . غير ان المعاهدات التجارية التي عقدها المماليك مع تجار البندقية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، والامتيازات التي منحوها الى التجار الاوروبيين نشطت تبادل المتاجر وعوّضت على السكان شيئاً مما كانوا قد خسروه . وفي هذه الاثناء بدأ الباباوات بمنح الحجاج الاذن ليذهبوا الى الارض المقدسة .

كانت الصناعات الوطنية الرئيسية في المنطقة الساحلية، كما كانت في عهدها السابق، تشمل صناعة النسيج القطني والحريري والسكر والزجاج والفخار . ويخبرنا بولندي (او لعله الماني) زار طرابلس ١٤٢٢[١] . ان في المدينة الفا ومئتي حائك يصنعون الانسجة الحريرية والمخملية ، بينما كانت طرابلس في اواخر الحروب الصليبية تباهي بان في المدينة اربعة الاف نول[٢] ويصف هذا الحاج مرفأ بيروت بأنه مرفأ « رديء قبيح[٣] » . اما بعلبك في داخلية البلاد فقد اشتهرت بانها مركز صناعي . فقد كانت تصنع نوعا من القماش من القطن والصوف يعرف بالنسيج

١ — John Poloner, *Description of the Holy Land*, tr. Aubery Stewart (London, 1894), p. 33.

٢ ـ المقريزي . سلوك ، الجزء الاول ، القسم الثالث ، ص ٧٤٨ .

٣ — Poloner, p. 32 .

البعلبكي الذي كان يقبل على شرائه الملوك والاشراف . وكان ولاة سورية ، عندما يبعثون بالهدايا الى سلاطين القاهرة ، يرسلون من هذا القماش ايضا . وقد ابى احد هؤلاء السلاطين ان يتقبل ثوبا بعلبكيا ينقص ثمنه عن الثلاثين دينار[١] . وكان اهل بعلبك يصدرون الاغطية الى اماكن قصية مثل مراكش واسبانية . ويروي ابن بطوطة ان من جملة ما كانوا يفاخرون بصنع الملاعق الخشبية والآنية التي « لا نظير لها في البلاد[٢] » . ويتابع ابن بطوطة كلامه : « وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة اخرى تسع في جوفها اخرى الى ان يبلغوا العشر ، يخيل لرائيها انها صحفة واحدة » . وبها يصنع الدبس المنسوب اليها « الدبس البعلبكي » وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب . وإذا جمد صار كتلة واحدة يضيفون اليها الفستق واللوز ويسمونها « حلواء بالملبن » . وعندما مر جيش تيمورلنك ببعلبك (سنة ١٤٠٠) وهو في طريقه الى دمشق ، وجد فيها مقادير عظيمة من الفاكهة والحبوب والبضائع فاخذ الجند من جميع ما يحتاج اليه مؤنة تكفيهم زمناً طويلا »[٣] .

ويجب ان تكون صناعة السكر قد ازدهرت واتسعت كثيراً في هذه الحقبة بسبب اقبال الأوروبيين على شراء هذه المادة . فان اللبنانيين لم يزرعوا قصب السكر وحسب ، بل انهم صنعوا السكر وعرفوا الغربيين به . وقد كانت طرابلس وبيروت وصيدا وعكا المدن الرئيسية حيث كان يصنع السكر . وقد اخذ اهالي جزيرة قبرص صناعة السكر من الصليبيين الذين كانوا في سورية ولبنان قبل ان التجأوا الى الجزيرة حيث اقاموا لهم دولة صغيرة . وقد ظلت دمشق وطرابلس المدينتين الرئيسيتين اللتين تموّنان اوروبة حتى اواخر العصور المتوسطة بالسكر بجميع اشكاله المعروفة آنذاك : بشكل رقائق او ناعم بشكل دقيق او بشكل حلوى[٤] .

١ — ابن تغري بردي ، الجزء السابع ، ص ٧٦٠ .

٢ — ابن بطوطة ، الجزء الاول ، ١٨٦ — ١٨٧ .

٣ — Sharaf - al - Dîn (Cherefeddin); Ali al-Yazdi, *The History of* Timur - Bec , tr . from the French of Pétis de la Crois (London, 1723) , vol. II , p 180 .

٤ — W. Heyd, *Histoire du commerce du Levant au moyen-âge,* tr . F . Raynaud , 2nd imp . (Leipzig,1936) , vol. II, p . 686 .

واحتفظت مدينة صيدا بقسط ضئيل مما كانت قد اشتهرت به سابقاً ، نعني الزجاج والخزف .

ونجد في قائمة الصادرات التي كانت تصدرها المنطقة ان بيروت وصيدا كانتا تصدران الفاكهة الى مصر . اما الزيت والصابون فقد كانت بيروت وطرابلس تصدرانه الى مصر ايضاً . وكانت سورية تصدر القطن من سهولها الى اماكن بعيدة مثل البلاد الاسبانية. وبالاضافة الى المراكب الشراعية التي كانت تؤم مينائي بيروت وصيدا بصورة منتظمة فان اسطولا تجارياً كبيراً كان يأتي الى هذه الشواطىء كل سنة في شهر حزيران ليشحن غلة القطن[١] . اما الواردات الى هذه البلاد فقد كانت في معظمها من الاقمشة الصوفية والكتانية من البلاد الغربية ، واللؤلؤ والحجارة الكريمة والافاويه من الشرق . وقد كانت السلعة الرئيسية التي يتجر بها اهل البندقية مع اهل هذه البلاد الافاويه ولا سيما البهار . ويأتي في الدرجة الثانية الحرير واللؤلؤ والحجارة الكريمة والعاج . وقد كان في بيروت جالية من اهل البندقية ، وكذلك الحال في مدينتي دمشق وحلب . وفي اسواق هاتين المدينتين كان التجار الاوربيون يتصلون مباشرة بالتجار من العراق وفارس والهند . وقد وجد دي لابروكير[٢] (١٤٣٢) في دمشق تجاراً من البندقية ، كما انه وجد ايضاً تجاراً من جنوا وفلورنس وكلابريا وتجاراً افرنسيين . فهو يقول : « ان اهل دمشق يبغضون النصارى . وفي كل مساء يأتي اشخاص مكلفون ان يقفلوا عليهم ابواب بيوتهم ، وفي الصباح التالي يحضرون لفتحها ساعة يشاؤون[٣] . ويخبرنا انه دخل المدينة وعلى رأسه قبعة من الفرو فجاء احدهم وضربها بطرف عصاه والقاها على الارض . وقد علم ان عدد سكان المدينة يبلغ مئة الف نسمة . وعندما جاء هذا السائح الافرنسي بيروت نزل عند رجل من اهل البندقية وشاهد احد الاعياد الاسلامية، اذ اخذ الناس « يرمون بالالعاب النارية الى الجو والى مسافة كبيرة... وهذه الاضواء اكبر من اي سراج رأيته في حياتي[٤]» . وفي بيروت طلب اليه

١ — W. Heyd, vol. II, pp. 460—1 .

٢ — De La Brocquière, p. 32 .

٣ — De La Brocquière, p. 295 .

٤ — De La Brocquière, p. 296 .

المكاري ان يتزي بزي المسلمين قبل ان يبدأا سفرتهما جنوبا. وفي مدينة حماةاشترى دي لا بروكير ثوبا من اللباد « لا يخترقه ماء المطر » . ويقول سائح الماني[١] آخر ان الحجاج الى الاراضي المقدسة يقضون وقتاً طويلا ، ليلا نهاراً في المساومة على الحلى والحجارة الكريمة فيزعجون من في الاسواق بضجيجهم . وفي القرن الرابع عشر كان لجمهورية البندقية قناصل في كل من دمشق وحلب وبيروت وطرابلس[٢]. وظلت الصناعة والتجارة في ازدهار مطرد حتى القرن الخامس عشر عندما غزا تيمورلنك البلاد بجحافله في مستهل هذا القرن .

غزوة المغول الاخيرة

انقضّ تيمورلنك – الذي كان يدعي انه من سلالة جنكيزخان – بجحافل التتر من اواسط آسية الى غربيها كأنه اعصار هائل مخلفاً وراءه الدماء والدمار . وقد وصلت طلائع جيشه سورية الشمالية في شهر تشرين الاول عام ١٤٠٠ . وهذه هي المرة الرابعة ، او حتى الخامسة ، التي فيها هاجم المغول هذه البلاد وكانت الغزوة الاخيرة . اما مدينة حلب فقد استبيحت ثلاثة ايام ، فقتل من اهلها قرابة عشرين الف نسمة وقطعت رؤوسهم ونضدت بشكل مصطبة مستديرة علوها عشرة اذرع ومحيطها عشرون[٣] . اما حماة وحمص فانهما اقتنعتا ان المقاومة معناها الهلاك التام . وقد ظل جند التتر مدة طويلة في بعلبك ليمتعوا انظارهم ببدائع قلعتها التي « يظن ان الملك سليمان امر الجنّ ببنائها »[٤] . ولكن هذا لم يحل دون استيلاء التتر عليها . ومن هناك ارسلت كتائب الى مدن الشاطىء فعادت من بيروت وصيدا محملة بالغنائم والاسلاب. في هذه الاثناء كان الجيش المصري بقيادة السلطان الناصر فرج (١٣٩٨ – ١٤٠٥ ، ١٤٠٦ – ١٤١٢) يتقدم زاحفاً نحو دمشق فوصلها في ٢٣ كانون الاول (١٤٠٠) . وكان في عداد حاشية السلطان ابن

١ – Felix Fabri, vol. II, pp. 84 — 5 .

٢ – Heyd, vol. II, pp. 464 — 5 .

٣ – ابن تغري بردي، الجزء السادس، القسم الثاني ، ص ٥٢ . ابن عربشاه : عجائب المقدور في اخبار تيمور (القاهرة ١٢٨٥) ص ٩٤ ، ٩٨ . ابن اياس، الجزء الاول ص ٣٢٦ – ٣٢٧.

٤ – شرف الدين ، الجزء الثاني ، ص ١٨٠ .

خلدون المؤرخ الاجتماعي المشهور التونسي المولد (١٣٤٢ ــ ١٤٠٦) الذي كان في هذا الوقت قاضي القضاة في القاهرة. وقد بدأت المناوشات الاولى مع طلائع الجيش في الخامس والعشرين من كانون الاول. وبعد اربعة ايام وصل تيمور الى دمشق. وكان السلطان قد انتدب ابن خلدون موفداً من قبله لمقابلة تيمور، بعد ان دلّي بحبل من على السور ليذهب لمقابلة القائد العظيم. وقد ترك لنا ابن خلدون ذاته وصفاً لهذا الاجتماع الذي حصل بينه وبين تيمور في العاشر من شهر كانون الثاني ١٤٠١. وانه حقاً لاجتماع طريف بين اكبر عالم في زمانه وبين اكبر فاتح[١]. ويقال ان حوالي ثلاثين الف نسمة من اهل دمشق هلكوا اما بالسيف او بالحريق. ولم يبق من الجامع الاموي قائماً سوى جدرانه. واصيبت الصناعة بضربة قاصمة عندما حمل تيمور معه الى عاصمته سمرقند خيرة الصناع الدمشقيين من الفنانين وصانعي الاسلحة وصناع الادوات الفولاذية والحديدية والزجاجية. ولم تنج الحركة الفكرية الأدبية من هول الكارثة فان كثيرين من العلماء قتلوا او اسروا. وكان من جملة الاسرى فتى دمشقي اسمه ابن عربشاه الذي عاد الى وطنه حيث توفي عام ١٤٥٠ بعد ان كان قد الف كتاباً في سيرة تيمور. وقد وصفه انه طاغية ظالم خليع. وفي السنة التالية انتصر تيمور على جيش الاتراك العثمانيين بالقرب من انقرة واخذ بايزيد اسيراً.

النواحي الثقافية

بدأ عهد الظلام في الفكر ع العرب في حكم المماليك. وقد استمرت هذه الفترة المظلمة الى القرن التاسع عشر. وكانت تزداد حلكاً طيلة عهد الحكم العثماني. فان الحرب والفوضى والمرض والجوع والظلم تتنافى مع الجو الذي يعيش فيه الفكر ويزدهر. كذلك كانت العزلة التي وجد العرب انفسهم فيها حائلا دون التلقيح الفكري الروحي بين الشعوب وقد كان السلاطين انفسهم من اغبى الحكام الذين عرفهم الاسلام ومن اقلهم ثقافة. فقد كانوا عبيداً يتميزون بالقسوة

١ ــ ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، نشره محمد ابن تاويت الطنجي (القاهرة ١٩٥١):

Walter J. Fischel, *Ibn Khaldûn and Tamerlane* (Berkeley, 1952).

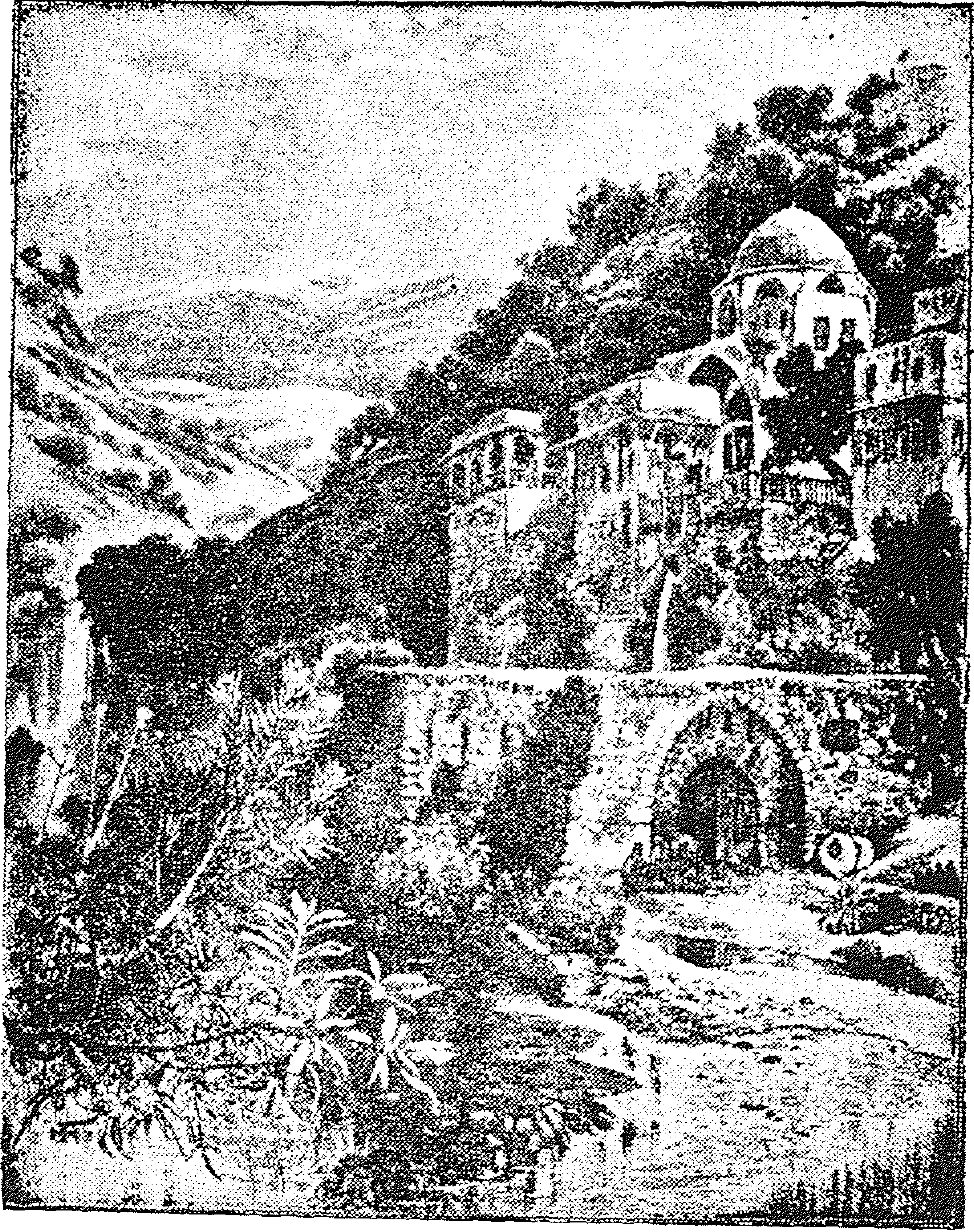
والفظاظة لا يشفع بهم سوى انهم كانوا عسكريين اشداء . وليس من المماليك البرجيين (١٣٨٢ ــ ١٥١٧) من هو ابن رجل عربي مسلم سوى السلطان برقوق . وكان خليفته برسباي (١٤٢٢) يجهل العربية. وقد امر بقطع رأسي طبيبيه لانهما عجزا عن ان يشفياه من مرض خطير . وكان اينال (١٤٣٥ ــ ١٤٦٠) يجهل القراءة والكتابة . ويقول لنا مؤرخ معاصر[١] ان اينال لم يكن يستطيع ان يتلو الفاتحة او سورة من سور القرآن القصيرة بدون لحن ، مع العلم بان على كل مسلم ان يتلو الفاتحة في صلواتــه الخمس اليومية . وكان يوقع الرسائل والوثائق الرسمية بتصوير اسمه فوق اسم كاتبه. وكان متهماً – كما كان بيبرس وسواه من المماليك –باللواط . اما خليفته الثالث يلباي (١٤٦٧) فقد كان امياً ومصاباً بمس من الجنون . ولم يكن حكام المقاطعات يختلفون في صفاتهم الخلقية والفكرية عن مواليهم السلاطين. وهل يرجى ان يكون المولى افضل من سيده؟ ومن المستغرب حقاً انه لم يخطر ببال احد من مفكري هذه الفترة ان يسجل لنا تاريخ تلك الحقبة او ان يصف الحالة الفكرية فيها .

المدارس

اما في مصر فقد عوّض السلاطين المماليك عن تقصيرهم في الحيــاة الفكرية بتشييد بنايات فخمة في القاهرة لا يزال كثير منها الى يومنا هذا تشهد على ما كان عليه الفن المعماري الاسلامي من الروعة والجمال . منها مسجد برقوق وضريحــه ومسجد قايتباي (١٤٦٨ ــ ١٤٩٥) الذي يشمل ايضاً مسجداً للصلاة وضريحاً وبركة ماء ومدرسة ، ومسجــد الغوري (١٥٠٠ ــ ١٥١٦) الذي حكم قبل المملوك الاخير .

كان بناء المدارس التي كانت من نوع المساجد التي تضم الى جانبها مدرسة قد استمر في العهد النوري الايوبي . وهــذه المــدارس لم تكن معــاهد تعنى بالعلوم والآداب والفنون ، كما كانت مــدارس بغداد التي اسسهــا المأمون (٨٣٠) ، وانمــا كانت حلقات دراسية تعنى بدرس علوم الدين والفقه ــ وكان الفقه ملازماً لعلوم الدين ــ وكانت تقوم الدولة باودها ونفقاتها ، على ان

١ – ابن تغزي بردي ، الجزء الثامن ص ٥٥٩ .



التكية المولوية في طرابلس ، وهي من اقدم المباني العربية في لبنان، التي لا تزال الى الآن في حالة جيدة .

تكون هذه المدارس نصيراً للدين الحنيف وحربا على الفرق الخارجة على السنّة. وهذا يعلل لنا رغبة المماليك الغريبة في بناء المعاهد الدراسية العالية في جميع انحاء المملكة.

وكان لهذه المعاهد اوقاف اما بشكل املاك او ريع يدفع منه اجور للمعلمين ومنح للطلاب . وقد ازدادت الاوقاف كثيراً في عهد المماليك . وكانت هيأة التعليم تتألف من العلماء والفقهاء واللغويين واصحاب الحديث . وكانت نواة

مادة التدريس علم الكلام . وكانت هـذه المعاهد التعليمية ضيقة الاطار منكمشة على ذاتها لا يدخلها بصيص من نور من عالم الفكر الخارجي . ومن خريجي هذه المعاهد كانوا ينتقون موظفي الحكومـة والقضاة والمعلمين والوعاظ والكتّاب . اما في لبنان فان المدينة الوحيدة التي انتفعت من نظام المدارس الذي وضعه المماليك كانت طرابلس . فقد انشأوا فيها مـا لا يقل عن اربعة معـاهد ينفق عليها الحكام[1] . وكان اكبرها وابعدها اثراً المدرسة القرطائية نسبة الى احد المماليك من موالي قلاوون الذي بناها عام ١٣٢٧ ودفن فيها كما تدل احدى النقوش الكتابية فيها . والبناء لا يزال قائماً الى يومنا هـذا الى جانب المسجد الكبير . وهنـالك مدرسة اخرى تعرف بالخاتونية بنيت عام ١٣٧٣ نسبة الى « خاتون » محظية احد الحكام الذي كان مولى من موالي السلطان الاشرف .

ومن المعاهد الدينية الاخرى التي كانت تقوم ايضاً بدور التعليم التكيّـة او الزاوية الصوفية (وتعرف ايضاً بالرباط والخانقاه) وتشبه هـذه التكيات اديرة الرهبان النصارى. فقد كانت بمثابة مركز اجتماعي عام لاصحاب الطريقة ومدرسة تدرّس فيها تعاليم الطريقة الصوفية وانظمتها . اذ انه في القرن الثالث والرابـع عشر كانت اهم الطرق الصوفية قد تأسست. ففي بغداد اسس عبد القادر الجيلاني (١٠٧٧ ـ ١١٦٦) الفارسي الاصل طريقته التي تعرف باسمه : الجيلانية (وتعرفها العامية بالكيلانية) وهذه الطريقة من اقدم الطرق الصوفية واوسعهـا انتشارا . وتأسست كذلك الطريقة القادرية ، وكان من اتباعها ودعاتهـا بعلبكيان نشرا الدعوة لهـا في جميع الانحاء السورية . وظهرت الطريقة الرفاعية نسبة الى رجل عراقي اسمه احمد الرفاعي (توفي ١١٧٥) التي كان اتباعها يقومون بامور غريبة كابتلاع الجمر . وقد انتشرت هذه الطريقة في عهد المماليك في جميع الانحاء السورية اللبنانية . ويذكر القلقشندي[2] ان مدينة بعلبك كانت غنيـة بالمساجد والمدارس

١ ـ محمد كرد علي : خطط الشام ، الجزء السادس (دمشق ١٩٢٦) ص ١٢٨ ـ ١٢٩ . راجع ايضاً :

Khalil Totah, *The Contribution of the Arabs to Education* (New York, 1926), p. 23.

يذكر طوطح انه كان في طرابلس ١٣ مدرسة ، ولكنها ليست كلها من عهد المماليك .

٢ ـ القلقشندي ، الجزء الرابع ، ص ١٠٩ .

وتكيّات الصوفية والبيمارستانات . وكانت مدرستها النجمية التي سميت باسم والد صلاح الدين الايوبي مقراً للدراسات الصوفية . وقد كان في طرابلس ثمانية دور لاصحاب الطرق الصوفية[١] . وكان فيها بالاضافة الى ذلك بيمارستانان[٢] بنى احدهما حاكم حلب الذي توفي عام ١٣٤١ . وكانت البيمارستانات كالمدارس تقوم على الاوقاف، وكانت مراكز لتعليم العلوم الطبية وللتمرين على الطبابة . وأقدم البيمارستانات واشهرها على الاطلاق البيمارستان الذي انشأه نور الدين في دمشق . وفي منتصف القرن الثالث عشر زاد اتساعه وادخل عليه كثير من التجهيزات وذلك بفضل الطبيب الاول فيه ، بدر الدين ، ابن احد القضاة البعلبكيين وكان فيه جناح خاص بالنساء، وآخر للمصابين بالامراض العقلية وآخر للعمليات الجراحية. وكان الطبيب بدر الدين يعلّم الطب فيه . وقد ألف كتباً عديدة في الطب[٣] .

والتعليم العالي كان حكومياً ، اما التعليم الابتدائي فقد كان من اختصاص الجامع والمسجد. وكان مقرّ المدرسة الابتدائية في دار الجامع او في الغرفة الملاصقة له . وكان خادم المسجد أو مساعده معلم الصبية . اما الكتب المدرسية فقد كانت القرآن الكريم وكتابين آخرين . وفيما يلي خلاصة لفصل من كتاب ابن الاخوة[٤] (توفي ١٣٢٩) — وكان محتسباً سوري المولد أو مصريّه — وهي تعطي القارىء فكرة عن اساليب التعليم الابتدائي وغاياته التربوية :

« واعلم انها اجلّ المعايش لقوله ﷺ خيركم من تعلم القرآن وعلمه . وفي حديث آخر : خير من مشى على الارض المعلمون الذين كلما خلق الدين جدّدوه. فحينئذ يشترط في المعلم ان يكون من اهل الصلاح والعفة والامانة حافظاً للكتاب العزيز ، حسن الخط ويدري الحساب والاولى ان يكون مزوجاً ولا يفسح لعازب ان يفتح مكتباً لتعليم الصبيان الا ان يكون شيخاً كبيراً وقد اشتهر بالدين والخير . ومع ذلك فلا يؤذن له بالتعليم الاّ بتزكية مرضية وثبوت اهليته لذلك . وينبغي للمؤدب ان يترفّق بالصغير وان يعلمّه السور القصار من القرآن بعد حذاقته بمعرفة

١ — كرد علي ، الجزء السادس ، ص ١٥٧ .
٢ — ابن الشحنة ، ص ٢٦٣ .
٣ — أبن ابي اصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الاطباء نشر :
August Mueller (Konigsberg, 1884), vol. II, pp. 259 — 63 .
٤ — ابن الاخوة : معالم القربة ص ١٧٠ — ١٧٢ .

الحروف وضبطها بالشكل ، ويدرجه بذلك حتى يألفه طبعاً . ثم يعرفه عقائد السنن ثم اصول الحساب وما يستحسن من المراسلات وفي وقت بطالة العادة يأمرهم بتجويد الخط على المثال ويكلفهم عرض ما املاه عليهم حفظاً غائباً لا نظراً ، ومن كان عمره سبع سنين امره بالصلاة في جماعة لان النبي ﷺ قال: علموا صبيانكم الصلاة لسبع واضربوهم على تركها لعشر. ويأمرهم ببر الوالدين والانقياد لامرهما بالسمع والطاعة والسلام عليهما، وتقبيل ايديهما عند الدخول اليهما، ويضربهم على اساءة الأدب والفحش من الكلام وغير ذلك من الافعال الخارجة عن قانون الشرع مثل اللعب بالكعب والبيض والنرد وجميع انواع القمار . ولا يضرب صبياً بعصى غليظة تكسر العظم ولا رقيقة لا تؤلم الجسم بل تكون وسطا . ويتخذ مجلدا عريض السير ويعتمد بضربه على الألايا والافخاذ واسافل الرجلين لان هذه المواضع لا يخشى منها مرض ولا غائلة . وينبغي للمؤدب ان لا يستخدم احد الصبيان في حوائجه واشغاله التي فيها عار على آبائهم كنقل التراب والزبل وحمل الحجارة وغير ذلك ، ولا يرسله الى داره وهي خالية لئلا تتطرق اليه التهمة . ولا يرسل صبياً مع امرأة لكتب كتاب وغير ذلك . فان جماعة الفساق يحتالون على الصبيان بذلك . ويكون السائق لهم اميناً ثقة متأهلا فانه يتسلم الصبيان في الغدو والرواح ، وينفرد بهم في الاماكن الخالية ويدخل على الصبيان في بيوتهم ، ولا يعلم الخط امرأة ولا جارية ، فقد ورد النهي بذلك لقوله صلعم لا تعلموا نساءكم الكتابة ولا تسكنوهن الغرف ولكن علموهن سورة النور وقيل ان المرأة التي تتعلم الخط كمثل الحية تسقى سماً » .

مدارس النصارى

اما في المناطق المسيحية فقد كانت اديرة الرهبان مراكز التعليم والتثقيف . وكان المعلمون رهباناً وقسيسين ، وكان بناء المدرسة الكنيسة ذاتها او البناء الملاصق لها . وكان التعليم العالي وقفاً على اقلية تهيىء ذاتها بالانخراط في سلك الرهبنة او الكهنوت . وكان الرهبان ، باستنساخهم المخطوطات القديمة وحفظها ونقل محتوياتها من جيل الى جيل بالدرس والتدارس ، هم الذين حفظوا قبس المسيحيه مضيئاً . وكانوا ، كما كان زملاؤهم من الاكليروس في انحاء اخرى من العالم ، حماة الفكر

الوطني والتراث القومي. وقدكانت السريانية اللغة المحكية بين الموارنة في الاماكن النائية المنعزلة. حتى انه عندما اصبحت اللغة العربية تستخدم في كتبهم الدينيـة فانهم كانوا يكتبونها بالحرف السرياني المعروف بالكرشوني. وهي عادة لا تزال آثارها باقية الى يومنا هذا.

عند مسهل عهـد المماليك ــ في منتصف القرن الثالث عشرـ كانت اللغة العربية قد انتصرت انتصاراً تامـاً وشاعت في جميع انحاء بلدان الهلال الخصيب باستثناء « جزر لغوية » هنـا وهناك بين الطوائف المسيحية من يعاقبة ونساطرة وموارنة. والموارنـة الذي يشير اليهم دي فتري[1] (توفي ١٢٤٠) بقوله انهم « يستعملون احرف الهجاء الكلدانية انما يتكلمون لغة العرب » فيبدو انهم من موارنة فلسطين والمنطقة الساحلية. « والسوريون » الوارد ذكرهم في كتـاب رحـلة (١٣٢٢ ــ ١٣٥٦) يعزى الى مونديفـل[2] الذي يقول عنهم انهم « يستخدمون الخبز الفطير في العشاء الرباني، وعندما يكتبون يستخدمون حروف الهجاء العربية » يجب ان يكونوا نصارى من سكان المدن. وفي عام ١٣٦٥ لمـا هاجم القبارصة مدينة الاسكندرية رأى السلطان انـه من الحكمة ان يلقي القبض على اساقفة الموارنة ويسجنهم في دمشق. امـا اسقف اهدن فانه نجا من الاسر وتوارى عن العيان، وفي مخبأه كتب الاناجيل باللغة السريانية وبالعربية لكن بالخط الكرشوني[3] مما يدل على ان رعيته كانت في تلك الحقبة مزدوجة اللغة : السريانية والعربية. والراهب الفرنسسكاني غريفون الذي عـاش في لبنـان من ١٤٥٠ الى ١٤٧٤ وامتزج بالاكليروس الماروني امتزاجا تاماً (ويدّعي بعضهم أنه سيم بطريركا عليهم)وجد انه يجب عليه ان يتعلم اللغتين : السريانية والعربية[4]. وقد ارسل غريفون تلميذين شابين على كثير من الذكاء الى رومة كان احدهما جبرائيل القلاعي اللحفدي (توفي ١٥١٦). وقد عاد جبرائيل القلاعي الى موطنه واصبح مطرانا ومؤلفاً. وفي كتاباته يظهر اثر السريانية في عربية ذلك العهد.

١ ــ *History of Jerusalem*, p. 81 .

٢ ــ In Wright, p. 189 .

٣ ــ الدويهي، ص ١٢٩.

٤ ــ لامنس « في مجلة المشرق » المجلد الاول (١٨٩٨) ص ١٥، ١٢٧ ــ ١٢٨. ايضا *Revue de l'Orient chrétien*, vol. IV (1899) pp. 76, 95 - 8.

المحصول الفكري

لم يتح لاي نتاج فكري من تلك الحقبة ان يرى النور ، والواقع انه لا يستحق ان يرى النور . فان اكثر المخطوطات التي ذكرها المؤرخون ، او المخطوطات التي حفظت لنا تعنى بالدين والشريعة واللغة والشعر ، هذا الى كونهـا لا تحتوي على شيء من الجدة في الفكر . فان جبرائيل القلاعي مثلا ، يعزى اليه انه كتب مقالات عديدة دافع فيها عن قويم ايمان الكنيسة المارونية وعن علاقتها بكنيسة رومة . وقد نشرت له مقتطفات من تاريخه للبنان وبعض القصائد باللغة العامية [١]. وممن يستحق الذكر من الطرابلسيين علي بن خليل الطرابلسي (توفي ١٤٤٠)الذي كان قاضياً في بيت المقدس . وله مؤلف عن المذهب الحنفي نشرته اولا مطبعة بولاق (١٣٠٠ هـ .) ثم نشر ثانية في القاهرة (١٣١٠ هـ .) [٢] ، ومن المؤرخين الذين لهم مكانة خاصة صالح بن يحيي (توفي ١٤٣٦) الذي اعتمدنا مؤلفه « تاريخ بيروت » كثيراً عند كتابتنا هذا الفصل [٣] . وقد استقى صالح بن يحيى معلوماته من مؤلفات امراء الغرب الذين كان يمت اليهم بصلة النسب . ومما زاد في قيمة مؤلفه انه كان يضيف اليه ملاحظاته ومشاهداته الخاصة فجاء تاريخه تاريخ شاهد عيان للفترة التي نحن بصددها . وقد اتم تاريخ صالح بن يحيى مؤرخ آخر اسمه حمزة بن احمد بن سباط من بلدة عاليه (توفي ١٥٢٠)[٤] ، وهو الذي كان قدتبناه السيد عبد الله التنوخي الشهير من بلدة عبيه الذي شرح العقيدة الدرزية وعلق عليها. أما الدويهي الذي توفي عام ١٧٠٤ والشدياق الذي توفي ١٨٥٩ وغيرهم من المؤرخين اللبنانيين فقد نقلوا عن المؤرخين اللذين سبقت الاشارة اليهما رأساً او بالواسطة .

---

١ ــ مجلة المشرق ، المجلد ٤٦ (١٩٥٢) ص ٥٤١ ــ ٥٥٢ . الدويهي ص ١٥٢ ــ ١٥٤، ٣٦٨ ــ ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩ .

٢ ــ الدبس ، الجزء السادس ، ص ٥١٨ . يوسف سركيس : معجم المطبوعـات العربية والمعربة (القاهرة ١٩٢٨) . عدد ١٢٣٦

٣ ــ تاريخ بيروت ، نشر لويس شيخو ، الطبعة الثانية (بيروت ١٩٢٧) .

٤ ــ كنموذج لكتاباته ، راجع صالح ، ص ٢٣٠ ــ ٢٣٨ . حيدر الشهابي : الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان ، نشر نعوم مغبغب (القاهرة ١٩٠٠) ص ٥٦٤ ــ ٥٩٩ .

الفصل الثالث والعشرون

قبيل ظهور العثمانيين

شهد حوض المتوسط عند منصرم القرن الخامس عشر انقلاباً جذرياً في التجارة الدولية وتغييراً في الطرق التجارية الرئيسية . وما ان استهل القرن السادس عشر حتى شهد العالم ايضاً انقلاباً سياسياً في توازن القوى الدولية الرئيسية . وكان لكليهما ، الانقلاب التجاري والسياسي ، اثر سيّىء في لبنان .

طريق الهند البحرية

في سنة ١٤٨٨ ادت الاسفار البحرية التي قام بها بحار برتغالي اسمه برثولميو دياز الى اكتشاف الرأس الذي سمي « راس العواصف » ، الاسم الذي استبدل فيما بعد باسم « رأس الرجاء الصالح » . وفي سنة ١٤٩٧ غادر بحار برتغالي آخر لشبونه بسفينته وسافر بطريق رأس الرجاء الصالح الذي كان قد اكتشفه دياز ، ووصل مدينة قاليقوط في مدراس الغربية . فكانت سفرته هذه اول سفرة بحرية من غربي افريقيا حول القارة الى الهند البلاد الغنية بالافاويه وبين هذين التاريخين (١٤٨٨ و ١٤٩٧) قام بحار ايطالي آخر هو كريستفوروس كولومبس بسفرة بحرية شقّت الحجب التي كانت تحجب نصف الكرة الارضية ، واسفرت عن اعظم اكتشاف جغرافي في التاريخ . وفي عام ١٥٢٠ سافر بحار برتغالي آخر ، فرديناند مجّلان ، بطريق رأس الرجاء الصالح وسار عبر البحار الى جزر الفيلبين . وتابعت سفينة من سفنه سفرها وأتمت الدورة حول الكرة الارضية لاول مرة في التاريخ . وكان من نتائج هذه الاكتشافات الجغرافية ان اتجهت انظار العالم نحو الغرب . واصبحت البرتغال واسبانية ، ومن بعدهما انكلترا وفرنسا الدول العالمية . وصار بامكان تجارتها الآن ان تصل شرقي افريقية والجزيرة العربية والهند والصين بحراً . وهي طريق ابعد مسافة من الطريق الذي كانت تسلكه التجارة قبلا لكنها

اقل كلفة ، فضلا عن انها مكنت التجار من الاستغناء عن المرور بالموانىء المصرية واللبنانية والسورية . ومعلوم ان سبب ازدهار الاقاليم الواقعة شرقي المتوسط انها كانت تعتمد اولا وآخراً على مرور التجارة من الشرق في طريقهـــا الى الغرب . اما الآن فان هذا الازدهار قد تقوّضت اركانه . ولم يعد البحر المتوسط ، بعد ان انحرفت عنه الطرق التجارية، «بحراً يتوسط العالم المتمدن» كما كان زمن الفينيقيين. كان على البحر المتوسط ان ينتظر الى عام ١٨٦٩ لما تم فتح قناة السويس اذ اعـاد فتحُها الى المنطقة بعضَ ما كانت قد فقدته من مكانة تجارية . في هذه الاثنـــاء وجد التجار اللبنانيون انفسهم مجبرين على اتباع طرق القوافل البرية . وبانبـــلاج فجر الاكتشاف والريادة اسدل ستار من الظلام على هذه المنطقة ، وكان سبباً في ازدياد عزلتها .

ولم تقتصر النتائج السياسية لهذا العهد الجديد على الغرب وحده بل تناول ايضاً بلاد فارس . فان اتصال الغرب ببلاد فارس مباشرة عن طريق الخليج العربي كان باعثاً على نشاط تجاري قوي . ففي عام ١٥٠١ برزت بـــلاد فارس كدولة قوية في عهد الصفويين الشيعيين . وفي هذه الاثناء اخذ الاتراك العثمانيون ــ الذين كانوا خلال القرنين الاخيرين يثبتون اركان ملكهم في البلدان التي استولوا عليها في آسية الصغرى وشبه جزيرة البلقان ــ يتطلعون جنوباً الى البلدان العربيـــة التي كانت في حوزة المماليك . والاتراك مثل اسلافهم المماليك كانوا سنيين .

مقدم العثمانيين الاتراك

وكان انه كلما ازدادت حالة البلاد الاقتصادية الواقعة تحت حكم المماليك سوءاً فقد المماليك قوتهم ونفوذهم فان القوة التي جابه المماليك بها غزو التتر وهجمات الصليبيين كان قـــد انقضى عهدها . وكان العدو المتربص لهم في الشمال يشاركهم العقيدة الدينية ولكنه كان اصلب عوداً من اي عدو آخر واجهوه في ساحة القتال. هؤلاء هم الاتراك العثمانيون الذين يمثـــلون الطور الأخير لقوة الاسلام العسكرية والذين انشأوا اعظم امبراطورية اسلامية في رقعتها الجغرافية .

واما نشأة الاتراك في اواسط آسية وبدء حياتهم السياسية فامران يكتنفهما كثير

من الغموض التاريخي . ان اللغة التركية من اللغات اللاصقة (agglutinative) وتنتمي الى فرع من عائلة اللغات التي تعرف بلغات الاورال ـ التاي التي هي لغات مغولية . والادب القليل المدون[١] الذي كان عند الاتراك اتخذوا له الخط العربي، لما وصلوا آسية الغربية ، وهو الخط الذي ظل معمولا به حتى عام ١٩٢٨ لما استبدله مصطفى كمال رسمياً بالحرف اللاتيني . وباتخاذ الاتراك حروف الهجاء العربية واعتناقهم الاسلام دخلت آلاف المصطلحات الدينية والعلمية والادبية والتقنية العربية صلب لغتهم . كما اخذوا كلمات لا عد لها من اللغة الفارسية لا سيما في حقلي الدبلوماسيه والشعر . اما دين الأتراك القديم فكان الدين الشاماني (دين شعوب الاورال ـ التاي) وهو دين شرك قديم عميق الجذور بعبادة الطبيعة وقواها. وهو من نوع الدين الذي يعتنقه الاسكيمو وهنود اميركا الحمر الذين ينتمون ايضاً الى الشعوب المغولية . وقد كان اتصال العرب بهم يعود الى القرن السابع لما وصلوا في فتوحاتهم، بعد الغزنوية ، عبر نهر جيحون. وكان السلجوقيون اول شعب تركي اعتنق الاسلام وانشأ لنفسه دولة مستقلة ، وذلك في القرن الحادي عشر . تقول الرواية ان السلجوقيين يمتّون الى العثمانيين بصلة القرابة بواسطة قبائل الغز[٢] .

كان الاتراك في اول عهدهم قبائل من البدو الرّحل يجوبون اواسط اسية . وقد انفصل عنهم بعض القبائل - التي اصبحت فيما بعد تعرف بالعثمانيين ـ التي اتجهت في تجوالها غربا عبر ايران الى بلاد الاناضول حيث استقروا وانشأوا لهم دولة قامت على انقاض دولة السلاجقة، ثم اخذت في الاتساع على حساب البزنطيين. ويبدأ تاريخهم القومي بعثمان (عاش حوالي ١٣٠٠) مؤسس دولتهم . تقول رواياتهم ان السلاجقة اقطعوا اباه ارطغرل اقطاعاً قرب بورصة . وكانت هذه المقاطعة تقع في نقطة ستراتيجية بين الحدود الشرقية للامبراطورية البزنطية

---

١ ـ قد يكون انهم استعملوا احرف الهجاء السريانية على مستوى بسيط وهم بعد في اواسط اسية .

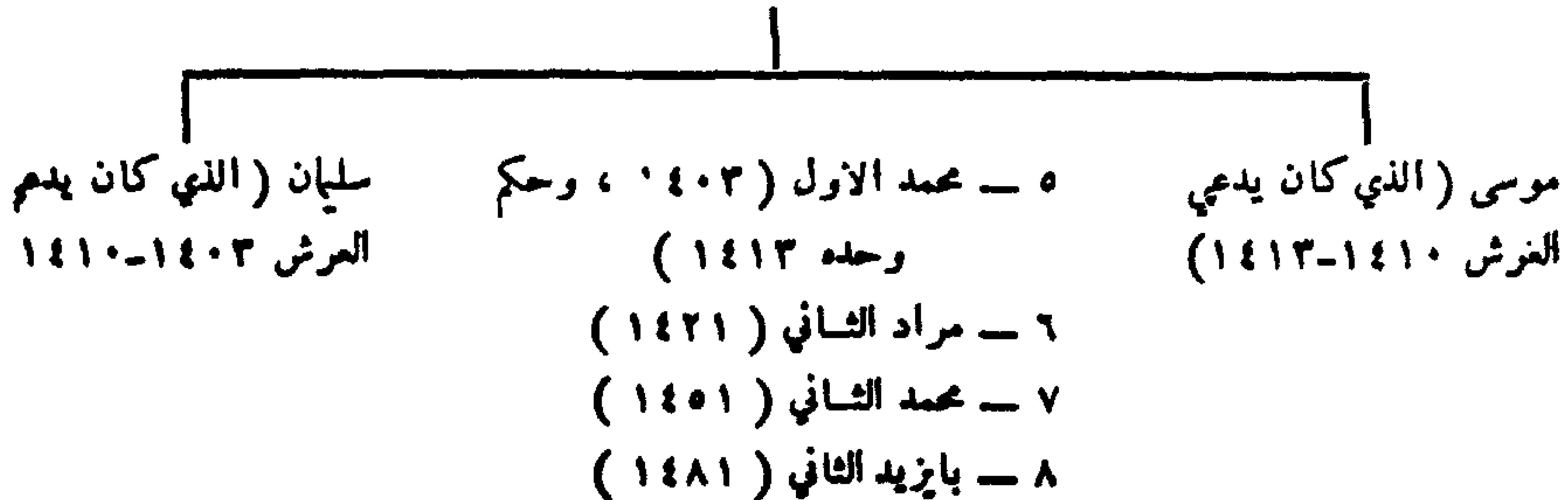
٢ ـ اذا اراد القارىء المزيد حول منشأ الاتراك عليه ان يراجع :

Paul Wittek, *The Rise of the Ottoman Empire* (London, 1938), pp. 6 - 11; Mehemed Fuad Koprulu, *Les Origines de L'empire ottoman* (Paris, 1935) pp. 82-8 ; Joseph Von Hammer, *Geschichte des osmanischen Reiches,* vol. I (Pest, 1827), pp. 40 seq .

المتداعية والحدود الغربية لدولة السلاجقة التي كانت قد دخلت طور الاحتضار . وتقول الرواية ايضاً ان جد عثمان جاء على رأس قبيلته من العراق الى بلاد الاناضول ، التي كان قد غلب عليها التترك بسبب السلاجقة . ولا شك في انه كان مسلماً بدليل ان اسمه كان عثمان ، وهو اسم الخليفة الثالث من الخلفاء الراشدين . وكان عثمان هو الذي بدأ التوسع باتجاه الحدود الغربية فالبوسفور والبحر الاسود. وكان خلفاؤه الذين اتوا بعده مباشرة من الرجال الاشداء المتفوقين اذا قيسوا بالحكام العثمانيين في العهود المتأخرة . وقد سقطت بورصة في ايديهم عام ١٣٢٦ وهي السنة التي توفي فيها عثمان . وجعلت بورصة عاصمة الدولة . وفي عام ١٣٤٥ عبر الاتراك الدردنيل واحتلوا غاليبولي واقاموا لهم هناك موطىء قدم على الارض الاوربية . وهكذا اصبح عثمان الذي كان سابقاً حاكم مقاطعة صغيرة (بيك) عند السلاجقة مؤسس دولة من اكبر واقوى الدول الاسلامية ومن اطولها عمراً (١٣٢٦ ــ ١٩٢٢) . وكان عدد سلاطينها[١] ستّة وثلاثين سلطانا . وفي خلال القرنين التاليين وصلت الدولة العثمانية الى احتلال مركز سياسي خطير في شؤون آسية الغربية وجنوبي شرقي اوروبة وفي شمالي افريقية . ولما افتتح السلطان محمد الثاني (١٤٥١ ــ ١٤٨١) ، السلطان السادس بعد عثمان ، مدينة القسطنطينية عام ١٠٥٣ اصبحت العاصمة الجديدة من امنع المدن في العالم في ذلك العهد واخصرها من الناحية الستراتيجية . وفي عهد الفتوحات ضمّ الاتراك شعوبا مسيحية تتكلم اللغة اليونانية وسلاجقة واقواماً تركية اخرى وقوميات متفرقة في آسيه الصغرى وتمثلوها .

١ ــ شجرة السلاطين العثمانيين الاول :

١ ــ عثمان الاول (حوالي ١٣٠٠)
٢ ــ اورخان (١٣٢٦)
٣ ــ مراد الاول (١٣٥٩)
٤ ــ بايزيد الاول (١٣٨٩ - ١٤٠١)



الصراع مع الدولة الفارسية

وإذ لم تكن ثمة دولة قوية تقوم شرقي السلطنة العثمانية كانت حدودها في آسية في مأمن من الخطر . لكن قيام دولة فارسية قوية متحدة بقيادة اسماعيل الصفوي (١٥٠٠ ــ ١٥٢٤) غير الموقف السياسي تغييراً جذرياً . فقد انقلبت الحال مما كانت عليه في العهدين الروماني والبيزنطي بالنسبة الى الحكم الساساني . كانت الدولة الصفوية التي اسسها الشاه اسماعيل اشهر الدول الفارسية الاسلامية واعظمها سؤدداً . وقد قضى اسماعيل على آخر معالم السنّة في مملكته واعلن ان دين الدولة الاسلام حسب المذهب الشيعي . واخذ في نشر الدعوة ، التي كانت مزيجاً من السياسة والدين ، بين الاتراك والفرس في آسية الصغرى. وبما انه كان يعتبر الزعيم الروحي عند الشيعة فانه كان يستطيع ان يستميل اليه الشيعة في كل قطر لينصروا قضيته . واسس طريقة صوفية عرف اتباعها باسم قزل باش (ومعناه اصحاب الرؤوس الحمراء نسبة الى لباس الرأس الاحمر الذي كانوا يلبسونه) . وقد توطدت اركان طريقتهم هذه في تركيا واصبحوا من القوة والمنعة بحيث ان التشريع الذي وضعه مصطفى كمال عام ١٩٢٥ عجز عن ان يقضي على طريقتهم هذه .

ازاء هاتين الدولتين الناشئتين اللتين تتميزان بدفق من الحيوية والقوة وجد المماليك أنفسهم في حالة وهن وعجز . وكانت العلاقات بين المماليك والعثمانيين قد دخلت طور التوتر الشديد في عهد خشقدم (١٤٦١ ــ ١٤٦٧) ومحمد الفاتح . ولكن الحرب الفعلية لم تكن قد نشبت بعد . وفي عام ١٤٨٦ تحدّى قايتباي حق بايزيد الثاني العثماني في السيطرة على ادنة وطرسوس ومدن اخرى على الحدود . وقايتباي هو السلطان الذي بعث الى البابا برسالة يهدده فيها انه سينتقم لنفسه من النصارى في سورية ولبنان ذلك لان فرديناند وايزابلا كانا في ذلك الوقت يشددان الخناق على البقيه الباقية من الدولة الاسلامية في الاندلس . وقد ربط المماليك في هذه الفترة مصيرهم بمصير الدولة الصفوية على اساس ان خطر الصفوية على سيادة المماليك في سورية ولبنان اقل من خطر الاتراك العثمانيين .

في شهر آب عام ١٥١٤ وقف جيشا العثمانيين والصفويين وجهاً لوجه في ساحة الحرب عند جالدران شمالي بحيرة اورمية . ولم تدم المعركة طويلا فان فرسان الشاه اسماعيل انهزموا امام هجمات الانكشارية [١] في جيش السلطـان سليم . فتابع الجيش المنتصر العـدو المنهزم الى مشارف تبريز عاصمة الصفويين . فاحتلوهـا واستولوا على قسم من ارمينية والعراق . وكانت الحرب قد انهكت قوى الجند فلم يستطيعوا التقدّم ، حتى ولا الاحتفاظ بما نالوه من ظفر فعادوا (١٥١٥) الى مواطنهم املا بان يعودوا مرة اخرى .

موقعة مرج دابق الحاسمة

وفي ربيع السنة التالية زحف قانصوه الغوري على رأس جيش مصري الى شمال سورية مدعيا انه انما ذهب الى هنالك للتوسط بين الاتراك والفرس . ولكي يخفي اهداف حملته هذه ولكي يوهم الناس انهـا حملة سلمية فانه اصطحب معه الخليفة المتوكل [٢] وقاضي القضاة . غير انه في الواقع كان ذاهباً لنصرة حلفائه الفرس . وقد عرف السلطان سليم العثماني بحقيقة الامر بواسطة جواسيسه. وعندما بعث قانصوه بموفد لمقابلة السلطان سليم فان هذا عوضاً عن ان يحسن وفادته قتل افراد الحاشية التي كانت ترافق الموفد وحلق لحيته ورده الى سيده راكباً بغلا وارسل معه الى قانصوه اعلانا بالحرب . وقد قرر السلطان سليم ان يرد الخطر عن ميمنته اولا .

وفي الرابـع والعشرين من شهر آب ، ١٥١٦ ، التقى الجيشان في مرج دابق على مسيرة يوم شمالي حلب . كان قانصوه قـد بلغ الخامسة والسبعين من عمره عندما وقعت معركـة مرج دابق . وكـان في اول حياتـه مولى من موالي

١ ــ هذه الكلمة تركية : يني ــ تشري ومعناها الجنود الجدد ، وكانوا المشاة النظاميين الذين كانوا يجندونهم من بين الفتيان الاسرى من النصارى . وعلى سواعد هؤلاء الجنود الانكشارية ، قامت الفتوحات العثمانية .

٢ ــ احد خلفاء المستنصر ، وهو احد افراد الدوحة العباسية الذي نصبه بيبرس عام ١٢٦١ خليفة في القاهرة ليدعم به ملكه . راجع القرماني : اخبار الدول وآثار الاول (بغداد ١٢٨٢) ص ٢١٩ ــ ٢٢٠ .

قايتباي . وكان رجلا قوياً مجرّباً في الحرب . غير انه لم يستطع ان يركن الى ولاء نوابه في سورية ولا الى التعاون بالنسبة الى الامراء المصريين. وقد بدأت خيانتهم عندمـــا هجر خير بك والي حلب معسكر قانصوه على رأس جنوده وانضمّ الى الاعداء . وبعد برهة وجيزة وقع قانصوه عن ظهر جواده ــ ربما بداء السكتة[1] . وكان الجيش العثماني حسن العدة مجهزاً باسلحة حديثـــة كالمدافع والبنـــادق والاسلحة البعيدة المرمى، فكان انتصاره على جيش المماليك انتصاراً تاماً. والمعركة بالنسبة لمصير سورية كانت معركة فاصلة حاسمة . وكانت كتائب البدو والسوريين في جيش المماليك تزدري الاسلحة الحديثة ، وتأبى استعمالها . وبينما كان الجيش التركي قد بدأ يستعمل البارود في الحروب منذ امد بعيد فان السوريين والمصريين ظلوا متمسكين بنظرتهم القديمـــة البالية بان الشجاعة الفردية هي التي تقرر مصائر الحروب . وقد دخل السلطان العثماني مدينة حلب دخول الظافر المنتصر ، فرحب به الناس كمنقذ خلّصهم من ظلم المماليك . وفي قلعة حلب عثر على كنوز كان قد خبأها المماليك واعوانهم هناك تقدر قيمتها بملايين الدنانير . وحوالي منتصف شهر تشرين الاول تابع سليم زحفه نحو مدينة دمشق حيث لاقاه سكانهـــا بترحاب . وهكذا انتقلت سورية ولبنان من حكم المماليك الى الحكم العثماني سلماً . وظلتا تحت الحكم العثماني أربعة قرون .

القضاء على حكم المماليك

ومن سورية اتجه السلطان سليم جنوباً نحو مصر حيث كان طومان باي ، وهو مولى من موالي قانصوه ، قد استلم الحكم . وقـــد التحم الجيشان خارج اسوار القاهرة في اليوم الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني ، ١٥١٧ ، حيث ابـــدى طومان شجاعة فائقة في مقاومته الجيش التركي ، ولكن قضيَ الامر ، فانه عندما استعرت نار الحرب انهارت معنويات جنوده ، وعمل التحاسد بين قواده وفساد اسلحته على الاجهاز على الباقي. لم تكن قوة المماليك في مصر ــ كما انها لم تكن في سورية ــ كفيلة بمجابهة الاتراك الذين كانوا يفوقون المماليك في الدهـــاء السياسي

---

١ ــ Ibn-Iyas, ed. Paul Kahle *et al.* vol. V, (Istanbul, 1932), pp. 67 ..

وفي الخطط الحربية . واخيراً دخل الاتراك القاهرة واعملوا فيها النهب وقتلوا جميع المماليك الذين وقعوا في قبضتهم . اما طومان فانه هرب الى مضرب من مضارب البدو ، ولكن فشا امره بعد زمن فالقي عليــه القبض وشنق على بوابة من بوابات القاهرة (١٤ نيسان)[١] . وبهذا انتهى عهد المماليك وفقدت مصر استقلالها . ثم تلاها الحجاز والمدن المقدسة . فان شريف مكة اسرع في اعلان استسلامــه . وكذلك اسرع خطباء المساجد في مصر فخطبوا باسم السلطان العثماني عند صلاة اول جمعة داعين له[٢] : « انصر اللهم السلطان ابن السلطان ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه ، اللهم انصره نصراً عزيزاً وافتح له فتحاً مبينــاً ، يا مالك الدنيا والآخرة يا رب العالمين » .

قضية الخلافة

لما عاد السلطان سليم الى استنبول منتصراً اصطحب معه الخليفة المتوكل الذي كان قد اسره في شمال سورية وبعد زمن اتهم الخليفة بانه اساء استعمال الاموال الموقوفة والقي في غياهب السجن . ثم انه افرج عنه فعاد الى القاهرة حيث توفي سنة ١٥٤٣ . اما قضية تنازل المتوكل عن الخلافة الى السلطان سليمان الذي خلف سليماً فعلى كثير من الغموض. ويصعب تأريخياً اثباتها فضلا عن كونها قضية ليست على شيء من الاهمية . فان الواقع هو ان السلطان العثماني ، اقوى حاكم اسلامي ، شرع تدريجياً بممارسة واجبات الخلافة وحقوقها حتى انه اخيراً اعترف به بصورة طبيعية انه خليفة المسلمين. ولما بعث السلطان سليمان الى شريف مكة[٣] ، زين الدين

---

١ ــ ابن اياس ، نشر كاله ، الجزء الاول ص ١٣٨ وما يليها ، ١٤٥ وما يليها . القرماني ص ٢٢٠ .

٢ ــ ابن اياس ، الجزء الثالث (طبعة بولاق) ص ٩٨ .

٣ ــ كان لقب « شريف » يطلق على ولد الحسن ، ولقب « سيد » على ولد الحسين . وقد ظل اشراف مكة يعتبرون حكام الحجاز قرابة الف سنة الى ان قضى عبد العزيز ابن سعود عام ١٩٢٤ على سلطتهم . ومن احفاد آخر شريف على مكة ، الملك حسين ، ملكان احدهما يملك في العراق فيصل ، (وقتل بعد تأليف هذا الكتاب) والحسين يملك في شرقي الاردن . وهم سنيون الان كما ان اشراف مراكش سنيون . واشراف مراكش هم احفاد ابن فاطمة الاكبر .

ابن بركات برسالة اخبره فيها بوفاة السلطان سليم ذكر انـــه تسنم سدة السلطنة بعـــده وانه اصبح « مستقر الخلافة » . وفي جواب شريف مكة على الرسالة هنأ الشريف السلطان على تسنمه العرش وعلى « منصب الخلافة بعناية من الله »[1] . وقبل هذه الحوادث بمدة من الزمن ارسل شريف مكة السابق ابنه زين الدين الى السلطان سليم وسلمه مفاتيح الاماكن المقدسة وشارات اخرى من شارات الخلافة. فكان المتوكل قد سلم من قبل شارات اخرى الى الفاتح العثماني . ومنها البردة التي كان يلبسها الخلفاء في المناسبات الرسمية ، والذخائر النبوية وهي العصا والخاتم والحذاء والسن وخصلة من الشعر ، وقد اودعت هذه السراي الكبير في استنبول . وتعتبر هذه الذخائر شارات تدل على منصب الخلافة . ولكن كان لدى العثمانيين مستند في دعواهم لمنصب الخلافة اهم من هذه جميعها : قوة السيف . الا اننـــا بالرغم من هذا كله لا نعرف وثيقة دبلوماسية تشير الى السلطان انه خليفة المسلمين قبل عام ١٧٧٤ ، وهي السنة التي وقعت فيها معاهدة كوتشك كينارجي بـــين الروس والاتراك .

١ ــ فريدون باي مجموعة منشآت السلاطين ، الطبعة الثانية (استنبول ١٢٧٤) ص ٥٠٠ ــ ٥٠٢ .

القسم الخامس

تحت حكم الأتراك العثمانيين

الفصل الرابع والعشرون

لبنان في العهد التركي

لما وقعت معركة مرج دابق بين الاتراك والمماليك وقف بنو بحتر ، امراء الغرب ، الى جانب المماليك يساعدونهم عسكريا ، بينما ظل بنو معن ، امراء الشوف ، في موقف المتفرج المترقب . ويبدو ان فخر الدين المعني الاول اجرى مفاوضات سرية مع والي حلب ، خير باي ، والغزالي والي دمشق وكلاهما من الذين خانوا المماليك . ولكن بالرغم من هذه المفاوضات السرية فان فخر الدين اوعز الى رجاله قائلا « دعونا ننفرد لننظر لمن تكون النصرة فنقاتل معه[1] » . وقد ذهب وفد يضمّ رهطاً من امراء لبنان الى دمشق لمقابلة السلطان سليم ، منهم فخر الدين المعني وجمال الدين التنوخي[2] من الغرب وعسّاف التركماني من كسروان . ولما دخلوا قبّل فخرالدين الأرض امام السلطان ودعا له هذا الدعاء:

« اللهم ادم دوام من اخترته لملكك ، وجعلته خليفة عهدك ، وسلطته على عبادك وارضك ، وقلدته سنتك وفرضك ، ناصر الشريعة النيّرة الغراء ، وقائد الامة الطاهرة الظاهرة سيدنا وولي نعمتنا امير المؤمنين ، الامام العادل ، والذكي الفاضل الذي بيده ازمة الامر بادشاه ادام الله بقاءه وفي العزّ الدائم ابقاه ، وخلد في الدنيا مجده ونعماه ، ورفع الى القيامة طالع سعده ، وبلغه مأموله وقصده ... اعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد بانعم العز والتمهيد . آمين[3] » . وقد اعجب السلطان سليم بشخصيته الوقورة وباخلاصه ــ باخلاصه كما يبدو في الظاهر ــ فخلع عليه لقب «سلطان البرّ» واقرّه ، كما اقرّ سائر الأمراء اللبنانيين

---

١ ــ حيدر ، غرر ، ص ٥٥٩ ــ ٥٦٠ .

٢ ــ والملقب ايضاً باليمني تفرقة له عن سائر التنوخيين الذين كانوا ينتمون الى الحزب القيسي . وقد ظل هذا الامير على ولائه للمماليك .

٣ ــ حيدر ، غرر ، ٥٦١ . الدويهي ، ص ١٥٢ . الشدياق ، ص ٢٥١ .

معه ، على اقطاعهم وسمح لهم بممارسة استقلالهم وامتيازاتهم التي كانوا يمارسونها في حكم المماليك . وقد فرض عليهم جزية طفيفة . فان الضريبة التي فرضت على كسروان مثلا ، كانت ٤٢٠٠ غرش ذهبي[1] . هكذا كانت تقتضي الحكمة السياسية . اما الخطر الحقيقي الذي كان يهدد الاتراك من الشرق ، فقد كان الخطر المصري والفارسي ، ومن الغرب دول البلقان . ومنذ ذلك الحين كانت الاتصالات بين السلاطين العثمانيين وحكام لبنان من الامراء يجري اما مباشرة أو بواسطة وال من الولاة المجاورين للبنان ، مثل والي دمشق او طرابلس ، واخيراً بواسطة والي صيدا . وكان الامراء اللبنانيون في الشؤون الداخلية يحكمون البلاد حكماً استقلالياً تاماً . يورثون اولادهم جميع ما يملكونه من مال وعقار ، وكانوا في حلّ من الخدمة العسكرية في جيش السلطان ، وكانوا يفرضون الضرائب ويجبونها كما يشاؤون ، وكان لهم ان يحكموا على رعاياهم بالموت، وقد عقد واحد من هؤلاء الامراء معاهدة مع دولة اجنبية . وهكذا نجد ان آخر موجة من الاحتلال الاجنبي الذي تعرضت له سورية وفلسطين فشلت في ان تفرض نفسها على لبنان الذي ظل اهلوه يمارسون الحياة المستقلة التي عاشها اجدادهم ،وينظرون من اعالي القمم الى ما كان يجري حولهم متحدّين بذلك التاريخ ذاته . فان فراعنة مصر وملوك اشور وبابل مروا في لبنان وسجلوا خبر مرورهم بالازميل على صخرة نهر الكلب ، وخلف الرومان والبيزنطيون والصليبيون قلاعاً وحصونا وكنائس هي خرائب الآن ، ومر الفرس والسلاجقة والمغول والتتر ، غير اننا نكاد لا نرى لهم اليوم من اثر قائم . فلم يكن هنالك ما يدعو الى الاعتقاد بان الزائرين الجدد ، الاتراك ، سيتركون في لبنان اثراً يبقى ، بالرغم من ان اقامتهم طالت الى اربعة قرون .

كان ظهور الاتراك كقوة جديدة في الشرق الادنى ، وبروز فخر الدين على مسرح السياسة اللبنانية فاتحة عصر ذهبي للامراء المعنيين وخاتمة عهد للامراء البحتريين. كان التنوخيون الدين تحدر البحتريون منهم من اصل عربي لا يخامر الشك احداً في صحته . اما المعنيون الذين اعتنق بعضهم الدرزية في وقت

---

١ ــ حيدر ، غرر ، ٥٦١ ــ ٥٦٢ . عيسى اسكندر المعلوف : تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني (جونية ١٩٣٤) ص ٩ ، هامش ١ .

متأخر فلا نعرف على وجه التدقيق شيئاً عن اصلهم . وكان التنوخيون من الحزب القيسي كما كان المعنيون خلفاؤهم من بعدهم . كانت قبيلة قيس التي ينتسب اليها القيسيون او يتسمون باسمها ، قبيلة عربية شمالية مواطنها ضفاف الفرات . امـا الحزب اليمني فكان ينتمي الى قبائل عربية جنوبية هجرت مواطنهـا الاولى ونزحت شمالا الى سورية . وقد استمر الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب في هذين الحزبين : القيسي (عرب الشمال) واليمني (عرب الجنوب) . وامتـد حتى شمل العالم الاسلامي برمته من خراسان الى الاندلس. اما في شرقي المتوسط، وعلى الاخص في لبنان ، فان هذا الصراع استمر بين حزبين : اليزبكي (القيسي) والجنبلاطي (اليمني) الى يومنا هذا .

الادارة العثمانية

لقد كان الحكم العثماني في لبنان حكما اقل مباشرة ممـا كان عليه في سورية . وقد ابقى الاتراك على التقسيمات الادارية التي انشأها المماليك ، انما ادخلوا عليها بعض التعديلات الطفيفة . وقد شكل السلطان سليم لجنة لمسح الارض بقصـد فرض الضرائب عليها . ولكنه استثنى من سهل البقاع ووادي العاصي اقسامـاً شاسعة ابقاها اميرية اي ملكاً للتاج . وقد تبنى الاتراك طريقة المماليك في جباية الضرائب (التلزيم) وذلك بتلزيمها لمن يدفع للخزينة اكبر مبلغ من المال . وكانوا في مسائل القضاء يتبعون المذهب الحنفي الذي كانوا يفضلونه على سائر المذاهب الفقهية . وقد جعلوه المذهب الرسمي للدولة .

اما النيابة التي انشأها المماليك فقد اصبحت عند الاتراك ايالة ثم ولاية . وكان عدد الولايات يختلف من حيث العدد تبعاً لمقتضيات الادارة وتبعا لنتائج الحروب العديدة التي خاضها الاتراك . واصبح النائب الآن الوالي الذي كان يخلع عليه لقب باشا ، وكانت رتبته رتبة وزير . وكان الولاة ومعاونوهم مع وزراء الدولة وامناء سرهم وكتابهم يشكلون مجموعة الحكام التي كانت تعرف « باصحاب السيف » ، والتي كان يرأسهـا الصدر الاعظم . وازاء هؤلاء كانت هنالك جمـاعة تعرف

« باصحاب القلم » وتضم العلماء[١] . وكانت كل ولاية تقسم الى سناجق[٢] . اما ولاية حلب المتاخمة لبرّ الاناضول فقد كان واليها تركياً . وولاية دمشق التي اضيفت اليها القدس وصفد وغزّة فانها اعطيت الى جان بردي الغزالي حاكم دمشق سابقاً والمملوك الذي خان الغوري وانضم الى الجيش التركي . وهذا المنصب جعله نائب السلطان والحاكم المطلق في جميع انحاء سورية . وما عتم ان اعلن استقلاله عن العثمانيين ، فحاربه الاتراك وهزموه عام ١٥٢٠ . وقسمت سورية الى ثلاث ولايات : ولاية دمشق وكانت تضم سنجق صيدا وسنجق بيروت والقدس ونابلس وغزة وتدمر ، وولاية حلب وتشمل جميع انحاء سورية الشمالية ، وولاية طرابلس التي كانت تضم حمص وحماة . وهكذا تجزأ لبنان بين ولايتي طرابلس ودمشق . وفي عام ١٦٦٠ اعلنت صيدا ولاية لقطع الطريق على اللبنانيين ولاخماد الروح الاستقلالية فيهم[٣] .

كان الغزالي مولى من موالي قايتباي . ولكي يظهر ولاءه للعهد الجديد (العهد التركي) القى القبض على الامراء البحتريين وحبسهم في قلعة دمشق . غير ان اميراً من الامراء البحتريين قدم الى دمشق لمقابلة السلطان سليم ولاظهار الطاعة له ، وقدّم له جياداً عربية اصيلة [٤]. اما سائر البحتريين فكانوا متّهمين بالولاء الى المماليك . وقد اتهموا ايضاً بحماية زعيم عربي اسمه ناصر الدين ابن حنش الذي كان قد استولى على صيدا والبقاع وابى الاذعان الى الحكم التركي الجديد . غير ان الغزالي القى عليه القبض مع احد العصاة ، وهو ابن الحرفوش – زعيم عائلة شيعية لا تزال الى يومنا هذا في منطقة بعلبك – وقطع رأسيهما وارسلهما الى استنبول. ولكن المولى الذي يخون سيده الاول لا ينتظر منه ان يخلص الود لمولاه الثاني .

---

١ – ومن اراد المزيد عليه ان يراجع : H . A . R . Gibb and Harold Bowen , *Islamic Society and the West* (London , 1950), pp . 45 seq . Cf . Stanely Lane-poole , *The Story of Turkey* (New York, 1893), pp . 324 - 39 .

٢ – هي كلمة تركية وهي ترجمة «لواء» ثم ان السنجق اصبح فيما بعد يسمى قضاء . وجميع هذه المصطلحات ورثها الاتراك عن السلاجقة .

٣ – احمد ع . عبد الكريم : التقسيم الاداري لسورية في العهد العثماني (القاهرة ١٩٥١) ص ١٣٩ وما يليها .

٤ – ابن سباط في تاريخ حيدر ، الغرر ص ٥٩٦ .

فانه لما مات السلطان سليم (١٥٢٠) اغتنم الغزالي الفرصة ليعلن استقلاله . وفي الجامع الاموي في دمشق اعلن نفسه ملكاً مستقلا واتخذ لنفسه لقب الملك الاشرف. غير ان سليمان خليفة السلطان سليم وابنه (١٥٢٠-١٥٦٦) ، ارسل جيشاً من الانكشارية دخل دمشق في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني ١٥٢١ وقتل الغزالي وهدم ثلث المدينة وضواحيها [١]. ومنذ ذلك الحين واسم الانكشارية في سورية يقرن بالقتل والنهب .

الرعية والملة

اعتبر العثمانيون ، تبعاً لنظريتهم السياسية، الشعوب المغلوبة على امرها ، لا سيما اذا كانوا من غير المسلمين ، رعايا يدبرون امورها بالطريقة التي تعود بالنفع على الغالب . والكلمة عربية الجذر ، وفي ثنايا الجذر تكمن الفكرة التقليدية التي اخذ بها احفاد البدو من اواسط آسية : فكرة راع يرعى قطيعاً . وقد عاملهم الاتراك كأنهم قطيع . نعم ان الاتراك حافظوا عليهم وسمحوا لهم بان يحيوا حياتهم القومية الخاصة شرط ان يتصرفوا تصرفاً ترضى عنه الدولة . ولم يكن لهذه الشعوب المغلوبة وجلهم من الزراع والصناع والتجار ، ان يتطلعوا الى تسنم مراكز عسكرية او مدنية . فان هذه المناصب كانت من حق الاتراك ، ومن المجندين من اسرى الحرب ، ومن الموالي الذين كانوا يشترونهم ، ومن ابناء النصارى الذين كانوا يؤخذون جزية . هؤلاء كانوا يشكلون الطبقة العسكرية الحاكمة فقد كانوا يحسنون تدريبهم ويحملونهم على اعتناق الإسلام ، ويجهدون في تتريكهم . وكان تدريبهم صارماً شديداً يبدأ اولا في الثكنات العسكرية ، ثم ينقلونهم الى المدرسة التابعة للبلاط في استنبول . وهذا التدريب كان يدوم سنوات عديدة ، ويتناول الفنون العسكرية كالتخفية وحفر الانفاق وما الى ذلك . وكان الاشداء منهم من ذوي الاجساد القوية يلحقون بفرق الانكشارية الخيالة . وكان افراد الفرقة الخيالة يعرفون بالصباهيين [٢] . اما الذين كانوا يتفوقون بالذكاء والمقدرة العقلية

١- ابن اياس (بولاق) الجزء الخامس ، ص ٣٦٣ ، ٧١ ، ٣٧٦ - ٣٧٨، ٤١٨-٤١٩ . القرماني ٣ ص ٣١٦-٣١٧ .

٢ - وهي لفظة فارسية معناها الجيش . وقد حرفها البريطانيون الى sepoy واطلقوها على الجنود الهنود .

فانهم كانوا ينتخبون حكاماً وقواداً من ذوي المراتب العالية ـ كالصدر الاعظم والوزراء وولاة المقاطعات والقواد وامراء البحر ـ وجميعهم كانوا يعتبرون عبيد السلطان(١) . وقد ظلّ هذا النظام معمولا به حتى القرن الثامن عشر لما وجدالآباء النصارى مخرجاً من المازق الذي كانوا فيه فصاروا يفتدون اولادهم بدفع بدل من المال . وفي الوقت ذاته وجد الآباء المسلمون انه من الخير لمستقبل اولادهم ان يرسلوا الى المدرسة الحربية التي كان يتدرّب فيها « العبيد » . واصبحت كلمة « قول » (عبد) المصطلح الذي يعني خادم السلطان . وحتى دلك الزمن ظلّ آل عثمان العائلة الارستقراطية حقاً في الامبراطورية التي كانت في يدها السلطة المطلقة في الادارة المركزية للدولة ، بالرغم من ان هذه السلطة كانت احياناً تعطى الى موظفين آخرين يعملون بموجب اوامر آل عثمان . وهذا النظام التركي في الحكم كان يختلف عن نظام الحكم عند العرب اختلافاً بيّناً . فقد كانت الحكومة التركية حكومة « عبيد » على رأسها السلطان تحرسه جماعة من العبيد الخصيان . وكان له حريم تعنى بشؤونه جوار ووصيفات من الاماء . وكانت صلة الوصل بينه وبين اقصى اجزاء المملكة موّظفين يعتبرون عبيداً عنده ، وله ان يحكم عليهم ـ واحياناً كثيرة كان يحكم ـ بالموت فضلا عن حجز ممتلكاتهم وتجريدهم منها . وكثيراً ما يكون السلطان نفسه ابن جارية . وبما ان قطع اعضاء الجسد امر غير جائز في الفقه الاسلامي فانهم كانوا يستقدمون الخصيان من بلاد القفقاز حيث كانوا يأسرون الغلمان ويخصونهم قبل سن المراهقة ، كما كان حكام مصر يجلبون العبيد من السودان الى مصر حيث كان الاقباط يقومون بعملية الخصي .

ويختلف نظام الحكم العثماني عن النظام العربي في ناحية اخرى بارزة . فان السلطان كان ينفرد بالسلطة التنفيذية ، وكان يترك امر الشريعة في ايدي جماعة يعرفون بالعلماء الذين كانوا يعرفون ايضاً بأهل القلم . وفي حقبة تالية عندما أُدخل القانون المدني الى السلطنة العثمانية تُرِك امرُه الى المحاكم المدنية . وقد كان السلطان

١ ـ Albert H. Lybyer, *The Government of the Ottoman Empire under Suleiman the Magnificent* (Cambridge, Mass. 1913), pp.45 seq.; Barnette Miller, *The Palace School of Muhammad The Conqueror,* (Cambridge, Mass. , 1941), pp. 6 seq. 81—2 , 94—6 .

في هذه الامور يتبع اسلوب الحكم البيزنطي . ومؤسسة « العلماء » هذه جعلت امور الدين والدنيا تتشابكان وتتداخلان . وكان شيخ الاسلام[١] يرأس جماعة العلماء التي كانت تضم ايضاً معلمين في المدارس الدينية التابعة للمساجد والجوامع ، والقضاة ، والمفتين . وكان مفتي استنبول، شيخ الاسلام، يعتبر المفتي الاول الذي يُرجَع اليه في الفتاوى المتعلقة بالشريعة الاسلامية . وكانت فتواه فيما يتعلق بتفسير الشريعة أو بمطابقة قضية ما نصوص القرآن القول الفصل في ارجاء السلطنة . وكانت جماعة العلماء تختلف عن جماعة اصحاب السيف واصحاب القلم في ان اعضاءها الجدد كانوا من العائلات الاسلامية العريقة بينما كان اصحاب السيف واصحاب القلم الجدد من مدرسة « العبيد » التي اشرنا اليها سابقاً .

والى جانب مبدأ تصنيف الموظفين والحكام على اساس الاستعباد كان هنالك مبدأ آخر يقوم على القرابة الدينية . فان المجتمعات البشرية في بلدان الشرق الادنى كانت منذ اقدم العصور التاريخية تقوم على طبقة اساسها الدين لا العرق . وهذه الطبقية القائمة على اساس الدين اسفرت على ممّر العصور عن قيام نوعين من المواطنية جنباً الى جنب: المواطنية التي تدين بالولاء الى الطائفة الدينية التي ينتمي اليها المواطن – سواء اكان يهودياً ام ارمنياً ام ارثوذكسياً ام مورانياً ام قبطياً – والمواطنية التي تدين بالولاء الى الدولة . وكانت كل طائفة من هذه الطوائف الدينية في السلطنة تعرف بالملة . وكان الاسلام ذاته يعرف بالملة الاسلامية ، وطبيعي ان يكون الاسلام اهم ملة واكبرها . وكانت تلي ذلك ملة الروم [٢] الارثوذكس . وكانوا يعنون بالروم االارثوذكس جميع الرعايا العثمانيين الذين ينتمون الى الكنيسة الارثوذكسية بقطع النظر عن اللغة والعرق. وبحسب نظام الملة اصبح جميع الرعايا العثمانيين من غير المسلمين ينتظمون في طوائف مستقلة يرعى شؤونها رؤساؤها الروحيون . وكانت القضايا التي تتعلق بالأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والارث والتبني والتربية الدينية والمؤسسات الدينية تخضع لسلطة الرؤساء الروحيين لهذه الطوائف . وقد كان هذا النظام ، الى حد ، بمثابة قيام دولة مصغرة ضمن

١ – Lybyer, pp. 199. seq .

٢ – الروم جمع رومي. وكانوا يطلقون هذا المصطلح اولا على الاوروبيين ولا سيا على شعوب الامبراطورية البيزنطية ، ثم صاروا يطلقونها على سكان الدولة السلجوقية في آسية الصغرى .

دولة كبيرة . ويمكن النظر الى نظام الملة على انة محاولة قديمة من قبل المسلمين لحل مشكلة الاقليات باعطائها شكلا معترفاً به . غير ان الحالة زادت تعقداً . وذلك ان « الامة » بالمعنى الديني اصبحت تعني « الامية » فصار الموارنة والكاثوليك دينياً في صف واحد مع فرنسة والروم الارثوذكس مع روسيا ، والبروتستانت مع بريطانية .

الامتيازات الاجنبية

وقد شمل نظام الملة الاقليات الاوروبية : ايطاليين من اهل البندقية وجنوا ، وهولنديين وافرنسيين وانكليز يقيمون في السلطنة العثمانية . وقد حددت امتيازات هذه الجاليات وواجباتها بموجب معاهدات تجارية وقضائية كانت تعقد بين الحكومة التركية وبين حكومات هذه الجاليات . وقد اطلق على مجموعها «الامتيازات الاجنبية» . واول جالية حصلت على هذه الامتيازات كانت جالية البندقية ، بموجب معاهدة عقدت بينهما وبين السلطان سليم عام ١٥٢١ . وقد نصت بنود المعاهدة على الاعتراف بالحقوق التي كان افرادها يتمتعون بها في العهد البيزنطي ، كما انها حاولت ان تحدد امتيازاتهم وواجباتهم بقانون . وبعد مضي ١٤ سنة منح السلطان سليم الافرنسيين في عهد الملك فرنسوا الاول الامتيازات ذاتها التي كان قد منحها الى البندقيين . وكانت هذه الامتيازات اساساً لازدهار التجارة الافرنسية وانتشارها في الشرق[١]. ونال الانكليز امتيازاتهم سنة ١٥٨٠ . وبموجب هذه المعاهدات لم يكن التجار الاوروبيون وغيرهم من الاجانب القاطنين في السلطنة العثمانية يقاضون حسب القوانين التركية بل كانوا يحتفظون بكامل حقوقهم كرعايا دولهم ويحاكمون في محاكم قنصلية ، اي ان القانون العثماني لم يكن يطالهم بشيء . وفي عام ١٥٦٩ و١٥٨١ حصلت فرنسة على امتيازات اخرى جعلتها وحدها حامية جميع السفن الاجنبية . وفي عام ١٧٤٠ وقع السلطان محمود الاول معاهدة مع لويس الخامس عشر تنص بنودها على ان لفرنسة الحق في ان تحمي لا الحجاج الفرنسيين فحسب

١ ـ اذا اراد القارىء الاطلاع على نص المعاهدة عليه ان يراجع :
de Testa, vol. I, pp. 15 seq.; Nasim Sousa, *The Capitulary Régime of Turkey* (Baltimore, 1933),pp. 314 - 20 .

بـــل جميع الحجاج والزوار الذين يؤمون البلاد العثمانية وهذه الامتيـــازات التي حصلت عليها فرنسا اصبحت اساس الادعاء بانها حامية جميع النصارى الكاثوليك في سورية[١]

وفي عهد لاحق تطورت هذه الامتيازات التي كانت تمنح الاجانب فاصبحت مرتكزاً للتدخل الاجنبي في شؤون الدولة العثمانية الداخلية. وعملت على افساد ضمائر الموظفين الاتراك وكثير منهم قد فسدت ضمائرهم من قبل، ومهدت السبل لقروض مالية بفوائد باهظة ، واستغلال الموارد الطبيعية ، وللحصول على امتيازات بشروط ممتازة لمد الخطوط الحديدية ، واستغلال المناجم وغيرها من المصالح العامة. وبكلام آخر فقـــد ادت هذه الامتيازات الى وضع الحياة الاقتصادية في الامبراطورية في قبضة يدهم . وانعكست الآية فاصبحت الامتيازات التي كانت تمنحها دولة قوية ذات سيادة الى دول صديقة حقوقاً تفرضها دول قوية على دولة مستضعفة رضخت الى ما كان يملى عليها من شروط . وقد استمرت هذه الامتيازات معمولا بها الى ان الغاها الباب العالي[٢] لما دخلت تركيا الحرب العالمية الاولى الى جانب المانية . وقد ظلت بقايا منها معمولا بها الى ان الغيت بعد الحرب العالمية الثانية .

الدولة العثمانية في ذروة عظمتها

بلغت الدولة العثمانية اوج عظمتها في حكم السلطان سليمان الاول (١٥٢٠ – ١٥٦٦) . وكان حكمه اطول حكم واعظمـــه شأناً وعزة . فقد كانت حدود مملكته الغربيـــة في اوروبة تتاخم مدينة فينّا ، وحدودها الشرقية عبر نهر الدنيبر الأسفل تصـــل الى شبه جزيرة القرم . اما في آسية فقد كانت حدودها من بحر مرمرة الى الخليج العربي بما في ذلك شواطىء الجزيرة العربية على البحر الأحمر ، وفي افريقيـــة من مصر الى الجزائر . ولم تقم دولة اسلامية في التاريخ الحديث

١ – de Testa, vol. I, pp. 186 seq.; F. Charles - Roux, *France et Chrétiens d'Orient* (Paris, 1939), pp. 68 - 77; Ristelhueber, pp. 93 - 105 .

٢ – الباب العالي كناية عن البلاط العثماني في استنبول الذي كان مركز الدوائر الحكومية الرئيسية. وقد سمي بالباب العالي نسبة الى البوابة العالية الفخمة المؤدية الى صحن البلاط .

تضاهيها في اتساعها او في مدة بقائها . وكان رعايا السلطان يعرفونه بالقانوني ، فانه جمع القوانين والشرائع القديمة المتعلقة بالجيش واصحاب الاقطاع وواجبات الرعية وحقوقها ونظمها بشكل مجموعة قوانين . اما خارج سلطنته فكان يعرف بسليمان العظيم ، ولقد كان حقاً عظيماً . فانه كان يرعى الفنون والآداب والاعمال الانشائية العامة . وكان يفرض احترامه لا بل هيبته على الدول الاوروبية . فقد خاطب ملك فرنسة ، فرنسوا الأول بهذه اللهجة : « انا سلطان السلاطين وملك الملوك مانح التيجان للملوك وظلّ الله على الارض ... اليك انت فرنسوا ملك فرنسه[1] » . وفي حكم سليمان اصبحت الدولة العثمانية لاول مرة في تاريخها دولة بحرية من الدرجة الاولى ، فاحتلت جزراً في البحر المتوسط ، واستردت موريا واضافت الى ممتلكاتها ، مباشرة او عن طريق القرصنة ، تونس وطرابلس الغرب والجزائر . وقد جمّل سليمان عاصمته وبعض المدن الاخرى ببناء مساجد فخمة ومدارس ومستشفيات وقصور واضرحة واقنية للماء وجسور وفنادق او خانات وحمامات للعامة ومسجد السليمانية الفخم الذي وضع تصميم بنائه مهندسه الخاص سنان ، والذي انشىء لينافس في جماله وفخامة بنائه كنيسة ايا صوفيا لا يزال الى يومنا هذا اثراً يؤمه السياح في المدينة التي كانت من قبل عاصمة السلطنة .

عوامل الضعف الداخلية والخارجية

ان سنة ١٦٨٣ ، وهي السنة التي حاول فيها الاتراك عبثاً احتلال فينّا للمرة الثانية والاخيرة ، نقول ان هذه السنة كانت بداية التقهقر بعد ان ظل الاتراك مدة قرون اربعة ينتقلون من نصر الى آخر . وكان الخط البياني لتقهقر الاتراك يسير باستمرار في خط منحدر ــ باستثناء فتراتٍ قصيرة ــ الى ان قضي على السلطنة اثناء الحرب العالمية الاولى . كانت الدولة العثمانية تشبه الدولة الرومانية في انها كانت ملكية عسكرية في تنظيمها ولم تكن تُعنَى كثيراً بمصالح رعاياها . فقد اقتصرت العناية قبل كل شيء على مصالح الدولة التي كانت تتمثل بشخص السلطان ــ الخليفة وبموظفي حكومته الكبار . كان الحكام بوجه عام يعيشون عيشة

١ ــ Roger B. Merriman , *Suleiman the Magnificent* (Cambridge, Mass . 1944), p . 130 .

ترف وتنعم . كانوا يشترون الوظيفة شراء من موظف اعلى منهم درجة ، فكان طبيعياً ان يستردوا ما دفعوا من الدراهم من مال الرعية بوسائل مشروعة او غير مشروعة ليسددوا حسابهم مع الوسيط في العاصمة . اما الرعية ـ وقد كانت مزيجاً من اعراق بشرية مختلفة : عرباً وسوريين ومصريين وبربراً واكراداً وارمناً وصقالبة ويونانيين والبانيين ينتمون الى مختلف الديانات واللغات ويتباينون في اساليب العيش ـ فلم يكن يجمع بينها ولاء روحي لمثل اعلى ، انما كان يمسكها معاً السيف العثماني المصلت . حتى ان الاتراك الفلاحين الذين كانوا يختلفون منزلة عن الاتراك العثمانيين الحكام (الذين كانوا يجيئون من العاصمة ومن المدن الكبيرة ومن الذين اعتنقوا الاسلام في المقاطعات وحتى من عبر الحدود احيانا) هؤلاء الفلاحون كانوا في نظر الحكام يعتبرون كسائر الرعايا من الشعوب المغلوبة . كانت الدولة العثمانية منظمة تنظيما عسكرياً لتكون في الدرجة الاولى اداة حرب فعّالة لا مؤسسة تعمل لخير الرعية التي كانت تتألف من شعوب مختلفة . وكانت رقعتها الجغرافية شاسعة الارجاء تمتد بشكل خط منحن يشبه الهلال قرنه الاول في اواسط اوروبة وقرنه الثاني في شمالي افريقية . ولم يكن فيها طرق مواصلات حسنة منظمة . ودولة هذا تنظيمها وهذه جغرافيتها الطبيعية والبشرية انما هي دولة تكمن فيها بذور الضعف . وتركيز السلطة المطلقة في يد رجل واحد ، هو السلطان الخليفة ، والاساليب المتبعة في تعيين خليفة السلطان ، وظهور طغمة عسكرية كقوة جديدة معارضة طامحة ، هذه العوامل وغيرها كانت ايضاً من عوامل الضعف التي كانت تعمل على انحلال السلطنة . والى جانب هذه العوامل الداخلية كانت تعتمل ايضاً عوامل خارجية في الوقت ذاته . ففي القرن الثامن عشر شرعت الدول الاوروبية ، فرنسا وانكلترا والنمسا ، تفتش عن « مناطق نفوذ » . وفي القرن التاسع عشر اخذت روسيا ترنو بعين الطمع الى ممتلكات « الرجل المريض » في اوروبة .

لا يشترط في المجتمع البدوي ان يخلف شيخ القبيلة ابنه بل كان يخلفه كبير القبيلة . لكنّ معاوية ، مؤسس الدولة الاموية خرج على العرف القبلي وجعل الخلافة ارثاً في ولده [1] ، الامر الذي لم يكن يتفق مع التقليد القديم . ومنذ عهد

١ — Hitti, *History of Syria*, p. 440 .

محمد ألفاتح (١٤٥١ ـ ١٤٨١) جرت العـــادة ان ايّاً من اولاد السلطان الذي يحظى بالتاج بعد موت ابيه يقتل جميع اخوته ، وجلهم في الغالب من امهات غير امه وهن من الجواري. فكانت كل منهن تسعى لان يلي ابنها الحكم. فان مراد الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٩٥) بدأ عهده بان قتل خمسة من اخوته الاصاغر . وقد بزّه في الامر ابنه وخليفته محمد الثالث (١٥٩٥ ـ ١٦٠٣) الذي قتل تسعة عشر اخا من اخوته . اما سليمان القانوني فلأنه كان الابن الوحيد فانه نجا من مؤامرات الخلافة ومنازعاتها ، ولكنه هو ايضاً قتل ولدين من اولاده. وقد قتل ابنه الاكبر بتحريض من زوجته روكسيلانا ، وكانت جارية روسية ابنة رجل كاهن التي كانت تسعى لتمهيد السبيل ليتولى احد ابنائها الخلافة . ولم يكن هذا السبيل الوحيد الذي كان السلطان يسلكه لفرض سلطانه وهيبته . فقد كان هنالك والدة السلطان التي تتحكم بالقصر . وكان هنالك ايضاً الانكشارية الذين كثيراً ما كانوا ينصبون السلطان والصدر الاعظم ويخلعونهما اذا شاؤا .

ولما جاء احمد الاول الى الحكم (١٦٠٣ ـ ١٦١٧) اخذ الاتراك يعتبرون اكبر اقارب السلطان سناً من الذكور وريثه الشرعي . وبدأ احمد عادة الحجر على الاخ الاكبر للسلطان في جناح خاص يعرف بالقفص عوضاً عن قتله. وكان المحجور عليه يراقب مراقبة شديدة هو وحريته وجواريه وخصيانه. وكانوا يقتلون اولاده. ولكن هذه المعاملة التي هي اكثر انسانية من العادة التي كانت متّبعة في السابق لم تكن تخلو من المساوىء . فانّ الاخ المحجور عليه عندما يخلف السلطان يكون بحكم الطبع عديم الاختبار وقد يكون احيانا ممن لم يكتمل نموه العقلي. وقد ظل السلطان عبد الحميد الاول (١٧٧٤ ـ ١٧٨٩) محجورا عليه مـــدة ثلاث واربعين سنة، وكان ضعيف العقل . وكان محمد رشاد الخامس ، الذي خلف اخاه عبد الحميد الثاني في فترة من اشد الفترات خطورة (١٩٠٩) ناقص العقل بصورة ظاهرة .

الحضارة التركية :

ان ما ندعوه حضارة تركيـــة ليس سوى مزيج عجيب من عناصر حضارية مختلفة مستمدة من الحضارة المغولية والفارسية والعربيـــة والبيزنطية . اما العناصر

الحضارية المغولية المتمثلة في الحضارة التركية فقد كانت القبلية الرحلية ، وحب التوسع ، وميلا فطرياً للحرب. واخذ الاتراك من الحضارة الفارسية ، حيث توطنوا زمناً قبل زحفهم غربا ، فن العمارة والرسوم الفنية والاساليب الادبية وعادة تعظيم الملوك وتمجيدهم . وقد كان البلاط السلجوقي في آسية الصغرى متأثراً الى حد بعيد بالحضارة الفارسية . وقد كان اثر بيزنطة في الحضارة التركية مباشراً او عن طريق السلاجقة . فقد اخذ الاتراك عن البيزنطيين كثيراً من تنظيمهم العسكري ومن ادارتهم الحكومية . ولكن العرب اكثر من غيرهم كانوا اساتذة الاتراك في الحضارة . كان الاتراك بالنسبة الى الحضارة العربية كالرومان بالنسبة الى الحضارة الاغريقية ؛ فقد اخذوا عن العرب دينهم بما فيه من تعاليم ومبادىء تتعلق بالاقتصاد والاجتماع . وعنهم اخذوا العلوم وحروف الهجاء التي كانوا يكتبون بها لغتهم حتى سنة ١٩٢٨ عندما استبدلوه بالحرف اللاتيني . وبسبب اعتناق الاتراك الاسلام واتخاذهم الحرف العربي لتدوين لغتهم فان عدداً لا يحصى من المصطلحات الدينية والفلسفية والقانونية والعلمية والادبية دخل في صميم اللغة التركية ، وهي مصطلحات عجزت محاولة مصطفى كمال تنقية اللغة التركية منها . غير ان الاتراك برزوا في حقول ثلاثة : في السياسة والبناء والشعر .

وقد تبع التدهور السياسي تقهقر في الحضارة . ففيما كانت اوروبة تسير قدماً مخلفة وراءها العصور المظلمة لتدخل عصر النور ، وفيما كانت اوروبة تسعى للسيطرة على قوى الطبيعة للاستفادة منها وتشق سبلا جديدة في العلم والتكنولوجيا وتجني فوائدها كانت تركية ترسف في قيود من التقليد متغافلة عما يجري في العالم حولها من تقدم ورقي . كان بعض رعاياها يسكنون ارضاً اوروبية ولكنهم لم يكونوا من اوروبة في الروح والعقل وقليلون من الاتراك اموا المدارس الغربية ودرسوا لغات اجنبية ، وما ترجم عن اللغات الاجنبية فقد كان من عمل النصارى واليهود . وقد كان هذا التأخر في اللحاق بركب الحضارة الرسمي خطير[١] . وقد كان الرعايا الاتراك من غير المسلمين اسرع الى التجاوب مع حضارة الغرب واكثر نزوعاً الى التقدم والرقي . فازدادت الهوة السحيقة بين الحاكم والرعية .

١ — Lewis V. Thomas and Richard N. Frye, *The United States and Turkey and Iran* (Cambridge, Mass. 1951),p. 49 .

الفصل الخامس والعشرون

امراء الجبل

المعنيون

لما قام الحكم العثماني حلّ المعنيون محل البحتريين والتنوخيين في تولي امـــارة لبنان الاوسط ولبنان الجنوبي . يقول الشدياق: «وبه غابت شمس الامارة التنوخية واشرقت شمس الامارة المعنية»[1]. اما الجدّ الاول الذي ينتمي اليه المعنيون، الامير معن الايوبي ، فليس له في جداول الانساب العربية نسب اكيد . واول مرة نلتقي به في التاريخ سنة ١١٢٠ لما امره طغتكين صـــاحب دمشق ان يقوم بعشيرته الى البقاع ومنها الى جبال لبنان المشرفة على الساحل فينزلها ويتخذها حصناً يطلق الغارة منه على الافرنج الذين في الساحل . وفي الشوف « الذي كان قفراً من السكان » تخلى المعنيون عن حياتهم الرحلية ونزلوا في «صحراء بعقلين» وجعلوها مقراً لهم[2]. وبعـــد نصف قرن من الزمن هجر الشهابيون الذين يتحدرون من قبيلة قريش موطنهم في حوران ونزلوا في جنوبي لبنان في وادي التيم . هاتان الاسرتان اللتان لعبتا فيما بعد دوراً رئيسياً في لبنان الاقطاعي تحالفتا بموجب معاهـــدة وبسبب التزاوج . وقـــد اعتنق المعنيون دين الاكثرية من رعيتهم : الدرزية ، بينما اعتنق الشهابيون ، باستثناء قسم منهم ظلوا مسلمين ، المسيحية حسب العقيدة المارونية .

آل غساف وسيفا

بلغت قوة المعنيين السياسية التي كان قد اسسها فخر الدين الاول(توفي١٥٤٤) ذروتها في عهد حفيده فخر الدين المعني الثاني (١٥٩٠ ـــ ١٦٣٥) ومن ثم اخذت

---

١ ـــ الشدياق ص ٢٥٠ ـــ ٢٥١ .

٢ ـــ محمد المحبي : خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر (القاهرة ١٢٨٤) الجزء الثالث ، ص ٢٦٦ . الشدياق ، ص ٢٤٧ .

تضعف رويداً رويداً الى ان زالت اخيراً بموت الامير احمد (١٦٩٧) سبط فخر الدين المعني الثاني . فتولى الحكم بعدهم الشهابيون الذين حكموا لبنان الى منتصف القرن التاسع عشر . وكان بنــو عساف من كسروان ، وهم معاصرو المعنين ، يتولون الحكم في شمالي لبنان وكانت بينهم منافسة . وكان بنو عساف من اصل تركماني قدموا كسروان سنة ١٣٠٦ ، وكانوا من جملة الامراء اللبنانيين الذين ارسلوا وفداً لتقديم الولاء الى السلطان سليم كما ذكرنا سابقاً . وقد اضيفت جبيل الى ممتلكاتهم التي كانت في عهد الامير منصور (١٥٢٢ ـ ١٥٨٠) تمتــد من ضواحي بيروت الى عرقة شمــالي طرابلس . وكان مركز الحكم العسافي بلدة غزير . وفي ايام العسافيين ازدهرت منــاطق كسروان اقتصادياً كما لم تزدهر من قبل . فأتت جماعات من الشيعة من مناطق بعلبك وتوطنوا في فاريا وحراجل . وجاء مسلمون سنيون من البقاع واستوطنوا ساحل علما وفيترون . وانتشر دروز المتن في قرى عديدة،وغادرت طرابلس جماعات من الموارنة ونزلوا في عرمون[١] والكفور ومنطقة الفتوح[٢] . ولما مات خليفة الأمير منصور ، محمد (١٥٩٠) ، انتهى عهد بني عساف الذين حكموا شمالي لبنان حكماً اقطاعياً دام ٢٨٤ سنة .

وانتقل الحكم بعــد بني عساف الى منافسيهم بني سيفا في عكار . وكان بنو سيفا من اصل كردي . وقد اتخذوا طرابلس مقراً لهم واتبعوا سياسة مناوئــة للتجارة الاجنبية . واذا اخــذنا بتقارير القناصل في تلك الحقبة نجد ان مركز الثقل التجاري ارتحل شمالا الى الاسكندرونة[٣] . ويبدأ تاريخ بني سيفا السياسي بالامير يوسف ابن سيفا الذي اصبح اقوى من الباشا التركي[٤] . وكان على جانب من الثروة كريماً جواداً فاستمال اليــه الشعراء حتى اصبح بلاطه اشبه ـ بدار البرامكة ايام الرشيد[٥] . وكانت امارته تمتد الى القرب من انطاكية . كان رسل السلطان من قبل يسلكون طريقاً بحرياً الى استنبول ، لكن هذا الطريق لم يعد اميناً

١ ـ في لبنان قريتان تعرفان بهذا الاسم الواحدة في الغرب ، والثانية في كسروان .

٢ ـ الدويهي ، ص ١٥٢ـ١٥٣ .

٣ ـ G. Berchet, *Relazioni dei consoli veneti nella Siria*, (Turin, 1866), pp. 16, 74-6, 85, 125 .

٤ ـ Berchet, p. 127

٥ ـ المحبي ، الجزء الرابع ، ص ٥٠٣ .

بعد انتصار الاسطول الايطالي والاسباني الذي كان تحت امرة امير الى نمساوي على الاسطول التركي بالقرب من لبانتو (١٥٧١) . فاتخذ الوسل يميرون برأ...

وفي سنة ١٥٨٤ هاجم رجال بني سيفا جماعة من العساكر الانكشارية في جون عكار وهم في طريقهم الى استنبول لايصال الضرائب المترتبة على مصر وفلسطين . فاهتاج السلطان مراد الثالث لهذا العمل العدواني وارسل حملة تأديبية بقيادة ابراهيم باشا حاكم مصر ، فخربت بلاد عكار . وهكذا لم يحصر الامراء اللبنانيون الخلاف فيما بينهم بل كانوا احياناً يختلفون مع السلطان . وقد استنفد الصراع على الحكم، على الصعيدين المحلي والقومي ، ما لهم وقوتهم . وفي سنة ١٥٩٠ نصب رجال الامير يوسف كميناً بين البترون والمسيلحة لمحمد العساف وقتلوه . وحسب العادة التي كانت متبعة في ذلك الحين تزوج المنتصر ، الامير يوسف ، زوجة القتيل واستولى على ممتلكاته وممتلكات جميع افراد عائلته وخرب بيوتهم في غزير . وآثار تلك الدور لا تزال قائمة الى الآن في هذه البلدة . وكذلك قضى بنو سيفا على مشايخ حبيش وهي عائلة مارونية كان بنو عساف قد اقطعوا ابناءها اقطاعات في شمال لبنان[١].

وقد جرت العادة ان يوزع الامير الاول اقطاعه على المقدمين والمشايخ وعلى سائر الامراء (وكانوا يعرفون بالمقاطعجية) وكان معظم مقدمي الموارنة في بشري يأتمرون بامر بني سيفا[٢] . وكان واجب المقدم الرئيسي ان يجمع الضرائب ويبعث بها الى الامير الذي يرسلها بدوره الى السلطان بواسطة احد الباشاوات القريبين منه . وعند مستهل القرن الثامن عشر كان الشوف اقطاعاً للجنبلاطيين الذين كانوا يلقبون بالمشايخ . وهم دروز الآن . وكان المتن اقطاعاً لامراء ابي اللمع الذين كانوا يلقبون بامراء . وهم الآن موارنة ، اما قبلا فقد كانوا دروزاً . اما مشايخ آل تلحوق الذين دخلوا لبنان بعد الفاطميين[٣] فقد اقطعوا مقاطعة الغرب الاعلى ، واقطع الارسلانيون الغرب الادنى واعطيت كسروان الى آل الخازن[٤] .

١ — الدويهي ، ص ١٨١—١٨٢ . حيدر ، الغرر ، ص ٦٢٠ . الشدياق ، ص ٣٥٠ .
٢ — الشدياق ، ص ٢٢٨ وما يليها .
٣ — الشدياق ص ١٠٤—١٠٥ .
٤ — راجع Poliak , pp. 56-8 .

الاتراك يغزون لبنان .

ولقد استغل الاتراك حادثـة التشليح في جون عكار فادعوا ان بعض الجناة كانوا اما من الدروز او من جماعة اللاجئين الى المناطق الدرزية . وهكذا وجهوا الحملة التأديبية ضد الشوف الذي كان المعنيون يتولون الحكم فيه . وقد شعر الباب العالي ان قد آن الاوان ليلقي درساً قاسياً على رعـاياه الذين يجرأون على مهاجمة رجاله . وكان قد قدم وفد كبير من عقال الدروز الى عين صوفر لمقابلة ابراهيم باشا ، ولكنه غدر بهم وقتل منهم ستمئة رجل ، ونزع السلاح من بين ايدي الناس وقتل منهم ، على ما روي ، ستين الف رجل[1] . وكان امير جبل الدروز[2] اي لبنان الجنوبي ، آنذاك الامير قرقماز (قرقاس) الذي كان شديد العداء للاتراك ، اذ ان باشا دمشق قتـل اباه ظلماً وخيانة ١٥٤٤ . وقد فر الامير قرقماز واختبأ في شقيف تيرون ، وتسمى قلعة نيحا قرب جزين ، حيث توفي فيها عام ١٥٨٥ اما مسموماً او جائعاً . وكان قرقماز ابن فخر الدين الاول الشهير ، ثم اصبح ابا لفخر الدين الثاني الذي فاق جده شهرة ومجداً .

فخر الدين الثاني امير الامراء في لبنان .

كان للامير قرقماز ولدان صغيران ، الامير فخر الدين والامير يونس . وقد طلبت والدتهما ، زوجة قرقماز من الحاج كيوان الماروني ان يخبيء ولديها عنـد احد الامناء بكسروان فجاء بهما الى بلونة وخبأهما عند ابراهيم بن سركيس واخيه رباح الخازن . وفي عام ١٥٩٠ استـدعى الامير سيف الدين التنوخي ابني اخته الامير فخر الدين والامير يونس الى عبيه . ولما بلغ الامير فخر الدين سن الرشد سلمه ولاية الشوف . وقـد تسلم الامير فخر الدين ولايته على الدروز التي كانت لاسلافه بقلب يتقد غيظاً وكراهية للاتراك وبعاطفة محبة وولاء للمسيحيين الذين

---

١ — العيسى ، ص ١٧٨ — ١٧٩ ، حيدر ، الغرر الحسان ، ص ٦١٨ — ٦١٩ ، الشدياق ، ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

٢ — اطلق هذا الاسم « جبل الدروز » فيما بعد على القسم الجبلي من حوران ، بعد هجرة الدروز اليه من لبنان .

تعهدوه صغيراً . ولم يمض وقت طويل حتى كانت قد تبلورت في مخيلته سياسة ذات مبادىء ثلاثة يتبعها في حياته : انشاء لبنان كبير ، قطع العلاقات نهائياً مع الاتراك ، والسير قدماً بلبنان في سبل الحضارة العصرية . وقد اصبحت هذه المبادىء الثلاثة هدفه الاول والاخير في الحياة . وكاد يحقق احلامه عن طريق الزواج حيناً ، وعن طريق الدسائس والرشوة والتحالف حيناً آخر . ومما لا شك فيه ان هذا الأمير كان اشد الامراء وابرزهم شخصية في تاريخ لبنان العثماني ، ولا نغالي اذا قلنا انه كان من ابرز شخصيات السلطنة العثمانية .

وقبل ان يقدم على تحقيق هذه الرغائب البعيدة رأى من الحكمة ان يبدأ بتوطيد اركان البيت لكي يبدأ عمله من قاعدة ثابتة حصينة . وفي سبيل تحقيق هذا تحالف اولا مع الشهابيين السنيين في وادي التيم ، ومع آل حرفوش الشيعيين في بعلبك والبقاع ، وتزوج من امرأة درزية من آل ارسلان امراء الغرب[1] . وقد كان آل الخازن في كسروان من اعز اصدقائه لانهم حنوا عليه صغيراً عندما خبأته امه عند احدهم . وكذلك كان الامراء المعنيون الدروز في المتن من جملة حلفائه واصدقائه . الا ان الجار القوي الذي كان يخشى جانبه فهو يوسف ابن سيفا، الذي كان قد تزوج فخر الدين ابنته لأسباب سياسية . وقد اقنع يوسف ابن سيفا الباب العالي انه كان لابي فخر الدين ضلعا في حادث التشليح في جون عكار . وكانت هذه الوشاية سبباً من اسباب سقوط قرقماز والد الأمير فخر الدين المعني. كان بنو سيفا على رأس الحزب اليمني وكان المعنيون على رأس الحزب القيسي . وكان فخر الدين قد استعاد سنجق صيدا ، الذي كان تحت ولاية ابيه ، من السلطان احمد الأول (١٦٠٣ ـ ١٦١٧) واضاف الى امارته ايضاً بيروت مما فتح له طريق البحر . وقد كان السلطان احمد رجلا ضعيفاً متردداً توفي وهو في الثامنة والعشرين من عمره بعد حكم دام اربعة عشر عاماً تميز بالهزائم والانكسارات العسكرية على ايدي الشاه عباس الاول ملك ايران والنمساويين والهنغاريين والمالطيين في حروبهم البحرية معه ، وعلى ايدي العصاة من باشاواته حكام الولايات في آسية الصغرى وسورية وقد كان آخر هؤلاء الحكام الذين ثاروا عليه علي جانبولاد (جنبلاط) الزعيم

١ ـ بولس قرألي : فخر الدين المعني الثاني (حريصا ١٩٣٧) ص ١٣ ـ ١٤ . معلوف ، ٦٠ ـ ٦٢ .

الكردي الذي اغتصب لنفسه ولاية حلب ؛ وقد حالفه الامير فخر الدين . وقد هاجر قسم من رجاله الى لبنان ، واحفادهم هم الجنبلاطيون الذين لا يزالون الى يومنا هذا من زعماء الدروز . ولم ينس الامير فخر الدين ان يدخل في تحالف مع مشايخ العربان في البقاع وحوران وفلسطين وكان يدخل في روع السلطان بواسطة الهدايا والرسائل انه موال للتاج مخلص له ، ولكنه في الوقت ذاته كان يستميل حكام المقاطعات الواحد تلو الآخر الى ان تمت له السيطرة — كما يقول سانديز وهو سائح انكليزي زار لبنان عام ١٦١٠ — من نهر الكلب الى جبل الكرمل بما في ذلك صفد وبانياس وطبرية والناصرة[١] . ويصف لنا هذا السائح الانكليزي[٢] الامير فخر الدين بقوله انه كان « قصير القامة ، لكنه عملاق في شجاعته ومآتيه . عمره اربعون سنة ذو دهاء كالثعلب، وفيه ميل ان يكون طاغية. لم يكن البادىء قط في حرب ، ولا قام بعمل يؤثر عنه الا بعد استشارة امه الست نسيبة ورضاها . »

وقد مكنه توسعه من الاستيلاء على قلاع وحصون تحتل مراكز ستراتيجية كقلعة الشقيف التي كانت تسيطر على الطرق منذ عهد الصليبيين . وزاد في دخله استيلاؤه على سهل البقاع الخصب. فاصبح في وضع مالي يستطيع معه ان يبدأ بانشاء جيش حسن التدريب نواته جنود محترفون على شاكلة الجنود الانكشارية ليكونوا في عون الجنود النظاميين العاديين من الدروز والموارنة الذين لا يستطيعون مواجهة الجيش العثماني وحدهم . وقد كانت نواة هذا الجيش مرتزقة يعرفون بالسكبان[٣] وعددهم اربعون الفاً . وكان باستطاعته ان يجمع جيشاً عدده مئة الف محارب[٤]. وكان للانكشارية ايضاً كتيبة من السكبان . وكان مدبر فخر الدين وامين سره

١ — George Sandys, *A Relation of a Journey*, 2nd ed. (London, 1621), pp. 211-12; Volney, vol. II p. 39 .

٢ — ص ٢١٠ من الكتاب المذكور اعلاه .

٣ — ويقال « سقبان » ايضاً ، وفي العربية العامية سيان (الدويهي ، ص ١٩٠) وهي أصلا كلمة فارسية معناها « القيم على كلاب الصيد » . المحبي ، الجزء الثالث ، ص ٢٦٧ .
d'Arvieux, vol; I, p. 438; Michel Chebli, *Fakhreddine II Maan, prince du Liban,* (Beirut, 1946), pp. 46-8; Lammens, vol. II, pp. 74-5 .

٤ — المحبي ، ٢٦٧

الحاج كيوان[1] الذي كان سابقاً مولى انكشارياً في الجيش السوري وكان داهية لا يشق له غبار في حبك المؤامرات والدسائس .

اما سياسة الامير فخر الدين الداخلية فقد كانت ترتكز على دعائم ثلاث : الامن ، والازدهار الاقتصادي ، والتسامح الديني ، او عدم الاعتراف بالطائفية . وهذه الدعائم الثلاث كانت تعتمد الواحدة منها على الاخرى . ولكي يوطد الامن في البلاد فانه اقام الحاميات وبنى القلاع او رممها ــ كقلعة بانياس وتدمر[2] ــ وشيد الابراج ــ كبرج الكشاف في بيروت[3] ــ وانشأ الدوريات واستعمل الحمام الزاجل في نقل الرسائل ، واستورد المدافع من اوروبة . وجميع هذه ، الى جانب نفقات الجيش والحاشية والنفقات السرية على الجواسيس ليتجسسوا له في الخارج ، تتطلب زيادة كبيرة في فرض الضرائب . ولكنه لا يستطيع زيادة الضرائب اذ لم تكن حالة البلاد الاقتصادية مزدهرة . ولكي يزيد في مقدرة الناس على دفع الضرائب فانه شجع الاعمال الزراعية : الزيتون والتوت واشجار اخرى مثمرة . وشجع صناعة الكتان والحرير وحاول توسيع آفاق التجارة الاجنبية لا سيما مع البندقية وفلورنسا وفرنسة . وقد كانوا يستوردون القماش والنقود والتجهيزات العسكرية من فلورنسا . وكان تجار فلورنسا من اقرب الناس اليه والى رعاياه . ففي سنة ١٦٠٨ وقع مع فرديناند الاول دوق توسكانا الذي كانت عاصمته مدينة فلورنسا معاهدة تحتوي على بنود عسكرية سرية موجهة ضد السلطان العثماني[4] . فكانت المراكب الفلورنسية تؤم الموانىء اللبنانية لتحمل من لبنان الحرير والصابون والجوز وزيت الزيتون والفول والحنطة والقطاني . ومن اعمال الامير فخر الدين الانشائية بناء اربعة جسور كبيرة على الانهر الاربعة الكبيرة : نهر الكلب وبيروت والاولي والقاسمية . وشيد

٢ ــ راجع المحبي ، الجزء الثالث ص ٢٩٩ــ٣٠٢ . الشدياق ص ٢٥٢ . معلوف ص ٣٩ يعتبره خطأ مارونيا .

٢ ــ وتعرف الآن بقلعة ابن معن . وقد يكون ان الامير فخر الدين هو الذي بناها أصلا .

٣ ــ والميدان الرئيسي في بيروت يعرف بساحة البرج ، وقد غيروا اسمه مؤخراً الى ساحة الشهداء .

٤ ــ للاطلاع على نص هذه المعاهدة وعلى غيرها من المعاهدات التي عقدت مع الدوق راجع :
Paolo Carali (بولس قرألي) ، *Fakhr ad-Din II e la corte di Toscana*, vol. I (Rome, 1936), pp. 146 seq; vol, II, pp. 159 seq .

الخانات لاقامة التجار الاجانب فيها ، ومنحهم امتيازات خاصة كان قد بدأها السلطان سليمان[١] . واصبح الخان الفرنساوي في صيدا في القرن التاسع عشر مقر القنصلية الافرنسية ومقر بعثة الاباء الفرنسسكان . وهذا الخان في عصرنا الحاضر دار ايتام للبنات بادارة راهبات مار يوسف الظهور . وصيدا ، التي كانت في العهد الفينيقي مدينة عظيمة زاهرة والتي انحطت الى بلدة حقيرة فيما بعد ، اخذت تستعيد شيئاً من حيويتها ونشاطها في عهد الامير فخر الدين . وقد سبقت بيروت في استعادة العلاقات التجارية مع الغرب ، تلك العلاقات التي كانت قد تعرقلت ، ان لم نقل توقفت ، منذ الحروب الصليبية . وقد كانت هذه الفترة آخر فترة من فترات الازدهار التي عرفتها المدينة في تاريخها المديد . وكانت فترة قصيرة ، وقد قضى على تجارتها الخارجية ردم مينائها الحالي عام ١٦٣٤ لمنع السفن التركية من الدخول . ثم اتجهت الحملة الجزار والي عكا على الباقي وذلك بطرد التجار الفرنسيين عام ١٧٩١ منها . وكذلك توقفت بيروت عن التقدم ايام الجزار اذ ان ميناءها كان قد ردمه الامير فخر الدين بحجارة من البرج المجاور له[٢] . لكنها فيما بعد اصبحت ميناء الجبل وميناء دمشق ايضاً . وقد اعاد الامير فخر الدين زرع جزء من غابة الصنوبر الكبيرة المجاورة للمدينة مما جعل بعض المؤرخين في الأجيال التالية يعزو اليه خطأ زراعة الغابة بكاملها . فقد ظن فولني[٣] وتشرشل[٤] ان الامير فخر الدين هو اول من زرع الغابة . وكذلك موندرل[٥] ولامرتين[٦] ، فانهما يسميان هذه الغابة غابة فخر الدين . والواقع ان هذه الغابة اقدم عهداً من عهد الامير فخر الدين . فقد ذكرها شاعر بيزنطي عاش في القرن الرابع الميلادي ؛ وفي ايام الجغرافي العربي الادريسي[٧] (توفي ١١٦٦) كانت مساحتها اثني عشر

---

١ — Carali (قرالي), vol. II, pp. 58-9, 67.

٢ — D' Arvieux, vol. II, p. 338; Ristelhueber, p. 129.

٣ — Vol. II, p. 172

٤ — Colonel Churchill, *Mount Lebanon: A Ten year's Residence*, 2nd ed. (London, 1853), vol. I, p. 121

٥ — P. 43.

٦ — De Lamartine, *Voyage en Orient* (Paris, 1859), vol. I, pp 430, 454.

٧ — الادريسي ، طبعة غلد ميستر ، ص ١٧ .

ميلاً مربعـاً . وقد كانت للصليبيين مصدر اخشاب لادواتهم الحربية كما كانت ايضاً لخصومهم المسلمين مصدراً لبناء اسطولهم .

وقد كان استتباب الامن والازدهار الاقتصادي من العوامل التي شجعت على الهجرة الى البـلاد كما فعل الجنبلاطيون الذين جاؤوا من حلب . وكانت سياسة التسامح الديني عاملا في هجرة الموارنة من شمال لبنان الى جنوبه الذي كان منطقة درزية صرفة. وكانت هذه هي المرة الاولى التي تجتمع فيها الطائفتان في منطقة واحدة وتعيشان بصفاء ومودة . وقد اختار الامير مدبراً مارونياً خازنياً ، ابا نادر[١] .

وكان خازني آخر قائد المشاة . وعندما كان الامير يبعث برسالة الى احـد افراد آل الخازن كان يخاطبه بقوله « اخونا العزيز » مما رفع مرتبة العائلة الخازنية الى رتبة المشايخ[٢] ، ولا يزال آل الخازن في يومنا هذا يحتفظون بلقب «الشيخ» . وقد كان عدد الجنود الموارنة الذين كانوا يشتركون معه في المعارك احياناً عشرين الف مقاتل . وفي عام ١٦١١ ارسل مبعوثاً مارونياً، الاسقف جرجس بن مارون الاهدني ، الى قوزما الثاني من توسكانيا والى بولس الخامس لعقد معاهدة تحالف معهما ضد الباب العالي[٣] .

وفي آخر الامر تنبّه الباب العالي الى الخطر المعني الذي كان حافظ باشا والي دمشق قد حذره منه مراراً . فبعث السلطان الى حافظ باشا جيشاً عرمرماً جنده من خمسين سنجقاً ، وجهزه باسطول يتألف من ستين سفينة للقضاء على هذا الامير اللبناني الجريء ، ولوضع حد لسياسته التي كانت ترمي الى الانفصال عن السلطنة العثمانية ولمطامحه التوسعية . كان ذلك في صيف ١٦١٣ . فاما الاسطول فقـد ضرب الحصار على الشاطىء ، واما الجيش البري فزحف الى الجبل . وقد رأى الامير من الحكمة الا يقاوم هذه القوة العظيمة . وصدف ان كان في ذلك الوقت ثلاث سفن افرنسية وفلمنكية راسية في ميناء صيدا فأقلت احداها الامير وزوجته المفضلة ومستشاره كيوان وحاشية صغيرة الى ايطالية . وبعد ثلاثة وخمسين يوماً نزلت الحاشية الى البر في مدينة لغورنا . وكان الامير قد جعل اخاه الامير يونس

---

١ ــ اسمه الاول خازن ، وابنه الاكبر نادر .

٢ ــ المعلوف ، ص ٧١ .

٣ ــ Carali, pp. 14—15 قرألي ، الجزء الثاني ، ص ٣٧ــ٣٨ .

قائداً للجيش ، ووضع مكانه في الامارة اخـــاه علياً[١] . وانتقــل مقر الامراء المعنيين من بعقلين الى دير القمر .

في ايطالية

لقد خلّف لنا كاتب سيرة الامير فخر الدين ، القاضي احمـــد الخالدي من صفد ــ وقد يكون الامير ذاته قد اوعز الى هذا القاضي ان يكتب سيرته ــ ملحقاً طريفاً ممتعاً لوصف اقامته في ايطالية التي دامت خمس سنوات جاء فيه على وصف « العجائب التي شاهدها في بلاد النصارى »[٢]. وقد وصف لنا ميناء لغورنا بسفنه



الاميرة خاصكية زوجـــة الامير فخر الدين الثاني ، وقد رافقته الى منفاه في توسكانيا .

١ ــ احمد الخالدي (الصفدي) : تاريخ الامير فخر الدين ، نشره اسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، (بيروت ١٩٣٦) ص ١٧ ــ ١٩ .
٢ ــ الخالدي ، ص ٢٠٨ ــ ٢٤١ .

الكبيرة ، وفلورنسا بقصورها والعابها الرياضية الشعبية ومهرجاناتها ، وبيزا ببرجها المنحني ، ومسينا وبلارمو في صقلية ، جميع هذه المدن وصفها وصفاً طريفاً دقيقاً . ومن الانطباعات التي تركت في نفسه اثراً عميقاً الحفلات التي يشترك فيها الرجال والنساء حيث يرقصون معاً ، وخلو الاسواق من الجمال ، والخرفان التي ليس لها الية ، والمستشفيات المجانية ، وبيوت اللقطاء ، والحفلات العامة التي يتصارع فيها الناس مع الخنازير البرية ، والمتاحف والبنوك التي تدفع لمودعي الاموال فائدة ، والمطابع التي تطبع « بلغتهم وباللغة العربية » . وقد وجد الامير وحاشيته خارج مدينة بلارمو في صقلية مسجداً لا يزال قائماً بقبابه من ايام الفاطميين . وشاهد في نابولي دوراً تتألف من خمس الى سبع طبقات . وفي هذه المدينة انشأ الامير مسجداً واستحضر له مؤذناً بالرغم من ان عمله ازعج جماعة الاكليروس في المدينة .

استقبل قوزما الثاني صديقه اللبناني بكثير من الحفاوة ، وانزله في قصر فخم ، وانفق عليه من مال الدولة . ثم ان قوزما ارسل بعثة فنيـــة الى لبنان لتدرس عن كثب الحالتين العسكريـــة والاقتصاديـــة ثم تبعث بتقريرها اليـــه . ولكن قوزما الثاني لم يستطع ان يستجيب الى رغبـــة الامير فخر الدين في ان يجهز جملة عسكرية بالتعاون مع اسبانية وفرنسة او الفاتيكان . وقـــد زار بعض المهندسين الفتيان من فلورنسا عدداً من القلاع في الجبل وعلى الشاطىء اللبناني وفي رسالة بعث بها الامير فخر الدين الى اللبنانيين معلقـــاً على هـــذه الحادثة يقول : « ان المفاوضة بين فريقين غير متساويين من حيث القوة ضرب من الاستجداء . وعليه فاني اشور عليكم ان تعتمدوا على انفسكم اولاً هذا اذا اردتم ان تنالوا استقلالا محترماً ومركزاً مرموقاً بين الشعوب »[1]. وفي رسالة ثانية بعث بها الامير فخر الدين عندما علم بان الاتراك احتجزوا امه يقول : « وبمـــا اننا قد وضعنا نصب اعيننا هدفاً لن نحيد عنه ، الا وهو استقلال بلادنا وسيادتها ، فاننا قد عقدنا العزم على ان لا نتأثر بما يعرض علينا من وعود او تهديدات »[2] .

في سنة ١٦١٥ انتقل الامير فخر الدين الى صقلية بناء على دعوة وجهها اليه

١ ـــ انيس النصولي : رسائل الامـــير فخر الدين (بيروت ١٩٤٦) ص ١٦ . ويظهر من اسلوب هذه اللغة انها حديثة العهد لا تتلائم مع ما نعرفه عن العربية في ذلك العهد .

٢ ـــ النصولي ص ٩ .



الامير فخر الدين الثاني في توسكانيا

دوق مدينة مسينا نائب ملك اسبانيا . ويقول لنا مترجم سيرته ان «سلطان اسبانيا» عرض عليه ولاية تضاهي في اتساعها الولاية التي اعطاها له «سلطان المسلمين» شرط ان يعتنق المسيحية . فكان جواب الامير مقتضباً : « ما جئنا نفتش عن دين او ملك انما جئنا للحماية »⁽¹⁾ . وفي صيف تلك السنة قام بسفرة سرية في مركب اعده له الدوق الى لبنان . وبعد ان اطمأن الى ان الحالة حسنة عاد بطريق مالطة حيث استقبله فرسان الجزيرة استقبالا حسناً . وقد كان وجود هذا الامير اللبناني الدرزي في اوروبة يطلب العون منها ضد عدو مشترك (الاتراك) سبباً في شيوع الاسطورة القائلة بان الدروز هم احفاد جالية صليبية اسسها الكونت دي درو (de Dreux)[2] .

١ ــ الخالدي ، ص ٢٣٦ .

٢ ــ Abbé Mariti, *Travels through Cyprus, Syria, and Palestine* (London, 1791), vol. II pp. 26-8; Volney, vol. II, pp. 40-1; cf. Besnhet, p. 90; Maundrelle, p. 39 .

في هذه الاثناء كان قد حصل تغيير في حكومة استنبول . فان الصدر الاعظم تغير ، واستبدل الوالي بدمشق بوال آخر . وقد جاءت هذه التغييرات في صالح الامير فخر الدين الذي كان قد نفى نفسه الى اوروبة . وعندما جاء يستأذن الدوق بالسفر تذرع برسالة اتته من امه العجوز تستحلفه « بالثدي الذي ارضعته به ليعود كي ترى وجهه قبل ان تموت » . وعندما نزل الى البر اللبناني فرح الناس فرحاً عظيماً ، وتوافد الناس اصدقاء واعداء ليسلموا عليه وليرحبوا بعودته مقدمين له الهدايا . وارسل يوسف سيفا ابنه حسن الذي كان قد تزوج من احدى بنات الامير فخر الدين ومعه جياد عربية لتقديمها هدية له . لكن الامير رفض قبولها قائلا ، وبشيء من التهديد السافر : « ان ما نبتغيه مواد لنعيد بناء البيوت التي هدمتموها في دير القمر » . ذلك ان يوسف اغتنم فرصة غياب الامير فبعث برجاله الى دير القمر عاصمة المعنيين واحرقها .

لقد كان في عودة الامير فخر الدين الى بلاده بدون ان يصطحب معه حملة عسكرية من اصدقائه في اوروبة ، تلك الحملة التي علق عليها الآمال ، شيء من خيبة الامل ، ولكنها لم تصل به الى حد تثبيط العزم او القنوط . فانه ما كادت قدماه تطأان ارض موطنه حتى اخذ ليس باسترداد المقاطعات التي كان قد فقدها وحسب بل شرع في توسيع رقعة امارته . وهكذا بدأ بتطبيق منهاج التوسع والاستغلال بعزيمة لا تعرف الكلل ، وببراعة عسكرية فائقة ، وبدبلوماسية حكيمة ، حتى ان ما كان قد حققه سابقاً يتضاءل كثيراً اذا قوبل بما لقيه من نجاح هذه المرة . كانت قامته القصيرة هدف نبال من السخرية يرميه بها منافسوه واعداؤه . كانوا يقولون عن قصر قامته « لو ان بيضة سقطت من جيبه لما انكسرت » . واشد من هذه اللذعات ما قاله يوسف لكنته (وهي ابنة الامير فخر الدين) : « ابوك ! والله اني لأستطيع ان اضعه جنباً الى جنب مع مفاتيحي في الجيبة » . وقد هجاه احد الزجالين التابعين لابن سيفا :

جونا الطوال يا نصلة السكين   يا سلسلة مذهبة يا سيف علي الدين
جونا القصار لا شَورٌ ولا تدبير   مثل الضفادع يقعوا في قراني البير

فاجاب الامير فخر الدين :

نحنا صغار وفي عين العـــدو كبار انتو خشب حَوْر نحنا للخشب منشار
وحق طيبة وزمزم والنبي المختـــار ما بعمّر الدير الا من حجر عكار[١]

وقد صدق الامير فخر الدين في وعيده . فانه زحف على رأس جيش الى بلاد عكار وهاجم قلعة الحصن وخرب قصور آل سيفا في عكار ثم في طرابلس ونقل بعض حجارتها الى دير القمر . وفي بقايا البنايات المعنية في دير القمر وفي مسجدها الذي لا يزال قائماً الى الآن حجارة صفراء يسهل تمييزها عن غيرها من الحجارة تدل على ان منشأها من بلاد بعيدة . وباستيلائه على بلاد عكار اصبحت سورية الشمالية تحت رحمته . وفي سنة ١٦٢٢ عندما اقطعه السلطان سنجقي نابلس وعجلون اصبحت الطريق الى فلسطين وشرق الاردن مفتوحة امامه . ولكن والي دمشق ، مصطفى باشا ، رفض ان يسلمه السنجقـــين ، وزحف على رأس جيش قوامه اثنا عشر الف مقاتل . فالتقاه الامير بجيش في عنجر من اعمال البقاع قوامه اربعة آلاف رجل وهزمه شر هزيمة ومزق جيشه شر ممزق . واسر مصطفى باشا في المعركة لكن اخلي سبيله فوراً[٢] . كان على عرش السلطنة اذ ذاك السلطـــان مراد الرابع . وهو الذي نصبه الانكشارية والصباهيون الثائرون في ذات السنة التي استولى الفرس فيها على بغداد والموصل (١٦٢٣) . وقد رأى هذا السلطان الحدث ــ وكان ابن اثنتي عشرة سنة ــ انه من الحكمة ان يعترف بالامر الواقع. فاعترف بالامير فخر الدين والياً على عربستان من حلب الى مصر وذلك بناء على خط همايوني . فكان مقامه اعظم شأناً من مقـــام جده الامير فخر الدين المعني الاول الذي لقبه السلطان سليم « سلطان البر » . امـــا الامير فقـــد آثر ان يلقب « بامير جبل لبنان وصيدا والجليل » . ولم يبق له كما يقول كاتب سيرتـــه الا ان يعلن ذاته سلطاناً[٣] .

بعد ان اصبح الامير فخرالدين سيد المنطقـــة غير المنازع شرع في تحقيق

١ ــ المعلوف ، ص ١٤١ . Churchill, vol. II, p. 370 .
٢ ــ قرألي ص ١٦ . المعلوف ، ص ٢٣٢ــ٢٣٣ . الدويهي ، ص ١٩٨ ــ ١٩٩ .
٣ ــ المحبي ، الجزء الاول ، ص ٣٨٦ .

الامنية الثالثة في المنهاج الذي وضعه لنفسه : جعل لبنان يلتحق بركب الحضارة العصرية والسير به في طريق الرقي . وفي سبيل تحقيق هذه الغاية اعاد العلاقات بين لبنان وتوسكانا الى ما كانت عليه سابقاً من تبادل في التمثيل الدبلوماسي واستحضار مهندسي البناء ومهندسي الري والاخصائيين في الزراعة . وهذه البعثات التوسكانية التي وفدت الى لبنان علمت اللبنانيين اساليب جديدة في فلاحة الارض ، وادخلت آلات زراعية حديثة . واستحضرت انواعاً جديدة من البقر لتحسين النسل المحلي ، فكأنها كانت اشبه بسياسة النقطة الرابعة . ومن المستغرب ان نجد الامير يستحضر من اوروبة انواعاً من كلاب الصيد والحراسة ، مع العلم ان الكلب في نظر المسلمين حيوان دنس[1] . ومقابل هذا الاستيراد من الكلاب كان يصدر الجياد العربية الاصيلة .

وقد ساهم الخبراء الطليان في تحصين بيروت وتجميلها . فان الامير كان قد اختارها مقراً شتوياً له عوضاً عن صيدا . وقد بنى لنفسه قصراً فخماً تحيط به حديقة كبيرة ، وهو القصر الذي زاره موندرل سنة ١٦٩٦ وكان يقع في الشمال الشرقي من المدينة . وقد اعجب ايما اعجاب بالبركة الجميلة والدور الفسيحة العديدة والاسطبلات وميادين الخيل وعرين الاسود ، « امور تليق بامير من الامراء في العالم المسيحي . » — والاشجار المثمرة والجنائن بمصاطبها العديدة لاقامة التماثيل والانصبة « مما يدل على ان الامير صاحب القصر لا يمكن ان يكون مسلماً متحمساً لاسلامه »[2] . اما قصره في صيدا ، الذي لم يتم بناؤه ، فكان يقع قبالة الخان الذي شيد للتجار الفرنسيين والذي ابتاعته فيما بعد راهبات القديس يوسف[3] . وتثبت التقارير القنصلية على ان الامير لم يقنع بتشجيع التجار الاوروبيين على الاقامة في البلاد والتمتع بما تجره عليهم الامتيازات التي كانوا يمنحونها وحسب ، بل انه كان يحافظ عليهم ضد خطر قرصان البحر[4] .

ومن الاعمال التي قام بها وكان لها اثر بعيد الغور سماحه للارساليات

---

١ — Carali, vol. II, pp. 52—3.

٢ — Maundrell, pp. 29—41,

٣ — احمد عارف الزين : تاريخ صيدا (بيروت ١٩١٣) ص ١٠٤ — ١٠٥ .

٤ — Berchet, p. 163.

الكاثوليكية ، ولا سيّما للكبّوشيين ، لتؤسس ارسالية في صيـدا ثم بالتوسع في اعمالها التي شملت بيروت وطرابلس واهـدن حيث كان هناك ايضاً رهبـان فرنسسكان [١] . وكان معتمد الامير في ايطالية العالم الماروني المشهور الحاقلي وهو الذي حمل نيابة عن الامير الى احد البنوك في فلورنسة كمية من المال ؛ وهذا المال بعد ان مر عليه تسعون سنة قام احد ورثاء الأمير بالمطالبة به ولكن بدون جدوى. وكان وكيل الورثاء الذي طالب البنك بالمال العالم الماروني المشهور السمعاني [٢] .

وقد كانت معاملة الأمير فخر الدين السمحاء للنصارى من الامور التي جعلت بعضهم يعزونهـا الى كونه مسيحياً . يقول سانديز [٣] : « انه لم يُرَ قط يصلي ، ولا رآه احد يدخل الجامع » . اما دي افربو [٤] ، الذي شغل وظيفة قنصـل افرنسي في مراكز عديدة في الشرق ، فيقول ان دين الامير كان دين شعبه «الذين لم يكن عندهم من دين » . ويبدو ان المعنيين كانوا يعترفون بالاسلام ديناً في الظاهر امام العثمانيين ، اما في الباطن فقد كانوا دروزاً على دين اتباعهم. وهنالك رواية [٥] تقول انه تعمد سنة ١٦٣٣ على يدي طبيبه الكبوشي . ويقال انهم وجدوا صليباً بين ثيابه عندما اعدم [٦] .

وقد مكنته الزيادة السنوية في دخل الامارة ، التي كانت تقدر بتسع مئة الف ليرة ذهبية — منها ٤٣ الف ليرة كانت ترسل الى استنبول للخزينة المركزية — من متابعة انشاء جيش قوي . وانشاء هـذا الجيش وتكديس الاسلحة والمفاوضات مع الأوروبيين وهذا الميل نحو النصارى جميع هذه جعلت الاتراك يوجسون من

١ — Antoine Rabbath, *Documents inédits pour servir a l'histoire du christianisme en Orient*, vol II (Paris, 1910), pp. 464, 468, 473 seq. . الدويهي ، ص ٢٠٣ .

٢ — Carali, vol. I, pp. 402 - 3; vol. II, pp. 315 - 18, 378 - 88.

٣ — P. 210.

٤ — Vol, I, p. 367.

٥ — Carali, vol. II, pp. 340 seq.

٦ — المعلوف، ص ٢٧٥ F. Wüstenfeld, *Fachr ed-Din der drusenfürst. und seine Zeitgenossen* (Göttingen, 1886), pp, 167 - 8.

الامير خيفة . ولكن السلطان مراد الرابع كان الآن في مركز ، على الصعيدين الداخلي والخـــارجي ، اقوى بكثير مما كان عليه احمد الاول ومصطفى الاول . فصدرت الاوامر سنة ١٦٣٣ الى باشاوات سورية ومصر بالزحف ضـــد الثائر اللبناني بقيادة كوتشك احمد باشا والي دمشق . وفي الوقت ذاته شرع اسطول تركي مؤلف من اثنتين وعشرين سفينة بقيادة جعفر يهاجم الموانىء والحصون على الشواطىء اللبنانية . فحشد الامير جيشاً قوامه خمسة وعشرون الف مقاتل منهم اثنا عشر الفاً (كان من بينهم الف مقاتل ماروني والفا مقاتل درزي) بقيادة ابنه علي واسرع الى صفـــد وبانياس ليمنع اتصال الجيوش الزاحفة ضد الجبل من حلب ودمشق وغزة والقاهرة والتي كان عددها ثمانين الف رجل [١] . وفي المعركة الاولى التي خاضهـــا ابنه علي وانتصر فيها خسر سبعة آلاف رجل مما افقده القوة على الهجوم . وفي معركة وقعت في وادي التيم جرح جواده جرحاً مميتاً ، وكان على غاية من الوهن والعيـــاء فاستسلم وقطع رأسه فوراً وحنط وأرسل مع اصبع من اصابعه التي فيها خاتمه الى استنبول . اما ابوه الامير فخر الدين فقد تخلى عنــه حلفاؤه واعوانه ـــ بنو سيفا والحرافشة واليمنيون ـــ الواحد تلو الآخر . فحاول ان يرشو الباشاوات بدفـــع مبلغ مئة الف غرش ذهباً [٢] وبتسليم ولده منصور رهينة . فقبل الاتراك بهذه الشروط ، ولكنهم لم يصدروا امراً بوقف القتال [٣]. وقد كرر طلب المساعدة من اصدقائه الطليان بواسطة رسوله الخـــاص المطران جرجس ابن مارون ولكن طلبه لم يلق اذناً صاغية [٤] . اخـــيراً هرب الامير فخر الدين والتجأ الى قلعة نيحا ليتحصن فيها كما كان ابوه قد فعل قبلاً. ولكنه اضطر الى الفرار منها لمحاصرة الاتراك لها ولافسادهم ماء الشرب بدم الحيوانات المذبوحة واللجوء الى مغارة بالقرب من شلال جزين يصعب الوصول اليها . ولكن

١ ـ Paul Rycaut, *The History of the Turkish Empire* (London, 1680), vol. I, p. 40.

٢ ـ Zeckins وهي كلمة ايطالية من اصل عربي « سكة » وهي قطعة نقود ذهبية ايطاليـــة وتركية صك منهـــا مرات . اما قيمتها فكانت تختلف ، ولكن قيمتها على وجه التقريب كانت تساوي نصف جنيه .

٣ ـ Rycaut. vol. I, p. 41.

٤ ـ Carali, vol. II, pp. 346 seq.

مخبأه اكتشف اخيراً (حوالي ١٠ شباط ١٦٣٥) واسر مع ثلاثة من ابنائه وسيقوا الى استنبول . يقول القنصل البريطاني في ازمير [١] ان صناديق الذهب التي حملها الامير فخر الدين معه هدية الى السلطان ، الى جانب الفصاحة التي تشبه فصاحة جده المعني الاول عندما خاطب السلطان سليم ، نجت رأسه من سيف النطع — ولكن الى حين ، وفي دفاعه عن نفسه امام السلطان قال :

« اني مظلوم ولم ابن القلاع الا حماية من الاعداء ولم احارب الا من كان عاصياً الدولة . وقد مشيت طريق الحج ومنعت العربان عن التعدي واديت الاموال الاميرية وايدت الأحكام الشرعية »[٢] .

وهكذا اصبح الامير الثائر من اقرب المقربين الى السلطان فاثار الحسد في قلوب الذين كانوا يخشون ان يحل محلهم عنده . فاخذوا يدبرون له المكائد . وقد اقنعوا المفتي الاكبر ان يصدر فتوى بان الامير مرتد عن الاسلام . وفي اليوم الثالث عشر من شهر نيسان ، ١٦٣٥ ، مات خنقاً في باحة المسجد ، خنقه رجلان اخرسان [٣] . وقُتل اولاده الثلاثة ايضاً . وكذلك قتل الامير حسن ابنه الرابع ويونس وغيرهم . الا ان ابنه الاصغر ، حسين ، نجا من الموت وترك وتقدم في المراتب الى ان اصبح حاجباً ثم سفيراً الى الهند .

لقد بيّن الامير فخر الدين المعني للبنانيين معنى المصير . فان حياته تربط بين لبنان الماضي ولبنان الحاضر .

١ — Rycaut. vol. I, p. 42.

٢ — الشدياق ، ص ٣٣٦ . المعلوف صفحة ٢٧٣ .

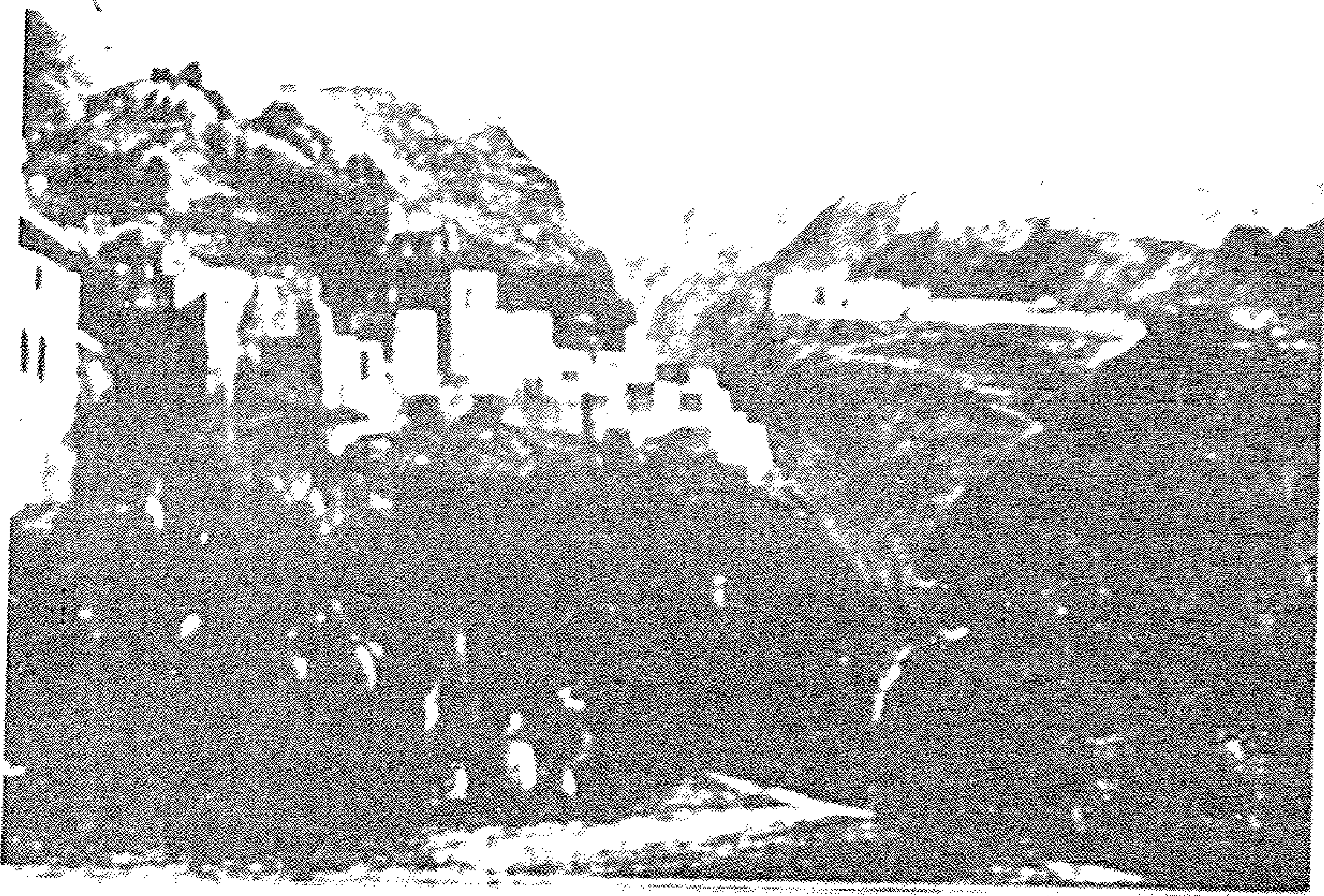
٣ — Rycaut, vol. I, p. 42; Carali, vol. II, pp. 355-6.

الفصل السادس والعشرون

امراء الجبل

الشهابيون

كان اختفاء المعنيين من الحياة السياسية في لبنان بداية فترة قلق وفوضى. وعاد النزاع بين القيسيين واليمنيين، وعادت الاسر التي كانت قد غلبت على امرها كبني سيفا في عكار والحرافشة في بعلبك الى ثاراتها القديمة. وقد اختار احمد كوتشك باشا والي دمشق علي علم الدين اميراً على جنوبي لبنان. وكان آل علم الدين فرعا من التنوخيين،[1] وكانوا يتزعمون الحزب اليمني ضدّ القيسيين والمعنيين. كان



دير القمر، عاصمة لبنان في عهد الأمراء

---

١ ـ انطونيوس ابو خطار (العينطوريني) «مختصر تاريخ جبل لبنان» المشرق المجلد ٤٦ (١٩٥٢) ص ٣٣٣ . وقد استقى الشدياق كثيراً من معلوماته من هذا المصدر، فان ابا خطار من اقدم المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ الأسر الارستقراطية اللبنانية .

رأيهم السعي بشتى وسائل الكيد والتآمر لـكي يحصلوا على الولاية[١]. وقد اتبع علي علم الدين ، الذي برز اسمه لما استحوذ على ممتلكات المعنيين واضطهد اتباعهم ومريديهم ، سياسة حزبية عنيفة . فسار على خطة العباسيين في القضاء على اعدائهم الامويين . دعي مرّة الى وليمة اقامها له التنوخيون في قصرهم في عبيه ، واثناء الوليمة انقض مع رجاله على مضيفيه وقتلهم . والذين نجوا من الوقيعة هذه تتبّعهم الى ان ابادهم جميعاً[٢]. غير ان المقاومة استمرّت بقيادة الامير ملحم[٣] ابن الامير يونس وابن أخي الامير فخر الدين . وقد ظل الامير ملحم سنوات عديدة يحارب هنا وهناك ، واخيراً وفّق الى الاستيلاء على جزء كبير من البلاد بينما كانت عين الاتراك الحذرة تراقبه . اما الامير عليّ علم الدين فانه كان احياناً يغضب الباب العالي لتمنّعه عن دفع الاموال الاميرية لهم . وقد دخلت البلاد في حالة من القتل والنهب حتى ان الشدياق[٤] يقول : « وخلت الشوف والغرب والمتن والجرد من السكان » . واستمر حكم المعنيين تحت ولاية ابن ملحم ، الامير ، الذي مات سنة ١٦٩٧ ولم يترك ولداً . وبهذا انقرض نسل المعنيين من الذكور بعد حكم التنوخيين بجيلين. وكانت البلاد في حالة من الفوضى جعلت والي طرابلس يوليّ عام ١٦٥٤ بني حمادة الشيعيين اقطاع جبّة بشرّي التي حكموها بكثير من الظلم ، حتى انهم طُردوا اخيراً الى الهرمل من اعمال بعلبك اثر ثورة محلية قام بها سكان المنطقة ، بعد ان حكموها قرابة قرن من الزمن .

---

١ ــ الشدياق ، ص ١١٤ .

٢ ــ الشدياق ، ص ١١٤ــ١١٥ . حيدر ، الغرر ، ص ٧١٦ .

٣ ــ الامارة المعنية :

فخر الدين الاول (توفي ١٥٤٤)

قرقاس (او قرقاز ١٥٤٤ ــ ١٥٨٥)

يونس — فخر الدين الثاني (١٥٩٠ــ١٦٣٥)

ملحم (١٦٣٥ ــ ١٦٥٧) ابن يونس

احمد (توفي ١٦٩٧) ابن ملحم

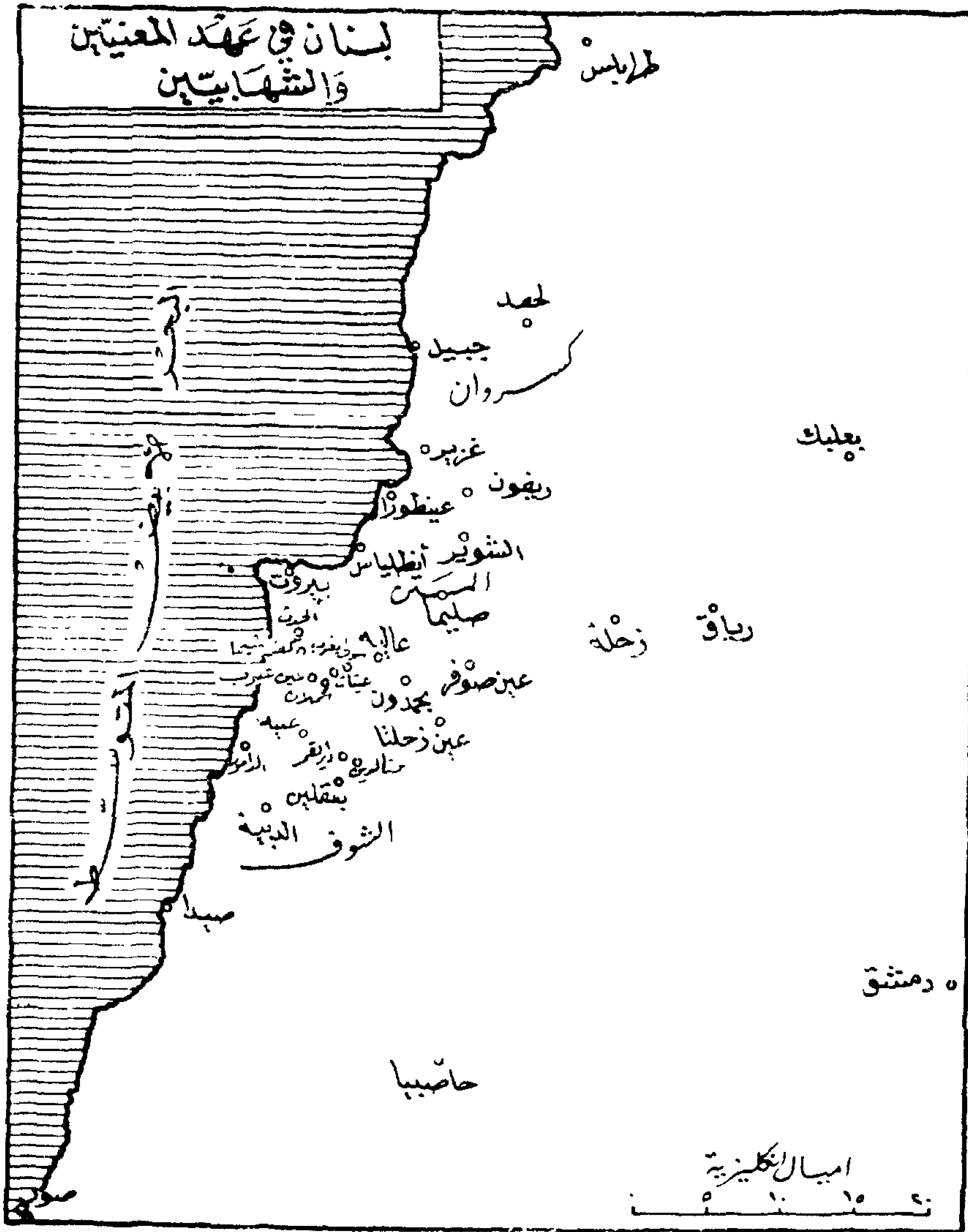
٤ ــ الشدياق ، ص ١١٥ .

الشهابيون يتولون الامارة

في اجتماع قومي عام عقده وجهاء لبنان عام ١٦٩٧ في السمقانيـة (بالقرب من بعقلين) اجمعوا على انتخاب الامير بشير الشهابي من راشيا حاكماً على لبنان . وكان هذا الامير ابن اخت الامير احمد آخر الامراء المعنيين . فان مبـدأ الحكم بالوراثة لم يزل بانقراض المعنيين من الذكور ، كما ان مبدأ الحكم الوطني المستقل ظل قائماً ، وهذا هو معنى انتخاب الشهابي في السمقانية وقد أرسل قرار اجتماع السمقانية الى استنبول بواسطة والي صيدا مع التأكيدات بان الاموال الاميريـة سترسل حالا مع المتأخر منها[1] . ونذكر بهذه المناسبة ان صيدا في تلك الاثنـاء اصبحت ولاية لتحول دون طموح اللبنانيين ولتحصي على حكامه اعمالهم . فان بيروت ، التي كان مرجعها احياناً دمشق ، كانت توضع احياناً تحت عهدة والي صيدا التي كانت مقراً للباشوية في سنوات الستين من القرن الثامن عشر[2] . ثم عاد الجزار فنقل مقر الباشوية الى عكا . اما الباب العالي ، تحت تأثير الامير حسين ابن فخر الدين ، فقد اصر ان حيدر الشهابي من حاصبيا ابن ابنة الامير احمد المعني ، آخر المعنيين هو احق بالولاية من بشير الشهابي ابن اخت احمد . وكان حيدر اذ ذاك ابن اثنتي عشرة . واعلن الباب العالي ان بشيرا يتولى الحكم بالنيابة عن حيدر الى ان يبلغ اشده . وقد احتفظ الامير بشير بولايته حتى ١٧٠٧، اذ توفي مسموماً. ويقال ان الذين كانوا يتولون امر وصيه هم الذين سمموا له . وانتقل من الامارة الشهابية الى دير القمر ، عاصمة المعنيين القديمة. وقد اقام بها الاميران بشير وحيدر. وكانت إمارة الشهابيين نحو قرن ونصف (١٦٩٧ ـ ١٨٤١) تولوا فيهـا حكم الجبل واخذوا على عاتقهم الحفاظ على وحدتـه واستعادوا السهول ـ السواحل والسهول في داخلية البلاد ـ وذلك بانهم استغلوا تحاسد الولاة العثمانيين في صيدا وطرابلس وطمعهم في المال ، واستفادوا من ضعف الحكومة المركزية في استنبول

١ ــ حيدر الشهابي : لبنان في عهد الشهابيين ، نشر اسد رستم وفؤاد افرام البستاني (بيروت ١٩٣٣) ص ٣ ــ ٤ . الشدياق ، ص ٣٥٨ ــ ٣٥٩ . Lammens, vol. II, pp. 93-4

٢ ــ Fr. Charles-Roux, *les Échelles de Syrie et de Palestine* (Paris, 1928), p. 87 .


لبنان في عهد المعنيين
والشهابيين
طرابلس
جبيل
كسروان
بعلبك
غزير
ريفون
عينطورا
الشوير
انطلياس
بيروت
المتن
صليما
رياق
زحلة
عاليه
عين صوفر
بحمدون
عين زحلتا
عبيه
بعقلين
الدبية
الشوف
صيدا
دمشق
حاصبيا
اميال انكليزية
صور

واخيراً استطاعوا ان يحتفظوا بنوع من التوازن السياسي بين الموارنة والدروز بتحريض حزب على حزب او اثارة شيخ ضد شيخ آخر . ويتضح الدليل على نجاحهم في الحكم بمدى الاستقلال الذاتي الذي كان لبنان الكبير يتمتع به . وقد عدل الامير بشير عن سياسة اسلافه التي كانوا يتوددون بها الى ولاة صيدا. ولم يكن درزياً في دينه ولم يكن كذلك احد من خلفائه . غير انه من الممكن انه كان يطمئن اتباعه سراً ان اعتناقه الاسلام ليس الا تقية ، والتقية مبدأ تأخذ به الشيعة .

احداث ترتيبات جديدة بين الامراء الاقطاعيين

بدأ الامير حيدر الشهابي عهده بانتصار ساحق للحزب القيسي على الحزب اليمني في معركة عين دارة (١٧١١) حيث قضى قضاء كاد ان يكون نهائياً على اليمنيين. وفي هذه المعركة قتل آل علم الدين حاملو لواء اليمنية مع كثير من اعوانهم. والذين نجوا منهم لجأوا الى حوران حيث اصبحوا النواة الاولى لجالية درزية قوية هناك . وقد اسفرت المعركة عن احداث ترتيبات جديدة بين الاسر الاقطاعية . فان المقدمين اللمعيين نسبة للشجاعة والاستبسال اللذين اظهروهما في هذه المعركة منحوا لقب امراء ، وهذا اباح لهم التزواج مع الشهابيين [1] . وقد اقطعوا المتن اي انهم اصبحوا « مقاطعجية المتن » . اما الجنبلاطيون فقد رفعت رتبتهم الى المشيخة ، وولوا الشوف . وثُبِّت آل الخازن في كسروان . واما الارسلانيون [2] الذين كانوا يميلون الى الحزب اليمني ، والذين كانوا يملكون اكثر اراضي صحراء الزيتون بالقرب من الشويفات فقد جردوا من اقطاعهم في الغرب واعطي الى آل تلحوق من عيتات . ورفعت رتبة التلاحقة الى المشيخة . وثمة اسرة درزية اخرى برز اسمها في هذه الحقبة هي اسرة عبد الملك الذين خلع عليهم الامير حيدر لقب « مشايخ » وولاهم الجرد . والارسلانيون والجنبلاطيون وآل تلحوق وعلم الدين لا يزالون الى يومنا هذا من الاسر الدرزية الارستقراطية التي لها مقامها الرفيع عند الدروز . واصبح اسم الجنبلاطيين اسما لحزب جديد يعرف

١ — الشدياق ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

٢ — وهم اصلا فرع من التنوخيين مثل آل علم الدين .

بالحزب الجنبلاطي مقابلة له بحزب اخر منافس له يعرف باليزبكي . ويزبك هذا كان عميد بني عماد[١] نسبة الى مدينة العمادية بالقرب من الموصل . وبعد مقدمهم الى العرقوب من اعمال لبنان ، اعتنقوا الدرزية وابلوا بلاء حسناً في معركة عين دارة[٢] . وقد انضم الى بني عماد اليزبكيين آل تلحوق وعبد الملك . وعلى ممر الزمن اصبح هذا الانقسام الحزبي : جنبلاطي ويزبكي ، لا يشمل الدروز وحسب، بل تعدّاهم الى سائر اهل البلاد من النصارى والمسلمين . وبقايا هذا الانقسام الحزبي لا تزال الى يومنا هذا .

الشهابيون يوطّدون اركان لبنان الكبير

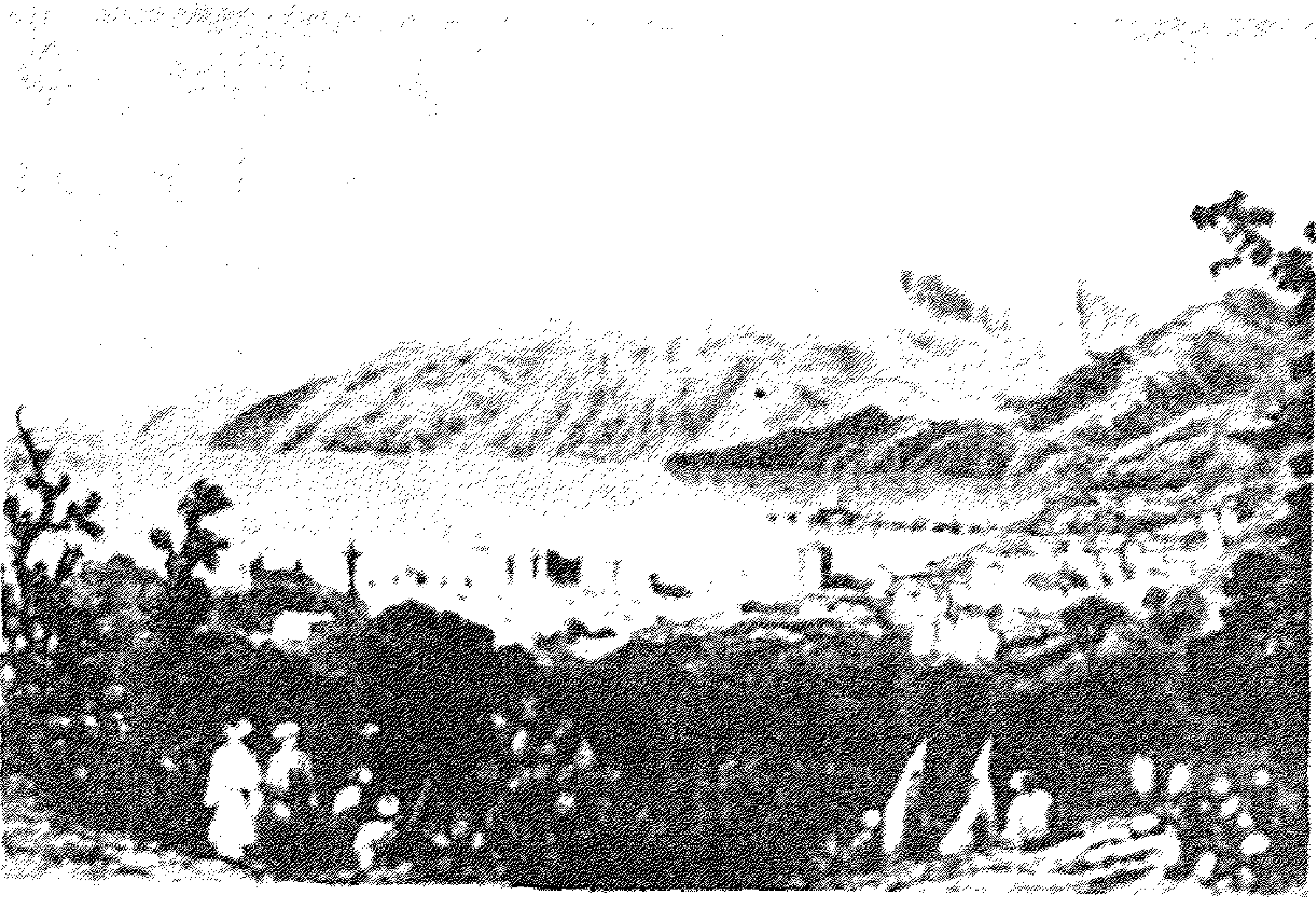
كان لبنان الاقطاعي يشبه هرماً قاعدته الوجهاء ثم المشايخ ثم المقدمون فالامراء . وكان الشهابيون في الفترة التي نحن بصددها على قمة هذا الهرم ينعمون بالقوة والمنعة . وما دام المقاطعجية ، كما كانوا يعرفون ، يمدونهم بالمؤن والرجال والضرائب التي كانت تعرف « بالميري » أي الاموال الاميرية ، فان الشهابيين كانوا عامل قوة واتحاد في البلاد . وكان الامراء والمقدمون والمشايخ والوجهاء يشتركون في الرأي في مسائل السلم والحرب وفي القرارات الخطيرة التي تتعلق بمصالح البلاد العليا . وكان الشهابيون –كما كان اسلافهم المعنيون– يوزعون الضرائب على المقاطعجية ثم يجمعونها ويبعثون بالضرائب المجموعة من شمال لبنان الى والي طرابلس وبالضرائب المجموعة في الشوف الى والي صيدا ، وبالضرائب المجموعة في البقاع وفي اماكن اخرى مثل نابلس وصفد – اذا حدث ان هذه المدن كانت في حوزتهم – الى والي الشام[٣] .

اما الامير ملحم (١٧٣٢ – ١٧٥٤) ابن الامير حيدر الشهابي فقد استطاع ان يسترد سهل البقاع . وكان هذا فاتحة عهد توسع جديد . فانه بعد ذلك اضاف الى امارته جبل عامل شرقي صور الذي كانت تقطنه جماعات من المتاولة (الشيعة).

١ – وهنالك آراء إخرى في اصل التسمية « يزبكي » . راجع شبلي ، ص ٢٤ ، والمعلوف ص ١٨ – ٢٠ .

٢ – الشدياق ص ١٦٢ – ١٦٤ .

٣ – عبد الكريم ، ص ١٤٢ . كرد علي ، الجزء الثاني ص ٢٣٤ – ٢٣٥ .



مدينة بيروت وفي المؤخرة جبل صنين

وكان السبب في ضم جبل عامل ان والي صيدا ، سعدالدين العظم [١] ، طلب الى الامير ملحم ان يساعده في جمع الضرائب المفروضة على اهل جبل عامل . وكان الامير بشير قبل هذا الحين استرد صور وصفد عندما عين له عاملا من زعماء العربان اسمه عمر الزيداني ابو ظاهر (ظاهر العمر) . وفي سنة ١٧٤٨ نجح الامير ملحم في استرداد البقاع . والبقاع مصدر يغذي الدخل القومي ويشكل خط دفاع عن القسم الجبلي . وقد تم له ضم البقاع بعد انتصار احرزه الامير ملحم على جيش اسعد باشا العظم ، والي دمشق واخي سعد الدين العظم والي صيدا ، في معركة وقعت بينهما في بلدة بر الياس في البقاع [٢] . والقصر الشهير في دمشق المعروف بقصر آل العظم ، الذي لا يزال قائماً الى يومنا هذا ، هو قصر اسعد باشا . ويعتبر من اجمل نماذج البناء العربي في عصرنا هذا . وكان امير بني حرفوش قد خف الى بر الياس على رأس جنوده لمساعدة اسعد باشا والي دمشق . فاتخذ الامير ملحم الشهابي هذا الحادث ذريعة ليزحف ، بعد انتصاره في المعركة ، على بعلبك .

١ ــ كان الاتراك قد منحوا ولاية دمشق وصيدا وحماة الى هذه العائلة الوجيهة التي لا تزال من كبار العائلات في دمشق . راجع كرد علي ، الجزء الثاني ، ص ٢٨٩ ــ ٢٩١ . الشدياق ، ص ، ٣٦٩ ــ ٣٧٠ .

٢ ــ حيدر : لبنان ، ص ٣٧ ــ ٤٠ .

فدخلها عنوة وعزل الامير الذي ساعد اهل الشام ونصب اخاه مكانه وجعل المنطقة بكاملها تدخل في فلكه . وقد لجأ الامير ملحم الى تدابير اخرى للاستيلاء على بيروت (١٧٤٩) . فانه اوعز الى الشيخ شاهين تلحوق ان يثير الاضطرابات في المدينة وحولها . ولما عجز الوالي التركي ياسين بك ، عن معالجة الامر شكاه الى والي دمشق وطلب اليه ان يزوده بالجند . ولكن والي دمشق ، عوضاً عن اعانة ياسين بك ، ارسل يعرض على الامير ملحم ولاية بيروت [١] فقبلها وظلت المدينة في حوزتهم الى ان جاء الجزار . وكان لبنان يفوق جيرانه عسكرياً ، ذلك لان لبنان كان يحتفظ بالرجال على اهبة الاستعداد للخدمة العسكرية الفعلية ، اي ان الخدمة العسكرية كانت اجبارية عامة ، ولكن بدون ان يلتحق المرء بالجيش للتدريب . والى جانب هذا فان اللبناني الجبلي يتميز بالصلابة والشجاعة وحب الاستقلال ، مما جعل الجيش اللبناني في قدرته وامكاناته جيشاً لا يضاهى في اي منطقة اخرى مجاورة له. وقد جرى الشهابيون على سنة اسلافهم المعنيين في الحفاظ الشديد على الاوروبيين وحمايتهم . يدلك على ذلك ان الامير ملحم اعدم رجلين بيروتيين مسلمين لما انتهزا فرصة هجوم القرصان على بيروت فذهبا ونهبا ديراً للاتين [٢] .

وفي سنة ١٧٥٤ تنازل الامير ملحم عن الامارة وانقطع الى حياة تدين وزهد واقام في بيروت « وانعكف على درس الفقه ومعاشرة علماء الاسلام» [٣] اما ولداه فقد اعتنقا المسيحية ، ثم تبعهما اقاربهما من اللمعيين . واما اخواه الامير منصور ، الذي كان يميل الى الحزب الجنبلاطي ، والامير احمد الذي كان يميل الى الحزب اليزبكي فقد اختصما وتحاربا في سبيل الحصول على الامارة . والامير احمد هو والد حيدر المؤرخ الذي اشرنا الى مؤلفه مراراً في هذا الفصل

كان حيدر مسيحياً تقياً ورعاً. وقد اوقف هو وزوجته جميع املاكهما في شملان الى دير ماروني انشىء هناك عام ١٨٢٨ [٤] . وهو الدير الذي كان نواة لقيام قرية

١ ــ الشدياق ، ص ٣٧٣ .
٢ ــ حيدر : لبنان ، ص ٤٧ــ٤٨ .
٣ ــ الشدياق ، ص ٣٧٥ .
٤ ــ ايرونيموس خيرالله : تاريخ موجز للرهبانية الانطونية المارونية (جونية . ١٩٤٠) ص٣٢ .

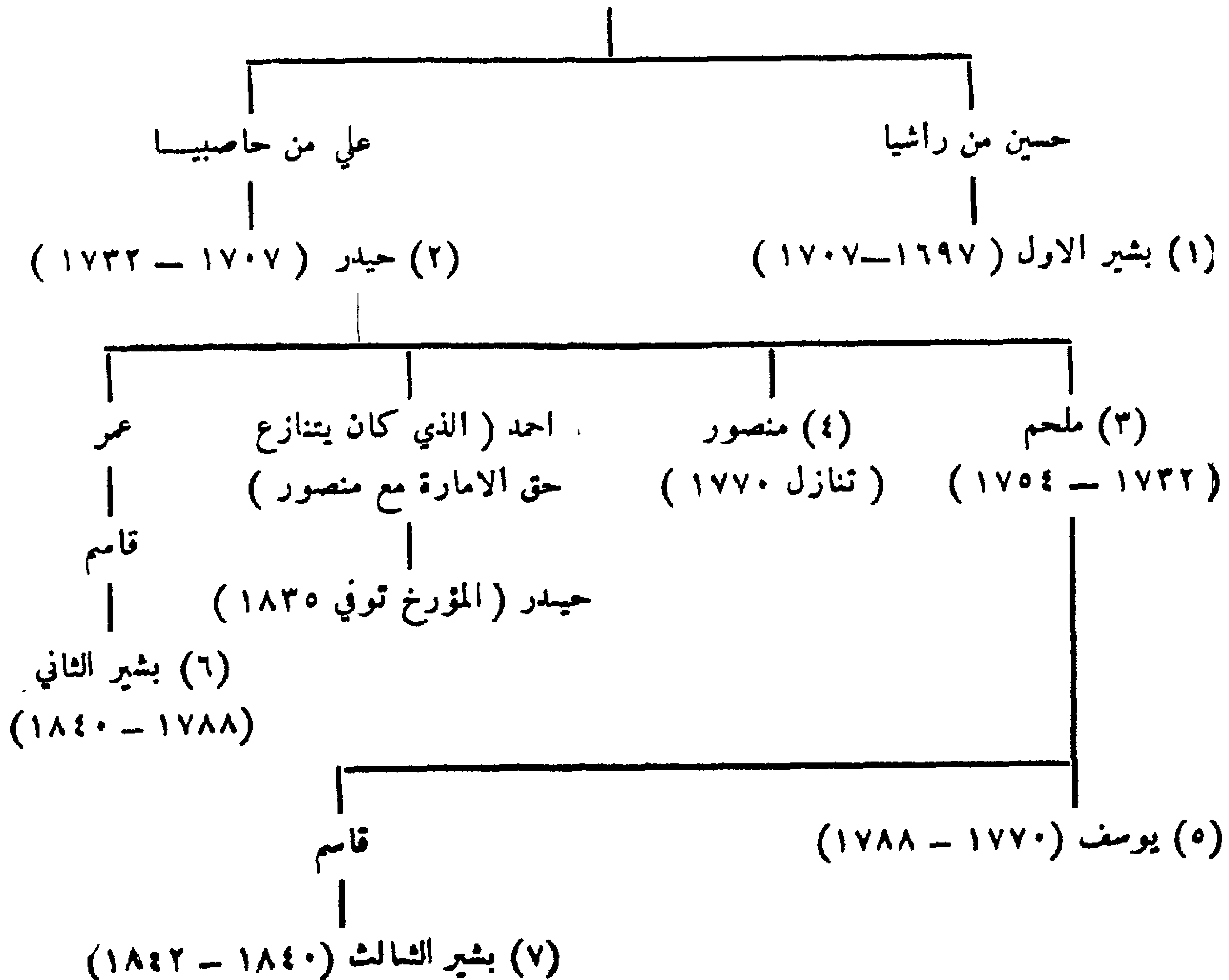
حوله هي قريــة شملان الحالية . ومكتبته هي الآن في دير الشير في خراج سوق الغرب. ويقول راهب ايطالي زار لبنان في عهد الامير منصور ان الدروز مستقلون عن السلطان في استنبول لكنهم يدفعون له جزية طفيفة ـ « وهي ما تبقّى للباب العالي من سلطة على هذا الشعب الذي كان الاتراك يضنّون عليه بالاستقلال »[١] . وكانت بيروت عاصمة الدروز شتاء ودير القمر صيفــاً . وبالرغم من ان المعنيين والشهابيين استولوا على بيروت فانهــم تحاشوا جعلها مقراً لامارتهم لتعرضهـــا لغزوات القرصان .

ولقد استمرت الاضطرابات الاهلية الى ان بلغ الامير يوسف ابن الاميرملحم سن الرشد واستقل بالامارة[٢] . وقد كان الوصي على الامير يوسف مارونياً من رشميا اسمه سعد الخوري[٣] ومن آل سعد الخوري قام رئيسان للجمهورية اللبنانية

١ — Mariti, vol. II, p. 31 .

٢ — حيدر ، الغرر ، ص ٨٠٧ . الشدياق ، ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

٣ — حيدر،الغرر ، ص ٧٨٣ . الشدياق ص ٣٧٧ . Volney, vol. II, p. 46-7 .



الحديثة وقد رفع الامير يوسف رتبة آل الخوري الى درجة المشايخ ، وفي اجتماع قومي عام عقد عام ١٧٧٠ في الباروك اعلن الامير منصور عزمه على التنازل الى ابن اخيه ، الامير يوسف ، الذي أعلن حاكماً على البلاد[١] ، واخبر الباب العالي بالامر بواسطة والي دمشق . ويمكن اعتبار الامير يوسف (١٧٧٠ــ١٧٨٨) اول امير مسيحي يتمتع بالسلطة التامة من طرابلس الى صيدا[٢] . وقد جعل الامير يوسف سعد الخوري صاحب خزينته . أمّا فولني[٣] الذي اقام ثمانية اشهر بين الدروز في دير واصبح يعرف العربية ، فقد ادهشته كثافة السكان في لبنان التي «تقاس بكثافة السكان في احسن المقاطعات في بلادنا » . وقد اعجب بعدد الرجال القادرين على حمل السلاح الذين يبلغ عددهم اربعين الفاً ، وبمدى الحرية والاطمئنان اللذين يتمتع بهما اهل البلاد مما يجعل عدداً من العائلات النصرانية تهاجر كل يوم من المقاطعات الواقعة تحت الحكم التركي الى لبنان « حيث يضيء شعاع من الحرية » وحيث يستقبلهم الاهلون من الموارنة والدروز على السواء بكثير من الترحاب[٤] يقول فولني :

« ان المرء في هذه البلاد يختلف عن اي امرىء آخر في السلطنة العثمانية . اذ انه ينعم بالاطمئنان التام على نفسه وممتلكاته . وليس الفلاح في لبنان بأغنى من الفلاح في مناطق اخرى ، انما يعيش عيشاً هانئاً هادئاً . فانه لا يخشى ــ كما قد سمعت كثيرين منهم يقولون ــ ان يرسل الآغا أو القائم مقام أو الباشا جنوده لينهبوا بيته أو ليلقوا القبض على افراد عائلته أو لينزلوا فيه عقاب الفلق . هذه الانواع من الظلم غير معروفة في الجبل »[٥] .

ظاهر العمر

وقد برز في هذه الحقبة زعيمان آخران لمع اسمهما الى جانب الامراء الشهابيين :

١ ــ حيدر ،الغرر ص ٨٠٧ . الشدياق ص ٣٨٦ــ٣٨٧ .

٢ ــ Churchill. vol. III, p. 109 .

٣ ــ Volney, vol. I, p. VIII .

٤ ــ Volney, vol. II, pp. 66-7 .

٥ ــ Volney, vol. II, p. 67 .

ظاهر آل عمر (= العمر) في صفد ، واحمد الجزار في عكا . وبظهورهما اخذت فلسطين تنافس لبنان في احتلالها مركزاً مرموقاً على مسرح السياسة آنذاك . اما سورية فقد ظلت في هذه الحقبة بلاداً مغمورة .

كان ظاهر ابن شيخ قبيلة بدوية[١] . وقد برز على مسرح السياسة سنة ١٧٣٧ ، واخذ يضيف الى ممتلكاته في صفد رويداً رويداً طبريـــة والجليل الاعلى ونابلس والناصرة . وفي سنة ١٧٥٠ لما ضمّ عكا الى ملكه كان قد اقترب الى لبنان بحيث انه اصبح يشكل خطراً عليه . وقد اختار عكا التي كانت في معظمها خرائب منذ ايام الصليبيين لتكون مقراً له بعد ان رمّم حصونها . وكان الامير فخر الدين قد ردم ميناءها بانقاض البيوت القديمة ليمنع دخول سفن القرصان اليها[٢] . لكنهـــا اخذت في هذه الفترة تستعيد مجدها وازدهارها ولو الى حين . كان ظاهر العمر مستبداً عادلاً فقضى على اعمال الشقاوة وشجع الاعمال الزراعية واحسن معامـــلة النصارى وقد كان معظم افراد حاشيته المقربين اليه من الروم الكاثوليك . يقول لنا مؤرخ[٣] حياته ، وبكثير من المفاخرة : « حتى ان المرأة تستطيع ان تسافر من مكان الى آخر حاملة معها ذهباً دون ان تخشى سوءاً » . واذا زنت امرأة فان جزاءها الشنق واما جزاء الرجل الذي زنى بها فالموت غرقاً ؛ كان يوضع في كيس ويرمى به في البحر وقد لاحظ ماريتي ان زراعـــة التبغ واشجار التوت كانت زراعة مزدهرة في التلال المجاورة لمدينـــة صور ، ولكنه لم يلاحظ ان النـــاس يستفيدون من الاصداف التي كان اسلافهم يستخرجون منها صبغ الارجوان[٤] . وقد قام ظاهر العمر بتعهداته المالية الى الحكومة التركية بكل امانة ، فكان يدفع ما عليه من ضرائب مستحقة . وكان الاتراك بدورهم لا يبالون سواء اتاهم الخراج عن طريق عامل عربي ام عن طريق عامل تركي . ومعدل الضريبة على الشخص الواحد كان خمسة غروش في السنة[٥] . والحقبة التي نحن بصددها كانت حقبة اشتبك فيها

---

١ — حيدر بالغرر ص ٨٠٠ .

٢ — Mariti, vol. II, p. 88 .

٣ — ميخائيل ن. الصباغ (العكاوي) تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيـــداني ، نشر قسطنطين الباشا (حريصا) ص ٥٠ .

٤ — Mariti, vol. II, p. 103, 211, 213 .

٥ — Mariti, vol. II, p. 102 .

الاتراك بصراع مرير ضد الروس في عهـــد الملكة كاترين الثانية . وكان نفوذ الاتراك في كل مكان قد وصل الى الحضيض . ففي عام ١٧٦٨ قبل السلطان ان يمنح ظاهر العمر طلباً تقدم به وهو ان تكون حكومته وراثية وان يكون لقبـــه « شيخ عكا ، وامير الامراء ، صاحب الناصرة وطبرية وصفد وامير الجليل[١] » . اما في مصر فقد حاول حاكمها علي بك ان يعيد حكم المماليك في سورية وفلسطين كما كان قبل مقدم الاتراك . وذلك لانه رأى في ضعف الاتراك فرصة منـــاسبة لتحقيق اغراضه . فارسل عامله أبا الذهب[٢] سنة ١٧٧١ ليستولي على دمشق وسائر المدن السورية . وقد وجد ظاهر العمر في ابي الذهب حليفاً طبيعياً . وبينما كان الاسطول الروسي ، الذي كـــان يتعـــاون معهما ، يقصف مدينـــة صيدا دخلتها جيوش ظاهر واستولت عليهـــا (١٧٧٢) . وقصف الاسطول الروسي مدينة بيروت واعمل بحارته فيها النهب . اما الامـــير يوسف الشهابي فانـــه حالف هذه المرة والي دمشق ضد الخطر الجديد من الجنوب . فارسلت استنبول كتيبة لتساعد والي دمشق والامير يوسف الشهابي . وبعد اعمال حربية بحرية وبرية استعادا مدينة صيدا من ظاهر العمر (١٧٧٥) وارغم على التراجع الى عكا عاصمته المحصنة حيث ضربت عليها دمشق الحصار . اما رصاص بنادق الجنود الاتراك فلم يكن لها اي تأثير في اسوار المدينة المنيعة . الا ان ذهب الاتراك فعل فعـــله في جنود الحاميـــة ، واسفر عن مقتل ظاهر العمر . فقطع رأسه وارسل الى استنبول ليعلق على سور سراي السلطان . وقد كان من جملة الجنود الذين دافعوا عن صيدا وبيروت ، لما كان الاسطول الروسي يقصفهما وعندما كانت جنود ظاهر وابي الذهب تهاجمهما براً ، جندي اسمه احمد الجزار الذي تتضاءل مغامرات ظاهر العمر ازاء مغامراته العتيدة .

احمد باشا الجزار

ولد احمد باشا الجزار في بوسنة ، وكان مسيحياً . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره حاول الاعتداء على امرأة اخيه ، ثم هرب الى استنبول وباع نفسه الى تاجر

---

١ — Mariti, vol. II, p. 100; Churchill, vol. III, pp. 119 - 20 .

٢ — سمي «ابو الذهب» لان عطاياه وهباته كانت دوماً قطعاً من النقود الذهبية . راجع الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والاخبار (القاهرة ١٢٩٧) الجزء الاول ص ٤١٧ .

رقيق يهودي . واستقر به المقام اخيراً في القاهرة كعبد من عبيد علي بك . فاقامه جلاداً . وكان ذا دهاء وقسوة. ولم يلبث طويلا حتى اعتقه علي بك ولقبه بالجزار



احمد باشا الجزار ، وهو في مجلس يصدر فيه حكماً على مجرم

وهو الاسم الذي عرف فيه فيما بعد . وقد سعى جاهداً ان يطابق الاسم المسمى . ثم انه غادر القاهرة وذهب الى دمشق والتحق بالجيش السوري . وجزاء لخدماته في الجيش ضد ظاهر العمر اعطي ولاية صيدا . واستولى الى مدة قصيرة على بيروت غير معترف بسلطة الامير يوسف الشهابي عليها. وكان عدد سكان بيروت آنئذ ستة آلاف نسمة[١]

بعد ان جرّد احمد باشا الجزار لبنان من اقسامه الساحلية وبعد ان ورث ولاية ظاهر العمر اتخذ عكا مقراً له واحسن تحصينها وذلك بتسخير السكان للعمل في في حصونها . وانشأ اسطولا وكتيبة مشاة قوامها الف رجل من المغاربة وفرقة خيالة قوامها ثماني مئة رجل من البوسنة والبانيا . وقد احتكر من تجارة البلاد ما مكنه من دفع النفقات العسكرية ، ومن العيش الرغد[٢]. ولا يزال الجامع الفخم

١ — حيدر ، الغرر ، ص ٨١١—٨١٢ ، ٨٢٧ ، Volney, vol. II, p. 170 .

٢ — المنجد ، ص ٨٥ .

الذي بناه والذي دفن فيه قائماً الى يومنا هذا . وقد تناولت سلطته اقاليم ابعد من الشاطىء اللبناني والفلسطيني. فان السلطان . عام ١٧٨٠ ، انعم عليه بولاية دمشق بفرمان . وهكذا اصبح حاكم سورية المطلق والحكم الاخير في القضايا اللبنانية مدة ٢٥ سنة . ولم يحدث اثناء حكمه اي حادث كان من شأنه ان يكدر حياته او ان يسبب له نكسة سياسية بل انه مات سَنة ١٨٠٤ ميتة طبيعية. وهذا نادر غاية الندرة في تاريخ حكام هذه المنطقة من الارض . وقد اصبح اسم هذا المغتصب الطاغية في الاخبار المحلية الشعبية مرادفاً للقسوة الفظيعة التي لا تعرف حداً . ويروي لنا مؤرخ من اهل البلاد[١] ان الجزّار لمجرّد ريبة قذف بسبع وثلاثين امرأة من حريمه الى النار . كان خصيانه يجرون الواحدة تلو الاخرى وهو يرمي بها الى اللهيب . اما في لبنان فقد اتبّع سياسة تحريض حزب على آخر ، واستصفى الجنبلاطيين حلفاء له . وبعد معركة قب الياس التي وقعت عام ١٧٨٨ والتي هزم فيها جيش الامير يوسف الشهابي طلب من اهل البلاد ان ينتخبوا الامير بشير الشهابي حاكماً على لبنان . اما الامير يوسف الذي كان قد طعن في السنّ واصبح عاجزاً فانه ربط منديلا حول عنقه ــ علامة الاستسلام ــ وسلم نفسه الى رحمة الجزار الذي شنقه في سجن عكا[٢] .

وقد بلغ الجزار الذروة في القوة سنة ١٧٩٩ عندما اوقف زحف جنود نابليون بونابرت الظافر الذي كان قد بدأ به من مصر في السنة التي قبلها . وقد دافع الجزار عن عكا بمساعدة الاسطول البريطاني الذي كان بامرة سدني سمث من الحادي والعشرين من اذار الى العشرين من شهر ايار . واضطر الجيش الافرنسي الذي كان قدفقد كثيراً في الارواح بسبب الطاعون وقلة المؤن الى التراجع. فكانت عكا التي كان يعتبرها نابليون مفتاح الأستانة والهند عثرة في سبيل الفوز بفتح العالم[٣].

١ ــ مخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ، نشر ملحم عبده واندراوس شخاشيري (القاهرة ، ١٩٠٨) ص ٥٤ .

٢ ــ حيدر الغرر ، ص ٨٥٦ وما يليها . مشاقة، صْ ٤٦ . الشدياق ص ٤١٩ــ٤٢٠، ٤٢٧ .
Churchill, vol. III, pp. 170 seq .

٣ ــ Édouard Lockroy, *Ahmed Le Boucher*, 4 th ed. (Paris, 1888) p.VIII; Montgomery B. Gibbs, *Military Career of Napoleon The Great* (New York, 1909), p. 128 .

الفصل السابع والعشرون

العلاقات الخارجية والداخلية

كان الحجاج الى البلاد المقدسة يمثلون الاوربيين الذين تعرّف اليهم اللبناني في الازمنة القديمة . وفي العصور المتوسطة تعرف الى الجنود الصليبيين : وفي العصور الحديثة الى المرسلين والتجار ومن بعدهما الى السياح. ولجماعة السيّاح اهمية خاصة لانهم خلفوا لنا ادب الرحلة الغني بالمعلومات . وفي عهد المعنيين والشهابيين اسس المرسلون الكبوشيون واليسوعيون ارسالياتهم في البلاد ، ووطدوا اركان اعمالهم التبشيرية والثقافية . وكان جلّ افراد هذه البعثات ـ سواء أكانوا مرسلين ام تجاراً ـ من المواطنين الافرنسيين الذين كانوا عن عمد او عن غير عمد ، يمهدون السبيل لتحقيق السياسة الخارجية الافرنسية التي وضعها لويس الرابع عشر (١٦٤٣ ـ ١٧١٥) والتي اتّبعها خلفاؤه من تشجيع التجارة الافرنسية وحماية الكثلكة . وفي القرنين السابع والثامن عشر عادت الصلات الثقافية والعلاقات الاقتصادية التي كانت قد انقطعت اثر الحروب الصليبية الي سابق عهدها بنشاط وعزم .

التجارة الخارجية

بدأت التجارة الافرنسية عهداً زاهراً في عصر مبكّر بفضل الامتيازت التي منحت لهم عام ١٥٣٥ واعيد تجديدها عام ١٥٦٩ . ثم تلتها التجارة الانكليزية ولكنها لم تكن لتنافس التجارة الافرنسية بشكل جدي . وقد ظلت المراكب الافرنسية ومراكب البندقية تسافر حاملة العلم الافرنسي مدة من الزمن . وفي عام ١٦٩٧ اصدر لويس الرابع عشر تعليماته الى سفيره في استنبول والى قناصله في سورية ليفتحوا ابوابهم لمساعدة « الامة » المارونية البالغ عددها قرابة سبعين الف نسمة ، وليكونوا في عون سائر الكاثوليك في المشرق . وقد اعلم لويس

الرابع عشر « رئيس الكنيسة المارونية بالامر[1] » . وهذه التعليمات تؤكد مرة ثانية بياناً آخر كان قد صدر قبلا يتعلق بالطلبة اللبنانيين الذين يودون السفر الى « بلاد النصارى» وفيه تعهد بتخفيض اجور السفر بحيث تتناسب مع حالة الطلبة المالية[2]. وبعد اربعين سنة (١٧٣٧) جدد لويس الخامس عشر هـذا البيان متعهداً بحماية الموارنة ومصدراً تعليماته الى قناصله « ليضعوا قنصلياتهم في خدمة بطرك الموارنة وجميع افراد رعاياه[3] » .

وفي سنة ١٦١٦ اصبحت صيدا ، لأول مرة ، مركزاً لقنصلية افرنسية ذات صلاحية تشمل بيروت وصور وعكا وحيفا ويافا . وقد وضع فخر الدين الخان الفخم الذي كان قد بناه تحت تصرّف القنصلية والتجار الافرنسيين والمرسلين . ولما كانت صيدا مستودعاً للبضائع في لبنان ، وبوصفها ميناء لدمشق فقد ارسلت الحكومة الافرنسية بين ١٦٨٥ و ١٧٠٩ لا اقل من مئة وخمسة وسبعين مقيماً على التتالي . وقد كان يصل الى مينائها حوالي عشرين مركباً من مرسيليا كل سنة[4] . وكادت صيدا ان تغتصب مركز حلب التجاري الذي كان يحتل المركز الرئيسي في سورية بكاملها . اما بيروت التي كانت عام ١٦٦٠ اكبر من ضعفي صيدا فانه لم يكن فيها سوى اربعة او خمسة من التجار الافرنسيين[5] .

ويروي قاصد رسولي ايطالي جاء طرابلس عام ١٥٩٦ انه وجد ميناءها حسنة التحصين ، وشاهد على الشاطىء خمسة ابراج لحراستها . وقال انه لم يكن فيها سوى بضعة تجار ايطاليين . اما بلاد الارز في اعالي لبنان فقد وجدها غنية بغلاتها الزراعية . القمح والخمور الممتازة والقطن والحرير والعسل والشمع والاخشاب

---

١ ــ للاطلاع على نص التعليمات راجع :
de La Roque, vol. II, pp. 246 - 7; de Testa, vol. IV, p. 141 .

٢ ــ تجد النص في :
Ristelhueber, pp. 117 - 18; de Testa, vol. III, pp. 140 - 1 .
والترجمة العربية في الدويهي ، ص ٢٢٠ ــ ٢٢١ .

٣ ــ de Testa, vol. III, pp. 141—2; Ristelhueber, p. 255 .

٤ ــ Ristelhueber, pp. 96, 129 .

٥ ــ D'Arvieux, vol. II, pp. 338, 344 .

والعنب « الذي حجم الحبة منه كحجم الخوخ »(١) . وبعد انقضاء قرن من الزمن زار موندرل(٢) طرابلس – التي كان قد تخرّب ميناؤها بسبب انخساف الشاطىء الصخري – فوجد فيها تاجراً انكليزياً واحداً وقنصلا انكليزياً .

وفي اواخر القرن السابع عشر اخـذت طرابلس – وكانت لا تزال حتى ذلك الحين مقرّ نائب قنصل لمدينة حلب – تشق طريقها لتصبح مركزاً تجارياً مزدهراً بين الموانى اللبنانية يجهّز حمص وحماة وشمال لبنان بالبضائع المستوردة . غير ان القرصنة – وهي مهنة محترمة حتى من قبل زمن الرومان – بلغت في اوروبة عند منصرم القرن السابع عشر من العنف ما لم تبلغه من قبل. وكان يرعى اعمال القرصنة تجار كانوا ينظرون اليها على انها غزو بحريّ محلّل تماماً كما ينظر البدوي الى اعمال الغزو انها سنّة محلّلة . وعليه كان طبيعياً ان تتأثر التجارة اللبنانية البحرية باعمال القرصنة . وكان اشدّ القرصان خطراً على اللبنانيين في هذه الفترة قرصان مالطة .

وكان من اهمّ الغلال الزراعية والمصنوعات المصدّرة من لبنان الحرير والزيت والصابون والزبيب والصوف والبضائع القطنية . ومن جملة البضائع التي كان اللبنانيون يأتون بها من البلدان المجاورة ويصدرونها من صيدا الارز والبن . وكان الحرير اللبناني يعتبر من اجود واثمن انواع الحرير. وكان الطلب على حرير طرابلس الناصع البياض كبيراً لان الصناع كانوا يؤثرونه على غيره من الحرير في اعمال التطريز المذّهب والمفضّض . امـا حرير الشوف ، الذي كان اخشن قليلا من حرير طرابلس، فانهم كانوا يستعملونه في صناعة النسيج المخملي، وكانوا يستعملون حرير بيروت في صنع قماش التفتا والستائر واغطية الفرش. وكان التجار الافرنسيون يبتاعون سنوياً من حرير لبنان ما قيمته مليونا فرنك افرنسي ذهبي . وكانت تجارة صيدا السنوية تقدّر بمليون الى مليوني ليرة افرنسية ذهبية(٣) . مقـابل هذا كان اللبنانيون يستوردون الاقمشة الصوفية والقطنية من فرنسا والورق والحديد والنحاس من انكلترا ، والآلات والنقود المصكوكة من كلا البلدين . فان الليرتين الذهبيتين،

١ – Dandini, pp. 25, 42—3 .

٢ – Maundrell, p. 25 .

٣ – D'Arvieux vol. II, p. 345, Ristelhueber, p. 96 .

الانكليزية والافرنسية ، دخلتا الاسواق التركية وبقيتا العملتين المتداولتين حتى الحرب العالمية الاولى والعملة التركية ذاتها صكّت حسب نماذج اوروبية كما يستدل من شكل الليرة العثمانية الذهبية. وكانت الليرة عملة البندقية اصلا واصبحت الوحدة النقدية الذهبية ، بينما كانت الوحدة النقدية الفضية الريال ، وهي مأخوذة من لفظة افرنسية الاصل (royal d'or) وكانت العملة الشائعة في القرنين الخامس والسادس عشر . اما الوحدة الفضية الصغيرة فهي الغرش أو القرش وهي من لفظة المانيسة Groshen (وهذه لاتينية الاصل : grossus ومعناها ثخين ــ كثيف) . وقــد كانت هذه القطعة من النقود شائعة الاستعمال في المانيا وفي البلدان الواقعة شرقيها[٢]. واول مرّة ترد فيها هذه اللفظة « غرش أو قرش » في وثيقة يعود تاريخهــا الى اواخر القرن الرابع عشر . غير ان صلكّ الغروش في الدولة العثمانية لم يُبدأ به الا بعد مضي ثلاثة قرون. وكانت قيمة الغرش اربعين بارة[٣]، وكل ٣٠ بارة كانت تساوي زلطة[٤] وهي اصلا قطعة نقود هولندية وجزء من الفلورين التي كان يتعامل بها في الاسواق التركية في القرن السابع عشر .

عائلة لبنانية تتقلد مناصب قنصلية افرنسية

في سنة ١٦٥٥ عيّن نادر الخازن ، وكنيته ابو نوفل ، نائب قنصل افرنسي في بيروت . وكانت بيروت اذ ذاك تابعة لصيدا. وكان ابو نوفل ابن ابي نادر الخازن مقاطعجياً على كسروان من قبــل الامير ملحم المعني ووصياً على ابنه احمد[٥] . وكحاكم على كسروان فانه حمى الارساليات الافرنسية . ولقاء خدمــاته هذه واقراراً بفضله فانهم اوصوا حكومتهم بتعيينه قنصلا . ولا شك في ان هذا التعيين

---

١ ــ ليرا لفظة ايطالية من الكلمة اللاتينية ليبرا .

٢ ــ راجع المقال عن « غروش » في الموسوعة الاسلامية .

٣ ــ وهي لفظة تركية من اصل فارسي ومعناها قطعة صغيرة .

٤ ــ مركلمة ايطالية isolotti وفي الافرنسية isolotte . وقد تكون اللفظة مشتقة من اسم نهر في هولندة : يزل Yesel (Ijssel) حيث كانوا يصكون النقود . راجع :
Albert R. Frey, *A Dictionary of Numismatic Names* (New York. 1917), p. 251.

٥ ــ الشدياق ، ص ٨٦ ــ ٨٧ .

كان بموافقة الامير ملحم . وبعد سنتين انعم لويس الرابع عشر على قنصله اللبناني، ابي نوفل ، بالجنسية الافرنسية ، وبالحقوق والامتيازات التي كانت تتمتع بها طبقة الاشراف من الافرنسيين . وفي سنة ١٦٦٢ رقي الى رتبة قنصل. وهو اول قنصل يعين في بيروت . وبعد ثلاث عشرة سنة عين نائب قنصل للبندقية . وكان يخاطب في الرسائل والوثائق الرسمية هكذا : « نادر خازن ، امير الموارنة ، الفارس الروماني [١] ، الكونت بلاتين ، مستشار الملك ، قنصل جلالته المسيحي الورع في مدينة بيروت وتوابعها [٢] . وقد خلف ابا نوفل في منصبه ابنه ابو قانصوه (فياض) سنة ١٦٧٩ . وهكذا اصبحت هذه الوظيفة وراثية في العائلة [٣] . وبعد وفاته سنة ١٦٩١ بستة اعوام عين ابنه حصن خلفاً له . وبعد موت حصن (١٧٠٦) عين ابنه نوفل، وكان ابن عشرين سنة، قنصلا وظل في هذا المنصب حتى ١٧٥٨ . ولكن في السنوات الاخيرة من خدمته غير لقبه الى لقب قنصل فخري . ذلك لان الباب العالي كان يرفض ان يعترف باحد رعاياه وكيلا او عاملا لدولة اجنبية . وفي عام ١٩١٦ شنق جمال باشا اثنين من هذه العائلة : فيليب ترجمان القنصلية الافرنسية في بيروت واخوه فريد الصحافي . وقد شنقهما جمال لاشتراكهما مع آخرين من الوطنيين في التآمر على سلامة الدولة العثمانية .

في سنة ١٧٨٧ عيّن لويس السادس عشر ، غندور ابن سعد الخوري ، قنصلا في بيروت . وكان غندور امين سرّ الامير يوسف الشهابي . وبحماية آل خازن ورعايتهم اتسعت اعمال الكبوشيين، الذين كانوا قد أسسوا لهم ارسالية في بيروت سنة ١٦٢٦ ، وأعمال اليسوعيين الذين قدموا البلاد سنة ١٦٥٢ [٤] وانتشرت ارسالياتهما التبشيرية والثقافية في البلاد . واسس الفرنسسكان ارسالية في طرابلس، والكرمليون ارسالية في بشرّي . وكان من اثر اولئك المرسلين الكاثوليك انهم دقوا اول اسفين لتحطيم الرجعية الفكرية .

في سنة ١٦٥٦ شطط راهب يسوعي بالقرب من جونية بعد تحطّم المركب

---

١ — هذا اللقب منحه اياه الفاتيكان .

٢ — الدويهي ص ٢٢٢ وما يليها ، ٢٣٣ — ٢٣٤ . D'Arvieux, vol. II, p. 366 . Ristelhueber, pp. 132 seq.; Charles - Roux. *Échelles*, p. 62.

٣ — وقد حفظ لنا الدويهي الرسالة التي بموجبها عين ابو قانصوه قنصلا ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .

٤ — Rabbath, vol. I, pp. 30 seq .

الذي كان مسافراً فيه . فظن الناس انه من القرصان ، فقبضوا عليه واخذوه الى ابي نوفل الخازن صاحب كسروان . غير ان ابا نوفل وهبه قطعة ارض كبيرة في عينطورا حيث بنى اليسوعيون بيتاً وكنيسة[1] . وفي سنة ١٧٣٤ وضع بطرس مبارك الغوسطاوي الماروني المدرسة الثانوية، التي كان قد اسسها في عينطورا ووقف لها الاملاك ، تحت ادارة اليسوعيين . وكان بطرس مبارك قد درس في رومة وصار يسوعياً ولكن بعد الغاء الرهبنة اليسوعية بعشر سنوات (١٧٧٣) وضعت مدرسة عينطورا تحت ادارة اللعازريين . وكان المرسلون اليسوعيون في بادىء امرهم يلبسون ثياباً كهنوتية تشبه الاكليروس الماروني مما ساعدهم على التجول والانتقال لاداء رسالتهم بدون خشية . وفي سنة ١٧٨٩ انشأ ماروني آخر تخرج من رومة مدرسة ثانوية اخرى في عينطورا ، التي كانت اصلا ديراً ثم تحول الى مدرسة ثانوية . هاتان المدرستان يمكن اعتبارهما اول مدرستين انشئتا على نمط المدارس الاوروبية اصبحتا فيما بعد النموذج الذي انشئت عليه مدارس اخرى في غزير وزغرتا واماكن اخرى . وقد خرّجت هذه المدارس افاضل علماء الموارنة من الاكليروس والعلمانيين في القرن التاسع عشر .

الطلاب الموارنة في رومة

كان الموارنة اول شعب من شعوب الشرق الادنى اقام علاقات وثيقة قوية مع الغرب في العصور الحديثة . ولم تقتصر هذه العلاقات على التجارة والعلاقات السياسية انما تعدتها الى ما هو اعمق : الى العلاقات الثقافية ذات الاثر البعيد في الفكر . وكانت رومة نقطة الاتصال هذا .

بعد ان اسس المرسلون الكاثوليك مدارسهم في لبنان بزمن قصير اخذوا ينتخبون من بين خريجيها الطلبة الاذكياء النجباء ويرسلونهم الى المدرسة الشرقية في رومة لمتابعة الدروس العالية . وقد نشطت حركة ارسال الطلبة الى روما اثر تقرير رفعه موفدان يسوعيان قدما طرابلس سنة ١٥٧٨ الى الفاتيكان عند رجوعهما الى رومة . وكانا قد اصطحبا معهما تلميذين مارونيين (احدهما قبرصي) . ومن

---

١ — Ristelhueber, p. 84 .

جملة توصياتها ان يُؤسَّسَ معهدٌ في روما للتلامذة النصارى الشرقيين ، وان تؤسس مطبعة في لبنان للعربية والسريانية . وفي سنة ١٥٨٤ دشن البابا غريغوريوس الثالث عشر الكلية المارونية التي كانت في الواقع معهداً للاهوت في عاصمته رومة ، وقد كان عدد تلاميذها آنذاك عشرين طالباً[١] . ولقد كان هذا الحادث حادثاً له مغزاه التاريخي . فقد تخرج من هذا المعهد المع رجالات الاكليروس الماروني الذين عادوا الى وطنهم ليتسنموا المراكز الكنسية الرفيعة وليكونوا قادة فكر في كنيستهم وليعملوا في سبيل ضم الكنيسة المارونية الى حظيرة الفاتيكان. وقد ظل بعضهم في ايطاليا وذهب بعضهم الى باريس ليؤسسوا الدراسات الشرقية في المعاهد العليا ولينشروا المعارف عن الكنائس الشرقية والحضارة الشرقية وليوطدوا علاقات الصداقة والود بين فرنسة ولبنان .

وكان من ابرز الطلاب الذين عادوا الى وطنهم لبنان ومن ألمعهم اسطفان الدويهي (ويعرف في الغرب باسمه اللاتيني Aldoensis ١٦٣٠ ــ ١٧٠٤) الذي تسنم ارفع الرتب الاكليريكية في كنيسته . وهو مؤلف كتب عدة اشرنا الى بعضها مراراً عديدة في هذا المؤلف[٢] . ولد اسطفان الدويهي في اهدن وذهب الى رومة وهو بعد في الحادية عشرة من عمره حيث قضى اربع عشرة سنة . وفي سنة ١٦٧٠ اصبح بطريركاً ، ولكن تسنمه سدة البطريركية لم ترق لابي نوفل الخازن صاحب كسروان وقنصل فرنسة لانه لم يستشر في الامر . غير ان البطريرك قام بزيارته شخصياً فزال ما كان بينهما من سوء تفاهم . الا ان عهد بطريركيته كانت تشوبه غيوم قاتمة وحوادث مؤلمة . يقول عن نفسه انه « ناله من البلاء واصابه من الاضطهاد ما لا يمكن وصفه[٣] ». وكان آل حمادة ، مقاطعجية باشا طرابلس ، يفرضون عليه الضرائب الفادحة التي لم يستطع ان يؤديها لهم . وكان احياناً يضطر الى الهرب الى المغاور والكهوف بالرغم من ان مقر البطريركية في

١ — Rabbath, vol. I, pp. 204-7; Joseph Nasrallah, *L'Imprimerie au Liban* (Beirut, 1948), pp. XVI - XVII .

٢ ــ « تاريخ الطائفة المارونية » نشره رشيد الخوري الشرتوني (بيروت ١٨٩٠) مقتطف من « تاريخ الازمنة » نشره فرديناند توتل في المشرق ، المجلد ٤٤ (١٩٥٠) . راجع ميخائيل الرجي في المشرق ، المجلد ٤٨ (١٩٥٤) ص ٧٧ وما يليها .

٣ ــ الدبس ، الجزء السابع ، ص ٣٠٩ .

قنوبين في وادي قاديشا كان ملجأ حصيناً منيعاً لا يمكن الوصول اليه . حتى ان اوروبياً زار الدير لم يتمالك عن ابداء دهشته بقوله ان الذي يبغي الوصول اليـه يحتاج الى جناحين[١] . وقد وجد قسيس انكليزي كان يقوم بالخدمـة الروحية للجالية الانكليزية في حلب ان في دير قنوبين جرسين يقرعان عند دعوة الرهبان الى الطعام ، وهو امتياز لم يعط لاي دير او كنيسة اخرى في البلاد كلها[٢] ، ولو ان قرع هذين الجرسين بلغ مسامع الاتراك لما كانوا سمحوا باقامتهما . وقد وجد موندرل[٣] في قلعة طرابلس رجلا مارونياً طاعناً في السن يظهر انه اعتنق الاسلام تحت الضغط والارهاب ، ولكنه عـاد فارتدّ الى المسيحية فحكم عليـه بالموت على الخازوق .

ذهب الدويهي الى رومة ليتابع دراسته بموجب توصية من البطريرك جرجس عميرة (توفي ١٦٤٤) الذي كان احد الطلاب القدامى في المعهد الماروني في رومة. وكان البطريرك عميرة ايضـاً من اهدن ؛ وكان مؤلفاً . اما امه فكانت من آل الدويهي . وهو الذي ادخـل التقويم الذي عدله غريغوريوس الثالث عشر الى الكنيسة المارونية بحيث اصبحت اعيادها تقع في الوقت الذي تقع فيه الاعيـاد اللاتينية . ومن لبنان انتشر استعمال هذا التقويم بين الجاليات المارونية في دمشق وحلب ، ولكن بعد مقاومة عنيفة من قبل الموظفين المحليين . وفي سنة ١٥٩٦ نشر البطريرك عميرة كتاب قواعـد اللغة السريانية الذي كان اول كتاب من نوعه . وبعد اربعـين سنة نشر خريج آخر من مدرسة اللاهوت المارونية في روما اسمه اسحق الشدراوي كتاباً باللغة اللاتينية عنوانه اللغة السريانية . ولد اسحق في شدرا من اعمـال عكار . وفي سنة ١٥٩٠ عندما كان عمره اثنتي عشرة سنة ذهب الى رومة ثم عاد الى موطنه بعد خمس سنوات . وعندما كان في ايطاليا اقام مدة في ميلان ينظم مجموعة المخطوطات الغنية في مكتبتها . وفي سنة ١٦٦٠ ــ وكان اذ ذاك مطراناً على طرابلس ــ ذهب الى ايطاليا وفرنسا ليسعى في تثبيت ابن نوفل قنصلا في بيروت ، اذ ان قناصل فرنسا في هذه البلاد كانوا قد بعثوا الى باريس

١ — D'Arvieux, vol. II, p. 430 .
٢ — Maundrell, p. 143 .
٣ ــ المصدر ذاته ص ١٤١ . الدويهي ص ٢٥١ ، الدبس مجلد ٧ ، ص ٢٨٧ – ٢٩١ .

بشكايات ضـــده[١] . وعندما كان في ايطاليا عرج على رافنّا ليزور مدرسة مارونية كان قـــد اسسها ووقف لها الاوقاف رجل من العاقورة واحد خريجي مدرسة اللاهوت المارونية في رومة . ويبدو ان الجالية المارونية اللبنانيـــة في هذا الميناء الايطالي الشمالي كانت جالية كبيرة .

وكان من جمـــلة الاعلام البارزين الذين ظلوا في اوروبة يعملون وينشرون المخطوطـــات ويكتبون وينقبون الصهيوني والحاقلي والسمعاني ، وهذه العائلات الثلاث لا تزال عائلات كبيرة معروفة في شمال لبنان . بدأ جبرائيـــل الصهيوني (باللاتينية Sionita ١٥٧٧ ـ ١٦٤٨) حياته الأدبية معلماً للغة السريانية والعربية في كلية سابينزا في رومة. ثم انتقل الى باريس بدعوة من لويس الثالث عشر ليرأس دائرة اللغات السامية في الكلية الملكية (وهي الآن Collège de France) . وفي الوقت ذاته عين ترجمانا للملك . وافضل خدمة قدمها للعلم نشره التوراة بلغـــات متعددة، ومن جملتها الترجمة السريانية والترجمة العربية . وتعرف هذه التوراة بتوراة باريس المتعددة اللغات . وعندما نشرت التوراة المتعددة اللغات في لندن استعان مترجموها بتوراة باريس التي كان قد جمعها الصهيوني . والى جانب تأليفه كتاباً في قواعد اللغة العربية الذي يعد من اقـــدم كتب القواعد من نوعه ، فـــان الصهيوني تعامل مـــع زميل لبناني تخرج مـــن مدرسة اللاهوت المارونية في رومة ، واسمه حنـــا الحصروني وباللاتينية (Hesronita) في ترجمـــة مختصر كتاب الادريسي الى اللاتينية بعنوان خـــاطىء Geographia Nubiensis (باريس ١٦١٩) . وكان معـــاونه وخليفته في جمع التوراة المتعددة اللغات ابراهيم الحاقلي (أو الحـــاقلاني وفي اللاتينية Ecchelensis) . وبعد ان تخرج الحاقلي عين استـــاذاً للغة العربية والسريانية في كلية سابينزا ، ثم عين سنة ١٦٤٦ خلفاً للصهيوني في الكلية الملكية في باريس . وقد كان هؤلاء العلمـــاء اللبنانيون مزدوجي اللغة . فانهم كانوا يعرفون ويتكلمون اللغتين معـــاً السريانية والعربية . يقول دي لاروك[٢] الذي زار لبنان سنة ١٦٨٨ انه وجد عدداً كبيراً من الناس في

١ ـ راجع مجلة المشرق ، المجلد الثاني ١٨٩٩ ، ص ٩٣٩ ـ ٩٤٥ ففيها تفاصيل اخرى عن هذه السفرة .

٢ ـ De La Roque, vol. I, p. 175 .

لبنـــان في نواحي بشري والحدث لا يزالون يتكلمون السريانية . ويقول افرنسي اسمه دي شاستي (De Chasteuil) جاء بيروت سنـــة ١٦٣٢ انه وجد اهل حصرون واهدن لا يزالون يتكلمون السريانية . وقد انضمّ هذا الافرنسي الى دير في وادي قاديشا ومات هناك بعد مضي اربع عشرة سنة لمجيئه[١] . حتى انه في زمن متأخر نسبياً ، في سنة ١٨١٠ على ما يروي الرّحالة السويسري بوركهرت ، الذي درس العربية في حلب ، انه وجد كثيرين من الموارنة يتكلمون السريانية وقـــد لاحظ ان جميع الاسماء المكتوبة على الاكياس الصغيرة المعلقّة في كنيسة قزحيا والتي فيها بيض دود الحرير مكتوبة بالاحرف السريانية[٢] . واثناء اقامته في رومة حاول الحاقلي ان يفاوض البابا لعقد معاهدة مع الامير فخر الدين . والى جـــانب تأليفه كتباً تعنى بخدمة القداس (الليترجيا) فان الحاقلي نشر سنة ١٦٢٨ في رومة كتاباً في صرف السريانية ونحوها . وبعد ثلاث عشرة سنة وضع وهو في باريس كتاباً في الاخلاق استمدّ فيه آراءه من مختلف المصادر . وفي سنة ١٦٥١ اصدر في باريس ترجمة لاتينية لتاريخ ابن الراهب المصري ، وهو راهب قبطيّ . اما ترجمته كتاب الزرنوجي في التربية (البداغوجيا) فقد نشرت في زمن لاحق (اترخت، ١٧٠٩) وقد نقش اسم الحاقلي والصهيوني الى جـــانب اساتذة آخرين عند مدخل المعهد الذي علمّوا فيه .

وقد خلف الحاقلي كاستاذ وكترجمان لمجمع الدعاية Congregation of The Propoganda ابن اخيه ، مرهج ابن نمرون (Faustus Naironius ١٦٣٠ – ١٧١١) . ولد مرهج في بان وهي بلدة تقع في وادي قاديشا قبالة قنّوبين . وقد جاء به عمّه الى روما حيث تابع دراساته العاليـــة . وقد اشتغل مرهج في نشر الاناجيل باللغة السريانية والعربية . واصدر كتاباً في تاريخ الموارنة عنوانه اللاتيني: *Dissertatio de origine, nomine, ac religione Maronitarum* (Rome, 1679). وكانت لغة بلدته بان اذ ذاك السريانية .

١ – De La Roque, vol. II, pp. 151, 157—8 .

٢ – Burckhardt, p. 32 فيليب حتي : اللغات السامية المحكية في سورية ولبنان(بيروت ١٩٢٢) ص ٣٠—٣٥ . اما حفظ بيض دود الحرير في كياس من الشاش الابيض وتعليقها في الكنيسة للتبرك اثناء الشتاء وفي مكان عال بارد ، فعادة لبنانية قديمة ولا تزال الى يومنا هذا (م) .

١ – De La Roque, vol. II, p. 106 .

السمعاني

كان يوسف سمعان السمعاني (Assemani ١٦٨٧ ـ ١٧٦٨) من المع العلماء الذين خرجتهم مدرسة اللاهوت المارونية في رومة واشهرهم. كانت عائلة السمعاني من حصرون . وقد نبغ من هذه العائلة عدد من العلماء الذين درسوا في رومة . اما يوسف فقد ولد في طرابلس وذهب الى رومة وهو بعد في الثامنة من عمره. وفي رومة عاش وفيها مات . واليه يعود الفضل في جعل مكتبة الفاتيكان التي كان ناظرها ومدبرها اغنى واعظم مكتبة في العالم بالمخطوطات الشرقية . وقد قام بسفرتين الى الشرق طلباً للمخطوطات . وقد غرق مركب عليه بعض هذه الكنوز الشرقية في عاصفة وهو في طريقه الى ايطاليا . وقد ضمّن ابحاثه ودراساته لهذه المخطوطات السريانية والعربية والعبرية والفارسية والتركية والحبشية مؤلفاً ضخماً عنوانه « المكتبة الشرقية » *Bibliotheca Orientalis* (اربعة مجلدات ، رومة ١٧١٩ ـ ١٧٢٨) ولا يزال هذا المؤلف مصدراً اولياً قيماً للمعلومات التاريخية التي تتعلق بالكنائس الشرقية وتاريخها. وكان ملك نابولي وصقلية قد عين السمعاني مؤرخاً لمملكته وجعله مواطن شرف . وقد ألف السمعاني تاريخاً لهذه المملكة في اربعة مجلدات. وفي سنة ١٧٣٦ اوفده البابا الى المجمع الكنسي الذي عقد في اللويزة (لبنان) . وكان ممثل مطران طرابلس في هذا المجمع الكنسي مخائيل الغزيري (Casiri ١٧١٠ ـ ١٧٩١) . ولد مخائيل في طرابلس ودرس في رومة ، ثم اصبح ناظر مكتبة الاسكوريال في اسبانية . وقد عهد اليه ان يدرس ويفهرس المخطوطات العربية ، وعددها ١٨٠٠ مخطوطة . وقد قام بهذا العمل واصدر فهرساً في مجلدين (مدريد ، ١٧٦٠ ـ ١٧٧٠)[١] .

---

١ ـ اذا اراد القارىء المزيد عن اولئك العلماء اللبنانيين الذين درسوا في رومة عليه ان يراجع :
De La Roque, vol. II, pp. 98 - 110 .
(ان هذا المؤلف زار الدويهي سنة ١٦٩٠ واقام عنده ضيفاً في قنوبين. وراسل ابن نمرون).
الدبس، الجزء ٧ ، ص٢٩٩ وما يليها ، والجزء الثامن ، ص٥٤٧ وما يليها . (وبعض المواد التي ذكرها الدبس في مؤلف خاص عنوانه : الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، بيروت ١٩٠٥)،
K. T. Khairallah, *La Syrie* (Paris, 1912) pp. 32 - 42; Ristelhueber pp. 106 -- 14 .

المجمع الكنسي اللبناني الذي انعقد في سيدة اللويزة

كان دير سيدة اللويزة الواقع على هضبة رائعة تشرف على مصب نهر الكلب مقر انعقاد المجمع الكنسي الذي قرر نهائياً اتحاد الكنيسة المارونية بالكنيسة الكاثوليكية في رومة . ولقد جاء انعقاد المجمع هذا نتيجة حركة بدأت قبل هذا الموعد بستة قرون غايتها ضم الكنيسة المارونية الى كنيسة رومة . وقد كان هذا المجمع اكثر من مجمع كنسي بمعنى انه كان اجتماعاً قومياً يضم علمانيين من مشايخ آل الخازن وممثلين عن الطوائف الشرقية الاخرى . وقد اشترك فيه ثلاثة عشر مطراناً . وكان اساس البحث في المؤتمر رسالة بابوية ترجمها السمعاني الى العربية . وقد اقر المجمع الاعتراف بالمجامع الكنسية السابقة ، والايمان بان الروح القدس منبثق عن الآب والابن ، وتبنى قانون الايمان الروماني على طريقة السؤال والجواب ، وادخل اسم البابا في خدمة القداس ، وحصر الزواج بالرتب الكهنوتية الدنيا ، وحرم سكنى الرهبان والراهبات في دير واحد ، وسمح باستضافة الرهبان والراهبات لا العلمانيين وقرارات هذا المجمع التي يمكن اعتبارها الى حد بعيد اعادة صياغة للقرارات التي كانت قد اتخذت في المجمع الذي عقد من قبل في قنوبين بمثابة تنظيم للكنيسة المارونية كما نعهدها في يومنا هذا [١] . وقرر المجمع ايضاً اعادة النظر في القوانين الكنسية التي لها علاقة بالاحوال الشخصية التي كان قد وضع اساساً لها الراهب الماروني عبدالله قرألي الحلبي في مؤلف حول هذا الموضوع . وكان هذا الراهب قد انتقل الى لبنان في منتصف القرن السابق .

وقد مثل البابا في المجمع الذي عقد سنة ١٥٩٦ في قنوبين يسوعي ايطالي اسمه دنديني . ويبدو من التقرير الذي رفعه الى قداسة البابا عن المجمع انه تم الاتفاق على بعض المعتقدات ، وعلى ان يحتفظ الموارنة بطقوس خدمة القداس (الليترجيا) السريانية وعلى ان يحتفظوا بايام اعيادهم وقديسيهم والسماح لكهنتهم بالزواج وبتناول العشاء الرباني على الطريقتين [٢] .

١ ـ راجع ابو خطار في مجلة المشرق ، المجلد ٤٦ ، (١٩٥٢) ص ٥٣٦ وما يليها . باخوس الفغالي في المشرق ، المجلد ٤٥ ، (١٩٥١) ص ٢٤٤ ـ ٢٧٥ . الدبس ، جامع ، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٦ .

٢ ـ Dandini, pp. 59 seq.

وقد وصف لنا دنديني[١] الحياة الاجتماعية المارونية عند منصرم القرن السادس عشر يقول لنا انه كان مجتمعاً لا اثر فيه للدعارة ، ولا يسمع فيه احد شيئاً عن الزنا او الجرائم الجنسية . فان الصغار يتزوجون بين سن الرابعة او الثانية عشرة . والنساء على كثــير من الدماثة والاحتشام ، ولا تختلف البستهن عن البسة النساء الايطاليات. واذا التقت المرأة برجل لا تعرفه فانها تميل عنه ببصرها او انها تغطي وجهها بحجاب ، ويعتمّ الرجال بعمائم مقلّمة ، ولكن لا يحق لهم ان يعتموا بالعمائم الخضر فان اللون الاخضر من لبس الاسياد من آل البيت . ومستوى الاستقامة والامانة لا يقل شأناً عن مستوى الاخلاق عندهم . اما الكتب الصالحة الفاضلة فقليلة ، ولكن ليس عندهم كتب رديئة ــ « نسطورية او يعقوبية »ـفان اليعاقبــة وحدهم ادخلوا الى البلاد حوالي خمسين حمل بغل من كتبهم .

وقد قبل الموارنة ، قبل اتحادهم مع كنيسة رومة وبعده ، برحابة صدر وكرم ضيافة ، عدداً كبيراً من اللاجئين الذين كانوا يتركون كنائسهم اي الكنائس التي كانت تستخدم اليونانية والسريانية والارمنية في خدمة القداس . وكان اكليروس الموارنة يرحبون بالطلاب من هــذه الكنائس ويفتحون لهم ابواب معــاهدهم اللاهوتيــة . وكان مشايخهم وامراؤهم ، لا سيما آل الخازن ، يعطون هؤلاء النازحين ارضاً ويساعدونهم في تنظيم استيطانهم الجديــد . وهكذا كان الموارنة باتباعهم هذه السياسة الرشيدة يقرّبون وجهــات النظر المتباينة ، ويعملون على التوفيق بين مختلف الكنائس وبين الفاتيكان[٢] . واما رهبناتهم فانهــا كانت قد تنظمت في زمن مبكر، حوالي سنة ١٦٩٤ وهكذا نشأ في شمال لبنان وفي كسروان جاليات من الكاثوليك السريان والروم الارثوذكس والارمن حيث لا يزالون الى يومنا هذا .

جنوب لبنان

لقد برز اسم لبنان الشمالي ، بفضل علاقاتــه مع ايطاليا وفرنسة ، في المحافل

١ – Dandini, pp. 27, 30, 47 seq.

٢ – Pierre Raphael, *The Role of the Maronites in the Return of the Oriental Churches* (Youngstown, 1946), pp. 32-3, 37-8, 41-2, 88.

الدولية . اما لبنان الجنوبي بدروزه وشيعيّيه فقد ظل بلداً مغموراً . فلم يسترع انظار الرحالة الاوروبيين، ولم يسجّل لنا احد من اهليه شيئاً عن الحياة فيه . غير ان هنالك حقيقة واحدة جليّة : كان النصارى والدروز والشيعة يعيشون معاً بانسجام وصفاء . .

وقد دهش ڤرلني[١] ، وهو كونت وعالم افرنسي ، من شدّة الشبه بين الدروز والموارنة في اساليب العيش ، وفي نظام الحكم وفي اللهجة وفي العادات والآداب العامة . فان عائلات درزية ومارونية تعيش جنباً الى جنب متصافية متوادة. واحياناً يصطحب الموارنة جيرانهم الدروز الى الكنائس . ويؤمن الدروز بفعل الماء المقدس الذي يصلي عليه الكاهن . واحياناً اذا الحّ المبشّر في تبشيره للدرزي فقد يقبل الدرزي سرّ المعمودية . وقد لاحظ ماريتي[٢] الراهب الايطالي الذي زار البلاد سنة ١٧٦٠ قبل مجيء ڤولني بقليل ، ان الدروز « يظهرون خالص الودّ والاحترام للنصارى ويحترمون دينهم . والدرزي يصلي في كنيسة للروم الارثوذكس كما يصلي في مسجد تركي » . ويتقلد الدرزي سلاحه دوماً وهو كناية عن طبنجتين وخنجر تتدلى من زناره . ولا يزال الدروز الى يومنا هذا يشتركون مع جيرانهم النصارى في كثير من الاحتفالات والاعياد . ولهذا مغزاه العميق . ويقول فريدريك بلس[٣] ان الدروز لكي يتخلصوا من الخدمة العسكرية التركية كانوا يعلنون انهم بروتستانت . ويؤكد ضابط افرنسي[٤] كان مقرّ خدمته في حوران ان العائلات الدرزية الارستقراطية اذا فقدت طفلا أو اكثر فانهم يعمدون الطفل الذي يولد بعده . وقد عُمِّد الابن الثاني لسلطان الاطرش سنة ١٩٢٤ . وقد تكون ممارسة هذه التقاليد نوعاً من التقية ، وقد يكون ان الذين يمارسونها يعتقدون بان لها اثراً سحرياً يعود عليهم بالنفع . ولا يزال الدروز

---

١ — Volney, vol. II, pp. 31, 57, 68.

٢ — Mariti, vol. II, p. 25.

٣ — Frederick J. Bliss, *The Religions of Modern Syria and Palestine* (New York, 1912) pp. 318 - 319; cf. Isaac Riley, *Syrian Home-life* (New York, 1874), p. 181.

٤ — N. Bouron, *Les Druzes: histoire du Liban et de La montagne haouranaise* (Paris, 1930), pp. 299, 315.

والنصارى يشتركون في تقديس بعض المزارات المقدسة عند كلا الطائفتين. وليس بمستغرب ان يتبرع درزي يقطن قرية اكثر سكانها من النصارى بالمال لكنيسة القرية . وفي لبنان اشجار قديمة يتبرك بها الدروز والنصارى على السواء ، وذلك بتقديم التقدمات التي تتخذ في يومنا هذا شكل خرق من القماش تعلق في اغصانها . ومن هذه الاشجار شجرة سنديان قديمة في عاليه ظل النصارى والدروز يعلقون فيها خرقاً الى زمن قصير جداً ولا شك في ان هذه عادة سامية قديمة (تكريم الاشجار وعبادتها) تعود الى ازمنة بعيدة قبل ظهور المسيحية أو الدرزية .

نظام المجتمع الديني والاجتماعي عند الدروز

ان التقارير والملاحظات المقتضبة التي خلفها لنا الرحالة الاوروبيون عن الدروز وعن حياتهم الاجتماعية والدينية تدل على ان النظام الديني والاجتماعي الذي كان معمولا به في عهد المعنيين والشهابيين هو النظام الديني والاجتماعي ذاته، في عصرنا هذا . فلم يكن الدروز يصومون شهر رمضان ، ولا كانوا يحجون الى مكة ولا يحضرون صلاة الجمعة . ولا يسمح بتعدد الزوجات فان الدرزي يتزوج امرأة واحدة . اما الطلاق فامره في يد الرجل ، وليس بالعسير عليه ان يطلق امرأته حين يشاء . وللرجل الدرزي ، كما للرجل النصراني . ان يوصي بماله كما يشاء . وهذا ما لا يجوز في الاسلام . للمسلم ان يتصرف بما لا يزيد عن ثلث ماله . ويوزع الثلثان الآخران حسب نص القرآن الكريم . اما طبقة رجال الدين عند الدروز فتتألف من ثلاث فئات هي : المجربون وهم الذين يستعدون لتقبل اسرار الدين ، ثم العقال ، ثم الاجاويد (ومفردها جويّد) وجميعهم يلقبون بالمشايخ وعلى اصحاب الفئة الاولى ان يلبسوا لفة صغيرة من الشاش الابيض على الطربوش . والعقال الراسخون في علوم دينهم يعلمون الصغار ويقومون بمراسيم الزواج والموت . وفي اجتماعاتهم العامة التي يحضرها الجهال منهم يشدد العقال في تعليمهم ووعظهم على التمسك بالفضائل واطراح الرذائل كالسرقة والزنا والسكر والكذب . والعاقل الدرزي لا يدخن ولا يبدي شيئاً من تمرد او نم . ويترفع عن الاغتياب والنميمة . واذا صدف ان احد العقال اتى كبيرة كالسرقة او الزنا فانه يطرد من الجماعة . وارفع مرتبة يصبو

العاقل الى الوصول اليهـا ان يكون في عداد النخبة الصالحة من الاجاويد الذين يمكن تمييزهم عن سائر الاجاويد باللفة المبرومة والثياب السوداء او الزرقـاء تحت العباءة الصوفية البيضاء المقلّمة بقلم اسود وبنوع العكاز الذي يتوكأ عليه .

والمكان الذي يجتمعون فيه للصلاة بناء على غاية من البساطة والتقشف لا صور فيه ولا مناضد ولا مقاعد بل حصر او بسط او جلود غنم او ماعز مدبوغة تغطي ارضه حيث يتربعون على الطريقة الشرقية . وعندما يصفق اكبر العقال سناً بيديه يخرج جميع الجهال من قاعة الاجتماع . ويعقدون اجتماعاً للصلاة نهار الخميس ليلا في خلواتهم التي يبنونها على رؤوس الهضاب أو عند السفوح المشرفة . في هذه الخلوات يعقدون اجتماعاتهم السرية التي لا يجوز للجهال ان يحضروها . في سنة ١٥٢٤ هاجم والي الشام المنطقة الدرزية في لبنان واحرق ثلاثا واربعين ضيعة من الضيـاع التي كانت ترأسها بلدة الباروك ، ونهب خلواتهم وعاد الى دمشق بعدد من كتبهـم المخطوطة المقدّسة وباربعة احمال من الرؤوس البشرية ليعلقها على اسوار القلعة في عاصمته[1] . والغزوة الثانية التي حلت بالدروز كانت في ايام ابراهيم باشا المصري ، بعد غزوة والي الشام بثلاثة قرون . فانه هاجم شبعا التي تقع جنوبي شرقي حاصبيا ونهب خلوتها التي تعد من اقدم خلوات الدروز ومن اعظمها احتراماً وتكريماً ، وحمل معه مخطوطاتها التي استقر بعضها في مكاتب مصر والبعض الآخر تسرب الى اوروبة ، وبهذا تعرف الناس الى اسرار الدين الدرزي ، تلك الاسرار التي حافظوا عليها بدقة وسرية لا مثيل لهـا في تاريخ الاديان . وللنساء الصالحات ان يحضرن الاجتماع انما يجلسن في مؤخرة القاعة وراء حجاب يفصل بين الرجال والنساء . وهذه الاجتماعات السرية التي تعقد للصلاة ليل الجمعة كانت مثار اتهامـات شتى رمي بها الدروز كما رمي بها جماعة ماني والنصارى في عهدهم الأول . فيقال مثلا ان في هذه الاجتماعات اباحية وعربدة ، وانهم يقدمون الضحايا البشرية او انهم يقدسون صورة العجل وجميعها افتراءات لا صحة لها .

وبعض الاجاويد يعيشون عيشة تصوّف وزهد في خلواتهم بالرغم من ان هذا الاسلوب في العيش لا يعرف عندهم بالتصوّف . وقـد تكون عيشة الزهد التي

١ ــ المنجّد ، صفحة ٦ .

يعيشها الاجاويد في عزلتهم اشدّ ارهاقاً للجسد واعمق تأملا في الامور الروحية من حياة الرهبان في اديرة الروم الارثوذكس او الروم الكاثوليك . وعلى سفح من سفوح جبل الشيخ على هضبة فوق حاصبيا تطل على مهـد الدرزية في وادي التيم تقوم خلوة تعرف بخلوة البياضة . وهي اشهر خلوات الدروز واقدمها عهداً. في هذه الخلوة يجتمع كل يوم قرابة عشرين مريدا لتلقي التعليم وللصلاة والتأمل الروحي . ويشرف على تعليمهم وادارتهم اربعة او خمسة من افاضل الاجاويد . وليس على هؤلاء الطلاب المريدين ان ينذروا انفسهم ولا ان يمتنعوا عن الزواج ولا ان يهجروا العالم . هذه الجمـاعة المتقشفة تعيش على ريع الاوقاف التي تخص الخلوة . ولذا فانهم يحرثون ويزرعون . ثم انهم ينسخون نسخاً من كتبهم المقدسة لتهدى ، لا لتباع ، الى الطلاب الجدد . واذا سافروا ساروا على الاقـدام او ركبوا حماراً . ويتحاشون الوظائف الحكومية . والمحافظون منهم لا يأكلون من طعام موظّف في الحكومة. وبعضهم يسرف في محافظته فلا يأكل من بيت درزي اذا كان من الجهّال[1] .

المتاولة

ان حجباً كثيفة تحجب عنا حيـا ة الشيعة في لبنان . ولكن من وراء هـذه الحجب تبرز امامنا ناحية مشرقة لها مغزاها البعيد ، وتدل على ان هـذه الجالية لم تقطع اسباب العلم بل انها احتفظت به على صعيد عال. عند منصرم القرن السادس عشر عندما جعل الشاه اسماعيل ، مؤسس الدولة الصفوية في ايران ، دين الدولة الرسمي المذهب الشيعي وجد انه من العسير ان يوفّر للناس أئمة يعلمون الناس حقيقة المعتقد ويرسخون مبادئه في نفوسهم . ووجـد ايضـاً ان الكتب غير متوفرة . فعمد الى ملء الفراغ باستحضار علماء الشيعة من لبنان . وقد غادر لبنان جمهور من اولئك العلماء وذهبوا الى ايران بدعوة او بغير دعوة . وقد كان من جملة من ذهب حسين العاملي الذي غادر جبل عامل عندما قتل الاتراك استاذه زين الدين الذي اصبح يعرف بين قومه بالشهيد الثاني .

---

١ ـــ للمزيد من المعلومات عن الحياة الدينية عند الدروز راجع Bouron , pp . 288 seq.

وكان الشهيد الاول شمس الدين العاملي الذي قتل في دمشق سنة ١٣٨٤ بموجب فتويين اصدرهما القاضي المالكي والقاضي الشافعي . وكان حسين قد اخـــذ معه ابنه الاصغر بهـــاء الدين العاملي (١٥٤٦ ـ ١٦٢٢) ، الذي ولد في بعلبك ، المدينة التي لا تزال الى يومنا هذا بلداً شيعياً. وقد فاق بهاء الدين اباه علماً وشهرة. فانه كان فقيهاً وفيلسوفاً وعالماً في الرياضيات . وكان الفرس يعرفونه « بشيخي بهائي » وقد رفع الى رتبة شيخ الاسلام في اصفهان حيث كان من المع الشخصيات في بلاط الشاه عباس . وعندما عـــاد من الحج عرّج على جبل عامـــل ، موطنه الاوّل، متخفياً بزيّ احد الدراويش . ومن الكتب التي اشتهر بهـــا كتاب ضمّنه فتاوي واحكاماً شرعية وبه عرف بين الناس . وبالاضافة الى هـــذا الكتاب فانه ألّف كتاب الكشكول وهو كتاب جامع فيه الاخبار والنوادر والادب . وهو اشبه بمفكرة ادبية . وقد طبع الكتاب في مصر . ومنه طبعة على الحجر طبعت في بلاد فارس[١] .

١ – Edward G. Browne, *A Literary History of Persia,* (Cambridge, 1930) vol. IV, pp. 54, 253, 360, 406, 427.

الفصل الثامن والعشرون

القرن التاسع عشر : قرن تغيير وتحول

لما أمر طاغية عكا ، احمد باشا الجزار سنة ١٧٨٨ وجهاء لبنان ان ينتخبوا الامير بشير الشهابي الثاني ، وكان في الحادية والعشرين من سنه ، وهو احد اقارب الامير يوسف الشهابي الذي قتله الجزار في سجن عكا ، نقول ان طاغية عكا لم يكن يدري ، ولا كان الوجهاء الذين انتخبوا الامير بشير يدرون ، أي حاكم سيكونه هذا الامير الجديد المنتخب . فانه لم يطل الزمن حتى أدرك احمد باشا الجزار ان الامير بشير لم يكن بالحاكم الذي يتلقى التعليمات . وادرك المشايخ والمقاطعجية والوجهاء ان سلطتهم ستزول عندما يتسلم اميرهم الجديد سلطاته كحاكم على لبنان .

الامير بشير البنّاء الثاني للبنان الكبير

لقد برهن الامير بشير الثاني في حياته السياسية انه خير وريث لفخر الدين المعني الثاني . فان طموحه وأهدافه والسبل التي سلكها في سبيل تحقيقها صورة طبق الأصل لحياة سلفه السياسية . انما كان يختلف عنه جسماً وهيأة . كان المعني كما قلنا سابقاً ، رجلا قصير القامة لا يفرض على الناس هيبته ، بينما كان الشهابي يبعث في نفوس الناس الهيبة والاحترام . كان اشبه ببطريرك جليل الوقار ذي حاجبين ثخينين متدليين فوق عينيه البراقتين اللتين تنبعث منهما نظرات نافذة . وكان له لحية عظيمة متموجة تبعث على الاحترام . وقد روي عنه انه حينما كان في منفاه أراد المثول أمام السلطان . فأمر السلطان جلساءه ان يظلوا جالسين عندما يدخل هذا العامل الذي خالف الأوامر السنية . ولكنه عندما دخل عليهم وجدوا انفسهم بدافع لا شعوري واقفين هيبة واجلالا[1] وكانت مدة ولايته التي زادت

---

١ - راجع بطرس ف. صفير : الامير بشير الشهابي (بيروت ١٩٥٠) ص ١٣ .

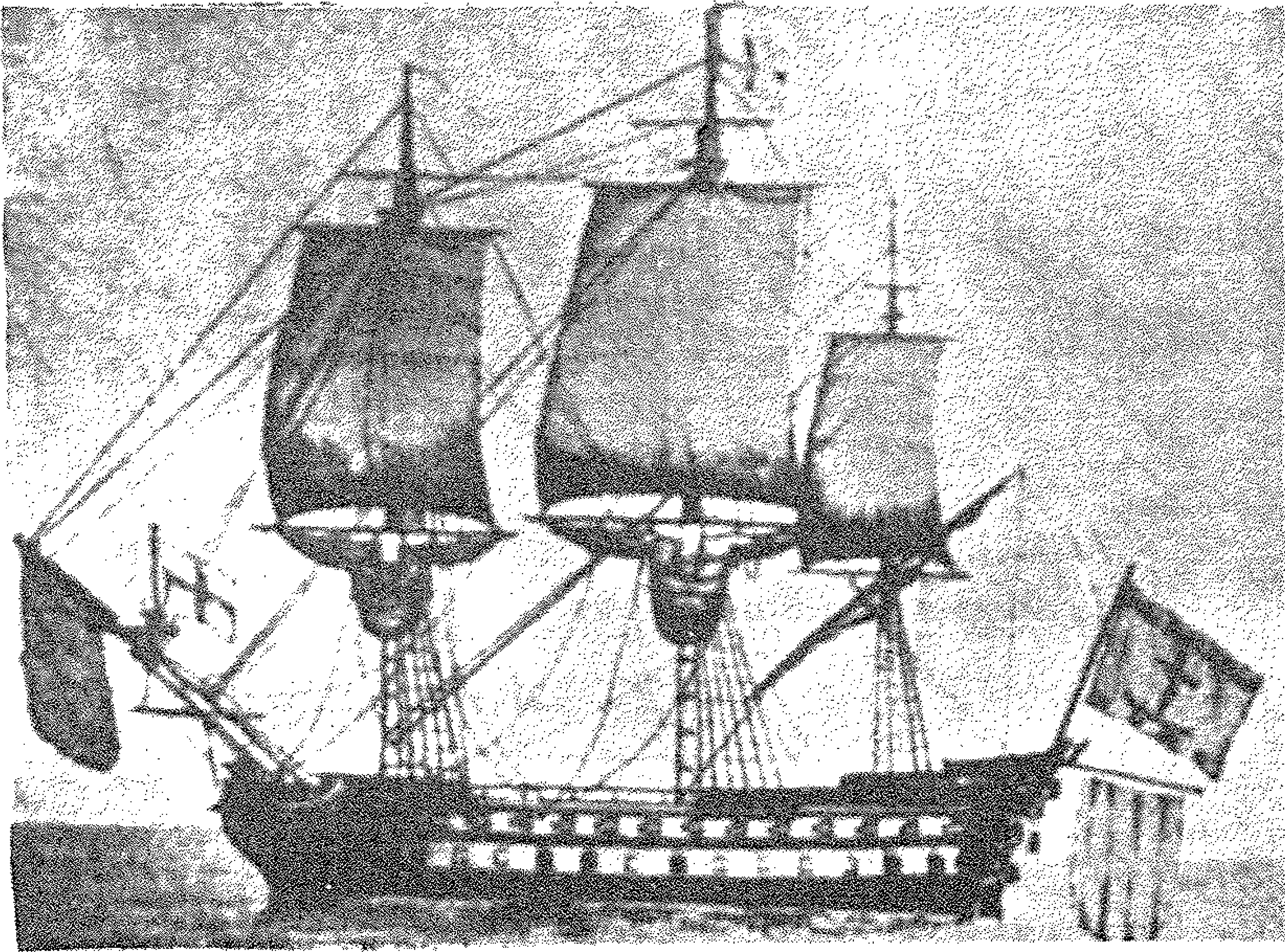


الامير بشير الشهابي الذي حكم لبنان من ١٧٨٨ ـ ١٨٤٠

على نصف قرن (١٧٨٨ـ١٨٤٠) فترة مضطربة متقطعة تعاقبت فيها الأحداث. فقد نفي نفسه أو نفي اربع مرات . ولكنها كانت ولاية تتميز بالسعي الدائم لتوسيع حدود لبنان ولتثبيت استقلاله ، ولتحدي سلطة الباب العالي ولادخال المدنية العصرية واساليب الرقي الى البلاد . فكان بدهائه يتجنّب شر الولاة العثمانيين المجاورين له . وكان يسخو في رشوة حكام الاستانة الذين كانوا يوجسون منه خيفة . اما معاملته للمقاطعجية الدروز والنصارى فكانت معاملة قاسية لا هوادة فيها . فقد كان يشعر ان هؤلاء المشايخ والاعيان الذين اوجدهم اسلافه قد

اصبحوا من القوة والمنعة ما يستحيل معه فرض سلطة حاكم قوي عليهم .

كان اول محك لحنكته السياسية عندما وقف نابليون سنة ۱۷۹۹ امام عكا محاولا دكّ اسوارها الحصينة . فلما طلب الجزار اليه ان يهبّ الى نجدتــه تذرّع الامير ان لا سلطة له على المشايخ والأعيان (ذلك ان الجزار كان قد أثار مشايخ الدروز ضده ، لا بل عين ابني للامير يوسف مكانه[١]). أما إزاء نابليون فانــه اتبع سياسة الانتظار والترقب[٢] . ذلك ان نابليون كــان قد ارسل رسالة الى الدروز ــ وقد استعمل في هذه الرسالة « الامة الدرزية » ــ تعهد لهم بموجبهــا بالاستقلال وبتخفيف الضرائب عن كواهلهم ووعدهم بأن يعطيهم ولاية بيروت وموانيء اخرى ذات اهمية لسلامة مواصلاته البحريه ولتجارته . لكن نداء نابليون لم يلق اذناً صاغية ولم يستجب له سوى بعض الناقين الموتورين وجلهم كانوا من



سفينة حربية تركية : « كوروريا عثمانية » ومجهزة بسبعين مدفعاً .
وهي تمثل نوع السفن الحربية التي كانت تبنى في القرن الثامن عشر .

١ ــ باسيليوس قطان : مصادر تاريخية لحوادث لبنان وسورية (بيروت ١٩٢٩) ص ١٥٨، ١٦٠
٢ ــ يستطيع القارىء ان يجد نص الرسالة في :
de Testa, vol. I, p. 576; cf. de Lamartine, vol. I, pp. 206-7 .

الشيعة . أما موقف الامير بشير ازاء الصدر الاعظم الذي قدم سورية على رأس جيش من تركيا لايقاف الغزوة الافرنسية فقد كان موقف ولاء وخضوع . فان الامير قدّم له الخيل في حماة ، والحنطة في دمشق وكان مستعداً ان يضع اهراء الحنطة في بعلبك والبقاع تحت تصرف الجيش التركي . فجاءته المكافأة على الفور ، وكانت مكافأة سخية . فقد استصدر الصدر الأعظم فرمانا عيّن بموجبه الامير بشير حاكماً « على جبل الدروز ووادي التيم وبلاد بعلبك والبقاع وجبل عامل ومنطقة جبيل » واعطاه صلاحية ان يخابر الباب العالي مباشرة[١]. ولكن الجزار لم يكن ذلك الرجل الذي يستطيع ان يتغاضى عن الاساءة ، ولم يكن ذلك الرجل الذي يلين جانبه ، لا سيما الآن بعد ان كلل هامته بهالة النصر على جيوش نابليون . فخشي الامير على نفسه وطلب من قائد الاسطول الانكليزي السير سدني سمث ان يقلّه الى العريش لمواجهة الصدر الاعظم . ومن هناك توجه الى قبرص وعاد الى لبنان بعد غياب استغرق بضعة اشهر[٢] . وكانت السفن الحربية التركية تعاون الاسطول الانكليزي في جلاء الفرنسيين عن مياه شرقي المتوسط .

بموت الجزار سنة ١٨٠٤ ازيلت العقبة الرئيسية التي كانت تعترض سبيل الامير بشير لتحقيق اغراضه . فانه وجد نفسه الان طليقاً في سحق اعدائه في الداخل وفي تركيز السلطة في يده وتوحيد ممتلكاته وتثبيت الحكم فيها . اما منافساه ، ابنا الامير يوسف الشهابي، فقد قتلهما بعد ان فقأ عيونهما . وقد نشر لواء العدل بين الجميع . والاقاصيص اللبنانية تعج باخبار الامير وطريقة ملاحقته المجرمين والاقتصاص منهم . يقال ان احد عابري السبيل وجد قتيلا بالقرب من مصب نهر الدامور . فارسل الامير رجلين من رجال التحري في خدمته وطلب اليهما ان يقيما هناك متخفيين لكي يكتشفا المجرم. ويروى انه بعد مرور ثمانية اشهر وهما مختبئان وراء شجرة سمعا في الليل مكاريين يتسامران ويتباهيان ان احداً من الناس لم يكتشف بعد جريمتهما ، فاقتاداهما الى الامير . وقد ورد في قصة ثانية ان رجلا من رجال الامير ذهب يقتفي آثار مجرم لجأ الى قبرص . فصادق الرجل وشاركه

١ ـ حيدر ، لبنان ص ١٩٥ . قطان ص ١٥٧ .

٢ ـ حيدر ، لبنان . ص ٢٠١ وما يليها . Churchill , *Lebanon* , vol . 111, pp . 196 - 8 ,

في تجارته . فركبا مرة السفينة في طريقهما الى الاسكندرية بطريق بيروت وعندما وصلا مدينة بيروت القى عليه القبض وسلمه الى الامير ومرة مرّ الامير بشير في قرية بالقرب من دير القمر ، مقر ولايته ، فرأى امرأة تبكي زوجها القتيل وتولول . فجمع الامير ابناء القرية وقال لهم : « ان لم تسلموا القاتل خلال يومين فاني ساشنق منكم اناساً بعدد اوراق شجرة السنديان هذه التي تظللنا .» وعندما عاد الى القرية وجد ان الاهالي كانوا قد اكتشفوا القتلة : الامرأة ذاتها التي كانت تولول ورجلين آخرين تآمرا معها على قتل زوجها . فسلموهم الى الامير[١] . واحتفظ لبنان في عهده بطابعه المميز له : ملجأ كل ملهوف ومظلوم . فانه دعا اربع مئة عائلة درزية مضطهدة كانت تقيم في منطقة حلب للاقامة في لبنان . وقدم لهم العون الاقتصادي وساعدهم على ان يستقروا وينظموا شؤون عيشهم . وفي لبنان دروز عديدون يسمّون بالحلبي مما يذكرنا بالبلاد التي جاؤا منها . واقلية اخرى كانت مضطهدة نزحت الى لبنان من مناطق حلب ودمشق ، نعني الروم الكاثوليك الذين استقروا في دير القمر وزوق مخائيل وفي قرى مسيحية اخرى . وفي سنة ١٨٠٧ شعر القنصل البريطاني في حلب ان العلاقات السياسية بين انكلترا والباب العالي قد تردّت وان التمثيل السياسي سيقطع قريباً . ففر من حلب مع امرأته الحامل فاستضافه الامير في دير حريصا . وقد حاول قنصل فرنسة في بيروت وزميله في طرابلس ان يخرجاه من ملجأه في حريصا ولكن الامير لم يستجب لهما[٢] ،

كانت سياسة الامير بشير مع الموظفين الاتراك سياسة حزم وشدة ولكن بكثير من الدربة واللياقة . ففي سنة ١٨١٠ ، مثلا ، عندما خرج الوهابيون بجموعهم من قلب الصحراء في الجزيرة العربية وانقضوا على البلدان المجاورة على حين غرة واعملوا فيها السيف والنهب ، هب الامير بشير على رأس ١٥ الف مقاتل لمساعدة الاتراك في حوران وشرقي الاردن لصد الغزو الوهابي[٣] . وفي مناسبة اخرى

١ — صفير ، ص ٧٦ وما يليها . Churchill, *Lebanon*, vol . 111, pp . 274-8

٢ — John Barker, *Syria and Egypt under the Last Five Sultans*, (London,1876),vol . 1 , pp . 99-108 .

٣ — حيدر ، لبنان ، ص ٥٥٦ — ٥٥٧ .

اسرع الامير بشير الى معاونة الاتراك في الاستيلاء على قلعة بالقرب من نابلس تعرف بقلعة سانور كان العصاة من نابلس وضواحيها قد تحصنوا فيها . وفي السنة التي وقعت فيها حرب الوهابيين كان المستشرق بوركهرت الذي كان يحسن العربية ويلبس اللباس الوطني يجوب لبنان من شماله الى جنوبه . واليك ما يقوله عن حسن الضيافة اللبنانية :

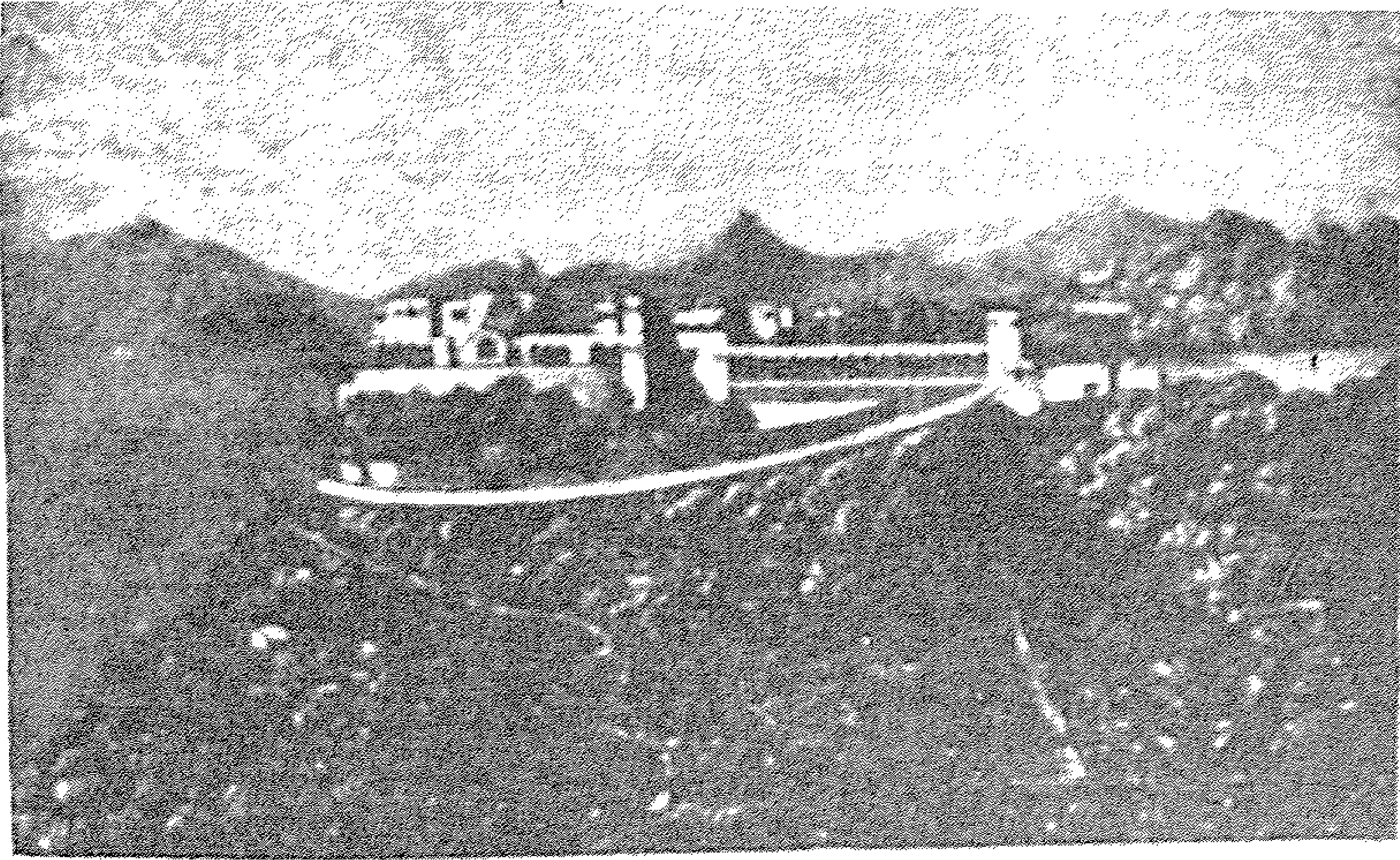
« عندما يسافر اللبناني الجبلي من مكان الى آخر فانه لا ينفق بارة واحدة على مأكل او مشرب او مبيت . عندما يصل المسافر الغريب الى قرية ما فانه يذهب الى بيت احد الاصدقاء او المعارف اذا كان له في القرية اصدقاء او معارف ، ويقول لصاحب الدار : « نحن ضيوفك الليلة ... » فيرحب صاحب الدار به ويقدم له عشاء من حليب او لبن وخبز وبرغل ، واذا كان المضيف على شيء من سعة العيش فانه يقدم علفاً الى دابته . واذا لم يكن للمسافر الغريب من اصدقاء أو معارف فانه يذهب الى بيت ما ويربط دابته بالقرب منه ويدخن غليونه ، فلا يلبث طويلا حتى ينزل اليه صاحب الدار ويدعوه الى بيته ويكرمه ويقدم له العشاء. وفي الصباح يغادر الضيف مودعاً مضيفه بقوله « بخاطركم، عامر »[١] .

كانت حروب الامير بشير ومشاريعه تقتضي زيادة في الضرائب التي كان يجمعها من المدن والقرى والدساكر حتى آخر فلس منها ــ وهو ذاته كان يوماً من الايام جابي الضرائب عند سلفه . وقد علم الناس درساً قاسياً عندما عجزت زحلة عن اداء الضريبة المفروضة عليها . فانه ارغمها على ان تدفعها ضعفين ، مما سبب فقر كثير من الناس وهجرتهم[٢] . ولكن بدت الان غيوم سوداء تتجمع عند الافق منذرة بشر مستطير . فان النقمة عليه وعلى جباته اخذت تزداد حدة الى ان انفجرت اخيراً سنة ١٨٢٠ بشكل ثورة في انطلياس يعرفها الناس « بالعامية » اي ثورة عامة الناس . فرأى الامير بشير انه من الحكمة ان يغادر البلاد الى ان تهدأ العاصفة . فذهب الى حوران . ولكنه لم يفقد شيئاً من نفوذه وسلطته ، بل رجع الى بلاده يدس الدسائس ويتدخل في شؤون سورية وفلسطين ، ويثير والياً

---

١ ــ Burckhardt, p. 24 .

٢ ــ قطان ، ص ١١٥ .

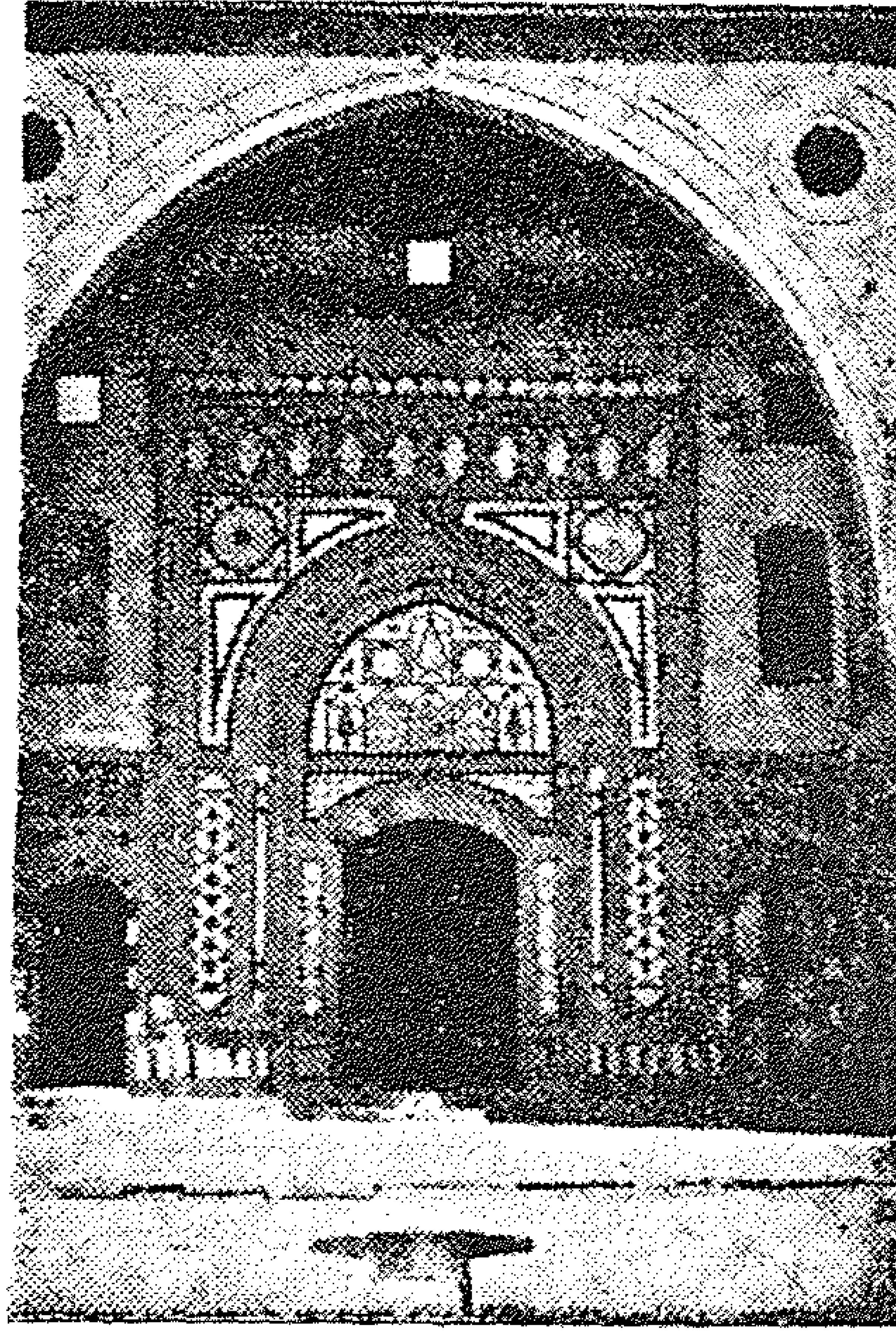


قصر بيت الدين الذي بناه الامير بشير الشهابي الثاني

على والٍ في كل من دمشق وطرابلس وصيدا . ولكن حوالي ١٨٢١ اخطأ التقدير وراهن على الحصان الخاسر . فانه في تلك السنة وقفَ الى جانب والي صيدا ضد والي دمشق . فسار على رأس جيش وهزم والي دمشق هزيمة نكراء في المزة . وعندها غضب الباب العالي وجرد عليه حملة قوية اضطر معها الى الهرب واللجوء هذه المرة الى مصر حيث رحب به محمد علي وهنأه بالسلامة قائلا « انه ما دخل الى الديار المصرية احد اعز منه لدينا[١] » وقد توثقت عرى الصداقة بين هذين الرجلين الكبيرين ، زعيم الجبل وزعيم الوادي . وكان يجمعهما عداؤهما الشديد لعدوهما المشترك : السلطان العثماني . وكان كلاهما يعملان سراً على توسيع ولايتهما على حساب السلطان . وقد توسط محمد علي للامير بشير عند السلطان ليرضى عنه. فنجحت وساطته فعاد الامير مرضيا عنه الى وطنه بقوة وسلطة ابعد مدى من ذي قبل شأنه كل مرة كان يعود فيها الى بلاده .

كانت سياسة الامير بشير في الامور الدينية على كثير من التسامح وسعة الصدر . فقد كان مسيحياً بالمعمودية ، مسلماً بالزواج ، ودرزيا بالمصلحة لا عن اعتقاد . وهكذا استطاع ، كما استطاع اسلافه من الشهابيين ، ان يمهد السبيل للتقدم والرقي . وكان قصره في بيت الدين يحتوي على كنيسة وعلى قول لامارتين

١ ــ حيدو ، لبنان ، ص ٧٢٧ ، الشدياق ص ٥٣٦ .



المدخل الداخلي لقصر بيت الدين

على جامع [١] . وفي عهد امارته تأسس كثير من المدارس والمعاهد الثقافية التي اعطت ثمارها الطيّبة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر اذ ايقظت الحياة الفكرية في جميع انحاء البلاد . وفي السنة الثانية لتوليه الامارة تحولت مدرسة اللاهوت في عين ورقة الى معهد ثقافي عال على نمط الكليات الارروبية ، وذلك بايعاز من غندور السعد كاتم سر سلفه الامير يوسف ، وقنصل فرنسا . وفي معهد عين ورقة هذا درس بعض اعلام الفكر الذين حملوا مشعل اليقظة الفكرية الحديثة امثال يوسف الدبس (١٨٣٣ ـ ١٩٠٧) مطران بيروت ومؤسس الكلية المارونية ومؤلف كتب تاريخية عديدة[٢] ، ورشيد الدحداح (١٨١٣ ـ ١٨٨٩) الذي كان كاتم سر الامير بشير وصحافياً واديباً ، وبطرس البستاني .

وفي شهر حزيران من سنة ١٨٢٣ وصل اول مرسل اميركي الى بيروت .

١ — De Lamartine , vol . 1 , p . 198 .

٢ — ومن مؤلفاته كتابان اشرنا اليهما مراراً في هذا المؤلف : تاريخ سورية في ثمانية اجزاء (بيروت ١٨٩٣ ـ ١٩٠٥) والجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل (بيروت ١٩٠٥) .

واسمه بليني فسك ، موفداً من قبل المجمع الاميركي للارساليات الاجنبية . وكان من رواد الاساتذة الاميركيين في الشرق العربي . وقد خلدت الارسالية الاميركية اسمه بتسمية احدى بنايات الجامعة الاميركية علـى اسمه : بناية فسك . ومـات ودفن في بيروت في مدفن الارسالية الاميركية بالقرب من مكتب المطبعة الاميركية ، وراء الكنيسة الانجلية الوطنية في بيروت . ووضعت هناك بلاطة على قبره كتب عليها « بليني فسك ، توفي في ٢٣ تشرين الاول سنة ١٨٢٥ عن احدى وثلاثين سنة من العمر[١] » ، وفي سنة ١٨٣٤ انتقلت الى بيروت المطبعة الاميركية العربية من مالطة وكانت قد اسست هناك سنة ١٨٢٢ .

وقد اوفد الامير بشير عدداً من الطلاب اللبنانيين ليدرسوا الطب في اول معهد طبي حـديث في الشرق العربي : في القصر العيني الذي اسسه محمد علي على أسس غربية حديثة . وقد عادوا الى وطنهم لممارسة مهنـة الطب فكانوا اول رغيل من الاطباء في لبنـان . ويعزى الى الامير بشير انـه اول من اقام الحجر الصحي (الكرنتينا) على السفن الاجنبيـة التي ترسو في ميناء بيروت . ومن قبيل اجراء التجارب فانه اخضع بعض الناس للتلقيح ضدّ الجدري بلقاح جاء به (١٨١٠) القنصل النمسوي . ثم انـه ارسلهم ليقيموا في القرى الموبوءة بالجدري ليرى اذا كانت العدوى تنتقل اليهم . وعندما تفشى مرض الطاعون في قرية في جوار جزين امر باقامة حصار حولها ومنع الدخول اليها والخروج منهـا[٢] . والواقع ان مثل هذه الاجراءات الصحية ومثل هذا الحفاظ على الصحة العامة لم يكن له ما يماثله في الحكومات المعاصرة للبنان في البلدان المجاورة .

كان دخل الامير الكبير ورغبتـه في الظهور بمظهر العظمـة عاملا في نشاط الاعمال الانشائية العامة على مستوى عال . فقد وسع الطرق القديمة وشق طرقـاً جديدة وبنى الجسور - كالجسرين فوق نهري الكلب والدامور – ورمّم القديم منها . وعلى الجسر الروماني فوق نهر الكلب شعر فيـه ذكر لاسم الامير بشير .

١ — Henry H. Jessup, *Fifty-Three Years in Syria* (New York, 1910), pp. 25, 34-5 ; Rufus Anderson, *History of the Missions of the American Board of Commissions For Foreign Missions to the Oriental Churches* (Boston, 1872), vol. I, pp. 28 - 31 .

٢ — حيدر ، الغرر ، ص ٩١٧ وما يليها ، ٩٢٦ وما يليها .

واعظم الاعمال الانشائية التي قام بها جرّ مياه نبع الصفا ــ وهو نبع عند سفوح جبال عين زحلتا ــ في قناة طولها تسعة اميال الى عاصمته الجديدة بيت الدين عبر الوادي الذي يفصل بين عاصمته الجديدة والقديمة دير القمر . وقد قام بهذا المشروع عن طريق العمل الاجباري والسخرة . فقد فرض على اهل الجبل ثمانين الف يوم عمل . فكان على كل عامل ان يشتغل يومين في السنة بدون اجر ؛ مما مكّنه من القيام بالمشروع في سنتين بدءاً من اليوم العاشر من شهر تموز عام ١٨١٢ بدون ان يستنفد اموال الخزينة . وعند اتمام المشروع قامت مظاهرة فرح عظيمة اطلق فيها الرصاص ابتهاجاً واشعلت النيران ليلا وكثر فيها الحداء والغناء . وقد نظم شاعر الامير بطرس كرامة قصيدة طويلة « على اسلوب الموشحات الاندلسية » مطلعها :

صاح قد وافى الصفا يروي الظما[1]

وكان طبيعياً ان تجري المياه عند وصولها اولا الى قصر الامير الفخم الذي كان يبنيه على هضبة رائعة المنظر تشرف على الوادي . وقد حرص الامير على ان يكون القصر افخم بناء عرفته البلاد . ولذا استحضر مهرة البنائين اللبنانيين واستقدم من دمشق وحلب عمالا مهرة في صقل الرخام وفي صنع الفسيفساء . وامام القصر ميدان فسيح يستطيع ان يتبارى فيه مئة خيّال في العاب الجريد، وعلى جانب منه اسطبلات تتسع لخمس مئة حصان ، وعلى الجانب الآخر صف من القناطر المشرفة على السفح الذي يكاد يكون انحداره عمودياً . وقد استغرق بناء هذا القصر بقاعاته الوسيعة وابراجه المربعة اربعين سنة بما في ذلك زخرفته وما اضيف اليه من تحسينات في البناء . وكان الامير اذا اراد ان يسري عن نفسه ذهب يشرف على العمل ويتفقده ووراءه حامل شُبُقه . او كان يجلس على سجّادة عجمية يراقب العمال ــ وهي الساعات الوحيدة التي لم يكن يأمر فيها ويملي ــ اذ انه ترك الامر الى خبرائه .

وقد وصف لنا الشاعر الافرنسي لامرتين القصر وصفاً دقيقاً . ووصفه هذا من اقدم ما وصلنا عن هذا البناء الفخم (١٨٣٢) :

ويقف عند الباب (المؤدي الى جناح الحريم) المصنوع من الخشب المزخرف

١ ــ حيدر ، الغرر ، ص ٩٢٩ ــ ٩٣٥ .

المتعدّد الالوان ومن على جوانبه الرخـــام المزين بكتابات عربية صفّ من العبيد السود اللابسين افخر الالبسة المسلحين بالطبنجات المفضضة والسيوف الشاميـــة المذهبة المطعّمة . وكانت القاعات الوسيعة في القسم الامامي من القصر تعج ايضاً بالخدم وافراد الحاشية والكهنة والجند كل بلباس واحد من عناصر السكان الخمسة [كذا] التي ينتمي اليـــها : الدروز والنصارى والارمن والاروام والموارنـــة والمتاولة .وكان هنالك خمس مئة جواد عربي مسرج ملجم وعليها قطع من القماش ذي اللون الزاهي(١) .

وقد اعجب الزائر الافرنسي ايما اعجاب « بلطف هـــذا الامير الطاعن في السن وبحكمته وبهائه ونبله ووقاره » الذي يصرّ على ان يتولى بنفسه ارشاد ضيفه الى حمّام القصر(٢) . واذا كان الزائر عربيا فانه يعجب بالكتابات العربية المزخرفة على الجدران ، كتابات ضمّنها بطرس كرامة حكما عربيـــة قديمة : « عدل ساعة افضل من الف يوم صلاة » «ان الله يحسن الى الحاكم الذي يحكم بين الرعية بالعدل» .

ولا شك في ان حاكما يبتني لنفسه قصراً كهـــذا القصر العظيم يجب ان يكون عنده طموح واهداف بعيدة المدى، ولا شك في انه كان يفكر في انشاء دولة عظيمة . فانه كان حاكما مستقلا فعلا ، انما شكلا كان يستمد سلطته من الباب العالي . ففي اثناء وليمة اقيمت في القنصلية السردينية في بيروت على شرف لامرتين وابنـــاء الامير بشير شرب الحاضرون نخب « انتصار ابرهيم باشا وتحرير لبنـــان ونخب الصداقة الفرنسية العربية»(٣). كان هذا الاديب الشاعر الفرنسي من اشد الاجانب اعجاباً بجمال لبنان الطبيعي . وقد عبر عن اعجابه ومحبته لهذه البلاد بقصائد تفيض شعورا . فانه كان يرى في الهضبة التي تعرف بجي مار متر في بيروت اجمل هضبة في سورية ، وفي وادي حمانا اروع واجمل ما وهبه الخالق للعين لتتمتع برؤيته(٤).

---

١ – De Lamartine, vol. I pp. 191 - 2 .

٢ – De Lamartine, vol. I p. 195 .

٣ – De Lamartine, vol. I, p. 432 .

٤ – De Lamartine, vol. II, pp. 3, 6 .

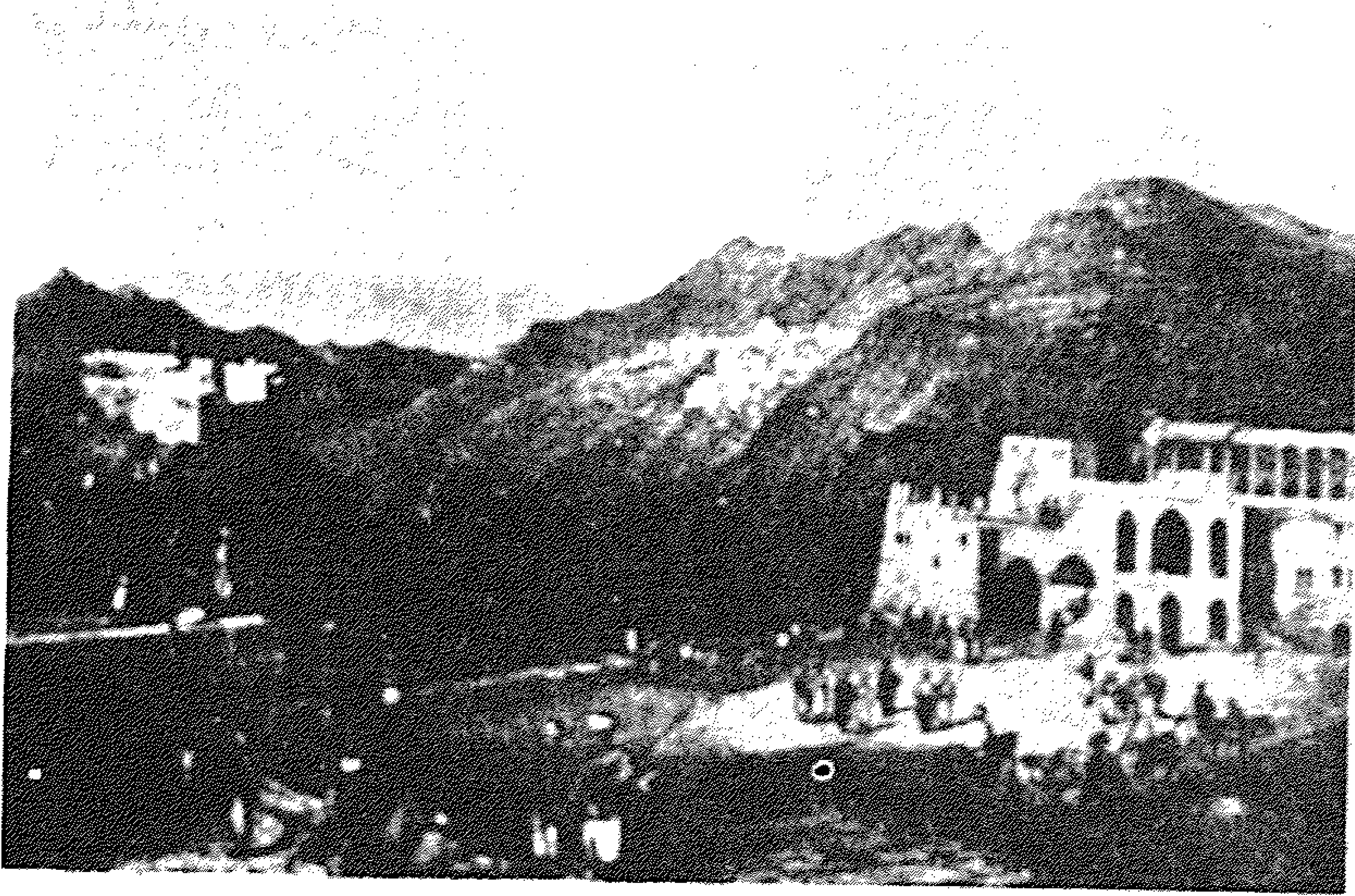
ابراهيم باشا في سورية

كانت السنوات العشر الاخيرة من عهد ولاية الامير بشير حافلة بالاحداث السياسية العالمية الجسيمة مما وضع لبنان ، بفضل موقعه وبحكم السياسة التي اتبعها الامير على مسرح السياسة الدولية — وهو وضع دولي لم يتحول لبنان عنه بعد — وجعله محط الانظار مدة ثلث قرن . بدأت هذه الاحداث لما قام محمد علي سنة ١٨٣١ بغزو تركيا ماراً في فلسطين وسورية . فان الامير اختار ان يكون الى جانب محمد علي معلقاً مصيره بمصير تلك الحرب . ولنا ان نستنتج ان تحالفه مع محمد علي كان بموجب اتفاق أو تعهد بينهما ، بالرغم من ان معظم مشايخ الدروز كانوا يؤيدون السلطان . كان محمد علي حاكم مصر يأمل بأن يكافئه السلطان بولاية سورية لقاء الخدمات العسكرية التي قام بها في حرب اليونان الاستقلالية عندما حاربت الجيوش المصرية الى جانب الجيوش التركية ، ولقاء خدماته في القضاء على الحركة الوهابية قضاء موقتاً .

وبفضل تعاون الامير بشير مع ابراهيم باشا قائد الحملة ، كان الاستيلاء على سورية امراً يسيراً . فان الجنود اللبنانيين اشتركوا مع المصريين في المعارك التي خاضها الجيش المصري للاستيلاء على عكا وطرابلس وحمص ودمشق[1] . وقد جعلت زحلة مستودعاً للذخيرة والمؤن للجنود المصريين . ونجح ابراهيم باشا في وقت قصير في الاستيلاء على دمشق . وفي القضاء على الجيش التركي في نواحي حمص . ثم انه فاجأ الاتراك في عبوره جبال طورس وتوغله في قلب الاناضول حتى خيّل للعالم ان الضربة القاضية على السلطنة اصبحت وشيكة الوقوع . أما المدن السورية المحتلة فقد وضعت ادارتها في ايدي ابناء الامير بشير . وكان ابنه الثاني خليل قائد الجيوش اللبنانية . وقد عرض ابراهيم باشا على الامير بشير ولاية سورية كلها ولكنه أبى[2] . في هذه الحرب المصرية — التركية كانت فرنسا الى جانب محمد علي تشجع ابنه وساعد الامين ابراهيم باشا . على متابعة فتوحاته

١ — مشاقة ، ص ١٠١ وما يليها . حيدر . لبنان ، ص ٨٢٣ وما يليهما . الشدياق ، ص ٥٦٧ — ٥٦٨ .

٢ — اسد رستم في « ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا » (القاهرة ١٩٤٨) ص ١١٣ ، ١١٩ .



جنود لبنانيون في ساحة قصر بيت الدين ، قصر الامير بشير الشهابي الثاني حليف ابراهيم باشا . في مؤخرة الصورة دير القمر

الباهرة . ولكنه اخيرا ردّ على اعقابه ، اذ ان انكلترا والنمسا وروسيا اضطرته سنة ١٨٤٠ على ان يتراجع . وكانت اشدّ الدول حماساً لتراجعه انكلترا التي كانت تخشى في حال زوال تركية كقوة في الشرق الادنى ، ان تتعرض طريق الهند الى مخاطر ، وان يتعرض مركزها في الهند الى سوء . وهكذا قضي على الحلم الذي حلم به محمد علي من انشاء دولة عربية يرأسها هو ذاته . كما ان سائر الشعب العربي لم يتحمس للفكرة ، ولم تكن فكره الاستقلال قد اختمرت في العقول بعد . وقد كان الحكم الذي لفظه لامرتين على فكرة انشاء الدولة العربية برئاسة محمد علي حكماً اثبت التاريخ صحته : ان مصير مصر كان يتوقف على رجلين اثنين ، محمد علي وابنه ابراهيم « وانت اذا قيّض لك ان تزيل هذين الرجلين عن المسرح فلا يبقى من مصر شيء ولا يبقى من حلم الامبراطورية العربية شيء[١] .

كان الحكم المصري في سورية حكما مركزيا مباشراً ، اما في لبنان فقد ظلت الادارة الحكوميةفي يد الامير بشير . وقد ادخل ابراهيمباشا في سورية اصلاحات

١ — De Lamartine, vol. I, p. 425.

جذرية : فقد سمح للنصارى ان يتبوّأوا مراكز حكوميـــة عالية ، وان يركبوا الخيل ويعتموا بالعمامة البيضاء ، وهي امتيازات كان المسلمون فقط يتمتعون بها . واخذ نصارى دمشق يمارسون طقوسهم الدينية بحرية كخروجهم مثلا في موكب او في زيّاح . فان قنصلا بريطانيا ، قبل سنة ١٨٣١ ، يقول لنا أنه كان يتعذر عليه دخول دمشق راكباً مطيّة ، اما الآن فلا يعترض طريقه احد[١] . ومن دلائل سياسة التسامح ازاء النصارى ان ابراهيم باشا منح حنّـــا البحري مدير الخزينة السورية عنده لقب « بك » . وهـــذه اول مرة يمنح هذا اللقب لنصراني عربي في السلطنة العثمانيـــة . وقد تغاضى عن ثلاثة رجـــال من الموارنة كانوا قد اعتنقوا الاسلام فارتدوا عنه الى مسيحيتهم . ولكن ابراهيم باشا لم يكن ليقر درزياً على اعتناقه المسيحية . وقد منح لقب البكوية الى اربعة من وجهاء الدروز : جنبلاطي ورجل من آل ابي نكد ، واثنين من آل عماد[٢] . وقد اطرح الامير بشير وابناؤه لبس العمة واستعاضوا عنها بالطربوش المغربي ، اقتداء بلباس الرأس الذي كان يلبسه ابراهيم باشا والذي اصبح لباس الرأس الشائع في جميع انحاء البـــلاد . اما المصرية[٣] وهي قطعة نقود قيمتها بارة ، التي كانت العملة المتداول بهـــا الى عهد قريب ، فلم يدخلها الى البـــلاد ابراهيم باشا كما يظن في الغالب ، ان الجزار هو الذي ادخلها[٤] .

حاول ابراهيم باشا في بادىء الامر ان يستميل اليه قلوب الشعب ولكنه عـــاد فرفع الضرائب ثلاثة اضعاف ما كانت عليه في السابق ، وذلك بناء على تعليمات كان قد تلقاها من أبيه محمد علي الذي كان قد احتكر جميع موارد مصر الاقتصادية . وقد صنع ابراهيم في سورية ولبنان ما كان قـــد صنعه والده في مصر ، فاحتكر الحرير والصابون وضروريات اخرى تنال من الطبقات العاملة . وادهى من هذا كله انه امر بتجريد الناس من اسلحتهم وفرض الخدمة العسكرية الاجبارية . ولم

١ ــ *Syria and Palestine* (London, 1920), p. 27. (وهو دليـــل وضعه القسم التاريخي في وزارة الخارجيـــة البريطانية .

٢ ــ رستم في ذكرى الفاتح ابراهيم باشا ص ١١٣ ــ ١١٤ .

٣ ــ وجمعها « مصاري » . وقد اصبحت هذه الكلمة « مصاري » تعني في العربيـــة العامية في لبنان دراهم ومال .

٤ ــ المنجّد ، ص ٨٨ .

يكن ابراهيم ليجد سبباً لاثارة الخواطر ولخلق استياء عام بـين اللبنانيين كقانون الخدمة العسكرية الاجبارية ، لا سيما وان قراره هذا اتى نقضاً لتعهداته السابقة بان يحترم جميع الامتيازات التي كان يتمتع بها اهل الجبل . وكان الامير بشير قد وضع تحت تصرّف ابراهيم باشا تسعة آلاف محارب ، اي ما يعادل نصف عدد الجنود النظاميين الذين بدأ بهم حربه في سورية . وقد سخروا العمال اللبنانيين في استخراج الفحم من المناجم الواقعة في خراج صليما والحديد من مناجم مرجبا فوق بلدة المتين. وبقايا هذه المناجم لا تزال الى يومنا هذا . وكان المصريون يرغبون — كما كان يرغب الفراعنة قبلا — في الحصول على الاخشاب من لبنان لاعمال البناء وانشاء الاساطيل ، لا سيما وان اسطولهم كان قد اصيب بخسارة كبيرة في حربهم ضد اليونان . ولذا استغل المصريون حرج الصنوبر بالقرب من بيروت .

كانت حالة الحرب واصرار ابراهيم باشا على بلوغ القسطنطينية يمليان على ابراهيم باشا ضرورية فرض التجنيد الاجباري الذي بدأ بتطبيقه على المسلمين اولا فأخذ مسلمو بيروت الصالحون للتجنيد يلجأون الى القنصليات الاوروبية او الى بيوت الاجانب هرباً من ملاحقة المصريين لهم . وكان بعضهم يختبىء في الكهوف الواقعة في كثبان الرمل جنوبي بيروت، وبعضهم كان يرمي بنفسه في البحر ويسبح الى صخور الروشة الصعبة المرتقى التي يبلغ علوها مئتي قدم فوق الماء[١] . وكان بعض الدروز ، لكي ينجوا من الخدمة العسكرية ، يتعمّدون او يعتنقون المسيحية البروتستانتية . وقد بدأت الثورة ضد الحكم المصري في فلسطين عام ١٨٣٤ . ثم امتدت الى جبال النصيرية في شمالي سورية فحوران الى ان امتدت سنة ١٨٤٠ الى لبنان حيث كانت الخدمة العسكرية اختيارية منذ عهود قديمة . ورغبة منه في اخماد ثورة حوران ، التي كلفته خمسة عشر الف قتيل وجريح ، جنّد ابراهيم باشا سبعة آلاف مقاتل ماروني . ومكافأة لهم فانه سمح لهم بابقاء اسلحتهم الى اجل غير مسمى وبعدم زيادة ضريبة الاملاك والأعناق عليهم[٢] . غير انـه عاد فعدل عن

١ – William M. Thomson, *Lebanon, Damascus, and Beyond Jordan* (London,1886), pp. 110 .

٢ – Achille Laurent, *Relation historique des affaires de Syrie* (Paris, 1846), vol. I, pp. 5 - 9 ; Le Baron d'Armagnac, *Nezib et Beyrouth* (paris, 1844), pp. 232 - 3 ;
قسطنطين الباشا : مذكرات تاريخية ، (حريصا ١٩٣٠) ص ١٥٠ .

هذا القرار واصرّ عام ١٨٤٠ ان يسلم هؤلاء الجنود الموارنة اسلحتهم ، واصر ايضاً على تجريد سائر الموارنة من سلاحهم . فكانت حادثة حوران – حيث حارب الموارنة ضد الدروز – بداية عهد عداء بين الدروز والموارنة . وقد استغل عملاء الانكليز والاتراك الحالة النفسية الثائرة في لبنان وحاولوا اشعال نار الفتنة الكامنة تحت الرماد بالرشوة حيناً وبالسلاح والوعود حيناً آخر[١] . وقد حاول ابراهيم باشا عبثاً ان يطمئن عامة الناس ، مقسماً بحياته وبحياة ابيه ، ان تجريدهم من السلاح انما هو اجراء موقت ، وان ليس في نيته ان يفرض التجنيد الاجباري[٢] . وكذلك اخفق الامير بشير في وعيده وتهديده ان كل من يتلقى سلاحاً او ذخيرة او مؤناً من الباخرة الانكليزية الراسية في ميناء بيروت سيعدم فورا[٣] . فانه في الثامن من حزيران ١٨٤٠ عقد الثائرون – دروز ونصارى وشيعة وسنّة – مؤتمراً في انطلياس واقسموا يمينا عند المذبح في كنيسة مار الياس على ان يظلوا يداً واحدة . وقد بعثوا بنداء الى اتباعهم ليثوروا ضد الحكم الظالم ، وتعاهدوا فيما بينهم « على ان يحاربوا ليستردوا استقلالهم او ان يموتوا[٤] » . ان هذه الوثيقة التي تصدرها العامية وتدعو الناس لحمل السلاح دفاعاً عن الحرية والاستقلال وثيقة رائعة تدعو الى الاعجاب الشديد . وفي هذا المؤتمر انتخب فرنسيس الخازن قائداً وزعيما . وقد ضايق الثائرون الجيش المصري ونهبوا مستودعات المؤن والذخيرة واصطدموا مع الجند في مناوشات لم تلبث ان اتسعت حتى عمّت جميع اطراف البلاد . وفي الوقت ذاته كان اسطول يتألف من سفن انكليزية ونمساوية وتركية يهاجم بيروت ، الميناء الذي اتخذه الجيش المصري قاعدة له ، وينزل الجيوش على شواطىء جونية . ولا تزال آثار

---

١ – *La Vie militaire du Géneral Ducrot* (Paris, 1895), vol. I. p. 389 .

أما للاطلاع على الوثائق الرسمية فيجب مراجعة :

Correspondance Relative to the Affairs of the Levant, pt. II London, 1841), pp. 302 - 3 .

٢ – De Testa, vol. III. p. 73 .

٣ – De Testa, vol. III, p. 83 .

٤ – تجد النص في فيليب وفريد الخازن . مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية جزء الاول (جونية ١٩١٠) ص ٢ – ٥ .

De Testa, vol. III, pp. 74 - 6 .

قصف الاسطول بادية للعيان في الخدوش التي احدثتها القنابل في واجهة مسجد المجيدية . وقـد ذكرت الدول الخمس التي اشتركت في الحرب ضد ابراهيم باشا الغاية من تدخلها، كما تقول وزارة الخارجية البريطانية «الحفاظ على سلامة السلطنة العثمانية. ولها [للدول] ملء الحق في الحفاظ على سلامتها لأن سلامتها من مقتضيات توازن القوى في اوربا وضرورة لحفظ السلام في العالم[1] » . وفي العاشر من شهر تشرين الاول ١٨٤٠ ، استسلم الامير بشير للانكليز الذين خيّروه في الاقامة في اي مكان يشاء باستثناء سورية وفرنسا . فسافر الى مالطة مع زوجته الجاريــة الشركسية الحسناء التي كان عمرهـا ٢٣ سنة وكاتم سره وشاعره بطرس كرامــة وثلاثة من اولاده مع عدد من احفاده وحاشيته التي تتألف من سبعين شخصاً يحملون اكياس الذهب والكنوز . وكان قد بلغ سني العقد السابع من عمره . وبعد اقامة في مالطة مدتها احد عشر شهراً سافر الى استنبول حيث توفي سنة ١٨٥٠[2] . وفي سنة ١٩٤٧ نقلت رفاته الى القصر الذي شيده واحبه : قصر بيت الدين الذي يخص الان الحكومة اللبنانية التي اتخذته متحفا ومقراً صيفياً لرئيس الجمهورية . ولا يزال الاباء والجدود يحدثون ابناءهم واحفادهم وهم جلوس امام الموقد ايام الشتاء وفي الليالي الطويلة عن الامير بشير الكبير وعن اخلاقه ومآتيه العظيمة .

وقد تلت ولايـة الامير بشير فترة ثورات وقلاقل كانت بدايـة زوال عهد الامراء الاقطاعيين وفاتحة عهد جديد ، هو عهد متصرفية لبنان المستقلة المعترف بها دولياً .

بيروت تتزعم المدن اللبنانية :

اثناء السنوات العشر التي احتل فيها المصريون سورية تغلغل النفوذ الغربي الى داخل البلاد . واصبحت بيروت الميناء الرئيسي ، وهو وضع احتفظت بـه الى يومنا هذا . فانها كانت مقر القناصل ، ومركز للارساليات التبشيرية والتعليمية من افرنسية واميركية وانكليزيـة ، ومركزاً تجارياً وصناعياً يقصده الاوروبيـون

١ ـ *Correspondance Relative to Affairs*, pt.I (London,1841),p.224

٢ ـ حيدر ، الغرر ، ص ١٠٤٩ ـ ١٠٥٠ .

والسوريون واهل الجبل . وقد زاد عدد سكانها ـ وكان عدد سكانها اذ ذاك ثمانية آلاف نسمة ـ ازدياداً كبيراً واخذ الناس يخرجون خارج المدينة القديمة ليبنوا البيوت خارج اسوارها . ولم يكن مألوفاً ، قبل سنة ١٨٣١ ، ان يرى المرء سيدة اوروبية لابسة ثوباً اخضر تسير في الشارع . فان اللون الاخضر كان محصوراً استعماله في آل البيت . ولم يكن مألوفاً ان يرى الرجل متأبطاً ساعد امرأة خارج البيت . وقل ان يرى المرء في شوارع بيروت رجالا اوروبيين يرتدون ملابسهم الغربية . واذا تجرأت امرأة غربية ، زوجة قنصل او تاجر ، ان تنتقل خلسة من بيت الى بيت فان ذلك كان امراً يسترعي انتباه الناس . غير ان الحال تغيرت واصبح الاوروبيون يتنقلون في شوارع المدينة بكل ثقة واطمئنان[١] . وفي سنة ١٨٤٠ ازداد عدد العائلات الاوروبية التي تقطن بيروت الى مئة عائلة . وبينما كان منظر المركب القادم الى الميناء يثير الدهشة والفضول اصبح مقدم المراكب بعد سنة ١٨٤٠ امراً عادياً قل ان يعيره احد من الناس اي انتباه . فقد كان معدل السفن التي تدخل ميناء بيروت حاملة العلم الانكليزي مئة وخمسين سفينة كل عام[٢] . وكانت بيروت تفخر وتتباهى باسواقها الاوروبية التي كان اصحاب الحوانيت فيها من الاروام والمالطيين والايطاليين ومن المدن الايونية . حتى ان الحمامات العامة كان فيها غرف خاصة بالاجانب . وانشأ الايطاليون واليونان فنادق (لوكندات ومفردها لوكندة وهي لفظة ايطالية locanda) . وكانت اللغة الاجنبية في التخاطب الايطالية اولا ثم اصبحت فيما بعد الافرنسية . وفي اسماء العائلات البيروتية مثل باسيلا وابيلا وبني وباولي وكاتسفليس ما يشهد على اندماج الاعراق البشرية في هذا الميناء . وكانت مدينة تكثر فيها انواع التسلية والترفيه : الكركوز ، وقصاصو قصص عنتر وصلاح الدين وبيبرس ، واللاعبون على الدربكة والراقصون وفي اصابعهم « الطقشيات » والفتيات المصريات الراقصات ذوات العيون البراقة والاوجه الموشومة . وكان الناس رواد هذه الملاهي يجلسون

---

١ - *Memoirs of The Lady Hester Stanhope* (London, 1845), pp. 247 - 8 .

٢ - F. A. Neale, *Eight Years in Syria, Palestine and Asia Minor*, 2nd. (London, 1852), vol. I, p. 247 .
وهذا المؤلف Neale كان موظفاً قنصلياً من سنة ١٨٤٢ ـ ١٨٥٠ .

ويدخنون النارجيلة او يحتسون القهوة . ولم تكن هنالك مدينة لبنانية اخرى تستطيع ان تنافس بيروت . فطرابلس كانت بلدة صغيرة سكانها سبعة آلاف نسمة[١] ، وكانت صيدا قد فقدت عظمتها ورونقها. اما صور فقد كانت تغط في سبات العصور المتوسطة. وفي جميع هذه المدن كانت المرأة النصرانية تغطي وجهها بحجاب كما تفعل المرأة المسلمة . اما في بيروت فان الطنطور كان في طريقه الى الزوال[٢] . وكانت النساء المترفات يرفهن عن انفسهن بمضغ المسك وتدخين النارجيلة في المنازل. ويظهر ان الناس كانوا يستعملون احدى الحشائش البرية قبل ان عرف التبغ في العالم الجديد .

المقيمون البريطانيون الاول

وبدأ الاوروبيون يؤسسون البيوتات التجارية . فقد أسس جايمس بلاك محلا تجارياً اشتهر بالاستقامة والأمانة حتى ان المصطلح الشائع آنذاك «كلمة انكليزية» أصبح مرادفاً للصدق وحسن المعاملة[٣] . وفي سنة ١٨٤١ اسس رجل فرنسي اسمه فورتينه بورتالس معمل حلّ للشرانق في بلدة بتاتر . ثم تبعه رجل اسكوتلندي اسمه سكوت وأسس معملا آخر في شملان . وقد كان هذان المعملان من اقدم معامل الحرير في البلاد . وصارت تربية دود الحرير وزراعة التوت مصدراً رئيسياً من مصادر ريع الفلاحين في لبنان . وظل موسم الحرير الى الحرب العالمية الاولى من المواسم التي يعتمد عليها المزارع اللبناني .

وكان فيمن استوطن في واد تحت بتاتر ووراء شملان رجل انكليزي اسمه شارل هنري تشرشل (وكان يعرفه الناس بشرشر بيك) ينتمي الى العائلة الارستقراطية المشهورة مارلبورو . جاء تشرشل البلاد كضابط في الجيش الذي حارب ابراهيم باشا . وقد اشترى مزرعة بجوارة وانشأ فيها مدرسة صغيرة . وكان يلبس اللباس الوطني فيضع على رأسه الكوفية والعقال ويرتدي عباءة . وتزوج امرأة حلبية ثم اخرى شهابية . وكان صديقاً حميماً للدروز وكانوا يحبونه

١ – Neale, vol. I p. 264.

٢ – Neale, vol. I, p. 250 .

٣ – Jessup, p. 49, n. 1; p. 465; Neale, vol. I, p. 245 .

فجعلوه موضع سرّهم وثقتهم . وقد ألف كتابين فيهما الكثير من المعلومات عن الحياة والمجتمع في لبنان بين ١٨٤٠ و ١٨٦١ . وقد أشرنا اليهما .

وفي سنة ١٨١٠ غادرت سيدة انكليزية من عائلة ارستقراطية بلادها بعد ان اصيبت بخيبة امل قاسية في حياتها العاطفية، وراحت تتنقل في الشرق الى ان استقر بها المقام اخيراً في بلدة جون على بعد ثمانية اميال شمالي شرقي صيدا . هذه السيدة هي هستر ستانهوب حفيدة ارل تشاتم وامينة سر وليم بت الشهير وزير مالية انكلترة . وعلى رابية مشرفة هناك اقامت هستر بيتاً يجمع بين الفيلا والقلعة ، وأحاطته بسور عال، وجملته بحديقة رائعة الجمال. وكانت ترتدي الملابس الوطنية، وتدخن الشبق ، وتحمل بيدها سوطاً او تضع خنجراً على جنبها . وكان يحرسها رهط من البانيين اشداء ، وكان خدمها من الزنوج السود ، وجميعهم كانوا يعاملونها معاملة الملوك . وكانت الحكومة الانكليزية تدفع لها راتب تقاعد سنوي قدره الف ومئتا ليرة انكليزية . وقد درست هستر العربية واسترسلت في مطالعة الكتب التي تعنى بعلم الفلك والتنجيم وعلم الكيمياء « العلمين اللذين لا تعرف اوروبا عنهما شيئاً» . وكانت تسير على رأس القوافل الذاهبة الى بعلبك وتدمر والقدس. وقد اعجبت قبائل البدو في الصحراء السورية برشاقة قامتها ونبل خلقها وكرمها حتى انهم اصبحوا يلقبونها « بملكة تدمر » . وكانت سلطتها على القرى المجاورة لجون، ومعظمها قرى درزية ، تكاد تكون تامة . ولما عزم ابراهيم باشا على غزو لبنان وسورية حاول ان يبقيها على الحياد وكان لها يد في اثارة الدروز فيما بعد ضده[١]. وقد بثت الجواسيس في عواصم لبنان وسورية . وكانت ، بالتعاون مع الباشوات والمشايخ والامراء ، تدس الدسائس وتدبر المؤامرات ، وتبعث بالرسائل الى الامير بشير وغيره من الامراء . غير انها لم تفتح ابواب بيتها الى ابناء جنسها من الانكليز، وقلما كانت تستقبل النساء . واحياناً كانت تهين القناصل ــ على ما كان لهم من مقام في تلك الفترة ــ وتزدري بالقواد ، وقد تهوي على الضباط بسوطها. أما دائنوها فانها كانت تتحاشاهم واحياناً توقعهم في اشد الارتباك . وقد قابلها الشاعر الافرنسي لامرتين (١٨٣٢) وترك لنا وصفاً لتلك المقابلة فيه الكثير مما يكشف عن سر هذه المرأة الغريبة الاطوار[٢] . ومن غرائب اطوارها انها كانت

١ – *Memoirs of Lady Hester Stanhope*, vol. III, pp. 63, 76.

٢ – De Lamartine, vol. I, pp. 164 - 87 .

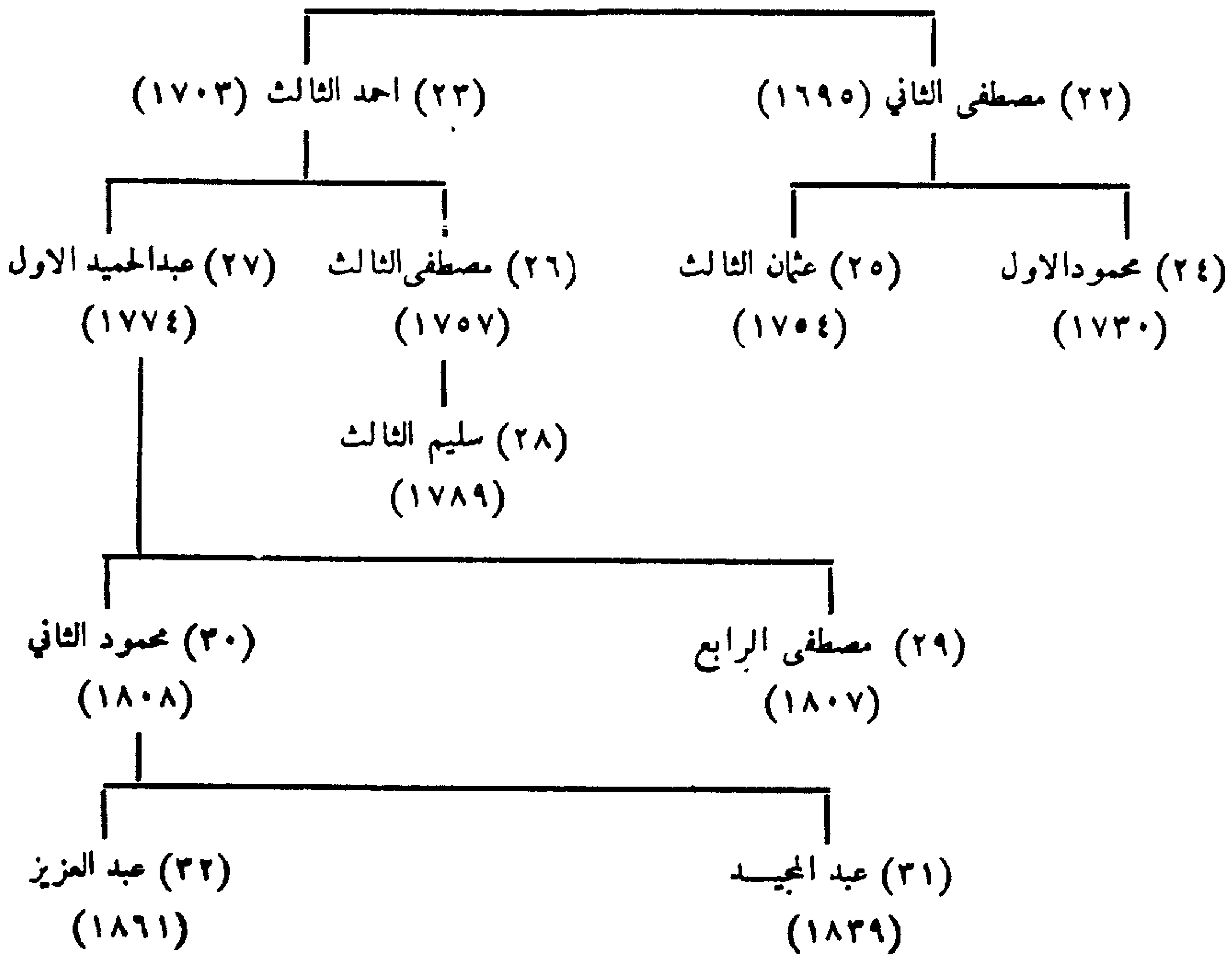
تهيّىء فرساً عربية اصيلة ليركبها المسيح المنتظر . يقول لنا مرسل اميركي[1] ان هذه الفرس « ولدت مسرجة » وكانت تقدم لها شراب الورد وتطعمها مختلف اللذائذ وتضعها في اسطبل لا ينطفىء سراجه ابداً . وفي سنة ١٨٣٩ توفيت الليدي هستر ستانهوب ودفنت في ارض حديقتها ولم يحضر وفاتها اي اوروبي . وقد اصبح بيتها مزاراً يؤمه السائح الاوروبي بعد ان كانت الحكومة الانكليزية ذاتها تعجز عن الاتصال بها مباشرة. واذا اتصلت بها فعن طريق وكيل قنصل كان مقره في قبرص.

التنظيمات

كان الاحتلال المصري في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩) . وقد كان السلطان محمود اعظم السلاطين الثلاثة الذين قاموا بالاصلاحات التي كانت تعرف بالتنظيمات . اما السلطانان الآخران فهما سلفه السلطان سليم الثالث وابنه السلطان عبد المجيد[2] . وقد قام السلطان محمود بعمل قومي مأثور . ذلك

١ — Thomson, *Lebanon*, p. 17 .

٢ — السلاطين العثمانيون :



انه في يوم من ايام حزيران سنة ١٨٢٦ جمع الانكشارية في ثكناتهم وامر جنده الخاص بان يطلقوا مدافعهم على الثكنات التي حشد فيها الانكشارية ويهدموها الى اساساتها . وقد قتلهم إلى آخر رجل منهم . فقد كان الانكشارية فئة ثورية قوية معارضة تقف في سبيل كل اصلاح او تبديل دون موافقتهم . فقد كان بيدهم ان ينصبوا السلطان وان يخلعوه ساعة يشاؤون وان يعينوا الوزراء وان يقيلوهم كما يرغبون . وآخر فريسة وقعت في ايديهم كان السلطان سليم الثالث . ولم تقتصر تنظيمات السلطان محمود على اعادة تنظيم الجيش بل تعدتها الى اصلاح جهاز الحكم المدني ؛ فأنشأ مدارس طبية ومدارس اخرى مختلفة وجلب لها الخبراء الاوروبيين. وقد حاول القضاء على الاقطاع في بر الاناضول ليحل محله الحكم الملكي المركزي في استنبول . وكان اول سلطان اتخذ الطربوش الاحمر[١] لباساً للرأس وهو اللباس الذي انتشر بين الرعية الى ان اصبح لباس الرأس الاسلامي من مراكش الى اندونيسية . والغريب في امر هذا السلطان ان تسميه رعيته giaur[٢] اي الكافر . وقد كان من جملة الاصلاحات التي قام بها مؤخراً .مصطفى كمال الغاء لبس الطربوش . اما المحفل الماسوني الذي يعرف باصحاب المزار Shriners فان اعضاءه يتخذون الطربوش شعاراً ، اولا لانه لباس رأس يستلفت النظر لشكله ولونه ، وثانياً لانهم يقولون بان اصل المحفل عربي .

كان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ــ ١٨٠٧ ــ وهو السلطان الوحيد من سلاطين القرن الثامن عشر الذي لم يحجر عليه – أول من بدأ بالحركة الاصلاحية. وقد اتت غزوة نابليون لجزء من سلطنته صدمة عنيفة له ، لانه كان من أشد المعجبين بالثقافة الافرنسية . وقد كانت التنظيمات التي قام بها ، والتي تعرف ب « نظامي جديد » تستهدف اصلاح الاصول المالية والجندية ، والتي اصبحت فيما بعد نموذجاً للتشريعات التي تلت . انما كانت اصلاحات سليم تصطدم دوما بمعارضة الانكشارية والموظفين الفاسدين والفئة الرجعية . فكان على السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ــ١٨٦١)

١ ــ ويعرف بالانكليزية ب fez، وهي تحريف فاس عاصمة مراكش . اما لفظ الطربوش فتحريف لفظ فارسي « سربوش »ولفظ الطربوش لا يرد في الادب العربي الا بعد ان جمعت قصص الف ليلة وليلة في القرن الرابع عشر او الخامس عشر .

٢ ــ وهو لفظ فارسي يطلق تحقيراً لغير المسلم ، ولا سيما على النصارى .

ان يحقق ما كان قد بدأ به سليم الثالث ومحمود الثاني . فأصدر سنة ١٨٣٩ « خط شريف كلخانة » (لانه اعلن من حديقة كلخانـــة) و « خط همايوني »[١] سنة ١٨٥٦ وفيهما تأكيد واضافات وتوضيحات للقرارات السابقة . وتستهدف هذه القرارات اشاعة العدل وتأمين الحياة واحترام الملكية الشخصية والكرامة الانسانية بين جميع الرعايا بدون تميز وبقطع النظر عن الجنس أو الدين . وبموجب هـــذه القوانين الجديدة لا يحق الاقتصاص من رجل قبل ان يحاكم امام القضاء . واجبار المرء على اعتناق دين أو مذهب ما بالقوة امر ممنوع . وابواب التوظيف مفتوحة امام جميع الافراد على السواء . ويحق للنصارى الانخراط في سلك الجندية ، ولكن لهم الحق في ان يدفعوا بدلا مالياً عوضا عن الخدمة العسكرية اذا شاؤوا ذلك . وكانت هذه القوانين تستهدف ازالة جميع العقبات والصعوبات التي كانت الرعية تعاني منها ما تعاني . وتناولت اصلاح قـــانون ضريبـــة العشر وسائر الضرائب الزراعية الاخرى . والحقيقة ان هذه المراسيم السلطانية كانت ممتازة بحد ذاتها ، انما كان ينقصها حكومة حازمة لتطبقهـــا . والحقيقة ان اثرهـــا في تغيير الحالة الاجتماعية والاقتصادية كان ضئيلا . فانها ، الى جانب انعدام حكومة حازمـــة تطبقها ، أتت كتنظيمات سابقة لاوانها . فقد كانت قوة استمرار الرجعيـــة التي خلفتها العصور اقوى من ان توقفها اصلاحات ظلت حبراً على ورق . فقد كان العلماء ورجال الدين يقاومونها بشدة . كذلك لم يستسغهـــا الاجانب الذين كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة . اما الصرافون والمرابون من يهود ونصارى فلم ترق لهم بعض القوانين الواردة في التنظيـــمات . وكذلك الاكليروس الكاثوليـــكي والارثوذكسي فانهم رأوا فيها ما يحد من سلطتهم ومن دخلهم. وفضلا عن هذا فان هذه الاصلاحات لم تصدر عن دافع للاصلاح وللخير العـــام بقدر ما كان سلاحاً يتذرع به السلاطين امام حكام اوربة في مساوماتهم السياسية عند نشوب الازمة . ويجب ان نذكر ان الفترة التي جاءت فيها هذه الاصلاحات كانت فترة

١ ــ للاطلاع على النص راجع :

Ahmad Lutfi, *Ta'rikh* (Constantinople, 1303),vol. VI,pp. 61-4; Enver Z. Karal, *Osmanli Tarihi,* V, *Nizami Cedit ve Tanzimat Devirleri* (Ankara, 1947) pp. 266-72; de Testa ,vol. V, pp. 132-7, 140 - 3 ; Edward Hertslet, *The Map of Europe by Treaty* (London, 1875), vol. II, pp. 1002-5, 1243-9 .

ضعف وتقهقر في السلطنة ، ليس لعوامل داخلية وحسب ، بل لاسباب خارجية كما كانت تتمثل في الضغط السياسي على السلطنة . وسواء أكانت هذه التنظيمات قد وضعت لوقف التدخل الاوروبي في شؤون السلطنة العثمانية الداخلية ، ام للحاق بركب الحضارة ولتقوية المملكة المتداعية الاركان فمسألة قابلة للجدل التاريخي .

في تلك الفترة كانت روسيا القيصريــة تحاول ان تلعب دور حامي الكنيسة الارثوذكسية . فانه اذا كانت فرنسا « اقدم ابنة من بنات الكنيسة الكاثوليكية » حامية الرعايا الكاثوليك في المملكة العثمانية ، فما الذي يمنع اعظم قوة ارثوذكسية، روسيا القيصرية ، من ان تحمي الرعايا من الروم الارثوذكس ؟ وللابقــاء على التوازن الغربي في شؤون المملكة العثمانية حاولت انكلترا ان تجد « متكأ » لها ، فوجدته في الدروز . واصبح الدروز يتطلعون الى لندن كمــا يتطلع الموارنــة والكاثوليك الى باريس . وفي معاهدة كوتشوك كينارجي (١٧٧٤) ــ وهي اشد المعاهدات اذلالا لكبرياء السلطنة العثمانية ــ منحت روسيا الامتيــاز الذي كانت تطمع فيه منذ زمن بعيد : حماية الارثوذكس . وبعد ان اخذت روسيا في ممارسة الحقوق التي مُنحتها بموجب معاهدة كوتشوك كينارجي شرعت في المطالبــة بتوسيع صلاحياتها لتشمل الاماكن المقدسة مما ادى الى حرب القرم الذي اشتبكت فيها روسيا بحرب ضد تركيا وحلفائها من الافرنسيين والانكليز ومملكة سردينيا . وفي سنة ١٨٤٤ عرض القيصر على انكلترا اقتسام تركيا التي سماهــا « رجل اوروبة المريض » . وقد ظلت روسيا القيصرية طيلة قرن او اكثر تتبع سياسة تهدف الى السيطرة على الاجزاء التركية المجاورة لها . واحياناً كانت ترتبط مع دول الغرب بتعهدات من نوع «تعهدات الرجل الشريف» تتخلى روسيا بموجبها عن الاقسام الجنوبية من تركيا وابقائها ضمن اطار النفوذ الغربي على اساس الا يتدخلوا بشؤون روسيا في سياستها التركية المتعلقة بالمناطق الشمالية . وكان هنــالك دول استعمارية اوروبية اخرى تنظر بعــين الطمع الى التوسّع على حساب الاتراك . منهــا الامبراطورية النمساوية ــ الهنغارية وانكلترا وفرنسا . وكانت هــاتان الدولتان الاخيرتان ، انكلترا وفرنسا ، تعنيان بصورة خاصة بالمسألة الشرقية ــ وهي فعلا مسألة غربية لا شرقية سببها تدخل اوروبا في شؤون تركيا الداخليــة ورغبتها في توسيع نطاق نفوذها في هذه المنطقة . وكانت كلا الدولتين تنظران الى المسألة

الشرقية كل بمنظارها الخاص . وكانت كل منهما تنظر الى مصالحها الاقتصادية والتجارية في هـــذه البقعة الستراتيجة الواقعـــة عند ملتقى اهم طرق المواصلات الرئيسية البحرية والبرية التي تربط بينهما وبين مستعمراتهما واسواقهما التجارية في شرقي افريقيا والهند والشرق الاقصى .

وفي الوقت الذي ظهر فيه ان هذه التنظيمات كانت عقيمة الجدوى سنت بعض القوانين التجارية والبحرية التي كان لها اثرها في تحسين الحالة التجارية. ذلك لانها انت قوانين وشرائع تتمشى مع روح الشريعـــة الاسلامية لا لتحل محلها كـــما كان الحال في التنظيمات . فان الشريعـــة الاسلامية كانت حتى ذلك الحين هي الشريعة السائدة المعمول بها ، على الاقل نظريـــاً . ولكن اخذ الناس يشعرون ان القوانين التي سنّت في صدر الاسلام (القرن السابع الميلادي) لم تعـــد تلائم متطلبات الحيـــاة المعقـدة ، ولم يكن فيهـــا ما يكفل سير الاعمال التجاريـــة والصناعية . ففي سنة ١٨٥٠ اصدر عبدالمجيد قانوناً يتعلق بالتجارة . وبعد مضي ثماني سنوات سنّ قانوناً آخر يتعلق بالعقوبات ، وكلاهما مستمدان من الشرائع والقوانين الاوروبية - وفي الدرجة الاولى من القوانين الافرنسية. وفي سنة ١٨٦٣ أصدر السلطان قانوناً يتعلق بالتجارة البحرية . وكان ايضاً مبنيـــاً على القانون الافرنسي . ولتنفيذ احكام هذه الشرائع التجارية والبحرية أنشئت محاكم خارج صلاحيات قضاة الشرع. غير ان قانون الاحوال الشخصية الذي صدر سنة ١٨٧٦ والمعروف « بالمجلة »[١] فانه يقوم في مبادئه على الشريعة الاسلامية . وقـــد ظلت قوانين المجلة معمولاً بها في سورية ولبنان الى زمن الانتداب .

---

١ – للاطلاع على نص الاحكام وشرحها راجع : « شرح مجلة الاحكام العلية » نشر محمـــد س. المحاسني ، في ثلاثة مجلدات (دمشق ١٩٢٧) وترجمتها :

C. A. Hooper, *The Civil Law of Palestine and Trans-Jordan*, vol. I (London, 1938) .

الفصل التاسع والعشرون

فترة الحروب الاهلية : ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠

وجد لبنان نفسه ، عند منتصف القرن التاسع عشر ، في حمأة من حروب وفتن دامية لم يكن له عهد بمثلها طيلة تاريخه المديد المليء بالحوادث . وكانت ذروة هذه الحوادث الدامية ثلاث فتن اهلية وقعت بين الدروز والنصارى وكادت تؤدي بالبلاد الى هاوية من الفوضى والبلاء : فتنة ١٨٤١ و ١٨٤٥ و ١٨٦٠ . وتمثل هذه الفترة القائمة نهاية عهد حكم الامراء اللبنانيين وبداية عهد المتصرفية ، حكم المتصرف العثماني باشراف خمس دول اوروبية .

كانت عوامل الانفجار تعتمل منذ سنوات . فقد كان الدروز مستائين على اشد ما يكون الاستياء من محاولات الامير بشير للقضاء على نفوذ مشايخهم واعيانهم من الاقطاعيين ، ومن ابنه خليل قائد الجيش الماروني الذي اعان ابراهيم باشا على قمع الثورة في حوران . ومن عوامل نقمة الدروز ازدياد عدد النصارى في المقاطعات الدرزية وازدياد نفوذهم . اضف الى هذا تدخل بريطانيا في سعيها للحصول علي منطقة نفوذ في هذه البقعة وبث عمالها لاحداث المشاكل واشعال نار الفتنة بين جزئي السكان المتكافئين . ومن جملة هذه العوامل ايضاً سياسة الحكم المباشر التي اتبعها الاتراك وتركيز السلطة التي بدأها السلطان محمود الثاني . وقد استغل الاتراك اوضاع البلاد الطائفية والحزبية فأخذوا يثيرون فئة ضد فئة . واخيراً ، اوقع تنافس الدول الكبرى لبنانَ الصغيرَ المستضعفَ في سعير اتون السياسة الدولية ، ووضعَ سكانه البسطاء المسالمين تحت رحمة جيوش الدول المستعمرة .

كانت الحروب في جبل لبنان حتى سنة ١٨٤٠ حروباً داخلية متقطعة يحارب فيها الدرزي اخاه الدرزي والنصراني اخاه النصراني تبعاً للحزب الذي ينتمي اليه كل منهما : الحزب القيسي او اليمني والحزب الجنبلاطي او اليزبكي . وكان ولاء

الناس الى اميرهم او اقطاعيهم او الى حزبهم لا الى دينهم او الى طائفتهم . والرحالة الغربيون الذين كتبوا عن لبنان قبل هذه الفترة ابدوا اعجابهم بالمودة والصفاء اللذين كانت تتميز بهما العلاقات الدرزية النصرانية[١] . والشاهد على هذا انه حتى سنة ١٨٤٠ كان الدروز والموارنة يوقعون معاً بيانات ضد ابراهيم باشا. وقبل هذا بثماني سنوات كتب لامرتين : « قلّ ان يشاهد السائح في سكوتلندا او في سافوي او سويسرا حياة نشيطة هانئة هادئة كحياة الناس على هذه السفوح اللبنانية التي كنا نترقب ان نجد سكانها قوماً برابرة »[٢] .

نشوب الفتنة الاولى

عندما عُزِل الامير بشير الثاني قويت سلطة الباب العالي سيما بعد تعيين الامير بشير الثالث (١٨٤٠ — ١٨٤٢) الشهابي النصراني «اميراً على جبل الدروز[٣]» . وكان الامير بشير الثاني قد اشترك في الثورة ضد ابراهيم باشا وتعاون مع الاتراك والانكليز في طرده من البلاد . ولم يكن بينه وبين سميّه وسلفه العظيم من الامور المشتركة سوى الاسم . وبعد تسنمه الولاية بقليل ، وقعت حادثة تافهة كانت الشرارة الاولى لاشعال نار الفتنة الاولى بين الدروز والنصارى (وتعرفها العامة بالحركة الاولى) . وتفصيل الحادثة : ان رجلا من دير القمر اصطاد حجلا في أرض لعائلة ابي نكد في خراج بعقلين . « فاعترضه بعض دروزها بمشاجرة فسمع رفاقه ضجيجهم ، فبادر احدهم الى دير القمر وبثّ الخبر مهيجا . فهاجت الشبان وتدججوا بالسلاح . . »[٤] وانضم الجنبلاطيون وآل عماد

١ — Abbé de Binos, *Voyage au Mont Liban* (Paris, 1809), vol. II, pp. 90 - 1 .

٢ — De Lamartine, vol. I, p. 270 (ed. 1835, Paris) .

٣ — De Testa. vol. III, p. 83 .

٤ — الشدياق ، ص ٦٢١ وما يليها . وراجع ايضاً مشاقة ص ١٤٥ — ١٤٦
Churchill, *Druzes*, pp. 44 seq.; Jessup, pp. 161 seq.;
اما تشرشل فقد كان شاهد عيان . فانه كان يستطيع ان يرى من على سطح بيته في حوارة دخان الحريق في القرى المجاورة . اما جسب فقد كان شاهد عيان فيما سجله ، وفي حالات اخرى كانت تصله تقارير يوثق بصحتها من اعضاء الارسالية الاميركية .

برجالهم الى النكديين فاحرقوا دير القمر في الرابع عشر من تشرين الاول، ١٨٤١. ولم تلبث ان شملت الفتنة قرى اخرى في الشوف وفي منطقة الغرب : جزين وعبيه والشويفات والحدث وبعبدا . وفي الحدث وبعبدا احرقت قصور الشهابيين . وقد وقع جمهور من الموارنة بينما كانوا هاربين من بيروت في قبضة الجند التركي المرابط في ضواحي المدينة ، والذي كان قد ارسل خصيصاً لتهدئة الحال في لبنان، فهاجمهم الجند ونهب اموالهم . وقد جرّدوا النساء من حليّهن والبستهن. هذه الحادثة وسواها من حوادث القتل والنهب التي تعرض لها السكان على ايدي الجنود الاتراك تفسر لنا مغزى قولهم : « انه لأفضل لنا ان ينهبنا الدروز من ان يحمينا الأتراك »[١] . فان الدروز ، حسب تقاليدهم الموروثة ، لا يتعرضون الى النساء بسوء .

وقد قدمت قناصل الدول الاجنبية : فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا ، مذكرة مشتركة الى الوالي التركي ولفتت نظره الى الاشاعات القائلة ان الأتراك حرضوا الدروز على القيام بالثورة المسلحة . وقد اتهمت المذكرة ايضاً الحكومة التركية بان الجنود الأتراك في دير القمر جردوا النصارى من اسلحتهم ، وبأن شبلي العريان ، زعيم الدروز في حوران قد تلقى أوامر ان يزحف برجاله الى زحلة بمعونة الجنود الاتراك ليجردوا اهلها من السلاح[٢] .

اسفرت هذه الفتنة الاولى (الحركة الاولى) عن مقتل ثلاث مئة رجل معظمهم من الدروز ، وعن خراب في الممتلكات تقدر قيمته بنصف مليون من الدولارات. غير ان فقدان الثقة بين جزئي سكان البلاد ، وروح الكراهية اللذين ازدادا حدة عندما تجاهلت الحكومة امر التعويض على الاضرار واعادة السكان الى قراهم وتعاميها عن معاقبة المجرمين ، نقول ان فقدان الثقة وشيوع الكراهية بين الفريقين كانا اشد خطراً من الخسارة المادية. وادهى من هذا كله ان الفتنة الاولى اصبحت النمط او النموذج لفتن لاحقة أشد هولا منها .

---

١ – Churchill, *Druzes*, p. 52; Jessup, p. 162 .

٢ – De Testa, vol. III, pp. 102-5 .

حلول خلقت من المشاكل اكثر مما حلت

في شهر كانون الثاني من سنة ١٨٤٢ عزل الامير بشير ، آخر الامراء الشهابيين عن ولايته وأرسل الى استنبول . وعين الباب العالي رجلا هنغارياً كان قد انضم الى الجيش التركي لمحاربة ابراهيم باشا في سورية والياً على لبنـــان . واسمه عمر باشا النمساوي[١] . وهو اول رجل عثماني يتولى هذا المنصب في لبنـــان واتخذ قصر الشهابيين في بيت الدين مقراً له . وكانت تنقصه المقدرة والحنكة السياسية ليدرك حقيقة الوضع في لبنـــان . وقد عجز عن ان يظفر بولاء الدروز او النصـــارى وتعاونهم معه. فان هؤلاء كانوا قد اعتادوا زمناً طويلا حكم امرائهم الاقطاعيين. فلجأ الاتراك الى تدبير جديد : تقسيم جبل لبنان الى قسمين او قائمقاميتـــين ، شمالية للنصارى يحكمها قائم مقام نصراني ، وجنوبية يحكمهـــا قائم مقام درزي ، وكلاهما مسؤولان امام والي صيدا المقيم في بيروت . وقد اتخذت طريق بيروت ـ دمشق الحد الفاصل بين القائمقاميتين . وقد باءت جميع محاولات فرنسا للابقاء على الحكم الموحد بزعامة الشهابيين بالفشل . فعين حيدر من الامراء اللمعيـــين قائم مقاماً في المقاطعة المسيحية ، واحمد ارسلان قائم مقاماً على الدروز[٢] . وكان حيدر حديث عهد بالنصرانية، وكان احمد ارسلان حدثاً لم يستطع ان يفرض هيبته على مشايخ الدروز . وكان هم الباب العالي ان يبرهن للدول الاوروبية ان الحكم الوطني في لبنان مصيره الى الفشل اكثر مما كان مهتماً في نجاح المشروع الجديد . وقد كان عدد سكان القائمقامية النصرانية (الشمالية) ، حسب الوثائق الرسمية[٣] ، ٧٤,٧٠٠ نسمة متمركزين في شمالي القائمقامية . اما عدد سكان القائمقاميـــة الجنوبية (الدرزية) فقد كان حسب التقسيم التالي: ٢٥,٤٥٠ درزياً و ١٧,٣٥٠ مارونيـــاً و ٥,٢٠٠ من الروم الارثوذكس ، ١٥,٥٩٠ من الروم الكاثوليك . وقد كان في القائمقامية النصرانية وفي دير القمر ١٠,١٥٠ درزيا . وقد كان عدد سكان لبنان في هـــذه الحقبة ٢١٣,٠٧٠ نسمة منهم ٩٥,٣٥٠ من الموارنـــة ،

١ ـ الشدياق ، ص ٦٤٠ وما يليها .

٢ ـ الشدياق ، ص ٦٩٦ .

٣ ـ Richard Edwards, *La Syria,* 1840—1860 (Paris, 1862),p. 71

و ٤١,٠٩٠ من الروم الكاثوليك ، ٢٨,٥٠٠ من الروم الارثوذكس و ٣٥,٦٠٠ درزي ، و ١٢.٣٣٠ شيعياً (متواليا) و ٢٠٠ يهودي .

وكان هذا التقسيم السياسي الجديد عاملا في توسيع الخرق بين الطوائف الدينية ، وسببا رئيسياً في زيادة التوتر عوضا عن ان يكون عاملا في تلطيف الجو فقد كان سكان القائمقاميتين مزيجا من الدروز والنصارى ، لا سيما في الشوف والغرب والمتن . وكان عدد سكان دير القمر التي كانت مركزاً مسيحياً ثمانية آلاف نسمة . وتقع هذه البلدة في قلب المنطقة الدزية . غير انها كانت تتمتع بادارة خاصة بها . ولم يكن احد يخرج من بيته دون سلاح اعد للاستعمال لا للزينة هذا اذا كان ممن يعتبر اهلا لان يقتل .

في شهر نيسان من سنة ١٨٤٥ عادت الغيوم المكفهرة المتلبدة في الافق السياسي تنذر بشر مستطير . فبعد ان احرق النصارى اربع عشرة قرية درزية زحفوا على المختارة مقر الجنبلاطيين حيث كان بانتظارهم فيلق تركي اصلاهم ناراً حامية . وفي حادثة عبيه انحاز الاتراك ايضاً الى جانب الدروز فكانوا لهم مجنا . وامتدت نار الفتنة الى جزين ودير القمر والى اماكن اخرى[١] .

اسرع الباب العالي بايفاد وزير الخارجية ، شكيب افندي ، فثبت نظام القائمقامية ــ الذي ظل معمولا به الى سنة ١٨٦٠ ــ وحاول ان يعيد الامن والنظام ، وسعى للحد من سلطة الامراء والوجهاء مما ادى اخيراً الى الانفجار العنيف الذي عرف ولا يزال يعرف الى الآن بحركة الستين (أي ثورة ١٨٦٠) .

اما الدروز فكانوا يداً واحدة بزعامة اعيانهم ، خلاف ما كان عليه الموارنة.

---

١ ــ مشاقة ، ص ٥٢ ــ ٥٣ . اسكندر ابكاريوس : نوادر الزمان في ملاحم جبل لبنان (وهو مخطوط) ص ٢٢ ــ ٢٣ . وكاتب هذا التاريخ ، ابكاريوس ، رجل مسيحي مثقف من اصل ارمني ولد في بيروت . راجع ايضاً Churchill, *Druzes*, pp. 91 - 2 وللاطلاع على تقارير القناصل والوثائق الرسمية راجع :

Correspondence Relative to The Affairs of Syria, pt. I, 1843, 1844, 1845, (London, 1844), pp. 106 seq. De Testa, vol. III, pp. 174 seq. Khazin, vol. I, pp. 176 seq. Rabbath, vol. II, pp. 163—6 .

فانه في هـــذه الفترة بالذات بدت طلائع ثورة اجتماعية تهدف الى القضـــاء على الاقطاع والى التحرر من ربقة الاقطاعيين . وقد نشبت سنة ١٨٥٨ ثورة مارونية قام بها الفلاحون بزعامة رجل من العامة ، طانيوس شاهين من ريفون الذي كان بيطاراً يعمل في دير للعازريين هناك[١]. فطردوا آل الخازن وجماعة اخرى من اعيان الموارنة من اقطاعاتهم واستولوا عليها ووزعوها على الفلاحين . وفي السنة التالية اعلن شاهين قيام حكومة فلاحين ونصب نفسه حاكماً مطلقـــاً[٢] . اما البطرك الماروني فقد تجاهل الامر . واما الخوارنة والقسس الذين كانوا من عامة الناس فقد شجعوا الناس على الثورة هذه وايدوها . لان سلطة الاكليروس المـــاروني ونفوذه كان قد تضاءل كثيراً ازاء نفوذ الاقطاعيين الموارنة وسلطتهم الواسعة . اما موظفو الاتراك فانهم وقفوا يترقبون ان تنتهي الحوادث الجارية الى ما فيـــه صلاحهم ونفعهم . وفي هذه الاثناء كانت حياة المسيحيين وممتلكاتهم في المناطق الدرزية على كف عفريت . فانه في غضون عشر سنوات قتل منهم ما يربو على سبع مئة قتيل بدون ان يعاقب قاتل واحد وبدون ان يجري اي تحقيق قضائي[٣] .

سنة شؤم في تاريخ لبنان

لم يكن هنالك من اسباب مباشرة لنشوب فتنة ١٨٦٠ ، او « مذابح الستين » او « حركة الستين » كما تعرفها العامة ، بل كان هنالك ما يدعو الى الاعتقاد بانها كانت فتنة مدبرة . بدأت الفتنة في شهر نيسان وظلت نيرانهـــا تستعر حتى آخر شهر تموز من تلك السنـــة المشؤومة . كانت الحوادث التي ادّت الى نشوب الفتنة قد بدأت في صيف السنة السابقة عندما تشاجر صبيّـــان ، ماروني ودرزي ، كما يتشاجر الصبيان . ولكن هذا الحادث ادى الى قتال بين دروز القرية والنصارى فيها واسفر عن مقتل عدد من الدروز اكبر من عدد القتلى من النصارى . وقـــد حدثت مناوشات متقطعة بين الدروز والنصارى في المناطق التي يقطنها من الفريقين.

---

١ — [Comte de Paris], *Damas et le Liban* (Paris, 1861), p. 102 .

٢ — انطوان العقيقي ، ثورة وفتنة في لبنان (بيروت ١٩٣٨) ص ٨٢ـ ٩٠ .

Khazin, vol. I, pp. 364, 366, 371 - 2, 384 - 5 .

٣ — Churchill, *Druzes*, pp. 111-12 .

ثم حل الشتاء ، وكان شتاء بارداً قاسياً ، فخيل للناس ان هـذه الفترة من الهدوء النسبي كانت فترة تهيؤ واستعدادلامر لا مفر منه . وكان مشايخ الدروز يتصلون علناً بخورشيد باشا في بيروت ويجرون معه مفاوضات . ويقال انهم تسلموا اسلحة بواسطته . ولما نشبت الثورة شعر كل مسيحي قاطن في المنطقة الدرزية ان حياته في خطر شديد . وفي خلال اسابيع قليلة احرقت اكثر من ستين قريـة من قرى المتن والشوف . والجيش التركي النظامي (باش بوزق) فانـه لم يحاول ان يوقف القتال ، بل كان موقفه على نقيض هذا . فانه اساء معاملة الهاربين اللاجئين الى بيروت ودمشق ونهب ما يحملونه من ثياب واموال .

اما كسروان ومنطقة شمالي لبنان فلم يصبها أذى من هذه الفتنة . ولم يكن لها من اثر حاسم في القتال . فقد جاءت قوتان رمزيتان من تلك المناطق لمساعـدة اخوانهم في لبنان الجنوبي وفي المتن . وكان على رأس احدهما يوسف بك كرم من اهدن ــ وكان زعيماً وطنياً في منطقته ــ وطانيوس شاهين من ريفون ــ وقـد سبقت الاشارة اليه . غير ان الموظفين الاتراك حاولوا بالوعد والوعيد ان يمنعوا اتصال هذين الزعيمين باخوانهم في الجنوب . وكذلك كان لتدخل فرنسا في الامر يد في وقف هذه المساعدة . اما رجال الدين من الموارنـة فكانوا يهاجمون العدو بسيل من الاحتجاجات والشتائم ويشجعون اتباعهم على متابعة القتال بشتى الوسائل والوعود . وقد كان دور الاكليروس في هـذه الفتنة اقرب الى الضرر منـه الى النفع . اما المعسكر الثـاني ، المعسكر الدرزي ، فقد انهالت عليـه المساعدات العسكرية من حوران ، اذ جاءتهم نجدة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة اسماعيل الاطرش . واما قائد الثورة في لبنان فقد كان سعيد جنبلاط يعاونـه خطار العماد وعلي حمادة .

ثم جاء دور المدن . وقد كانت اساليب الثورة في المدن الاساليب ذاتهـا في الارياف : كان قائد الحامية التركية في المدينة يعرض حمايته للنصارى مقابل تسليم الاسلحة ، ثم يقف يتفرج عليهم يُذبَحون . هكذا كان مصير دير القمر حيث قتل ٢٫٦٠٠ نسمة . وفي جزين وجوارهـا قتل ١٫٥٠٠ نسمة . وفي حاصبيا قتل من الروم الارثوذكس الف نسمة ، وبصورة بربرية ، من اصل مجموع سكانهـا

الارثوذكس البالغ ستة آلاف . وفي راشيا هلك ثماني مئـــة نسمة[١] . وكانت اوامر قيادة الثورة المتعلقة بحاصبيا ألا يبقى على ذكر من سن السابعة الى السبعين . وقد وقف الثوار القساة يمتعون ابصارهم باشلاء الاجساد ، الاجساد المختلطـــة ، كباراً وصغاراً ، في صحن الدار في قصر الشهابيين في حاصبيـا . اما زحلة أكبر المدن في داخلية لبنان ــ وكان عدد سكانها آنذاك ١٢ الف نسمة - فقد صمدت في بادىء الامر بشجاعة الى ان غلبت على امرها في وجـــه هجمات جماعات كبيرة من الحوارنة ومن بدو الصحراء . هذه المدينة ، القابعة في وادي البردوني المنساب سلسبيلا من سفح صنين لم ينج بيت واحد فيهـــا من الحريق . ويقال ان الهجوم على زحلة دبره الكولونيل تشرشل متبعاً في ذلك خطة يشوع بن نون في استيلائه على عاي وبيت ايل[٢] . وقد ازدحمت الطرقات المؤدية من القرى الى مدن الساحل بالهاربين الذين لم ينجوا من تعديات الجند التركي. فقتل مسلمو صيدا نحواً من ثلاث مئة لاجىء . وقد كان عدد الضحايا الذين سقطوا خلال اشهر ثلاثة وفي بقعـــة قطرها بضعة اميال اثني عشر الف قتيل وكانت الخسارة في الاملاك تقدر باربعة ملايين ليرة انكليزية ذهبية . وقد وقعت الفتنة في موسم تربية دود الحرير ، ذلك الموسم الرئيسي في حيـــاة الناس الاقتصادية . ولم يقتصر الخراب والحريق على البيوت بل شمل الكنائس والاديرة[٣] .

وطارت شرارة من فتنة لبنان فاشعلت نار ثورة دامية في دمشق التي كانت في

---

١ – راجع : ***Further Papers Relating to the Disturbances in Syria,*** June **1860** (London, **1860**), **pp. 40 - 6 .**

٢ – راجع القصة في يشوع ، ٨ : ٩ – ١٧ .

٣ – ابكاريوس ص ٤٢ وما يليهـــا . مشاقة ص ١٥٨ – ١٦٨ (وكان مشاقة طبيبـــاً بروتستانتياً تعلم على نفسه ، وهو من مواليد رشيا) . حسين غ. ابو شقرا . الحركات في لبنان ، نشره عارف ابوشقرا (بيروت ١٩٥٢) ص ١١٣ – ١٣١ (ومؤلف هذا الكتاب درزي اشترك في القتال) . ثم للاطلاع على الوثائق الرسمية راجع :

Correspondence Relating to the Affairs of Syria, **1860 - 61** (London **1861**); De Testa, vol. VI, pp. **67-101**; Khazin, vol. II, pp. **1** seq. ; Edward Driault, ***La Question d'Orient,*** **8**th ed. (Paris, **1921**), pp. **194 - 5** ; Churchill, ***Druzes,*** pp. **132** seq. ; Riley, pp. **250** seq. ; Charles-Roux, ***France,*** pp. **183-6** ; ***Souvenirs de Syrie*** (Paris, **1903**), **pp. 32 - 89 .**

غليان من جراء سياسة ابراهيم باشا ، ومـــن جراء قوانين المساواة بين المواطن المسلم والمواطن غير المسلم كما جـــاء في « خط همايوني » . وقد شجّع اهل دمشق على الثورة ضد المسيحيين عدم معاقبة المجرمين في لبنان وتواطؤ الموظفين الاتراك معهم . فاحرق اهل دمشق الحيّ المسيحي وقتلوا عشرة آلاف نسمة . وقد قتل ثلاثةاخوة من عائلة مسابكي المارونية عند مذبح الكنيسة الفرنسسكانية حيث كانوا قد لجأوا هربا من القتل . وفي سنة ١٩٢٦ طوبهم البابا[١] . وكان مجموع القتلى في العاصمة السورية احد عشر الف قتيل . والناحية الوحيدة المشرقة في هـــذه القصة الحالكة هي نبل اخلاق عبد القادر الجزائري ، وهو الامير المغربي الذي كان قد لجأ الى سورية هربا من الافرنسيين في الجزائر ، فقد حمى اكثر من الف نصراني من القتل . اما في لبنان فلم يكن هنالك من امثال عبد القادر .

التهـــدئة

واخيراً تحرك ضمير الدول العظمى . فعقد مؤتمر دعت اليه فرنسا ضم بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا تقرر فيه التدخل لايقاف المذابح . وقد اتفق على ايفاد قوة قوامها اثنا عشر الفاً . غير ان فرنسا وحـــدها نفّذت القرار فارسلت جيشاً قوامـــه سبعة آلاف محارب بقياده الجنرال بوفور دوتبول . وكان هـــذا الجنرال الافرنسي قد اشترك في حروب سورية لمـــا كان ضابطا في اركان جيش الكولونل سيف (Sève) الذي كان قد اعتنق الاسلام واصبح مدير العمليات في الجيش المصري باسم سليمان باشا . ولكن قبل ان وصل الجنرال بوفور بيروت في شهر آب من سنة ١٨٦٠ كان فؤاد باشا وزير الخارجيـــة قد سبقه الى البلاد على رأس جيش واخذ في معاقبـــة الموظفين الاتراك الذين وقفوا على الحياد او الذين تواطئوا مع الثائرين في لبنان ودمشق . واخـــذ يشدد في ملاحقة المجرمين بيد من حديد فقتل نحوا من مئة واحد عشر جندياً رميا بالرصاص وشنق بعض الاهالي وقد قلّد عبد القادر الجزائري وساماً رفيعاً لعمله الشريف . وقد شدد النكير على المعتدين من اهل دمشق فعاد الهدوء الي البلاد قبل ان وصل الفرنسيون . وقـــد شكّل فؤاد باشا لجنة دوليـــة كانت مهمتها اكتشاف المسؤولين عن الفتنـــة ،

١ — *Acta Apostolicae Sedis*, vol. XVIII (1926), pp. 411 - 15.

والمجرمين الذين اشتركوا في اعمال القتل وتقدير التعويض عن الخسائر وتقـديم الاقتراحات لاصلاح الحكم في جبـل لبنان . وكان فؤاد باشا رئيساً لهذه اللجنة فاستطاع بدهائه وتحايله ان يسيطر على اعمالها ويسيّرها على هواه . كما انه استغل الخلاف الذي نشب بين اعضاء اللجنة فكان يقول لهم: «سانتظر الى ان يتم الاتفاق بينكم» . او «ساحيل القضية الى حكومتي وانتظر التعليمات التي تردني»[١]. وكذلك استطاع اللورد دوفرن الانكليزي بدهـائه ان يتفوق على موفـد نابليون الثالث ويضعف من شأنه . وكان دوفرن يقف الى جانب فؤاد ويدافع عن سيادة تركيا وسلامتها ، وطالب بشدة ان تخفف الاحكام الصادرة بحق الدروز . وكان يماشيه في سياسته هذه ممثلا النمسا وبروسيا . امـا فرنسا فكانت تدافع عن وجهة نظر النصارى وتحاول ان تدعم قضيتهم، وكانت روسيا تقف الى جانبها وقفة المتردد .

وقـد تسلمت اللجنة قائمـة باسماء ٤٦٠٠ متهم درزي . فحكمت على ٤٨ بالاعـدام وعلى ١١ بالسجن المؤبـد وعلى ١٣ بالحبس ٦ سنوات ، وعلى ٢٤٩ بالحجر او بالنفي المؤقت[٢] . ولكن لم يعدم جميع الذين حكم عليهم بالاعـدام . فان حكم الاعدام الصادر بحق سعيد جنبلاط استبدل ، وهرب كثيرون من اتباع خطار العماد الى حوران ، وقد نفي حوالي ١٢٠ شخصاً الى طرابلس الغرب . وقد نجا خورشيد باشا من الموت ، ولكن والي دمشق اعـدم . وكذلك اعدم قائد حامية حاصبيا . اما خورشيد باشا (والي صيدا) القائد العسكري لموقع بيروت مع بعض الموظفين من ذوي المناصب الدنيـا فقد نفوا الى قبرص ومالطة او الى استنبول . وفي دمشق حكم على ثلاث مئة رجل بالاشغال الشاقة مدى الحياة . وقد احضروا مكبلين الى بيروت مشيا على الاقدام ، ومنها نقلوا الى استنبول . ولكن بعد غياب ستة اشهر ، عـادوا يظهرون في اسواق بيروت وهم في طريقهـم الى دمشق[٣] .

١ — *Souvenirs*, pp. 274 - 6.

٢ — من اراد الاطلاع على اسماء المتهمين عليه ان يراجع :
Edwards, pp. 403-10, cf. Churchill, *Druzes*, p. 222; *Correspondence Relating to The Affairs of Syria*, 1860 - 61 (London, 1861), p. 509; Driault, p. 196; *Souvenirs*, pp. 238 seq. 270 seq.

٣ — Riley, pp. 87 - 8.

وقد قدرت مبالغ التعويضات التي كانت ستدفع للمتضررين بـ ١,٢٥٠,٠٠٠ ليرة انكليزية . وقد اقترح في اللجنة ان يقوم الدروز بدفع هذه التعويضات . غير ان فؤاد باشا اعترض قائلا ان الدولة العلية ستدفعها من خزينتها . ولكن الخزينة العثمانية دفعت قسطاً ضئيلا منهـــا ثم امتنعت بعد ذلك عن الدفع واعتبرت الامر منتهياً . وقد اعلن الباب العالي العفو العـــام على ان لا يشمل العفو اولئك الذين هربوا الى حوران[١]. اما حالة اللاجئين والهاربين من النصارى فقد تردت كثيراً. فانه فضلا عن المجاعة التي اصابتهم فقد انتشرت بين جموعهم امراض فتاكة تنتقل بالعدوى كالتيفوس والتيفوئيد والزحار وغيرها من الامراض التي اودت بحيـــاة كثيرين . ونساء كثيرات اخذن عنوة الى حريم الرجال الذين سبوهن ، واخريات بعن اولادهن بيع العبيد[٢] .

اعادة تنظيم الحكم

اما فيما يتعلق باعادة تنظيم الحكم في لبنان فان فرنسا.اقترحت الغاء التقسيم الى قائمقاميتين واعادة البلاد الى وحدتها وجعلها ولاية مستقلة يحكمهـــا ماروني كما كانت الحال عليه قبل سنة ١٨٤٠ . وقد رشح الجنرال الافرنسي بوفور الامير مجيد بن الامير بشير الكبير لذلك . اما الجنرال ديكرو ، وكان الجنرال الثاني في قيادة الجيش الافرنسي في لبنان، فقد كان يميل الى .تنصيب يوسف بك كرم الذي ولاه فؤاد باشا قائمقامية النصارى . وكذلك ممثل فرنسا في اللجنة فانه كان يأخذ بوجهـــة نظر الجنرال ديكرو في تفضيله يوسف بك كرم[٣] . وكان يوسف من مشايخ اهدن ، وتعلم في عنطورا عنـــد اليسوعيين فكان يحسن الافرنسية ويميـــل بجوارحه الى الثقافة والحضارة الافرنسيتين. وكان ابوه يستضيف السياح الافرنسيين وهم في طريقهم الى زيارة الارز . وكان يوسف بك كرم شاباً وسيماً شجاعـــاً دمث الخلق وقور الشخصية محبوبـــاً بين قومه وعشيرته . وقـــد عضّدت روسيا

١ ــ يقول ابو شقرا (ص ١٣٣) ان حوالي ثلاثة آلاف رجل هربوا الى حوران محملين بالغنائم والاسلاب .

٢ ــ *The World* (New York, April 23, 1861.) .

٣ ــ *La Vie militaire du Général Ducrot*, vol. II, pp. 1-2.

اقتراح فرنسا، دون ان تتحمس للامر كثيراً غير ان الاقتراح لاقى مقاومة عنيفة من قبل العثمانيين يعضدهم في ذلك البريطانيون . وفي التاسع من شهر حزيران ١٨٦١ وُقّعَ في استنبول على نظام جديد للحكم في لبنان يعرف بنظام ١٨٦١ الذي جرى تعديله بعد مضي ثلاث سنوات. وقد ظل هذا النظام معمولاً به الى نشوب الحرب العالمية الاولى. وقد وقعت عليه كل من فرنسا وبريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا . وبموجبه اعيد لبنان ولاية مستقلة (متصرّفية) يحكمها متصرّف مسيحي يعينه الباب العالي وتوافق على تعيينه سائر الدول الموقعة على الميثاق . واصبح استقلال لبنان الآن حقيقة معترفاً بها على صعيد دولي ، واصبح استقلاله امراً تضمنه الدول الاوروبية. وعندما انضمت ايطاليا سنة ١٨٦٧ الى مجموعة الدول الموقعة على ميثاق ١٨٦١ و ١٨٦٤ اصبح عدد الدول سبعاً .

وفي شهر كانون الثاني من سنة ١٨٦١ اخذت بريطانيا تضغط على فرنسا لتسحب جيوشها من لبنان . وبكثير من التردد قبلت بريطانيا ان تمدد مهلة الانسحاب الى الرابع من حزيران من تلك السنة . وقبل ان تنسحب الجيوش الافرنسية من لبنان ساهمت في اعمال الغوث وفي اعادة بناء وترميم الخراب الذي حل بزحلة ودير القمر وحمانا وقرى اخرى[1] . وقد خلفت الحملة اثراً كتابياً عند مصب نهر الكلب .

كان هذا النظام الجديد خاتمة عهد من الفوضى والعنف ، عهد اورث الحقد والكراهية التي لم يستطع لبنان ان يمحو آثارها محواً تاماً . وكان النظام الجديد فاتحة عهد يعرف بعهد متصرفية جبل لبنان . وهو موضوع الفصل التالي

١ – Ernest Louet, *Expédition de Syrie* (Paris, 1862), pp. 123, 138, 146 . (ومؤلف هذا الكتاب كان امين الخزينة في الحملة الافرنسية الى لبنان)

الفصل الثلاثون

متصرفية جبل لبنان

لقد حصل لبنان الذي شغلت قضيته الدول الاوروبية الكبرى سنتين (١٨٦٠ ــ ١٨٦١) على انظمة لادارتـــه لا تكاد تشغل صفحتين . وانه لمن الصعب ان تُدار شؤون بلاد جديدة بدستور عدد بنوده سبعةعشر بنداً[١]. ان التعديلاتالتي طرأت على هذا النظام في السادس من ايلول عام ١٨٦٤ كانت تعديلات جزئية طفيفة لم تكن بذي بال[٢] . فان مدة ولاية المتصرّف مددت من ثلاث الى خمس سنوات . واصبح تجديد ولايته عند انقضاء المدة القانونية امراً ممكنـــاً . وكان المتصرف مسؤولا لدى الباب العالي . وبوصفه رئيساً للسلطة التنفيذية فانـــه كان يجمع الضرائب ، ويعين القضاة وينفذ الاحكام الصادرة عن المحاكم ، كما انه كان مسؤولا عن احلال الامن والنظام . وكان يعاونـــه مجلس منتخب يعرف بمجلس الادارة الذي كان يضم اثني عشر ممثلا عن الطوائف الدينية المختلفة ، خمسة منهم يمثلون النصارى . ولم يكن لبنان المتصرفية في حدوده آنذاك يشمل البقاع ووادي التيم ــ اللذين يعود خصب التربة فيهما الى انجراف التربة من اعالي الجبال بواسطة الأمطار والرياح ، والى الينابيع المتفجرة من قلب الجبال ــ كما ان بيروت وصيدا فصلتا عنه. وهذه جميعها كانت من قبل اجزاء من لبنان. وهكذا وضعت موانىء لبنان القديمة ، بيروت وصيدا وطرابلس ، تحت اشراف الدولة العليـــة المباشر . وفي الواقع لم يكن لبنان المتصرفية لبنان المعنيين والشهابيين، بل كان الجزء الجبلي منه فقط . وقد قسم لبنـــان الى سبعة اقضية . على رأس كل قضـــاء قائمقام .

---

١ ــ للاطلاع على النص راجع :

British and Foreign State ***Papers***, **1860—1861**, vol. LI (London, **1868**), pp. **288—92** .

٢ ــ للاطلاع على هذه التعديلات راجع :

Thomas E. Holland, ***The European Concert in The Eastern Question***, (Oxford, **1885**) pp, **212—18** .

ويكون القائمقام من الطائفة التي تمثل الاكثرية في القضاء . وعلى هذا فقد كان توزيع القائمقاميين على هذا النحو : ثلاثة من الموارنة ، ودرزي واحد ، ومسلم واحد ، وروم ارثوذكس واحد ، وروم كاثوليك واحد . وكان كل قضاء مقسما الى مديريات . وكان القضاء في الامور البسيطة الثانوية في ايدي مشايخ[١] تعينهم الحكومة او ينتخبهم الشعب . وقد احتفظ بالمحاكم الكنسية التي كان لها صلاحية النظر بامور الاكليروس فقط . والغى الدستور الجديد امتيازات رجال الاقطاع ومنح جميع الرعايا حقوقاً متساويـــة ، كما نص على اجراء احصاء للسكان ومسح الاراضي . وقد احتفظت حكومة الجبل بمحاكمها وبقضائها . وكانت تحافظ على الامن بواسطة احتياطي محلي . ولم يسمح للجنود الاتراك بدخول البلاد . واعفي السكان من الخدمة العسكرية الاجبارية ومن دفع خراج الى الباب العالي. بل كانت تفرض الضرائب على نحو ما تقتضيه نفقات الحكومة المحلية. واذا كان هنالك من مال فائض في الميزانية فقد كان يرسل الى خزينة الدولة العثمانية على ان تدفع الخزينة العثمانية قيمة العجز اذا وقع شيء من ذلك في ميزانية الحكومة اللبنانية .

كان اول متصرف عين لمتصرفية لبنان داود افندي ، وهو رجل ارمني المولد كاثوليكي المذهب ، ومدير التلغراف في استنبول. وقد ألّف كتاباً بالافرنسية عن الشرائع الانكلوسكسونية . اختار قصر الامير بشير في بيت‌الدين مقراً له، وكانت عاصمته الشتوية بلدة بعبدا حيث انشئت سرايا فخمة في عهد خليفته الثالث . ولم يشر الدستور الى امكان تولي لبناني منصب المتصرف ، ولذا ظل يوسف بك كرم يتطلع اليه . وقد عرض عليه داود باشا قائمقامية جزين ولكنه رفضها ، وعرض قائمقامية كسروان على الامير مجيد ابن الامير بشير فقبلها . اما يوسف بك كرم فانه ارسل كتاباً مفتوحاً موجهاً الى الفاتيكان وباريس ، وفيه يحتج على كون حاكم البلاد غير لبناني، وعلى الصلاحيات المطلقة التي كان يتمتع بها ، وعلى تحديد بعض الاقضية المسيحية ، وعلى الفصل في القضايا التجارية في محاكم خارج لبنـــان (في بيروت) ، وعلى سد العجز في ميزانية لبنان من مال الخزينة العثمانية مما يجعل لبنان

١ ــ هؤلاء المشايخ هم غير المشايخ الاقطاعيين الذين كانوا يمثلون ادنى مراتب الاقطاعية ، وغير مشايخ الدين .

خاضعاً لسلطة الباب العالي[١]. وقد اعلن العصيان ورفع لواء الثورة وخاض بعض المناوشات الدامية . ولكن قبل ان ينصرم العام (١٨٦١) كان داود باشا قد القى عليه القبض وارسله الى استنبول . ولكنه ظل يؤمل انه سيعين يوماً متصرفاً عندما تنتهي ولاية داود باشا . ولكن في سنة ١٨٦٤ عندما جددت ولاية داود باشا رجع يوسف بك كرم الى شمالي لبنان خلسة ليستمر في ثورته . غير انه ، بوساطة فرنسا التي كان لها حق التدخل بصفتها احدى الدول الموقعة على البروتوكول ، نفي اولا الى الجزائر ، ثم الى باريس ، ومن بعدها الى نابولي حيث توفي عام ١٨٨٨ وهو في الثالثة والستين من عمره[٢] . ولم تكن فرنسا وحدها قد خيبت الآمال التي كان قد عقدها على مساعدتها ، بل ان الاكليروس ايضاً تخلوا عنه . وقد نقل جثمانه الى مسقط رأسه اهدن ووضع في كنيستها ليعرض على الناس . ويقولون ان جثمانه غير محنط ولكنه لم يبل ، مما جعل الناس ينظرون الى هذه الظاهرة انها دليل على حياة طهر وقداسة . وقد اقيم له تمثال نصب في مقبرة الكنيسة . وقد خلد اسمه في شمالي لبنان على انه زعيم وبطل وطني .

ومن جهة ثانيــة قامت معارضة اخرى : معارضة رجال الاقطاع ـــ وجلهم من الدروز . وقد لاقت معارضتهم عند عامـــة الناس استحسانا ورواجاً بسبب فداحة الضرائب على الطبقات الدنيا . ولكن الحق يقال ان داود باشا استطاع ان يتجنب العاصفة ، فوطد الامن والاستقرار وتمكن مـــن تطبيق احكام الدستور . وفي احدى خطبه امام اعيان اللبنانيين ضرب لهم المثل الآتي :

مرض طبيب فاستدعى طبيباً زميلا له وقال : نحن ثلاثة انت وانا والمرض . فاذا اعتنتي قهرنا المرض، واذا اعتنت المرض فتكون قد قهرتني انا . وهكذا نحن في لبنان ثلاثة : انتم الشعب، وانا الحاكم ، والعداوة التقليدية بين طوائف لبنان وشيعه .

١ ـــ بطرس ب. كرم : قلائد المرجان في تاريخ جبل لبنان ، الجزء الأول (بيروت ١٩٣٢) ص ١٩١ ـــ ١٩٢ .

٢ ـــ الدبس ، تاريخ سوريا ، الجزء الثامن ص ٧٢٦ـــ٧٣٣ (وكان المطران الدبس علاقات شخصية مع يوسف كرم) واوفى المعلومات عن يوسف بك كرم تجدها في « لبنان ويوسف بك كرم » لاسطفان البشعلاني (بيروت ١٩٢٥) ص ٣١٢ـــ٦٤٤ . نسيم نوفل : بطل لبنان (الاسكندرية) ص ٢٢٤ـــ٢٤٨ .

فساعدوني وأوكد لكم اننا سننتصر . ساعدوا العداوة والبغضاء فتجلبوا الخراب والدمار عليّ وعلى انفسكم[١] .

وقد بدأ هذا المتصرف ، داود باشا، عهده بنشاط وحزم . فانه طلب الحاق البقاع بلبنان ، وارسل الى استنبول طلب اهالي صيدا بالالتحاق بلبنان . وفي سنة ١٨٦٣ انهت شركة افرنسية ، بعد اعمال دامت خمس سنوات ، شق طريق العربات بين بيروت ودمشق — اول طريق من نوعها في البلاد . وانشأت الشركة خط مواصلات كانت العامة تعرفه بخط الدليجانس (diligence) — اي عربات كبيرة يجرها عدد من الجياد — يسير مرتين يوميا بين بيروت ودمشق . وكانت هذه العربات تقطع المسافة بين بيروت ودمشق (٦٠ ميلا) في اربع عشرة ساعة . وفي تلك الايام بدأت عربات الخيل تظهر في شوارع بيروت . واصبحت هذه الطريق بين بيروت ودمشق خطاً رئيسيا لنقل البضائع وطريقا تتفرع منه الطرقات الثانوية شمالا ويمينا فتربط قرية باخرى . وفرضت الشركة صاحبة الامتياز ضريبة على المكارين قدرها ثلاثة فرنكات على البغل الذي يسير على هذه الطريق الجديدة . وهكذا ثبطت عزائم المكارين وارغمتهم على أن يستعملوا الطرقات الترابية القديمة[٢]. وفي سنة ١٨٦٧ اصدر السلطان قانونا يسمح بموجبه للاجانب ان يقتنوا ، لاول مرة في تاريخ السلطنة، املاكا . وقد شق داود باشا طريقاً للعربات تربط بين بيروت ودير القمر وعاصمته بيت الدين . وقد اصلحت الطريق فيما بعد في عهد خلفه الثاني والثالث ووسعت واضيفت اليها تحسينات فاصبحت احدى الطرق المعبدة التي تسير في معابر الاودية ومنعطفات الجبال رابطة قرية باخرى[٣] . وفي بلدة عبيه اسس مدرسة عالية لا تزال تعرف باسمه « الداودية » ودبر شؤونها بان جعل الوقف الدرزي ينفق عليها . وهي مدرسة لا تزال الى يومنا هذا يؤمها الطلبة من الجنسين.

---

١ — Jessup, pp. 266—7 .

٢ — *Harper's New Monthly Magazine*, vol. XLI, (New York 1870), p. 53. Éleuthére Elleftériadés, *Les Chemins de fer en Syrie et au Liban* (Beirut, 1944),pp. 37—40 .

٣ — Thomson, *Lebanon*, pp. 125—6, 151; Jessup, p. 234 .

سبعة متصرفين

كان المتصرفون الذين خلفوا داود باشا ، باستثناء المتصرف الثالث ، رستم باشا ، ينحدرون نحو الفساد والسوء . كان رستم باشا شبيه سلفه داود في الاستقامة والعناية بمصالح البلاد . فانهم جميعاً كانوا يهتمون اولا بان ينـالوا عطف الباب العالي ، وكانوا يحرصون على ان يكافأوا عند عودتهم الى استنبول بمناصب ارفع ومراكز تدر عليهم المزيد من المال .

رفع داود باشا استقالته قبل انتهاء ولايته بسنة واحدة. ويبدو انه استقال تحت ضغط الباب العالي ، وخلفه نصري فرنكو باشا (١٨٦٨ – ١٨٧٣) وهو اوروبي الاصل حلبي المولد . وكان يشغل وظيفة في اركان جيش فؤاد باشا في بيروت . لم يطالب فرنكو كما طالب قبلا داود باشا بالحاق البقاع وصيدا بلبنان ، لا بل ان تعليمات صدرت اليه من الدوائر التركية العليا بان يهمل الطلب الذي كان قد تقدم به اهالي صيدا طالبين الالتحاق بلبنان . وعند بدء ولاية فرنكو كان السلطان قد اصدر قانونا صارماً يقضي بمراقبة كل ما ينشر . فكان هذا سببا في ظهور مطابع وجرائد عديدة في جبل لبنان حيث لم يكن هـذا القانون من مفعول . واعلنت الحكومة العثمانية القوانين والشرائع كما تتضمنها « المجلة » المبنية على المذهب الحنفي في الفقه والتي تتناول المبيع والشراء والايجـار والقروض والشراكة وخلافها من الامور . والى جانب احكام المجلة فقد انشئت المحاكم المدنية المبنية على انظمة من القوانين العلمانية العصرية[١].

كان رستم باشا (١٨٧٣ ــ ١٨٨٣) نبيلا ايطالي المولد . وكان سفيراً لبلاده في سانت بطرس برج ومرشحاً لسفارة لندن دشن عهد ولايته بتحديه سلطـة الاكليروس الماروني ونفوذه المتزايدين ، وكان سلفه داود قـد سعى لاستمالتهم واقناعهم بصلاح النظام الجديد . فانه عندما اخذ الاقطاع الماروني والارستقراطي

---

١ – Herbert J. Liebesny, « Impact of Western Law in The Countries of The Near East », *The George Washington Law Review*, vol. XXII (1935), pp. 127-41 .

يفقد سلطته ونفوذه اخذ الاكليروس المـــاروني يحل محله رويداً رويداً . وكان البطريرك الماروني، من بين جميـــع رؤساء الطوائف الروحيين ، الرئيس الروحي الوحيد الذي كان يمارس سلطته على رعايا كنيسته بدون براءة رسمية من السلطان. وقد اصر بطاركة الموارنة على رفض طلب البراءة من الباب العالي .

كان رستم باشا في حال وقوع عجز في الميزانية اللبنانية يطلب الى ناظر الخزينة العثمانية ان يبعث اليه بهذا العجز الذي كان قدره في غالب الاحيان خمساً وعشرين الف ليرة عثمانية ذهبية . غير ان تعليمات صدرت اليه ان يكفّ عن طلب العجز . فما كان منه الا ان خفض رواتب الموظفين الى نصف ما كانت عليه ممهداً بذلك السبيل لتفشي الرشوة والبخشيش الذي وصل الى حالة مخزية في عهد ولاية خلفه واصه باشا (١٨٨٣ ــ ١٨٩٢) الذي لم يسلم هو ذاته من الاتهام بانه كان يرتشي. وقد تميز عهد ولايته بهجرة خطيرة لقسم كبير من المواطنين اللبنانيين الى مختلف الاقطار عبر البحار وفي عهد ولايته عبد الطرق الرئيسية التي تربط بـــين زحلة وعاليه وكفرشيما ودير القمر وبين بيروت . كذلك عبّد الطريق بين بعبدا وبيت الدين . وجعلها جميعها صالحة لمرور العربات . وكمل الطريق الشمالي من بيروت الى جنوبي طرابلس . وفي سنة ١٨٨٨ انشئت ولايـــة بيروت وفصلت عن دمشق . وكلا المتصرفين واصه وفرنكو توفيا قبل نهاية ولايتهما ودفنا باحتفـــال رسمي في الحازمية في مكان لا يزال يعرف الى يومنا هـــذا بقبر الوالي على طريق بيروت ــ دمشق عند سفح الجبل . اما نعوم باشا ، صهر فرنكو ، وخلف واصه (١٨٩٢ ــ ١٩٠٢) ، فقد جددت ولايته مرة ثانية وفي كلتا الولايتين لم يتميز حكمـــه بشيء يذكره له التاريخ. غير انه اكمل الطريق الشمالية الى طرابلس والجنوبية الى صيدا . وفي السنة الاولى من ولايته بدأت شركة سكة بيروت ــ دمشق – حوران الحديدية بانشاء السكة الحديدية التي ا ِت سنة ١٨٩٥(١) . وفي عهد مظفر باشا (١٩٠٢ ــ ١٩٠٧) الذي كان بولندي الاصل بلغ الفساد في الحكم مبلغاً لم يعرف مثله من ذي قبل . حتى ان افراد عائـــلة مظفّر باشا كانوا يُتّهمون باستغلال البـــلاد

(١) Vital Cuinet, *Syrie, Liban et Palestine* (Paris, 1896), pp. 42-3; 360-2. M. Jouplain, *La Question du Liban* (Paris, 1908), pp. 551-2 ; Comité de L'Orient, *Les Oeuvres françaises en Syrie* (Paris, 1919), pp. 3-9.; Élefthériadès, pp. 43 seq .

سورية ولبنان

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

وباستغلال ساكنيها . وكان مظفر قد وعد باجراء الاصلاح في القضاء وفي الحياة الاقتصادية ولكنه لم يف بوعده، ولم يحقق اي اصلاح اما عهدالمتصرف يوسف فرنكو (١٩٠٧ ـ ١٩١٢) ابن المتصرف الثاني، فقد تميز بتذمر الشعب ومطالبته بالاصلاح وذلك بسبب موجة التفاؤل التي بعثتهـا ثورة ١٩٠٨ . وبلغ التذمر والتململ اشده بين الناس في عهـد خلفه الارمني اوهانس كويومجيان الذي كان متصرفاً اثناء الحرب العالمية الاولى كان اوهانس آخر متصرف عرفه لبنـان . وفي اثناء الحرب العالمية الاولى ، سنة ١٩١٥ ، اقام الاتراك حاكماً تركياً . وظل الحكم التركي المباشر معمولا به الى ان احتل الحلفاء لبنان سنة ١٩١٨[١] .

نواح مشرقة :

انـه بالرغم من فساد حكم المتصرفين وسوء ادارتهم ، وبالرغم من اقتطاع اجزاء كبيرة من لبنان، وسدالنوافذ عليه للوصول الى البحر ، وحرمانه من المناطق الخصبة · الساحل والبقاع ، فان لبنان ـ بفضل نشاط سكانه وحسن تدبيرهم وقدرتهم على التكيف ـ كان ينعـم بفترة ازدهرت فيها الثقافـة والاقتصاد ، وتوطدت فيها اسباب الامن والاستقرار مما اعطى لبنان قصب السبق بين سائر الولايات العثمانية الاسيوية أوالأوروبية. فقد ازدهرت على سفوحه الصخرية قرى عديدة تحيط بها الكروم والبساتين والمزارع والمدرجات كأنها جنائن معلقة . وكان لبنان يعد من احسن منـاطق الشرق الادنى حكما وازدهاراً اقتصادياً وامنـاً وهناء[٢] . فانه في خـلال عشرين او ثلاثين سنة ارتفع سعر الارض والممتلكات مئة ضعف . ويجب ان يكون المثل اللبناني المشهور « هنيئاً لمن له مرقـد عنزة في جبل لبنان » قد وضع وشاع في هذه الاثناء .

١ ـ للاطلاع على المزيد من هذه الحقبة راجع :
George-Samné, *La Syrie* (paris, 1920), pp. 209 - 32 ;
الدبس ، الجزء الثامن ، ص ٦٨٥ ـ ٦٨٧ . المسعودي (بولس مسعد) الدولة العثمانية في لبنان وسورية (القاهرة ١٩١٦) ص ٧٤ ـ ٧٩ .

٢ ـ Cf. William Miller, *The Ottoman Empire and its Successors*, 1801-1927 (Cambridge, 1936),pp. 300-3; Charles E. D. Black, *The Marquess of Dufferin and Ava*, (London, 1903), p. 59; Jessup, pp. 211—12 .

ولم تكن حركة الستين كلها شؤماً وظلاماً . فقد كان لهـا ، فضلا عن كونها السبب المباشر في استقلال لبنان وضمان استقلاله من قبل الدول الاوروبية ، نواح اخرى مشرقة . فانها استثارت عطف الدول البروتستانتيـة نحوه . ففي الفترة الواقعة بين آب وايلول من تلك السنة قدّمت لجنة انكلوسكسونية في بيروت جلّ اعضائها من المرسلين المقيمين في البلاد الغوث والعون الى عشرين الف لاجيء[١]. واصبحت المؤسسات العلمية والخيرية التي كانت قـد تأسست قبل هـذه الفترة مؤسسات دائمة تقوم على دعائم متينة واسس ثابتة . ونشطت المؤسسات التربوية الافرنسية والكاثوليكية الاخرى ، بعد ان كانت قد انقطعت عن العمل اثنـاء ١٨٦٠ ، وتابعت اعمالها بقوة وحماس جديدين . وانتقل معهد اللاهوت اليسوعي الذي كان تد تأسس في غزير سنة ١٨٤٦ (حيث كتب ارنست رينان كتابـه المشهور « حياة المسيح » سنة ١٨٦٠) الى بيروت سنة ١٨٧٥ واصبح النواة التي نشأت حولها جامعة القديس يوسف اليسوعية الحالية في بيروت. وانشأ اليسوعيون مدارس اخرى عالية للصبيان في زحلة وتعنايل وبكفيا وجزين . وفي سنة ١٨٤٦ شرعت راهبات القديس يوسف من مرسيليا بانشاء مدارس داخلية وخارجيـة ومياتم ومؤسسات خيرية في بيروت وصيدا وصور وحمانا وفي غيرهـا من القرى اللبنانية . ثم تلاهن بعد ذلك سنة ١٨٧١ راهبات الناصرة من ليون ، ثم راهبات العائلة المقدسة فراهبات الراعي الصالح . وتأسست سنة ١٨٥٣ رهبنة وطنيـة تعرف بجمعية المريمات التي اتبعت في نظامها النظام الافرنسي. وكان مقرها بكفيا، ومن بكفيا خرجت الراهبات ليؤسسن عشرين مدرسة في القرى المجاورة . وقد كان عدد البنات التلميذات في مدارس هذه الرهبنة مع رهبنة اخرى مقرها زحلة سنة ١٩١٤ ستة آلاف ابنة موزعات في مدارسهما البالغ عددها الثلاثين. وفي هذه الحقبة كان لفرنسا في سورية ولبنـان وفلسطين خمس مئة مدرسة تمثل عشرين مجتمعاً طائفياً تضم بين جدرانها خمسين الف تلميذ وتلميذة[٢] .

١ – Jessup, pp. 251, 811 ; Anderson, vol. II, pp. 350 - 1 .

٢ – Ristelhueber, pp. 74 - 92, 261 - 2, 279 - 80 ; George-Samné, pp. 184 - 208 ; *Lubnan,* pp. 202 - 8, 465 séq., 470 ; Khairallah, pp. 44 - 6 ; Chambre de Commerce de Marseille, *Congrés français de la Syrie : Séance et travaux,* fascicule III (Paris, 1919) .

وفي شهر تشرين الاول سنة ١٨٦٠ جاءت الارساليـــة الانكليزية السورية واسست لها مدارس للصبيان وللبنات في بيروت وزحلة وبعلبك وعين زحلتـــا وشملان وحاصبيا . وفي تلك السنة ذاتها فتحت مدرسة لتدريب المعلمات في مدينة بيروت ، وهي لا تزال الى يومنا هذا وتعدّ من احسن المعاهد لتدريب المعلمـــات للمدارس الابتدائية والثانويه . وقبل انتهاء السنة جاءت الراهبـــات الروسيات اللواتي كنّ يتخصصن في المياتم والمستشفيات وأسسن لهن مركزاً في صيدا . ومن ثم انتقلن الى بيروت . وقد اختار فرسان القديس يوحنا بيروت مركزاً لتأسيس مستشفى كان يعرف بمستشفى القديس يوحنا . وقد وهبهم فؤاد باشا، وزيرخارجية الدولة التركية ، قطعـــة ارض على هضبة صخرية في رأس بيروت ليبنوا فيهـــا مستشفاهم (وكان يعرف بالمستشفى الالماني وهو الآن مقر السفـــارة الافرنسية بالقرب من الجامعة الاميركية) . وكان المستشفى الالماني من احدث المستشفيات في المنطقة باسرها . وكانت الراهبات الممرضات يدرن شؤونه ويعتنين بالمرضى . وبعد زمن اخذ اساتذة كلية الطب في الكلية السورية الانجيلية (وهي اليوم الجامعة الاميركية في بيروت) يمارسون مهنتهم في هذا المستشفى . وفي مستهل سنة ١٨٦٣ اتخذت الارسالية الاميركية، قراراً بتأسيس كلية للتعليم العالي كانت تعرف بالكلية السورية الانجيلية والتي هي اليوم الجامعة الاميركية في بيروت .

وقبل ان ينصرم العام كانت الارساليات الاميركية قد أسست لها مراكز في عبيه وسوق الغرب وصيدا وحاصبيا وطرابلس ، وانشأت فيهـا مدارس في تلك السنة وبعدها . وثلاث من هذه المدارس لا تزال قائمة الى عهدنا هذا[١] وفي سنة ١٨٧٧ اضيف الى مدرسة سوق الغرب قسم للطلبة الداخليين . ومنذ مدة قصيرة استلمت ادارتها هيأة من خريجيها القدماء وجعلوا منها مدرسة ثانوية ممتازة . وفي سنة ١٩٠٩ أنشأت الارسالية الاميركيـة مصحاً للمصدورين في المعاملتين بالقرب من جونية ، اسستة الدكتورة ماري ادي احدى المرسلات الاميركيـــات . وقبل

١ - Frederick J. Bliss, *The Reminiscences of Daniel Bliss,* (New York, 1920), pp. 166 seq. ; Jessup, pp. 254, 811 ; Roderick D. Mathews and Matta Akrawi , *Education in Arab Countries of the Near East* (Washington, 1949), pp. 499 - 502 .

ذلك كانت قد مارست الطب سنوات في صيدا وجوارها . وعلى الارجح انها كانت اول امرأة مارست مهنة الطب في السلطنة العثمانية باجازة رسمية . وقد نقل المصح بعد ذلك الى الشبانية بالقرب من حمانا وهو مصح مشهور للآن يعرف بمصح هملن . وفي سنة ١٨٩٧ أسس مرسل الماني اسمه ثيوفيلوس والدميتّر — وهو الذي بنى المدرسة الانكليزية لجمعية الاصدقاء في برمانا — أول مستشفى للمصابين بالامراض العقلية في مكان قرب الحازمية يعرف بالعصفورية[١] وقد ظل هذان المصحان — مستشفى الامراض العقليـة في العصفورية ومصح الشبانية لامراض السل — المصحين الوحيدين في البلاد مدة عشرات السنين . وكان المرضى يأتونه من جميع اقطار الشرق الادنى حتى من اماكن نائية كايران . وكان الناس الى سنة تأسيس مستشفى العصفورية (١٨٩٧) — وفي الولايات المتحدة الى سنة ١٨٥٠ — يعتقدون ان العلاج الوحيد للمصابين بالامراض العقلية هو الحجر عليهم وربطهم بالحبال وتقييد ايديهم بالاغلال . وكان الموارنة يرسلون المصابين بالجنون الى دير قزحيا للحجر عليهم في غرف مظلمة والصلاة من اجلهم .

لقد فاق لبنان سائر الاقطار العربية المجاورة له في تجاوبه مع المدنية الغربيـة تجاوباً تلقائياً وتجاوبـاً حميداً . ولم يقنع ان يأتي الغرب اليه . بل كان يسعى ان يذهب هو نفسه الى الغرب . وفي السنوات العشر او العشرين التي تلت سنة ١٨٦٠ هاجر اللبنانيون الى زوايا الدنيا الاربع طلبا للعيش الرغيد . وفي خلال نصف قرن من الزمن استحال لبنان فعلا من بلد يعيش في العصور المتوسطة الى بلد عصري . ولقد أظهر الكولونيل تشرشل بعد نظر عجيب (لولا بعض التحيز الانكليزي) في تنبؤه عن مستقبل لبنان اذ كتب سنة ١٨٥٣ :

« عندما ينفصل لبنـان عن السلطنة التركية يجب ان يصبح ولاية انكليزية او دولة جديدة مستقلة . وبالرغم من انـه بلد لا مطمع له في التوسع الجغرافي ، وبالرغم من انه لا يملك قوة عسكرية يُخشى جانبها فانه يستطيع كدولة مستقلة ان يحافظ على كرامته وهيبته . وسيكون لبنان حريصاً بصورة خاصة على رسالته التي

---

١ — Jessup, pp. 521 - 2

من اجلها وجد ، والتي بفضل موقعه الجغرافي يستطيع إداءها على اتم وجه ، نعني ان يكون مركزاً تجارياً ممتازاً يجذب اليه مختلف الاجناس البشرية المتباينة المتباعدة فيوحد بينها برباط من الانسانية والاخوة والصفاء[١] » .

١ – Churchill, *Lebanon*, vol. I, p. VIII.

الفصل الحادي والثلاثون

وقع مدنية الغرب على لبنان واليقظة العصرية

كان لبنان بفضل مجاورته للبحر ، وبفضل اكثرية سكانه المسيحية ، وبفضل اتجاهه نحو الغرب منذ العهد الفينيقي فالروماني - البيزنطي الى ايام فخر الدين المعني والامير بشير ، اسرع تجاوباً مع تيار الافكار العصرية الغربية واكثر ميلا لتقبل الحضارة الاوروبية. فقد كانت الستائر التي اسدلها الاتراك على سائر الولايات اشد كثافة من الستائر التي اسدلوها حول لبنان ، فلم تستطع اشعة النور ان تنفذ الى تلك الولايات كما نفذت الى لبنان. وبينما كان اهتمام الاتراك منصبا على انشاء شبكة من الطرق التي تربط بين اجزاء امبراطوريتهم في الشرق الادنى وبين الممالك المجاورة لهم كانت الدول الغربية تتطلع الى طريق جديدة توصلهم الهند فالشرق الاقصى. ولم تكتف اوروبة بانها اكتشفت طريقاً الى الهند بالسفر بحراً حول افريقية بل انها وفقت ايضاً عن طريق المصادفة الى اكتشاف القارة الاميركية: الشمالية والجنوبية. فازداد الشرق العربي تحت الحكم العثماني عزلة وانكماشا ، وهذه العزلة وهذا الانكماش كانا من اسوأ ما اصاب العالم العربي من شرّ فانه ادى بالعرب الى شبه سبات صدّ عنه تيارات الفكر الخارجية المعاصرة اللازمة لكل تلقيح فكري منتج. في هذه الاثناء عندما وقع العرب في هذا السبات الفكري كانت اوروبة تشق حجب المجهول باكتشافاتها العلمية وبوسائلها التقنية مما دفع بها الى آفاق اجتماعية واقتصادية جديدة ، بحيث اتسعت الهوة الاجتماعية الاقتصادية بينهما . ولكن لما شقت ترعة السويس سنة ١٨٦٩ واختصرت الطريق البحرية المباشرة بين الشرق والغرب ، وانشئت الخطوط الحديدية وطرق السيارات المعبدة ، واخيراً لما اصبح الشرق الادنى نقطة هامة في المواصلات الجوية ، نقول لما تطورت طرق المواصلات هذه عادت الى الشرق الادنى اهميته الستراتيجية التاريخية كصلة بين الشرق والغرب . وفضلا عن هذا فان الشرق الادنى ذاته اخذ يستيقظ من سبات العصور المتوسطة ليلحق بركب الحضارة والتقدم . وقد صدق من شبّه طرق المواصلات

بالجهاز العصبي للحضارة العصرية .

وبالرغم من ان لبنان كان منذ اقدم الازمنة التاريخية على اتصال جغرافي وفكري باوروبة فإن التغييرات الجذرية في حياة لبنان لم تحصل الا في القرن التاسع عشر ، ولم يأخذ لبنان باسباب المدنية العصرية الا في هذا القرن . ولقد طبع هذا التغلغل الحضاري الفكري الغربي لبنان واللبنانيين بطابع مميز ، واصبح لبنان رائداً في تقريب الحضارتين الغربية والشرقية ، وفي التوفيق بين عناصرهما المتباينة . ولان لبنان اول بلد حرر نفسه من قوقعة القديم فانه اصبح مركز اشعاع فكري – وكثيرون من ابنائه يسمونه بلد الاشعاع – يشع منه نور الفكر والتحرر الى البلدان العربية المجاورة . وفي تجاوبه مع الحضارة الاوروبية يختلف لبنان عن تركيا في أن تركيا فرضت الحضارة الغربية على ابنائها بقانون كانت تعاقب بموجبه مَنْ لا يتقبل الحضارة الغربية . ويختلف كذلك عن سائر الاقطار الشرقية والافريقية في ان السياسة والاقتصاد وجدا سبيلهما الى هذه البلدان اولا ثم الافكار الحضارية ثانياً . بينما كان تقبل الحضارة الغربية في لبنان والتجاوب معها تلقائياً وتدريجياً ذلك لانه تعرض اولاً للافكار الغربية بصورة طبيعية ، ولمس الحياة الغربية عن كثب . وبكلام آخر لم تفرض عليه فرضاً ولا اجبر على تقبلها . وقد اختار المرسلون قرى لبنان الجميلة ذات المناخ الصحي نقطة الانطلاق مخالفين بذلك العرف الشائع الذي يبدأ بالمدن كنقطة انطلاق في تحضير البلاد وفي التأثير عليها . ولم تكن حملة نابليون ولا الحملة المصرية العامل الرئيسي الفعال في احداث التغييرات الجذرية في الحياة اللبنانية ، بل كان تمهيد السبيل لتغلغل الافكار الحديثة هو العامل الرئيسي في ادخال الحضارة الغربية الى لبنان . ولنا ان نقول ان دخول الحضارة الغربية الى هذه المنطقة يعد العامل الاول في تطور تاريخها الحديث . فان جميع الاحداث والتغييرات التي طرأت عليها من سياسية واجتماعية واقتصادية وروحيه وعقلية يمكن ردها مباشرة او بالوساطة الى هذا العامل : وقع الحضارة الغربية في حياة الناس .

المؤسسات التربوية الكاثوليكية والبروتستانتية

كانت جهود الارساليات التربوية ، في القرن التاسع عشر ، الكاثوليكية اولا – وجلهم من الافرنسيين – ثم البروتستانتية – وجلهم من الاميركان – الحافز الاول في ايقاظ الحياة الفكرية . وكانَّ النصارى من سكان البلاد ، على انهم اول من نال قسطاً من الثقافة الغربية ، رواد الحركة الفكرية الغربية كما كان اجدادهم لما نقلت العلوم اليونانية والفلسفة اليونانية الى العربية . وقد جاء تأسيس جامعة القديس يوسف في بيروت سنة ١٨٧٥ ذروة اعمال الارساليات الكاثوليكية التربوية . وبعد مضي ست سنوات على تأسيسها ثبتها قداسة البابا كجامعة . وفي سنة ١٨٨٣ اعترفت بها وزارة التربية الافرنسية ووافقت على منحها مساعدة مالية سنوية لفتح كلية للطب التي الحق بها فيما بعد فرع للصيدلة . ومن غريب المناقضات ان هذا العون المالي من قبل وزارة المعارف الافرنسية اتى في وقت كانت فرنسا تطرد فيه اليسوعيين من بلادها . وفي سنة ١٩١٣ اضيف الى هذه الجامعة كليتان اخريان تحت رعاية جامعة ليون الاولى للهندسة والثانية للحقوق . اما كلية طب الاسنان فقد انشئت عام ١٩٢٢ . وقد انشىء الى جانب معهدي اللاهوت والفلسفة عند مستهل القرن العشرين معهداً آخر للدراسات الشرقية . ولهذا المعهد الشرقي مكتبة من اغنى مكاتب العالم في هذا الحقل . ويعنى هذا المعهد بالبحث والتنقيب والنشر على اسس علمية رفيعة لم تكن معروفة بعد في الشرق[١] . وقد الحقت بالجامعة المطبعة الكاثوليكية التي تأسست سنة ١٨٥٣ . وهذه المطبعة هي اليوم من خير المطابع في الشرق العربي تجهيزاً واخراجاً . تتبع جامعة القديس يوسف اليسوعية نظام الجامعة كما هو معروف في اوروبة . فانها تعنى بالدرجة الاول بتقديم منهاج من الدراسات الجامعية العالية الخاصة وتهيء الطلاب لنيل درجة جامعية . ولا تهتم كثيراً بحياة الطلاب الاجتماعية اذ ليس عندها الوسائل لاقامة الطلاب في مبانيها ، بعكس ما هو الحال في زميلتها الجامعة الاميركية في بيروت . ان فكرة الجامعة كما هي عليه في اميركا بمبانيها المخصصة لسكنى الطلاب ، وملاعبها

---

١ – *Annuaire de l'Université St. Joseph* (Beirut , 1953 - 4) ; Cuinet, pp. 61 - 2 .

وجمعياتها ، وحياتها الاجتماعية ، فكرة غريبة في بعض البلدان الاوربية . تأسست الجامعة الاميركية سنة١٨٦٦ باسم الكلية السورية الانجيلية. وهي تمثل ذروة الجهود التربوية التي قام بها الاميركان. وهي تتبع نظام الجامعة كما هو معروف في اميركا. فانها تعنى بسكنى الطلاب ومأكلهم وملاعبهم وحياتهم الاجتماعية خارج الصفوف بما في ذلك تأسيس الجمعيات والاندية الادبية – وجميع هذه الامور غريبة عن النظرة الشرقية الى المعهد العلمي التربوي . وتعنى الجامعة الاميركية في بيروت بتنمية الاخلاق الحميدة وتشجع اقامة العلاقات الشخصية بين الطالب والمعلم . ويتجلى حرصها في الحفاظ على التراث القومي في جعلها اللغة العربية لغة التدريس في بادىء امرها . ولكنها اضطرت اخيراً للتخلي عن هذا التقليد الجميل لاسباب عديدة منها تنوع الجنسيات التي كانت تتمثل على ارض الجامعة ، ومنها صعوبة ايجاد المعلمين من ذوي الخبرة الكافية في اللغة العربية ، وصعوبة ايجاد الكتب المدرسية ، وتخلف العربية ذاتها عن اللحاق بركب العلوم والفلسفة[١] . وهذه الجامعة بكلياتها المختلفة للعلوم والآداب والطب والصيدلة والهندسة والزراعة تعد من افضل الجامعات الاميركية خارج اميركا اثراً وأبعدها شهرة . والعقائد الوطنية وقيادة الحركات الفكرية والوطنية في الشرق العربي يرجع الفضل فيها الى خريجيها . ولقد عبر رئيسها الاول دانيال بلس عند وضع الحجر الاساسي للبناية الاولى الرئيسية فيها عن سياستها التعليمية الحرة وعن غايتها النبيلة بقوله :

« ان هذه الكلية تفتح ابوابها لجميع الطلاب على اختلاف ظروفهم وطبقاتهم دون اي اعتبار للون او التابعية او العرق او الدين . ويستطيع كل انسان ، سواء أكان ابيض ام اسود ام اصفر، وسواء أكان مسيحياً ام يهودياً ام مسلماً ام وثنياً، ان يدخل هذه الكلية ويفيد من كل ما تقدمه له هذه المؤسسة من خدمات مدة ثلاث او اربع او ثماني سنوات ويخرج منها وهو يؤمن بالله واحد او بالهة عديدين او ملحداً لا يؤمن بالله . ولكن يستحيل على اي انسان ان يقيم بين ظهرانينا على ارض هذه المدرسة مدة من الزمن دون ان يعرف الحقيقة التي نؤمن بها ودون ان

١ – Bliss, *Reminiscences,* p. 215

يعرف الاسس والاسباب التي تدعونا الى هذا الايمان بالحقيقة[١] » .

ان التبشير الديني الذي تميزت بــه جهود المرسلين في باديء الامر اخفق لان هذه الرسالة الدينية لم يكن لها في نفوس الناس ذلك الاثر او الصدى الذي ترقبه المرسلون والذين بعثوا بالمرسلين الى هذه البلاد . فبدأ التبشير الديني يحتل مرتبــة ادنى واخذ المرسلون يدركون اهمية التربية والتعليم . ان الذين التحقوا بالطوائف التي تمثلها الارساليات البروتستانتيــة كانوا مسيحيين ، وبنوع خاص من الكنيسة الارثوذكسية. وعوضاً عن ان يظلوا في كنائسهم القديمة المحترمة ذات التقاليد القديمة كعامل جديد مثقف مستنير يعمل على اعادة الحيوية في هذه الكنائس فان المرسلين جمعوهم في بيروت سنة ١٨٤٨ في طائفــة واحدة واطلقوا عليهم اسم « الكنيسة الانجيلية السورية » . اما التبشير الديني بــين المسلمين فلم يكن له اي اثر يذكر . واما مقاومة الاكليروس المــاروني لاعمال التبشير البروتستانتية فقــد كانت عنيفــة . فانه عندما اعلن المعــلم اسعد الشدياق الذي علّم بلني فسك ، اول المبشرين الاميركان ، اللغة العربية ، بروتستانتيه استدعي الى قنوبين ، وعنــدما عجز البطريرك عن رده الى مارونيته القي في غرفــة من غرف الدير حيث مات سجينا (حوالي ١٨٣٠) . وفي الحال اعلن المرسلون ان اسعد الشدياق كــان « اول شهيد[٢] » .

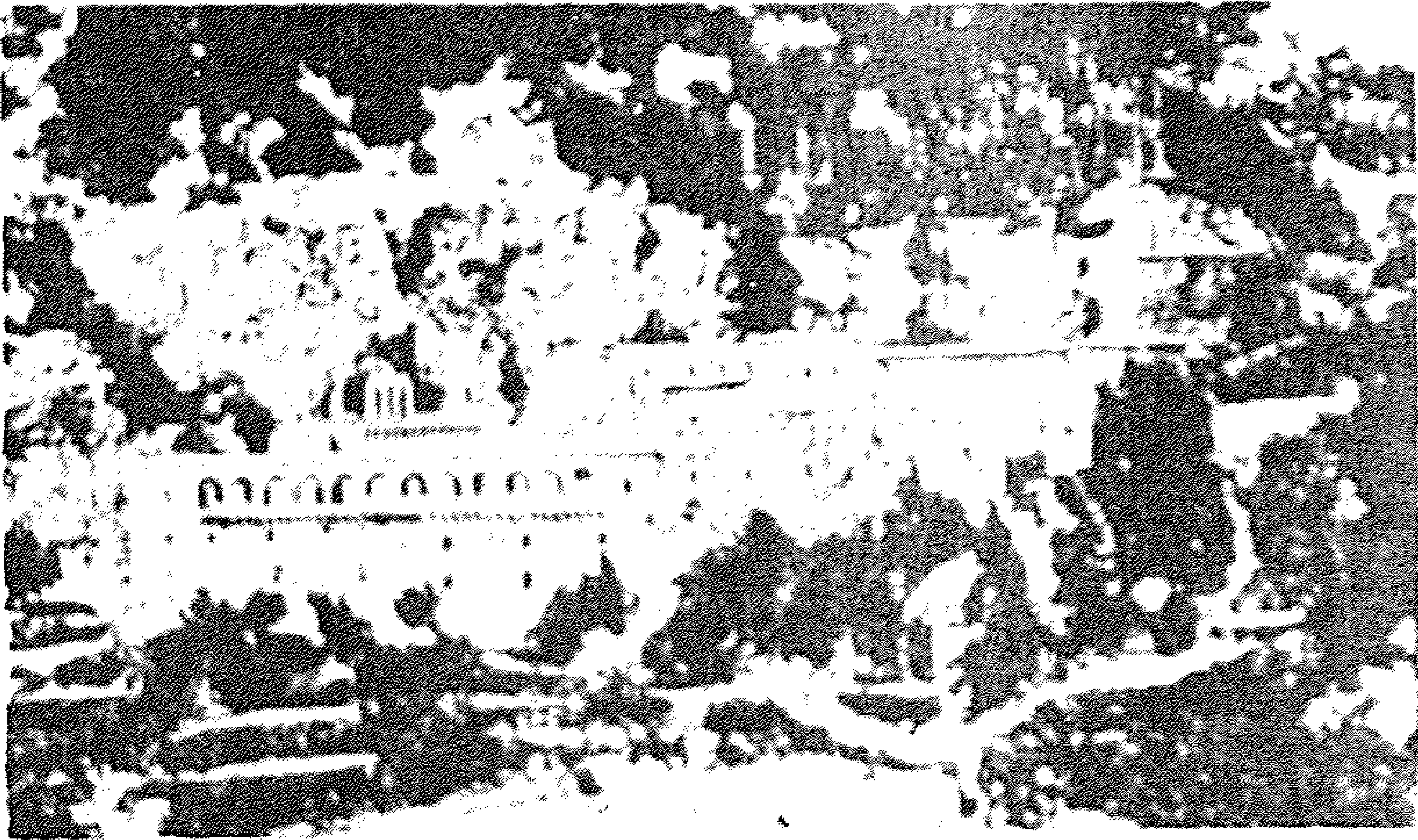
كان لاسعد اخوان اشتهر اسمهما : طنوس الشدياق (توفي حوالي ١٨٦١) وفارس الشدياق (١٨٠٤ – ١٨٨٧). وكان طنوس قاضيا عند الامراء الشهابيين. وقد الف كتابا رجعنا اليه مراراً في هذا المؤلف عنوانه « اخبار الاعيان في جبل لبنان». وفي ثورة الستين خسر جميع ممتلكاته في بلدته الحدث بما في ذلك مخطوطة قاموس كان قد الفه ، ولم يبق عنده لحاف يلتحف به[٣] . اما الاخ الثاني فارس

١ – *Reminiscences*, p. 198 .

٢ – Anderson, vol. I, pp. 52—71; Jessup, pp. 34—5, 40; Gregory M Wortabet, *Syria and the Syrians*, (London, 1856), vol. I, pp. 53—5; Churchill, vol. I, pp. 61—3 ,

٣ – الاب لويس شيخو : المخطوطات العربية لكتبة النصرانية (بيروت ١٩٢٤) ص ١٢٣ . Jessup, p. 183 .

الشدياق فقد درس في عين ورقة ثم التحق بخدمة المرسلين الاميركان ، فكان يقف على مطبوعات المطبعة الاميركية ومنشوراتها عندما كانت لا تزال في مالطة. وكان شاعراً ، وقد نظم قصيدة مدح بها باي تونس فلاقت عنده الاستحسان الشديد . فأرسل يستدعيه ليكون في خدمته . وارسل الباي سفينة خاصة تقله . وفي تونس اعتنق الاسلام واضاف الى اسمه اسم احمد : احمد فارس الشدياق. وفي سنة ١٨٦٠ اصدر في استنبول جريدة عربية اسمهـا « الجوائب » وهي من اقدم الصحف



دير مار انطونيوس قزحيا القديم حيث انشئت اول مطبعة عربية في لبنان

العربية . ويقال انه اول من اطلق لفظة « جريدة » على الصحيفه اليومية . وقد اشتهر بكتاباته النقدية العنيفة اللاذعة سواء اكان في الادب ام في الادباء أوغيرهم من النـاس . وقد نقلت رفاته حسب وصيته الى الحازمية القريبة من موطنه الاول الحدث[١].

١ – جرجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٢٢) الجزء الثاني ص ٧٤ – ٨٣ . الاب لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، الطبعة الثانية ، الجزء الثاني (بيروت ١٩٢٦) ص ٨٦ – ٨٨ . الكونت فيليب دي طرازي: تاريخ الصحافة العربية ، الجزء الاول (بيروت ١٩١٣) ص ٧ ، ٩٦ – ٩٩ .

المطبعة

نقلت الارسالية الاميركية مطبعتها المعروفة بالمطبعة الاميركية من مالطة. حيث اسست اولا ، الى بيروت (١٨٣٤) قبل تأسيس الجامعة الاميركية . واول عمل عظيم شرعت به الارساليه كان ترجمة التوراة والاناجيل الى لغة عربيـة فصيحة سهلة لتضعهما في متناول الطبقـات العامة من الناس . وقد استغرق العمل ثماني سنوات. وقد قام بالترجمة مبشر اسمه عالي سمث (Eli Smith) خريج جامعة ييل ، وكورنيليوس فان ديك المشهور الذي كان احب المبشرين الى قلوب الناس واقربهم اليهم . وكان يعاونهم في هذا المشروع العظيم ثلاثة علماء من الوطنيين سنأتي على ذكرهم قريباً . وبواسطة المطبعتين الكاثوليكية والاميركية . والجامعتين اليسوعية والاميركية ، توفرت للبلاد سبـل التفاعل الادبي والعلمي بين الغرب والشرق فنشطت حركة الترجمة من اللغات الاجنبيـة الى العربية ومن العربية الى اللغات الاجنبية ، ونقلت امهات الكتب واحدث الافكار الغربية في العلم والادب والنقد الى العربية .

وقبل ان يؤسس الاميركان والكاثوليك مطبعتهم ، كان في لبنان وسائـل للطبع ولكن لم تكن بالوسائل ذات الكفاءة الفعالة . فقد كـان في دير قزحيـا (ومعنى اسمه « كنز الحياة ») في وادي قاديشا مطبعة تعد اقدم مطبعة في العـالم العربي على الاطلاق . ويرجح ان طالباً من الطلاب الموارنة الذين كانوا يدرسون في رومة ـ وقد اشرنا سابقاً الى هذا المعهد ـ ادخل هذه المطبعة الى الدير وفي سنة ١٦١٠ اصدرت هذه المطبعة نسخة من سفر المزامير باللغة العربية . انما كان سفراً مكتوباً بالحرف السرياني (الكرشوني) كما كان شائعـاً في لبنان[١] في ذلك العهد . وفي اوائل القرن التاسع عشر تأسست في دير طاميش من اعمال كسروان مطبعة سريانية. ثم في سنة ١٨٥٥ تأسست مطبعة عربية في الدير نفسه[٢]. وفي سنة ١٧٠٢ تأسست في حلب اول مطبعـة عربية بحروف عربية في الشرق . وكـان

---

١ ـ نصر الله ، ص ١ ـ ٦ ، ١٤٠ .

٢ ـ انطونيوس شبلي ، في مجلة المشرق ، المجلد ٤٦ (١٩٥٢) ص ٥٩٥ .



حفر في الخشب من صنع عبد الله زاخر

مؤسسها البطريرك اثناسيوس الدباس الذي يرجح انه استحضر آلاتها من الفلاخ (Wallachia) . وقد سبك امهات الحروف شماس من الروم الكاثوليك اسمه عبدالله زاخر (١٦٨٤ ــ ١٧٤٨) وهو سوري الاصل لبناني الموطن . وفي سنة ١٧٣٣ انتقل عبدالله الى دير مار يوحنا الصابغ (يوحنا المعمدان) بالقرب من بلدة الخنشارة حيث شرع في تأسيس مطبعة جديدة[١]. وفي دير للروم الارثوذكس في بيروت اسس يونس الجبيلي المعروف بابي عسكر مطبعة اتبع فيها الحرف الذي كان مستعملا في دير مار يوحنا . واول كتاب اصدرته هـذه المطبعة في بيروت كان سفر المزامير (١٧٥١)[٢] . غير ان الفاتيكان كـان اول من اسس مطبعة عربية في التاريخ ــ اي قبل هذه المحاولات التي جرت في الشرق والتي اشرنا اليها آنفاً ــ نعني مطبعة فانو في ايطاليا . ولا يزال لدينا من مطبوعات هـذه المطبعة كتاب للصلاة يعود تاريخه الى سنة ١٥١٤ . وقد تكون مطبعة فانو العربية هي ام المطبعة التي اسسها البطريرك الدباس في حلب . ولما اسس محمد عـلي باشا مطبعة بولاق في القاهرة سنة ١٨٢٠ استدعى رجلا سوريا اسمه نقولا المسابكي ، الذي كان قد قضى اربع سنوات في ايطاليا يتقن فن الطباعة ، ليكون مديراً لهـا . ويبدو ان المسلمين لم يرضوا في بادىء الامر عن الطبـاعة بالحرف المتحرك بـل كانوا يؤثرن الكتابة باليد[٣] . التي اصبحت فنا من الفنون الجميلة واكتسبت شيئاً

---

١ ــ نصر الله ص ١٧ ــ ٣٢ .

٢ ــ الاب لويس شيخو في مجلة المشرق ، المجلد الثالث (١٩٠٠) ص ٥٠١ ــ ٥٠٢ .

٣ ــ A. Demeerseman in *IBLA*, vol. XVII (1954), pp. 1-46, 113-40

من القدسية والاحترام لان القرآن الكريم كـان ينسخ نسخاً باليـد . ولا يزال المسلمون الى يومنا هذا يبدون اعتراضاً على طبع القرآن بالحرف العصري المتحرك ويؤثرون ان يطبع على الحجر . ولذا كانت الطباعة الحديثة في بادىء الامر وقفاً على نصارى سورية ولبنان . ويعود الفضل في نقل الطباعة العربية الى اقطار العالم الخارجي ، الى المهاجرين من النصارى اللبنانيين .

لقد اختار الرهبان ان يعيشوا عيشة النسك والزهد في اديرة نائية منعزلة حيث يستطيعون ان يكرسوا حياتهم للدرس والصلاة والتأمـل والعنـاية بارض الدير وبالحيوانات التي يعيشون عليها . هؤلاء الرهبان ذوو اللحى الوقورة والملابس السوداء ، الذين اختاروا العيش الاسبارطي على الروابي العالية القريبة من السماء حيث يتنفسون الهواء النقي ، ابقوا مشعل الحياة المسيحية والحضـارة المسيحية منيراً . ان مرور الزمن لم يقو على النيل من اسوار الاديرة ، ولم يستطع كر السنين ان يخدش جدرانها. اما المطبعة فقد استطاعت ان تقوم بنشر المعرفة والنور اللذين ظلا زمناً وقفاً على رهبان الاديرة .

المكتبات العامة ودور بيع الكتب

قبل ان تأسست مكتبات الجامعـات كان الحصول على الكتب الثمينة امراً عسيراً . ذلك لان هذه الكتب كانت اما في حوزة العائلات الغنية الارستقراطية او في مكتبات الاديرة التي يتعذر على الناس الوصول اليهـا ، أو في المساجد والجوامع . وقد جمع محمد امين ارسلان (١٨٣٨ ــ ١٨٦٨) رئيس الجمعية العلمية السورية مكتبة في الشويفات كانت تضم ثلاثمئة مخطوط . ثم انتقلت هذه المكتبة الى حوزة اخيه الامير مصطفى ارسلان في عين عنوب ، ثم توزعت بعد ذلك بين الورثاء بعد وفاة الامير مصطفى[١] . اما مكتبة الفاتيكان والمكتبة الوطنيه في فرنسا وغيرها من المكتبات العامة في اوروبة فقد اشترت مجموعات كبيرة من اديرة الشرق وخزائنه . وكان اصحاب الكتب يحرصون غاية الحرص على الحفاظ عليها وعلى

١ ــ الكونت فيليب دي طرازي : خزائن الكتب العربية في الخافقين (بيروت ١٩٤٧) ص ٢٦٥ ــ ٢٦٦ .



دير مار انطونيوس بالقرب من اهدن

ابقائها في حرز حريز فلا تصلها ايدي اللصوص. ويبدو لك حرصهم على صيانتها من اللعنات التي يصبونها على من تخوله نفسه سرقتها . ولا يستنكفون ان يدّونوا هذه اللعنات على الصفحة الاولى من الكتاب أو على جلدته من الداخل . وهاك ما كتبه المطران جرمانوس فرحات (١٦٧٠ ــ ١٧٣٢) . مطران الكنيسة المارونية في حلب . في الوصية التي بموجبها وقف كتبه على مكتبة كنيسة مار الياس:

« من أخذ كتاباً من هذه المكتبة ولم يرجعه . فليكن محروماً مسخوطاً عليه مرذولاً من الله ومن حقارتنا ، وليكن مقطوعاً من جسد الكنيسة المارونية . ويكون بيته مثل صادوم وعامورة ويذهب رزقه وينهدم بيته ويشحذ أولاده من أبواب الخلائق... »[1] .

وألّف المطران جرمانوس عدة كتب منها كتاب في الصرف والنحو لا يزال مرجعاً لطلاب العربية هو كتاب بحث المطالب . وفي بيروت اشترت دار الكتب اللبنانية التي أنشأها الكونت فيليب دي طرازي بعض المكتبات الخاصة .

اما الدور الذي كان يلعبه اصحاب دور الكتب في تعميم الكتاب بين الناس وفي نشر المعرفة فامر يصعب تقريره نسبة لقلة الوثائق التي من شأنها ان تلقي ضوءاً على هذه الناحية . وكان بعض تجار الكتب من نوع التجار المتجولين مثل يوسف اليان سركيس (١٨٥٦ — ١٩٣٣) الذي كان اديباً عالماً وقد خلف لنا مؤلفات عدة اهمها موسوعته « معجم المطبوعات العربية والمعربة » (القاهرة ١٩٢٨ — ١٩٣٠) الذي استعنا به ونحن نجمع مادة هذا الفصل من هذا المؤلف . ولد سركيس في دمشق وعمل اولا في بيروت ثم انتقل سنة ١٩١٢ الى القاهرة حيث اسس مخزناً للكتب . وقبل ان دخلت الطباعة لبنان كان عدد المخازن التي تبيع الكتب في بيروت لا يزيد عن اصابع اليد الواحدة . وكان مخزن الكتب كناية عن غرفة صغيرة مظلمة تحوي على الكتب ذات الورق الاصفر المسوخة نسخ اليد والتي تدور حول المسائل الدينية واللغة والتاريخ لا سيما اخبار عنتر والزير التي هي اقرب الى الاساطير والاقاصيص منها الى التاريخ . وكان عدد الكتب المستوردة من الخارج قليلا جداً ، ولم يكن ثمة ترجمات عربية لكتب غربية ذات قيمة . فلو ان احد الناس كان يرغب في الحصول على كتاب يبحث قضايا طبية فقد يقدم له بائع الكتب نسخة من طب ابن سينا (توفي ١٠٣٧) . وكذلك لو رغب احد الناس في اقتناء كتاب في الصرف والنحو لقدم له البائع كتاب سيبويه « الكتاب » (توفي حوالي ٧٩٣) او شرح ابن عقيل (توفي ٧٦٩) لالفية ابن مالك اما الكتب الحديثة في العلوم الطبيعية ، او عن جغرافية البلاد او تاريخها الحديث فكانت في حكم المعدومة . ولكن تغيرت الاحوال عند منصرم القرن التاسع عشر

١ — ابراهيم حرفوش في مجلة المشرق ، المجلد ١٧ (١٩١٤) ص ٢٤ .

اذ عمت المطابع وكثرت المخازن التي تبيع الكتب بالرغم من ان الرقابة العثمانية على المطابع والكتب كانت رقابة شديدة صارمة .

المدارس الوطنية

لما ادرك اهل البلاد ان الذين يتثقفون في المدارس الاجنبيـــة يحتلون مراكز اجتماعية مرموقة ومناصب حكومية رفيعة ، ولما لحظوا بان كسب المال ايسر اذا كان الانسان متعلماً تعليماً عصرياً، اخذ بعض الناس يفتحون المدارس التي كانت تقتفي اثر المدارس الاجنبية من لاتينية وانكلوسكسونية في برامجها وادارتهـــا . وكانوا يستخدمون الاساتذة الافرنسيين أو الاميركيـــين ، وجعلوا الافرنسية أو الانكليزية لغة التدريس . ومن هذه المدارس مدرسة الحكمة التي اسسها المطران يوسف الدبس سنة ١٨٧٤ الذي نقل المطرانية من الجبل الى بيروت. اما مطرانية الروم الارثوذكس فانها نقلت مدرستها التي تأسست سنة ١٨٥٢ من سوق الغرب الى بيروت وعرفت بمدرسة « الثلاثة اقـــار » . وكان ينـــافس هذين المعهدين العـــاليين المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك . وفي سنة ١٨٩٨ اسس الروم الكاثوليك الكلية الشرقية في زحلة . وجميع هذه المدارس التي جئنا على ذكرها لا تزال مدارس زاهرة تعمل بنشاط الى يومنا هذا. ثم ان المدارس الاسلامية الجديدة اخذت تستوحي المدارس الاجنبية في برامجها فادخلت في برامجهـــا تعليم اللغات الاجنبية كالافرنسية والانكليزية ، مثل المدرسة العثمانية التي اسسها احمد عبـــاس الازهري (١٨٥٣ ــ ١٩٢٧) في بيروت سنة ١٨٩٧ . وقد ولد احمد في بيروت ودرس في القاهرة في الازهر ــ كما يدل على ذلك اسمه ــ وعاد وانخرط في سلك التعليم والتحق بمدرسة بطرس البستاني في عبيه . وفي اثنـــاء الحرب العالمية الاولى اغلقت مدرسته ونفي الى استنبول[١] .

ولم تقتصر الحركة الفكرية على انشاء المدارس بل تناولت ايضاً تأسيس الجمعيات. ومن هذه الجمعيات التي يجدر بنا ان نأتي على ذكرها الجمعية العلمية السورية التي أعيد

١ ــ ابراهيم معوض ومنير وهيبة . نبذة تارخية عن دار الكتب اللبنانية (بيروت ١٩٤٨) ص ١٠٣ ــ ١٠٤ . الأب لويس شيخو : آداب ، الجزء الثاني ص ٦٦ ــ ٦٧ .

تنظيمها واعترف بها رسمياً سنة ١٨٦٨ .وكان في عداد اعضاء هذه الجمعية مسلمون مثل حسين بيهم ، ودروز مثل محمد امين ارسلان ونصارى مثل بطرس البستاني وناصيف اليازجي . وقد ارسلت دعوة الى السوريين واللبنانيين المقيمين في القاهرة واستنبول وعواصم اخرى لينضموا الى الجمعية ويسهموا في اعمالها التي تعدت الاعمال «العلمية» الى اعمال اخرى سياسية . وكان للجمعية مجلة شهرية اسمها « مجموعة العلوم » تنشر المقالات العلمية والادبية والاقتصادية والزراعية ويرجح انه هذه هي المرة الاولى في تاريخ البلاد — وعلى وجه التأكيد المرة الاولى في تاريخ البلاد تحت الحكم العثماني — التي يجتمع فيها رهط من افاضل الناس من مختلف المذاهب ويكرسون جهودهم المشتركة في سبيل الخير العام[١] .

الطليعة من الادباء والعلماء

كان الادباء الثلاثة من الوطنيين الذين ساعدوا المرسلين الاميركان في ترجمة التوراة الى العربية بطرس البستاني وناصيف اليازجي ويوسف الاسير .

ولد بطرس البستاني (١٨١٩ — ١٨٨٣) في قرية الدبية من ابوين مارونيين وتعلم في مدرسة عين ورقة . وفي بيروت درس العبرية واليونانية على المرسلين الاميركيين . وكان بطرس البستاني هو الذي نقل التوراة والاناجيل من لغاتها الاصلية (التوراة من العبرية ، والاناجيل من اليونانية) الى العربية . ثم ان ناصيف اليازجي ويوسف الاسير كانا يراجعان الترجمة العربية دون الرجوع الى الاصل بقصد اصلاح الاسلوب العربي والمصطلح العربي . غير ان المرسلين الاميركيين ، عالي سمث وكورنيليوس فان ديك كانا يخشيان ان يكون اصلاح الاسلوب العربي والمصطلح العربي على حساب المعنى . فكان سمث يراجع ما قرأه واصلحه اليازجي والاسير ثم يعيد قراءته فان ديك مرة اخرى . وقد اسس بطرس البستاني مدرسة في عبيه سماها المدرسة الوطنية التي نقلت سنة ١٨٦٣ الى بيروت وادمجت بالكلية السورية الانجيلية . وعمل ايضاً كترجمان في القنصلية الاميركية . ومما لا

١ــ George Antonius : *The Arab Awakening* (Philadelphia, 1919), pp . 53-4 .
الاب لويس شيخو ، آداب ، الجزء الاول ، ص ٧٥ — ٧٦.

شك فيه ان بطرس البستاني كان من اغزر اللبنانيين علماً ومن اكثرهم انتاجـاً في عصره . وكان من اعظم علماء الشرق العربي . فقد كان صحافيـاً ، وصاحب مجلات يصدرها ويحررها . وكان مؤلفاً يضع الكتب المدرسية . وله معجم مشهور (محيط المحيط) واصـدر دائرة معـارف . وبعض كتبه المـدرسية في اللغة والرياضيات لا تزال من الكتب التي يرجع اليها حتى في عصرنا هـذا . ومعجمه محيط المحيط (بيروت ١٨٧٠، في مجلدين) ومختصره قطر المحيط (بيروت ١٨٦٩، في جزئين) بالرغم من مرور أكثر من مئة سنة على ظهورهما فإنهما من أحسن المعاجم حتى في يومنا هذا . وهنالك معاجم عربيه قديمة اقدم من محيط المحيط، ولكنها معاجم ضخمة تعج بالمئات من الالفاظ . ناهيك عن سوء ترتيبها الهجائي ، فانها في ترتيبها الهجائي تعتمد الحرف الاخير من الجذر الثلاثي . اي ان فعل لعب يفتش عنه في باب الباء فصل اللام . وبدأ بطرس البستاني بتأليف دائرة معارف، اصدر منها ستة مجلدات (بيروت ، ١٨٧٦ – ١٨٨٢) وقد اضاف اليها ابنه سليم بالتعـاون مع سليمان البستاني خمسة مجلدات اخرى (بيروت ١٨٨٣ ــ ١٩٠٠) . واقرب عمل علمي ثقافي لهذا المجهود الجبار الذي قام به البستاني هو محاولة ترجمة الموسوعة الاسلامية الى اللغة العربية التي لم تكمل بعد . وبدأ البستاني حياته الصحافية باصدار « نفير سورية » (١٨٦٠) . وبعد عشر سنوات اصدر صحيفة اسبوعية : « الجنة » ، وكان يحررها ابنه سليم ، ثم مجلة نصف شهرية « الجنان » وفي سنة ١٨٧١ اصدر « الجنينة » وكان يحررها نسيبه سليمان البستاني[1] .

اما ناصيف اليازجي (١٨٠٠ ــ ١٨٧١) فقد كان مخضرماً في الادب والحياة. في شعر من اشعاره يصف اختباره عندما استعمل سكيناً وشوكة لاول مرة على المائدة ، ويشبه نفسه بامرأة بدوية تلبس حذاء له كعب رفيع عال . ولد ناصيف في كفرشيما وعمل في خدمة الامير بشير الكبير كاتباً ، وظل في خدمته الى ان نفي الامير سنة ١٨٤٠ . فعاد واستقر في بيروت . ولم يعتنق ناصيف البروتستانتية كما فعل بطرس البستاني بل ظل على مذهبه : رومياً كاثوليكياً . وكان ناصيف قبل

---

١ ــ زيدان، تراجم الجزء الثاني ص ٢٧ ــ ٣٣ . طرازي ، الصحافة ، الجزء الثاني ص ١٠ ، ٢٢ ، ٤٥ . سركيس ، ٥٥٧ ــ ٥٦٠ . C. Brockelmann , *Geschichte der arabischen Litteratur,* supp. II, (Leyden, 1938),pp. 767-8:

كل شيء اديباً وشاعراً وعالماً باللغة . وقد كانت مؤلفاته تستخدم كتباً مدرسية ، وظلت شائعة الاستعمال في المدارس اجيالا بعد وفاته . ومن الكتب التي شهرته وخلدت اسمه كتاب « فصل الخطاب في اصول لغة الاعراب » الذي صدر اولا في مالطة (١٨٣٦) ثم اعيد طبعه مراراً ، وكتاب « مجمع البحرين » الذي صدر اولاً في بيروت (١٨٥٦) . وهو كناية عن ستين مقامة يقلد فيها مقامات الحريري (توفي ١١٢٢) . اما شرحه ديوان المتنبي فقد قام باكماله ابنه ابراهيم (بيروت . ١٨٨٢) . اما ابنه ابراهيم (١٨٤٧ ــ ١٩٠٦) فقد فاق اباه ادبا ولغة . وقد عهد اليه اليسوعيون (١٨٧٢ ــ ١٨٨٠) باصلاح لغة التوراة التي كانوا قد قاموا بترجمتها . وقد جاءت ترجمة تفضل في نواح كثيرة ترجمة الاميركان . وقبل ان يلتحق بالصحافة كان مدرساً في المدرسة البطريركية في بيروت[١] . وله تمثال يزين ساحة الجامعة اللبنانية الجديدة .

ولد يوسف الاسير (١٨١٥ ــ ١٨٨٩) في صيدا ودرس في الازهر . ثم عين قاضياً في طرابلس فمفتياً في عكا ونائباً عاماً في لبنان في عهد داود باشا . وقد شغل مركز استاذ للعربية في دار المعلمين في استنبول . ثم عاد الى وطنه ودرس في المدرسة البطريركية في بيروت وفي الكلية السورية الانجيلية . وبعد ذلك اصدر « ثمرات الفنون » اول جريدة يصدرها مسلم (١٨٧٥) . وكان الى جانب هذا كله يعطي دروساً خاصة في الفقه الاسلامي . وقد شرح « المجلة » (بيروت ، ١٩٠٤) وعلق عليها . وكان من بين الذين درسوا عليه نخبة صالحة من المحامين اللامعين[٢] .

واحسن مثال على ما قدمه الادباء والعلماء الاجانب من خدمات وتقدمات في حقلي العلم والادب يتجلى لنا في حياة استاذين احدهما في الجامعة الاميركية والثاني في جامعة القديس يوسف . اما الاول فهو كورنيليوس فان ديك (١٨١٨ ــ ١٨٩٥) . كان عالماً في الرياضيات واللغات . وكان مؤلفاً ناشراً . وقد قام

ـــ الاب لويس شيخو ، آداب ، الجزء الثاني ص ٢٧ ـــ ٣٤ . زيدان ، تراجم ، الجزء الثاني ص ١٣ ـــ ٢١ . معوض ووهيبة ، ص ٥٥ ـــ ٥٦ .

٢ ـــ زيدان ، تراجم ، الجزء الثاني ، ص ١٦٤ ـــ ١٦٥ . الاب لويس شيخو ، آداب ، الجزء الثاني ص ٧٥ ـــ ٧٧ . معوض ووهيبة ، ص ٥٣ ـــ ٥٤ . طرازي ، الصحافة ، الجزء الثاني ص ٢٥ . سركيس ، ٤٤٩ ـــ ٤٥٠ .

بأعمال كثيرة فشغل منصب أستاذ في الطب ومنصب استـــاذ في علم الفلك في الكلية السورية الانجيلية. وكان يحرر المجلة الاسبوعية الدينية التي تصدرها الارسالية الاميركية ، « النشرة » وكانت معرفته الجيدة بالعربية تؤهله ان يؤلف بها . وقد الف ثلاثة عشر كتـــابا (وقـــد صححت) في الجغرافية والفلك والرياضيات (الجبر والهندسة واللوغـــارثم) والطب (الباثولوجيا ، اي علم الامراض وعلم التشخيص)[1] . ومما يدل على تحرره الفكري ورحابة صدره في تقبل حقائق العلم وقوفه الى جانب الطلبة الذين عضـــدوا قضية استاذ كان يعلم مبـــادىء التطور ــ وكانت نظرية جديدة يرى فيها ارباب الدين ما يخالف الحقائق الدينية ــ لما فصلت الكلية هذا الاستاذ من هيأة التعليم . وهذا الخلاف انتهى باستقالة فانديك وتنظيمه مستشفى الروم الارثوذكس (والمعروف بمستشفى القديس جورجيوس)[2] في بيروت (١٨٨٢) . كان فان ديك يلبس العباءة ويدخن النارجيلة . وقدخلف اسما عند عامة الناس وخاصتهم تحيط به هالة من الاحترام والوقار . ولما احتفلت مدينة بيروت التي احبته باقامة نصب له بمناسبة السنة الخمسين لدخوله لبنان شعرت انها بعملها هذا ستخلد ذكرى رجل عظيم وهو شعور لم يخامر البيروتيين منذ عهد بعيد ، اذ كانوا ايام الرومانيين يقيمون للعظماء انصبة في ساحات المدينة .

اما الاب لويس شيخو (١٨٥٩ ــ ١٩٢٨) فمارديني الاصل ، واحد افراد الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية. درس شيخو في لبنان واوربة قبل ان اصبح يسوعياً واستاذ اللغة العربية في جامعتهم في بيروت (جامعة القديس يوسف) . وقد ظل الاب شيخو محرراً لمجلة المشرق ، المجلة اليسوعية ، اعواماً طويلة . وهي من ارقى المجلات العربية ، تُعنى بالامور العلمية والتاريخية والدينية والادبية . وقد ساهم هو نفسه بكتابة المقالات العديدة التي نشرت له في هذه المجلة . وقد جـــال في اوربة وسورية والعراق يفتش في مكاتبها عن المخطوطات سواء بقصد درسها ونشرها ام بقصد شرائها للمكتبة الشرقية التابعة للجامعة اليسوعية . واكثر منشوراته ــ وهي تربو على الثلاثين مؤلفاً ــ تتناول الادب وتاريخه ــ وقد رجعنا في هذا المؤلف الى

١ ــ ومن أراد الاطلاع على اسماء هذه الكتب فليراجع سركيس ، العمود ١٤٦٣ ــ ١٤٦٥ .

٢ ــ جرجي زيدان « يكتب قصة حياته » في مجلة الهلال ، المجلد ٦٢ (١٩٥٤) ص ٣١ــ٣٥ وكان جرجي زيدان يرأس حلقة الطلبة التي اعترضت على فصل الاستاذ الاميركي .

بعضها . وبعض كتبه ينقصها التدقيق العلمي . وافضلها واشهرها عند الناس كتاب « مجاني الادب في حدائق العرب »[١] .

ان كتب هذين الاستاذين وغيرهما من كتاب الطليعة كانت حجر الزاوية في الحركة الفكرية واليقظة القومية ليس في لبنان وحسب ، بل في سائر انحاء العالم العربي . فقد كانت كتباً مدرسية يستعملها الطلاب في المدارس ، ومراجع يرجع اليها المعلمون ، ونماذج يُقتَدى بها في البحث العلمي والادبي . بكلام آخر كان هذا النتاج العلمي الادبي اداة اليقظة العربية الفعالة في القرن التاسع عشر .

الجرائد والمجلات

كان مولد الصحافة العربية يوم صدرت في بيروت سنة ١٨٥٨ « حديقة الاخبار » لمؤسسها وصاحبها خليل الخوري من بلدة الشويفات . وقد سبق ظهور « حديقة الاخبار » : جريدتان فقط هما : « الوقائع المصرية » ، وكانت الجريدة المصرية التي اصدرها محمد علي سنة ١٨٢٨ باللغتين التركية والعربية ، « ومرآة الاحوال » التي صدرت في استنبول سنة ١٨٥٤ لصاحبها ومؤسسها رزق الله حسون . اما الصفحة التي كان يصدرها نابليون في مصر بمناسبة غزوة مصر فمن العبث ان نسميها جريدة . ولان جريدة « حديقة الاخبار » كانت الجريدة الوحيدة في البلاد فان فؤاد باشا استخدمها في نشر البيانات والتقارير ومختلف الشؤون التي لها علاقة بحوادث ١٨٦٠ . اما فرنكو باشا فقد جعلها الجريدة الرسمية للحكومة اثناء توقيف جريدة لبنان عن الصدور . وقد استمرت جريدة « حديقة الاخبار » بالظهور كجريدة خاصة يقوم بها فرد حتى سنة ١٩١١ .

ولكن لم يطل الوقت حتى اصبح لجريدة « الحديقة » زميلات عديدات . ففي سنة ١٨٦٦ ، انشأت الارسالية الاميركية « النشرة الاسبوعية » وهي نشرة دينية

---

١ — وهو في تسعة اجزاء (بيروت ١٨٨٢ — ١٨٨٣) وقد اعيد طبعه ست عشرة مرة . راجع سركيس ، عمود ١١٦٧ — ١١٧٠ .

اجتماعية . وقد تغير وقت صدورها فاصبحت شهرية واستمرت بالصدور نحو قرن محتفظة بعدد لا بأس به من المشتركين. وبعد اربع سنوات لحق بهم اليسوعيون فاصدروا جريدة « البشير » التي اصبحت في زمن قصير جريدة ذات شأن كبير لما كانت تتناوله من مواضيع اجتماعية واخبار سياسية . وكان شعار البشير المطبوع في اعلى الصفحة الاولى: «وتعرفون الحق والحق يحرركم» . وقد ظل البشير يصدر حتى سنة ١٩٤٧ . وفي اثناء الحرب الاولى والثانية تعطلت جرائد عديدة وزالت من الوجود . ومن اقدم الجرائد التي لا تزال تصدر الى يومنا هذا جريدة «لسان الحال» التي اسسها في بيروت خليل سركيس سنة ١٨٧٧ . وتبدأ هذه الجرائد عادة كنشرات اسبوعية وتنتحل لنفسها الصفة التي ترغب فيها : سياسية ، اجتماعية ، ادبية وما شاكل ذلك وقد استهوت مهنة الصحافة والنشر احسن العقول والمواهب الناشئة فظهرت الجرائد والمجلات بكثرة هنا وهناك في جميع انحاء العالم العربي . ثم ان اللبنانيين المهاجرين انشأوا مجلات وجرائد انى توجهوا باعداد كبيرة . وقد جاء في احصاء قامت به مجلة الهلال سنة ١٨٩٢[١] ان في بيروت اربع عشرة جريدة ومجلة (هذا عدا عن ١٦ جريدة ومجلة في المدينة ذاتها كانت قد توقفت عن الصدور او انتقلت الى القاهرة) و ١٤٧ مجلة وجريدة عربية في العالم كله ، منها ٥٤ لا تزال تصدر . اما الاحصاء الذي قام به فيليب دي طرازي ،[٢] مؤرخ الصحافة العربية بعد انقضاء ٣٧ سنة على الاحصاء الذي قامت به مجلة الهلال فيشير الى ان عدد الصحف التي ظهرت ثم اختفت مع عدد الصحف الباقية الى يومنا هذا في العالم العربي يبلغ ٣٠٢٣ بين جريدة ومجلة منها ٤٢٦ ظهرت في لبنان . ومن المجلات والجرائد التي صدرت في لبنان (وعددها ٤٢٦) ٢٩٤ صدرت في مدينة بيروت . ومن هذا المجموع الكبير من الجرائد والمجلات العربية ١٠٢ منها ظهرت في اميركا الشمالية و ١٦٦ في اميركا الجنوبية و ١٤ في بريطانيا العظمى . وكانت مدينة نيويورك تباهي بان خمس جرائد عربية تصدر فيها . ولان الجريدة العربية مشروع فردي فان « معدل الوفيات » بين الجرائد العربية عال جداً . اما تلك الجرائد التي كانت تمثل حزبا او فكرة قومية ، او تلك الجرائد التي سارت مع الزمن وتكيفت حسب مقتضيات العصر فانها استطاعت البقاء .

١ ـ المجلد الاول (١٨٩٢) ص ١٢ـ١٤

٢ ـ الصحافة العربية ، الجزء الرابع ، ص ٤٨٨ـ٥١١

ان اقدم مجلة علمية ادبية كانت مجلة المقتطف . ومن اقدم الجرائد واكثرها انتشاراً وابعدها اثراً جريدة المقطم . وقد كان مؤسساهما ومحرراهما يعقوب صروف وفارس نمر من قدامى خريجي الكلية السورية الانجيلية في بيروت ومن المدرسين فيها . اما مجلة المقتطف ــ وقد اقترح هذا الاسم عليهما استاذهما فان ديك ــ فقد ظهرت اولا في بيروت سنة ١٨٧٦ ومنها انتقلت الى القاهرة . وظلت تصدر هناك الى ان احتجبت سنة١٩٥٢ . وقد كان المقتطف منبراً لافاضل الادباء العرب واداة لنشر العلوم الطبيعية والافكار العلمية المترجمة عن الانكليزيةفي الغالب الاكثر . فكان في العالم العربي تتمة لمدرسة فكرية عالية ينهل منها القراء بعد مغادرتهم قاعات الدرس . وفي سنة ١٨٨٩ اسس صروف ونمر جريدة المقطم التي اصبحت من اكبر الجرائد واوسعها انتشاراً في العالم العربي . وقد احتجبت عن الصدور سنة ١٩٥٢ . وعندما تذكر الصحافة العربية يبرز اسم صروف ونمر كقطبين من اقطابها وكعلمين من اعلامها القدامى . اما صروف فقد ولد في بلدة الحدث سنة ١٨٥٢ وتوفي في القاهرة سنة ١٩٢٧ . وقد كان في طليعة الكتاب الذين طيعوا العربية لتصبح اداة صالحة لنقل العلوم الطبيعية كالكيمياء والفيزياء وعلم الاحياء والفلك والرياضيات . وقد قصر صروف جهوده على خدمةالمقتطف بينما انصرف نمر الى المقطم .

اما فارس نمر فقدكان مولده في حاصبيا . في سنة ١٨٦٠ هربت امرأةفقدت زوجها في المذابح التي وقعت في البلدة مع اولادها الثلاثة . وكان احدهم فارس . وكان عمره اذ ذاك ست سنوات . وفي صيدا دخل مدرسة اميركية ومن ثم جاء الى بيروت والتحق بالكلية السورية الانجيلية . كان فارس نمر الرجل الذي ترأس ادارة جريدة المقطم ، الجريدة العربية العظيمة التي حملت حملات شعواء على فساد الحكم والظلم اثناء العهد الحميدي. وقد ظل على ادارتها الى ان توفي سنة ١٩٥٢ وقد حكم عليه الاتراك بالموت غيابا ، كما حكموا على كثيرين غيره من احرار كتاب العرب لمقاومتهم الظلم والفساد .

وكان لجريدة المقطم جريدة اخرى تنافسها الزعامة : الاهرام . وكان مؤسساها ومحرراها لبنانيين آخرين هما سليم تقلا واخوه بشارة . وهذه الجريدة لا تزال من اكبر الصحف العربية انتشاراً . ولد سليم تقلا (١٨٤٩ ــ ١٨٩٢)

في كفرشيما ودرس في مدرسة بطرس البستاني في عبيه . وبعد ان درس مـدة في المدرسة البطريركية في بيروت هاجر الى القاهرة حيث اسس جريـدة الاهرام (١٨٧٥) . اما اخوه بشارة (١٨٥٢ ــ ١٩١١) فقـد تلقى علومه في مدرسة عينطورا الافرنسية .

في سنة ١٨٩٢ اصدر لبناني آخر ، جرجي زيدان ، مجلة الهلال التي كانت ،الى جانب المقتطف ، في طليعة المجلات العربية الراقية الواسعة الانتشار . وكانت تعنى في الدرجة الاولى بالقضايا الادبية والتاريخية والاجتماعية . ولد مؤسس الهلال ، جرجي زيدان ، في بيروت سنة ١٨٦١ . وكان ابواه قد هاجرا اليها من قرية عين عنوب . وفي مذكراته[١] التي نشرت بعد موته يصف لنا جرجي زيدان ما لاقاه من عناء في سبيل تحصيل العلم . كان ابوه رجلا امياً فقيراً يعمل كخبـاز ومن ثم كصاحب مطعم حقير . فلم يستطع الاب ان يعيـل عائلته وان يدفع ثمن تعليم جرجي . وهكذا بعد ان بلغ جرجي السنة الثانية في درسه الطب في الكلية السورية الانجيلية اضطر الى ترك الكلية . وفي السنة التالية هاجر الى مصر . ولم يكن جرجي زيدان صحفياً وحسب انما كان اديباً مؤلفاً كتب اقدم الكتب في التاريخ العربي على اسس من النقد العلمي الحديث . وكان زيدان اول من كتب الرواية التاريخية في العربية . فقد حاول كتـابة تاريخ العرب في سلسلة من الروايات الشيقة التي لا تزال تقرأ للآن . اما احسن مؤلفاته وابعدها شهرة فهما تاريخ التمدن الاسلامي (في خمسة مجلدات) وتاريخ الآداب العربية (في اربعة مجلدات) اللذين اعيـد طبعهما مراراً . وقد ترجم كتابه الاول ، تاريخ التمدن الاسلامي ، كلياً او جزئياً الى الانكليزية والتركية وغيرهما من اللغات الاجنبية . ودار الطبـاعة والنشر التي اسسها زيدان لا تزال الى يومنا هذا من اكبر دور النشر في الشرق[٢] .

---

١ ــ راجع مجلة الهلال ، المجلد ٦٢ (١٩٥٤) ص ١٥ وما يليها .

٢ ــ للإطلاع على المزيد من المعلومات حول الصحافة العربية الحديثة راجع :
Tom J. McFadden, *Daily Journalism in the Arab States* (Colombus, 1953) .

المسرحية

ولدت المسرحية العربية يوم دعا كاتب عربي صيداوي المولد ، مارون النقاش (١٨١٥ ـ ١٨٥٥) ، بعض الوجوه والاعيان والقناصل والاصدقاء الى بيته في بيروت ليشهدوا تمثيل روايته « البخيل » . وقد اقام مارون مدة من الزمن في ايطاليا . ويظهر انه استوحى رواية موليير « البخيل » عندما وضع روايته . وبعد سنتين عرض رواية اخرى من تأليفه : « هارون الرشيد » . وقد كان الاعجاب برواياته والاستحسان الذي ابداه اصدقاؤه دافعاً حدا به الى بناء مسرح حديث الى جانب بيته . وكان يقوم بتدريب الممثلين . وقد لاقى عمله هذا مقاومة كبيرة كما لاقى التمثيل في بادىء امره مقاومة في حضارات اخرى . فقد كان الناس يخشون ان يكون المسرح عاملا في افساد اخلاق الناس وآدابهم العامة . وكان النقاش في بادىء الامر يتوسل الى بعضهم توسلا حاراً ان يحضروا التمثيل[1] . وعندما احتفل بالذكرى المئوية لمولد النقاش كان في العالم العربي اكثر من ٩٠٠ رواية ومسرحية اكثرها من تأليف الادباء العرب وبعضها مترجم[2] . وكان الادب الافرنسي بجميع فنونه ـ وهو نتاج حضارة متوسطية ـ يستأنف الى قلوب ادباء العرب اكثر مما كان الادب الانكلوسكسوني يستأنف الى قلوبهم . وكان اسماء الادباء الافرنسيين : موليير وكورناي وراسين وهيغو وديماس وروسو على السنة الادباء العرب في مختلف حلقاتهم واوساطهم قبل ان يتعرفوا الى شكسبير وملتون وامرسون وغوته بزمن طويل . وعندما بنى الخديوي اسماعيل دار الاوبرا المصرية في القاهرة بمناسبة الاحتفال بفتح قناة السويس (١٨٦٩) نشطت حركة المسرح العربي في جميع اقطار العالم الاسلامي ، لا سيما وان حكومة اسلامية بررت قيام المسرح وباركته . وقد عرف الاسلام منذ القرن الرابع عشر خيال الظل ، ولكن لا علاقة بين هذا وبين المسرحيات العصرية .

---

١ ـ زيدان ، تراجم ، الجزء الثاني ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

٢ ـ وقد جمعها يوسف داغر في مجلة المشرق ، المجلد ٤٢ (١٩٤٨) ص ٤٣٤ ـ ٤٦٠ ، والمجلد ٤٣ (١٩٤٩) ص ١١٨ ـ ١٣٩ ، ٢٧١ ـ ٢٩٦ . راجع ايضاً انيس المقدسي : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث (بيروت ١٩٥٢) الجزء الثاني ص ١٤٧ ـ ١٥٢ .

ومن ابرز النواحي في هذه اليقظة الثقافية في العالم العربي التغييرات التي طرأت على اللغة العربية التي ظلت حتى مستهل الحركة الفكرية لغة جامدة يصعب التعبير بها عن الفكر والحضارة . وكانت اللغة العربية في اوائل عهدها لغة البداوة ثم اصبحت لغة الشعر والدين . غير ان هذه اللغة ، على اقلام الكتاب اللبنانيين وغيرهم من الاقطار العربية ، تطورت وتكيفت لتلائم متطلبات الحضارة العصرية ، ولم يمض وقت حتى إصبحت لغة مرنة طيعة تصلح للتعبير عن العلوم التكنولوجية والفلسفية والشرعية وعن العلوم الطبيعية بدقة ووضوح . وعندما واجهت اللغات الغربية الصعوبات ذاتها للتعبير عن العلوم الحديثة وعن الفكر الجديد لجأت الى معين لا ينضب : الى اللغتين الاغريقية واللاتينية . لكن العربية رفضت ان تستقي من هذا المعين . فقد كانت تأبى ان تقتبس عن اللغات الاجنبية – لا سيما المصطلحات التي في لفظها تنافر حروف او في اوزانها خروج فاضح عن اوزان الكلمات العربية – وعوضاً عن الاقتباس كانت تجهد في الاشتقاق والقياس . والعربية لغة غنية بجذورها ، ومن هذه الجذور استطاع الكتاب والادباء من صياغ كلمات جديدة حسب قوانين الاشتقاق العربي المتعارف . وقد جابهت اللغة العربية في تاريخها وضعاً شبيهاً بوضعها هذا وذلك في القرن التاسع عندما نقلت العلوم الاغريقية والفلسفة الاغريقية الى اللسان العربي في بغداد .

والى جانب هذا التطور اللغوي كانت تهب على جميع ارجاء لبنان روح جديدة ، روح العصر الحديث التي بدأت تهب عليه في العقد الرابع من القرن التاسع عشر . كانت روح العصر هذه تتجلى بهدير ماكينات المطابع ، وتتجسد بسيل من المنشورات والمطبوعات . كانت تتجلى باسلاك البرق وبالخطوط الحديدية وطرق السيارات التي كانت تربط بين القرى النائية في قلب الجبال . وهكذا اصبح لبنان ، بفضل المهاجرين الذين توطنوا في جميع ارجاء المعمور ، وبفضل الروح الوطنية والقومية والديمقراطية السياسية التي كان يبثها في قلوب احرار العرب ، أولَ بلد عصري بين اقطار الشرق العربي .

الفصل الثاني والثلاثون

التغيرات الاقتصادية والاجتماعية

لم تكن المؤسسات الاجتماعية والثقافية التي اشرنا اليها في الفصل السابق ، ولا كان الرجال البارزون الذين جئنا على ذكر نبذ من حياتهم ومآتيهم العاملَيْن الوحيدين اللذين جعلا لبنان القرن التاسع عشر يختلف اختلافاً بيناً عن لبنان القرن الثامن عشر . غير انهما ، دون شك ، خلقا الجو الفكري الملائم الذي يمكن ان تعتمل فيه قوى روحية اخرى . عندما تصطدم حضارة حية نشيطة بحضارة مستكنة جامدة فان الحضارة الجامدة تتصدع وتتفكك ، مما يمهد السبل للتغلغل والنفوذ . وفي الغالب يكون التغلغل الاقتصادي في الحضارة المغلوبة على امرها اسرع اثراً وابعد غوراً من التغلغل الاجتماعي والفكري . ذلك ان التغلغل الفكري والروحي يلاقي عند اهل الحضارة البدائية مقاومة وتصلباً ، لان الامر متصل بامور عاطفية روحية . واما التغلغل الاقتصادي فانه لا يمس العاطفة ولا يتناول الامور اللصيقة بحياة الناس كالادب والدين والعادات .

كان الزائر الغربي عندما يأتي لبنان في مستهل القرن التاسع عشر تؤثر فيه المشاهد المحلية الغريبة . فملابس الناس مختلفة وغريبة في ازيائها : الرجال بسراويلهم الواسعة او غنابيزهم المقلمة ، والنساء ، سواء اكن نصرانيات او مسلمات ، يخرجن الى الاسواق محجبات ، والنساء الارستقراطية بطناطيرهن التي تشبه القرون[١] . والجميع يجلسون القرفصاء على طراريح او على فرش ويأكلون طعامهم في صواني ويشربون الماء بالاباريق . وجميع ما في البيت يكاد يكون من الصنع المحلي . فكان الغربي الذي لا يعرف العربية يشعر انه في عالم غريب عنه . فقد كان الناس في هذا الجزء من العالم، في نظر الغربي ، يعيشون في عالم حالم يسير ببطء . ولكن ما ان

---

١ — Henry J. Van-Lennep, *Bible Lands: Their modern customs and manners* (New York , 1875) , pp . 528-30 , 546 .

انصرم القرن حتى اصبح الغريب الزائر يشعر في لبنان ، او على الاقل في بيروت، انه ليس غريباً في بلاد غريبة .

التغييرات التي طرأت على الاقتصاد اللبناني

كان النظام الاقتصادي اللبناني في عهده الاول يقوم على المشاريع البسيطة الصغيرة الفردية شأنه في ذلك شأن الانظمة الاقتصادية في البلدان المجاورة . اما الزراعة – وهي العمل الاقتصادي الرئيسي الذي يتعاطاه اكثرية السكان – فقد كانت على مستوى بدائي ضيق يكفل للفلاح قوته اليومي . اي ان الزراعة لم تكن عملا اقتصاديا من النوع التجاري الذي يكفل للمرء طعامه وارباحاً اخرى لسد حاجاته الاخرى . ولكن في سهل البقاع حيث التربة خصبة والماء متوفر كان الفلاح يكسب عيشه وعيش عياله . اما الصناع فكانوا صناع قرى اي ان انتاجهم لم يكن يتعدى استهلاك اهل قريتهم . وكان لكل بيت نول يدوي لحياكة ما يحتاجون اليه من الاقمشة . وكانت علاقاتهم التجارية تجري على اساس الجوار الودي ذاته ، ان لم نقل العائلي ، الذي كانت تجري عليه علاقتهم الاجتماعية ، في القرية . وكانت التجارة والاعمال التجارية تجري على اساس شخصي يتميز بالتعاون والثقة . فان ابن القرية يخاطب حتى الغريب بقوله يا اخي او يا عمي .

ولكن بتقدم وسائل النقل البحري والبري بدأت البضائع الاوروبية تتدفق الى اسواق الشرق الادنى . وكان معظم البضائع يتألف من الاقمشة القطنية والصوفية من مانشستر ، واثاث مصنوع في باريس ، وبضائع مختلفة للبيع بالجملة من المراكز الصناعية في اوروبة. وجميع هذه الاعمال كانت تقتضي اساليب جديدة للاستيراد والتوزيع . وفي وجه هذا السيل من البضائع المصنوعة بالماكينات تراجعت الصناعات المحلية ، ان لم تكن شلّت ، وفي قرى عديدة تلاشت وانقرضت كالصباغة والحياكة وصنع السلال والخزف التي اشتهر بها اللبنانيون لما فيها من فن وذوق . جميع هذه الاعمال اليدوية انقرضت . وكذلك في المدن فان كثيراً من الصناعات التي كانت فردية تقوم على اساليب قديمة كصنع الاثاث والاحذية والخياطة اضطرت الآن في وجه المنافسة الاوروبية الى تغيير الاساليب لتستطيع

البقاء . غير ان صناعات قليلة جدا استطاعت ان تعيش في وجه المنافسة الأوروبية وذلك لانها كانت تتميز بشيء من الفن واللون المحلي كالاقمشة الجميلة التي تصنع في الزوق من اعمال كسروان، والتي ترغب فيها ربات البيوت كاغطية للموائد والفرش والستائر وكصناعة السكاكين والشوك الجزينية ذات المقابض المصنوعة من العظم المطعم بالفضة والنحاس .

هذه التغييرات الاقتصادية التي طرأت على الريف لم يقتصر اثرها على الصناع، بل تعدى ذلك الى الايدي العاملة في الزراعة وانتهت بهجرة الكثيرين من الريف الى المدن. اما تربية دود الحرير في الساحل وعلى السفوح الغربية من لبنان فلم يطرأ عليها تغييرات اساسية الا بعد الحرب العالمية الاولى . وفي الواقع ان تربية دود الحرير لم تتلاش كليا بل ظل فلاحون كثيرون يكسبون عيشهم من انتاج الحرير وبيعه الى فرنسا حتى زمن قريب جداً(١) .

وقد ازداد عدد سكان المدن بسبب هجرة الجبليين اليها . ومن العوامل التي دفعت باهل الجبال الى السكنى في المدن زيادة المثقفين ثقافة عالية والرغبة الملحة في رفع مستوى العيش ، والشعور بان مجال العمل والكسب في المدن افضل واوسع مما هو عليه في القرى الصغيرة الضيقة الآفاق . فاصبحت مدن الساحل الصغيرة ذات الازقة والمعابر التي يسيجها الصبير مدنا كبيرة عصرية . فان بيروت التي كان عدد سكانها عند مستهل القرن التاسع عشر خمسة الاف نسمة اصبح عند نهاية القرن مئة وعشرين الفاً(٢) . وظهر في هذه المدن الناشئة جماعة من التجار العصريين الاغنياء الذين استطاعوا تدريجياً ان يقبضوا على دفة الاقتصاد الوطني . واصبح هؤلاء التجار الاغنياء الاقوياء مع جماعة المحامين والاطباء والاساتذة الذين تخرجوا من مدارس غربية او مدارس تسير على النهج الغربي يشكلون طبقة ثالثة جديدة في البلاد . فان السكان حتى هذه الحقبة كانوا فئتين : فئة حاكمة تتألف من الامراء والاقطاعيين والاكليروس ، وفئة محكومة تتألف

---

١ – Jaques Weuleresse, *Paysans de Syrie et du Proche-Orient,* 6th ed. (Paris, 1946.),pp. 185, 265; Cuinet, p. 219.

٢ – Jessup , pp. 25 , 38 ; Cuinet , p. 53 .

من الفلاحين والعمال[١] . فتغيرت الحياة من جوها القديم الهانيء البسيط الى جو من النشاط والعمل الكادح . وتمتع السكان بالحياة المريحة التي اتخذوا منها فناً جميلا والتي كانت تمثلها « السهرة » اذ كان جل اهل القرية يتجمعون في بيت او على « سطيحة » يشربون القهوة ويدخنون النارجيلة ويتنقلون تيناً يابساً او زبيباً مع الجوز واللوز . ان تلك الحياة القانعة تأثرت تأثراً كبيراً بهذا التغيير

توتر وتبدل

في الوقت الذي كانت تجري فيه هده التغييرات الاقتصادية الجذرية كان هنالك تغيير اساسي يجري في تركيب العائلة اللبنانية . والعائلة اللبنانية وحدة اجتماعية متماسكة . فقد يعيش داخل جدران البيت ربما ثلاثة اجيال من الناس الاب الذي يرأس العائلة كما يرأس بطريق كنيسته او يتزعم شيخ قبيلته ، وابنه المتزوج ، واولاده . وفي اثناء حياة الاب تعتبر جميع الممتلكات ملكاً للجد . لكن هذا التماسك العائلي اخذ بالتفكك ، وبتفكك الرباط العائلي اخذت بعض الفضائل التي تنشأ في مثل هذا الجو العائلي كالولاء والنجدة والتعاون والطاعة واحترام الكبير وغيرها بالزوال . والولاء للعائلة هو احد دعائم اساسية ثلاثة ترتكز عليها الحياة القروية اللبنانية . والدعامتان الاخريان هما الولاء للدين الذي ينشأ عليه المرء والولاء للتربة . والحضارة القروية القديمة في لبنان حضارة تقوم على هذه العلاقات الروحية التي تربط الفرد بعائلته وعشيرته . وكان اللبناني حتى هذه الفترة التي نحن بصددها رجلا قنوعاً يعتبر ان الولاء لعائلته وعشيرته ودينه يكفل له مجالا رحباً لكسب عيشه وتدبير اموره ، فلم يبق هنالك دوافع تدفع به لارتياد المجهول او للسعي في الارض لكسب عيش افضل من عيشه في القرية[٢] ومما يدل على قدسية هذا التماسك العائلي وقع شتيمة في نفس المرء اذا تناولت دينه

١ — Raphael Patai in the *middle East Journal*, vol. IX (1955), pp . 6-12 .

٢ — راجع عفيف طنوس في مجلة : *The American Journal of Sociology*, vol . XLVIII (1942), pp . 231-9 ; *in Annual Report of the Smithsonian Institution* (Washington , 1944), pp . 536-43 ; André Latron , *La Vie rurale en Syrie et au Liban* (Beirut, 1936), pp . 220 seq .

او والديه . ولما افلت اللبناني من قيود العشيرة الكبيرة ومال الى النظام الغربي ــ العائلة الصغيرة المؤلفة من الرجل وامرأته واولاده فقط ــ اخذ الشاب اللبناني يمارس حقه الطبيعي في اختيار زوجة له من خارج نطاق العائلة، وفي اختيار العيش خارج جدران البيت القديم . وهكذا اخذ المجتمع اللبناني المتماسك المترابط يتحلل من القيود التقليدية التي كانت تشد افراده الى العائلة والكنيسة .

وطبيعي ان يرى الجيل القديم الذي عايش الروح المحافظة حتى مغرب شمسها في القيم الجديدة وفي التعابير الجديدة ما يدعو الى الاشمئزاز والازعاج . كانت الحكومة المطلقة الصلاحية هي الحكومة الصالحة التي تلائم النظام الاقتصادي الاجتماعي القديم ، وكانت السلطة الكنسية هي السلطة المطلقة في الامور الدينية . ولما هبت من الغرب موجة من الفكر الغربي الحديث – وهي موجة من تلك التي عمت العالم باسره ــ ظهرت فئة فكرية ثالثة في لبنان لا هي بالقديمة في تفكيرها ولا بالعصرية المتطرفة انما كانت جماع الاثنتين. وكان التوفيق في لبنان بين القديم والحديث ايسر منالا مما كان عليه في بلدان عربية اخرى . والواقع ان مشكلة التوفيق بين القديم والحديث لقيت في لبنان من الصعوبات اقل مما لاقت في اقطار عربية اخرى . والواقع ان هذه المشكلة لم تواجهها الجزيرة العربية بعد مواجهة تامة .

لبنان المهاجر

ان تكاثر السكان في لبنان الجبلي حيث التربة اقل خصباً من النساء وجد منفذاً له في الهجرة الى بلدان اخرى . وبالرغم من ان لبنان هو البلد الوحيد من مراكش غرباً الى العراق شرقاً الذي لا تغذي سكانه موجات من البدو فان تكاثر السكان فيه بلغ حداً بعيداً . فان في سورية مثلا اربعين الف خيمة للبدو ويشكل اهلها عشر السكان، وفي العراق تشكل العشائر خمسة وستين بالمئة من مجموع السكان ، وفي العربية السعودية، ثمانين بالمئة . اما في مصر فان تزايد السكان كان اشد واسرع مما هو عليه في لبنان. ولكن الفارق هو ان نقمة الرجل العادي ، وتذمره من مستوى عيشه ، ورغبته في رفع مستوى الحياة ، وغيرها من الامور النفسية لم تدفع بالمصري الى الهجرة والسعي

في الارض . وفضلا عن هذا فان في اللبناني من الحيوية والنشاط ما يبعث فيه الطموع فيلجأ الى الهجرة . ان هجرة اللبنانيين في الربع الاخير من القرن التاسع عشر هي الفصل الاخير ، والفصل الرائع من هجرات سابقة بدأت ايام الفينيقيين واستمرت في العهد الروماني البيزنطي .

وكان وادي النيل البلد الذي استهوى اللبنانيين اولا . ذلك انه لما بدأ الخديوي اسماعيل (١٨٦٣ ــ ١٨٧٩) الذي تم فتح قناة السويس في عهده في اعادة تنظيم الحكم والادارة في مصر تنظيماً يتفق مع رغباته في جعل مصر بلداً عصرياً ، وجد في خريجي الجامعات الاوروبية في بيروت موظفين اكفاء . وكذلك لما احتل الانكليز مصر عام ١٨٨٢ وجدوا في خريجي الجامعة الاميركية في بيروت موظفين «انعمت بهم السماء» كما يقول كرومر[١]. كان هؤلاء المهاجرون اللبنانيون الى مصر يقومون بخدمات جلى في حقول الطب والصيدلة والادارة الحكومية المدنية منها والعسكرية ، حتى ان بعض الموظفين الانكليز الكبار كانوا يقولون : « لقد كان باستطاعتنا احتلال البلاد ولكن لم يكن باستطاعتنا الاحتفاظ بها لولا هؤلاء السوريون واللبنانيون » اما اولئك المهاجرون منهم الذين اشتغلوا في الحقل الفكري ــ الادب والصحافة والعلم ــ فلم يقتصر اثرهم على مصر وحدها بل تعداها الى سائر الاقطار العربية . وفي الواقع ان الصحافة - وكان للبنانيين فيها نصيب كبير ــ بعثت الروح العربية من جديد ، وعملت على تحرير الشعوب العربية من القيود التي كانت تقيدها بها حكوماتها ، وخلقت الحركة الادبية العربية الحديثة ، وعرفت الناس الى مبادىء القومية ومثلها كما كانت عليه في القرن التاسع عشر . ومع ان محمد علي هو الذي ادخل الحياة العصرية الى مصر قبل هذه الحقبة بزمن فان حفيده وخليفته الثاني عباس الاول (١٨٤٨ ــ ١٨٦٣) صرف من الخدمة المدنية جميع الخبراء الاجانب واغلق كل مدرسة او معهد له صبغة اوروبية . وفى اعقاب اهل الفكر الذين هاجروا الى مصر من لبنان وسورية جاء التجار واصحاب الاعمال فوجدوا في مصر وطناً ثانياً . وفي سنة ١٩٠٧ كانت ثروتهم تقدر بخمسين مليون ليرة انكليزية

---

١ – Earl of Cromer, *Modern Egypt,* (New York,1909),vol. II, p.216
كان اللبنانيون في ذلك الزمن يعرفون بالسوريين او الشوام كما تسميهم العامة في مصر .

اي عشر الثروة القومية في مصر[١] . وتدل الاحصاءات اللبنانيـة الرسمية على ان عدد اللبنانيين في مصر اصبح ثلاثين الف نسمة .

غير ان الحظ بسم للمهـاجرين اللبنانيين في القارة الاميركيـة . فان بعض المهاجرين اللبنانيين اكتشفوا في اواخر العقد السابع من القرن التاسع عشر اميركا الشماليـة . وكان قد سبقهم بعض المهاجرين الى شواطىء الاطلسي . وكان في طليعتهم انطون بشعلاني من صليما . وكان عمره ٢٧ سنة . وبعد سنتين على وصوله توفي في نيويورك[٢] سنة (١٨٤٥) . وبمناسبة الذكرى المئوية لوفاة اول مهاجر الى اميركا اعلنت الجمهورية اللبنانية ان سنة ١٩٥٥ ستكون سنة «عودة المهاجرين» واعدت برنامجا حافلا بالبرامج الممتعـة لاستقبال المهاجرين العائدين الى وطنهم الاول . غير ان الهجرة اللبنانية لم تتخذ شكلا خطيراً الا في اوائل العقد التاسع من القرن التاسع عشر . وفي السنوات الواقعة بين ١٩٠٠ و١٩١٤ انخفض عدد سكان الجبل عن طريق الهجرة الى زوايا الارض الاربع بمعدل خمس وعشرين بالمئة ، اي مئة الف نسمة . وقل ان ترى الآن بلدة او قرية من قرى لبنان البالغ عددها ١٦٠٠ قرية ليس فيها بيت مسقوف بالقرميـد الاحمر . والشائع في القرى اللبنانيـة ان صاحب البيت المسقوف بالقرميد الاحمر يجب ان يكون قد جمع ثروة في اميركا . ويقدر عدد المهاجرين اللبنـانيين في الولايات المتحـدة بربع مليون نسمة ، وفي البرازيل وهي اهم مهجر لبناني ، بثلث مليون . وكان اول مهاجر استهوته بلاد « ألدورادو »[٣] في كولومبيا لبنانياً من بلدة مزيارة في قضاء البترون (١٨٨٠) . واغنى العائلات اللبنانية المهاجرة تقيم في سان بولو في البرازيل . ثم اتسع نطاق الهجرة اللبنانية فشمل بلدانا عديدة متفرقة في جميع انحاء العالم : كندا ، اوستراليا ، مكسيكو ، نيوزيلندا ، افريقية ، وجزائر الهند الغربية والفيليبين وغيرها كثير . كان معظم الرواد المهاجرين اناسـاً فقراء معدمين اميين يجهلون لغة البلاد التي

---

١ – British Admirality, *A Handbook of Syria*, p. 186.

٢ – Philip K. Hitti, *The Syrians in America* (New York, 1924)

٣ – El Dorado كلمة اسبانية معناها المذهَّب وكانت تطلق على ملك من ملوك الهنود الحمر في اميركا الجنوبية لانه كان يلبس البسة من ذهب في احد الاحتفالات الدينية السنوية . واصبح الاسم يطلق مجازاً على اميركا اللاتينية الغنية (م) .

يأتونها وكان يلاقون ضروبا من الشقاء ويكابدون انواعاً من شظف العيش . كان الواحد منهم يبدأ كبائع متجول يحمل صندوقاً خشبياً صغيراً فيه طرائف وبضائع غريبة من البلاد المقدسة وقطع قماش مطرزة . وقد يصبح احد هؤلاء الباعة المتجولين بعد حين تاجراً يستورد ويورد وينشىء المكاتب التجارية في العواصم الكبيرة في مختلف القارات[1] . ولم يكن بالامر العسير على التاجر المهاجر في نيويورك ان يوطد علاقات تجارية بينه وبين تاجر في بونس ايرس بواسطة لبناني آخر . ومن طريف اخبار المهاجرين اللبنانيين وجمعهم ثروات خيالية ان اغنى لبناني في اوستراليا بقي هناك مدة سنتين قبل ان ادرك انه ليس مقيما في نيويورك ، او على لغته « النايرك » . ذلك ان احد وكلاء شركة سفر في مرسيليا اخطأ فوضعه على مركب مسافر الى استراليا بدلا من نيويورك ! وكما ان الفائض من السكان المسيحيين هاجر الى بلدان الغرب هكذا وجد الفائض من السكان الدروز في حوران موطناً ثانياً. اما الهجرة بين المسلمين فعلى مستوى صغير جداً[2]. وقد اجاد حافظ ابراهيم في احدى قصائده وصف المهاجر اللبناني وطموحه الذي لا يعرف حداً حيث قال :

رادوا المناهل في الدنيا ولو وجدوا الى المجرة ركبا صاعدا ركبوا

كان على المهاجرين الاول ان يعيلوا انفسهم وان يرسلوا بعض المال لاعالة اهلهم في لبنان. وقل جداً ان يهمل المهاجر اهله في الوطن الام او ان يقطع علاقاته نهائياً بوطنه. وحسب احصاءات الحكومة اللبنانية حتى في السنين المتأخرة ١٩٥١ و ١٩٥٢ ، نجد ان ما بعث به المهاجرون اللبنانيون من مال الى المعاهد الخيرية والدينية والتربوية بلغ ثمانية عشر مليوناً من الدولارات ، وما بعثوا به الى الاهل والاصدقاء بلغ اثنين وعشرين مليون دولار . لم يكن في زحلة سنة ١٨٨٥ سوى بناية واحدة فقط مبنية بالحجارة ، وهي الكنيسة . ولكن بعد مرور ربع قرن من الزمن لم يعد في المدينة بناء واحد من الطين. وفي زحلة شارع رئيسي يعرف بشارع

١ ــ للاطلاع على المزيد من اخبار المهاجرين واعمالهم راجع :
Institute of Arab American Affairs , *Arabic - Speaking Americans* (New York , 1946) .

٢ ــ اذا اراد القارىء الاطلاع على احصاءات من هذا القبيل فليراجع :
Thoumin, pp. 334 - 7 .

البرازيل ويقدر عدد المهاجرين من زحلة ، المدينة الجميلة التي سماها شوقي « جارة الوادي » بثلاثة اضعاف سكانها الحاليين . وتعتبر الحكومة اللبنانية الدخل الذي يبعث به المهاجرون اللبنانيون الى اهلهم والذي يعادل الدخل الذي يعود بموسم الاصطياف على البلاد، على انه من المداخيل الرئيسية غير المنظورة . ويعتبر اللبنانيون ان لبنانهم شطران : شطره المقيم وشطره المغترب. ووزير الخارجية اللبنانية يعرف بوزير الخارجية والمغتربين[١] .

ولكن احتفاظ المهاجر بولائه الى وطنه الام والابقاء على صلاته القديمة باهله ومواطنيه لم يحل دون القيام بواجباته كمواطن في موطنه الجديد. فان اللبناني المهاجر لم يكن يشعر بالقومية الجارفة العنيفة التي يشعر بها القوميون في عهدنا هذا . فكان من اليسير عليه ان يشعر انه مواطن ، ومواطن مخلص ، في البلد الذي كان يهاجر اليه. فان الليونة والمرونة وحسن التكيف التي يتميز بها اللبناني جعلته رجلا عالمياً. ففي مصر اصبح مصرياً ، وفي فرنسا فرنسياً ، وفي اميركا اميركياً وذلك في زمن لم يكن يشعر اللبناني بعد انه لبناني . بل كان الواحد منهم في لبنان يفكر انه بيروتي او زحلاوي أو ديراني أو حصروني أو حاقلاني أو ماروني أو درزي أو روم اورثوذكس أو شيعي . واذا سئل الواحد منهم في المهجر عن جنسيته اجاب انه « ابن عرب » أو « سوري » .

لقد ظل الجسر الذي يربط الشرق بالغرب زمناً طويلا معبراً للبضائع المادية والقيم الفكرية التي كانت تتجه من الغرب الى الشرق . اما الآن فقد ازدوج الجسر فاصبح ايضاً معبراً من الشرق الى الغرب تنتقل عليه الاشياء المادية وغيرها. وكان المهاجرون بمنشوراتهم ومطبوعاتهم ورسائلهم وزياراتهم المتكررة الى الوطن الام يحملون الى مواطنيهم الافكار الجديدة والمعتقدات السياسية الجديدة من مثل حق تقرير المصير ، والحكم الديمقراطي ، وحب الاستقلال ، والتحرر من نير الاتراك اولا ثم من الانتداب الافرنسي ثانياً. وقد اتخذوا من لبنان مستودعاً للبضائع المادية وموطناً لقيم الحضارية الغربية ، ومنفذاً للبضائع الشرقية والقيم الروحية الشرقية

١ ــ لدرس التغيرات الاجتماعية التي طرأت على القرية اللبنانية من جراء الهجرة راجع مقالا لعفيف طنوس في مجلة *Rural Sociology*, vol. VII (1942), pp. 62—74 راجع ايضاً أنيس فريحه : حضارة في طريق الزوال ، القرية اللبنانية ، جونية ١٩٥٧ .

الى الغرب،وكثيرون من الكتاب العرب الذين حكم عليهم عبد الحميد بالموت كانوا صحافيين لبنانيين يقطنون القاهرة ونيويورك .

وحيثما ذهب اللبناني كان يحمل معه مطبخه وكنيسته ومطبعته . ففي نيويورك مثلا تأسست حلقة ادبية كان يرأسها جبران خليل جبران (توفي ١٩٣١) وامين الريحاني (توفي ١٩٤٠) كان لها الاثر البعيد في جميع ارجاء العالم العربي . كان جبران فنانا وشاعراً متصوفاً . وكان لنثر جبران وشعره اثر في تحرير االغة العربية من بعض جمودها وقسوتها . وقد اصبح زعيم حركة ادبية ، واصبح له اتباع يقلدون اسلوبه ، ولكنهم قصروا دونه فكرة وروحاً . وكان لكتابات جبران في الانكليزية وترجماتها الى لغات أوروبية اخرى صدى استحسان عند جمهور القراء في الغرب . اما في البرازيل فقد تأسست حلقة ادبية اخرى تعرف بالعصبة الاندلسية. وكانت تصدر مجلة ادبية استمرت في الظهور حتى سنة ١٩٥٠ . ان حب اللبناني لجبله يتجسد شعراً ، وارق هذا الشعر واجمله واصدقه عاطفة واكثره حنيناً نظمه شعراء لبنانيون وزجالون يقيمون خارج بلادهم . وفي لبنان وخارجه مجلات تعنى بالشعر الزجلي العامي. فقد عرفت بيروت خمس مجلات من هذا النوع[١] . وليس في العالم العربي من بلد بلغ فيه الشعر العامي من الرقة والكمال والجمال ما بلغه في لبنان.

القومية والديمقراطية السياسية

في سنة ١٨٦٨ عقدت الجمعية العلمية السورية[٢] اجتماعاً سرياً انشد فيه الشاعر ابراهيم اليازجي ــ وكان في الحادية والعشرين من عمره ــ قصيدته المشهورة :

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

وهي دعوة صريحة الى الخروج على الحكم العثماني . وقد سرت هذه القصيدة بين الناس كالنار في الهشيم .

كانت اليقظة السياسية والدعوة الى التحرر من الحكم العثماني نتيجة محتمة لليقظة

---

١ ــ راجع الاب رفائيل حلة اليسوعي في مجلة المشرق ، المجلد ٤٠ (١٩٥٥) ص ٣٦١ ــ ٣٦٨

٢ ــ Antonius, pp. 53—54.

الفكرية . وقد انتقــل مركز الحركه الى القاهرة حيث كانت الصحافة والحرية الفكرية تتمتعان بقسط اوفر من الحرية في ظل الحكم الانكليزي امـا الشرارة الاولى فقد انطلقت من اقلام اللبنانيين والسوريين لتلهب الشعور الذي تفجر عن القومية العربية . وشاع على السنة للناس طائفة من الكلمات الجديدة ، أو الكلمات التي اصبح لها معان جديدة، مثل وطن ووطنية وامةواستقلال وحقوق الانسان[١].

وكان شعار مجلة الجنان النصف شهرية التي اصدرها بطرس البستاني سنة ١٨٧٠ « حب الوطن من الايمان » وقد ورد هذا المصطلح « حب الوطن » في الادب القديم . فقد وردت في شعر شاعر حلبي هو ابن الوردي ، (توفي ١٤١٣) ولكن هذا المصطلح اصبح يوحي من الشعور مالم يُوحِه من قبل ، ويبعث من الولاء الخالص ما لم يبعثه في قلوب الناس من قبل وكذلك تغير معنى لفظة الحريةعند الناس . فقد اصبح للحرية معنى جديد فيه قوة واقدام وعزم . يتمثل لك ذلكفي قول الياس صالح وهو شاب بيروتي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره عندما وقف سنة ١٨٨٨ على منبر الجامعة الاميركية في بيروت وانشد[٢] :

انت حرٌ يا ايها المرء فاعلم ولك العلم فيه والاسبقيـة
انت حرٌ فاعلم بهـذا وعلم انت حرٌ وهـذه اوليـة
لست عبداً ان كنت تحت نظام لا وليس النظام ذا اولية .

ان شعور العرب بروح القومية كشعور سائر الامم مستوحى من الفكر السياسي الافرنسي ، ولا سيما ذلك الفكر الذي تجسد في الثورة الافرنسية وفي مبادىء الحكم في الجمهورية الثالثة[٣] . وكان اول احتكاك فكري بين العرب وفرنسا عندما غزا نابليون مصر . وقد خلف لنا لبناني من دير القمر وصفاً مقتضباً لهـذه الغزوة في

١ ـ رئيف خوري : الفكر العربي الحديث (١٩٤٣) ص ٢١٤ ـ ٢٢٣
Nicola A. Ziadeh in *The Middle East Journal*, vol. VI,(1952) pp 468—73 .

٢ ـ زيدان ، تراجم ، الجزء الثاني ص ٢٨٨ . شيخو ، اداب ، الجزء الثاني ص ١٣٦ .

٣ - Hans Kohn , *A History of Nationalism in the East* (London - 1929) , p. 271 .

« مذكراته »[١] مع مقـدمة عـن مغزى الثورة الافرنسية . وكـان نقولا الترك (١٧٦٣ ـ ١٨٢٨) قد ارسل الى مصر ليشاهد عن كثب وليرسل تقريراً عن تلك الحرب . ويظهر ان اللبنانيين كانوا على اطلاع حسن على الثورة الافرنسية ومبادئها ، وعـلى الغزوة الافرنسية لمصر . وذلك بواسطة « مذكرات » نقولا الترك وتاريخ حيدر الشهابي[٢] الذي خصّ تاريخه بقسط وافر عن الثورة الافرنسية وحروب نابليون . وتجدر الاشارة الى ان الثورتين المعروفتين « بالعامية » وقعتـا سنة ١٨٢٠ و ١٨٤٠ في انطلياس . وقد قامت الحركة القومية العربيـة أولا على اساس واسع عام : كل الذين يتكلمون العربية يشكلون امة هي الامة العربيـة التي يجب على كل عربي ان يسعى لتحقيقها . ولكن هذة الفكرة العـامة الشاملة التي اصبحت تعرف بالجامعة العربية اصطدمت بعقبات ومشاكل محلية اقليمية اسفرت عن تجزؤها . ففي مصر مثلا اتخـذت القومية اولا شكـل مقاومة عنيفة للحكم الانكليزي ثم تحولت تدريجياً الى حركة قومية مصرية . وكذلك الحال في سورية فان الروح الوطنية تجلت اولا في مقاومة الانتداب الافرنسي ومحاربته . ولم تلبث هذه الروح ان اسفرت عن قومية سورية . اما في سائر البلدان العربية فقـد اثار حماستهم وبعث شعورهم القومي من سباته عاملان آخران : مقاومة سياسة التتريك التي بدأها جماعة تركيا الفتاة والحركة الصهيونية . وفي هذه الاثناء ظهرت فكرة الجامعة الاسلامية ، وهي فكرة رائعة ومثال سام يروق لكل مسلم . وتختلف عن سابقتها ، الجامعة العربية في ان الفكرة تقوم على ان الدين هو اساس الوحـدة القومية الصحيح ، لا اللغة ولا العرق ولا الجنسية . وكـان زعيم حركة الجامعة الاسلامية بشكلها الحديث جمال الدين الافغاني (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧) استاذ محمـد عبده المصلح الكبير والمفتي الاكبر للديار المصرية . وكان شعار جمال الدين « لا وطنية في الاسلام » . وكان هدفه الاعـلى جمع المسلمين في مختلف اقطارهم تحت حكم اسلامي واحد يرئسه الخليفة . وكان هذا الهدف يتفق تماماً مع سياسة عبـد الحميد الذي كان يتطلع الى جمع المسلمين تحت رايته . وواضح ان حركة الجـامعة

---

١ ـ يظهر ان نقولا الترك كان يتحدر من عائلة رومية في استنبول . وقد نشرت مذكراته بعنوان « مذكرات نقولا الترك » وترجمت الى الافرنسية . وقد قام بالترجمة :
Gaston Wiet, *Chronique d' Égypt* , 1798 - 1804 (Cairo, 1950)

٢ ـ لبنان، ص ٢١٣ وما يليها .

الاسلامية تخالف الفكرة القومية مخالفة ظاهرة . فان الاسلام لا يعترف بحواجز جغرافية وفوارق طبيعية . الاسلام يعترف بالفوارق الدينية فقط . والاسلام دين شامل في نظرته ودولي فوق الدول . والتوكيد في الاسلام على القيم الروحية التي تربط بين المسلمين لا على المسائل الاقتصادية . والقومية العصرية (التي تنبع من الفكر الغربي) تتطلب ولاء يفوق كل ولاء آخر بما في ذلك ولاء المرء لدينه . الولاء للقومية الحديثة اشد رسوخاً في نفوس معتنقيها من ولائهم لدينهم . والقومية الحديثة لا تعترف بالطبقية الطائفية ولا تستطيع العيش الا في جو علماني . وهذا الضرب من القومية في شكله المتطرف في الغلو يصبح ذاته ديناً يعتنقه الناس . ولهذا السبب فان الروح القومية كحركةواعية ذات اهداف معينة لم تتجح في العالم العربي ولم تنتشر فيه الا في الحرب العالمية الاولى . فان جذورها لم تصل الى الاعماق ولم تلهب قلوب الجماهير الا بعد ان تعمدت بشقاء الحروب وقاست من ويلاتها ضروبا من البلاء . واطلت عليهامبادىء ودرو ولسن بما فيها من وعود جميلة للشعوب المغلوبة على امرها ولا سيا حق تقرير المصير . والغريب ان المصطلح الغربي (القومية) الذي اطلق على هذه الروح لم يظهر في الادب العربي الا في القرن العشرين . حتى انه في المؤتمر العربي الاول الذي عقد في باريس سنة ١٩١٣ لم تتناول قراراته التي كانت تهدف الى الاصلاح اموراً جذرية سوى المطالبة باللامركزية وبالاستقلال الثقافي والاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية في مجلس المبعوثان وفي المقاطعات التي يتكلم الناس فيها بالعربية[١] . والواقع ان هذا المنهاج كان منهاج حزب اللامركزية الذي اسس في القاهرة في السنة التي سبقت عقد المؤتمر . وقد مثل الجالية اللبنانية المقيمة في نيويورك في مؤتمر باريس صحافيان لبنانيان . وكانت نيابة الرئاسة من حظ لبناني آخر يقيم في باريس هو شكري غانم (١٨٦١ ــ ١٩٣٢) . وكان لشكري اخ في بيروت عين مبعوثا عن بيروت في مجلس المبعوثان الذي انشأه السلطان عبد الحميد سنة ١٨٧٦ . وشكري غانم مؤلف اوبرا افرنسية عنوانها عنتر مثلت في باريس والقاهرة .

في وسط هذه الفوضى من التيارات المتضادة من القومية والاممية والقومية المتطرفة وجد لبنان نفسه في حيرة وقلق . فان الشباب المسلم المثقف يؤثر الجامعة

١ ــ المؤتمر العربي الاول (القاهرة ١٩١٣) ص ١١٣ ــ ١١٩

العربية . وفي بيروت جريدة يومية اسمهـا « بيروت » شعارهـا « العروبة فوق الجميع » . اما رجال الدين من المسلمين فانهم يميلون الى الجامعة الاسلامية . وبين اولئك وهؤلاء تقف الجماهير التي لا تعي الفرق بين جامعة عربية وجامعة اسلامية . اما النصارى في لبنان فانهم كانوا يؤثرون القومية اللبنانية بالرغم من ان عـدداً قليلا من المفكرين كانوا يظاهرون العروبة . وكـذلك الدروز فانهم يميلون الى القومية اللبنانية . وكانت الحال في سورية كما كانت عليه في لبنان . يدلك عـلى ذلك ان خطيباً وقف سنة ١٩٥٥ في الجـامع الاموي يعلن في خطبته ان المسلم الاندنوسي اقرب اليه مـن رئيس الوزارة في دمشق الذي كـان اذ ذاك رجلا نصرانيـاً (فارس الخوري) والواقع ان هـذا الخطيب مخلص مع ذاته وامين لمعتقده . فان الاسلام يعتبر المسلمين اخوة .

تركيا الفتاة والعثمانية

غير ان ضرباً جديداً من القومية كان في هذه الاثناء يتبلور ، ولكن في الاستانة .

ففي يوم من ايام تموز سنة ١٩٠٨ صعق الناس عند سماعهم ان ضابطاً تركياً اسمه نيازي قـام بثورة مسلحة في استنبول وارغم السلطان على اعلان اعـادة دستور ١٨٧٦ واعادة الحياة البرلمانية . كان نيازي يمثل حزب تركيا الفتاة الذين كانوا يمثلون اليد الحديدية في جمعية سرية تدعى جمعية الاتحـاد والترقي التي كانت تعمل سراً ضد الحكم الحميدي الرجعي وتطالب بالاصلاح في جهـاز الحكم . وكان السلطان عبد الحميد قد اعلن في السنة الاولى من حكمه ، بايعاز من مدحت باشا رئيس وزرائه ، دستوراً جديـداً وانشأ مجلس المبعوثان (البرلمان التركي) وكلاهما على منوال الدستور والبرلمان الافرنسي والبلجيكي . وكان هذا الدستور الجديد عـلى غرار التنظيمات التي اعلنت من قبل ، اي انه كـان يضمن الحرية والمساواة لجميع الرعايا العثمانيين ويضمن حرية الصحافة وتمثيـل الشعب بواسطة مجلسين اعلى وادنى . غير ان السلطان عبد الحميد نفى مدحت باشا في السنة التالية وحل مجلس المبعوثان . وكان من جملة الذين غادروا البلاد هرباً من بطش عبـد الحميد لبناني اسمه خليل غانم (١٨٤٦ ـ ١٩٠٣) الذي كان احد اعوان مدحت

باشا . واستقر غانم في باريس حيث اصدر جريدة عربية : « البصير » وقفها في الدرجه الاولى لاظهار مساوىء عهد عبد الحميد وفضح امر المذابح التي انزلها بالارمن . وكان يراسل جرائد افرنسية وتركية[١] . ويبدو ان الخطوة التي اتخذها عبد الحميد كانت تهدف الى المحافظة على سلطته . فانه كان يخشى ان يحد المجلس من صلاحياته المطلقة . وعاد ففرض المراقبة على الصحف ، والغى حرية القول ، وانشأ جهازاً للتجسس ، وحرص على ان يكبح جماح الموجة الغربية وما تحمله من افكار عصرية . واحاط نفسه بطغمة من الموظفين الرجعيين الخنوعين الذين يأتمرون بامره وينفذون خططه . وكان يستغل الجامعة الاسلامية ليهدد بها الدول الغربية عند مفاوضته هذه الدول على الامور التي تتعلق بالبلدان الاسلامية .

غير ان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ لم يكن بافضل من عبد الحميد سنة ١٨٧٦ . فانه لم يكن ينوي الحفاظ على وعوده الخلابة في منحه رعاياه الحرية والمساواة . وفي سنة ١٩٠٩ بينما كان يعد العدة مع اعوانه للقيام بثورة رجعية يقضي بها على الروح العصرية الجديدة التي كانت تلهب مشاعر الاتراك الشباب الذين ينتمون الى حزب تركيا الفتاة نشبت الثورة التي اسفرت عن عزله . واقاموا على العرش اخاه ، محمد رشاد الخامس ، الذي كان مسجونا مدة طويلة .

وقد استبشر الناس خيراً بالثورة التي قام بها الشباب الاتراك وبلغ الحماس في جميع انحاء السلطنة مبلغاً عظيماً . غير ان مجلس الادارة في لبنان رفض ان يستجيب الى دعوة استنبول بارسال ممثلين عنه في مجلس المبعوثان . لكن عالماً واديباً لبنانياً هو سليمان البستاني (١٨٥٦ ــ ١٩٢٥) الذي ترجم الالياذة الى العربية ، تقلد وظائف حكومية عالية بما في ذلك وزارة الزراعة[٢] . وكذلك تقلد لبناني آخر وظائف رفيعة في عهد عبد الحميد وهو سليم ملحمة (١٨٧٨ ــ ١٩٣٨) فانه كان وزير المناجم والتجارة وكان سليم صديق ابناء احد ولاة بيروت . وعندما غادر الوالي بيروت الى استنبول ذهب معه سليم وكان له من العمر اذ ذاك سبع عشرة سنة . وفي هذه الفترة العصيبة لم يستطع الاتراك الشباب الذين قاموا بالثورة ان يسيروا

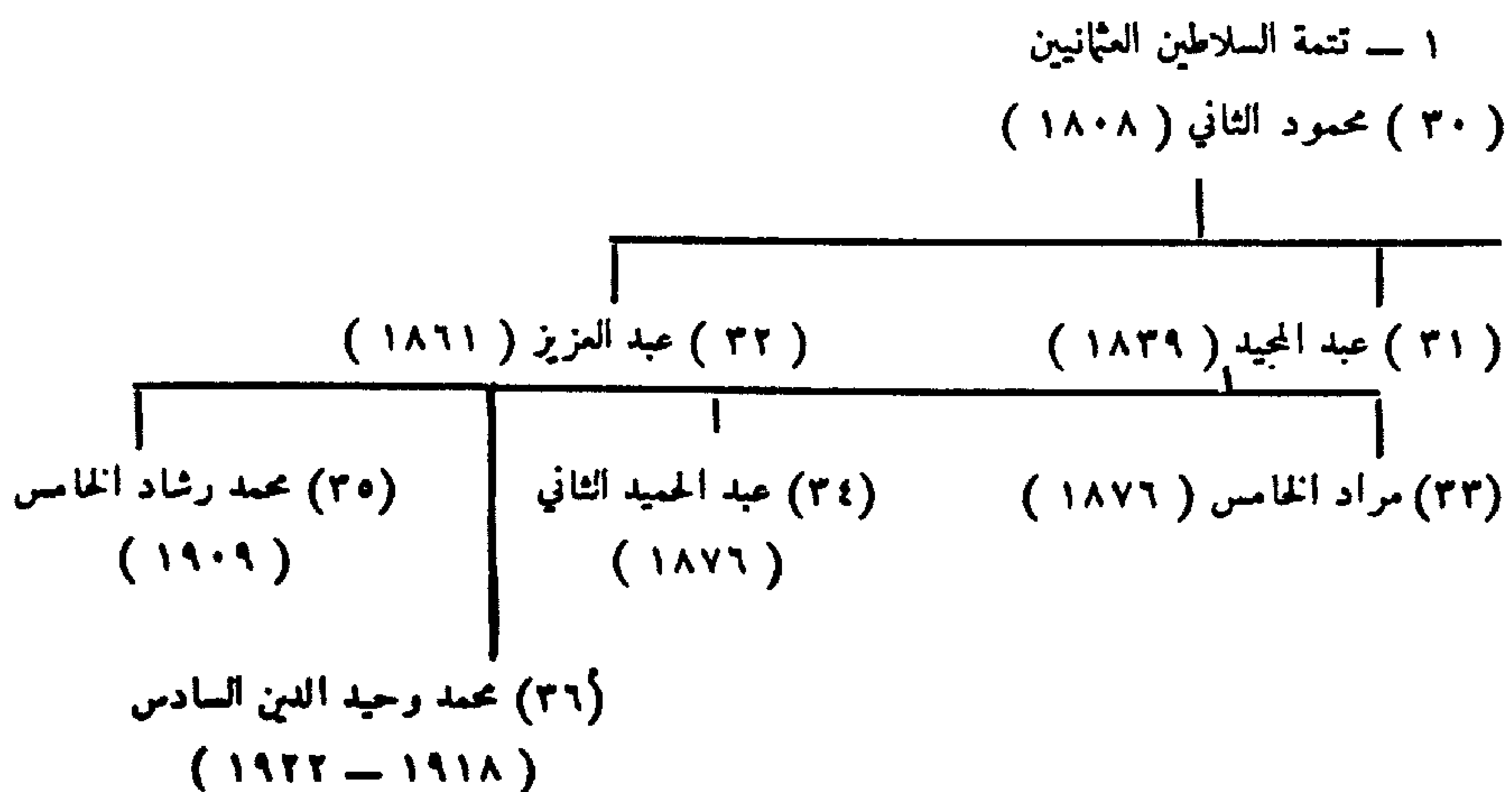
١ ــ الكونت فيليب دي طرازي ، الصحافة ، الجزء الثاني ص ٢٦٨ ــ ٢٧١ . سركيس ، معجم المطبوعات ، عمود ١٤٠٥ ــ ١٤٠٦ .

٢ ــ طرازي ، الصحافة ، الجزء الثاني ص ١٥٩–١٦٨ George –Samné, p. 57

دفة المركب الذي كانت تتلاطمه الامواج من كل صوب . فقـد كانت تجابههم مشاكل دولية ومحلية خطيرة لم يكونوا المسؤولين عن كثير منهـا . فاستحالت الحكومة التي شكلوها الى ديكتاتورية حزبية كانت اشد سوءاً من الحكومة التي تخلصوا منها . وكان لمحاولتهم في خلق وحدة تشمل جميع رعايا السلطنة عن طريق حل جميع الاحزاب والفئات وصهرها في بوتقة العثمانية رد فعل معاكس . فانهـا شجعت الاحزاب والفئات التي كانت تنادي بالانفصال عن الحكم العثماني . فان القومية العربية مثلا التي ظهرت كرد فعل لسوء الحكم العثماني ازدادت ، بعـد سنة ١٩٠٨ ، حدة وانتشاراً بين مختلف الطبقات[١] . فانشئت جمعيات ومنظمات سرية وعلنية في سورية ولبنان ومصر واستنبول وباريس ونيويورك تعمل على استقلال الاقطار العربية . وفي الحرب العالمية الاولى انضم الاتراك الى المعسكر الالمـاني فكانت نهاية الدولة العثمانية ومعها الحركة العثمانية ليقوم مقامها بعد نهاية الحرب قومية تركية . فقد سلخ عن تركيا الولايات العربية وانفصل عنهـا سائر الاقاليم غير التركية وتقلصت الى دولة تركية صرف تشمـل بلاد الاناضول حيث كانت اللغة السائدة التركية وجزءاً صغيراً من اوروبة . وكان هدف مؤسسي تركيا الحديثة ان تكون عصرية غربية علمانية تتطلع الى الغرب . وفي سبيل تحقيق هذا الهدف عزل السلطان الخليفه محمد السادس وحيد الدين سنة ١٩٢٢ واقيم على العرش عمه عبد المجيد كخليفة للمسلمين وحسب . وبعد مضي سنتين الغيت الخلافة . وهكذا زال حكم الدولة العثمانية ، الدولة الاسلامية التي عمرت اكثر من اية دولة اسلامية اخرى (١٣٠٠ – ١٩٢٢) . وقد تعاقب على عرشها ستة وثلاثون سلطانا . وكذلك زالت الخلافة وهي اقدم المؤسسات الاسلامية التي بدأت بعد موت النبي

١ — Zeine N . Zeine, *Turkish - Arab Relations and the Rise of Arab Nationalism , Beirut* 1958 .

محمد[١] . كان باني الدولة التركية الحديثة ضابطاً ينتمي الى حزب تركيا الفتاة الذي اشترك في المعارك التي دارت في الجبهة السورية اثناء الحرب العالمية الاولى . واسمه مصطفى كمال الذي لقبوه ب « أتاتورك » اي « ابو الاتراك » لانه حقـاً كان ابا الاتراك .



الفصل الثالث والثلاثون

الحرب العالمية الاولى والثانية وفترة الانتداب بينهما

ما ان دخلت تركيا الحرب العالمية الاولى (تشرين الاول سنة ١٩١٤) الى جانب الالمان حتى ظهر جمال باشا ، مدبر المذابح الارمنية ، في دمشق كقائد اعلى للجيش الرابع وكحاكم عسكري للمنطقة . وكان جمال باشا يتهم بانه كان يعمل ضد العثمانية وبانه كان يميل الى مناصرة العرب او انه ذو ميول افرنسية . وقد سارع جمال الى احتلال لبنان والغاء استقلاله واقامة حكم عسكري عنيف تضاءل ازاءه كل حكم ظالم عرفه لبنان من قبل . وكانت الامتيازات الاجنبية قد الغيت في جميع ولايات السلطنة العثمانية ولم تراع حتى حرمة الكنائس والمعابد. فان دير مار شعيا بالقرب من برمانا ودير مار يوحنا القلعة ــ وهما ديران يقومان على هضبتين ستراتيجيتين مشرفتين على البحر ــ حولا الى قلعتين عسكريتين ، واطلق على احدهما اسم قلعة جمال والآخر قلعة رشاد . وفي صيف ١٩١٥ عين علي منيف حاكماً للبنان محل آخر متصرف، اوهانس باشا الذي تردد كثيراً قبل ان ارغم على حل مجلس الادارة . وكان علي منيف الحاكم التركي الثاني الذي حكم لبنان حكما مباشراً (كان الاول عمر باشا النمساوي) . وقد ظل لبنان طيلة سنوات ثلاث ، حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، يرزح تحت نير الحكم العثماني المباشر . وعندما اخذ جمال يعد العدة لغزو ترعة السويس فرض الخدمة العسكرية الاجبارية وامر بمصادرة الخيل والبغال والحمير وفرض على الناس تقديم المؤونة للجيش الرابع.

وفي عاليه « عروس المصايف في لبنان » اقام جمال باشا مجلساً عرفياً للنظر في جميع القضايا التي تتعلق بامن الاتراك في البلاد . وكان اكثر ما يشغل المجلس العرفي النظر في قضايا التهرب من الخدمة العسكرية . وقد قضى هذا المجلس بسجن كثيرين من المسلمين والنصارى السوريين واللبنانيين وبنفي آخرين واعدام عدد كبير من الذين اتهموا بالخيانة العظمى اي المؤامرة على سلامة الدولة . وعندما استولى على القنصلية الافرنسية في بيروت عثر على وثائق ورسائل اعتبرت مستمسكاً

لادانة عدد كبير بالتآمر مع دولة اجنبية . وقد شجع المجلس العرفي الناس على التقدم بشكايات واتهامات باطلة بعضهم ضد بعض . واعتبر كل شخص ينتمي ، او يقال انه ينتمي ، الى جمعية او منظمة من الجمعيات والمنظمات الداخلة في القائمة السوداء[1] خائناً يجب ان يحاكم عرفياً . وكان مجرد ورود عبارة عابرة في رسالة يبعث بها صديق في المهجر الى صديق له في الوطن يعتبر جريمة يعاقب عليها متسلم الرسالة اذا شعر المراقب ان في العبارة نقداً او تهجماً على الاتراك . اما مطران الطائفة المارونية في بيروت فقد نفي الى بر الاناضول حيث توفي . وقد هدد البطريرك بالنفي ايضاً، ولكن حكمته في تلك الظروف حالت دون تنفيذ الوعيد. وعندما استدعاه والي بيروت ليسلمه الفرمان الذي انعم به السلطان عليه اعتذر عن المجيء بسبب مرضه . فارسله اليه الوالي مع رسول خاص . وفي اليوم السادس من ايار سنة ١٩١٦ نفذ جمال باشا حكم الاعدام شنقاً باربعة عشر رجلا من المسلمين والنصارى في بيروت وبسبعة في دمشق بتهمة الموالاة للقضية العربية التي كان يتزعمها اذ ذاك الشريف حسين في مكة او بتهمة الاتصال بدولة اجنبية[2] : فرنسا . ولذا سمي جمال السفاح . ويوم السادس من ايار يوم يحتفل بذكراه في سورية ولبنان وهو عيد الشهداء . وفي بيروت وفي دمشق ساحتان تعرفان بساحة الشهداء حيث نصبت المشانق[3] .

قرى مهجورة

مما لا شك فيه ان لبنان عانى من ويلات الحرب واهوالها اكثر مما عانته سورية . ولا نظن ان ولاية من ولايات السلطنة العثمانية قاست ما قاساه لبنان . واول ما نكب به لبنان اقتصادياً زوال موسم الاصطياف والسياحة . والتحاويل المالية التي كان يتلقاها اللبنانيون من شطره المغترب كانت تتأخر اشهراً وسنين .

١ ــ راجع : القائد العام للجيش الرابع : ايضاحات (الاستانة ١٣٣٤) ص ٥ وما يليها .

٢ ــ للاطلاع على اسماء الشهداء راجع كتاب القائد العام الجيش الرابع : ايضاحات ص ١١٥ ــ ١٢٥ .

٣ ــ George Haddad, *Fifty Years of Modern Syria and Lebanon* (Beirut, 1950), pp. 48—57 .

وسدت طريق البحر ، ولم يحاول الاتراك جلب الطعام والدواء والملبس من الخارج . فقلت البضائع وخلت الاسواق من ضروريات الحياة . وقطع الاتراك احراش لبنان وقوداً للقطر الحديدية التي كانت تستخدم لاغراض عسكرية . اما الاسعار فقد ارتفعت ارتفاعاً جنونياً . وانزل الاتراك الى الاسواق عملة ورقية لاول مرة في تاريخ البلاد . وكانت قيمة هذه العملة متدنية كثيراً . وبرز شبح المجاعة المخيف في شتاء ١٩١٦ وتفاقم خطره في السنتين التاليتين اما الدروز فقد رحل قسم كبير من فقرائهم الى حوران . وغادر اطفال ايتام قراهم وساروا على غير هدى الى داخلية البلاد، الى الصحراء حيث كان البدو يأخذونهم الى خيامهم. اما خبر الفتاة اليتيمة التي استقر بها المقام اخيراً في حريم احد الامراء الاغنياء في الجزيرة العربية فقصة نادرة . ولكن عشرات من الفتيات امثالها كان حظهن في الحياة اسوأ ما يمكن ان يكون ، وبعد مرور سنوات كان الواحد يرى اناساً بزي الاعراب على اجسامهم وشم البدو يعودون الى قراهم يفتشون عن الاهل والاقارب علهم يجدون من يتذكرون او من يتذكرهم . وفي قرية صغيرة من قرى الجنوب وضعت امرأة لبنانية المولد اميركية الجنسية طفلا ذكراً ، وتوفيت اثر الولادة . ولم يكن للطفل من اهل او اقارب يعتنون به . وبعد زمن وجد طريقه الى التلال المحيطة بقريته وراح يقتات على النبات وجذور النبات وعلى حليب الماعز من القطعان السارحة في الجبال . وبعد سنوات عرف الولد انه يستطيع الحصول على الجنسية الاميركية. وسافر الى الولايات المتحدة وهناك كتب قصة حياته الشجية[١]. واليك ما دونه احد اساتذة الجامعة الاميركية[٢] :

« اما المعسرون فبعد ان فرغوا من بيع اشيائهم قصد قسم منهم الداخلية لتحصيل الاقوات من مخالب الافات ، وقسم ظلوا في قراهم يستقبلون الموت تحت سقوف منازلهم . وقسم هبط الى الساحل فاصاب بيروت منهم نصيب كبير فانضموا الى متسوليها واصبحوا جيشاً كبيراً. وقد كانوا طبقتين الاولى هم الذين

---

١ — Salom Rizk , *Syrian Yankee* (New York , 1934)

٢ — جرجس المقدسي : اعظم حرب في التاريخ (بيروت ١٩٢٧) ص ٦٨ — ٦٩ . راجع ايضاً انطون يمين . لبنان في الحرب ، الجزء الاول (بيروت ١٩١٩) ص ١٠٢ — ١٠٥ ، ١٣٠ وما يليها ، والجزء الثاني ص ٥ وما يليها .

كان لم يزل فيهم شيء من النشاط مكنهم من ان يطوفوا على ابواب المخازن والمنازل للاستعطاء . وكانوا يبحثون في الدمن والمزابل لعلهم يعثرون على ما يشغلون به المعد الفارغه من قشور الموز والبطاطا والليمون والواح الصبير وغير ذلك . وكان بعضهم يقصدون الجيف المنتنة للالتهام منها . اما القسم الثاني فهم الذين خارت قواهم من شدة ما عانوا من سوء المعيشة والجوع فانطرحوا على جوانب الشوارع يستنجدون بكلمات تفتت الاكباد . بل بعضهم لم يبق فيهم الضعف قوة لرفع اصواتهم فكانوا يستغيثون بعيونهم الذليلة وهم منطرحون في الطرقات على ان اشد منظر على النفس كان منظر الاطفال » .

وفي هذه الاثناء انتشرت الامراض والاوبئة بشكل مخيف ، فكأن الضربات التي ضرب الله بها المصريين القدماء حلت بلبنان . كان الذباب ينقل حمى التيفوئيد، وكان القمل يحمل حمى التيفوس ، وكانت الجرذان تنقل عدوى الطاعون . وكثر البعوض وزادت الوفيات من حمى الملاريا . وكان الناس يشربون المياه ملوثة بجراثيم الزحار . وكانت اشد المصائب ارجال الجراد التي غزت البلاد في نيسان سنة ١٩١٥ . ظل الجراد يحجب نور الشمس اياماً عديدة فلم يبق من الاخضر شيئاً . ويقدر ان خسارة لبنان في الارواح بلغت المئة الف نسمة ولا شك ان الخسارة في الارواح كانت تجاوزت ذلك كثيراً لولا المال الذي كان يرد للناس من اهلهم وذويهم في المهجر وتقدر المبالغ المالية التي بعث بها المهاجرون الى ذويهم في لبنان في السنة الاولى من سني الحرب بمئتين وتسعة وخمسين مليونا من الدولارات ، يضاف الى ذلك اعمال الغوث والاحسان التي قامت بها منظمة خيرية اسسها وعضدها مواطن اميركي من مدينه نيويورك اسمه كليفلند ه . دودج الذي ينتمي الى اسرة كانت ولا تزال تعنى باعمال البر والاحسان والتربية في بلدان الشرق الادنى . وكان ابن كليفلند دودج ، بايرد دودج ، آنذاك مدرساً في الجامعة الاميركية فتولى عملية التوزيع . وقد جاء الى لبنان اثناء الحرب الوف من الاشوريين والارمن اللاجئين . فقد كان في معسكر اللاجئين التابع لمدينة بيروت فقط خمسة عشر الف لاجيء . وكان في ضواحي بيروت عدد مماثل . وقد استمرت مؤسسة الغوث الاميركية في الشرق الادنى في اعمالها الخيرية الى ما بعد الحرب (١٩١٦ – ١٩٢٩) . ويقدر انها انفقت مئة مليون دولار ، وعلمت

١٣٦,٠٠٠ ولد ، واطعمت ١٢,٥٠٠,٠٠٠ جائع وعالجت طبياً ستة ملايين نسمة[١] . ويدلك على هول الفاجعة التي المت بلبنان اثناء الحرب العالمية الاولى ان بلدة مثل البترون كان عدد سكانها عند نشوب الحرب خمسة الاف نسمة ، فهبط عند انتهائها الى الفين . وقد قامت الارسالية الاميركية في جنوب لبنان وفي صيدا بعملية احصاء للاضرار المادية والخسارة في الارواح التي وقعت في الاجزاء الجنوبية من لبنان ، فتبين لها ان ١٨٢ قرية بمساكنها البالغ عددها عشرة الاف مسكن ، وبعدد سكانها البالغ ٧٧ الف ، تهدم فيها ٢٥٠٠ مسكن اثناء السنوات الاربع من سني الحرب ، وهلك ٣٣ الف نسمة . وان الاربعة واربعين الفا الباقين فيهم ١٦,٤٠٠ فقير معدم و ٢٦٠٠ يتيم . وكما قلنا آنفاً بلغت خسارة لبنان في الارواح مئة الف نسمة من اصل ٤٥٠,٠٠٠[٢] .

الانتداب الافرنسي

بدت للناس الملهوفين في لبنان بارقة امل جميل عندما احتل الجنرال اللنبي في شهر ايلول عام ١٩١٨ فلسطين ممهداً السبيل لاحتلال لبنان وسورية . بدأ اللنبي هجومه من قاعدته في مصر . وكانت الجيوش العربية بامرة فيصل ابن الحسين تعاونه عن طريق شرقي الاردن[٣] . وفي اليوم السابع من شهر تشرين الاول انزل الاسطول الافرنسي فرقة من الجنود في مدينة بيروت . وعلى صخرة نهر الكلب حيث سجلت اخبار امم قديمة في اجتياحها لبنان وعبورها نهر الكلب ، ترك الانكليز والفرنسيون نقشين تخليداً لذكرى احتلالها لبنان وسورية . وقبل ان ينصرم شهر تشرين الاول كان فيصل قد دخل دمشق مع الجيوش الانكليزية . كذلك وقعت تركيا على شروط الهدنة في مودروس (في جزيرة لمنوس) التي بموجبها سرحت على الفور جميع جيوشها . وتابعت جيوش الحلفاء زحفها حتى جبال طوروس . وفي مؤتمر سان ريمو (في

١ – Frank A. Ross, C. Luther Fry and Elbridge Sibley, *The Near East American Philanthropy* (New York, 1929), p. 2 .

٢ – جرجس المقدسي : اعظم حرب في التاريخ ، ص ٥٩ .

٣ – في هذه المعارك برز اسم لورنس . راجع كتابيه :

Revolt in the Desert (New York, 1927), pp. 41 seq .

Seven Pillars of Wisdom (New York, 1936), pp. 537 seq .

ايطاليـا) الذي عقد في شهر نيسان سنـة ١٩٢٠ اعطيت فرنسا، باعتبارهـا من ورثاء السلطنة العثمانيـة المنحلة ، الانتداب على كل من لبنـان وسورية ، واعطيت كذلـك انكلترا الانتداب على فلسطين والعراق . وبعـد اربعة اشهر وقعت تركيا على معاهدة الصلح المعروفة بمعاهدة سيفر والتي تنص عـلى تنازل تركيا نهائياً عن المقاطعـات التي وقعت تحت الانتداب الافرنسي والانكليزي . وبعد سنتين وقع في لبندن على صك الانتداب الذي وضع العلاقات الافرنسية اللبنانية على صعيد دولي رسمي تحت رعاية عصبة الامم . وفي هذه الاثناء توترت العلاقات بين فرنسا وبين فيصل في دمشق ووقعت الحرب بينهما . وفي ٢٤ تموز سنـة ١٩٢٠ التحم الجيش الافرنسي في معركـة بالجيش السوري في ميسلون اسفرت عن دخول الافرنسيين مدينـة دمشق . وبذلك ثبتت فرنسا قدمها في سورية .

تعزى فكرة الانتداب ــ وهي ظاهرة جديـدة في العلاقات الدولية ــ الى الجنرال سمطس من جنوبي افريقيـة والى الرئيس ودرو ولسن . ولكن الرئيس ولسن ، قبل الاقدام على فرض الانتداب على سورية ولبنان ، بعث بلجنة مهمتها الاطلاع على رغبات السكان في المقاطعات المنوي وضعها تحت الانتداب . وقد قام الرئيس ولسن بهذه الخطوة بناء على اقتراح قدمه له هورد س. بلس، رئيس الجامعة الأميركية في بيروت، وتمشياً مع مبدئه القائل بحق تقرير المصير . فبعد ان احتلت جيوش الحلفاء سورية ولبنان بقليل من الزمن (٧ تشرين الثاني ، ١٩١٨) اصدرت الحكومة الانكليزية بيانا مشتركاً اعلنت فيه عن رغبتها الصادقة في اقامة « حكومات تستمد سلطانها من الشعب وبملء حريته واختياره » وقد ضمن هـذا المبدأ فيما بعد في بند من بنود ميثاق جمعية الامم وفي صك الانتـداب . غير ان انكلترا وفرنسا وايطاليا في هذه الاثناء قصرت في امر تعيين ممثلين عنها . وكانت نتيجة استقصاءات اللجنة الاميركية كما جاءت في تقريرهـا ان اكثرية اللبنانيين اظهروا ميلا للانتداب الافرنسي وطالبوا بلبنـان الكبير من صور الى طرابلس

وبلبنان مستقل استقلالا تاماً عن سورية[١] .

كان صك الانتداب وثيقة واحدة تشمل البلدين سورية ولبنان . ومن بنود صك الانتداب بند الغيت بموجبه الامتيازات الاجنبية التي كان معمولا بها في السلطنة العثمانية . وتنص المادة العاشرة على « ان مراقبة الدولة لبعثات المرسلين الدينية في سورية ولبنان تقتصر على حفظ النظام العام وحسن الادارة » . وتنص مادة اخرى على ان اللغة الافرنسية والعربية لغتان رسميتان غير ان لغة التعليم الرسمي في المدارس هي اللغة العربية . والدليل على ان وثيقة صك الانتداب صيغت على عجل وبدون روية وانه ينقصها التوازن في اهمية بنودها العشرين يظهر لك بجلاء في البند الرابع عشر الذي يعنى بامر الآثار التاريخية . هذا البند ، الذي هو في نظر الناس اقل اهمية من غيره شامل مانع يحتوي على ثماني فقرات مفصلة ويشكل سدس حجم الوثيقة[٢] ! ولكن الحقيقة الثابتة هي ان الانتداب هذا ، لكونه انتدابا من نوع (آ) ، يتضمن فكرة سامية ويهدف الى غاية نبيلة لا عهد للناس بهما ولا ذكر لها في العلاقات الدولية بين المستعمر والمستعمَر . وقد حددت المادة الثانية والعشرون من ميثاق جمعية الامم فكرة الانتداب الاساسية واوضحت الغاية منه :

« إن بعض الشعوب التي كانت تحت الحكم التركي سابقاً قد وصلت إلى طور من التقدم يمكن معه الاعتراف بوجودها احتساباً كأمم مستقلة تقدِّم لها الدول المنتدبة عليها النصح والمساعدة إلى أن تصبح قادرة على إدارة شؤونها بذاتها . وينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار رغبات هذه الشعوب لدى اختيار دول الانتداب[٣] » .

ولكن صك الانتداب كانت تنقصه الوسائل الفعالة لبلوغ الهدف

---

١ ـــ ان تقرير هذه اللجنة لم ينشر رسمياً ، انما ظهر اولا تحت عنوان « تقرير لجنة كنغ ـــ كراين عن الشرق الادنى » في *Editor and Publisher*, vol. LV (New York, *Dec*. 2, 1922).

ويحسن بالقارىء الذي يريد تحليلا لهذا التقرير ان يراجع :

Harry N. Howard, « *An American Experiment in peace-making: The King Crane Commission,* » *The Moslem World*. vol.. XXXII, (1942), pp. 122 - 46.

٢ ـــ تجد نص وثيقة صك الانتداب في كتاب روبير ابيلا : اطوار الحكم في لبنان (بيروت ١٩٤٣) ص ٥ ـــ ١٢ .

٣ ـــ *Covenant of the League of Nations* (Geneva, 1924), pp. 12-13.

الاساسي . ذلك أنه في الواقع لم يضع مقاييس موضوعية يستطيع المرء بموجبها ان يقيس مدى بلوغ الشعب المنتدب عليه درجة من النضج السياسي يستطيع معه ان يحكم ذاته بذاته . بل ترك هذا الامر (انهاء الانتداب ، والحكم على الشعب المنتدب عليه بانه اصبح قادراً على ادارة شؤونه) للشعب المنتدب عليه ليبرهن عن قدرة اقتصادية وسياسية تؤهله للحكم الذاتي ، وللدولة المنتدبة لتعالج الامر تبعاً لاغراضها ودوافعها وبقدر ما تفرضه سياستها .

ولكن تطبيق الانتداب اعظم شأناً من نص الوثيقة ذاتها . كان المفوضون الساميون الثلاثة الاول من العسكريين الذين برزت اسماؤهم اثناء الحرب العالمية الاولى . وكان اعوانهم في ادارة الانتداب موظفين افرنسيين تمرنوا على الادارة في المستعمرات الافرنسية . وكانت السلطة في ايدي الافرنسيين، وكانوا يحكمون البلاد حكماً مباشراً . وكانت الصلاحيات التي تعطى الى الحكومة الوطنية اقل بكثير من الصلاحيات التي كانت تتمتع بها الحكومات الوطنية في العهد الذي سبق الانتداب. ويجب الاعتراف بان فرنسا وجدت البلاد في اسوأ فترة من تاريخها سواء اكان ذلك في حقل الاقتصاد ام في السياسة ام في الاجتماع ام في الحالة الروحية والفكرية التي كانت تتردى البلاد فيها . فشرعت على الفور في تنظيم الادارة والقضاء واصلاح الموانيء وترميم الطرق وانشاء المدارس وتأسيس مصلحة للصحة العامة والاعمال الانشائية[1] . وكذلك وضعت الدولة المنتدبة قوانين مدنية عصرية. وفي سنة ١٩٢٢ سنت قوانين للبلديات عصرية لتحل محل القانون العثماني القديم لسنة ١٨٧٧ . وهذه القوانين الجديدة من شأنها ان تمكن قرابة مئة وعشرين قرية ومدينة من ممارسة شيء من الاستقلال الذاتي المحلي ومن تشجيع انتاج الحرير الذي لولا هذه القوانين والانظمة البلدية لكان اضمحل اضمحلالا تاماً. وربطت الدولة المنتدبة

---

١ – Jean - Albert Sorel, *Le Mandat français et L'expansion éconorniqe de la Syrie et du Liban* (Paris, **1929**), pp. **241—2** .
للاطلاع على التقارير المفصلة التي كانت تبعث بها الدولة المنتدبة راجع :
Ministère des Affaires Étrangères : *Rapport à la Société des Nations sur la situation de la Syrie et du Liban* (Paris, **1923**).
وما تلاها من تقارير اخرى .

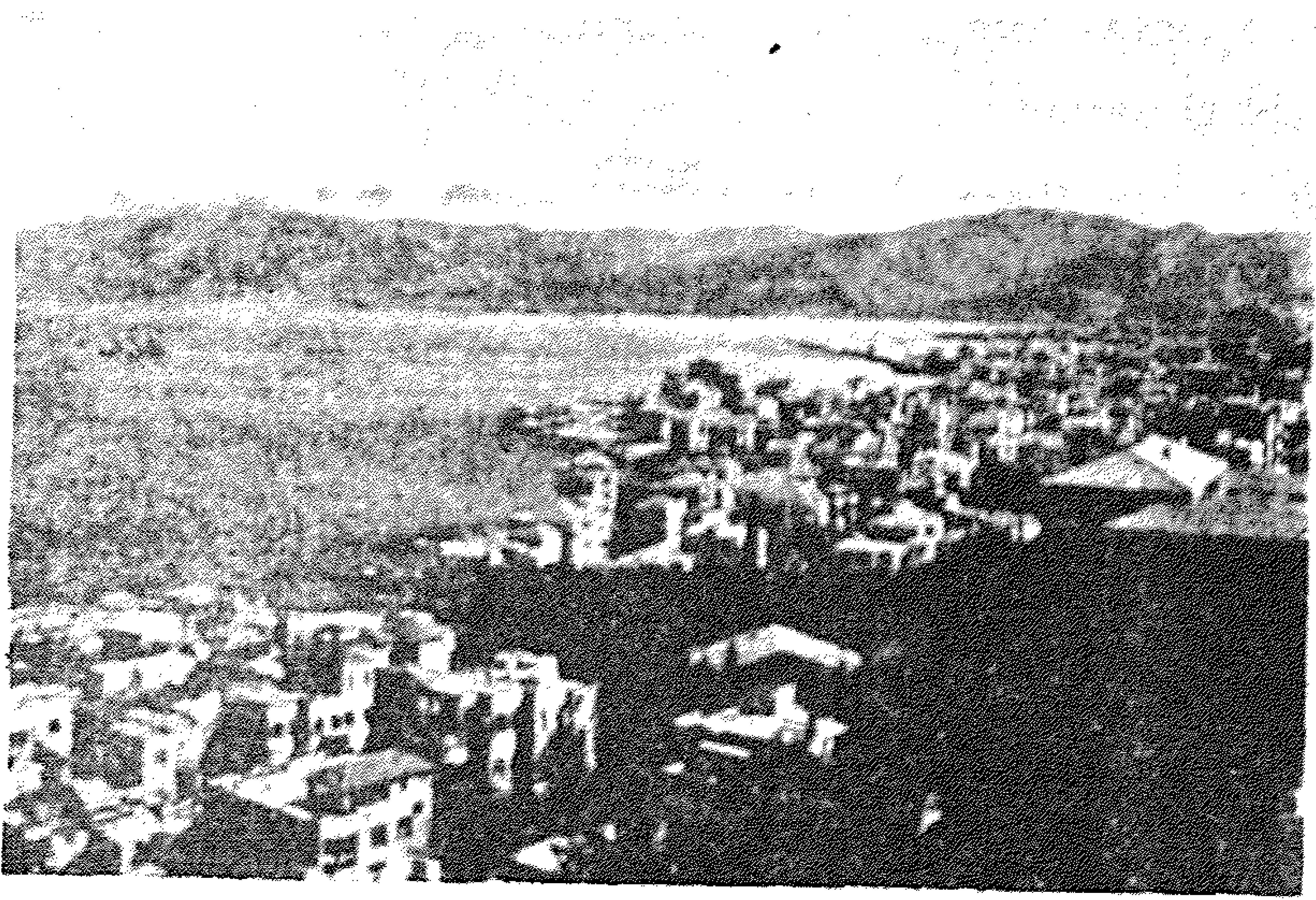
عمــلة البلاد بالفرنك الافرنسي الذي كانت قيمته قد انخفضت كثيراً . وابدت السلطة اهتماماً خاصاً بميناء بيروت وانشائه انشاء عصرياً بعد ان كان قد اهمل منذ ان انشأته شركة افرنسية بين سنة ١٨٨٩ و ١٨٩٤ . ولكن معظم جهود السلطة المنتدبة تركزت على اقامة جهــاز اداري وخطة سياسية تضمنان لها الاستقرار وسلامة مصالحها وبقائهــا في البــلاد لا على استغلال موارد البلاد الطبيعيــة لصالح الشعب، ولا على تدريبه على ممارسة الحكم لكي يصبح يوماً قادراً على حكم نفسه بنفسه . ومن جهة اخرى تركزت اتجاهات الرأي العام على السياسة الحزبية الضيقة التي كانت تدور حول اشخاص اكثر مما كانت تدور حول مبادىء[١] .

اعادة لبنان الكبير الى الوجود

كان اول مفوض سام افرنسي الجنرال غورو بطل معركة المارن الذي فقد احدى ذراعيه في المعارك الحربية. وهذا المفوض الافرنسي الاول هو الذي ثبت قدم فرنسا في سورية. فانه بعث بانذار الى حكومة فيصل في دمشق واتبعه بارسال جيوشه التي التحمت بالجيش السوري في معركة ميسلون . وكان غورو القائد العام للجيوش الافرنسية في سورية ولبنان التي كانت تتألف في الدرجة الاولى من جنود افرنسيين وجنود المستعمرات وبعض الوحدات المحلية التي كان يطلق عليها اسم « الجيوش الخاصة بالشرق » . وفي اليوم الاول من شهر ايلول سنة ١٩٢٠ اعلن الجنرال غورو في بيروت اعادة لبنان الكبير الى الوجود بهذه العبارة :

« في سفح هذا الجبل الشامخ الذي كان قوة بلادكم وسور ايمانها وحريتهــا المنيع ، وعلى شاطىء هذا البحر العجيب الشهير الذي شاهد سفن فينيقية واليونان وروما ماخرة عبابه حاملة آباءكم اهل الذكاء والمهارة وارباب الفصاحة والتجارة، وهو يحمل اليكم اليوم بعد رجوع الحظ عهد صداقة عظيمة قديمة ونعمة السلم الفرنسي ، وامام هؤلاء الشهود جميعاً شهود آمالكم ومجهوداتكم وانتصــاراتنا ، وبقلب يشاطركم فرحكم وفخركم ... انادي باسم حكومة الجمهورية الفرنسية بدولة

١ – Edward F. Nicoley, *A Survey of Economic Conditions in Syria* (Urbana, 1932),pp. 2—3 .



بيروت ، عاصمة الجمهورية اللبنانية ، كما تبدو من ارض الجامعة الاميركية في بيروت

لبنان الكبير واحييه راجياً له المجد والنجاح » .

وفي هذه الاثناء وضع دستور جديد لحكم البلاد ولتعيين الحدود[١] . اما المدن البحرية التي الحقت بلبنان ــ بيروت التي اصبحت العاصمة وصيدا وصور وطرابلس ــ والمدن والمقاطعات الداخلية مثل البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا ومرجعيون فانها كانت سابقاً جزءاً من لبنان تاريخياً وجغرافياً . وكان يحكمها احيانا المعنيون وتارة اخرى الشهابيون . غير ان مساحة الارض التي الحقت بلبنان ضاعفت تقريباً مساحته وزاد عدد سكانه بما يقرب من مئتي الف نسمة معظمهم من المسلمين الشيعة الذين كانوا يسكنون في مناطق مهملة ومتأخرة اقتصادياً واجتماعياً[٢] ، فان عدد سكان لبنان حسب احصاء ١٩١٣ كان يقدر ب ٤١٤,٨٠٠ منهم ٣٢٩,٤٨٢ مسيحيون (ومن هذا العدد ٢٤٢,٣٠٨ من الموارنة). وبعد مضي عشر سنوات بلغ عدد السكان ٦٢٨,٨٦٣ منهم ١٥٠,٠٠٠

١ — Text in League of Nations , *Permanent Mandates Commission : Minutes of the Eight Session* (Extraordinary) (Geneva , 1926), pp . 192-5 .

٢ — Sa'id Himadeh , ed . *Economic Organization of Syria* (Beirut , 1936), pp . 6 , 410 - 11 .

يسكنون بيروت و ٣٠,٠٠٠ في طرابلس و ١٣,٠٠٠ في صيدا . ولكن هــذا الكسب في مساحة الارض كان يقابله عـــدم تجانس في السكان ونقص في التمازج والترابط . ذلك ان لبنان فقد التوازن الداخلي الذي كان ينعم به سابقاً . ولكن من الناحية الجغرافية والاقتصادية اصبح لبنان دولة تستطيع البقاء . اما الاكثرية



بناية مجلس النواب اللبناني

المسيحية فلم تظل لها تلك الاكثرية الساحقة التي كانت تحتفظ بها من قبل .

تميزت السنوات الواقعة بين الحربين بتقدم مستمر في اساليب الحكم الوطني الديمقراطي . ففي الثالث والعشرين من شهر ايار عام ١٩٢٦ اعلنت دولة لبنان جمهورية . واتخذت علماً لها العلم الافرنسي المثلث الالوان ، انما اضافت اليه صورة الارزة الخضراء ــ شعار لبنان ــ في الرقعة البيضاء ، ولكن هذا العلم غير فيما بعد الى علم يتألف من ثلاثة رقع افقية الوانها : احمر ابيض احمر ، والارزة الخضراء في الابيض . وكذلك وضع دستور جديد ينص على اقامة نظام برلماني وحكومة

ديمقراطية . وكانت جمهورية لبنان الديمقراطية اول جمهورية من نوعها تأسست في العالم العربي . والدستور الجديد الذي وضعه المجلس التمثيلي بطلب من المفوض السامي هنري دي جوفينال ، اول مفوض مدني ، مستمـد بروحه من الدساتير الغربية العصرية . وينص على انتخاب رئيس للجمهورية وعلى اقامة وزارة مسؤولة ومجلسين : مجلس النواب ومجلس الاعيان (وقد الغي مجلس الاعيان فيما بعد) . وبالرغم من ان هذا الدستور عدل مرات عديدة وعلقه المفوضون الساميون اكثر من مرة فانه لا يزال في اساسه الدستور المعمول به الى الآن . والدستور اللبناني لا ينص على ان للدولة ديناً معيناً كما هو الحـال في دساتير البلدان العربية المجاورة ، بل ان حرية العبـادة في لبنان حقيقة ثابتة . غير انه ابقى عـلى قانون الاحوال الشخصية القديم الذي كان تنفيذه منوطاً برؤساء الطوائف والملل سواء اكانوا نصارى ام مسلمين . وفي سبيل المحافظة على التوازن الطائفي فقد نشأ تقليد بموجبه يصبح رئيس الجمهورية مارونياً (ان الموارنة ، كطائفة ، هم اكبر طائفة في لبنان)، ورئيس الوزارة مسلماً سنياً ورئيس المجلس النيابي شيعياً ووزير الدفاع درزياً . وكان اول رئيس ماروني للجمهورية عينه المفوض السامي الافرنسي حبيب باشا السعد الماروني (١٩٣٤ ـ ١٩٣٦) . امـا اول رئيس من الموارنة للجمهورية ينتخبه المجلس فقد كان اميل اده (١٩٣٦ ـ ١٩٤١) . وفي الواقع كان اول رئيس منتخب[١] . واصبح الحكم الافرنسي في البلاد حكماً غير مباشر وذلك عن طريق المستشارين الذين كـانوا يسمون « مستشارين » ولكنهم في الواقع كانوا

١ ـ رؤساء الجمهورية اللبنانية :

١) شارل دباس (٢٦ ايار ١٩٢٦ ـ اول كانون الثاني ١٩٣٤)
٢) حبيب باشا السعد (٣٠ كانون الثاني ١٩٣٤ ـ ٢٠ كانون الثاني ١٩٣٦)
٣) اميل اده (٢٠ كانون الثاني ١٩٣٦ ـ ٤ نيسان ١٩٤١)
٤) الفرد نقاش (٢٤ تشرين الثاني ١٩٤١ ـ ١٨ اذار ١٩٤٣)
٥) ايوب ثابت (١٨ اذار ـ ٢١ تموز ١٩٤٣)
٦) باترو طراد (٢٢ تموز ـ ٢١ ايلول ١٩٤٣)
٧) بشارة الخوري (٢١ ايلول ١٩٤٣ ـ ١٨ ايلول ١٩٥٢)
٨) كميل شمعون (١٣ ايلول ١٩٥٢ ـ ٢٣ ايلول ١٩٥٨)
٩) فؤاد شهاب (٢٣ ايلول ١٩٥٨ – ٢٣ ايلول ١٩٦٤)
١٠) شارل حلو (٢٣ ايلول ١٩٦٤ – ٢٣ ايلول ١٩٧٠)
١١) سليمان فرنجية (٢٣ ايلول ١٩٧٠ –)

يتمتعون بصلاحيات واسعة . اضف الى هـذا ان دائرة الامن ظلت في ايـدي الافرنسيين ، وقدكانت تضم بين موظفيها جماعة كبيرة من رجال التحري .

استقلال اسمي

في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٦ وقع رئيس الجمهورية اميـل اده والمفوض السامي دي مارتل معاهدة صداقة وتحالف مع فرنسا مدتها ٢٥ سنة . وبموجب هذه المعاهدة تعترف فرنسا باستقلال لبنان وبمساعدته عـلى الانضمام الى عصبة الامم كدولة مستقلة ، بينما تحتفظ فرنسا بالامور الخارجية والعسكرية التي تظل ضمن صلاحيات المفوض السامي . وهذه المعاهدة شبيهة بالمعاهدة التي عقدت بين فرنسا وسورية بفارق واحد رئيسي ، وهو انّ تدريب الجيش السوري كان ينـاط بضباط افرنسيـين ، بينما يحق لفرنسا ابقـاء جيوش افرنسية في لبنـان طيلة مدة المعاهدة التي يمكن تجديدهـا بتراضي الفريقـين . ولكن هاتـين المعاهدتين ، الافرنسية اللبنانية والافرنسية السورية ، لم تصدق عليهما الجمعيـة الوطنية في فرنسا مما زاد العلاقات بين فرنسة وسورية ولبنـان توتراً وسواء[1] . اما لبنـان الذي تعود اهله عـلى مدى الايام تقلبات الاحوال وتغير السلطات الحاكمة فانـه لم يبد من المقـاومة العنيفة والانتفاضات الخطيرة التي ابداهـا سكان سورية في وجه الدولة المنتدبة . فقد عبر السوريون عن الاستياء العـام ، والمقاومة الشديدة للانتداب، وخيبة الامل في تحقيق اهداف القومية الوطنية احياناً بشكل اضراب عام أو بقيام مظاهرات واحياناً اخرى بثورات مسلحة . واخطر هذه الثورات كانت ثورة ١٩٢٥ التي انطلقت شرارتها الاولى من جبل الدروز فعمت سائر انحاء البلاد ، مثل دمشق وحماة ومدن اخرى . ولم تهدأ الثورة الا في

---

١ ـ للاطلاع على المزيد من سير العلاقات بين لبنان الانتداب ولبنان المستقل راجع :
Pierre Rondot, *Les Institutions politiques du Liban* (Paris, 1947) pp. 7—21; Albert H. Hourani, *Syria and Lebanon* (London 1946) pp. 179—230; Louis Jalabert, *Syrie et Liban* (Paris, 1934), pp. 30—40; Nicola A. Ziadeh, *Syria and Lebanon* (London, New York, 1957),pp. 46—61;Stephen H. Longrigg, *Syria and Lebanon under French Mandate* (London, 1958), passim .

سنة ١٩٢٧ . وقد تناولت الثورة بعض لبنان الجنوبي . ومما زاد التوتر في سورية سياسة الانكليز في العراق التي كانت اكثر تحرراً واخف قيوداً على شعب العراق. ولكن في هذه الاثناء كانت تتلبد في الافق البعيد غيوم سوداء تنذر بشر مستطير. كان ذلك شبح الحرب العالمية الثانية .

في ظل الاحكام العرفية

في التاسع من شهر ايلول سنة ١٩٣٩ اعلن المفوض السامي غبريال بيو[١] الاحكام العرفية وعلق الدستور وحل المجلس النيابي وحد كثيراً من سلطة رئيس الجمهورية . وعين وزير دولة ليقوم ببعض الاعمال الادارية التي كانت تقوم بها الوزارة . وعينت الحكومة الافرنسية الجنرال ويغان ، احد ابطال الحرب العالمية الاولى وخليفة غورو كمفوض سام في سورية ولبنان ، قائداً عاماً لجميع جيوش الحلفاء في منطقة حوض المتوسط الشرقية . ولكنه استدعي في الربيع التالي ليتولى قيادة جيوش الحلفاء في اوروبة . وقد ظل في هذا المركز الى ان سقطت فرنسا صيف ١٩٤٠ . اما خليفته في قيادة الجيش الافرنسي في سورية ولبنان فقد اعلن، بالاتفاق مع المفوض السامي بيو ، ولاءه لحكومة فيشي وانهاء جميع الاعمال الحربية ضد المانيا وايطاليا[٢] . وكان هذا العمل الى حد ما نتيجة العداء التقليدي الذي كان مستحكما بين الموظفين الافرنسيين في سورية ولبنان وبين الانكليز جيرانهم في فلسطين والعراق . غير ان انكلترا التي لم تكن مطمئنة الى وضعها السياسي والعسكري في فلسطين والعراق ومصر ، والتي كانت تخشى ان تلجأ دول المحور

١ ــ اسماء المفوضين الساميين :

(١) الجنرال هنري غورو ، ٨ تشرين الاول سنة ١٩١٩ .

(٢) الجنرال مكسيم ويغان ، ٩ ايار ، ١٩٢٣ .

(٣) الجنرال موريس ساراي ، ٢ كانون الثاني ، ١٩٢٥ .

(٤) هنري دي جوفينل ، ٢ كانون الاول ، ١٩٢٥ .

(٥) هنري بونسو ، ١٢ تشرين الاول ، ١٩٢٦ .

(٦) دميان دي مارتل ، ١٢ تشرين الاول ، ١٩٣٣

(٧) غبريال بيو ١٢ كانون الثاني ، ١٩٣٨

٢ ــ Gabriel Puaux, *Deux Anneès au Levant* (Paris,1952),pp. 205-18

لاستخدام لبنان وسورية قاعـدة لاعمال حربية ضدهـا ، سيرت حملة عسكرية تعاونها بعض الجيوش الافرنسية التي التفت حول الجنرال ديغول فطردت الجيوش الافرنسية الموالية لحكومة فيشي ومن كان معها من جيوش دول المحور واحتلت سورية ولبنان. وقد دامت الحرب بين القوات الانكليزية وبين قوات فيشي شهراً واحداً ضرب فيه الحصار البحري على الساحل وضربت بعض المدن والمطارات بالقنابل . ثم ان سورية ولبنان الحقا بالقيادة البريطانية للشرق الاوسط . اما في فلسطين فكان السكان في غليـان من جراء التسرب الصهيوني على نطاق واسع . واما في العراق فنشبت الثورة المعروفة بثورة رشيد عالي الكيلاني[١] .

كان اللبنانيون، الذين لم يكونوا قد نسوا بعد ويلات الحرب الاولى، ينظرون الى المستقبل نظرة قلق ووجل . ولكن لم يطل الوقت حتى اعلنت انكلترا الحاق سورية ولبنان بمنطقة التجارة البريطانية. ونشط مركز التموين الانكلو اميركي لمنطقة الشرق الاوسط في القاهرة لمعالجة النقص في مواد الاستهلاك الناشىء عن قـلة البواخر وصعوبة النقل البحري . وقد حاول الانكليز زيادة الانتاج المحلي وانشاء نظام اقتصادي موجه من شأنه ان يخفف حدة الازمة الاقتصادية في المنطقة كلها. وكان من نتـائج هذه التدابير التي اتخذتهـا السلطات العسكرية لتحسين الحالة الاقتصادية انها لم تقتصر على توفير الطعـام ومنع التضخم المالي ووقف التدهور الاقتصادي وحسب ، بل انها ساعدت على وضع البلاد في حالة ازدهار ورخاء . فقد كان لوجود الجيوش الكبيرة التي تحتاج الى المؤن والخدمـات المختلفة اثر في النشاط الزراعي والتجاري . وكان لمشاريع البناء والنقل والمواصلات اثر في تشغيل اليد العاملة وارتفاع اجورها . وقد انشىء خط حديدي يربط بيروت بطرابلس شمالا وبحيفا جنوباً مما جعل الاتصال بين «لبنان» وتركيا ومصر وفلسطين والعراق وسورية امراً ميسوراً . وقد اهتمت السلطات اهتماماً خاصاً بالحفاظ على الصحة العامة . ولـكي يقـدر المرء هذه النعم التي نعم بها لبنان في الحرب العالمية الثانية عليه ان يقابل بين لبنان في الحرب العالمية الاولى وبينه اثناء الحرب الثانية .

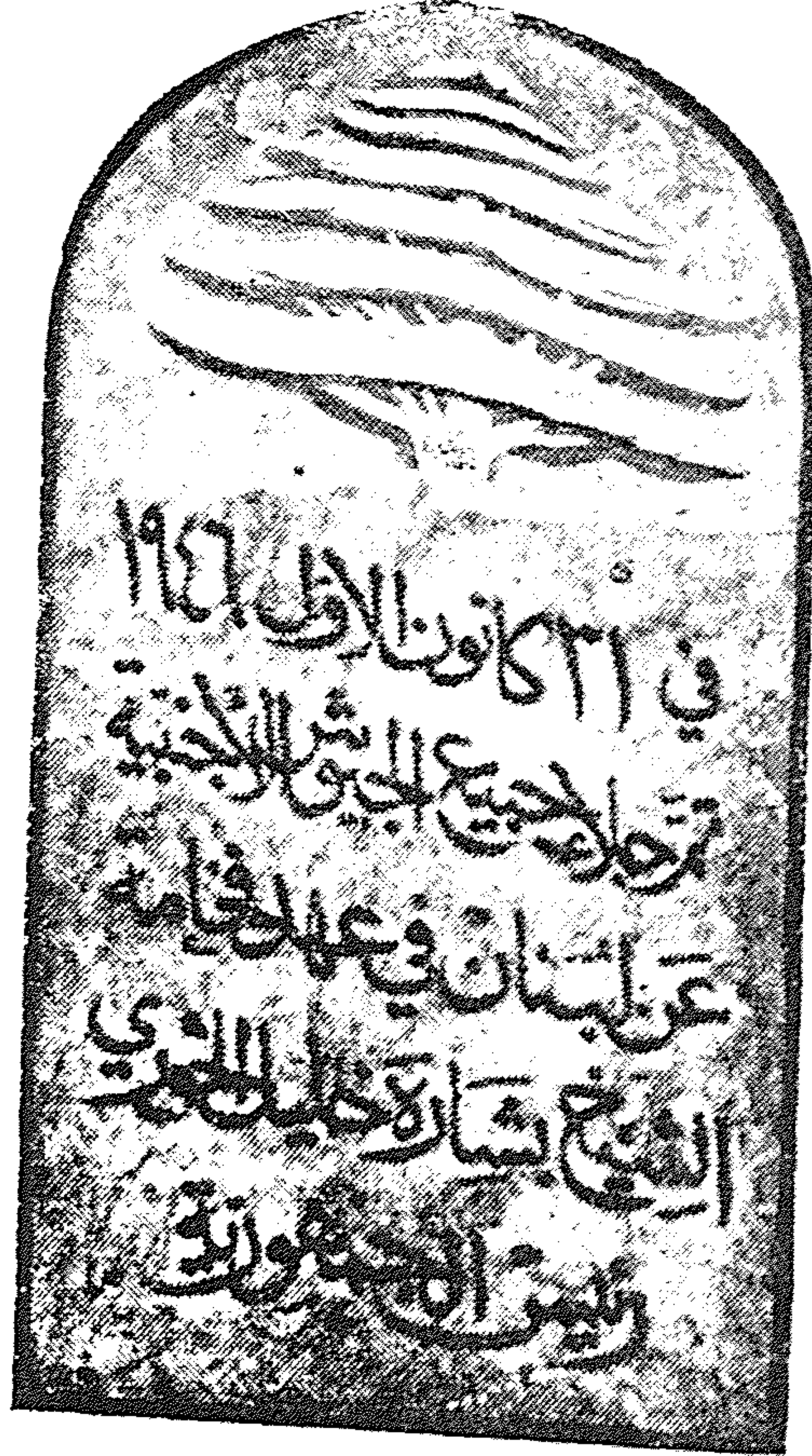
---

١ ـ للاطلاع على التفاصيل راجع :

Albert H. Hourani, *Syria and Lebanon*, pp. **230—40** .

الاستقلال التام

استعاضت فرنسا الحرة عن المفوض السامي وارسلت مكانه جورج كاترو كقائد عام للجيوش الافرنسية الحرة وكمندوب فوق العادة يمثل حكومة الجنرال ديغول . وفي اليوم السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني ، ١٩٤١ ، اعلن الجنرال كاترو باسم حكومته ، وبالاتفاق مع حليفتها بريطانيا ، الاستقلال التام للبنان وانهاء الانتداب ، واصبح هذا اليوم عيداً وطنياً هو عيد استقلال لبنان . اما في سورية فانهم يحتفلون بالسابع والعشرين من شهر ايار كعيد وطني لاستقلال البلاد



على صخرة قرب مصب نهر الكلب حفر هذا النقش تخليداً لذكرى جلاء الجيوش الاجنبية عن لبنان في ٣١ كانون الاول ١٩٤٦

وانهاء الانتداب عليها. وسارعت بريطانيا للاعتراف باستقلال الجمهوريتين اللبنانية والسورية. وكانت حكومة الولايات المتحدة اول حكومة ارسلت معتمداً دبلوماسياً وقنصلا عاماً يمثلها في البلدين المستقلين. وما ان عادت الحياة الدستورية في لبنان حتى جرى انتخاب مجلس نواب جديد في خريف ١٩٤٣. وكان اكثر النواب المنتخبين من الوطنيين الشديدي الحماس للقضايا الوطنية ومن الذين يعطفون على القضايا العربية. وقد انتخب المجلس الجديد الشيخ بشارة خليل الخوري رئيساً للجمهورية. وكان بشاره الخوري محامياً لامعاً مثقفاً ثقافة افرنسية عالية، وموظفاً احتل ارفع المناصب الحكومية. وقد عيّن الرئيس الجديد رياض الصلح رئيساً للوزارة. وكان رياض الصلح من ابرز الشخصيات السياسية وادهاها. وكان جمال باشا قد نفاه لنشاطه في الحقل العربي ولدعوته الى القومية العربية. وكان اول عمل قامت به الوزارة تعديل الدستور لحذف بعض المواد التي وجد انها تتنافى مع الوضع الراهن للبلاد وتمس سيادتها. وكان البرنامج يشمل حذف جميع البنود التي يرد فيها اسم فرنسا كبلد منتدب على لبنان. ولكن هذا التعديل لم يرض عنه المفوض الافرنسي الجديد جان هللو. ومن جملة الامور الحيوية التي كانت موضع خلاف خطير بين الحكومة اللبنانية الجديدة وبين المفوض الافرنسي قضية الجيوش الخاصة بالمشرق والامن العام والمصالح المشتركة بين لبنان وسورية لا سيا الجمارك وبعض الشركات ذات الامتيازات وادارة حصر التبغ ومراقبة الحدود. فان هذه المصالح والخدمات كانت لا تزال في ايدي الافرنسيين. وازاء الاصرار اللبناني وعناده وتصميمه على استلام هذه المصالح اتماماً لسيادته علق المفوض الافرنسي الدستور والقى القبض على رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وبعض الوزراء واحد النواب وارسلهم مخفورين الى قلعة راشيا. واعلن الاحكام العرفية واقام نظام مراقبة شديداً على الصحف. فكان هذا الاجراء التعسفي الاهوج مثاراً لاستياء عام وسخط شديد ظهرا على الفور في الاضراب الشامل الذي اضربته البلاد بأسرها، وفي المظاهرات الصاخبة في شوارع المدن وقراها. ولم تقتصر موجة الاستياء هذه على لبنان بل تعدتها الى سائر البلدان العربية التي ايدت لبنان في صراعه مع الافرنسيين. وكذلك اهتاج الرأي العام في اوساط المغتربين، فانهال على حكومة الولايات المتحدة والبرازيل وعلى حكومات اخرى سيل من الاحتجاجات

على تصرف الافرنسيين. وكان الضغط على الحكومة الافرنسية الحرة من الداخل ومن الخارج شديداً . واخيراً اذعنت للواقع . وفي الحادي والعشرين من شهـــر تشرين الثاني (١٩٤٣) اعيد الموقوفون في قلعة راشيا الى بيروت بعد ان سجنوا هناك احد عشر يوماً وعادوا يمارسون سلطاتهم القانونية فعادت الحياة الدستورية الى البلاد مرة ثانية .

وما ان حل عام ١٩٤٤ حتى كانت الحكومة اللبنانية قد تسلمت جميع المصالح التي كانت في ايدي الافرنسيين باستثناء الجيوش الخاصة بالمشرق . وقد اشترطت فرنسا مقابل تسليمها هذه الجيوس الى حكومة لبنان توقيع معاهدة بين لبنـــان وفرنسا . ولكن لبنان رفض هذا الشرط ، ولم يكن بـــد من ان تسلم فرنسا آخر الامر بالواقع . وفي السابع والعشرين من شهر شباط اعلن لبنان الحرب على المانيا واليابان كرمز انه يقف الى جانب الحلفاء . وفي الشهر التالي وقع لبنان على ميثاق هيأة الامم المتحدة وبذلك اصبح له الحق بان يحضراول اجتماع لهذه الهيأةالدولية التي عقدت اجتماعهـــا الأول في سان فرنسيسكو . وعلى صخرة من صخور نهر الكلب حيث سجل اعاظم القواد في العالم القديم اسماءهم نقشت هذه العبارة :

« في ٣١ كانون الاول ١٩٤٦ تمّ جلاء جميع الجيوس الاجنبية عن لبنـــان في عهد فخامة الشيخ بشارة خليل الخوري رئيس الجمهورية »

اي ان ما وعدت به فرنسا وبريطانيا في اواخر الحرب العالمية الاولى من منح هذه البلاد استقلالها التام لم يتم الا في اواخر الحرب العالمية الثانية .

الفصل الرابع والثلاثون

تحت راية الارز : تطورات ومشاكل

بدأت الجمهورية اللبنانية الفتية عهد سيادتها واستقلالها التامّين في جو مشوب بمشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية خطيرة ، وهي صادرة عن موقع لبنان الجغرافي وتاريخه المعقد وتركيبه الاجتماعي الذي يتميز باختلاف السكان وتبـاين اديانهم . غير ان الجمهورية اللبنانية في الاثنتي عشرة سنة الاولى من تاريخها وفقت الى حل



علم الجمهورية اللبنانية

بعض مشاكلها السياسية وسارت شوطاً بعيداً في تحسين الحالة الاقتصادية ، انما ما يؤسف له ان التقدم في الحقل الاجتماعي كان يسير سيراً بطيئاً ، فانهـا كدولة لم تستطع ان تغرس في نفس المواطن الولاء المخلص لوطنه ، ذلـك الولاء الذي يتعدّى الاقليمية الضيقة والقبلية البدائية .

في الحقل السياسي

هنالك عاملان رئيسيان يحددان الى مدى بعيد طبيعة العلاقات التي تربط لبنان بجيرانه من الدول العربية . العامل الاول هو اللغة العربية وذلك الجزء الكبير من السكان المسلمين الذي يشد بجزء من لبنان ناحية العروبة والقضايا العربية الوطنية . والعامل الثاني هو اتجاه لبنـان نحو المدنية الغربية وذلك الجزء الكبير من سكانه

المسيحيين الذين يبدون تخوفاً من ذوبان لبنان في مجموعة عربية كبيرة ذوبانا يفقده استقلاله وكيانه وطابعه الخاص . مما لا شك فيه ان لبنان ، نتيجة لانتشار العلم والمعرفة فيه ونتيجة للهجرة الى الغرب ، اصبح اقرب البلدان العربية تجاوباً وانسجاماً مع الحضارة الغربية . فكان من الطبيعي ان يرى نفسه مهدداً بمشاكل من الداخل ومن الخارج . فالى جنوبه كان الملك عبدالله الطامح بسورية الكبرى والحالم بتتويجه ملكاً عليها. وفي حال تحقيق هذا الحلم يترك للبنان الخيار في الانضمام الى البلدان العربية ام البقاء مستقلا عنها[1] . وقد لاقت خطة الحسين استحساناً عند كثيرين من الزعماء السياسيين في سورية . ثم كان هنالك سياسة عراقية يتزعمها سياسيون بارزون يعملون لخلق الهلال الخصيب الذي يتوج عليه ملك العراق الهاشمي[2] . وكان هنالك زعماء سوريون سياسيون يرون رأي زعماء العراق ، وتعاونوا معهم تعاوناً وثيقاً . ثم انه في سنة ١٩٣٢ ظهر على مسرح السياسة شاب لبناني عائد من البرازيل اسمه انطون سعاده والف حزباً منظماً تنظيماً مركزياً دقيقاً يعرف بالحزب السوري القومي. وعقيدته الاساسية ان هنالك قومية سورية متميزة مستقلة تقطن المنطقة الواقعة بين جبال طوروس في الشمال وخليج العقبة في الجنوب الممتدة من البحر غرباً الى الفرات ودجلة شرقاً هذه هي الامة السورية المتميزة . وقد انضم الى الحزب جمهور من الشبان المثقفين المتحمسين في جميع انحاء البلاد . اما زعيم الحزب ومؤسسه فقد اعدمته الحكومة اللبنانيه سنة ١٩٤٩ اثر محاولته القيام بثورة مسلحة تهدد كيان الدولة[3] . هذه بعض المشاكل التي كانت تجابه الجمهورية اللبنانية . غير انها كانت ابداً تسعى للمحافظة على سياستها التي كانت تقوم على ثلاثة مبادىء اساسية: المحافظة على سيادة لبنان واستقلاله، وعلى التعاون الودي المخلص مع سائر الدول العربية ، وعلى الحفاظ على العلاقات الثقافية

---

١ ــ عبدالله ابن الحسين : مذكراتي (القدس ١٩٤٥) ص ٢٥٢ . راجع ايضاً « الكتاب الاردني الابيض . سوريا الكبرى » (عمان ١٩٤٧ ؟) الذي اصدرته الحكومة الاردنية ، وفيه الوثائق المتعلقة بهذه القضية .

٢ ــ Halford L. Haskins, *The Middle East* (New York, 1954). p. 151.,

٣ ــ وزارة الانباء في لبنان ، قضية الحزب القومي (بيروت ١٩٤٩) ص ٦٣ وما يليها . بخصوص الاحزاب السياسية في لبنان وسورية راجع :
Nicola A. Ziadeh, *Syria and Lebanon*, p. 191—212.

والاجتماعية مع الغرب . ولا شك بأن المحافظة على هذه السياسة من ادق المشاكل التي تجابه سياسة لبنان الداخلية والخارجية .

اما في حقل القضاء فان الجمهورية اللبنانية سارت شوطاً بعيداً في سنّ الشرائع والقوانين العصرية . فانها كانت دوماً تعدل قوانينها بحيث تطرح جانباً القوانين العثمانية القديمة البالية وتسن شرائع عصرية لتحل محلها في الجزاء والتجارة . وفي سنة ١٩٥٣ منحت المرأة اللبنانية حق الاقتراع بعد ان جاهدت في هذا السبيل وبعد ان تقدمت بمطالبها هذه الى الحكومة اللبنانية . واخيراً اقر المجلس طلبهن ، وكانت هذه اول مرة تمنح بها المرأة هذا الحق السياسي في منطقة الشرق الادنى . غير ان محاولة الحكومة الغاء الطائفية لم يكن امراً يسيراً فكانت جميع المحاولات تلاقي اعتراضاً من قبل فئات مختلفة . وقانون الانتخاب اللبناني يقوم على مبدأ التمثيل النسبي بين الطوائف ، اي ان لكل طائفة نوابها . وكذلك لم تنجح محاولة الحكومة في الغاء قانون الاحوال الشخصية الذي ظل في ايدي الرؤساء الروحيين لمختلف الطوائف .

اما الدور الذي لعبه لبنان على مسرح السياسة الدولية فا كبر بكثير من مساحته الجغرافية . فان ممثلي لبنان في هيأة الامم المتحدة وفي العواصم الكبرى في العالم مثل لندن وباريس ووشنطون وغيرها كانوا ابداً من اشد انصار المثل العليا للعالم الحر . وفي هيأة الامم المتحدة كان ممثل لبنان يقف دوماً الى جانب قضايا العرب العادلة . فقد وقف الجميع صفا واحداً في معارضتهم تقسيم فلسطين. وعندما نشبت الحرب في فلسطين بين الصهيونيين والعرب (١٩٤٨) ساهم لبنان بارسال جيش الى حدوده الجنوبية ليقف الى جانب اخوانهم العرب . ولم يكن جيش لبنان بالجيش الكبير بل كان جيشاً صغيراً منظماً على النمط الافرنسي . وكانت الغاية منه المحافظة على الامن الداخلي . وعندما نشبت الحرب الكورية قررت الحكومة تخصيص مبلغ خمسين الف دولار كمساعدة رمزية لقوات الامم المتحدة التي حاربت في كوريا . وبالرغم من مرارة الخيبة التي مني بها العرب من جراء مساندة الولايات المتحدة لقيام دولة اسرائيل فان لبنان ، الذي كان يشاطر اخوانه العرب هذه المرارة ، لم يستنكف عن تلقي المساعدات الفنية والقروض

المالية من اميركا كما فعلت بعض الدول العربية . وسبب هذه المرارة التي شعر بها العربي في جميع الاقطار العربية هو ان العرب يعرفون الاميركي رجلا مثالياً كريماً ومسيحياً خيراً . ولكن عطف اميركا على الصهيونية ومساندة دولة اسرائيل جاءا صدمة عنيفة غيرت رأي العربي في الاميركي الذي كان يعرفـــه . ولا يزال العرب يشعرون بوقع هذه الصدمة .

في شهر آذار سنة ١٩٤٥ ، لما تأسست جامعة الدول العربية وباركت بريطانيا قيامها ، كان لبنان احد الموقعين على ميثاقها . وبفضل مساعي لبنان ادخـــل في الميثاق بند ينص على حق كل دولة ان تنسحب من الجامعة اذا شاءت ذلك[١] . والواقع ان لبنان لعب دوراً رئيسياً في وضع ميثاق الجامعة ، وفي داخل الجامعة كان دوماً الوسيط بين الدول المتنازعة او المختلفة في الرأي . وينص ميثاق جامعة الدول العربية على استقلال كل دولة وسيادتها ويحرم اللجوء الى استعمال القوة في فض الخلاف الذي قد ينشأ بين دولة واخرى . وقد جاء انشاء الجامعة العربيـــة تعبيراً عن شعور الوحدة التي تربـــط بين الشعوب العربية وعن ضرورة التعاون بينها . وفي سنة ١٩٤٩ وقع لبنان على وثيقة الضمان الجماعي الذي كان يضم اربعة اعضاء : مصر وسورية والسعودية العربية واليمن . واشد نكسة اصابت الجامعة عجزها الفاضح في الحرب الفلسطينية . وكانت الصدمة الثانية التي اصابت الجامعة انضـــمام العراق الى حلف بغداد الذي جعل العراق يتعاون تعاوناً وثيقاً مـــع الديمقراطيات الغربية في صراعها ضد الشيوعية . وتعرض لبنان الذي لا يختلف اتجاهه عن اتجاه العراق لضغط سياسي وتهديد اقتصادي مُقنَّع قامت به الدول التي عارضت انضمام العراق الى ميثاق بغداد ، نعني مصر والسعودية العربية وسورية .

التجارة والترانزيت

كانت العلاقات السورية اللبنانية الاقتصادية تتميز في كثير من الاحيان بالفتور وذلك لاختلاف اساسي في سياستهما الاقتصادية . فان الدولتين ورثتا من الحكومة الافرنسيـــة المنتدبة كثيراً من المصالح المشتركة وذلك فيما يتعلق بمراقبة الحدود

١ ـــ احمد موسى : ميثاق جامعة الدول العربية (القاهرة ١٩٤٨) ص ٦١ ـــ ٦٢ .

واحتكار التبغ والجمارك والشركات ذات الامتيازات التي كانت تعمل في الدولتين. وفي سنة ١٩٤٤ عينت الدولتان لجنة مؤلفة من ستة اعضاء ، ثلاثة من كل بلد ، لادارة هذه المصالح المشتركة والاشراف على وارداتها وتوزيعها بنسبة ٤٠ بالمئة تعود الى لبنان و ٦٠ بالمئة الى سورية .

ولكن سورية كانت تتجه في سياستها الاقتصادية نحو التجارة المقيدة والصناعة المحمية بعكس اتجاه سياسة لبنان الاقتصادية الحرة التي كانت تمليها عليه ميناء بيروت وموقعه الجغرافي . فكان في مقدمة اسباب الخلاف قضية الجمارك وفرض الرسوم الجمركية . ولم تتردد سورية في الغاء اتفاقية الجمارك والحكم عليها بانها ليست في صالح سورية . وكانت الحكومات العسكرية التي تعاقبت على الحكم في الفترة الاخيرة تقفل الحدود احياناً وتعلن القطيعة الاقتصادية .

اما لبنان فهو بلد تجارة وترانزيت بين الشرق والغرب . ولبنان دولة تجار لا يختلفون كثيراً في اعمالهم عن جدودهم الفينيقيين . ولذا كان لبنان منذ اقدم العهود يميل الى التجارة الحرة ، وسياسة التجارة الحرة هي اساس ازدهاره وغناه فانه بلد صغير يقع على ملتقى الطرق الجوية والبرية بين الغرب والشرق وبين الشمال والجنوب ولانه ليس في لبنان موارد طبيعية غنية ـ اللهم اذا استثنينا المناظر الخلابة والمناخ الجميل والموقع الستراتيجي ومهارة تجاره وحذقهم واقدامهم وطموح سكانه ـ فانه كان يعتمد على الخدمات التي كان يقوم بها كعميل في التصدير والتوريد والتوزيع كمصدر كسب في التجارة الدولية .

والدخل من تجارة الترانزيت ومن الاصطياف ومما يبعث به المهاجرون من مال الى عيالهم وذويهم وما يدخل لبنان من اعانات مالية للمؤسسات الدينية والتربوية يسد العجز في الميزان التجاري بين التصدير والاستيراد . فان لبنان يستورد اكثر مما يصدر . وبالتالي فان مستوى العيش في لبنان مستوى لم تصل بعد اليه دولة عربية اخرى . ففي سنة ١٩٥٤ ، مثلا ، دخل البلاد اكثر من مئة وخمسين الف سائح (٢٥ الف اميركي وكندي) . ويقدر الدخل الحاصل بثلاثين مليون من الدولارات . وقد بلغ الدخل الوطني في شهر اب سنة ١٩٥٥ ، حسب بيان القاه رئيس الجمهورية اللبنانية في تلك السنة ، ١,٣٨٠,٠٠٠,٠٠٠ ليرة لبنانية . وكان

ينتظر ان يبلغ الدخل عند نهاية السنة ذاتها ١,٤٤٠,٠٠٠,٠٠٠ ليرة لبنانية مما يجعل معدل دخل الفرد الواحد في لبنان اعلى مما هو عليه في اي بلد عربي آخر . وقال رئيس الجمهورية في خطابه هذا ان ٣٧ بالمئة من هذا الدخل الوطني مصدره التجارة ، و ١٩ بالمئة منه مصدره الزراعة ، و ١٦ بالمئة من الصناعة .

ولبنان بلد اصطياف . والاصطياف في لبنان قديم العهد نسبياً . ولكن بعد الحرب العالمية الثانية اصبح بلد اشتاء ايضاً. فان هواة التزلج على جباله المغطاة بالثلج شتاء يقصدونه من اماكن بعيدة . وقد اصبح لبنان ملعباً ومكاناً لقضاء العطل في مختلف الفصول . ويباهي اهل لبنان بجمال بلادهم . فان الطبيعة اسبغت عليه من النعم الطبيعية ما لم تسبغه على بقعة اخرى بمثل هذا الخير الجغرافي . يقولون لك : في اي بقعة من بقاع الارض يستطيع المرء ان يسبح في بحره الدافىء وبعد ساعة من الزمن يصعد الى قممه ليتزلج على الثلج ؟ وفي البلاد الآن سبعة مراكز للتزلج احسنها تجهزاً بوسائل الراحة جبال الارز المشهورة التي تبعد عن بيروت ٩٠ ميلا. هنالك بالقرب من غابة الارز الجميلة فنادق جميلة وبالقرب منها مصعد كهربائي ينقل الزائر الى قمة الجبل البالغ علوها ٩٩٠٠ قدم حيث ينعم بمنظر ، اذا كان الجو صافياً ، قل ان يجد له مثيلا .

وقد ازداد اخيراً عدد المصطافين في لبنان من البلدان المنتجة للنفط . فان تدفق الثروة على بعض ابناء السعودية والكويت والعراق وقطر والبحرين دفع بكثيرين منهم الى الاصطياف في جبال لبنان . كان عدد زوار لبنان صيف ١٩٥٣ مئتين وخمسة وثمانين الفاً . ومن اشهر المصايف التي يقصدها الاثرياء الارستقراطيون عين صوفر ، على بعد ١٥ ميلا من بيروت ، وعلى ارتفاع ٤٢٦٥ قدماً، وتقع على متن جبل مشرف على وادي حمانا الشهير . ومنها عاليه على بعد ٩ اميال من بيروت ، وعلى ارتفاع ٢٧٩٠ قدماً ، وضهور الشوير على بعد ١٥ ميلا من بيروت ، وعلى ارتفاع ٤٠٨٥ قدماً. ومن المصايف المعروفة التي يقصدها عامة المصطافين بحمدون وسوق الغرب وبرمانا . وفي الصيف تنتقل الملاهي الليلية من بيروت الى بعض هذه القرى التي قامت فيها فنادق كبيرة عصرية وبانسيونات مريحة . ولا عجب في تدفق الناس صيفاً الى لبنان من البلدان الصحراوية المجاورة له . فان نسيم لبنان العليل بلسم ، ومياهه العذبة الباردة المتفجرة من قلب الجبل بهجة . شروق

الشمس البارزة من وراء القمم المتجلببة بضيائها ، وغروب الشمس وكأنهـا تاج متوهج يغيب وراء افق المتوسط مناظر لا يستطيع الزمن ان ينتزعها من مخيلة المرء الذي يزور لبنان .

وفي لبنان ايضاً نواح اخرى تجذب اليه الزوار ، فهنـاك آثار بعلبك ، ذلك المعبد الروماني الرائع الذي يعد من عجائب الدنيا لجمال بنائه وروعة هندسته . وهنالك آثار تاريخية اخرى ورد ذكرها في التوراة كالارز مثلا ، وفي كتب التاريخ مثل : فينيقية ومدنهـا جبيل (بيبلوس) وصيدا وصور والقلاع الصليبية المنتشرة على سفوح الجبال .

ومن مصادر الدخل الوطني مـا يتقاضاه لبنان من شركات النفط التي مدت انابيبها عبر اراضيه . هنالك خطان لانابيب النفط ينتهيان على شاطىء المتوسط في لبنان ، الواحد في طرابلس والثاني في الزهراني بالقرب من صيدا. وفي سنة ١٩٥٤ كان معدل ما يجري من النفط في هذين الانبوبين ٨٠٠,٠٠٠ برميل يومياً . اما خط طرابلس فقد انشىء زمن الانتداب الافرنسي ، والدخل منه للخزينة اللبنانية ليس دخلا كبيراً . وفي اليوم الاول من شهر كانون الثاني سنة ١٩٥٠ احتفل رسمياً بتدشين مصفاة للبترول انشأتها في طرابلس شركة النفط العراقية لمعالجة الفائض من انتاج النفط من جراء مد خط آخر من كركوك الى طرابلس .

في شهر كانون الاول سنة ١٩٥٠ تدفق نفط السعودية العربية في الزهراني بالقرب من صيدا بواسطة انابيب شركة خطوط الانابيب عبر الصحراء (التابلين) وطول هذا الخط ١٠٦٨ ميلا وهو اطول خط من نوعه في العـالم . وقد دفعت شركة الخطوط هذه الى الحكومة اللبنانية مبلغ ١١٢ الف دولار كحق مرور و ١٢٦ الف دولار لحماية الخط . وتأخذ الحكومة اللبنانية ضريبة قدرها ثلاثة بالمئـة على النفط الذي يصب في صيدا. ولها الحق ان تبتاع من الشركة مئتي الف طن من النفط كل سنة بسعر الانتاج . وتضخ شركة النفط الاميركية السعودية ٣٨ بالمئة من انتاج النفط بواسطة هذه الانابيب التي يتراوح قطرها بين ٣٠ و ٣١ قيراطاً وتمر عبر الصحراء من الخليج العربي لتشحنه ناقلات النفط من الشاطىء اللبناني الى بلدان اوروبة الغربية . وفي اول شباط سنة ١٩٥٥ احتفل بتدشين مصفاة للنفط جنوبي صيدا انشأتها شركة

تملك نصف اسهمها شركة كاليفورنيا تاكساس (كالتكس Caltex) وقد كلف انشاؤها ثمانية ملايين من الدولارات وتديرها شركة البحر المتوسط لتكرير النفط، وهي تجهز لبنان بما يحتاج اليه من النفط . وقد كانت مدينة صيدا الى وقت قريب تغط في سبات العصور المتوسطة . اما الآن فان العمل فيها يجري بمعدل اربع وعشرين ساعة في اليوم وتعد من اكبر المراكز في العالم لتصدير النفط الخام بواسطة ناقلات النفط. ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن الاتفاقات مع شركات النفط عدّلت غير مرة فزاد دخل لبنان منها بعد التعديل .

بيروت بوابة الشرق

ان مدينة بيروت الواقعة وسطاً بين الشرق والغرب اصبحت اليوم من اوسع المدن اعمالا ومن افضل المدن العصرية المجهزة باحدث وسائل الراحة في شرقي حوض المتوسط . ولكونها مقر اعمال الصيرفة على نطاق واسع ومركزاً تجارياً مرموقاً فانها اصبحت في وقت قصير مركز الثقل في الجمهورية اللبنانية، كما ان الجمهورية اصبحت مركز نشاط تجاري للمنطقة باسرها . ففي عالم قيدت فيه اكثر الحكومات المعاملات المالية والقضايا المتعلقة بالعملة وتحويلها ونقلها بقوانين صارمة ، وفي عالم حدت فيه الدول من نشاط التجارة الحرة ، كان من الطبيعي ان تصبح عاصمة لبنان ، بيروت ، سوقاً حرة للعملة والتجارة والاسعار كما يحددها مبدأ العرض والطلب لا كما يحددها النظام والقانون . وفي الاوساط التجارية تعتبر بيروت افضل مركز حساس يعكس الحالة المالية والتجارية ليس في لبنان بل في المنطقة باسرها . ودخل التاجر البيروتي اعلى دخل من نوعه في العالم العربي[1] . وقد هبطت في مطار بيروت الدولي الذي ادخلت عليه تحسينات جمة ١٣,٣٥٨ طائرة في سنة ١٩٥٤ . وهو من اكبر المطارات واحسنها تجهيزاً في الشرق الادنى واخطر منافس لمطار القاهرة كمركز اولي للطرق الجوية . ويربط بيروت بسورية خط حديدي يتفرع منه خط الى بغداد وآخر الى تركيا فاوروبة. وميناء بيروت هو الميناء العصري الوحيد في شرقي المتوسط الذي تستطيع ان ترسو فيه البواخر الكبيرة . وهنالك شبكة طرقات عصرية مزفتة تربط بيروت بالمدن اللبنانية وقرى

---

١ – Charles W. Churchill in *al-Kulliyah*, vol. XXIX (1954), p. 10.

الاصطياف . وفي السنوات العشر الاخيرة قفز عدد السكان فيها من ٢٨٠ الفاً الى يزيد عن نصف مليون نسمة . وسبب هذه الزيادة هجرة القرويين اللبنانيين الى المدينة وسيل من الاجانب جلهم من الاميركيين والاوربيين الذين يتعاطون الاعمال التجارية والصناعية . وقد ازداد عدد السكان في جميع انحاء البلاد لا في بيروت وحدها . ففي سنة ١٩٤٤ بلغ مجموع السكان ١,١٠٠,٠٠٠ وفي عام ١٩٥٥ بلغ ١,٤٠٠,٠٠٠ نسمة مما يجعل كثافة السكان بمعدل ٤٠٣ اشخاص للميل المربع الواحد . ولبنان ، بعد مصر ، يعد من اكثف بقاع الشرق سكانا. وكثافة السكان فيه تقاس بما هي عليه في ايطاليا والمانيا وبريطانيا وايرلندة . وهي اكثر بكثير مما هي عليه في فرنسا[١] . وفي هذا بعض التناقض العجيب : اعلى جبل في المنطقة يصبح اكثر بقعة مزدحمة بالسكان .

الزراعة

تشغل الزراعة الدرجة الثانية في الاقتصاد اللبناني . والفلاح اللبناني يملك ارضه ولم يبق من اثر للاقطاع سوى في بعض مناطق البقاع وعكار . اما في الجبل وفي الساحل فان جميع الاراضي يملكها افراد . بينما في شرقي الاردن والعراق ٢٠ بالمئة من الارض يملكها اشخاص والباقي اراض اميرية . اما في سورية وفلسطين فان نسبة الارض التي يملكها الفلاحون اكثر قليلا مما هي عليه في العراق وشرقي الاردن . ومن المعلوم ان اقتصاد سورية والعراق وفلسطين وشرقي الاردن يعتمد على الزراعة اكثر مما يعتمد عليها الاقتصاد اللبناني .

تقدمت اساليب الزراعة في لبنان تقدماً مرضياً بعد الحرب العالمية الاولى وذلك لان الغلات الزراعية قد تغيرت . فانه بينما كانت تربية دود الحرير وشجرة الزيتون تأتيان في الدرجة الاولى في قائمة الغلال الزراعية اصبح الاعتماد بعد الحرب على زراعة الفاكهة والحبوب والخضار . فقد تلاشى موسم الحرير ، واستحالت مزارع التوت الى جنائن تفاح ،وقد نقب الفلاح اللبناني سفوح الجبال الى ان بلغ علواً كبيراً ، ولم تبق بقعة تصلح للزراعة لم يحرثها ويدرّج سفوحها . وقد نجحت

١ ـ راجع United Nations, *Demographic Yearbook*, 1954, (New York 1954), pp. 103,106,107.

زراعة التفاح نجاحاً عظيماً وادخلت الى البلاد انواع اميركية جديدة لاقت اقبالا عظيماً عند جمهور المستهلكين . وفي سنة ١٩٥٤ احصت وزارة الزراعة ثلاثة ملايين شجرة تفاح يعتمد عليها كلياً أو جزئياً عشرون الف عائلة في كسب عيشهم. وسوقهم الكبيرة لتصدير التفاح مصر والسعودية العربية والعراق . وشجرة التفاح ليست من الاشجار الغريبة عن لبنان بل هي قديمة العهد . يقول المتنبي الشاعر المشهور الذي عاش في القرن العاشر الميلادي :

احب حمصا الى خناصرة وكل نفس تحب محياها
حتى التقى خدها وتفاح لبنان وثغري على حمياها[1]

في ربيع سنة ١٩٥١ عقد لبنان اتفاقية اقتصادية مع الولايات المتحدة يتلقى بموجبها عوناً شاملا في تحسين احوال الريف الاقتصادية والزراعية . وقد شكل في لبنان مجلس للانشاء والتصميم العام الذي قدم قرابة ثلاثين مشروعاً للانماء تتناول الزراعة والري وتحسين احوال الريف وبناء المساكن والتربية والصناعة . وبالرغم من انه كان مشروعاً ضخماً يتناول الريف في الدرجة الاولى الا ان بعض هذا العون خصص لتوسيع ميناء بيروت وتحسين ميناء طرابلس واصلاح الطرق الرئيسية. وكان اهم هذه المشاريع على الاطلاق مشروع جر مياه الليطاني للاستفادة من مياهه التي كانت تذهب هدراً الى البحر في توليد الكهرباء وري اراضي الساحل من القاسمية الى ضواحي بيروت . وهذا النهر الذي يبلغ طوله ١٢٥ ميلا والذي يمر في سهل البقاع من الشمال الى الجنوب فيشطره الى شطرين ، هو نهر لبناني في مصدره وفي مجرى نهره بدءا من نواحي الهرمل الى القاسمية شمالي صور . وقد قامت الحكومة اللبنانية، بالتعاون مع خبراء النقطة الرابعة، بدراسة اولية استغرقت ثلاث سنوات ووضعت مشروعاً لبناء خمسة سدود وحفر قناة من الشرق الى الغرب في قلب جبل طولها ١٩٧٠ قدماً ، وذلك لري ١٨,٦٠٠ هكتاراً ريا تاماً و ٢٩٠٠ هكتار ريا جزئياً في البقاع ، وما تبقى من الماء يوزع في المنطقة الواقعة بين صور وبيروت. وهذا المشروع يزيد مساحة الارض المروية في لبنان بقدر خمسي الاراضي المروية حالياً . واتمام المشروع نهائياً بما في ذلك من مشاريع ثانوية متفرعة يحتاج

---

١ – الديوان (بيروت ١٨٨٧) ص ٥٨٥ .

الى مئة مليون من الدولارات والى خمس وعشرين سنة . وفي شهر آب سنة ١٩٥٥ عقد لبنان قرضاً مالياً قدره ٢٧ مليوناً من الدولارات من البنك الدولي للانشاء والتعمير في وشنطون .

التقدم الصناعي

وبالاضافة الى فوائد الري المرتقبة فان مشروع الليطاني سيجهز البلاد بماتحتاج اليه من كهرباء اذ ستقام خمس محطات لتوليد الكهرباء تستطيع انتاج ١٨١ الف كيلواط . ومما لا شك فيه ان هذه القوة الكهربائية الجديدة ستنعش الصناعة في لبنان . وصناعة لبنان لا تزال في طور التكوين الاولي وتعاني مشاكل جمة سواء اكان ذلك من قلة المواد الخام، ام من ضآلة الرساميل ، ام من عدم توفر الحذق التقني . واكبر صناعة في لبنان صناعة النسيج ، القطني والصوفي والحريري . وتأتي في الدرجة الثانية صناعة الاسمنت والدباغة وتكرير زيت الزيتون وصنع المأكولات المعلبة وصنع الاثاث والخمور والصابون وعود الثقاب . ومعامل هذه الصناعات التي يبلغ عددها الفي معمل منتشرة في ضواحي بيروت . اما الصناعة الثقيلة فلا وجود لها في لبنان .

واجور العمال في لبنان ومستوى عيشهم افضل بكثير مما هي عليه في البلدان العربية الأخرى . غير ان الحكومة اللبنانية تسعى دوماً لرفع مستوى العيش بين العمال ولازالة كل حيف يلحق بهم . ففي سنة ١٩٤٦ وضعت الحكومة قانون العمل الذي ينص على ان يكون عدد ساعات العمل ثماني ، وعلى ان تعطى المرأة الحامل أو العامل المريض عطلة عن العمل. وينص على دفع تعويض في حال الصرف من الخدمة . وبموجب هذا القانون لا يحق استخدام الاولاد الذين هم دون الثالثة عشرة من العمر . وهنالك تقييدات وشروط متنوعة تفرض على صاحب المعمل التقيد بها من حيث الامور الصحية وخلافها . ولكن قوانين العمل في لبنان لم تبلغ بعد درجة الكمال . اذ لا يزال امام الحكومة مجال لتعميم الضمان الاجتماعي ولتقديم العون للعاطلين عن العمل. ولا نستطيع القول بان لبنان قد بلغ درجة عالية في حقل الاعمال الاجتماعية وانما نستطيع ان نقول بانه خطا خطوة كبيرة في سبيل

الترفيه والاعتناء بالايتـام والعميان والعجزة والمرضى . فقد انشئت في السنوات الاخيرة دور للعجزة ومدرسة للعميان وميـاتم كثيرة تعنى بالفقراء منهم . وقد انشئت لهذه الاغراض الاجتماعية وزارة جديدة تعرف بوزارة الشؤون الاجتماعية. وقد بدأ العمال في لبنان يتكتلون في نقابات تعمل لرفع مستواهم. ويسعى الشيوعيون للتغلغل في هذه النقابات . وبالرغم من ان الحزب الشيوعي في لبنـان حزب غير مرخص به فان حرية القول والفكر في لبنان مقدمة . وبفضل هذه الحريـة في القول والفكر تجد في لبنان جماعة من النخبة المفكرة من اطباء ومحامين وكتاب لونها قريب من اللون الاحمر. ولكن لم ينجح بعد شيوعي في لبنان في الوصول الى الندوة اللبنانية أو الى شغل منصب ذي اهمية في الدولة .

ثورة سلمية غير انها ثورة فعالة

لقد عرف لبنان المستقل استقلالا تاماً ناجزاً عهدين من الحـكم : عهد بشارة خليل الخوري الذي تحقق فيه الاستقلال وجلاء القوات الاجنبية وتركيز السياسة اللبنانية الخارجية والداخلية، وعهد كميل نمر شمعون[1]. وقد اعيد انتخاب الرئيس بشارة الخوري في اليوم السابع والعشرين من ايار سنـة ١٩٤٨ لمدة ست سنوات اخرى « اعترافاً بخدماته للبلاد » وكانت مدته القـانونية ستنتهي في شهر تشرين الاول سنة ١٩٤٩ . وقد كان السبب في اتخاذ هذه الخطوة ــ تعديل الدستور لاعادة انتخابه ــ كما كان يقول اعوانه حراجة الموقف في فلسطين. ولكن بشارة الخوري ارغم على الاستقالة قبل انهاء ولايته الثانية . وذلك لان استياء عامـاً ظهر في صفوف المعارضين وجماهير الشعب من جراء السياسة الداخلية الخرقاء التي اتهم بها . فقد فشت الرشوة وحظي المقربون والاعوان بالمناصب والمغانم، وعم الفساد جهاز الحكم ولا سيما دوائر القضاء . ولم تلق الاحتجاجات الصارخة التي كانت تظهر مرة بعد اخرى اذناً صاغيـة . شوائب الحكم في الشرق الادنى عميقـة الجذور . فالولاء للعائلة والاهل بقية من بقايا الولاء للقبيـلة ، والرشوة والفساد مردهما الى ان الحكم يرتكز على الافراد لا على نص القـانون واحترامه . يشعر

١ ــ بعد ان كتب المؤلف هذه الفقرة الاخيرة من كتـابه وقعت « ازمة لبنان » (١٩٥٨) وانتخب اللواء فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية . اي ان لبنان دخل عهده الثالث .

الحاكم ان عليه ان يجازي الحسنة بالحسنة ولو كان ذلك على حساب القانون وعلى حساب الشعب . ولكن الشعب اللبناني اصبح شعباً متمدناً واعيـاً يصبو الى حكم القـانون والعدل . ولما فشلت جميع المحاولات لاصلاح الحال تحالفت الاحزاب المعارضة ودعوا الى الاضراب والمظاهرات في العـاصمة وفي سائر انحاء البلاد . واستقال رئيس الوزراء ، ولم يجروء زعيم آخر ان يشكل وزارة في هذه الاحوال الحرجة . وتفاقمت الحال واستقالت الوزارة بكاملها . فلجأ رئيس الجمهورية الى قائد الجيش لقمع الثورة بالقوة ولكن قائد الجيش رفض الانصيـاع . وكان موقف الجيش اللبناني يختلف اختلافاً جذرياً عن موقف الجيش في العراق وسورية حيث كان الجيش ذاته وقواده هم الذين يقومون بالانقلابات . واخيراً ، في ١٨ ايلول سنة ١٩٥٢ رضخ الرئيس الى ارادة الشعب وقدم استقالته . وبعد خمسة ايام انتخب المجلس النيابي خلفاً للرئيس المستقيل : الاستاذ كميـل نمر شمعون . وكان شمعون زعيما من زعماء المعارضة . وقد تثقف شمعون ثقافة افرنسية ودرس المحاماة ومارسها . وعين وزيراً للمالية والداخلية في وزارات سابقة، ومثّل لبنان في هيئة الامم المتحدة وكان سفيراً لبلاده في بلاط سانت جايمس . ومن زعماء المعارضة الذين قاموا بدور حاسم في الازمة الزعيم الدرزي كمال جنبلاط مؤسس الحزب التقدمي الاشتراكي . ومنهم احمد الأسعد الزعـيم الشيعي من الجنوب وهو احد رؤساء المجلس النيابي. وكان هنالك ايضاً زعماء معارضون من السنة ومن النصارى. وهذه الثورة التي لم يرق فيهـا دم والتي حدثت ضمن الشرعية الديمقراطية ثورة فريدة من نوعهـا في الشرق الادنى . فانها في نطاق الشرعية ايضاً هزمت عهداً ليحل محله عهد اخر بالطرق الديمقراطية السليمة[١]

اختلال التوازن ثم إعادته :

كان عهد الرئيس شمعون عهد ازدهار في الاقتصاد فازداد الدخل الوطني ازدياداً سريعاً من المصدرين المميزين للبنان، وهما الترنزيت والسياحة . وفي حقل

١ – راجع Ziadeh, *Syria and Lebanon*, pp. 126—172, 262—291 .

التشريع تميَّز العهد بمنحه (١٩٥٣) حقَّ التصويت للمرأة اللبنانية وهو أمر لم يسبق له مثيل في البلاد العربية . وفي عام ١٩٥٦ أخذ حكم شمعون يواجه صعوبات كان بدؤها عندما قطعت الدول العربية المجاورة علاقاتها الدبلوماسية مع فرنسا وبريطانيا على أثر هجومهما مع إسرائيل على مصر . أما لبنان فلم يرَ قطع العلاقات من مصلحته . فأصبح شمعون رمزاً لحرية بلاده في العمل وميلها إلى الغرب ، كما أصبح الرئيس المصري جمال عبد الناصر رمزاً للعروبة والاشتراكية والميل نحو اليسار .

وفي صيف ١٩٥٨ انقسم لبنان إلى شطرين : شطرٍ موالٍ وشطر مناوىء يستند على المعونات المالية والحربية من الخارج . وكادت الحكومة أن تفقد السيطرة على البلاد ، ممّا دفع شمعون إلى الاستعانة بالرئيس الأميركي ايزنهاور (١٤ تموز) الذي كان قد عرض المعونة المالية والعسكرية على كل دولةٍ من دول الشرق الأدنى تتعاون على مقاومة النفوذ الشيوعي . وللحال أرسل ايزنهاور عشرة آلاف من جنود البحرية الأميركية . ولم تأت بعمل يذكر لأن الثورة كادت تنتهي . وفي أيلول عند انتهاء مدة الرئيس شمعون خلفه في الرئاسة قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب الذي طلب في الحال سحب الجنود الأميركية فانسحبت .

حاز الرئيس الجديد على رضى الطرفين المتنازعين ، فألّف وزارة ائتلافية . واتجه في سياسته الخارجية نحو عدم الانحياز بحيث أعاد التوازن . واستأنف لبنان سيره نحو الأمام وشعاره « لا غالب ولا مغلوب » . وبرغم أن شهاباً ذو تربية حربية وسليل عائلة ارستقراطية حكمت البلاد قرناً ونصف قرن . فإن إحساسه الاجتماعي ، كما يظهر ، كان أشدّ من إحساس سالفيه . فسن المجلس في عهده قوانين هي بمثابة بدء مرحلة جديدة من الوعي الاجتماعي . وأهمها الضمان الاجتماعي المتضمن الضمان الصحي والعناية بالأطفال والأمومة والضمان ضد الحوادث التي يتعرض لها عمّال الصناعة . وضد الأمراض الناجمة عن الأشغال المهنية . وضمان التعويض المالي لدى إنهاء الخدمة

وفي أيلول عام ١٩٦٤ انتهت مدة رئاسة شهاب . وعندما رفض قبول

التجديد – الأمر الذي يقتضي تعديل الدستور – انتخب المجلس النيابي وزير التربية شارل حلو خلفاً له . وقد تخرج الرئيس حلو من كلية الحقوق في الجامعة اليسوعية في بيروت ، وبعد أن مارس الصحافة تعيّن سفيراً للبنان لدى الفاتيكان وكانت طليعة أعماله محاولة جريئة لتطهير جهاز الحكم في أعلى مستواه ، ولكنه اكتفى بفصل عدد من السفراء والقضاة عن مناصبهم . وفي آخر عهده احتد النزاع مع إسرائيل بداعي تغلغل الفلسطينيين في جنوب لبنان وسفح جبل حرمون وضربهم مستعمرات إسرائيل المجاورة .

ولدى انتهاء مدة الرئيس حلو انتخب المجلس النيابي أحد أعضاء المجلس سليمان فرنجية، وكان يومئذ وزير الاقتصاد ، خلفاً له، وكان ذلك بأكثرية صوت واحد (٥٠ ضد ٤٩) . وبقبوله سجّل الشعب اللبناني مثالاً رائعاً في الحياة النيابية والديمقراطية السياسية .

وقد مرّ على عهده في الرئاسة أكثر من سنة تميّز فيها بكثير من ظواهر الإصلاح والعمران .

وعند انتهاء مدة المجلس النيابي الذي انتخبه بأكثرية صوت واحد كما ذكرنا جرى في نيسان سنة ١٩٧٢ انتخاب مجلس جديد من ٩٩ نائباً وتمّ ذلك في جوّ رائع من الحياد والنزاهة والحرية يصح أن يكون مثالاً يقتدى به في كل بلد تتعدّد فيه المذاهب والعقائد والأحزاب .

قد يبدو لبعض الناس ان التقدم الذي أحرزه لبنان المستقل المستظل تحت راية الأرز طفيف بطيء في زمن يتميز بالسرعة . وفي عصر يعرف بعصر الذرة والنفاثة . ولكن في ثنايا هذا التقدم وتضاعيفه نواة أمل جديد بأن يصبح لبنان يوماً نموذجاً ديمقراطياً يستطيع أن يقوم برسالته العظيمة : أولاً التوفيق بين أسلوب الحياة الشرقية وأسلوب الحياة الغربية . وثانياً التعايش السلمي الودي بين المسيحيين والمسلمين في ظل الحياة الديمقراطية الكريمة. زد على هذا ما يقوم به لبنان من جهود . وما يضعه من برامج وما يبنيه من جسور لربط الشرق بالغرب قد تصبح فيما بعد نماذج تقتدي بها دول أخرى في المنطقة .

فهرس عام

فهرس عام

ال

ابن

ب

ث

ج

ح

خ

ذ

ر

س

ش

ص

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

ل

ن

ه

و

ي

فهرس الخرائط

محتويات الكتاب

القسم الاول

عصر ما قبل التاريخ

الصفحة

القسم الثاني

العصور السامية القديمة

الصفحة

محتويات الكتاب